

تَذْكِرَةُ الْأَوَّلِيَاءِ

فريد الدين العطار النيسابوري

♦ المؤلف : فريد الدين العطار النيسابوري

♦ العنوان : تذكرة الأولياء

♦ ترجمة وتقديم : دكتورة منال اليمني عبد العزيز

♦ الطبعة : الأولى 2015

♦ تصميم الغلاف : عمرو الكفراوي



رقم الإيداع:

٢٠١٤ / ٢٦٥٠٨

الترقيم الدولي : ISBN

978 - 977-765 - 022 - 9

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

4 Mohamed Mazloun st. - intersected with Houda Shaarawy - CAIRO – EGYPT

Tel: +202-2392-6114 Fax: 00202-2392-5917

E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

٤ ش محمد مظلوم - تقاطع هدى شعراوي - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٢٣٩٢٦١١٤ فاكس: ٢٣٩٢٥٩١٧

تَذْكِرَةُ الْأَوَّلِيَاءِ

فريد الدين العطار النيسابوري

ترجمة وتقديم وتعليق

دكتورة منال اليمني عبد العزيز

الجزء الأول

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

العطار، محمد بن إبراهيم العطار النيسابوري.
تذكرة الأولياء - فريد الدين العطار النيسابوري - ترجمة وتعليق
وتحقيق: منال اليمني عبد العزيز
ط ١ القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - ٢٠١٥
٣٢٠ ص ، ٢٤ سم.

رقم الإيداع ٢٦٥٠٨ / ٢٠١٤
الترقيم الدولي 9 - 022 - 765 - 977 - 978
١ - المتصوفون

أ - عبد العزيز ، منال اليمني (ترجمة وتعليق وتحقيق)
ب - العنوان

٩٢٢, ٦٩

«تذكرة الأولياء» للصوفي الكبير فريد الدين العطار

مقدمة الأستاذ الدكتور بديع محمد جمعة



حظيت المكتبة العربية بترجمة العديد من مؤلفات الشاعر الكبير والصوفي المشهود له بالتميز فريد الدين العطار، ومن هذه المؤلفات "منطق الطير" ترجمة الدكتور بديع محمد جمعة، و"إلهي نامه" ترجمة الدكتورة ملكة التركي، و"مصبيت نامه" للدكتور محمد يونس، وهذه كلها منظومات شعرية. أما كتاب "تذكرة الأولياء" الذي تقدمه للمكتبة العربية - بعد أن قامت على ترجمته - باحثة جادة وصبورة هي الابنة العزيزة الدكتورة منال اليمني، فهو الكتاب الثري الوحيد الذي كتبه فريد الدين العطار، والذي حرص على أن يكون أسلوبه سلسًا؛ حتى يكون كتابًا تهذيبيًا في المقام الأول، يستطيع القارئ أن يتعرف من خلال ما كتبه فريد الدين العطار في هذا الكتاب الواقع في جزئين كبيرين على أحوال ومقامات ستة وتسعين وليًا وشيخًا من كبار مشايخ التصوف الإسلامي، وقد كتبه فريد الدين العطار في أواخر القرن السادس الهجري، ومنذ ذلك القرن وحتى اليوم احتفظ الكتاب بقيمته العلمية.

لم يكن العطار في هذا الكتاب مؤرخًا حريصًا على ذكر تواريخ الميلاد أو الوفاة أو غيرها من الأحداث التي يهتم بذكرها المؤرخون أو كتاب تاريخ الأدب، أما العطار فكان داعيًا للتصوف من خلال التركيز على كرامات هؤلاء الأولياء وأولئك الشيوخ الذين ذكر سيرتهم، وأفرد حديثًا مطولًا عن مجاهدات كل منهم، وما قالوه من أقوال مأثورة وحكم ونصائح تثير الطريق للسالكين، كل هذا في عرض شيق وأسلوب بعيد عن التعقيد الذي قد نجده في منظوماته الشعرية؛ مما جعل هذا الكتاب نبراسًا لكل سالك ولكل دارس للتصوف ومشايخه.

وهذه المكانة الكبيرة التي حظيت بها "تذكرة الأولياء" كانت الدافع إلى ترجمته إلى العديد من لغات العالم الغربي والإسلامي ومنها: الإنجليزية والفرنسية والألمانية والتركية، وإن

تأخرت ترجمته إلى العربية؛ حتى يسر الله تعالى لنا وجود مترجمة دقيقة متأنية، جمعت القدرة على الترجمة من الفارسية إلى العربية، كما جمعت المقدرة على فهم الأفكار الصوفية ورموز التصوف ومصطلحاته، هذه المترجمة هي الدكتورة منال اليمني التي بذلت من عمرها ما يزيد عن الخمس سنوات حتى أنجزت ترجمة الجزءين ترجمة متميزة، مع تقديم دراسة أضاءت دروب هذه التذكرة، ويسرت فهمها للقارئ العربي العليم بمسالك الطريق، وللسالك الذي يحاول دخول الطريق لأول مرة في حياته أو حتى لمجرد التعرف على سيرة مشايخه وأقطابه. شكرًا جزيلاً للدكتورة منال اليمني على هذا العمل المتميز، داعيًا الله أن يجازيها عنا خيرًا؛ لما تكبدته من مشقة حتى تجعل ترجمة التذكرة في متناولنا جميعاً، وبخاصة لمن لا يستطيعون الرجوع إليها في متنها الفارسي.

بديع محمد جمعة

٢ / ٧ / ٢٠٠٧ م

تقديم



موضوع البحث هو كتاب «تذكرة الأولياء» لـ «فريد الدين العطار النيسابوري».

ولفريد الدين العطار مؤلفات كثيرة حظي بعضها بالبحث والدراسة مثل: منطق الطير، و«مصبيت نامه» و«الهي نامه»، و«پندنامه»، ومن مؤلفاته المهمة الأخرى «تذكرة الأولياء».

وكتاب «تذكرة الأولياء» - كما يبدو من عنوانه - وضع في شرح أحوال عدد من الأولياء ومشايخ الصوفية. وهذا الكتاب يتمتع بأهمية كبرى للأسباب الآتية:

١ - إن كتاب «تذكرة الأولياء» هو المؤلف الثري الوحيد المعروف لـ «فريد الدين العطار»، والذي يمكن من خلاله معرفة خصائص أسلوبه الثري، وهل كان مبرزاً في نثره كما كان مبرزاً في شعره، إلى حد أنه اشتهر شاعراً وليس أديباً.

٢ - إن كتاب «تذكرة الأولياء» يعد من أقدم المؤلفات الفارسية التي اختصت بتراجم شيوخ الصوفية، وقد حفل بالكثير والكثير من الروايات المنسوبة إلى مشايخ الصوفية، والكرامات المتعلقة بهم، والأقوال المأثورة عنهم.

٣ - إنه يمكن من خلال كتاب «تذكرة الأولياء» تعرف علم التصوف وأصوله ومبادئه، ومفاهيم الصوفية ومعتقداتهم واصطلاحاتهم. وعلى الرغم من أهمية هذا الكتاب، والشهرة الواسعة التي حازها، إلا أنه لم

يحظ بالدراسة والتحليل والترجمة إلى اللغة العربية، وكذلك فإن ما كتب عنه في كتب المؤرخين قليل لا يعدو مجرد التعريف به، سوى الدراسة التي قام بها الدكتور استعلامي عن الكتاب، ونال بها درجة الدكتوراه في الأدب الفارسي وكذلك ما ذكره أحمد ناجي القيسي عنه في كتابه «عطار نامه».

لذا كان من الضروري دراسة الكتاب، وترجمته إلى العربية، ليسهل على القارئ العربي الاطلاع عليه، الاستفادة منه.

والبحث مكون من قسمين:

القسم الأول: وعنوانه دراسة في كتاب «تذكرة الأولياء» وهو مقسم إلى ثلاثة أبواب:

الباب الأول: وعنوانه كتاب «تذكرة الأولياء» ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: يتناول عنوان الكتاب وتاريخ تأليفه.

والثاني: يتناول موضوع الكتاب.

والثالث: مصادر الكتاب.

والباب الثاني: وعنوانه منهج فريد الدين العطار في «تذكرة الأولياء»

ويشتمل على فصلين:

الفصل الأول: يتناول المنهج.

والفصل الثاني: الأسلوب.

والباب الثالث: بعنوان «تذكرة الأولياء: دراسة مقارنة ويشتمل على ثلاثة

فصول:

الفصل الأول: وعنوانه: تذكرة الأولياء بين كتب التصوف العربية والفارسية.

والثاني: يوضح مكانة الكتاب بين مصادر التصوف الإسلامي.

والثالث: يبين القيمة الأدبية والعلمية للكتاب.

ثم تأتي بعد ذلك الخاتمة.

والقسم الثاني:

يشتمل على ترجمة النصف الأول من الكتاب، وتسبقها مقدمة تعرف بمخطوطات الكتاب وطبعاته.

وجدير بالذكر أيضًا أنني اعتمدت في ترجمتي على نسخة نيكلسون؛ لأن هذه النسخة تعد أفضل نسخ «تذكرة الأولياء» للأسباب الآتية:

١ - إن رنولد آلن نيكلسون اطلع على ست مخطوطات في سبيل إعداد هذه النسخة وهي: مخطوطات ليدن، والمتحف البريطاني، ومكتبة باريس الأهلية، وكتالوج أيته، ومخطوط حصل عليه عن طريق إدوارد برون. ونسخة فهرس المخطوطات الفارسية بمكتبة برلين الملكية، ونسخة لاهور المطبوعة طباعة حجرية.

٢ - إن هذه النسخة هي أقرب النسخ إلى المخطوط الذي حصلت عليه للكتاب والذي يرجع تاريخ نسخه إلى ٧٢٥ هـ.

ومن المصادر التي أفادني كثيرًا في إعداد هذا البحث، الدراسة التي قام بها الدكتور محمد استعلامي عن كتاب «تذكرة الأولياء»، والتي نشرت في إيران ونال عليها درجة الدكتوراه، وقد أمدني بها أستاذي الدكتور / فؤاد عبد المعطي الصياد.

وبعد أسأل الله أن أكون قد وفقت في إلقاء بعض الضوء على هذا الكتاب والتعريف به.

والله ولي التوفيق...

وأنتهز هذه الفرصة وأقدم خالص شكري وعظيم امتناني لأستاذي - الدكتور / محمد السعيد جمال الدين، وكذلك أستاذتي الدكتورة / ملكة علي التركي على ما بذلاه معي من جهد في سبيل إتمام هذه الدراسة، جزاهما الله عني خير الجزاء.



تمهيد عن الكاتب ومؤلفاته

إذا أردنا التعريف بفريد الدين العطار فسوف تواجهنا مشكلات عديدة تتعلق بميلاده ووفاته وحتى اسمه؛ وذلك لاختلاف كتب التذاكر، وتأخرها عن عصره.

لذا سنكتفي هنا بإيراد إشارة سريعة للتعريف به نظرًا لأنه قد سبقت دراسته أكثر من مرة، ولضيق مجال البحث عن الخوض في هذا المجال. وعلى هذا فمصنف هذا الكتاب هو «أبو طالب محمد» أو «أبو حامد محمد» بن «أبي بكر» بن «إسحق» الملقب بفريد الدين «المشهور» بـ«العطار»^(١).

كان والده يعمل بالعطارة وورث عنه فريد الدين هذه المهنة^(٢).

ولد فريد الدين العطار في قرية كدكن من أعمال نيسابور في عهد السلطان سنجر بن ملكشاه^(٣).

قضى فريد الدين العطار في نيسابور حوالي ثلاثة عشر عامًا^(٤) والمرجح أنه اشتغل في هذه الفترة بمهنة العطارة التي ورثها عن والده، وأحيانًا كان يحضره خمسمائة مريض فيقوم بمعالجتهم، وفي نفس الوقت انشغل بتأليف الكتب ونظم الأشعار والزهد والسلوك^(٥).

وأَمْضى فريد الدين العطار فترة من عمره في السفر والترحال وفقًا لعادة السالكين فزار الري والكوفة ومصر ودمشق ومكة والهند وتركستان^(٦).

(١) إدوارد جرانفيل برون: تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، نقله إلى العربية الدكتور إبراهيم أمين الشواربي، ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م، (ص ٦٤٣).

(٢) أمير دولتشاه بن علاء الدولة بختيشاه الغازي السمرقندي: تذكرة الشعراء بسعي واهتمام وتصحيح إدوارد برون انكليسي، ليدن ١٣١٨ هـ - ١٩٠٠ م، (ص ١٩٢).

(٣) السابق (ص ١٨٨).

(٤) إدوارد جرانفيل برون: تاريخ الأدب من الفردوسي إلى السعدي، ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربي (ص ٦٤٤).

(٥) فريد الدين العطار: تذكرة الأولياء، بسعي واهتمام وتصحيح رنولد آلن نيكلسون، ليدن ١٣٢٢ هـ - ١٩٠٥ م، النصف الأول (ص د) من مقدمة القزويني.

(٦) إدوارد جرانفيل برون: تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي: ترجمة د. إبراهيم أمين الشواربي، (ص ٦٤٤).

وزار فريد الدين كثيرًا من المشايخ من مكة حتى ما وراء النهر وأدرك صحنبة مجد الدين البغدادي في هذه السفريات واللقاءات^(١).

وتوفي ما بين عامي ٦١٨ هـ^(٢) و٦٢٧ هـ^(٣).

ويقع قبره خارج شاديخ في المنطقة المعروفة بمدينة العظماء بالقرب من نيسابور^(٤). كان فريد الدين العطار ملهمًا بالعلوم والفنون الأدبية والحكمة والكلام ومحيطًا بالعلوم الدينية من تفسير ورواية أحاديث وفقه، وبصيرًا بعلم الأعشاب، وعارفًا بخواص الأدوية والعقاقير، ومدرّكًا لحركة الأفلاك وسير النجوم^(٥).

وللعطار مؤلفات كثيرة أوصل البعض عددها إلى مائة وأربعة عشر مؤلفًا منها: «أسرار نامه»، «الهي نامه»، «خسرونامه»، «مختار نامه»، «مصيبت نامه»، «منطق الطير»، وغيرها من المنظومات بالإضافة إلى ديوان قصائد وغزليات^(٦).



(١) علي أكبر دهخدا: لغت نامه، زیر نظر دکتر محمد معین، دکتر سید جعفر شهیدی، ۱۳۴۵ هـ. ش، (ص ۳۱۰).

(٢) انظر: بدیع الزمان فروزانفر: شرح احوال ونقد وتحلیل آثار شیخ فريد الدين محمد عطار نیشابوري، تهران ۱۳۵۳ هـ. ش، چاپ دوم (ص ۹۱).

(٣) انظر: سعيد نفيسي: جستجو در احوال و آثار تاريخي فريد الدين عطار نیشابوري، تهران ۱۳۲۰ هـ. ش، (ص ۳۹).

(٤) دولتشاه بن علاء الدولة بختيشاه: تذكرة الشعراء (ص ۱۸۹).

(٥) انظر: بدیع الزمان فروزانفر: شرح احوال ونقد وتحلیل آثار شیخ فريد الدين محمد عطار نیشابوري، (ص ۳۸، ۴۱).

(٦) فريد الدين عطار، تذكرة الأولياء، بسعي واهتمام وتصحيح رنولد آلن نيكلسون، النصف الأول، ص (د) من مقدمة القزويني.

القسم الأول



الباب الأول

دراسة في كتاب «تذكرة الأولياء»

كتاب «تذكرة الأولياء»



الفصل الأول

عنوان الكتاب وتاريخ تأليفه



عنوان الكتاب :



ليس هناك شك حول اسم الكتاب فقد أطلق فريد الدين العطار على كتابه اسم «تذكرة الأولياء» حيث قال ما ترجمته:

«وأسميت هذا الكتاب تذكرة الأولياء»^(١).

بينما ينفرد بلوشيه في ذكر أن الاسم الكامل لهذا الكتاب هو: «تذكرة الأولياء وتبصرة الأصفياء»^(٢).

والأرجح أن عنوان الكتاب هو «تذكرة الأولياء» فحسب، وذلك للأسباب الآتية:

١ - إن فريد الدين العطار قال صراحة في مقدمة كتابه: «وأسميت هذا الكتاب «تذكرة الأولياء»».

٢ - إن النسختين اللتين لهما هذا العنوان أو لاهما: من القرن الثالث عشر الهجري - التاسع عشر الميلادي، والأخرى: مخطوطة عام ١١٥٩هـ / ١٧٤٦م^(٣).

أي أنهما نسختان متأخرتان وأغلب الظن أن إضافة «وتبصرة الأصفياء» إلى «تذكرة الأولياء» كان من عمل النساخ.

٣ - إن بلوشيه هو الوحيد الذي انفرد بذكر هذا العنوان «تذكرة الأولياء وتبصرة الأصفياء».

(١) الأصل الفارسي للعبارة: «واين كتاب تذكرة الأولياء نام نهادم».

الشيخ أبي حامد محمد بن أبي بكر إبراهيم الشهير بفريد الدين عطار النيسابوري، تذكرة الأولياء بسعي واهتمام وتصحيح رنولد آلن نيكلسون، ليدن ١٣٢٢هـ - ١٩٠٥م، النصف الأول (ص ٦) من المقدمة.

(٢) أحمد ناجي القيسي، عطار نامه أو كتاب فريد الدين العطار النيسابوري وكتابه «منطق الطير»، بغداد ١٣٨٨هـ، ١٩٧٨م. الطبعة الأولى (ص ٤٣٥).

(٣) السابق (ص ٤٣٥).

- ٤ - إن المؤرخين أجمعوا على أن عنوان الكتاب هو «تذكرة الأولياء»^(١).
- ٥ - أن جميع النسخ الخطية للكتاب والمحفوظة بدار الكتب أو الهيئة المصرية العامة للكتاب والتي يتراوح تاريخ نسخها بين الأعوام ٧٢٥هـ، ١٢٦٧هـ تحمل العنوان نفسه^(٢).
- بناءً على ما سبق يمكن القول إن عنوان الكتاب هو «تذكرة الأولياء»، وإن فريد الدين العطار ذكر هذا العنوان ذاته في مقدمة التذكرة، وإن المؤرخين الذين خلفوه أكدوا هذا العنوان وأجمعوا عليه.



(١) منهم على سبيل المثال:

- محمد نصير ميرزا حسين شيرازي، آثار عجم، ١٣١٤هـ. ش (ص ٧٢).
- رضا قليخان هدايت، تذكرة رياض العارفين، ١٣١٦هـ. ش، چاپ دوم، (ص ١٨٣).
- سعيد نفيسي، جستجو در احوال و آثار تاريخي فريد الدين عطار نيشابوري (ص ١١٠).
- شبلي النعماني، شعر العجم يا تاريخ شعرا وادبيات إيران، ترجمة سيد محمد تقى فخر داعي كيلاني، تهران ١٣٢٧هـ. ش جلد دوم (ص ٨).
- حمد الله بن أبي بكر المستوفى القزويني، تاريخ كزيده، بسعي واهتمام ادوارد برون انكليسي، جلد أول (ص ٧٤٠).
- مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، عني بتصحيحه وطبعه محمد شرف الدين يالتقا ورفعت بيلكه انكليسي، ١٣٦٠هـ. ق، ١٩٤١م، المجلد الأول (ص ٣٨٥).
- إدوارد جرانفيل برون، تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربي (ص ٣٨٥).

(٢) انظر فهرست المخطوطات الفارسية بالهيئة المصرية العامة للكتاب.

تاريخ تأليفه :

لم يُحدد العطار تاريخًا معينًا لتأليف كتابه هذا، واختلفت كذلك آراء المؤرخين حول تاريخ تأليفه، فمنهم من يرى أنه أُلّف في أوائل القرن السادس الهجري^(١)، ومن يرى أنه أُلّف في أواخر القرن السادس أو أوائل القرن السابع^(٢)، ومن يرى أنه أُلّف في أوائل القرن السابع الهجري^(٣) بينما يحدد سعيد نفيسي تاريخ تأليف هذا الكتاب بعام ٦١٧ هـ معتمدًا على ما ذكره بلوشيه من أن العطار أشار في كتابه «تذكرة الأولياء» إلى أنه أُلّف عام ٦١٧ هـ في عهد محمد خوارزمشاه^(٤). وفي الواقع لا تبدو في الكتاب أية إشارة من هذا النوع، كما أن أحدًا من المؤرخين لم يذكر ذلك، ومع هذا يبدو أن الرأي الذي وصل إليه سعيد نفيسي - والذي اتفق معه فيه صاحب كتاب «كارنامه بزرگان ایران»-^(٥) هو الصائب وذلك للأسباب الآتية:

١ - إن العطار لم يذكر هذا الكتاب في أي من منظوماته، وهذا يدل على أنه أُلّف بعد الفراغ من نظمها.

٢ - إن فريد الدين العطار ذكر في منظوماته سن الثلاثين حيث قال في (مختار نامه)^(٦):

(١) د. زهراي خانلر (كيا). فرهنگ ادبيات فارسي دري، ایران، (ص ١٣١).

(٢) د. ذبيح الله صفا، تاريخ ادبيات در ایران، چاپ سوم تهران ١٣٣٩ هـ. ش، جلد دوم از ميانه قرن پنجم تا آغاز قرن هفتم هجري (ص ١٠٢٢).

(٣) د. رضا زاده شفق، تاريخ ادبيات ایران، تهران ١٣٢١ هـ. ش. (ص ٢٣٣).

(٤) جستجو در احوال و آثار تاريخي فريد الدين عطار نيشابوري (ص ٤٩).

(٥) كارنامه بزرگان ایران، ١٣٤٠ هـ. ش، (ص ٢٤٢).

(٦) جدير بالذكر أن فريد الدين العطار ذكر هذه المنظومة كأحد مؤلفاته في مقدمة منظومته خسرو نامه حيث قال:

مصيبت نامه زاد رهروا نست إلهي نامه گنج خسرو انست

جهان معرفت اسرار نامه است پهشت اهل دل مختار نامه است

وترجمتها:

مصيبت نامه زاد السالكين إلهي نامه كنز الملوك

أسرار نامه دنيا المعرفة وجنة العارفين مختار نامه

خسرو نامه فريد الدين ابو حامد محمد بن ابو بكر ابراهيم عطار نيشابوري، بتصحيح واهتمام احمد سهيلي خوانساري، تهران (ص ٣٣).

بحث بالروح ثلاثين عامًا عن أثر للمعشوق
فضلت ولم أدركه^(١).

وذكر سن الأربعين في منظومته «مختار نامه» أيضًا فقال:

كل روح تبصر مرشدًا في الطريق
فهي تبصر بعين الجنون طيلة أربعين عامًا
طالما مر الأربعون (عامًا) ترى شمسًا
وقد فاضت أشعتها من طاقة وجودها^(٢).

وذكر سن الستين والسبعين في هذا البيت من ديوانه حيث قال:

وفي السبعين انحنى ظهرك كالقوس وأنت غافل
هنت بالنوم وتجاوز عمرك الستين كالسهم^(٣).

وذكر سن التسعين في ديوانه حيث قال:

اتضح أمر ذلك الشيخ الذي بلغ التسعين
وفي نفس الوقت عقد زنا^(٤).

فإذا كان العطار قد ذكر بلوغه سن التسعين في أشعاره، وإذا كان قد ألف كتابه «تذكرة الأولياء» بعد الفراغ من منظوماته فقد ألفه إذن بعد بلوغه التسعين من عمره وهذا يتفق مع التاريخ السابق ذكره.

(١) الأصل الفارسي للبيت:

سي سال بجان نشان جانان جستم
من گم شدم و نیافتم او را باز
نقلًا عن بديع الزمان فروزانفر، شرح احوال ونقد وتحليل آثار شيخ عطار، (ص ٧).

(٢) الأصل الفارسي للبيتين:

هر جان که براه رهنمون می نگرد
چون چل بگذشت آفتابی ببند
چل سال بديده جنون می نگرد
کز روزن هر ذره برون می نگرد

نقلًا عن المرجع السابق (ص ٩).

(٣) الأصل الفارسي للبيت:

تو غافلی و بهفتاد پشت شد چو کمان
تو خوش بخفته و عمرت چو تیر رفته ز شست

نقلًا عن المرجع السابق (ص ١٠).

(٤) الأصل الفارسي للبيت:

کاریش بدید آمد کان پیر نود ساله
بر جست و میان حالی بربست زناری

نقلًا عن المرجع السابق، (ص ١٠).

٣ - إن فريد الدين العطار ألف منظومته «لسان الغيب»^(١) وهو في شيخوخته وبعد أن وقعت له حادثة في نيسابور بعد تأليف منظومته «مظهر العجائب» التي مدح فيها الأئمة الإثني عشر، وغالى فيها في وصف مناقب عليّ، مما أثار عليه سخط أحد فقهاء سمرقند الكبار، فاتهمه بالرفض، وأفتى بوجود قتله فثار عليه العامة، وأغاروا عليه، وخربوا داره، ونفوه عن البلدة، وأرادوا قتله لكنه نجا بفضل الله واتجه إلى مكة^(٢).

فإذا أخذنا في الاعتبار أن التذكرة ألفت بعد أن فرغ فريد الدين العطار من تأليف منظوماته، وأنه ألف هذه المنظومة وهو في شيخوخته، فهذا يرجح أن الكتاب ألف في عام ٦١٧ هـ.

٤ - يذكر بديع الزمان فروزانفر في كتابه «شرح احوال ونقد وتحليل آثار» الشيخ فريد الدين عطار «أن خواجه نصير الدين الطوسي (٥٩٧ - ٦٧٢ هـ) التقى بالعطار في نيسابور، وكان العطار في ذلك الوقت شيخاً هرمًا وقال بديع الزمان نقلًا عن ابن الفوطي:

«رآه مولانا نصير الدين أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي بنيسابور وقال: كان شيخاً مفوهًا حسن الاستنباط والمعرفة لكلام المشايخ والعارفين والأئمة والسالكين» والمعروف أن نصير الدين هذا خرج من نيسابور عام ٦١٨ هـ بعد قتل أستاذه قطب الدين المصري في القتل العام في نيسابور^(٣). وبنظرة متفحصة إلى هذا القول يتضح أن العطار كان في هذا العام أي ٦١٨ هـ شيخاً فصيحاً ملمّاً بأقوال المشايخ والعارفين والأئمة والسالكين مدرّكاً لها، فليس ببعيد إذن وهو على هذه الخصال أن يكون قد ألف كتابه هذا في تلك الحقبة من الزمن.

(١) ذكرت معظم المصادر هذه المنظومة على أنها من مؤلفات فريد الدين العطار - وإن كان هناك شك في نسبتها إليه - ومن هذه المصادر على سبيل المثال:

شبلي النعماني، شعر العجم، (ص ٧).

د. ذبيح الله صفا، تاريخ ادبيات در ايران (ص ٨٦١).

سعيد نفيسي، جستجو در احوال و آثار تاريخي فريد الدين، (ص ٩٧).

د. إدوارد برون، تاريخ الأدب من الفردوسي إلى السعدي، ترجمة إبراهيم أمين الشواربي (ص ٦٤٤ و ٦٤٥).

د. ذبيح الله صفا، گنج سخن، شاعران بزرگ پارسي گوی و منتخب آثار آنان، تهران ١٣٤٥، چاپ دوم، جلد دوم از نظامي تا جامي، (ص ١٠٨).

محمد علي مدرسي، ریحانة الأدب في تراجم المعروفين بالكنية واللقب ياكيني وألقاب، تبريز، چاپ دوم، جلد چهارم، (ص ١٤٥).

(٢) انظر: فريد الدين عطار، تذكرة الأولياء، بسعي واهتمام وتصحيح رنولد آلن نيكلسون، (ص ١) من المقدمة.

(٣) ص (١٣).

٥ - يتضح من كتاب «تذكرة الأولياء» أن فريد الدين العطار ألفه بعد أن فرغ من رحلاته - التي استمرت ثلاثين سنة والتي شملت الري والكوفة ومصر ودمشق ومكة والهند وتركستان-^(١) وطوافه، وبعد أن جمع مادته - حيث اطلع على أربعمئة كتاب من كتب الصوفية-^(٢) وحشد كرامات الأولياء والروايات المنقولة عنهم وبعد أن نضجت قريحته.



(١) إدوارد برون، تاريخ الأدب من الفردوسي إلى السعدي، ترجمة د. إبراهيم أمين الشواربي (ص ٦٤٤).

د. عبد الوهاب عزام، التصوف وفريد الدين العطار (ص ٥٥).

(٢) دولتشاه بن علاء الدولة بختيشاه الغازي السمرقندي، تذكرة الشعراء، (ص ١٨٧).

د. بديع محمد جمعة، منطق الطير لفريد الدين العطار النيسابوري، مراجعة وتقديم د. عبد النعيم محمد حسنين، الطبعة الأولى ١٩٧٥م، (ص ٢٣).

الفصل الثاني

موضوع الكتاب

موضوع الكتاب :



إذا كان عنوان الكتاب ناطقًا على ما فيه، فلنقرأ عنوان كتابنا لنعرف مضمونه أو موضوعه. وعنوان كتابنا «تذكرة الأولياء» ويشرح د. حسين مجيب المصري مفهوم لفظ التذكرة فيقول: «جاء في لسان العرب لابن منظور أن التذكرة: ما يستذكر به الشيء وهو أعم من الدلالة والأمانة... وفي تفسير البيضاوي أنها التذكر. هذا هو المعنى اللغوي المعجمي للكلمة إلا أن لها معنى اصطلاحياً إلى ذلك فهي تطلق على كتاب يضم بين دفتيه علماً ما وهذا العلم يتذكره القارئ وبذلك يكون هذا الكتاب مذكراً به فهو كتاب يحتوي على ما فيه الحاجة إلى التذكرة»^(١).

وإذا أردنا أن نطبق المفهوم السابق للفظ التذكرة على مضمون كتابنا لا نطبق تمامًا فنحن أمام كتاب يضم علمًا يتذكره القارئ ويذكره الكتاب به. ولكن أي نوع من العلم يتناوله هذا الكتاب؟.

في الواقع أن الكتاب يترجم لعدد من الأولياء ومشايخ الصوفية الذين عاشوا قبل الغزو المغولي، ويذكر أقوالهم وآراءهم ومناقبهم ومكارم أخلاقهم وما أثر عنهم من روايات، وكما قال العطار: «يشرح مقاماتهم وكراماتهم وحالاتهم»^(٢). ولا يهتم الكتاب كثيرًا بسيرتهم أو حياتهم الخاصة.

ويبدأ الكتاب بالإمام جعفر الصادق وينتهي بحسين بن منصور الحلاج وقد اختلف المؤرخون حول عدد التراجم التي يشملها الكتاب.

(١) جراهام بيلي، الأدب الإسلامي في شبه القارة الهندية الباكستانية، قدم له وعلق عليه وأضاف إليه ونقله عن الإنجليزية د. حسين مجيب المصري، القاهرة ١٩٨٨ م، (ص ١٩٥) من التعليقات.

(٢) الأصل الفارسي للجملة: "بعد از آن شرح مقامات وكرامات وحالات ایشان آغاز نهم بعون الله تعالى".
فريد الدين عطار، تذكرة الأولياء، بسعي واهتمام وتصحيح رنولد آلن نيكلسون (ص ٧) من مقدمة العطار.

فمنهم من قال: إن الكتاب يشتمل على سبع وتسعين ترجمة^(١).

ومن قال: إنه يحتوي على ست وتسعين ترجمة^(٢).

ومن قال: إنه يشتمل على سبعين ترجمة^(٣).

ومن قال: إنه يضم اثنتين وسبعين ترجمة^(٤).

وفي الواقع يمكن ترجيح العدد الأخير للأسباب الآتية:

١ - إن فريد الدين العطار ذكر في مقدمته لكتابه «تذكرة الأولياء» أسماء الأولياء الذين سترجم لهم وأعد لهم فهرساً يشتمل على اثنتين وسبعين ذكرًا^(٥).

٢ - إن القائلين بأن الكتاب يشتمل على سبعين ترجمة ربما لم يطلعوا عليه أو على مقدمة مؤلفه لأنهم إن كانوا قد اطلعوا عليه لكانوا أدركوا بسهولة أنه يشتمل على اثنتين وسبعين ترجمة. وربما هم اطلعوا على نسخ سقطت منها ترجمتان على سبيل السهو أو الخطأ.

٣ - إن جميع النسخ المخطوطة أو المطبوعة للكتاب في أوروبا وإيران قبل القرن العاشر الهجري تحتوي على اثنتين وسبعين ترجمة أما النسخ المتأخرة فتحتوي على ست وتسعين ترجمة^(٦).

٤ - إن الترجمة الأويغورية للتذكرة التي ترجمت في عهد الأمير عليشير نوائي (القرن التاسع الهجري) والتي اطلع عليها الدكتور محمد استعلامي تحتوي على اثنتين وسبعين ترجمة وكذلك فإن التراجم التركية الأخرى التي اطلع عليها تحتوي على نفس العدد^(٧).

(١) د. قاسم غني: تاريخ التصوف في الإسلام، ترجمه عن الفارسية صادق نشأت، راجعه د. أحمد ناجي القيسي، د. محمد مصطفى مراد ١٩٧٢م، الجزء الثاني، (ص ٥٨).

(٢) د. رضا زادة شفق، تاريخ ادبيات ايران، (ص ١٣٣).

(٣) حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، (ص ٣٨٥).

د. سيد علي رضا نقوي، تذكرة نويس در هند وپاکستان، ١٣٤٣ هـ. ش، ١٣٨٣ هـ. ق، ١٩٦٤ م، (ص ٧٥٨).

أحمد سهيلي خوانساري: خسرو نامه فريد الدين ابو حامد محمد بن ابو بكر ابراهيم عطار نيشابوري، تهران ١٣٣٩ هـ. ش، (ص ٥٨).

(٤) سعيد نفيسي: جستجو در احوال و آثار تاريخي فريد الدين عطار، (ص ٩١).

هرمان اته: تاريخ ادبيات فارسي، ترجمه د. رضا زادة شفق، تهران ١٣٥١، (ص ١٥٨).

بديع الزمان فروزانفر: شرح احوال ونقد وتحليل آثار شيخ فريد الدين، (ص ٨٦).

د. إبراهيم الدسوقي شتا: التصوف عند الفرس، (ص ٢٠).

(٥) انظر: فريد الدين عطار، تذكرة الأولياء، النصف الأول، ص (٧، ٨، ٩) من المقدمة.

(٦) فريد الدين عطار نيسابوري، تذكرة الأولياء، بر رسي، تصحيح متن، توضيحات وفهارس دكتور محمد استعلامي، چاپ دوم: ٢٥٣٥ شاهنشاهي (ص ٢٧) من المقدمة.

(٧) السابق، (ص ٢٧، ٢٨) من المقدمة.

٥ - إن نيكلسون ذكر في مقدمته للكتاب أن معظم المخطوطات التي اطلع عليها تتضمن اثنتين وسبعين ترجمة أو أقل، ولكن عدة نسخ منها تشتمل على عشرين أو خمس وعشرين ترجمة إضافية خاصة بشيوخ مشاهير في عصور متأخرة فضمنها نسخته لأن مادتها شيقة لكنه أطلق اسم «تذكرة الأولياء» على الاثنتين وسبعين ترجمة فقط^(١).

٦ - إن د. محمد استعلامي اطلع على نسخة قيمة للكتاب يقال إنها بقيت عن القرن التاسع تنتهي بذكر الحلاج ثم خاتمة الكتاب، وكذلك نسخة أخرى ترجع إلى عام ٩٨٥هـ، تنتهي أيضاً بذكر الحلاج^(٢).

٧ - وجد في أغلب النسخ التي تحتوي على هذه الملحقات أن الخط الذي كتبت به الملحقات غير الخط الذي كتب به النص الأصلي وفي هذا دليل على أن كاتب هذه غير كاتب تلك^(٣).

٨ - أن القائلين بأن الكتاب يحتوي على سبع وتسعين ترجمة أو غير ذلك ظنوا أن الملحق - الذي أضيف إلى الكتاب والذي يحمل عنوان «ذكر متأخران مشايخ كبار رحمة الله عليهم أجمعين» - متعلق بالكتاب أو هو جزء منه. والواقع أن هذا الملحق أضيف إلى الكتاب بعد أن كتب على شاكلته، وذلك لأنه كما ورد في كتاب «عطار نامه»: إن ويلهام بيرسج مؤلف «فهرست المخطوطات الفارسية في برلين عام ١٨٨٨م وجد نسخة مخطوطة للكتاب في مكتبة برلين الوطنية تحتوي على ملحق مكتوب عليه «ذكر متأخران مشايخ كبار رحمة الله عليهم أجمعين على يد أضعف الخلايق وأحقرهم الراجي إلى عفو الله تعالى وغفرانه محمود بن أبي القسم بن عيسى بن حسين بن أبي القسم الكفر بابي»^(٤).

فلماذا لا يكون محمود هذا هو مؤلف هذا الملحق وليس العطار.

٩ - كذلك فإن مجلة «بيام نوين» التي تصدر في طهران نشرت مقالاً لأحد المستشرقين الروس أثبتت فيه أن هذا الملحق لا صلة له بالعطار أبداً^(٥).

وقيل إنها مقتبسة من كتاب مجهول لأحمد بن محمد بن الحسين بن أحمد الطوسي، وإنها قد أضيفت في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي إلى «تذكرة الأولياء» لفريد الدين العطار^(٦).

(١) Faridu "Ddin" Attar, Tadhkiratu, L- Awliya, Edited in the Original Persian, With - Preface Indices and Variants By Reynold A. Nicholson, M.A.P- (7).

(٢) فريد الدين عطار نيسابوري، تذكرة الأولياء، برسي، تصحيح متن، توضيحات وفهارس د. محمد استعلامي، (ص ٣٠).

(٣) المرجع السابق، (ص ٢٨). (٤) أحمد ناجي القيسي، (ص ٤٣٨).

(٥) المرجع السابق، نفس الصفحة. (٦) المرجع السابق، نفس الصفحة.

١٠ - إن فريد الدين العطار قال في ذكر الإمام جعفر الصادق ما ترجمته:

«... لكننا نبدأ بالصادق تبرّكاً... ولما كان من أهل البيت وقد كثرت الأقوال عن طريقته والروايات عنه، نورد عدة كلمات له. ولأنهم جميعاً متساوون، فعندما يرد ذكر له يكون ذكراً للجميع»^(١).

ويتضح مما سبق أن فريد الدين العطار سيكتفي بذكر الإمام جعفر الصادق من أهل البيت جميعاً، لأنه عندما يرد ذكر له فهو ذكر للجميع أي أن فريد الدين لن يذكر أحداً آخر من أهل البيت فكيف نجده بعد ذلك يتحدث عن محمد الباقر أبي جعفر الصادق؟ بناءً عليه فالملاحظات ليست له.

١١ - يتضح مما سبق أن الأسباب التي تدعونا إلى عدم قبول هذه الملاحق كثيرة خاصة إذا استعرضنا معها ما ذكره د. استعلامي حيث قال:

- إن آخر ذكر في هذه الملحقات متعلق بالإمام محمد الباقر وأول ذكر في التذكرة متعلق بالإمام جعفر الصادق ومن ثم يقول: إن أراد العطار أن يورد اسم الإمام الباقر وحالاته في كتابه ألا يذكر الأب قبل الابن؟ وهل يورد سيرة الباقر وأقواله في صفحة أو صفحتين بينما يفرد للشيخ أبي الحسن الخرقاني أكثر من خمسين صفحة من كتابه!.

- إن عدد صفحات الملحقات وحجمها غير متناسق كما ذكر في المثال السابق، وأنه لم يرد مثل هذا التفاوت في التذكرة ويقول وإن رأينا فإنه ليس متعلقاً بشخص مثل الإمام الباقر.

- إن هذه الملحقات غير دقيقة وغير بليغة حيث إنه يقول: ورد في بداية ذكر الإمام الباقر «صاحب باطن وظاهر أبو جعفر محمد باقر» ثم يرد في السطور التالية «كنيت أو أبو عبد الله بود» أي كانت كنيته أبو عبد الله ومن ثم فما أبو جعفر إذن؟^(٢).

ومن ثم ينتهي د. محمد استعلامي إلى أن مجهولاً جمع الروايات المتعلقة بالمشايخ في القرن العاشر الهجري أو الحادي عشر بمراجعة المصادر المتداولة في ذلك الوقت، وأضافها إلى التذكرة وأن هذه الأذكار تفاوتت طويلاً وقصراً حسب ما حصل عليه من معلومات، فظن الكتاب أن هذه الملحقات للعطار وزادوها على نسخ القرن الحادي عشر الهجري^(٣).

ويبدو رأيه هذا صائباً لكل الأسباب التي سبق ذكرها.

(١) الأصل الفارسي للعبارة هو: "... اما بسبب تبرك بصادق ابتدا كنيم.. وچون از اهل بيت بود وسخن طريقت او بيشتر كفته است وروايت ازوي بيشتر آمد، كلمه چند از آن او بيا وريم كه ايشان همه يكي اند چون ذكر او كرده، شود از آن همه بود". فريد الدين عطار، تذكرة الأولياء، النصف الأول، (ص ٩، ١٠).

(٢) انظر: فريد الدين عطار، تذكرة الأولياء، بررسي، تصحيح متن، توضيحات وفهارس د. محمد استعلامي (ص ٢٨، ٢٩).

(٣) انظر: المرجع السابق (ص ٣٠، ٣١).

أقسام الكتاب:

وينقسم الكتاب إلى:

١ - المقدمة:

يبدأ فريد الدين العطار كتابه بمقدمة عربية فصيحة - وهو فيها مقلد للهجويري في كتابه «كشف المحجوب» - تتضمن حمداً لله وتمجيذاً له حيث يقول:

«الحمد لله الجواد بأفضل أنواع النعماء المنان بأشرف أصناف العطاء المحمود في أعالي ذرى العز والكبرياء... ذي العظمة والجبروت والبهاء»^(١).

وتتناول فكرة شائعة عند الصوفية وهي فكرة الفناء والبقاء^(٢) حيث يقول:

«... وربط طرف بقاء المنغمسين في لبحج بحار توحيده بالفناء وخلط شرف فناء المتغلغلين في قعر قرية البهاء بمحض البقاء... وأغناهم بالفناء عن البقاء وبالبقاء عن الفناء»^(٣).

ثم يشهد بعد ذلك بوحداية الله ويشير إلى فكرة وحدة الوجود^(٤) حيث يقول:

(١) فريد الدين عطار، تذكرة الأولياء، النصف الأول، ص (١) من المقدمة.

(٢) الفناء: واحد من أسمى المقامات الصوفية، ويعني سقوط الأوصاف المذمومة والبقاء بقيام الأوصاف المحمودة وفي هذا المقام لا يرى السالك التعينات الظاهرية والموجودات وإنما يرى باطنها وحقيقتها بقلبه الملكوتي لا ارتباطه واتصاله بالمبدأ، وفي هذا المقام يتحرر السالك من الشهوات والرغبات كلية ويفني عن نفسه ويدور في فلك عالم الوحدة وتذوب صفاته البشرية في آثار الربوبية ويفني عن ذاته وعندئذ يبقى بالحق. انظر: أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، الرسالة القشيرية طبعة محمد علي صبيح، (ص ٦١).

د. قاسم غني: بحث در آثار وافكار واحوال حافظ، قسمت اول تاريخ تصوف دار لسلام وتطورات وتحولات مختلفة آن از صدر اسلام تا عصر حافظ، جلد دوم، (ص ١٢٨، ١٢٩).

(٣) فريد الدين العطار: تذكرة الأولياء، النصف الأول، (ص ١) من المقدمة.

(٤) وحدة الوجود: تعني أن الوجود واحد حقيقي ووجود الأشياء عبارة عن تجلي الحق في صورة الأشياء، وهي نزعة فارسية هندية نفذت إلى التصوف الإسلامي عن طريق الصوفي أبي يزيد البسطامي في أواخر القرن الثالث الهجري الذي قال: أنا الشارب والشراب والساقى "وتطورت على يد الحلاج الذي اعتقد بأنه لا موجود إلا الله فهو الوجود الحقيقي وما عداه وجود وهمي لا يقوم إلا به، وروج الشاعر أبو سعيد بن أبي الخير لهذه الفكرة في القرن الخامس الهجري ثم اكتملت ونضجت على يد محيي الدين بن عربي في القرن السابع الهجري ونظريته في وحدة الوجود هي: "لا موجود إلا الله وهو وحده الوجود الحق والمطلق ولا موجود سواء ونحن إن كنا موجودين فإنما كان وجودنا به، والحقيقة الوجودية واحدة لا كثرة فيها ولا تعدد، وما تراه الحواس من كثرات لا يعدو أن يكون صورا ومجالي تنجلي فيها الذات الإلهية.

انظر د. سيد جعفر سجادي، فرهنگ لغات واصطلاحات وتعبيرات عرفاني، ١٣٥٤ هـ. ش، جاب دوم، (ص ٤٨٣).

إبراهيم حامد المغازي، التصوف في عصر الشبستري، بحث غير منشور للحصول على درجة الدكتوراه في الأدب الفارسي، (ص ٩٧-٩٩).

«... ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له يوازيه، ولا نظير له يضاهيه فإن نظرنا إلى الأوصاف الألوهية فلا إله إلا هو وإن تأملنا الوجود فلا هو إلا هو»^(١).

ويشهد أن محمدًا رسول الله ويصلي عليه وعلى آله وأصحابه فيقول:
«ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله ونبيه وصفيه... صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه... وسلم تسليمًا كثيرًا».

ثم يتبع المقدمة العربية بمقدمة فارسية يتحدث فيها عن أسباب تأليفه للكتاب، وهي كما ذكرها كالاتي:

١ - رغبة إخوان فريد الدين العطار في الدين^(٢).
٢ - أن يبقى كتاب تذكرة الأولياء تذكيرًا عن فريد الدين العطار بحيث يذكره كل من يقرأه بالدعاء^(٣).

٣ - أن يستفيد كل من يقرأ التذكرة من كلام المشايخ الذين ورد ذكرهم بها لأن كلام المشايخ فيه فائدتان: الأولى: إذا كان القارئ يرغب في الاستقامة والالتجاء إلى الحق، تقوى همته ويزداد طلبه، والثانية: إن كان مغرورًا، أطاح بالغرور عن نفسه، وحقق قول الشيخ المحفوظ (رحمة الله عليه):

«لا تزن الخلق بميزانك وزن نفسك بميزان الموقنين لتعلم فضلهم وإفلاسك»^(٤).

٤ - أن تجعل الحكايات والروايات التي وردت في كتاب التذكرة قلب المريد والقارئ ثابتًا، وتكون له زادًا وزوَادًا في الدنيا والآخرة فقد قال الجنيد^(٥) حين سئل عن فائدة الحكايات والروايات: إن كلامهم (الأولياء) جند من جنود الله (تعالى) يقوى به قلب المريد ويزوده بالمدد، ودليل هذا القول أن الحق (تعالى) يقول: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾^{(٦)(٧)}.

(١) فريد الدين عطار: تذكرة الأولياء، النصف الأول، ص (١) من المقدمة.

(٢) انظر: السابق، (ص ٣) من المقدمة.

(٣) انظر: السابق، (ص ٤) من المقدمة.

(٥) الجنيد: أبو القاسم جنيد بن محمد النهاوندي ثم البغدادي، أصله من نهاوند ومولده ونشأته بالعراق، كان أبوه يبيع الزجاج فلذلك كان يقال له: القواريري. تفقه على أبي ثور أحد أصحاب الشافعي ببغداد وكان يفتي على مذهب الشافعي، توفي عام ٢٩٨هـ. انظر: أبو بكر ابن هداية الله الحسبي الملقب بالمصنف، طبقات الشافعية، بغداد ١٣٥٦هـ، (ص ١٠).

أبو عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية، تحقيق نور الدين شريعة، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م، (ص ١٥٥).

(٦) سورة هود: الآية ١٢٠.

(٧) انظر: فريد الدين عطار، تذكرة الأولياء، النصف الأول، (ص ٤) من المقدمة.

٥ - إن سيد الأنبياء (صلوات الله عليه) يقول: «عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة» أي أن الرحمة تنزل على خوان المؤمن عند ذكره للأولياء والصالحين كأنها الغيث، وسيكون له نصيب منها بلا شك^(١).

٦ - إن أرواح الأولياء وأقوالهم وما أثر عنهم كانت عوناً لفريد الدين العطار وملجأً وملأذاً يستكين إليه بعيداً عن تقلبات الزمن المضطرب وتحقق له السعادة قبل دنو أجله^(٢).

٧ - إن فريد الدين العطار رأى أن كلامهم هو أفضل كلام بعد القرآن والأحاديث، وأنه شرح للأحاديث والقرآن؛ فأعد هذا الكتاب ليتشبه بهم وإن لم يكن منهم^(٣) «فمن تشبه بقوم فهو منهم»^(٤).

٨ - إن كتاب «تذكرة الأولياء» يشتمل على آيات قرآنية كثيرة وأحاديث، ولما كان القرآن يلزمه لغة ونحوًا وصرفًا مما لا يدركه الكثير من الفرس، فقد حرص فريد الدين العطار على أن يترجم تلك الآيات والأحاديث وغيرها إلى اللغة الفارسية حتى تعم الفائدة للجميع^(٥).

٩ - أن يؤثر كلام المشايخ في تهذيب نفوس من يطالعه لأن عبد الرحمن الإسكافي^(٦) حين سئل عمن يقرأ القرآن ولا يفهمه هل يؤثر فيه؟ فقال: إن القرآن يؤثر فيه كثيرًا وإن كان لا يفهمه فما بال من يقرأ ويفهم ما يقرأه فلا شك أن التأثير هنا سيكون أوقع^(٧).

١٠ - شغف فريد الدين العطار بسيرة المشايخ وأقوالهم وتعلق قلبه بهم فهو لا يستطيع أن يقول أو يسمع سوى كلامهم لذلك فقد جعل منه عملاً يوميًا يشتغل به لصالح أهل الزمان^(٨).

١١ - أن يفيد الناس من السلف الصالح بعد رحيلهم وذلك بمطالعة أقوالهم وقراءة سيرتهم فقد سأل بعض الناس الإمام أبا يوسف الهمداني^(٩) (رحمة الله عليه) ما نفعل - حين

(١) انظر: السابق، نفس الصفحة.

(٢) انظر: فريد الدين عطار: تذكرة الأولياء، النصف الأول، (ص ٤) من المقدمة. (٦٤) انظر السابق، نفس الصفحة.

(٣) ورد هذا الحديث في مسند أحمد بن حنبل، بيروت، ١٩٨٥م، ج٢، (ص ٥٠).

(٤) فريد الدين عطار: تذكرة الأولياء، النصف الأول، (ص ٥) من المقدمة.

(٥) الإمام عبد الرحمن الإسكافي أو الأكافي: اسمه عبد الجبار ويبدو أنه كان معاصرًا للسلطان سنجر السلجوقي وقتل في أحد الاضطرابات المذهبية.

فريد الدين عطار، تذكرة الأولياء، برسي، تصحيح متن، توضيحات وفهارس د. محمد استعلامي (ص ٨٢٤، ٨٢٥).

(٦) فريد الدين عطار: تذكرة الأولياء، النصف الأول، (ص ٥) من المقدمة.

(٧) انظر: السابق، نفس الصفحة.

(٨) أبو يوسف الهمداني: هو يوسف بن أيوب ولد ٤٤١هـ وتوفي ٥٣٥هـ كان زاهدًا وصوفيًا، وتعلم الفقه في بغداد ودفن في مرو وله أثران في الحديث هما: منازل السالكين وزينة الحياة.

فريد الدين عطار، تذكرة الأولياء، برسي، تصحيح متن، توضيحات وفهارس د. استعلامي (ص ٨٢٥).

يمضي الزمان وتواری هذه الطائفة (الصالحون) وجهها في النقاب - حتى نسلم؟ فقال: اقرأوا كل يوم ثمان ورقات من كلامهم، من ثم رأى فريد الدين العطار أن يعد لهم هذه التذكرة^(١).

١٢ - اهتم فريد الدين العطار بتسجيل أقوال المشايخ وشرحها قدر ما يستطيع لأن هذا النوع من الكلام اختفى كلية ولبس المدعون لباس أهل المعاني وعزّ العارفون كالكبريت الأحمر^(٢).

١٣ - إن فريد الدين العطار رأى أنه حل زمان الخير فيه شر ونسى أشرار الناس فيه أخيار الناس؛ فأعد تذكرة للأولياء أسماها «تذكرة الأولياء» كي لا ينسى أهل الخسران أهل السعادة، ويسعون إلى الاعتكاف والخلوة ويشغفون بالأولياء حتى يسعدون السعادة الأبدية^(٣).

١٤ - إن فريد الدين العطار وجد أن كلام الأولياء والصالحين أفضل كلام فهو يحقر الدنيا في عين الرجل، ويذكره بالآخرة ويغرس فيه محبة الحق ويجعله يتزود لطريق لا نهاية له؛ لهذا كان كتابه هذا من جملة الواجبات فمن يقرأه يدرك أي باعث في نفوسهم جعلهم يقولون ما يقولون، ويفعلون ما يفعلون^(٤).

١٥ - أن يكون هذا الكتاب شفيعاً لفريد الدين العطار يوم القيامة^(٥).

وبعد ذلك يختم فريد الدين العطار مقدمته بدعاء إلى الله (تعالى) ألا يحجبه عن هؤلاء القوم وأن يجعل كتابه هذا سبباً للقرب إليه لا البعد عنه. ثم يعقب ذلك بفهرس للكتاب وذكر للأولياء الذين سترجم لهم.



(١) انظر: فريد الدين عطار، تذكرة الأولياء، النصف الأول، (ص ٥).

(٢) انظر: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٣) انظر: المرجع السابق، (ص ٦).

(٤) انظر: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٥) انظر: المرجع السابق، (ص ٧).

هذا وينقسم الكتاب إلى قسمين :



القسم الأول :

ويشتمل على أربعين ذكرًا للأشخاص التالية أسماؤهم :

١ - الإمام جعفر الصادق	٢ - أويس القرني
٣ - الحسن البصري	٤ - مالك بن دينار
٥ - محمد بن واسع	٦ - حبيب العجمي
٧ - أبو حازم المكي	٨ - عتبة بن الغلام
٩ - رابعة العدوية	١٠ - الفضيل بن عياض
١١ - إبراهيم بن أدهم	١٢ - بشر الحافي
١٣ - ذو النون المصري	١٤ - أبو يزيد البسطامي
١٥ - عبد الله بن المبارك	١٦ - سفيان الثوري
١٧ - شقيق البلخي	١٨ - أبو حنيفة الكوفي
١٩ - محمد بن إدريس الشافعي	٢٠ - أحمد بن حنبل
٢١ - داود الطائفي	٢٢ - الحارث المحاسبي
٢٣ - سليمان الداراني	٢٤ - محمد بن السماك
٢٥ - محمد بن أسلم	٢٦ - أحمد بن حرب
٢٧ - حاتم الأصم	٢٨ - سهل بن عبد الله التستري
٢٩ - معروف الكرخي	٣٠ - سري السقطي
٣١ - فتح الموصلي	٣٢ - أحمد الحواري
٣٣ - أحمد خضرويه	٣٤ - أبو تراب النخشي

٣٦ - شاه بن شجاع الكرمانى

٣٨ - أبو حفص الحداد

٤٠ - منصور بن عمار

٣٥ - يحيى بن معاذ الرازى

٣٧ - يوسف بن الحسين

٣٩ - حمدون القصار

القسم الثانى :

ويشتمل على اثنين وثلاثين ذكرًا للأشخاص التالية أسماءهم:

٤٢ - عبد الله بن خبيق	٤١ - أحمد بن عاصم الأنطاكي
٤٤ - عمرو بن عثمان المكي	٤٣ - الجنيد البغدادي
٤٦ - أبو الحسين النوري	٤٥ - أبو سعيد الخراز
٤٨ - عبد الله بن الجلاء	٤٧ - أبو عثمان الحيري
٥٠ - ابن عطاء	٤٩ - أبو محمد بن رويم
٥٢ - يوسف الأسباط	٥١ - إبراهيم الرقي
٥٤ - سمنون المحب	٥٣ - أبو يعقوب النهرجوري
٥٦ - محمد بن فضل	٥٥ - أبو محمد المرتعش
٥٨ - محمد بن علي حكيم الترمذي	٥٧ - أبو الحسن البوشنجي
٦٠ - عبد الله التروغبندي	٥٩ - أبو الخير الأقطع
٦٢ - عبد الله بن منازل	٦١ - أبو بكر الوراق
٦٤ - خير النساج	٦٣ - علي بن سهل الإصفهاني
٦٦ - أحمد بن مسروق	٦٥ - أبو حمزة الخراساني
٦٨ - أبو علي الجرجاني (الجوزجاني)	٦٧ - عبد الله بن أحمد المغربي
٧٠ - عبد الله بن محمد بن خفيف	٦٩ - أبو بكر الكتاني
٧٢ - حسين بن منصور الحلاج	٧١ - أبو محمد الجبري

الفصل الثالث

مصادر الكتاب

اعتمد فريد الدين العطار في تصنيف كتابه على مصادر متعددة، وأشار في مقدمة كتابه وثناياه إلى بعض هذه المصادر إشارات طفيفة، فهو غالبًا لا يذكر المصادر ولا يبين الأسانيد. وتنقسم مصادر «تذكرة الأولياء» إلى قسمين:

أولاً : الروايات الشفوية :

لا شك أن الروايات التي رددتها الألسنة عن مشايخ الطريقة والأولياء وتناقلتها الأفواه، وترامت إلى مسامع فريد الدين العطار، قد شكلت مصدرًا مهمًا من المصادر التي استمد منها مادة كتابه.

فقد قال في ذكر سفيان الثوري:

كما يروي الدراويش عنه.....^(١).

وقال في ذكر الإمام جعفر الصادق:

وقد كثر الكلام عن طريقته وكثرت الروايات عنه....^(٢).

وقد تكونت حصيلته من هذه الروايات من منابع متعددة هي:

١ - بينته العامة :

ولد فريد الدين العطار في قرية «كدكن» التابعة لنيسابور^(٣)، وعاش فيها فترة من حياته. ومدينة نيسابور في عهد شيخنا كانت تعد منبعًا للعلماء، وواحدة من المراكز العلمية المهمة في العالم الإسلامي، بها مدارس كثيرة للشافعية والحنفية، وكانت مقصدًا لكثير من العلماء

(١) انظر: السابق، (ص ١٩١).

(٢) انظر: السابق، (ص ١٠).

(٣) دولتشاه بن علاء الدولة بختيشاه الغازي السمرقندي، كتاب تذكرة الشعراء، بسعي واهتمام وتصحيح إدوارد برون انكليسي، ليدن ١٣١٨هـ / ١٩٠٠م، (ص ١٨٨).

والفقهاء والأدباء والصوفية وطلاب العلم، ذخرت بالعديد من المكتبات المقدسة بنفائس الكتب^(١).

ونيسابور إحدى مدن إقليم خراسان وهو الإقليم الشمالي الشرقي من إيران وكانت حلقة الاتصال بين إيران وآسيا الغربية وأوروبا وأفريقيا وآسيا الشرقية والشمالية. والواقع أن كثيراً من الصوفية عاشوا في هذا الإقليم مثل إبراهيم بن أدهم وشقيق البلخي وبشر الحافي والفضيل بن عياض وأبو يزيد البسطامي وحاتم الأصم وأبو حفص الحداد وأبو عثمان الحيري وغيرهم^(٢). ومثل هذه الظروف البيئية - من حركة علمية ثقافية مزدهرة وتجمع للعلماء والفقهاء والأدباء، وامتزاج حضاري بين شعوب مختلفة، ووجود لعدد من شيوخ صوفية ذاع صيتهم وشاع الحديث عنهم وعن كراماتهم في تلك الأونة - كانت لابد أن تؤثر في شخصية كاتبنا وثقافته، وأن تجعله محيطاً بكثير من الحكايات والكرامات المتعلقة بهؤلاء المشايخ وغيرهم.

٢ - بيئته الخاصة :

نشأ فريد الدين العطار في أسرة متدينة، فقد كان والده مريداً لقطب الدين حيدر^(٣). «وكانت أمه ورعة تقية دينة زاهدة اعتبرها تالية لرابعة العدوية»^(٤). ولا شك أن هذه النشأة جعلته محباً للأولياء شغوفاً بسيرتهم، ووفرت له فرصة الاطلاع على الكثير من الروايات والكرامات المتعلقة بهم.

٣ - رحلاته :

أمضى فريد الدين العطار فترة من عمره في السفر والترحال، زار خلالها مكة ومصر ودمشق والكوفة والري وبلاد الهند والترك.

(١) انظر: الشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، كتاب معجم البلدان، عني بتصحيحه وترتيب وضعه وكتابة المستدرك عليه محمد أمين الخانجي الكتبي بقرائنه على الأديب النحوي أحمد بن الأمين الشنقيطي، الطبعة الأولى اختتام سنة ١٣٢٣هـ، وافتتاح سنة ١٩٠٦م، المجلد الثامن، (ص ٣٥٨، ٣٥٩)، بديع الزمان فروزانفر، شرح احوال ونقد وتحليل آثار شيخ عطار، (ص ٣٨).

(٢) انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، (ص ٣٥٦ : ٣٥٩).

(٣) دولتشاه بن علاء الدولة بختيشاه: تذكرة الشعراء، (ص ١٩٢) وقطب الدين حيدر واحد من كبار العارفين، يتصل نسبه بالإمام عبد الله بن الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) وتنسب إليه الجماعة الحيدرية ويقال: إنه كان يجعل الحديد في يده كالشمع، توفي عام ٦١٨هـ.

فريد الدين عطار، خسرو نامه، بتصحيح واهتمام احمد سهيلي خوانساري (ص ٤٢).

(٤) ملكة علي التركي، منظومة الهي نامه للشاعر فريد الدين العطار، بحث أعدته للحصول على الدكتوراه في اللغة الفارسية وأدائها عام ١٩٧٩م، (ص ٢٧).

وصرح العطار بذلك حيث قال في منظومته «لسان الغيب»:

تطلعت إلى عشق محبوب

فسرت إلى مكة ومصر ودمشق

وظفت الكوفة والري حتى خراسان

وعبرت سيحون وجيحون

واتجهت من الصين إلى ملك الهند وبلاد الترك

مثل أهل الخطا

وفي النهاية استقرت في نيسابور

وذاع صيتي في العالم^(١).

ولا شك أن هذه الرحلات قد هيأت له فرصة الالتقاء بالعديد من الناس على اختلاف درجاتهم من علماء ومشايخ وعامة وصوفية، سمع منهم العديد من الحكايات والروايات والأقوال، وأخذ عنهم الكثير من المعلومات القيمة التي ضمنها كتابه.

٤ - صحبته للمشايخ:

على الرغم من أن فريد الدين العطار لم يذكر صراحة إرادته لشيخ من المشايخ إلا أنه زار كثيرًا من المشايخ من مكة حتى ما وراء النهر^(٢).

ويقال: إنه التحق بخدمة ركن الدين أكاف، وتاب على يده، وحضر حلقة دراويشه^(٣)

(١) الأصل الفارسي للأبيات:

سير کرده مکہ ومصر ودمشق	سر بر آورده به محبوبی عشق
سیحی وجیحونش را ببردہ ام	کوفہ وری تا خراسان گشتہ ام
رفته چون أهل خطا از سوی چین	ملک هند وستان و ترکستان زمین
اوفتاد از من به عالم این صدا	عاقبت کردم به نیشابور جایی

نقلًا عن شبلي النعماني: شعر العجم، (ص ٧).

(٢) علي أكبر دهخدا: لغت نامه، زیر نظر د. محمد معین، د. سید جعفر شهیدی، ۱۳۴۵هـ. ش، (ص ۳۱۰).

(٣) فريد الدين عطار، خسرو نامه، بتصحيح واهتمام احمد سهيلي خوانساري، (ص ۳۶، ۳۷). وركن الدين أكاف: هو ركن الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الصمد بن أحمد بن علي أكاف كان من كبار الوعاظ والزهاد، ولد في "سختن" إحدى قرى نيسابور وكان من تلاميذ الشيخ أبي نصر بن أبي القاسم القشيري وتلميذ أبي سعد بن أبي صادق الحيري وأبي بكر السروي وإسماعيل بن عبد الغافر الفارسي في الحديث صاحب عبد الملك الطبري في سفره للحج وكان يدرس مختصر أبي محمد عبد الله بن يوسف الشافعي م ٤٣٨هـ في فروع الشافعية هناك، ثم اختار العزلة بعد عودته إلى مكة.

وأدرك صحبة الشيخ مجد الدين البغدادي^(١) والشيخ نجم الدين كبرى^(٢). وكذلك أدرك صحبة قطب الدين حيدر في طفولته^(٣).

وصحبته لهؤلاء المشايخ بلا شك وفرت له الاستماع إلى كثير من الحكايات والأقوال والكرامات عن الصوفية، وعرفته بالطريق وسلوكه وخباياه مما أفاده في كتابه.

ثانياً : الكتب المدونة :

ذكر فريد الدين العطار في مقدمة كتابه أنه أفاد من بعض الكتب وإن كان لا يفصح عن أسمائها أو أسماء مؤلفيها إلا في القليل النادر.

فيقول في ذكر أبي حازم المكي:

«وكلامه كثير في الكتب...»^(٤).

ويقول في مقدمة الكتاب:

«وإن أراد شخص أن يستزيد من أقوالهم فإنه سيجدها كثيرة في كتب المتقدمين والمتأخرين»^(٥).

وذكر العطار في مقدمته أيضاً أسماء ثلاثة كتب هي^(٦):

(١) رضا قليخان هدايت، مجمع الفصحاء، ١٢٧١ هـ، الجزء الأول (ص ٣٦٧).

ومجد الدين البغدادي: هو أبو سعيد مجد الدين شرف بن مؤيد البغدادي من كبار مشايخ الصوفية المشهورين، أصله من بغدادك التابعة لخوارزم، كان أبوه ماهراً في الطب، وكان مجد الدين فريد زمانه في العلم والمعرفة. وهو من تلاميذ شيخ الشيوخ نجم الدين كبرى. يقال: إنهم ألّفوه في نهر جيحون متهمينه بعلاقة مع والدته خوارزمشاه، لكن خوارزمشاه ندم بعد قتله والتحق بخدمة الشيخ نجم الدين كبرى.

انظر: فريد الدين عطار، خسرو نامه، بتصحيح واهتمام احمد سهيلي خوانساري، (ص ٣٨).

(٢) فريد الدين عطار: خسرو نامه، بتصحيح واهتمام احمد سهيلي خوانساري (ص ٣٩، ٤١).

ونجم الدين كبرى: هو مرشد الأولياء الشيخ نجم الدين أحمد بن عمر بن عبد الله الخيوي الخوارزمي الملقب بكبرى من كبار مشايخ الزمان وعارفيه، ولد عام ٥٤٠ هـ. قام بالسياحة والتجوال في شبابه وبعد إتمامه التحصيل، وأدرك مجالس كبار العلماء. وكان يتغلب على جميع مناظريه ومناقشيته ولهذا سمي "الطامة الكبرى".

انظر: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٣) محمد علي مدرسي: ربحانة الأدب في تراجم المعروفين بالكنية واللقب ياكني وألقاب، تبريز، جاب دوم، جلد چهارم (ص ١٤٥).

(٤) فريد الدين عطار، تذكرة الأولياء، النصف الأول، (ص ٥٦).

(٥) السابق (ص ٢) من المقدمة.

(٦) السابق نفس الصفحة.

١ - كتاب شرح القلب :

في الواقع ليس لدينا معلومات عن هذا الكتاب سوى ما ورد في كشف الظنون، حيث ذكره حاجي خليفة تحت عنوان «شرح القلوب» وقال إنه في أحوال الأولياء^(١)، وعده المرحوم القزويني من مؤلفات فريد الدين العطار نفسه، وذكر فريد الدين العطار هذا الكتاب في نهاية ذكر أبي علي الجرجاني كأحد أعماله وهو حتى الآن في زاوية النسيان^(٢).

٢ - كتاب كشف الأسرار :

ذكر حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون خمسة كتب تحمل عنوان كشف الأسرار منها: كشف الأسرار في التصوف لأبي الصادق بن الحسن الطبري، وكشف الأسرار في التصوف لأبي الفتوح محمد بن الفضل الشعراني المتوفى ٥٣٨ هـ. و«كشف الأسرار» للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي المتوفى عام ٤٦٣ هـ^(٣). وكل واحد من هذه الكتب الثلاثة يمكن أن يكون هو ما ذكره العطار، وفي الواقع ليس في متناول أيدينا نسخة لأي منهم، ولا نعرف إلى أي كتاب منهم كانت إشارة العطار.

٣ - معرفة النفس والرب :

ذكره د. محمد استعلامي باسم «معرفة النفس» فحسب. وكما قال د. استعلامي هذا الكتاب مجهول ولا يمكن أن نقول أي شيء يتعلق به^(٤). والواقع إننا لم نطلع على هذه الكتب الثلاثة حتى نحدد مدى استفادة العطار منها. وبالطبع ليست هذه الكتب الثلاثة فقط هي التي اعتمد عليها العطار في كتابه، فقد اتضح لنا بعد ترجمة عدد من الأذكار أن العطار أخذ عن كتب أخرى، أغلبها كانت عربية كما ذكر في مقدمة كتابه^(٥).
وجدير بالذكر إننا سنكتفي في هذا الفصل بمجرد الإشارة إلى هذه الكتب على أن نعرف بها ونبين مدى استفادة العطار منها تفصيليًا في الباب الثالث بعون الله.

(١) ج٢. عمود (١٠٤٢).

(٢) فريد الدين عطار، تذكرة الأولياء، برسي، تصحيح متن، توضيحات وفهارس د. محمد استعلامي (ص ١٣).

(٣) انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢ (عمود ١٤٨٦).

(٤) فريد الدين عطار: تذكرة الأولياء، برسي، تصحيح متن، توضيحات وفهارس د. محمد استعلامي، (ص ١٣).

(٥) فريد الدين عطار، تذكرة الأولياء، النصف الأول، (ص ٥).

٤ - اللمع:

لأبي نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي المتوفى (٣٧٨هـ - ٩٨٨م).
وقد أفاد فريد الدين العطار من هذا الكتاب، ونقل منه بعض الحكايات المتعلقة بالمشايخ
وبعض الأقوال والأخبار المأثورة عنهم.

٥ - التعرف لمذهب أهل التصوف:

لأبي بكر محمد بن إسحق البخاري الكلابادي (م ٣٨٠هـ - ٩٩٠م).
أفاد فريد الدين العطار من هذا الكتاب خاصة فيما يتعلق بأقوال الصوفية.

٦ - طبقات الصوفية:

لأبي عبد الرحمن محمد بن حسين السلمي (م ٤١٢هـ - ١٠٢١م).
وأفاد العطار من هذا الكتاب في نقل بعض الحكايات والأخبار عن الصوفية. وكذلك أخذ
عنه الكثير من الأقوال المتعلقة بهم. وهناك ترجمة لطبقات الصوفية باللغة الفارسية الهروية
جمعها أحد تلاميذ شيخ الإسلام أبي إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي من خلال
وعظ أستاذه في مجالس الدرس، وهذه الترجمة عبارة عن كتاب طبقات الصوفية إضافة إلى
موضوعات وأقوال أخرى كان يزيدها الأستاذ على المضمون الأصلي^(١).
وبمقارنة عقدها د. محمد استعلامي بين النص الفارسي للطبقات وبين تذكرة الأولياء
اتضح له أن العطار أفاد من النص العربي، ويجوز أنه لم يكن لديه علم قط بوجود ترجمة السيد
الأنصاري الهروية^(٢).

٧ - حلية الأولياء:

للمحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الإصفهاني (م ٤٣٠هـ - ١٠٣٨م).
أفاد العطار من هذا الكتاب خاصة فيما يتعلق بالحكايات التي رويت عن الأولياء الذين ترجم
لهم.

٨ - الرسالة القشيرية:

لأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري (م ٤٦٥هـ - ١٠٧٢م). أفاد فريد الدين العطار
كثيراً من الرسالة القشيرية فيما يتعلق بالروايات عن المشايخ وكراماتهم وأقوالهم.

(١) فريد الدين عطار: تذكرة الأولياء، بررسي، تصحيح متن، توضيحات وفهارس د. استعلامي (ص ١٣).

(٢) انظر: السابق (ص ١٤، ١٥).

«وترجمت الرسالة القشيرية بعد الإمام القشيري على يد أحد تلاميذه ويدعى أبو علي حسن بن أحمد العثماني إلى الفارسية، وطبع الأستاذ بديع الزمان فروزانفر هذه الترجمة وصححها»^(١). وبمقارنة عقدها د. استعلامي بين ترجمة الرسالة والتذكرة اكتشف أن أغلب عبارات هذه الترجمة بعينها أو بقليل من الاختلاف موجودة في تذكرة الأولياء وبناء عليه فقد قال: إن هذه الترجمة هي أهم مصدر للعطار^(٢).

وقبل أن نؤيد د. استعلامي في رأيه أو نخالفه ننظر في الأمثلة التي ساقها:

المثال الأول:

ترجمة الرسالة	تذكرة الأولياء
جنيد گوید هرگز ندیدم کسی به	جنید گفت که هیچ کس را ندیدم در
عبادت سری نود وهشت سالش بود	عبادت کاملتر از سری که نود وهشت
وهرگز پهلویش بسنز نرسیده بود	سال را و بگذشت که پهلوی بر زمین
مگر اندر علت مرگ ^(٣) .	نهاد مگر در بیماری مرگ ^(٤) .

وترجمتها:

يقول الجنيد: لم أر شخصاً قط
(عبادته مثل) عبادة سري فقد بلغ
الثامنة والتسعين من عمره ولم يكن
قد وضع جانبه على الفراش قط
سوى في علة الموت.

وترجمتها:

قال الجنيد: لم أر شخصاً قط أكمل
في العبادة من سري فقد مرت عليه
ثمانية وتسعون عاماً لم يضع فيها
جانبه على الأرض سوى في
مرض الموت.

(١) انظر: السابق (ص ١٨).

(٢) انظر: السابق (ص ١٨).

(٣) المرجع السابق: نفس الصفحة.

(٤) المرجع السابق (ص ١٩).

المثال الثاني:

ترجمة الرسالة	تذكرة الأولياء
سهل بن إبراهيم كويد: يا إبراهيم	سهل بن إبراهيم كفت: يا إبراهيم
أدهم سفر کردم بیمار شدم، آنچه	أدهم سفر کردم، بیمار شدم، آنچه
داشت بر من نفقه کرد. آرزویی از	داشت بر من نفقه کرد. آرزویی
او خواستم، خری داشت بفروخت	از او خواستم، خری داشت،
و بر من نفقه کرد. چون بهتر شدم	بفروخت و بر من نفقه کرد. چون
گفتم: خر کجا ست؟ گفتم:	بهتر شدم گفتم: خر کجا ست؟
بفروختم. گفتم: بر چه نشینم؟ گفتم	گفتم: بفروختم. گفتم: من ضعیفم
یا برادر بر گردن نشین. سه منزل	بر چه سوار شوم؟ و چه بر نشینم؟
مرا بر گردن همی کشید ^(۱) .	گفتم: یا برادر بر گردن من نشین.
	سه منزل مرا بر گردن نهاد و برفت ^(۲) .

وترجمتها:

يقول سهل بن إبراهيم: سافرت مع
إبراهيم بن أدهم، فمرضت، فأنفق
ما يملكه علي. طلبت منه طلباً
وكان له حمار فباعه وأنفق (ثمنه)
عليّ، عندما شعرت بتحسّن قلتي:
أين الحمار؟ قال: بعته، فقلت: علام
أجلس؟ قال: اجلس على رقبتني يا
أخي. وكان يحملني على رقبته
ثلاثة منازل.

وترجمتها:

قال سهل بن إبراهيم: سافرت مع
إبراهيم بن أدهم، فمرضت، فأنفق
ما يملكه علي، وطلبت منه طلباً
وكان له حمار فباعه وأنفق (ثمنه)
عليّ. وعندما شعرت بتحسّن قلتي:
أين الحمار؟ قال: بعته، قلت:
وعلام أركب وأنا ضعيف؟ وعلى
أي شيء أجلس، فقال: اجلس على
رقبتني يا أخي ووضعتني على رقبته
ثلاثة منازل ومضى.

(۱) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(۲) المرجع السابق، نفس الصفحة.

ويتضح من المثالين ما يلي:

في المثال الأول نجد تشابهاً في المضمون لا العبارة وهذا لأن المصدر في العبارتين كان واحداً وهو النص العربي للرسالة القشيرية.

وفي المثال الثاني نجد تشابهاً في المضمون والعبارة.

ويستفاد من هذا أن العطار كان يأخذ أحياناً عن النص العربي للرسالة القشيرية، وأحياناً أخرى كان يأخذ عن النص الفارسي لها.

٩ - صفة الصفة:

لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي الجوزي البغدادى (م ٥٩٧هـ - ١٢٠١م). أفاد فريد الدين العطار من هذا الكتاب في نقل العديد من الحكايات والأقوال المتعلقة بمشايع الصوفية ويمكن القول إننا نجد ترجمة لعبارات بن الجوزي في «تذكرة الأولياء». ومن المصادر الفارسية التي أشار إليها العطار في كتابه كتاب:

١٠ - كشف المحجوب:

لأبي الحسن الهجویری^(١) (المتوفى ٤٦٧هـ - ١٠٧٥م). اعتمد العطار كثيراً على هذا الكتاب وغالباً ما كان ينقل عنه عين عباراته مع اختلافات بسيطة في اللفظ.

١١ - أسرار التوحيد:

في مقامات الشيخ أبي سعيد لمحمد بن المنور بن أبي سعيد بن طاهر بن أبي الخير (م ٥٧٤هـ - ١١٧٩م).

في الواقع كانت استفادة العطار من هذا الكتاب محدودة ويمكن القول: إنه أفاد منه في الشكل العام أو المنهج باعتبار أنه أقدم مؤلف فارسي كتب في شرح حال أحد الصوفية.

ولا شك أن فريد الدين العطار قد اعتمد على مصادر أخرى غير تلك التي سبق ذكرها. فقد انشغل بجمع حكايات الصوفية سبعين عاماً^(٢)، وطالع أربعمئة كتاب لأهل الطريقة^(٣)

(١) ذكر فريد الدين العطار الهجویری في موضعين من كتابه.

النصف الأول (ص ٢٠٨)، النصف الثاني (ص ٦٨).

(٢) دولتشاه بن علاء الدولة بختيشاه: تذكرة الشعراء (ص ١٨٨).

د. أحمد معوض، شاعر الصوفية فريد الدين العطار وقصته رابعة وبكتاش (ص ٢٤).

(٣) دولتشاه بن علاء الدولة بختيشاه: تذكرة الشعراء (ص ١٨٧).

سعيد نفيسي: جستجو در احوال وآثار تاریخی فريد الدين عطار، (ص ٩١).

إضافة إلى ذلك استند العطار في كتابه إلى العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأقوال المأثورة. فقد كان محيطاً بالعلوم الدينية من تفسير ورواية أحاديث وفقه^(١). وكذلك عمد العطار في «تذكرة الأولياء» إلى الأشعار العربية والفارسية.



(١) بديع الزمان فروزانفر: شرح احوال ونقد وتحليل آثار فريد الدين عطار، (ص ٣٨).

الباب الثاني



منهج «فريد الدين العطار»
في
«تذكرة الأولياء»



الفصل الأول

المنهج

لا شك أن لكل كاتب طريقته في تناوله لموضوع ما، وتتوقف هذه الطريقة على عوامل متعددة منها: طبيعة هذا الموضوع ومضمونه والغرض منه وغيرها من العوامل. وإذا أردنا أن نتعرف طريقة فريد الدين العطار في تناوله لموضوع كتابه تذكرة الأولياء، فسوف نجد أنه قد شرح لنا منهجه في «تذكرة الأولياء» في مقدمته لهذا الكتاب. ويمكن تلخيص منهجه - كما بينه - في النقاط الآتية:

إن فريد الدين العطار حين جمع مادة كتابه حصل على أخبار وحكايات وأقوال كثيرة جدًا إن سجلها كلها خرج الكتاب عن حد الاختصار؛ لذلك فقد انتخب بعض هذه الأخبار والحكايات والأقوال^(١).

إن فريد الدين العطار نقل بعض الأخبار والحكايات والأقوال - التي وردت في كتابه تذكرة الأولياء - عن كتب التصوف المتقدمة السابقة عليه، فكما ذكر بنفسه اطلع على كتاب «شرح القلب» و«كتاب كشف الأسرار» وكتاب «معرفة النفس والرب» ويحتمل أن يكون قد نقل عنها أيضًا^(٢).

وقد سلك فريد الدين العطار في تناوله لـ «تذكرة الأولياء» مسلك الاختصار والإيجاز سواء في سرده لبعض الحكايات، أو في شرحه لبعض الأقوال والحكايات في حالات الضرورة القصوى^(٣).

كذلك يتضح مما ذكره فريد الدين العطار أنه لم يهتم بذكر الأسانيد أو المصادر التي نقل عنها مادة كتابه «تذكرة الأولياء»^(٤).

كما اتخذ فريد الدين العطار جانب الحيطة والحذر قدر استطاعته في نقله لحكايات المشايخ وأقوالهم، فإن كان هناك شك في نسبة رواية أو قول أو كرامة لأحد المشايخ كان يتجاوزها ولا ينقلها. وإن كان هذا لم يمنعه من نقل بعض الحكايات الخاطئة^(٥).

(١) انظر: فريد الدين عطار، تذكرة الأولياء، النصف الأول (ص ٢، ٣) من المقدمة.

(٢) انظر: المرجع السابق، نفس الصفحة. (٣) انظر: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٤) انظر: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٥) انظر: المرجع السابق، (ص ٣).

وبالإضافة إلى ما سبق فقد ذكر فريد الدين العطار أنه لم يتدخل في شرح كلام المشايخ أو تفصيله إلا نادرًا وفي حالات الضرورة القصوى وذلك للأسباب الآتية:

١ - إن فريد الدين العطار رأى أنه من الأدب ألا يقحم كلامه بين كلام الأولياء سوى أنه اضطر إلى ذلك للدفاع عنهم والرد على المنتقدين والمدعين^(١).

٢ - وقد رأى فريد الدين العطار أنه من الأولى بمن يحتاج إلى شرح أو توضيح لكلام الأولياء أن يعود إلى كلامهم ذاته ويشرحه^(٢).

٣ - ويقول العطار أيضًا: إن الأولياء مختلفون فبعضهم أهل معرفة وبعضهم أهل معاملة، وبعضهم أهل محبة، وبعضهم أهل توحيد، وبعضهم يجمع بين كل ذلك، ولكل منهم طريقته التي تفرض عليه رسومًا وآدابًا وعبادة معينة ومفاهيم محددة، لذلك فهو إن شرح حال كل منهم على حدة لخرج الكتاب عن حد الاختصار^(٣).

هذا هو المنهج كما شرحه فريد الدين العطار في مقدمته لـ «تذكرة الأولياء».

لكن بعد الاطلاع على كتاب «تذكرة الأولياء» ودراسته إضافة إلى ما ذكره فريد الدين العطار عن منهجه يمكن القول:

إن فريد الدين العطار كان يبدأ ذكره أو ترجمته لأي من الأولياء بمجموعة من الجمل المسجعة التي تصف صاحب الذكر وتعدد مناقبه وغالبًا ما تكون على وزن اسمه أو لقبه، وهذه الجمل تدل أيضًا على تسلط فريد الدين العطار على المصطلحات والمفاهيم والمعاني الصوفية ومهارته في استخدامها للدلالة على مكانة صاحب الترجمة ومقامه في التصوف. وهذه الجمل غالبًا ما تهئ القارئ لما يقرأه، والمستمع لما يتلى عليه.

مثال:

قال فريد الدين العطار في بداية ذكر إبراهيم بن أدهم:

هو سلطان الدنيا والدين، وعنقاء قاف اليقين، هو كنز عالم العزلة، وخزينة قصر الثروة، هو ملك الإقليم الأعظم، وربيب اللطف والكرم، شيخ الزمان إبراهيم بن أدهم (رحمة الله عليه)^(٤).

(١) انظر: المرجع السابق، (ص ٣) من المقدمة.

(٢) انظر: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٣) انظر: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٤) الأصل الفارسي للعبارة: آن سلطان دنيا ودين، آن سيمرغ قاف يقين، آن كنز عالم عزلت، آن خزينة سراي دولت، آن شاه إقليم أعظم، آن پرورده لطف وكرم، پیروقت ابراهيم بن ادهم رحمة الله عليه. فريد الدين عطار، تذكرة الأولياء، النصف الأول (ص ٨٥).

ويتضح من العبارة السابقة أن إبراهيم بن أدهم كان سلطاناً للدنيا ومن المشهور عنه أنه كان ملك بلخ وكان من أبناء الملوك، وكان سلطان دين، فقد ترك الملك واتجه إلى الحق ثم اعتزل الخلق وأصبح شيخ زمانه.

وجدير بالذكر أن فريد الدين العطار في بدئه لأذكاره في تذكرة الأولياء بهذه الجمل المسجعة لم يكن مبتكراً إنما كان متأثراً بل ومقلداً في ذلك لكتاب التصوف السابقين عليه مثل الحافظ أبي نعيم الإصفهاني في كتابه «حلية الأولياء»، والهجويري في «كشف المحجوب».

وبعد أن يصف فريد الدين العطار صاحب الترجمة ويعدد مناقبه، يمدحه بمجموعة من الجمل التي تبين مكانته في التصوف.

مثال:

قال فريد الدين العطار في ذكر إبراهيم بن أدهم أيضاً:

«كان تقي زمانه، وكان ربيب الإقبال، وكان حجة الزمان وبرهانه، وله في مختلف معاملات الملة وأصناف الحقائق حظ كامل، وكان مقبولاً لدى الجميع»^(١).

وبعد ذلك ينقل فريد الدين العطار مجموعة من الأخبار المتعلقة بصاحب الترجمة، وغالباً ما تتعلق بموطنه ورحلاته وتلقيه العلم، وصحبته للمشايخ وتعرّف بشيوخه وأتباعه.

مثال:

قال فريد الدين العطار في ذكر بشر الحافي:

«كان قد أدرك الفضيل بن عياض، وكان مريداً لخاله علي بن حشرم، وكان عالماً في علم الأصول والفروع. ولد في مرو، وكان يقيم في بغداد»^(٢).

وبعد ذلك يبدأ فريد الدين العطار في سرد مجموعة من الحكايات التي تتعلق بصاحب الترجمة.

وقبل أن نتطرق إلى الحديث عن الحكايات في كتاب «تذكرة الأولياء» يجدر بنا أن نعرف بمبدول لفظ الحكاية، ونبين لماذا لجأ فريد الدين العطار وغيره من شيوخ الصوفية بصفة عامة

(١) الأصل الفارسي للعبارة:

"متقي وقت بود وصديق دولت بود وحجت وبرهان روزگار بود ودار انواع معاملات ملت واصناف حقايق حظى تمام داشت ومقبول همه بود".

انظر: فريد الدين عطار: تذكرة الأولياء، النصف الأول (ص ٨٥).

(٢) الأصل الفارسي للعبارة: فضيل عياض در يافته بود، ومريد خال خود بود على بن حشرم، ودر علم اصول وفروع عالم بود، مولد او از مرو بود، ببغداد نشست فريد الدين عطار، تذكرة الأولياء، النصف الأول (ص ١٠٦، ١٠٧).

إلى إيراد الحكايات في كلامهم.

أما عن مدلول لفظ «حكاية» فقد قال د. أمين عبد المجيد بدوي^(١) في تعريفه للحكاية: «وأما الحكاية... فلا تخرج عن سرد واقعة أو وقائع حقيقية أو خيالية وهي أكثر ما تكون منقولة عن الغير ويرسل الحاكي الكلام فيها على سجيته إرسالاً دون تقيد بقواعد فنية دقيقة». فالحكاية إذن قصة قصيرة يقتصر دور الحاكي فيها على النقل والتعبير.

والقصة قد تتعلق بحادثة من الأحداث وفي هذه الحالة يوجه القاص جل اهتمامه إلى هذه الحادثة دون الأفكار أو الشخصيات، وقد تتعلق بفكرة من الأفكار فيوجه القاص كبير عنايته إلى هذه الفكرة دون الأحداث أو الأشخاص، وقد تدور القصة حول شخصية من الشخصيات فيحاول القاص إبراز ملامح هذه الشخصية وتجسيدها وتحديد اتجاهاتها والعوامل المؤثرة فيها بشتى السبل سواء بإيراد حادثة وقعت لها أو فكرة روجت لها أو أي شيء يعينه على إبراز تلك الشخصية^(٢).

والحكايات في «تذكرة الأولياء» وإن تنوعت من حيث مضمونها - كما سنشرح فيما يلي - إلا أنها جميعاً تحاول أن تبرز شخصية من حيكته هذه الحكايات وتجسدها للقارئ.

هذا عن تعريف الحكاية فماذا عن لجوء مشايخ الصوفية إلى إيراد الحكايات في كلامهم. في الواقع إن بديع الزمان فروزانفر يرجع اهتمام الصوفية بإيراد الحكايات والتمثيل في كلامهم إلى الأسباب الآتية^(٣):

١ - إن الصوفية إن نظموا شعراً، أو عقدوا مجلساً، أو ألفوا كتاباً فهم غالباً ما يوجهون كلامهم إلى العامة، ويهدفون إلى نصحتهم وإرشادهم، ومن البديهي أن البراهين والاستدلالات المنطقية لا تجدي مع العامة؛ لذلك فهم يلجأون إلى الحكاية والقصة في كلامهم للعامة من أجل الوصول إلى الغرض المنشود.

٢ - إن كثيراً من موضوعات التصوف لا يتيسر فهمها بالقول الصريح المباشر (مثل وحدة الوجود والفناء والبقاء مثلاً)؛ لذلك يلجأ الصوفية إلى شرحها وتفسيرها عن طريق الحكاية والتمثيل فتكون سهلة الفهم للعامة.

٣ - إن أغلب كلام الصوفية هو نتيجة للوجد والحال وثمره للمشاهدة والكشف (مثل أقوالهم في الفناء والبقاء والتوحيد والعشق والمحبة والسكر والحيرة) ولا يتيسر فهم مثل ذلك

(١) القصة في الأدب الفارسي (ص ٨٨).

(٢) انظر: السابق، (ص ٨٩، ٩٠).

(٣) شرح أحوال ونقد وتحليل آثار فريد الدين (ص ٥٢).

الكلام للعامة إلا عن طريق الحكاية.

٤ - خاف أغلب الصوفية أن تظهر عقائدهم وينتشر مذهبهم فكانوا يرمزون إلى ما يريدون الحديث عنه عن طريق التمثيل والحكايات، لتصل آراؤهم إلى الناس بطريقة غير مباشر، ويتضح مما سبق أن بعض حكايات الصوفية هدفها النصح والإرشاد، وبعض هذه الحكايات تشرح المفاهيم الصوفية، وبعضها يفسر أقوال الصوفية، وبعضها حكايات رمزية تعبر عن مذهب الصوفية وعقائدهم.

وقد لجأ فريد الدين العطار إلى نقل الحكايات في كتابه «تذكرة الأولياء»؛ لأنها أيسر السبل التي يستطيع بها أن يبلغ مراده، ويوصل مفاهيم الصوفية وأفكارهم لأكبر قدر ممكن من الناس، ويشرح لهم بها أقوال الصوفية واصطلاحاتهم ويطلعهم على آدابهم ورسومهم، ويبين لهم طيب أخلاق الأولياء وحسن معاملتهم، وكان هدفه هو نصح العامة وإرشادهم، فهم عندما يطلعون على هذه الحكايات، يحسن اعتقادهم بالأولياء، ويحاولون اتباعهم والسير على نهجهم.

والحكايات في «تذكرة الأولياء» متنوعة المضامين وإن كانت جميعها تهدف إلى إبراز شخصية الولي، وإيجاد حسن الاعتقاد به؛ فيتبعه الناس ويسيروا على نهجه.

وكما قلنا، فالحكايات متنوعة يمكن تصنيفها إلى ما يأتي:

حكايات تتعلق بكرامات الأولياء:

وكتاب «تذكرة الأولياء» يزخر بمثل هذه الحكايات.

مثال:

قال فريد الدين العطار في ذكر مالك بن دينار (رحمة الله عليه):

إن مالكا كان قد جلس في سفينة، ولما طلب منه أهل السفينة الأجرة، قال: لا أملك شيئا، فضربه حتى فقد وعيه، ولما تاب إلى رشده، طالبوه بالأجرة ثانية، فقال: لا أملك نقودا، فهموا أن يلقوا به في البحر، فظهر ما كان في البحر من سمك، وفي فم كل سمكة ديناران من الذهب، فمد مالك يده، وأخذ دينارين من سمكة، وأعطاهما لهم، ولما رأى ملاحو السفينة ذلك خروا أمام قدميه^(١).

حكايات تتعلق بمجاهدات الأولياء ورياضاتهم:

وهذه الحكايات منتشرة على طول الكتاب.

(١) انظر: فريد الدين عطار، تذكرة الأولياء، النصف الأول (ص ٤١).

مثال:

قال فريد الدين العطار في ذكر أويس القرني (رضي الله عنه):
يروى عن أويس: أنه لم ينم الليل قط طوال عمره، وكان يمضي ليلة في القيام وليلة في الركوع وليلة في السجود^(١).
حكايات تتضمن أخبارًا متعلقة بصاحب الترجمة:
وهذه الحكايات منتشرة في كتاب «تذكرة الأولياء».

مثال:

قال فريد الدين العطار في ذكر محمد بن السماك (رحمة الله عليه): يروى عن محمد بن السماك، أنه كان أعزبًا، ولم يرد أن يتزوج؛ لأن زوجه سيكون لها شيطان، وهو له شيطان، ووجود شيطانين في بيت واحد أمر لا يطيقه محمد بن السماك^(٢).
حكايات تتعلق بآداب الأولياء ورسومهم:
وهي متوافرة في كتاب «تذكرة الأولياء» وتبين آدابهم في الصحبة والجيرة والسماع والخلوة والعبادات مثل الصلاة. وسنورد مثالًا على آداب الأولياء في الصحبة.

مثال:

قال فريد الدين العطار في ذكر إبراهيم بن أدهم (رحمة الله عليه):
يروى أن سهلاً بن إبراهيم سافر مع إبراهيم بن أدهم، وحدث أن مرض؛ فأنفق إبراهيم عليه كل ما كان معه، فطلب سهل منه طلبًا، ولم يكن لديه شيء؛ فباع حماره ولبى له رغبته، ولما تماثل سهل للشفاء، ولم يجد الحمار، قال لإبراهيم: وعلام أجلس؟ قال له إبراهيم: على كتفي، وحمله على عنقه ثلاثة منازل^(٣).
حكايات تتعلق بطيب أخلاق الأولياء وحسن معاملتهم:
وهذه الحكايات وردت كثيرًا في «تذكرة الأولياء».

مثال:

قال فريد الدين العطار في ذكر مالك بن دينار (رحمة الله عليه):

(١) انظر: السابق (ص ٢١، ٢٢).

(٢) انظر: فريد الدين عطار: تذكرة الأولياء، النصف الأول (ص ٣٣٦).

(٣) المرجع السابق (ص ٩٦).

يروى أن مالكا كان قد استأجر داراً أمام دار يهودي. وكان محراب دار مالك ملاصقاً لباب اليهودي، فأراد اليهودي أن يؤذيه؛ فحفر حفرة وأعد لها منفذاً قرب المحراب، وكان يقضي فيها حاجته، فتسرب النجاسة إلى دار مالك، ومع هذا لم يغضب مالك وكان يكظم غيظه^(١).
حكايات تبين مدى توكل الأولياء على الله واعتمادهم عليه وثقتهم به:
وتكثر مثل هذه الحكايات في كتاب «تذكرة الأولياء».

مثال:

قال فريد الدين العطار في ذكر رابعة العدوية (رحمة الله عليها):
قصدت رابعة الحج ذات مرة، وحدث أن نفق حمارها الذي كانت تحمل عليه متاعها في البادية، فعرض عليها الناس المساعدة، لكنها أبت وقالت: إنها جاءت متوكلة على الله، وناجت ربها مناجاة ما كادت أن تنتهي منها؛ حتى نهض حمارها، فوضعت متاعها عليه ومضت^(٢).
حكايات تتضمن شرحاً لبعض المفاهيم الصوفية:
مثل الفناء والبقاء ووحدة الوجود وغيرها.
وقد وردت مثل هذه الحكايات متفرقة في كتاب «تذكرة الأولياء».

مثال:

قال فريد الدين العطار في ذكر أبي يزيد البسطامي (رحمة الله عليه):
يروى أن أبا يزيد كان يتحدث عن الحقيقة ذات يوم، وكان يمص شفثيه ويقول: أنا الشارب والشراب والساقى أيضاً^(٣).
وفي هذه الحكاية إشارة إلى فكرة وحدة الوجود.
حكايات تتعلق بحوادث وقعت للأولياء وجعلتهم يتجهون إلى الحق:
وقد ذكر كتاب «تذكرة الأولياء» بمثل هذه الحكايات التي تبين سبب توبتهم وسلوكهم السلوك القويم.

مثال:

قال فريد الدين العطار في ذكر عبد الله بن المبارك (رحمة الله عليه):

(١) المرجع السابق (ص ٤٤).

(٢) انظر: المرجع السابق (ص ٦١).

(٣) انظر: المرجع السابق (ص ١٥٩).

وكان سبب توبته أنه فتن بجارية، فوقف تحت حائط دارها ليلة كاملة حتى صباحها، وكانت ليلة قارصة البرد. ولما أذن لصلاة الفجر وكان يظنها العشاء، خجل من نفسه إذ وقف ليلة كاملة موافقة لهواه بينما كان يمل إذا قرأ الإمام سورة طويلة في الصلاة، وتاب^(١).
 إذن فالحكايات في «تذكرة الأولياء» متنوعة المضامين كما سبق أن ذكرنا، وإن كان هدفها واحد، وهي كثيرة جداً فقد زخر كتاب تذكرة الأولياء بكم هائل من هذه الحكايات.
 وقد أحصى بديع الزمان فروزانفر عدد هذه الحكايات فوجدها تسعمائة وثمان وثمانين حكاية منها:

خمسمائة وأربع وأربعون حكاية في النصف الأول.
 أربعمائة وأربع وأربعون حكاية في النصف الثاني^(٢).
 وجدير بالذكر أن عدد الحكايات يختلف من ذكر لآخر حسب مكانة صاحب الذكر في التصوف، وحسب المادة المتوافرة لفريد الدين العطار.
 فقد ذكر فريد الدين العطار سبع وثمانين حكاية عن أبي يزيد البسطامي.
 وبعد أن يسرد فريد الدين العطار الحكايات المتعلقة بصاحب الترجمة يذكر الأقوال المأثورة عنه، ويمكن تصنيف هذه الأقوال بدورها إلى:
 أقوال تعرف بمقامات الصوفية:
 مثل: التوبة والزهد والفقر والتوكل والخوف والرجاء والورع.
 أقوال تعرف بأحوال الصوفية:
 مثل: العشق والمحبة والرضا والتسليم والأنس والتوحيد.
 أقوال تعرف بآداب الصوفية:
 مثل: التواضع والطاعة والقناعة والصدق والتقوى والخشوع في الصلاة والجهاد.
 أقوال توحى ببعض المفاهيم الصوفية:
 مثل: وحدة الوجود والفناء والبقاء.
 أقوال توضح معاني ألفاظ تدور بين الصوفية:
 مثل: الصدق والإيثار والجوع والتصوف والفتوة والإلهام واليقين.

(١) المرجع السابق (ص ١٧٩).

(٢) شرح أحوال ونقد وتحليل آثار فريد الدين (ص ٥١).

أقوال تعرف بأنواع من الناس:

مثل: المؤمن والمنافق والأحمق والبخيل والحقود والفاسق.

وكذلك هناك أقوال تتضمن نصائح وإرشادات.

وهذه الأقوال كثيرة ومنتشرة على طول الكتاب، ويختلف مفهوم كل قول منها من شيخ إلى آخر.

وعلى هذا فكتاب «تذكرة الأولياء» يحظى بكم هائل من الأقوال أيضًا. وقد أحصى بديع الزمان فروزانفر عدد هذه الأقوال فوجدها ألفين وثمانمائة وأربعة وستين قولاً منها:

ألف ومائة واثنان وتسعون قولاً في النصف الأول من تذكرة الأولياء.

وألف وستمائة واثنان وسبعون قولاً في النصف الثاني من تذكرة الأولياء^(١).

ولا شك أن عدد هذه الأقوال يختلف من ذكر إلى آخر حسب مكانة صاحب الذكر في التصوف، وحسب المادة المتوافرة لفريد الدين العطار.

وقد بلغ عدد الأقوال التي ذكرها فريد الدين العطار عن أبي الحسن الخرقاني أربعمائة وتسعة قولاً^(٢).

وجدير بالذكر أن فريد الدين العطار كان أحياناً يورد مجموعة من الأقوال، ثم ينقل بعدها مجموعة من الحكايات، لكنه كان في أغلب الأحيان يسرد مجموعة من الحكايات المتعلقة بصاحب الترجمة، ثم يتبعها بمجموعة من الأقوال.

وبعد أن ينقل فريد الدين العطار الأقوال المأثورة عن صاحب الترجمة، كان أحياناً ينتقل إلى ذكر مناجاته، لكنه في أغلب الأحيان كان ينتقل بعد ذكر الأقوال مباشرة إلى الحديث عن وفاة صاحب الذكر والكرامات المتعلقة بها.

ثم يختتم الذكر بالدعاء لصاحبه بالمغفرة والرحمة.

وبناء على ما سبق يمكن تلخيص منهج فريد الدين العطار فيما يلي:

إن فريد الدين العطار كان يبدأ الذكر بمجموعة من الجمل المسجعة في مناقب صاحب الذكر، ثم يمدحه بمجموعة أخرى من الجمل التي تبين مكانته في التصوف، ثم يورد بعض الأخبار المتعلقة بصاحب الذكر، ثم يسرد الحكايات التي رويت عنه، ثم ينتقل إلى ذكر الأقوال المأثورة عن صاحب الذكر، ثم ينتقل إلى الحديث عن وفاته وكراماته عند الوفاة، ثم الدعاء له بالمغفرة والرحمة.

(١) المرجع السابق (ص ٥١).

(٢) انظر: المرجع السابق (ص ٨٧).

الفصل الثاني

الأسلوب

تعد الفترة ما بين أواسط القرن الخامس الهجري وحتى أوائل القرن السابع الهجري من أزهى فترات اكتمال النثر الفارسي ونضجه، ففي هذه الفترة ظهر كثير من الكتاب الفرس الكبار، وألفت العديد من الكتب المتعلقة بالحكمة والعرفان والعلم والأدب، ولم تترك هذه الكتب مجالاً من المجالات إلا وطرقته، وراج تأليف الكتب الفارسية إلى جانب العربية، وكانت قوة الصوفية وانتشار التصوف - في هذه الفترة - سبباً من أسباب رواج النثر، وألفت عدة كتب صوفية بالنثر الفارسي تناول مسائل صوفية مختلفة: من بيان لأصول التصوف وشرح لأحوال الصوفية^(١). وإلى هذه الفترة ينتمي كتاب «تذكرة الأولياء»، وكتاب «تذكرة الأولياء» وإن كان قد تأثر بسمات الأسلوب في تلك الفترة^(٢) كاستعمال للألفاظ والتركيبات العربية وإيراد للشعر ضمن النثر، فإن له سمات أخرى قد أخذها عن العهد الساماني^(٣) أو استمدتها من الأسلوب القديم أو انفرد بها سنورها فيما يلي.

خصائص أسلوب فريد الدين العطار في تذكرة الأولياء:

قبل الحديث عن خصائص أسلوب فريد الدين العطار في «تذكرة الأولياء» لابد أن نتذكر أن فريد الدين العطار كان قد اعتمد في تصنيف كتابه على مصادر متعددة استمد منها مادة كتابه كما سبق شرحه، وهذا الأمر جعل أحد المؤرخين يقول: «إن نثر تذكرة الأولياء ليس نثراً خاصاً

(١) انظر د. ذبيح الله صفا، تاريخ ادبيات در ايران، جلد دوم، (ص ٨٧٨ : ٨٧٩).

(٢) تحول النثر منذ أواسط القرن الخامس وحتى أوائل القرن السابع من نثر بسيط سلس إلى نثر متكلف مصنوع يمتزج كثيراً بالعربية وترك الكتاب الإيجاز واهتموا بالإطناب والوصف والتمثيل وظهرت الألفاظ والتركيبات والاصطلاحات الجديدة وراج استعمال الشعر ضمن النثر.

انظر: المرجع السابق (ص ٨٧٩ ، ٨٨٠).

(٣) يتسم الأسلوب في العهد الساماني بأنه كان بسيطاً وموجزاً وغير مصطنع ومرسلاً وكانت تختلط فيه الألفاظ الفارسية بالعربية.

انظر: محمد تقي بهار (ملك الشعرا)، سبك شناسي يا تاريخ تطور نثر فارسي، تهران، جلد دوم (د) من المقدمة (ص ٢٠٥).

بفريد الدين العطار؛ لأن كتاب العطار مؤلف من أجزاء مقتبسة من الكتب الأخرى، وإن كانت هناك عبارات من عنده في بعض الأحيان، فقد اتبع أسلوب الشخص الذي أخذ عنه، وحتى مقدمة التذكرة - التي كتبها بفكره وقلمه - مشابهة لأسلوب التأليف الذي يلاحظ في متن الكتاب وطريقة تناوله التي تشبه طريقة الهجويري والعثماني (مترجم الرسالة القشيرية) اللذين اتبعهما العطار، وكلما ترجم العطار رواية من الكتب العربية كتبها بعبارات فارسية على نفس نمط المترجمين السابقين عليه كالهجويري والعثماني^(١).

هذه هي وجهة نظر د. محمد استعلامي في نشر «تذكرة الأولياء». لكن لا يمكننا أن نسلم بهذا الرأي للأسباب الآتية:

(١) إن فريد الدين العطار صنف هذا الكتاب بعد أن نظم العديد من المنظومات الصوفية الرائعة، وبعد أن نضجت قريحته، فكان تصنيف مثل ذلك الكتاب أمراً سهلاً بالنسبة له.

(٢) كان لابد لفريد الدين العطار أن يتأثر بالمصدر الذي ينقل عنه وإن كان - كما ذكر د. استعلامي - كلما ترجم رواية من العربية كتبها بعبارات فارسية على نفس نمط المترجمين السابقين له كالهجويري والعثماني فسنجد أنه لم ينقل عن الهجويري والعثماني فحسب، وإنما نقل عن مصادر تصوف عربية أيضاً وأنه كلما كان ينقل رواية كان ينقلها على نفس النمط لا بنفس الألفاظ، فعندما كان ينقل عن مصدر فارسي، كان يبدل الألفاظ القديمة بألفاظ حديثة مثلاً. وعندما كان ينقل عن مصدر عربي كان يسعى جاهداً للحفاظ على مضمون الرواية، وإن اضطره هذا إلى استعمال ألفاظ عربية بعينها وردت في المصادر التي نقل عنها وذلك تأكيداً للمعنى وحفاظاً عليه.

(٣) إن كان فريد الدين العطار قد أخذ معظم مادته من المصادر السابقة عليه؛ لأن طبيعة موضوع كتابه قد فرضت عليه ذلك فليس معنى هذا أنه كان مجرد ناقل، لأنه تدخل بإبداء رأيه في بعض المسائل الصوفية التي تعرض لها.

(٤) إن تأثر فريد الدين العطار باللغة العربية - الذي بدا جلياً في كتابه - لا يرجع لكونه مجرد ناقل عن مصادر عربية ولكن يرجع إلى:

أ - رواج اللغة العربية وازدهارها في فترة تأليف الكتاب والفترة السابقة عليها.

ب - معرفة فريد الدين العطار بالعربية.

(١) انظر: فريد الدين عطار: تذكرة الأولياء، برسي، تصحيح متن، توضيحات وفهارس د. محمد استعلامي (ص ٢٤).

ج - رواج المؤلفات الصوفية العربية وانتشارها منذ أواخر القرن الرابع الهجري وحتى أوائل القرن السابع الهجري.

د - إفادة فريد الدين العطار من المصادر الصوفية العربية ونقله عنها.

هـ - ازدياد نفوذ الدين الإسلامي، وانتشار المدارس الدينية وتعددتها في أنحاء البلاد، وإقبال الطلاب عليها.

وجدير بالذكر أن فريد الدين العطار كان قد أورد في كتابه بعض الألفاظ والتركيبات وأحياناً العبارات العربية؛ حفاظاً على المعنى فقد كان حريصاً على تأكيد المعنى الذي يريده، ومع ذلك كان فريد الدين دائماً يترجم العبارات العربية التي ينقلها إلى الفارسية؛ حتى يعرفها من لا يفهمون العربية.

(٥) أما عن مقدمة الكتاب فقد قال د. استعلامي عنها: إن فريد الدين العطار كتبها بفكره وقلمه.

بناء على ما سبق يمكن القول: إن أسلوب «تذكرة الأولياء» هو أسلوب فريد الدين العطار ولاشك، إذن ما هي خصائص أسلوب العطار في تذكرة الأولياء؟

قسم محمد بن عبد الوهاب القزويني خصائص أسلوب «تذكرة الأولياء» إلى خصائص نحوية، وخصائص صرفية، وخصائص لغوية^(١) (صوتية).

ويمكن أن نضيف إلى التقسيم السابق الخصائص البلاغية وخصائص أخرى، إضافة إلى رسم الخط أو طريقة الكتابة.

أولاً : الخصائص النحوية :

(١) كان فريد الدين العطار يورد الفعل مع الجمع واسم الجمع مصرفاً مع الضمير المفرد الغائب (او)^(٢) وهذه سمة من سمات الأسلوب في القرنين الخامس والسادس^(٣).

مثال (١) :

«آدم وحواء بمرد ونوح وإبراهيم خليل بمرد»^(٤).

وترجمته:

«مات آدم وحواء، ومات نوح وإبراهيم الخليل».

(١) فريد الدين العطار، تذكرة الأولياء، النصف الأول، "ص بط" من مقدمة القزويني.

(٢) انظر: المرجع السابق، (ص ك) من مقدمة القزويني.

(٣) فريد الدين العطار، تذكرة الأولياء، برسي، تصحيح متن، توضيحات وفهارس، د. محمد استعلامي (ص ٢٧).

(٤) فريد الدين العطار، تذكرة الأولياء، النصف الأول (ص ٢٠).

والفاعل هنا آدم وحواء جمع والفعل (بمرد) مصرف في الماضي المطلق مع الضمير (او) في حين أنه كان يجب أن يصرف مع الضمير (ايشان) أي (بمردند) ونفس القول ينطبق على الشق الثاني من العبارة.

مثال (٢):

"بیشتر خلق از معاني آن بهره نمی توانست گرفت" (١).

وترجمته:

"لا يستطيع أغلب الخلق الاستفادة من معانيها".

والفاعل هنا (بیشتر خلق) وهو اسم جمع في حين أن الفعل مصرف مع الضمير الثالث (او) وكان يجب أن يكون (نمی توانستند گرفت).

(٢) كان فريد الدين العطار أحياناً يستعمل (را) لاحقة المفعول الصريح بعد المفعول الغير صريح (٢).

مثال:

"دنیا را بکیر از برای تن را و آخرت را بکیر از برای دل را" (٣).

وترجمته:

اتخذ الدنيا من أجل الجسد والآخرة من أجل القلب.

والمفعول غير الصريح هنا (تن) ومع ذلك جاء العطار بـ (را) لاحقة المفعول الصريح بعده وكذلك الحال مع (دل).

(٣) كذلك كان فريد الدين يلحق (را) علامة المفعول الصريح بالفاعل أحياناً (٤).

مثال:

"ویراکشت سلطانیان خورده است" (٥).

وترجمته:

"إنه قد أكل زرع السلاطين".

والفاعل هنا (وي) والحق به العطار (را).

(١) انظر: المرجع السابق (ص ٥).

(٢) انظر: المرجع السابق (ص ٥).

(٣) المرجع السابق (ص ١٩٣).

(٤) Faridu "Din" Attar, Tadkiratu "L - Awlia" With Preface BY Nicholson, M.A.P. (d)

(٥) تذكرة الأولياء، النصف الأول (ص ١٨٠).

(٤) كان فريد الدين العطار كثيرًا ما يستبدل دال في (يد) ضمير فاعلية المخاطبين بـ (التاء).

مثال :

"شما درس کردید و بدان عمل نکردیت" ^(١).

وترجمته :

"تعلمتم الدرس ولم تعملوا به".

(٥) كان فريد الدين العطار كثيرًا ما يستعمل (تا) أداة ربط.

مثال (١) :

"خواستم تادستش فراگیرم" ^(٢).

وترجمته :

"أردت أن أمسك يده".

مثال (٢) :

"جمله منبرها بفرمود تابشکستند" ^(٣).

وترجمته :

"أمر بتحطيم كل المنابر".

(٦) استخدم فريد الدين العطار السابقة (نا) كثيرًا في النفي.

مثال :

"گفتم نام من و پدر من چون دانستی و مرا بچه شناختی هرگز نادیده" ^(٤).

وترجمته :

"قلت كيف علمت اسمي واسم أبي وبأي شيء عرفتني ولم ترني قط".

(٧) كذلك استعمل "نه" للنفي كثيرًا.

مثال :

"و می گرید و نه بشب قرار گیرد و نه بروز" ^(٥).

(١) انظر: المرجع السابق (ص ٣٩).

(٢) انظر: تذكرة الأولياء، النصف الأول (ص ١٨).

(٣) المرجع السابق (ص ٢٩).

(٤) انظر: السابق (ص ٣٠).

(٥) انظر: السابق (ص ٢٢).

وترجمته:

"وهو يبكي ولا يهدأ ليلاً أو نهاراً".

(٨) كان فريد الدين العطار يستعمل (در) بدلاً من الباء.

مثال (١):

"در حسن نگريد"^(١).

وترجمته:

"ينظر إلى الحسن".

مثال (٢):

"فرداي قيامت حق تعالى هفتاد هزار فرشته بيا فريند در صورت أويس"^(٢).

وترجمته:

"يخلق الحق (تعالى) يوم القيامة سبعين ألف ملكاً على شاكلة أويس".

(٩) كذلك استعمل فريد الدين العطار أكثر من حرف من حروف الجر بصورة متتالية.

مثال (١):

"چنان نقل کرده آمد که چون نشسته بودي گفتي در بیش جلاد نشسته"^(٣).

وترجمته:

"يروى كذلك: "إنه عندما كان يجلس، فكأنه جلس أمام جلاد".

مثال (٢):

"سايلى فرا در آمد"^(٤).

وترجمته:

"حل سائل".

(١٠) كان فريد الدين العطار يضع باء الزينة قبل نون النفي.

(١) انظر: السابق (ص ٢٩).

(٢) السابق (ص ١٥).

(٣) انظر: السابق (ص ٣٩).

(٤) انظر: السابق (ص ٦٣).

مثال:

"وقدم در راه نهی وهفتاد مقام بنگذاري" (١).

وترجمته:

"ولا تضع قدماً في الطريق ولا تتجاوز سبعين مقاماً".

(١١) كان فريد الدين العطار يستخدم الهمزة بدلاً من (اي) مع المخاطب في زمن الماضي النقلي.

مثال (١):

"اکنون تو هفتاد سال و را برستیده" (٢).

وترجمته:

"لقد عبده أنت الآن سبعين عاماً".

مثال (٢):

"گفت تو ندانسته که کارکنان خدای رابه پیشه حاجت نیست" (٣).

وترجمته:

"قال ألا تعلم أن عمال الله لا حاجة لهم بالحرفة".

(١٢) كذلك استعمل فريد الدين ازبس که وازآنکه وازجهت که بدلاً من زیرا که أو زیرا.

مثال:

"وگفت یا طیفور دانی بچه چشمم خلل کرد ازبس که در فراق تو میگریستم وپشتم دوتاشد ازبس که غم تو خوردم" (٤).

وترجمته:

"قالت: أتعلم يا طيفور أن عيني أضيرت؛ لأنني كنت أبكي فراقك وأن ظهري انحنى لأنني حزنت عليك".

(١) انظر: السابق، نفس الصفحة.:

(٢) السابق (ص ٣٤).

(٣) انظر: السابق (ص ٩٨).

(٤) انظر: السابق (ص ١٣٨).

(١٣) استعمال فريد الدين العطار المصدر "شدن" كثيرًا بمعنى (رفتن).

مثال (١) :

"گفتم بيا زار شوم" (١).

وترجمته :

"قلت أذهب إلى السوق".

مثال (٢) :

"چون مردي سخت انداز بود تيراو دورتر شود" (٢).

وترجمته :

"كلما كان الرجل حاذقًا يبعد سهمه".

(١٤) كذلك ألحق فريد الدين (تر) لاحقة الصفة التفضيلية بالاسم لا الصفة (٣).

مثال :

"فريضة تر" (٤).

(١٥) وردت في "تذكرة الأولياء" بعض الاستعمالات القديمة مثل عطف الفعل المصرف

مع الجمع على الفعل المصرف مع المفرد.

مثال :

"أصحاب در بیستند و گفتم" (٥).

وترجمته :

"أغلق الأصحاب الباب وقالوا".

والمفروض أن تكون: "أصحاب در بیستند و گفتم".

(١٦) أحيانًا كان فريد الدين يتبع كاشكي بكه أو كي وكاشكي لا تتبع بكه (٦).

(١) انظر: السابق (ص ١٤٦).

(٢) السابق (ص ١٠٥).

(٣) Faridu "Din" Attar, Tadkiratu "L - Awliya" With Preface BY Nichoson, M.A.P. (9)

(٤) تذكرة الأولياء، النصف الثاني (ص ١٩٦).

(٥) انظر: المرجع السابق (ص ١٦٤).

(٦) Faridu "Din" Attar, Tadkiratu "L - Awliya" With Preface BY Nichoson, M.A.P. (10)

مثال (١) :

"وَكَفَّت كَاشِكِي كِي خَلْق بَشْنَاخْت خُود تَوَانْدِي رَسِيد" (١).

وترجمته :

"ليت الخلق يعرفون أنهم يستطيعون الوصول".

مثال (٢) :

"وَسَخْن اَوَسْت كِه كَاشِكِي كِه بَدَانْمِي كِه مَرَا دَشْمَن مِي دَارْد" (٢).

وترجمته :

"وقوله ليتني أعلم أنه يعاديني".

(١٧) كذلك استعمل فريد الدين اگر همه بمعنی اگر (٣).

مثال (١) :

"قَدَم بَر بَسَاط سَلَاطِين مِنِه اِگَر هَمِه مَحْض شَفَقَت بُوْد بَر خَلْق" (٤).

وترجمته :

"لا تضع قدمًا على بساط السلاطين وإن أشفقوا على الخلق محض الشفقة".

مثال (٢) :

"كَفَّت آزَرُو آنَسْت كِه پِيش اَزَانَك بِمِیْرَم اِگَر هَمِه یَك لَحْظَه بُوْد اَو رَا بَدَانَم" (٥).

وترجمته :

"قال: رغبتی أن أعرفه قبل أن أموت وإن بقيت هناك لحظة".

(١٨) استعمل فريد الدين (آن) أداة للتعريف، وهذه سمة من سمات الأسلوب القديم.

مثال :

"آن پیشوای اهل ملامت، آن شمع جمع قیامت، آن برهان مرتبت وتجريد، آن سلطان معرفت وتوحيد، آن حجة الفقر فخري، قطب وقت ذو النون مصري" (٦).

(١) تذكرة الأولياء، النصف الأول (ص ١٦٤). (٢) انظر: المرجع السابق (ص ٢٤٤).

(٣) (١٠) Tadkiratu "L - Awliya" With Preface BY Nichoson, M.A.P.

(٤) تذكرة الأولياء، النصف الأول (ص ٣١).

(٥) انظر: المرجع السابق (ص ١٣٤).

(٦) السابق (ص ١١٤).

وترجمته:

هو إمام أهل الملامة، وشمع جمع القيامة، هو برهان المرتبة والتجريد، وسلطان المعرفة والتوحيد، هو حجة الفقر فخري، قطب الزمان ذو النون المصري (رحمة الله عليه).
(١٩) لم يكن فريد الدين العطار يهتم بسياق الجملة كأن يقدم ويؤخر في الإضافات.

مثال:

"وكفت دنيا بكداشتن زهد نفس است وأخرت بكداشتن زهد دل وترك خود كفتن زهد جان" (١).

وترجمته:

"وقال: ترك الدنيا زهد النفس، وترك الآخرة زهد القلب، وترك النفس زهد الروح".
وكان يجب أن تكون العبارة:
"وكفت: كداشتن دنيا زهد نفس است، وكداشتن آخرت زهد دل، وترك كفتن خود زهد جان".

(٢٠) وكذلك لم يكن فريد الدين يهتم بالإتيان بالفعل في آخر الجملة وفقاً للقواعد الفارسية، وكان يأتي به في وسط الجملة في كثير من الأحيان، وأغلب الظن أن هذا تأثير عربي.

مثال:

"كفت اين تن با من قرار نمی گیرد در طاعت حق تعالی" (٢).

وترجمته:

"قال: لا يطاوعني هذا الجسد في طاعة الحق تعالى".
(٢١) كذلك كثرت الالتفاتات (٣) في أسلوب فريد الدين.

مثال:

"زانکه میکفت انا الحق گفتند: بگوی: هو الحق گفت: بلی همه او ست شما میگوید که گم شده است" (٤).

(١) تذكرة الأولياء، النصف الثاني (ص ١٤٠).

(٢) تذكرة الأولياء، النصف الأول (ص ١١٥).

(٣) الالتفات هو أن ينتقل المتحدث من الحديث عن المخاطب إلى الغائب، ومن الغائب إلى المخاطب وأمثال ذلك.

انظر: محمد بن عمر الرادوياني، كتاب ترجمان البلاغة، باهتمام وتصحيح حواشي وتوضيحات أحمد اتش، استانبول ١٩٤٩م (ص ٧٩).

(٤) تذكرة الأولياء، النصف الثاني (ص ١٤٠).

وترجمته :

لأنه كان يقول: أنا الحق، قالوا: قل: هو الحق، قال: بلى فالكل هو، وأنتم تقولون إنه فقد.
(٢٢) كذلك كان فريد الدين يستخدم المصدر كاملاً في زمن المستقبل بدون حذف النون.

مثال :

"بزرگی گفت که ای اهل معنی طریق معنی بنگرید که باحسین منصور چه کردند تابا مدعیان چه خواهند کردن"^(١).

والمفروض:

(چه خواهند کرد).

وترجمته :

"قال شيخ: يا أهل المعنى، انظروا إلى طريق المعنى، وما فعلوا مع حسين منصور (لتدركوا) ما سيفعل مع المدعين".

وجدير بالذكر أن الجمل في "تذكرة الأولياء" في أغلبها متداخلة لا يفصلها عن بعضها البعض شيء.

ثانياً: الخصائص الصرفية:

(١) استعمل فريد الدين العطار صيغة خاصة للمضارع الإخباري لا توجد إلا في بعض الصيغ النادرة في بعض أشعار القدماء مثل: كنمى بدلاً من مى كنم، وكنى بدلاً من مى كنى، وكندي بدلاً من مى كند، وكندي بدلاً من كند^(٢).

مثال (١) :

"اگر توانمى خود را طلاق دهى"^(٣).

وترجمته :

"إن استطعت أن تطلق نفسك".

(١) انظر: المرجع السابق (ص ١٤٥).

(٢) تذكرة الأولياء، النصف الأول (ص ك) من مقدمة القزويني.

(٣) المرجع السابق (ص ٩٣).

مثال (٢) :

"اگر همه عمر بشکر مشغول گردئي" (١).

وترجمته :

"إن شغلت بالشكر طول عمرك".

(٢) كذلك استعمل فريد الدين في أسلوبه صيغة قديمة للماضي الاستمراري الكامل (٢).

فاستعمل مثلاً: کرد مي بدلا من ميکردم، وکردي بدلاً من ميکرد، وکرديمي بدلاً من ميکرديم، وکردندي بدلاً من ميکردند وغالباً ما كان يستعمل کردتي للمفرد المخاطب، وأحياناً كان يستعملها کردماني بدلاً من ميکرديم.

أمثلة :

أ - "تو اگر امروز حرب کردتي اسيرشدي.. وجون کوشت خوک بخوردتي کافرت کردندي" (٣).

وترجمتها :

"إن حاربت اليوم أسرت... وطالما أكلت لحم الخنزير جعلوك كافراً".

ب - "اگر شما در آنجا نکه نمیکردتي ایشان چندین اسراف نکردندي پس چون شما نظر میکنید شریک باشید در مظلمت این اسراف" (٤).

وترجمتها :

"لو لم تكن تنظر إلى ذلك المكان لما كانوا يسرفون كل هذا الإسراف، ومن ثم عندما تنظرون، تشاركون في مظلمة هذا الإسراف".

ج - "اگر دست دیگر بیرون بودي نصیب وی بدادماني" (٥).

وترجمتها :

"إن أخرجت يدك الأخرى لكنا نعطيها نصيبها".

(١) السابق (ص ١١٣).

(٢) المرجع السابق (ص ١١٣) من مقدمة القزويني.

(٣) المرجع السابق (ص ٤٢).

(٤) السابق (ص ١٩١).

(٥) المرجع السابق (ص ٢٩٩).

د - "اين حال كه تراپيش آمده است اگربال وجمال راست آمدي مالهاي عظيم بداديمي" (١).

وترجمتها:

"هذه الحال التي اعترتك لو تستقيم بالمال والجمال، لكننا نبذل المال الوفير".
هـ - "كاشكي كوسفندي بودي تابريان كردماني" (٢).

وترجمتها:

"ليتها كانت شاه لكنا شويناها".

(٣) كان فريد الدين يأتي بفعل بودن - الذي يستخدم في تصريح الفعل في زمن الماضي البعيد - في زمن الماضي البعيد (أي بوده بود) (٣).

مثال:

"آنجا كه آن چهار دانك درجيب مي نهايي خداي تعالى حاضر نبود، وآن ساعت اعتماد برخداي نبوده بود" (٤).

وترجمته:

ألم يكن الله تعالى موجوداً عندما كنت تضع تلك العملات الأربع في جيبك، ولم تكن قد اعتمدت عليه في ذلك الوقت.

ثالثاً: الخصائص الصوتية:

وهي كثيرة منتشرة في الكتاب نذكر منها:

(١) قلب الباء واو مثل:

كاويين = كابين ومعناها مهر أو صداق.

اشتروار = اشتربار ومعناها الحمل.

اشترواني = اشترباني ومعناها الجمال.

(٢) قلب الواو باء مثل:

كجابه = كجاوه ومعناها هودج.

(١) المرجع السابق (ص ٢٦).

(٢) المرجع السابق (ص ٣٢٤).

(٣) المرجع السابق (ص كب) من مقدمة القزويني.

(٤) السابق (ص ٢٠٠).

(٣) قلب الباء فاء مثل:

زفان = زبان ومعناها لسان.

(٤) قلب الباء واوًا مثل:

واديد = پديد ومعناها رأي.

(٥) قلب الشين جيم مثل:

كاجكي = كاشكي ومعناها ليت.

(٦) استعمال اينچ مقابل آنچ وكذلك اينك مقابل آنك مثل:

"هرچه در بغداد كردي براي من كردي ومن اينچ كردم براي خدا كردم" (١).

وترجمتها:

كل ما فعلته في بغداد فعلته من أجلي وكل ما فعلته أنا فعلته من أجل الله.

(٧) وكذلك استعمل فريد الدين العطار پانجده بدلًا من پانزده، وهزده وهشده بدلًا من

هجده، ودينه بدلًا من ديروز، ونبايد بدلًا من مبادا، وبخفت بدلًا من بخواب (أمر الحاضر)،

وبوك بدلًا من بود (أي شايد)، وسديكر بدلًا من سوم (٢).

رابعاً: خصائص رسم الخط أو (طريقة الكتابة):

توجد في "تذكرة الأولياء" بعض خصائص رسم الخط لكنها ليست خاصة به، وإنما كانت

رائجة في أغلب الكتب التي ألّفت قبل القرن السابع.

(١) فمثلاً كانت كي تكتب بدلا من كه، وأنك تكتب بدلا من آنكه، وأنچ بدلا من آنچه،

وهرج تكتب بدلا من هرچه، وكبا بدلا من كهه + با، وهيچيز تكتب بدلا من هيچ چيز، وسختر

بدلا من سخت+تر (٣).

(٢) ومن خصائص رسم الخط كتابة ياء المخاطب بعد الهاء غير الملفوظة مثل:

مانده ی، بوده ی، نه ی، كه ی.

وتعني ماندهء، بودهء، نهء (أي نيستي) وكه (كيستي) (٤).

(٣) كذلك كتابة الجيم والباء الفارسيّتين بنقطة واحدة مثل الجيم والباء في العربية (٥).

(١) السابق (ص ٣٢٩).

(٢) المرجع السابق (صص كج وكد) من مقدمة القزويني.

(٣) السابق: (ص ك) من مقدمة القزويني.

(٤) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٥) المرجع السابق، نفس الصفحة.

خامساً: الخصائص البلاغية:

إذا نظرنا إلى الصناعات البلاغية في كتاب تذكرة الأولياء فسنجد أنه خلا منها تقريباً سوى صنعتين هما: السجع والترصيع.

(١) فقد التزم فريد الدين العطار - كما سبق ذكره - بإيراد أسجاع في بداية كل ذكر على نفس وزن اسم أو لقب صاحب الذكر، وتبين مكانته في التصوف، مما جعله يأتي أحياناً بأسجاع ركيكة متكلفة كما يقول بهار وغيره.

مثال (١):

"آن از دو كون كرده اعراض، پير وقت فضيل بن عياض" (١).

وترجمته:

"هو المعرض عن الكونين، شيخ الزمان فضيل بن عياض".

مثال (٢):

"آن خليفة الهي، آن دعامة نامتناهي، آن سلطان العارفين، آن حجة الخلايق اجمعين، آن بخته جهان ناکامي، شيخ بايزيد بسطامي رحمة الله عليه" (٢).

وترجمته:

"هو الخليفة الإلهي، والدعامة اللامتناهية، هو سلطان العارفين، وحجة الخلايق أجمعين، هو خبير عالم المعاناة، الشيخ أبو يزيد البسطامي (رحمة الله عليه).
(٢) كذلك أتى فريد الدين العطار ببعض العبارات المرصعة (٣).

مثال:

"آن مرد ميدان معنى، آن فرد ايوان تقوى، آن محقق حق ونبي، قطب وقت أبو تراب النخشي" (٤).

(١) السابق (ص ٧٤).

(٢) السابق (ص ١٣٤، ١٣٥).

(٣) بهار: سبك شناسي (ص ٢٠٦)، والترصيع معناه في اللغة: غرس الجواهر، ومعناه في الاصطلاح هو أن يأتي الشاعر في مصرعي بيته أو الكاتب في شقي عبارته بكلمات متقابلة متفقة في الوزن والحرف الأخير.

انظر: محمد بن عمر الرادوياني، ترجمان البلاغة، باهتمام وتصحيح حواشي وتوضيحات أحمد آتشي (ص ٧).

(٤) تذكرة الأولياء، النصف الأول (ص ٢٩٤).

وترجمتها:

"هو رجل ميدان المعنى، وفرد إيوان التقوى، هو محقق الحق، ونبي زمانه وقطبه، أبو تراب النخشي".

وفيما عدا هاتين الصنعتين، فقد خلا الكتاب من الصناعات البلاغية تقريباً؛ ليكون قريباً من فهم العامة، وملائماً للهدف الذي ألف من أجله وهو نصح العامة وإرشادهم.

سادساً: خصائص أخرى:

بالإضافة إلى الخصائص التي سبق ذكرها فقد اتسم كتاب "تذكرة الأولياء" بخصائص أخرى منها:

(١) الاستشهاد بالشعر العربي والفارسي، وهي سمة من سمات الأسلوب في العصر الذي ألف فيه الكتاب. وقد بلغ عدد الأبيات ثمانية عشر بيتاً.

(٢) التضمن بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وهي تمثل نسبة كبيرة في الكتاب.

(٣) تكرار لفظ بود وداشت في بداية التراجم.

مثال (١):

"صاحب حسن بصري بود، وازبزرگان این طایفه بود، ویرا کرامات مشهور بود، وریاضات مذکور، ودینار نام پدرش بود، ومولود او در حال عبودیت پدر بود، اگرچه بنده زاده، بود ازهر دو کون آزاده بود"^(١).

وترجمته:

"كان صاحب الحسن البصري، وكان من مشايخ هذه الطائفة، وله كرامات مشهورة، ورياضات مذكورة. كان اسم والده (دينار)، وولد في ظل عبودية والده، ومع أنه كان ابن عبد، (إلا أنه) كان متحرراً من الكونين".

مثال (٢):

"وزباني داشت در بيان معارف واسرار... وبا ابو تراب صحبت داشته... واو خود اديب بود ورياضاتي وكراماتي داشت، ودر ملامت قدمي محكم داشت وهمتي بلند"^(٢).

(١) السابق (ص ٤٠، ٤١).

(٢) المرجع السابق (ص ٣١٦).

وترجمته :

"وله بيان في بيان المعارف والأسرار، وصاحب أبي تراب، وكان هو نفسه أديب، وله رياضات وكرامات، وله في الملامة قدم محكم وهمة عالية".

(٤) كذلك فإن الأثر العربي بدا جلياً منتشراً على طول الكتاب سواء من حيث الألفاظ والتركيبات، أو الجمل والعبارات، وذلك للأسباب التي سبق ذكرها. وقد أحصى بهار نسبة الكلمات العربية إلى الفارسية في الكتاب فوجدها من ١٠٪ إلى ١٢٪^(١).

وخلاصة القول إن أسلوب كتاب "تذكرة الأولياء" تميز بالبساطة والسلاسة واللطافة والبعد عن التكلف كما أجمع الكثيرون على ذلك^(٢). وجمل الكتاب في أغلبها بسيطة ليست مركبة ولا معقدة، وألفاظه في معظمها مؤدية للمعنى ومؤكدة له.

وكذلك فقد وفق العطار في الإتيان بالحكايات في ثنايا كتابه لأن هذه الحكايات ساهمت في تقريب المعنى والهدف المنشود إلى أذهان العامة، والحكايات عنده تجري مجرى الأمثال في أقوال غيره.

ولا شك أن البساطة والسلاسة، والبعد عن التكلف، وبساطة التعبير وانتقاء الألفاظ في كتاب "تذكرة الأولياء" جاءت مناسبة للهدف الذي صنف الكتاب من أجله، وهو نصح العامة وإرشادهم فقد كان الكتاب سهل الفهم بالنسبة لهم بالنسبة للخاصة أيضاً فعمت الفائدة وشملت الجميع.



(١) بهار سبك شناسي (ص ٢١٠).

(٢) منهم على سبيل المثال:

شبلي النعماني: شعر العجم، (ص ٨).

احمد سهيلي خوانساري: خسرونامه فريد الدين عطار (ص ٥٨). بدیع الزمان فروزانفر: شرح احوال ونقد وتحليل آثار فريد الدين (ص ٨٨). رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسي، ترجمة محمد موسى هندواي (ص ١٢٠).

الباب الثالث

تذكرة الأولياء : دراسة مقارنة



الفصل الأول
تذكرة الأولياء
بين
كتب التصوف العربية والفارسية



يعد كتاب "تذكرة الأولياء" من أقدم المؤلفات التي تختص بتراجم الأولياء والصوفية في اللغة الفارسية، فلم يسبقه في هذا المجال سوى "كشف المحجوب" لأبي الحسن علي ابن عثمان الجلابي الغزنوي "م ٤٦٥هـ" وترجمة طبقات الصوفية للسلمي والتي قام بها أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري (م ٤٨١هـ). هذا وقد ألقت قبله كتب عربية كثيرة في تراجم الأولياء ومناقب الصوفية ومشايخ الطريقة مثل: "طبقات الصوفية" لأبي عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي النيسابوري (م ٤١٢هـ) و"حلية الأولياء" لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الإصفهاني (م ٤٣٠هـ) و"صفة الصفوة" لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي (م ٥٩٧هـ) وغيرها.

وكتاب "تذكرة الأولياء" وإن كان قد تميز على الكتب الفارسية السابقة عليه باتساع موضوعه وشموله، وكذلك اختصاصه بتراجم الأولياء والصوفية إلا أنه أفاد إلى حد كبير من الكتب السابقة عليه سواء كانت عربية أو فارسية، وكذلك أفادت منه الكتب الفارسية المؤلفة بعده وتأثرت به.

وقبل أن نبين مواضع استفادته من هذه الكتب، ومدى تأثيره فيها وتأثره بها لنحدد مكانته بين مصادر التصوف الإسلامي - وهو موضوع الفصل التالي - يجدر بنا أن نعرف بهذه الكتب:

أولاً: كتب التصوف المؤلفة قبل "تذكرة الأولياء":

الكتب العربية:

١ - اللمع:

مؤلف هذا الكتاب هو أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي المتوفى ٣٧٨هـ^(١) والملقب بـ "طاووس الفقراء"^(٢). كان السراج مريدًا لأبي محمد المرتعش، وكان قد أدرك سري السقطي وسهل التستري^(٣).

(١) حاجي خليفة: كشف الظنون، المجلد الثاني، ١٩٤٣م - ١٣٦٢هـ، عمود (١٥٦٢).

(٢) د. ذبيح الله صفا، تاريخ ادبيات در ايران، جلد اول از آغاز عهد إسلامي تا دوره سلجوقي، تهران ١٣٤٢هـ. ش چاپ چهارم (ص ٢٥٧).

(٣) جامي، نفحات الأنس (ص ٢٨٣).

تجول السراج في أرجاء العالم الإسلامي فزار القاهرة وبغداد ودمشق والرملة ودمياط والبصرة وتبريز ونيسابور، واجتمع بأعلام التصوف الإسلامي، ونشر علوم الصوفية ومعارفهم^(١).

وكتاب "اللمع" هو الكتاب الأم في تاريخ التصوف الإسلامي فهو أكبر المراجع وأوثقها وأغزرها مادة في التصوف ومن مادته اقتبس كافة من أرخ للتصوف^(٢).

وكتاب "اللمع" يشتمل على مائة وخمسة وخمسين بابًا تتناول:

بيان علم التصوف ومذهب الصوفية ونعت طبقات أصحاب الحديث وذكر طبقات الفقهاء والصوفية والرد على أعداء الصوفية واعتراض الصوفية على المتفككة، والكشف عن اسم الصوفية، وإثبات علم الباطن والتوحيد، وصفة العارف، والفرق بينه وبين المؤمن، وتشرح لأحوال الصوفية ومقاماتهم، وتحدث عن أهل الصفوة واتباعهم لكتاب الله (عز وجل) واقتدائهم برسول الله ﷺ، وتتناول هذه الأبواب أيضًا ذكرًا لأصحاب الرسول، وآداب الصوفية في الوضوء والزكاة والصوم والصحبة والضيافة وغيرها، وتتطرق الأبواب كذلك إلى مكاتبات الصوفية وأشعارهم، وتفسير السماع والوجد، وشطحات الصوفية وأخطائهم في الحرية والعبودية والفناء وغيرها^(٣).

والكتاب يعبر عن التصوف من وجهة نظر أهل السنة، فالسراج يحيل كل أصل من الأصول التي يتعرض لها في كتابه إلى القرآن والسنة، ويدعمه بالآيات القرآنية والأحاديث^(٤).

وقد صدرت طبعة لللمع في مصر ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م قام بتحقيقها والتقديم لها وتخريج أحاديثها د. عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور.

٢ - التعرف لمذهب أهل التصوف:

مؤلف هذا الكتاب هو الشيخ أبو بكر محمد بن إبراهيم البخاري الكلابادي (م ٣٨٠ هـ)^(٥)، كان الكلابادي يلقب بتاج الإسلام، وكان فقيهًا حنفيًا صوفيًا^(٦).

ويعد كتاب التعرف من أقدم ما كتب عن التصوف فقد ألفه الكلابادي في أوائل القرن الرابع الهجري^(٧).

(١) أبو نصر السراج الطوسي، اللمع، حققه وقدم له وخرج أحاديثه د. عبد الحليم محمود، طه عبد الباقي سرور، مصر ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م (ص ١٤).

(٢) انظر المرجع السابق (ص ١٠). (٣) انظر فهرس اللمع (ص ٦٣٧: ٦٤٦).

(٤) الهجوري، كشف المحجوب، دراسة وتعليق د. إسعاد عبد الهادي (ص ١٥٤).

(٥) حاجي خليفة، كشف الظنون، ج١، عمود (٤١٩).

(٦) أبو بكر محمد الكلابادي، التعرف لمذهب أهل التصوف، حققه وعرف بأعلامه وقدم له د. عبد الحليم محمود، طه عبد الباقي سرور، القاهرة ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م (ص ١٦٢).

(٧) التعرف لمذهب أهل التصوف (ص ١٦٢).

وكتاب التعرف موسوعة علمية كبرى في التصوف، فهو يشتمل على خمسة وسبعين باباً يتناول فيها المؤلف: سبب تسمية الصوفية بالصوفية والتعريف برجال التصوف ويشرح أقوالهم في التوحيد والصفات والرؤية والقدر وخلق الأفعال والاستطاعة والجبر والوعد والوعيد والشفاة والروح والملائكة والرسائل والكرامات والإيمان وغيرها، ثم يتطرق إلى الحديث عن علوم الصوفية، وأحوالهم ومقاماتهم كالطوبى والزهد والصبر والفقر، ثم يتحدث عن مجاهداتهم ومعاملاتهم، ثم يختتم كتابه بالحديث عن السماع^(١).

وللكتاب شرح لشيخ الإسلام عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي المتوفي ٤٨١هـ، وشرح للقاضي علاء الدين التبريزي، وشرح للإمام إسماعيل بن محمد بن عبد الله المستملي المتوفي في ٤٣٤هـ^(٢) ونشرت ترجمة إنجليزية له في كمبردج عام ١٩٣٦م^(٣).

٣ - طبقات الصوفية:

مؤلف هذا الكتاب هو محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن خالد بن سالم بن راوية بن سعيد بن قبيصة بن سراقه المعروف بأبي عبد الرحمن السلمي^(٤) (م ٤١٢هـ)^(٥).

صرف أبو عبد الرحمن همه إلى دراسة الحديث والتصوف فرحل إلى العراق والري وهمدان ومرو والحجاز وغيرها، وتلمذ على يد عدد من الشيوخ منهم: المحدث أبي الحسن الدارقطني والصوفي أبي نصر السراج وأبي القاسم النصر آبادي وأبي عمرو بن جنيد^(٦)، وكذلك فقد أدرك الشيخ أبو سعيد ابن أبي الخير صحبته^(٧).

ولأبي عبد الرحمن السلمي مؤلفات في الحديث والتفسير والتصوف أشهرها كتاب "طبقات الصوفية" الذي ألفه في نهاية القرن الرابع الهجري^(٨).

والكتاب يشتمل على خمس طبقات، تتناول كل طبقة ترجمة لأحوال عشرين رجلاً من رجال الصوفية - تقريباً - ظهوروا في زمن واحد أو أزمنة متقاربة وتذكر أقوالهم.

(١) انظر: فهرس موضوعات التعرف لمذهب أهل التصوف (ص ١٦٥ وما بعدها).

(٢) التعرف (ص ١٦٢).

(٣) انظر: المرجع السابق (ص ١٦٣).

(٤) أبو عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية، تحقيق نور الدين شريعة، القاهرة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، الطبعة الثالثة (ص ١٦) من مقدمة المحقق.

(٥) حاجي خليفة، كشف الظنون (عمود ١١٠٤).

(٦) أبو عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية، تحقيق نور الدين شريعة (ص ١٩) من مقدمة المحقق.

(٧) جامي، نفحات الأنس (ص ٣١١).

(٨) أبو عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية (ص ٥٠) من مقدمة نور الدين شريعة.

وكان عبد الله الأنصاري يملئ كتاب الطبقات في مجالس وعظه ويضيف إليه تراجم لمشايخ آخرين وذلك باللهجة الهروية القديمة، لذلك قام الجامي بتلخيصه وتهذيبه بالفارسية الحديثة وأضاف إليه تراجم أخرى وأعد كتاب نفحات الأنس^(١).

٤ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء :

مؤلف هذا الكتاب هو الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني المتوفي ٤٣٠ هـ^(٢).

وقد ألف هذا الكتاب باللغة العربية عام ٤٢٢ هـ^(٣).

"وكتاب "حلية الأولياء" أوسع كتاب ألف في تراجم الصوفية، فهو يشتمل على شرح لأحوال ستمائة وتسعة وثمانين شخصاً من الزهاد والعباد والصوفية في صدر الإسلام وحتى أواخر القرن الرابع الهجري، هذا إلى جانب الكلمات والمواعظ والحكم والآداب والقصص والحكايات المنسوبة إلى كل واحد منهم، والأخبار التي رواها عدد كبير منهم"^(٤).

وطبع هذا الكتاب في مصر من سنة ١٣٥١ إلى ١٣٥٧ هـ. ق واختصره الشيخ أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، وسماه "صفة الصفوة"، واختصره كذلك محمد بن الحسن الحسيني^(٥) وتوالى طبع "حلية الأولياء" بعد ذلك.

٥ - الرسالة القشيرية :

مؤلفها أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري المتوفي ٤٦٥ هـ^(٦).

وكان القشيري تلميذاً لأبي علي الدقاق (م ٤٠٥ هـ) وزوجاً لابنته، وكان تلميذاً أيضاً لأبي عبد الرحمن السلمي، ومعاصراً لأبي سعيد بن أبي الخير - الذي كان يعقد مجلساً في زاويته كل أسبوع - والهجويري^(٧)، وكذلك كان أستاذاً لأبي علي الفارمدي^(٨).
وقد ألف القشيري هذه الرسالة عام ٤٣٧ هـ^(٩).

(١) د. قاسم غني: بحث در آثار وأفكار واحوال حافظ، تهران ١٣٤٠ هـ. ش، جلد دوم (ص ٤٧٦).

(٢) حاجي خليفة: كشف الظنون، عمود (٦٨٩).

(٣) د. قاسم غني: تاريخ التصوف في الإسلام، ترجمة صادق نشأت، راجعه د. أحمد ناجي القيسي، د. محمد مصطفى حلمي، ج٢ (ص ٧٥٠).

(٤) انظر: د. قاسم غني، بحث در آثار وأفكار واحوال حافظ، جلد دوم (ص ٤٧٥).

(٥) حاجي خليفة، كشف الظنون، عمود (٦٨٩).

(٦) حاجي خليفة، كشف الظنون، عمود (٨٨٢).

(٧) انظر: الهجويري، كشف المحجوب، دراسة وتعليق د. إسعاد عبد الهادي (ص ١٥٧).

(٨) جامي، نفحات الأنس (ص ٣١٣).

(٩) أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، الرسالة القشيرية وعليها هوامش من شرح زكريا الأنصاري رحمه الله، القاهرة طبعة محمد علي صبيح وأولاده (ص ٢).

وتعد الرسالة من الكتب الأساسية في التصوف وتشتمل على أربعة وخمسين بابًا وثلاثة فصول توضح عقائد الصوفية، وتشرح لأحوال ثلاثة وثمانين شخصًا من مشاهير المشايخ، وتفسر الألفاظ الصعبة الشائعة بين العارفين، وتبين مقامات أهل السلوك وأحوالهم وآدابهم وكرامات الأولياء^(١).

ونظرًا لأهمية الرسالة فقد شرحها القاضي زكريا بن محمد الأنصاري (م ٩١٠هـ) في مجلد مع المتن سماه "أحكام الدلالة على تحرير الرسالة"، وشرحها الشيخ الفقيه سديد الدين أبو محمد عبد المعطي بن عبد العلي اللخمي في كتاب سماه "الدلالة على فوائد الرسالة" وشرحها المولي علي القاري في مجلدين^(٢).

وقد ترجمت الرسالة إلى الفارسية مرتين:

الأولى: ترجمها أبو علي بن أحمد العثماني أحد تلاميذ القشيري وهي ترجمة سقيمة بها كثير من الأخطاء، وتوجد نسخة منها في مكتبة "أيا صوفية" تحت رقم ٢٠٧٧، ونسخة منها في المتحف البريطاني.

والثانية: ترجمها أبو الفتوح عبد الرحمن بن محمد النيسابوري عام ٥٥٠هـ، وتوجد نسخة منها في مكتبة "لالا إسماعيل" تحت رقم ١٢٠^(٣).

وطبعت في مصر عام ١٣٤٦هـ. ق. ثم طبعت بعد ذلك عدة مرات، وأهم طبعاتها الطبعة المحققة لـ "عبد الحليم محمود" و"محمود بن الشريف" التي نشرت في القاهرة عام ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م وتقع في جزئين.

٦ - صفة الصفة:

مؤلف هذا الكتاب هو أبو الفرج عبد الرحمن بن علي المعروف بابن الجوزي المتوفي ٥٩٧هـ^(٤).

تتلمذ ابن الجوزي على يد علي بن عبد الواحد الدينوري وابن الحصين وأبي عبد الله البار، وله مصنفات كثيرة في أنواع العلوم والتفسير والحديث والفقه والزهد والوعظ والأخبار والتاريخ قيل إنها تزيد على ثلاثمائة وأربعين مصنفًا منها ما هو عشرون مجلدًا أو أقل^(٥).

(١) انظر: فهرست موضوعات الرسالة القشيرية (ص ٣٢٤ وما بعدها)، كشف الظنون (ص ٨٨٢)، تاريخ التصوف في الإسلام (ص ٧٥١).

(٢) حاجي خليفة، كشف الظنون، عمود (٨٨٢). (٣) انظر: صفا، تاريخ ادبيات، ج ٢ (ص ٨٨٩).

(٤) حاجي خليفة، كشف الظنون، عمود (١٠٨٠).

(٥) انظر: أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، صفة الصفة ضبطها وكتبها هوامشها إبراهيم رمضان وسعيد اللحام، بيروت ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، الطبعة الأولى، الجزء الأول (ص، ب) من ترجمة المؤلف.

وكتاب "صفة الصفوة" هو اختصار لكتاب "حلية الأولياء" للحافظ أبي نعيم الإصفهاني، فقد أخذ ابن الجوزي على كتاب الإصفهاني الإطالة في الأسانيد، وتكرار كثير من الحكايات منها ما هو باطل وموضوع وغير مجاز، وكذلك أخذ على أبي نعيم خلطه في ترتيب القوم فقدم من ينبغي أن يؤخر، وآخر من ينبغي أن يقدم إلى غير ذلك^(١) مما جعله يختصر كتاب الحلية، ويضيف إليه بعض تراجم الصفوة، وقد ترجم ابن الجوزي في هذا الكتاب لما يزيد على ألف شخص من الأولياء والصالحين والصحاب والتابعين والصوفية من الرجال والنساء، وشرح أحوالهم وتبع أخبارهم والحكايات المروية عنهم، والأقوال المنسوبة إليهم^(٢).

وقد قام الشيخ إبراهيم بن أحمد الرقي بدوره باختصار هذا الكتاب وسماه "أحسن المحاسن"، وكذلك اختصره أبو عمرو مرزوق بن حميد القرشي (م ٥٦٤هـ) ونظمه أبو المعالي سعد بن علي الوراق الحظيري (م ٥٢٨هـ)^(٣).

الكتب الفارسية:

٧ - كشف المحجوب:

مؤلفه أبو الحسن علي بن عثمان بن أبي علي الجلابي الهجويري الغزنوي (م ٤٧٠هـ)^(٤). كان الهجويري تلميذاً لأبي العباس أحمد بن محمد وأبي القاسم علي الجرجاني الطوسي، ومريداً لأبي الفضل محمد بن الحسن الختلي وصاحب خواجہ أبا أحمد المظفر بن أحمد ابن حمدان، وكان معاصراً لأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري وأبي سعيد بن أبي الخير^(٥).

وللهجويري مؤلفات كثيرة في التصوف لم يصلنا منها سوى "كشف المحجوب". وقد أتم الهجويري تأليف كتابه "كشف المحجوب" بين عامي ٤٤١، ٤٤٢هـ^(٦). والكتاب يشتمل على أربعين باباً: تتناول إثبات فضيلة العلم، وتشرح مقامات الصوفية وعقائدهم في معرفة الله والتوحيد والإيمان وعبادتهم كالصلاة والزكاة والصوم والطهارة والحج، وتوضح آدابهم ورموزهم ورسومهم، وتشرح لأحوال مشاهير مشايخ التصوف منذ

(١) انظر: المرجع السابق، ج١، (ص ٥ : ١٣)، حاجي خليفة، كشف الظنون، عمود (٦٨٩).

(٢) انظر: ابن الجوزي، صفة الصفوة (ص ١٤ : ١٦).

(٣) حاجي خليفة، كشف الظنون، عمود (١٠٨٠).

(٤) د. قاسم غني، تاريخ التصوف في الإسلام، ج٢ (ص ٧٥١).

(٥) انظر: الهجويري، كشف المحجوب، دراسة وترجمة د. إسعاد عبد الهادي (ص ٥٧ : ٦٥).

(٦) انظر: المرجع السابق (ص ١١٩).

القرون الإسلامية الأولى وحتى عهد المؤلف، وتعرف ببعض فرقهم ومذاهبهم وتشتمل على توضيح للألفاظ الصوفية والمفاهيم والمصطلحات الصوفية الصعبة^(١).

وقد طبع چوكوفسكي هذا الكتاب عام ١٣٤٤هـ. ق - ١٩٢٦م في ليننجراد، وكتب له مقدمة باللغة الروسية^(٢).

هذا وقد قامت الأستاذة الدكتورة إسعاد عبد الهادي قنديل بترجمته إلى اللغة العربية.

٨ - أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد :

مؤلف هذا الكتاب هو محمد بن المنور بن أبي سعيد بن أبي طاهر بن أبي سعيد بن أبي الخير^(٣).

وألّف ابن المنور هذا الكتاب حوالي عام (٥٧٤هـ)^(٤). ويعد هذا الكتاب أول مؤلف في الفارسية يتعلق بحياة أحد الصوفية وهو يشتمل على ثلاثة أبواب :

الأول: في بداية حياة الشيخ أبي سعيد، والثاني: في أواسط حياة الشيخ، والثالث: في انتهاء حياة الشيخ. وهذه الأبواب تشتمل على معلومات قيمة عن رسوم وعادات الصوفية واجتماعاتهم وتشكيلاتهم، ويشرح المفاهيم والمصطلحات الصوفية مثل الخلوة والزواية والرياضة والسماع والرقص والخرقة والمرقع والوجد والحال، ويصف أنواع المجاهدات والآداب الصوفية، والشروط التي ينبغي توافرها في الشيخ والمريد، وطبيعة الحياة في الخانقاهات^(٥).

وقد قامت الأستاذة الدكتورة إسعاد عبد الهادي قنديل بترجمته إلى اللغة العربية.

ثانياً : الكتب المؤلفة بعد تذكرة الأولياء :

"نفحات الإنس من حضرات القدس" :

أما عن الكتب التي ألّف بعد تذكرة الأولياء، وتأثرت به، وأفادت منه، فمنها كتاب "نفحات الأنس من حضرات القدس" لمولانا نور الدين عبد الرحمن بن أحمد الجامي المتوفي ٨٩٨هـ^(٦).

(١) انظر ابن الجوزي، صفة الصفوة، فهرست الموضوعات (ص ٣٩٤، ٦٧١) وما بعدها.

(٢) د. قاسم غني، تاريخ التصوف في الإسلام، ج٢ (ص ٧٥١).

(٣) انظر: المرجع السابق (ص ٧٥٥).

(٤) محمد بن المنور بن أبي سعيد بن طاهر بن أبي سعيد بن أبي الخير، أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد، ترجمة د. إسعاد عبد الهادي قنديل، مراجعة د. يحيى الخشاب، (ص ٦) من مقدمة المترجم.

(٥) انظر: المرجع السابق (ص ٩، ١١).

(٦) حاجي خليفة، كشف الظنون، ج٢، عمود (١٩٦٧).

بدأ جامي تصنيف كتابه عام ٨٨١هـ وأتمه عام ٨٨٣هـ، ويشتمل الكتاب على مقدمة قصيرة للمؤلف وتسع مقولات في الأصول الصوفية، وتراجم لشيوخ الصوفية تتجاوز الستمائة ترجمة^(١).

وكتاب "نفحات الأنس" ترجمة لكتاب "طبقات الصوفية" الذي ألفه محمد بن حسين السلمي النيسابوري ونقله خواجه عبد الله الأنصاري إلى اللغة الهروية ثم نقله جامي بناء على طلب أمير عليشير نوائي إلى الفارسية الحديثة^(٢) وكذلك نقل جامي عن "كشف المحجوب" و"أسرار التوحيد" الجزء الأكبر من مادة كتابه^(٣).

وبناء على ما سبق فإن تأثير "نفحات الأنس" بـ"تذكرة الأولياء" كان تأثيراً محدوداً للغاية لا يعدو نقله جملة أو عبارة في أغلب الأحيان، لذلك سنركز في دراستنا على كتاب كان تأثيره بالتذكرة شديداً وواضحاً وجلياً وكذلك اعترف مؤلفه في مواضع كثيرة من الكتاب بنقله عن فريد الدين العطار، والمتصفح لهذا الكتاب يرى مدى تأثير مؤلفه بالعطار ونقله عنه، فالكتاب يكاد يكون نقلاً موجزاً لـ"تذكرة الأولياء" سوى أن المؤلف أضاف إلى كتابه بعض تراجم لم ترد في التذكرة والكتاب هو:

٩ - خزينة الأصفياء:

مؤلف هذا الكتاب هو غلام سرور صاحب اللاهوري المفتي غلام محمد بن المفتي رحيم الله القريشي الأسدي الهاشمي.

وغلام سرور من علماء بلاد الهند في القرن الثالث عشر الهجري وكان على قيد الحياة حتى عام ١٢٨٣هـ، وكانت له يد طويلة في النظم والنثر والإنشاء.

بدأ غلام سرور تأليف هذا الكتاب عام ١٢٨٠هـ وأتمه عام ١٢٨١هـ.

وخزينة الأصفياء كتاب في شرح أحوال كبار رجال الدين ومشايخ الصوفية والعارفين في إيران والهند، والكتاب مكوّن من سبعة مخازن:

المخزن الأول: في شرح حال الرسول ﷺ والأئمة (رضوان الله عليهم) والخلفاء وأتباع أهل السنة.

والخمسـة مخازن التالية: في ذكر مشايخ وأولياء الأسر: القادرية والجشتية والنقشبندية والسهروردية.

(١) الهجويري، كشف المحجوب، دراسة وتعليق د. إسعاد عبد الهادي (ص ١٦٣).

(٢) جامي، نفحات الأنس (ص ١٦٤).

(٣) كشف المحجوب، دراسة وتعليق د. إسعاد عبد الهادي قنديل (ص ١٦٣).

والمخزن السابع: يشتمل على شرح لأحوال زوجات النبي وبناته ومجموعة من عارفات النساء وصالحاتهم ومجاذيب عقلاء المجانين.
ويتميز كتاب "خزينة الأصفياء" بأن مؤلفه كان يورد تاريخ ميلاد من يترجم له، وكذلك تاريخ وفاته من أكثر من مصدر تاريخي.
طبع كتاب "خزينة الأصفياء" عام ١٣٣١هـ. ق في مطبعة "منشي نولكشور" في كانپور التابعة للهند^(١).



(١) انظر: محمد علي مدرسي، ريحانة الأدب، جلد چهارم، چاپ دوم، تيريز (ص ٢٥٠: ٢٥٣).



الفصل الثاني مكانة الكتاب بين مصادر التصوف الإسلامي



سبق أن ذكرنا أن فريد الدين العطار اعتمد كثيرًا في كتابه "تذكرة الأولياء" على مصادر التصوف المؤلفة قبله سواء أكانت عربية أو فارسية، وإن كان لا يهتم بذكر هذه المصادر أو بيان هذه الأسانيد في المواضع التي ينقل فيها عنها، أو يستفيد منها فيها، إلا أن المتصفح لهذه المصادر يدرك مدى التأثير والتأثر بينها وبين التذكرة، وإن كان فريد الدين قد تأثر بالمصادر المؤلفة قبله، فإنه أيضًا أثر في المصادر المؤلفة بعده، ولنعرف مكانة كتابه "تذكرة الأولياء" بين هذه المصادر سواء المؤلفة قبله أو بعده علينا أن نبين مظاهر التأثير والتأثر بينها.

مظاهر التأثير والتأثر:

أولاً: بين اللمع وتذكرة الأولياء:

أفاد فريد الدين العطار في كتابه "تذكرة الأولياء" من "اللمع" استفادة محدودة، ونقل عنه بعض الحكايات المتعلقة بالمشايخ والأقوال والأخبار المأثورة عنهم، نذكر منها بعض الأمثلة:

تذكرة الأولياء

(ص ١٥٣) ذكر أبي يزيد البسطامي

يروى أن الشيخ قال: أردت أن أسأل الحق تعالى أن يكفيني مؤنة النساء ثم قلت: لا يجوز لي هذا، ولم يسأله النبي (عليه السلام) هذا، وبهذه الحرمة كفاه الحق تعالى ذلك حتى تساوت لدي المرأة والحائط^(١).

اللمع

(ص ١٤٥)

وسمعت طيفور يقول: سمعت موسى بن عيسى يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبا يزيد رحمه الله يقول: لقد هممت أن أسأل الله تعالى أن يكفيني مؤنة الأكل، ومؤنة النساء، ثم قلت: كيف يجوز لي أن أسأل الله عز وجل هذا ولم يسأله رسول الله عليه الصلاة والسلام؟ فلم أسأله، وكفاني الله تعالى مؤنة النساء حتى إنني لا أبالي استقبلتني امرأة أو حائط.

(١) النص الفارسي للعبارة: نقلت كه كفت: خواستم تا از حق تعالى درخواهم، مؤنت زنان ازم كفايت كند، بس كفتم: روانبود اين، خواستن كه بيعمبر عليه السلام نخواست، بدین حرمت داشت پیغمبر حق تعالى آنرا كفايت كرد، پیش من چه زنی چه دیواری هرد ویکي است.

(ص ۲۴۴)

(ص ۲۹۶، ۲۹۷) ذکر أبي تراب

وقال أبو تراب: عرض علي طعام، فامتنعت من أكله فعوقبت بالجوع أربعة عشر يومًا، فعلمت أنني عوقبت، فاستغثت إلى الله (تعالى) وتبت.

وقال (أبو تراب): عرض علي طعام ذات يوم، فامتنعت عنه، فظللت جائعًا أربعة عشر يومًا بشؤم ذلك الامتناع^(۱).

(ص ۲۶۵)

(ص ۹۳) ذکر ابراهيم بن ادهم

وحكى عن إبراهيم بن أدهم (رحمه الله تعالى) أنه قال: إذا تزوج الفقير فمثله مثل رجل ركب السفينة، فإذا ولد له قد غرق.

قال (إبراهيم بن أدهم): الفقير الذي تزوج كأنه جلس في سفينة، وطالما رزق بولد غرق^(۲).

(ص ۸۰)

(ص ۱۳۰) ذکر ذي النون

الرضا سرور القلب بمر القضاء.

وقال: الرضا سرور القلب بمر القضاء^(۳).

ثانيًا: بين التعرف لمذهب أهل التصوف وتذكرة الأولياء:

نقل فريد الدين العطار في كتابه "تذكرة الأولياء" العديد من الحكايات والأقوال المتعلقة بمشايخ الصوفية عن هذا الكتاب كما سيتضح من الأمثلة الآتية:

التعرف لمذهب أهل التصوف

(ص ۱۴۷)

تذكرة الأولياء

(ص ۳۸، ۳۹) ذکر أبي حفص

وقال أبو عثمان: كنت عند أبي حفص، وبين يديه زبيب، فأخذت زبيبة ووضعتها في فمي، فأخذ بحلقتي وقال: يا خائن، تأكل زبيبتني؟ فقلت: لثقتني بزهادتك في الدنيا وعلمي بإيثارك أخذت الزبيبة، فقال: يا جاهل! تثق بقلب لا يملكه صاحبه؟! يقول أبو عثمان الحيري: كنت أمضي يومًا إلى أبي حفص، فرأيت أمامه بضع حبات من الزبيب، فأخذت زبيبة ووضعتها في فمي فأمسك بحلقتي وقال: يا خائن، لما أكلت زبيبتني وبأي سبب؟ فقلت: إنني أعرف قلبك وأثق بك، وعلمت أيضًا أن كل ما تملكه تؤثره، فقال: إني لا أثق بقلبي أيها الجاهل، فكيف تثق أنت به^(۴)؟

(۱) النص الفارسي للعبارة: وكُتبت: روزي طعامي بر من عرضه کردند، منع کردم، چهارده روز گرسنه ما ندم، از شومی آنک منع کردم.

(۲) النص الفارسي للعبارة: گفت: آن درویشی که زن کرد در کشتی نشست، وجون فرزند آمد، غرق شد.

(۳) النص الفارسي للعبارة: وكُتبت: رضا شاد بودن دلست در تلخی قضا.

(۴) النص الفارسي، ابو عثمان حيري كويد: كه روزي درپيش ابو حفص مي رفتم، ميوني چندين پيش او نهاده، يكي پرده شتم، ودر دهان نهادم، حلق مرا بگرفت، وكُتبت: اي خاين، ميويز من بخوردي، از چه وجهه؟ كُفتم: من از دل تو دانم، بر تو اعتماد دارم، ونيز دانستم كه هر چه داري، ايتار كني، كُتبت: اي جاهل، من بر دل خويش اعتماد ندارم، تو بر دل من چون اعتماد داري؟.

(ص ١٤٤)

قال السري السقطي: إني أذكر مجيء الناس إليّ، فأقول: اللهم هب لهم من العلم ما يشغلهم عني فإنني لا أحب مجيئهم إليّ.

جا ١ (ص ٢٧٨) ذكر سري

قال السري: عندما أعلم مجيء الناس إليّ ليتعلموا مني العلم، أدعو (قائلاً): يارب هب لهم علمًا يشغلهم عني، حتى لا يشغلوني، فإنني لا أحب مجيئهم إليّ^(١).

(ص ١٢١)

قال سهل: التجلي على ثلاثة أحوال: تجلي الذات وهي المكاشفة، وتجلي صفات الذات وهي موضع النور، وتجلي حكم الذات وهي الآخرة وما فيها.

جا ١ (ص ٢٦٥) ذكر سهل

وقال (سهل): التجلي على ثلاثة أحوال: تجلي الذات وهي المكاشفة، وتجلي الصفات وهي موضع النور، وتجلي حكم الذات وهي الآخرة وما فيها^(٢).

(ص ١٣٧)

قبل لذي النون: ما أول درجة يرقاها العارف؟ فقال: التحير، ثم الافتقار، ثم الاتصال، ثم التحير.

جا ١ (ص ١٣٣) ذكر ذي النون

سئل (ذو النون): ما أول درجة يرقاها العارف؟ فقال: التحير، ثم الافتقار، ثم الاتصال، ثم الحيرة^(٣).

ثالثاً: بين طبقات الصوفية وتذكرة الأولياء:

اعتمد فريد الدين العطار على هذا الكتاب في نقل بعض الحكايات والأخبار المتعلقة بمشايع الصوفية، واعتمد عليه أكثر في نقل العديد من أقوال المشايخ. والمتصفح للكتابين يدرك مدى التأثير بينهما في هذا الشأن، ومعظم الأذكار في "تذكرة الأولياء" لا تكاد تخلو من قول أو أكثر ورد في "طبقات الصوفية". والأمثلة هي:

(١) النص الفارسي للعبارة: سري گفت: چون خبر می یابم، که مرد مان بر من می آید، تا از علم آموزند، دعا گویم: یا رب تو ایشانرا علمي عطا کن، کی مشغول گرداند، تا من ایشانرا بکار نیابم، که من دوست ندارم، کی ایشان سوی من آیند.

(٢) النص الفارسي للعبارة: وگفت: تجلی بر سه حال است: تجلی ذات و آن مکاشفه است، و تجلی صفات و آن موضع نور است، و تجلی حکم ذات و آن آخرت است، و ما فيها.

(٣) النص الفارسي للعبارة: پرسیدند که اول درجه کی عارف روی بدانجا نهد چیست؟ گفت: تحیر، بعد از آن افتقار، بعد از آن اتصال، بعد از آن حیرت.

طبقات الصوفية

(ص ۳۷، ۳۸)

سمعت منصور بن عبد الله يقول: سمعت محمد بن حامد يقول: سمعت أحمد خضرويه يقول: قال إبراهيم بن أدهم لرجل في الطواف: اعلم أنك لا تنال درجة الصالحين حتى تجوز ست عقاب: أولاهما: (أن) تغلق باب النعمة، وتفتح باب الشدة. والثانية: أن تغلق باب العز وتفتح باب الذل. والثالثة: أن تغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد، والرابعة: أن تغلق باب النوم، وتفتح باب السهر. والخامسة: أن تغلق باب الغنى، وتفتح باب الفقر. والسادسة: أن تغلق باب الأمل، وتفتح باب الاستعداد للموت.

تذكرة الأولياء

(ج ۱ ص ۱۰۰) ذكر إبراهيم بن أدهم

وقال أحمد بن خضرويه: قال إبراهيم لرجل في الطواف: لا تنال درجة الصالحين حتى تجوز ست عقاب: تغلق باب النعمة، وتفتح باب الشدة، وتغلق باب العز، وتفتح باب الذل، وتغلق باب النوم، وتفتح باب السهر، وتغلق باب الغنى، وتفتح باب الفقر، وتغلق باب الأمل وتفتح باب الأجل والتزين والاستعداد للموت^(۱).

(ص ۶۵)

وبإسناده (حاتم الأصم) قال شقيق: "ليس شيء أحب إلي من الضيف لأن رزقه ومؤنته على الله - وأنا لا شأن لي بينهما - ولي أجره وثوابه^(۲)."

ج ۱ ص ۲۰۱ ذكر شقيق

وقال (شقيق): ليس هناك شيء أحب إلي من الضيف لأن رزقه ومؤنته على الله - وأنا لا شأن لي بينهما - ولي أجره وثوابه^(۲).

(ص ۹۵)

وبإسناده (حامد اللفاف)، قال حاتم: "اطلب نفسك في أربعة أشياء: العمل الصالح بغير رياء، والأخذ بغير طمع، والعطاء بغير منة، والإمساك بغير بخل."

ج ۱ ص ۲۵۰ ذكر حاتم

وقال (حاتم) اطلب نفسك في أربعة مواضع: العمل الصالح بغير رياء، والأخذ بغير طمع، والعطاء بغير منة، والإمساك بغير بخل^(۳).

(۱) النص الفارسي للعبارة: واحمد خضرويه گفت: إبراهيم مردی رادر طواف گفت: درجه صالحان نیایی، تا از شش عقبه نگذری، یکی آنک در نعمت بر خود ببندی، ودر محنت بر خود بگشایی، ودر عز بر بندي، ودر ذل بگشایی، ودر خواب بر بندي، ودر بیداری بگشایی، ودر توانگری ببندی، ودر درویشی بگشایی، ودر امل ببندی، ودر اجل ودر آراسته بودن ودر ساختگی کردن مرکب بگشایی.

(۲) النص الفارسي للعبارة: وگفت: هیچیز دوست ترازمهمان ندارم، ازبهر آنک روزی مؤنت او بر خدای است، ومن در میان هیچ کس نیم، و مزد و ثواب مرا.

(۳) النص الفارسي للعبارة: وگفت: در چهار موضع نفس خود را بازجوی، در عمل صالح بی ریا، ودر گرفتن بی طمع، ودر دادی بی منت، ودر نگاه داشتن بی بخل.

(ص ۱۰۱)

وبهذا الإسناد (العباس بن حمزة) قال أحمد: "ما ابتلى الله عبداً بشيء أشد من الغفلة والقسوة".
وقال (أحمد): ما ابتلى الله عبداً بشيء أشد من الغفلة وقسوة القلب^(۱).

(ص ۱۰۴)

قال (محمد بن حامد الترمذي)، وقال أحمد: "من صبر على صبره فهو الصابر لا من صبر وشكا".
وقال (أحمد): "من صبر على صبره فهو الصابر لا من صبر وشكا".

(ص ۱۱۰)

قال (منصور بن عبد الله): وسمعت يحيى يقول: "ثلاث خصال من صفة الأولياء: الثقة بالله في كل شيء، والغنى به عن كل شيء، والرجوع إليه في كل شيء".
وقال: "ثلاث خصال من صفة الأولياء: الثقة بالله في كل شيء، والغنى به عن كل شيء، والرجوع إليه في كل شيء".

رابعاً: بين حلية الأولياء وتذكرة الأولياء:

كان طبعياً أن يتأثر فريد الدين العطار بـ "حلية الأولياء" لأن "حلية الأولياء" و"تذكرة الأولياء" كتباً في شرح أحوال مجموعة من الزهاد والعباد والصوفية، وتناولوا أقوالهم ومواعظهم وآدابهم إضافة إلى القصص والحكايات المنسوبة إلى كل واحد منهم والأخبار المتعلقة بهم. والأمثلة الآتية توضح هذا التأثير:

(۱) النص الفارسي للعبارة: وكفت: مبتلا نكرند اند حق تعالى هيچ بنده را بهیزي سخت تراز غفلت وسخت دلي.

(۲) الأصل الفارسي للعبارة: وكفت: هر كه صبر كند بر صبر خویش او صابر بود، نه آنك صبر كند وشكايت كند.

(۳) الأصل الفارسي للعبارة: وكفت: سه خصلت از صفت اولیاست: اعتماد كردن بر خدای در همه چیزها، و بی نیاز بودن بدو از همه چیزها، و رجوع كردن بدو در همه چیزها.

حلیة الأولیاء

ج ۸ (ص ۱۱۳)

حدثنا عبد الله بن محمد ثنا إسحق بن أبي إحصان ثنا أحمد بن أبي الحواري قال: سمعت أبا عبد الله الساجي يقول: سألت رجلاً فضيلاً بن عياض فقال: يا أبا علي متى يبلغ الرجل غايته من حب الله تعالى؟ فقال له الفضيل: إذا كان عطاؤه ومنعه إياه عندك سواء، فقد بلغت الغاية من حبه.

تذكرة الأولیاء

ج ۱ (ص ۸۰) ذكر الفضيل

قالوا: متى يبلغ الرجل غايته من حب الله (تعالى)؟ فقال: طالما تساوى لديه المنع والعطاء، فقد بلغ غاية محبته^(۱).

ج ۸ (ص ۳۳۶)

حدثنا محمد بن علي ثنا أحمد بن محمد بن إبراهيم قال: سمعت أحمد بن محمد البراء يقول: سمعت سفيان بن محمد المصيصي يقول: رأيت بشر بن الحارث في النوم، فقلت: ما فعل الله تعالى بك؟ قال: غفر لي وأباح لي نصف الجنة. وقال لي: يا بشر لو سجدت على الجمر ما أدت شكر ما جعلت لك في قلوب عبادي.

ج ۱ (ص ۱۱۳) ذكر بشر

ورأى آخر (بشر) في المنام فقال: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، وأباح لي نصف الجنة، وقال لي: يا بشر لو سجدت لي على الجمر، ما أدت شكر ما وهبتك من منزلة في قلوب عبادنا^(۲).

ج ۹ (ص ۳۸۰)

حدثنا أبي ثنا أحمد ثنا سعيد قال ذو النون وسأله رجل فقال: يا أبا الفيض ما التوكل؟ فقال له: خلع الأرباب وقطع الأسباب. فقال له: زدني فيه حالة أخرى فقال: إلقاء النفس في العبودية، وإخراجها من الربوبية.

ج ۱ (ص ۱۲۲) ذكر ذي النون

سئل (ذو النون) ثانية: عن علامة التوكل فقال: هو خلع الأرباب وقطع الأسباب قالوا: زدنا، قال: طرح النفس في العبودية وإخراجها من الربوبية^(۳).

(۱) الأصل الفارسي للعبارة: گفتند: مرد در کدام وقت در دوستی حق بغایت برسد؟ گفت: چون منع و عطا هر دو یکی برویکسان شوند، بغایت محبت رسیده است.

(۲) الأصل الفارسي للعبارة: وگفت: دیگری بخوابش دید، گفت: خدای باتوجه چه کرد؟ گفت: مرا بیامرزید، ویک نیمه از بهشت مرا مباح گردانید، و مرا گفت: یا بشر، تا بودی، اگر مرا در آتش سجده کردی، شکر آن نکزاردی، که ترا در دل بند کان خود جای دادم.

(۳) الأصل الفارسي للعبارة: بارد یگر پرسیدند از علامت توکل، گفت: خلع ارباب، و قطع أسباب، گفتند: زیادت کن، گفت: انداختن نفس در عبودیت، و بیرون آوردن نفس از ربوبیت.

ج ٩ (ص ٣٢٧)

وقال (منصور): إن الحكمة تنطق في قلوب العارفين بلسان التصديق، وفي قلوب الزاهدين بلسان التفضيل، وفي قلوب العباد بلسان التوفيق، وفي قلوب المريدين بلسان التفكير، وفي قلوب العلماء بلسان التذكير.

ج ١٠ (ص ٣٣٧) ذكر منصور

وقال منصور: إن الحكمة تنطق في قلوب العارفين بلسان التصديق، وفي قلوب الزاهدين بلسان التفضيل، وفي قلوب العباد بلسان التوفيق، وفي قلوب المريدين بلسان التفكير، وفي قلوب العلماء بلسان التذكير^(١).

خامساً: بين الرسالة القشيرية وتذكرة الأولياء:

أفاد فريد الدين العطار من "الرسالة القشيرية" - خاصة الجزء المتعلق بتراجم شيوخ الصوفية - في نقل بعض الحكايات المنسوبة إلى هؤلاء المشايخ خاصة المتعلقة بكراماتهم، وكذلك نقل عن الرسالة بعض الأقوال الماثورة عن شيوخ الصوفية والأخبار المتعلقة بهم.

كما سيتضح من الأمثلة الآتية:

الرسالة القشيرية

(ص ١٨، ١٩)

تذكرة الأولياء

ج ١٠ (ص ١٠٨) ذكر بشر

سمعت محمد بن الحسين (رحمه الله) يقول: سمعت محمد بن عبد الله الرازي يقول: سمعت بلالاً الخواص يقول: كنت في تيه بني إسرائيل، فإذا رجل يماشيني، فتعجبت منه، ثم ألهمت أنه الخضر (عليه السلام) فقلت له: بحق الحق من أنت؟ فقال: أخوك الخضر، فقلت له: أريد أن أسألك؟ فقال: سل، فقلت: ما تقول في الشافعي (رحمه الله)؟ فقال: هو [من] الأوتاد. فقلت: ما تقول في أحمد بن حنبل (رضي الله عنه)؟ قال: رجل صديق. قلت: فما تقول في بشر بن الحارث الحافي؟ فقال: لم يخلق بعده، مثله.

يروي أن بلالاً الخواص، قال: كنت أمضي في تيه بني إسرائيل، وكان رجل يمضي معي، فألهمني قلبي أنه الخضر، قلت: بحق الحق قل: ما اسمك؟ قال: أخوك الخضر. قلت: ما تقول في الشافعي؟ قال: هو من الأوتاد. قلت: ما تقول في أحمد بن حنبل؟ قال: هو من الصديقين. قلت: ما تقول في بشر؟ قال: لن يوجد بعده مثله^(٢).

(١) الأصل الفارسي للعبارة: وكفت: حكمت سخن گوید دردل عارفان بزبان تصديق، ودر دل زاهدان بزبان تفضيل، ودر دل عابدان بزبان توفيق، ودر دل مريدان بزبان تفكر، ودر عالمان بزبان تذكر.

(٢) الأصل الفارسي للعبارة: نقلست كه خواص گفت: در تيه بني اسرائيل مي رفتم، مردي با من مي رفت، الهامي بدل من آمد، كه او خضر است، گفتم: بحق حق كي بكوي، كه ترا نام چيست؟ گفت: برادر تو خضر است گفتم: در شافعي چه گوئي؟ گفت: از اوتاد ست گفتم: در احمد حنبل چكوئي؟ گفت: از صديقا نست. گتم: در بشر چكوئي؟ گفت ازبس او چون او نبود.

(ص ۲۰)

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق (رحمه الله تعالى) يقول: كان الحارث المحاسبي إذا مد يده إلى إصبعه عرق، فكان يمتنع عنه.

ج ۱ (ص ۲۳۵، ۲۳۶)

وكانت عناية الحق (تعالى) تحفظه إلى حد أنه عندما كان يمد يده إلى طعام فيه شبهة، كان عرق يتحرك داخل إصبعه، بحيث لا يطاوعه الإصبع، فكان يعرف أن تلك اللقمة فيها شبهة^(۱).

(ص ۱۷)

ويحكي عن السري أنه قال: التصوف اسم لثلاث معان: وهو الذي يطفئ نور معرفته نور ورعه، ولا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب أو السنة، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله.

ج ۱ (ص ۲۸۲) ذكر سري

وقال السري: التصوف اسم لثلاث معان: وهو الذي لا يطفئ (نور) معرفته نور ورعه، ولا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب، وتحمله الكرامات على نهى الناس عن المحارم^(۲).

(ص ۳۱)

ومات صديق له وهو عند رأسه، فلما مات، أطفأ حمدون السراج، فقالوا له: في مثل هذا الوقت، يزداد في السراج الدهن، فقال لهم: إلى هذا الوقت، كان الدهن له، ومن هذا الوقت، صار الدهن للورثة.

ج ۱ (ص ۳۳۲) ذكر حمدون

ووصل (حمدون) في التقوى إلى حد أنه: كان بجوار فراش صديق له ذات ليلة، وكان في النزاع فلما مات، أطفأ حمدون السراج، وقال: لهذا السراج وارث في هذه الساعة، ولا يجوز لنا إشعاله^(۳).

سادساً: بين صفة الصفوة وتذكرة الأولياء:

سبق أن ذكرنا أن كتاب "صفة الصفوة" هو اختصار لكتاب "حلية الأولياء" مع إضافة بعض التراجم إليه، لذلك كثيراً ما نجد حكايات وأخباراً وأقوالاً متعلقة بشيوخ التصوف وردت في الحلية و"صفة الصفوة" وكذلك "تذكرة الأولياء" إلا أن فريد الدين العطار نقل عن "صفة الصفوة" حكايات وأقوالاً لم ترد في "حلية الأولياء" نذكر منها على سبيل المثال:

(۱) الأصل الفارسي للعبارة: وعنايت حق تعالى در حفظ او ندان بود که، چون دست بطعامي بردي، که شبیه درو بودي، رکي در پشت انگشت او کشیده شدی، چنانک انگشت فرمان او نبردي، او بدانستي، که آن لقمه بوجه نیست.

(۲) الأصل الفارسي للعبارة: وگفت: تصوف ناميست سه معنی را: یکی آنک معرفتش نور ورع فرو نکيرد، ودر عالم باطن هيچ نکويد که نقض ظاهر کتاب بود، وکرامات اورا بدان دارد که مردم باز دارد از محارم.

(۳) الأصل الفارسي للعبارة: ودر تقوی چنان بود که شبي بر بالين دوستي بود، در حالت نزاع، چون آن دوست وفات کرد، چراغ بنشانند، وگفت: اين ساعت اين چراغ وارث است، مارا روا نباشد سوختن.

صفة الصفوة

ج ٤ (ص ١٠١)

علي بن المثنى قال: سمعت عمي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبا زيد يقول: رأيت رب العزة (تبارك وتعالى) في المنام، فقلت: يا بارخدا، كيف الطريق إليك؟ فقال: اترك نفسك ثم تعال.

تذكرة الأولياء

ج ١ (ص ١٧١) ذكر أبي يزيد

وقال (أبو يزيد): رأيت الحق (عز وجل) في المنام، فسألته: كيف الطريق إليك؟ قال: اترك نفسك تصل إليّ^(١).

ج ٤ (ص ١٨٩)

أحمد بن أبي الحواري قال: سمعت أبا سليمان عبد الرحمن بن أحمد العنسي يقول: ... وإن الجوع عنده في خزائن مدخرة، ولا يعطي إلا من أحب خاصة.

ج ١ (ص ٢٣٢) ذكر أبي سليمان

وقال (أبو سليمان): الجوع عند الله خزينة من الخزائن المدخرة، لا يعطي إلا من يحب^(٢).

ج ٢ (ص ٢٤٢)

قال علان: وأي شيء أعجب من هذا، اشترى (سري) كر لوز بتسعين دينارًا، فأثاه الدلال وقال: أريد ذاك اللوز، فقال: خذه. فقال: بكم؟ قال: بثلاثة وستين دينارًا - قال له الدلال: إن اللوز قد صار الكر بتسعين. فقال له الدلال: وإني قد عقدت بيني وبين الله (تعالى) لا أغش مسلمًا، لست آخذ منك إلا بتسعين دينارًا. فلا الدلال اشترى منه، ولا سري باعه.

ج ١ (ص ٢٧٤) ذكر سري

يروى أن السري لم يكن يطلب في البيع والشراء ربًا سوى نصف دينار على كل عشرة، وذات مرة اشترى لوزًا بستين دينارًا، وحدث أن ارتفع ثمن اللوز، فأثاه دلال وقال: بعه، قال: بكم؟ قال: بثلاثة وستين دينارًا. قال الدلال: ثمن اللوز اليوم تسعون دينارًا، فقال: إني قد عقدت العزم ألا آخذ أكثر من نصف دينار على كل عشرة دنانير، ولن أنقض عزمي، فقال الدلال: وأنا أيضًا لا أجز أن أبيع بضاعتك بالقليل، فلم يبع الدلال، ولم يجز سري^(٣).

(١) الأصل الفارسي للعبارة: وكفت: حق را بخواب دیده، برسیدم، که راه بتو چونست؟ کفت: ترک خود گوی که بمن رسیدی.

(٢) الأصل الفارسي للعبارة: وكفت: جوع نزدیک خداي از خزانه مدخر که ندهد بکسي الا بدان که او را دوست دارد.

(٣) الأصل الفارسي للعبارة: نقلت که در خرید و فروخت خرده نیم سود نخواستی، یکبار بشصت دینار بادم خرید بادم گران شد، دلال بیامد، وكفت: بفروش، كفت: بچند؟ كفت: بشصت و سه دینار، كفت: بهاء بادم امروز نود دینار است، كفت: قرار من اینست که هر ده دینار نیم دینار بیش ستانم، من عزم خود نقض نکنم، دلال كفت: من نیز روا ندارم که کالاي تو بکم بفروشم، نه دلال فروخت، و نه سري روا داشت.

أبو العباس الشرقي قال: كنا مع أبي تراب النخشي في طريق مكة، فمرض، فعدل عن الطريق إلى ناحية، فقال له بعض أصحابه: أنا عطشان، قال: فضرِب برجله فإذا عين من ماء زال. فقال الفتى: أحب أن أشربه في قدح، فضرِب بيده الأرض، فإذا قدح من زجاج أبيض كأحسن ما رأيت، فشرب من ذلك الماء، وسقى الرفاق، وما زال القدح معنا إلى مكة.

يقول أبو العباس السيرمي: كنت مع أبي تراب في البادية، فقال أحد الأصحاب: أنا عطشان، فضرِب الأرض برجله، فإذا عين من ماء. فقال الرجل: أحب أن أشربه في قدح، فضرِب بيده الأرض، فإذا قدح من زجاج أبيض كأحسن ما رأيت، فشرب من ذلك الماء، وسقى الرفاق، وما زال القدح معنا إلى مكة^(١).

سابعاً: بين كشف المحجوب وتذكرة الأولياء:

اعتمد فريد الدين العطار اعتماداً كبيراً على "كشف المحجوب" في نقل الحكايات والأخبار والأقوال المتعلقة بمشايع الصوفية. وهو كما ذكر بهار^(٢) غالباً ما كان ينقل عنه نفس عباراته مع قليل من التصرف بأن يبدل الألفاظ القديمة بالحديثة.

والأمثلة على تأثر فريد الدين بـ "كشف المحجوب" كثيرة ومنتشرة على طول الكتاب، وقد عقد بهار موازنة بين الكتابين^(٣) وأورد محمد عباسي^(٤) في مقدمته لكشف المحجوب مثلاً لهذا التأثير والتأثر بينهما.

(١) الأصل الفارسي للعبارة: أبو العباس سيرمي گوید: کبا بو تراب در بادیه بودم، یکی از یاران گفت: مرا تشنه است. پای بر زمین زد، چشمه آب پدید آمد، مرد گفت: مرا چنان نیکوتر نباشد، وی از آن آب بخورد، و یاران آب داد، و آن قدح تا بمکه با ما بود.

(٢) انظر: سبک شناسی، جلد دوم (ص ٢٠٦).

(٣) انظر، السابق (ص ٢٠٦ - ٢٠٩).

(٤) أبو الحسن علي بن عثمان الجلابي الهجویری: كشف المحجوب، از روی متن تصحیح شده والنیتن رو کوفسکی، ترجمه مقدمة مفصل روسی بفارسی با تحقیقات نوین راجع به مصنف و آثار وی و بحث تاریخی در باره تجلیات تصوف ایرانی بانضمام فهرستهای هفتگانه والحق دو فهرست بقلم: محمد عباس ١٣٣٦ هـ. ش (ص ٣٢).

كشف المحجوب

(ص ۲۹۷) من الترجمة العربية

... أن الحسن مرَّ يومًا بباب صومعته (حبيب) وقت صلاة العشاء، وكان قد أقام الصلاة ووقف يصلي، فدخل الحسن ولم يقتد به؛ لأن لسانه لم يكن جاريًا على قراءة القرآن. ولما نام (الحسن) رأى الله سبحانه وتعالى في منامه فقال: يا إلهي يا ذا الجلال! فيم يكون رضاؤك؟ فقال: يا حسن، كنت قد أدركت رضانا فلم تعرف قدره، فقال: يا إلهي تعاليت! ما هو؟ قال: لو أنك صليت خلف حبيب بالأمس.. لكننا رضينا عنك.

تذكرة الأولياء

ج ۱ (ص ۵۳) ذكر حبيب

مرَّ الحسن على باب صومعة (حبيب) وقت صلاة العشاء، وكان قد أقام الصلاة، ووقف، فدخل الحسن، وكان حبيب يقرأ الحمد "الهمد" فقال الحسن: إن الصلاة خلفه ليست صحيحة، ولم يقتد به، وكبر للصلاة بنفسه، ولما حل الليل، نام فرأى الحق تبارك وتعالى في المنام، فقال: يا إلهي! فيم [يكون] رضاؤك؟ قال: كنت قد أدركت رضانا يا حسن فلم تعرف قدره، قال: يا إلهي، وما هو؟ قال: لو أنك صليت خلف حبيب لكنت قد نلت رضانا.

(ص ۱۰۷) من الأصل الفارسي

... كي نماز شام حسن بدر صومعه وي (حبيب) بگذشت. وي قامت نماز شام گفته بود، واندر نماز ايستاده، حسن اندر آمد، واقتدا بدو نکرد، از آنچه زبان وي برخواندن قرآن.

جاري نبود، بشب كي بخفت، خداوند سبحانه وتعالى بخواب ديد، گفت: بار خدايا رضاي تو اندر چه چيز است؟ گفت: يا حسن: رضاي ما يافته بودي، قدرش ندانستي، گفت: بار خدايا آن چه چيز بود، گفت: اكر تواز پس حبيب دوش نماز بكردي،.. از تو راضي شديمي.

الأصل الفارسي للعبارة

وقتي نماز شام حسن بدر صومعه او (حبيب) بگذشت، وقامت نماز شام گفته بود، ودر نماز ايستاده، حسن در آمد، حبيب الحمد را الهمدمي خواند، گفت نماز دريبي او درست نيست، بدو اقتدا نکرد، و خود بانگ نماز بگزار، چون شب در آمد، بخفت، حق را تبارك وتعالى بخواب ديد، گفت: اي بار خداي رضاي تودر چه چيز است، گفت: يا حسن رضاء من در يافته بودي، قدرش ندانستي، گفت: بار خدايا آن چه بود، گفت: اكر تونماز كردي از پس حبيب، رضاء ما در يافته بودي.

(ص ٢٤٣) من الترجمة العربية

وجاء إبراهيم بن أدهم أبا حنيفة (رحمه الله) وعليه مرقعة من الصوف فنظر إليه أصحاب أبي حنيفة بعين الاحتقار، فقال أبو حنيفة: جاء سيدنا إبراهيم بن أدهم. فقال له أصحابه: لا يجري الهزل على لسان إمام المسلمين. فبم وجد هذه السيادة؟ قال: بالمداومة على الخدمة، فقد انشغل بخدمة الله، وانشغلنا بخدمة أنفسنا حتى صار سيدنا.

ج ١ (ص ٨٥، ٨٦) ذكر إبراهيم بن أدهم

وجاء إبراهيم بن أدهم أبا حنيفة (رضي الله عنه) ذات يوم، فنظر إليه أصحاب أبي حنيفة بعين الاحتقار، فقال أبو حنيفة: جاء سيدنا إبراهيم. فقال له أصحابه: وبما وجد هذه السيادة؟ قال: لأنه انشغل دائماً بخدمة الله، وانشغلنا نحن بخدمة أنفسنا.

(ص ٥١) من الأصل الفارسي

وابراهيم ادهم بنزدك ابو حنيفة آمد (رح)، با مرقعة از صوف، اصحاب ويرا بچشم تصغير نكريستند بو حنيفة گفت: سيدنا ابراهيم بن ادهم آمد، اصحاب گفتند: بر زبان امام مسلمانان هزل نرود، اين سيادت بچه يافت؟ گفت: بخدمت برودوام، كي بخدمت خداوند مشغول شد، وما بخدمت تنهاء خود، تا وي سيد ما گشت.

الأصل الفارسي للعبارة

ويك روز پيش ابو حنيفة (رضي الله عنه) در آمد، اصحاب ابو حنيفة ويرا بچشم تقصير نگرستند، أبو حنيفة گفت: سيدنا ابراهيم آمد، اصحاب گفتند، اين سيادت بچه يافت؟ گفت: بدانكك دايم بخدمت خداوند مشغول بود، وما بخدمت تنهاء خود مشغول.

(ص ٥٤٢، ٥٤٣) من الترجمة

ويقول واحد من المشايخ: سألت حاتمًا الأصم (رحمة الله عليه): كيف تصلي؟ قال: حين يدخل الوقت أتوضأ وضوءًا ظاهريًا وآخر باطنيًا، والظاهر بالماء، والباطني بالتوبة. ثم أدخل المسجد وأجعل المسجد الحرام شاهدي، وأضع مقام إبراهيم بين عيني، وأرى أن الجنة عن يميني، والنار عن يساري، والصرط تحت قدمي، وملك الموت خلفي، وعندئذ أكبر بتعظيم، وأقوم بحرمة، وأقرأ بهيبة، وأسجد بتضرع، وأركع بتواضع وأجلس بحلم ووقار، وأسلم بالشكر، وبالله العون.

ج ١ (ص ٣٤٨، ٣٤٩) ذكر حاتم

وسأل أحد المشايخ حاتمًا: كيف تصلي؟ قال: حين يدخل الوقت، أتوضأ وضوءًا ظاهريًا وآخر باطنيًا، وقال: الظاهري بالماء والباطني بالتوبة، وعندئذ أدخل المسجد، وأجعل المسجد الحرام شاهدي، وأضع مقام إبراهيم بين حاجبي، وأرى الجنة عن يميني، والجحيم عن يساري، والصرط تحت قدمي، وأتخيل ملك الموت خلفي، وأعهد بقلبي لله، وعندئذ أكبر بتعظيم، وأقوم بحرمة، وأقرأ بهيبة، وأسجد بتضرع، وأركع بتواضع، وأجلس بحلم، وأسلم بالشكر، وهكذا تكوني صلاتي.

(ص ۲۸۷) من الأصل الفارسي

يكي از مشايخ گوید: از حاتم اصم رحمه الله عليهم پرسیدم، که نماز چگونه کنی؟ گفت: چون وقت اندر آید، يك وضوئي ظاهري و باطني بکنم بآب، و باطني بتوبه، آنگاه در مسجد اندرآیم، و مسجد حرام را شاهد کنم، و مقام ابراهيم را میان دون ابروي خود نهم، و بهشت را بر است خود دانم، و دوزخ را بر چپ خود، و صراط را زیر قدم خود، و ملك الموت را از پس پشت خود، آنگاه تكبيري كنم، با تعظيم، و قیامي بحرمت، و قرائتي با هیئت، و سجودي بتضرع، و ركوعي بشکر، و وقار، و سلامي بشکر، و بالله العون.

(ص ۳۳۴) من الترجمة العربية

یرد عنه أنه قال: الفقير قوته ما وجد، ولباسه ما ستر، و مسكنه حيث نزل.

الأصل الفارسي للعبارة

ويكي از مشايخ حاتم را پرسید، که نماز چگونه کنی گفت: چون وقت درآید، و وضوء ظاهر كنم، و وضوء باطن كنم، گفت: ظاهر را بآب پاك كنيم، و باطن را بتوبه، و آنگاه بمسجد درآيم، و مسجد حرام را مشاهده كنم، و مقام ابراهيم را در میان دو آبروي خود بنهم، و بهشت را بر راست خود، و دوزخ بر چپ خود، و صراط زیر قدم خود دارم، و ملك الموت را پس پشت، خود انگارم، و دلرا بخداي سپارم، آنگاه تكبير بگويم با تعظيم، و قیامي بحرمت، و قرائتي با هیئت، و سجودي با تضرع، و ركوعي با تواضع، و جلوسي بحلم، و سلامي بشکر بگويم، نماز من این چنین بود.

ج ۱ (ص ۲۹۸) ذکر أبي تراب

وقال (أبو تراب): الفقير قوته ما وجد، ولباسه ما ستر، و مسكنه حيث نزل.

(ص ۵۱) من الأصل الفارسي

از وي مي آید که گفت: درويشي قوتش آن بود که بیابد، و در آن اختيار نکند، و لباسش آنک ويرا بپوشد اندر آن تصرف نکند، و جایگاهش آنکه فرود آید، و منزل کند، و خود را جائی نسازد.

الأصل الفارسي للعبارة

وگفت: فقير آنست که قوت او آن بود که بیابد، و لباس او آن بود که عورتي بیوشد، و مسکن او آن بود که در آنجا باشد.

ثامناً: بين أسرار التوحيد وتذكرة الأولياء:

أفاد فريد الدين العطار من "أسرار التوحيد" في ناحيتين:

الأولى: أنه نقل عنه بعض القصص والحكايات المتعلقة بمشايق الصوفية.

الثانية: أنه نقل عنه الكثير من الألفاظ والمصطلحات الصوفية والتي أعد لها بهار فهرساً في كتابه "شبكة شناسي" شرح فيه معناها الصوفي. ونذكر منها على سبيل المثال: آداب، آداب، آداب، آداب وقت: الأدب المراد الثقافة، وآداب كل عمل هي مراعاة ضرورياته وواجباته وتحسينه وإتمامه.

أدمي كرى: أحياناً بمعنى البشرية وأحياناً بمعنى الإنسانية.

آزادي، آزاد: آزادي تأتي أحياناً بمعنى "تشكر" ولكن في "أسرار التوحيد" بمعنى النجاة والنجاة من الماديات^(١).

أما عن الحكايات التي نقلها العطار عن "أسرار التوحيد" فيمكن القول: إنها محدودة إذا ما قيسست باستفادته من بقية مصادر التصوف الإسلامي السابقة عليه.

مثال:

أسرار التوحيد

(ص ٢٨٤) من الترجمة العربية

قال الشيخ: كان سري السقطي يملك حانوتاً في بغداد اعتاد أن يجلس فيه، ولم يكن في الحانوت شيء يبيعه، وكان قد علق على بابه ستاراً، وأخذ يصلي خلفه. وجاء رجل من جبل اللكام لتحتيته فأرشدوه إلى مكانه، فدخل السوق، وسار حتى بلغ الحانوت، ورفع الستار وحياه. قيل لسري: لقد حياك الشيخ فلان من جبل اللكام فقال: أين ذهب؟ قيل: لقد عاد إلى الجبل، فقال: لا ينبغي هذا لكي يكون الرجل رجلاً، بل ينبغي للرجل أن يشتغل بعبادة الله، ولو كان في سوق وسط الناس، وألا يجعل قلبه يخلو من ذكر الله لحظة.

تذكرة الأولياء

ج ١ (ص ٢٧٤) من ذكر سري

وفي بدء أمره كان يقيم في بغداد، وكان له حانوت، كان يعلق ستاراً على بابه ويدخل فيه، ويصلي، وفي كل يوم كان يصلي. فجاء رجل من جبل اللكام لزيارته، ورفع الستار عن الباب، وسلم، وقال لسري: يبلغك الشيخ فلان من جبل اللكام السلام، فقال السري: إنه قد سكن الجبل ولا يعمل، ويجب على الرجل الانشغال بالحق في السوق بحيث لا يغيب عنه لحظة.

(١) انظر، سبك شناسي، جلد دوم (ص ٢١٠ - ٢٢١).

(ص ۲۶۴) من الأصل الفارسي

الأصل الفارسي للعبارة

شيخ گفت: سري سقطي در بازار بغداد نشستي، ودكاني داشتي وهيچيز در دكان نبودكه بفروختي^(۱) ولكن پرده كي از آن دكان آويخته بودي، وپس پرده نماز مي كردي، وقتي کسی از جبل اللكام بزيارت وي بنشان، بازار درآمد، تابدكان وي، وآن پرده برگرفت، وسلام گفت، سري سقطي راگفت فلان پيراز جبل اللكام ترا سلام گفته است، گفت: از اينجا رفته است، باز كوه شدن، مرد ي نبود مردمان بخداي مشغول باشد، ويك لحظه بدل ازو خالي نبود.

در ابتدا، در بغداد نشستي، دكاني داشت، وپرده از در دكان در آويخته، درآمدي، و نماز كردي، هر روز چندين ركعت نماز كردي،....

تاسعاً: بين تذكرة الأولياء وخزينة الأصفياء:

وكما تأثر فريد الدين العطار بالمصادر السابقة عليه فقد أثر أيضاً في المصادر اللاحقة له ومنها "خزينة الأصفياء" فقد تأثر غلام سرور صاحب اللاهوري مؤلف هذا الكتاب بالعطار تأثراً شديداً، واعترف في مواضع كثيرة من كتابه بنقله عن فريد الدين العطار، والمتصفح لهذا الكتاب يدرك شدة تأثر مؤلفه بالعطار في نقل الحكايات المنسوبة إلى المشايخ ويجد أنه يسرد مجموعة من الحكايات المتصلة والمنقولة حرفياً في معظم الأحيان، وبنفس ترتيبها من التذكرة سوى أنه بدل بعض الألفاظ القديمة بألفاظ حديثة، وهذا في التراجم التي وردت في "التذكرة" وفي "خزينة الأصفياء".

والأمثلة على هذا كثيرة نذكر منها:

تذكرة الأولياء

ج ۱ (ص ۱۵) ذكر أويس

أحياناً كان سيد الأنبياء (عليهم السلام) يلتفت ناحية اليمن، ويقول: إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن. وقال سيد الأنبياء (عليهم السلام) أيضاً: يخلق الحق (تعالى) سبعين ألف ملاك يوم القيامة على شاكلة أويس؛ كي يحمل أويس بينهم إلى الحضرة ويذهب إلى الجنة، فلا يعرف شخص قط إلا ما شاء الله أيهم أويس.

خزينة الأصفياء

ج ۲ (ص ۱۱۸) أويس

يقول فريد الدين العطار في "تذكرة الأولياء": إن حضرة خاتم النبوة عليه الصلاة والتحية كان يلتفت بوجهه المبارك ناحية اليمن، ويقول: إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن. وقال سيد الأنبياء (عليه الصلاة الأعلى): يخلق الحق تعالى سبعين ألف ملاك يوم القيامة على شاكلة أويس حتى يذهب بينهم إلى الجنة ولا يعرفه أحد.

(۱) محمد بن منور أبي سعيد بن أبي طاهر بن أبي سعيد مهيني: أسرار التوحيد، باهتمام د. ذبيح الله صفاء، تهران، ۱۳۳۲ هـ. ش.

الأصل الفارسي للعبارة

گاه گاه خواجه انبيا عليهم السلام روى سوى
يمن كردي، وكفتي: إني لأجد نفس الرحمن
من قبل اليمن. يعني نسيم رحمت إز جانب
يمن مي يابم. وباز خواجه انبيا كفت عليهم
السلام، كه فرداي قيامت حق تعالى هفتاد
هزار فرشته را بيافريند، در صورت اويس تا
اويس را درميان ايشان بعرضات برآورند، إلا
ما شاء الله واقف نگردد، كه در آن ميان اويس
كدامت.

الأصل الفارسي للعبارة

فريد الدين العطار در تذكره الاولياي فرمايد،
كه حضرت خاتم النبوة عليه الصلاة والتحية
روي مبارك بجانب اليمن كردي، وفرمودي،
كه إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن.
يعني مي يابم نسيم رحمت از جانب اليمن.
ونيز خواجه انبيا عليه الصلاة الأعلى فرمود:
كه فرداي قيامت حق تعالى هفتاد وهزار فرشته
بصورت اويس قرني بيافريند، تادر ميان ايشان
اودر بهشت رود، وكسى اورا نشناسي.

ج ١ (ص ٤١) ذكر مالك

ويقول البعض: إن مالكا بن دينار كان قد
جلس في سفينة، وعندما وصلت إلى وسط
البحر، قال أهل السفينة: هات أجرة السفينة.
قال: ليس لدي، فضربوه طويلاً حتى فقد
وعيه، وعندما تاب إلى رشده ثانية، قالوا له:
هات أجرة السفينة، فقال: لا أملك، قالوا:
فلنمسك بقدميه، ونلقي به في البحر، فظهر
كل ما كان من سمك في الماء، وقد أمسكت
كل واحدة دينارين من الذهب بفيها، فمد
مالك يده، وأخذ دينارين من سمكة وأعطاهما
لهم وعندما رأى ملاحو السفينة ذلك، خروا
أمام قدميه، ثم مضى على وجه الماء حتى
اختفى. ولهذا السبب سمي مالك بن دينار.

ج ٢ (ص ١٢٢) مالك

يروى أن مالكا بن دينار جلس في سفينة،
وعندما وصلت إلى وسط الماء، طلب ربان
السفينة الأجرة من ركابها، قال مالك: لا أملك
شيئاً أمنحه لكم، فغضب الملاحون، وضربوه
حتى فقد وعيه، وعندما تاب إلى رشده،
طلبوا منه الأجرة ثانية، وقالوا: إن أمسكنا بك
ألقينا بك في البحر، فاتجه مالك إلى البحر،
وفي الحال ظهرت أسماك البحر، وفي فم
كل واحدة دينار من الذهب، فمد مالك يده،
وأخذ ديناراً من فم سمكة، وألقاه إلى الملاح
فتعجب ملاحو السفينة لهذه الحال، وخروا
أمام قدميه، وتابوا، قال مالك: إنه أخرج قدمه
من السفينة، ومضى على وجه الماء، واشتهر
بمالك بن دينار منذ ذلك اليوم.

الأصل الفارسي للعبارة

وبعض كويند: مالك دينار در كشتي نشسته بود، چون بميان دريا رسيد، أهل كشتي گفتند: غله كشتي بيار، گفت: ندارم، چنداناش بزدند هوش ازو بيرون رفت، چون بهوشي باز آمد، گفتند: پايش گيريم، ودر دريا اندازيم، هرچه در آب ما هي بود همه سر بر آوردند، هر يكي دو دينار زر در دهان گرفته، مالك، دست فراگرد، وازيك ما هي دو دينار بستد وبديشان داد، چون كشق بانان چنينديدند، درپاي او افتادند اوبر روي آب برفت، تا نا پيدا شد، ازين سبب، نام او مالك دينار آمد.

الأصل الفارسي للعبارة

نقل است كه روزي مالك دينار دركشتي سوار شد، چون كشتي درعين دريا رسيد، كشتييانان مزد كشتي از راكبان كشتي در خواستند، مالك گفت: كه هيچ ندارم كه بدهم، ملاحان برآشفتنند، وچندان زدند كه بيهوش شد، چون بازبه هوش آمد، بار ديگر طلب كردند، گفتند، اگرتو گرفته، دريا مي اندازيم، مالك متوجه بدريا شد، في الحال ما هيان دريا سر در رآب بيرون آوردند، بحاليكه دردهان هريك ديناري سمكه، از زر بود، مالك دست دراز كرد، ويك دينار ازدهان ما هي گرفته پيش ملاح انداخت، بمعايه اينحال ملاحان متحير شده، سروپاي وي آوردند، وتائب گشتند، مالك گفت: وپا ازكشتي بيرون نهاد، وبر روي آب برفت، از آن روز نامش مالك دينار مشهور است.

ج ١ (ص ٢٢٧) ذكر أحمد الحواري

قال أحمد الحواري: مرض ابن السماك وأخذنا بوله لنعرضه على طبيب نصراني كان معاصراً له، وفي الطريق الذي كنا نسير فيه رأينا رجلاً جميل الوجه، زكي الرائحة، طاهراً يرتدي ثياباً نظيفة قدم إلينا، وقال: إلى أين تذهبون؟ قلت: إلى الطبيب النصراني فلان، نريده أن يفحص ابن السماك، ونحمل البول لنعرضه عليه. فقال: سبحان الله! أيستعين حبيب الله بعدو الله! وتذهبون إليه عودوا، واذهبوا إلى ابن السماك وقولوا له أن يضع يده على تلك العلة ويقرأ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم و"بالحق أنزلنا وبالحق نزل" فعدنا وشرحنا له الحال ففعل ما أمر به فشفي في الحال.

ج ٢ (ص ١٣٢) ذكر أحمد الحواري

ويروى عن الشيخ أحمد الحواري (رحمة الله عليه) أن ابن السماك مرض ذات مرة فحملت بوله إلى طبيب، وفي الطريق تقدم إليّ شيخ نقي السريرة وضّاء الوجه وقال لي: إلى أين تذهب؟ قلت: ابن السماك مريض، وأريد دواء له من الطبيب قال: سبحان الله! أيستعين حبيب الله بغير الله. عد، واذهب إلى ابن السماك وقل له أن يضع يده على ذلك العضو الممّتل ويقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم و"بالحق أنزلنا وبالحق نزل". فعدت وشرحت له الحال ففعل ابن السماك ذلك، وشفي في الحال.

الأصل الفارسي للعبارة

أحمد حواري كُفْتُ: ابن سماك بيمارشدا تا آب او حاصل كرديم، تا نزد طبيب بریم نصراني، كه در وقت او بود، در راه كه مي رفتيم، مردي را ديديم، نيكوروي، وخوشي بوي، وپاكيزه، وجامه پاك پوشيده، پيش ما بازآمد، وكُفْتُ: كجامي رويد؟ كُفْتُم: بفلان طبيب ترسا، خواهيم كه ابن سماك را تجربت كند، وآب مي بریم، تا بروي عرضه كنيم، كُفْتُ: سبحان الله دوست خدای از دشمن خدای استعانت مي جويد، وبنزدك وي مي رويد، باز كرديد، وبنزدك ابن سماك رويد، وبگوئيد تا دست برآن علت نهدو بر خواند: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم و"بالحق أنزلناه، وبالحق نزل" .. ما باز كُشْتيم، و حال بدو نموديم، او چنان كرد كه فرموده بود، در حال شفا يافت.

الأصل الفارسي للعبارة

واز شيخ أحمد حواري رحمة الله عليه روايت است، كه وقتي ابن السماك رنجور شد، قاروره وي پيش طبيب مي بردم، در راه پيري رو شنضميري با چهره پرنور پيش من آمد، كُفْتُ: كجامي رووي؟ كُفْتُم: ابن السماك بيمار است، براي وي داروي از طبيب ميخواهم، كُفْتُ: سبحان الله دوست خدا از غير خدا استعانت ميخواهد! باز كُرد، وبه نزيديك ابن سماك برو، وبگو، كه دست بدان عضو كه رنج دارد به نهد، وبگويد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم و"بالحق نزل" من باز كُشْتيم، و حال باوي بيان كردم، ابن سماك همچنان عمل كرد، في الحال صحت يافت.

وبعد أن ذكرنا مواضع التأثير والتأثر يتضح أن فريد الدين نقل الكثير من مادة كتابه من الكتب المؤلفة قبله كما نقلت عنه الكتب الصوفية المؤلفة بعده.

وأن فريد الدين كان أحياناً يبدل بعض الألفاظ القديمة بألفاظ حديثة تناسب العصر الذي صنف فيه كتابه.

كما أنه أغفل ذكر الأسانيد في معظم الأحيان مراعاة للاختصار. كذلك فإن تأثيره بهذه المصادر اتضح جلياً في المضمون لا الشكل، فقد نقل أخباراً وأقوالاً وحكايات لمشايخ الصوفية، ولم يتبع منهج كاتب غيره، بل كان له منهجه الخاص به في معالجة موضوعه، اللهم إلا في المقدمة، فقد حذا فيها حذو الكُتّاب السابقين عليه كما سبق أن ذكرنا.

وجدير بالذكر أنه تم توضيح مواضع التأثير والتأثر بين "تذكرة الأولياء" ومصادر التصوف المؤلفة قبله في الجزء الخاص بالترجمة.



سبق أن ذكرنا أن هناك مجموعة من المصادر الصوفية التي ألفت قبل "تذكرة الأولياء" والتي ألفت بعده، وقلنا إن بعض هذه المصادر كان عربيًا وبعضها كان فارسيًا، وبيننا مظاهر التأثير والتأثر بين هذه المصادر وبين "تذكرة الأولياء"، وبناء على ذلك نحاول أن نقيم الكتاب في هذا الفصل ونحدد مكانته بين هذه المصادر.

(١) بالنسبة للكتب السابقة عليه :

أولاً: الكتب العربية :

وتتمثل هذه الكتب في "اللمع" و"التعرف لمذهب أهل التصوف" و"طبقات الصوفية" و"حلية الأولياء" و"الرسالة القشيرية" و"صفة الصفوة".

أما عن **اللمع**: فقد اقتصر على بيان أصول التصوف، وأساس مذهب الصوفية وعقائدهم، وذلك بإيراد أقوال المشايخ في الموضوع الذي يتطرق إليه دون أن يبدي المؤلف رأيه إلا نادرًا^(١).

والتعرف لمذهب أهل التصوف: موسوعة في علم التصوف وجوهره عن طريق إيراد العديد من أقوال الصوفية، مع التدليل والتحليل والبرهان، فهو يحلل كل ما يتحدث عنه، ويبرهن عليه ويأتي له بالدليل من الكتاب والسنة^(٢).

وطبقات الصوفية: يشتمل على تراجم لمجموعة من شيوخ الصوفية ويذكر الحكايات المنسوبة لهم، والأقوال المأثورة عنهم، وكذلك ما سمعه المؤلف مما يتعلق بهم، واقتصر دور مؤلفه على عرض هذه المعلومات فحسب.

وحلية الأولياء: كتاب يشرح أحوال مجموعة كبيرة من الزهاد والعباد والصوفية ويورد الكلمات والمواعظ الحكم والقصص والأقوال والحكايات المنسوبة إلى كل منهم وبعض الأحاديث التي أسندت إليهم.

(١) انظر: اللمع (ص ١٨) من مقدمة المؤلف، كشف المحجوب (ص ١٨١).

(٢) انظر: التعرف لمذهب أهل التصوف (ص ٧).

أما الرسالة القشيرية: فقد جمع مؤلفها بين الأصول المتعلقة بالتصوف وتراجم شيوخ الصوفية، فهي تبين عقائد الصوفية، وتشرح لأحوال ثلاثة وثمانين شخصاً من الصوفية، وتذكر أقوالهم والحكايات المتعلقة بهم، وقد سلك مؤلفها مسلك الإيجاز، ولم يكن يبيد رأيه في مسألة من المسائل التي تعرض لها المشايخ أو قول من أقوالهم. وصفة الصفوة: يمكن أن يقال عنه ما قيل عن الحلية سوى أن مؤلفه مال إلى الإيجاز واختصار الأسانيد.

أما عن تذكرة الأولياء: فقد اختص بتراجم الأولياء، واقتصر على شرح لأحوال اثنين وسبعين شخصاً من الصوفية، وأورد الحكايات المتعلقة بهم والأقوال المأثورة عنهم، والأفعال والكرامات المنسوبة إليهم مثله في ذلك مثل الطبقات والرسالة (الجزء الخاص بالتراجم) والحلية والصفوة إلا أنه تميز عليها جميعاً بما يأتي:

١ - إن فريد الدين العطار في تذكرته التي اختصت بتراجم الأولياء وجه جل اهتمامه إلى عرض الحكايات والأقوال والأخبار المتعلقة بأصحاب التراجم، وبذل جهداً كبيراً في جمعها وذكرها أكثر من أي مؤلف آخر؛ لذلك وجدنا أن بعض الأذكار استغرقت عدداً كبيراً من الصفحات مثل ذكر أبي يزيد البسطامي الذي استغرق أربعاً وأربعين صفحة.

٢ - بالرغم من أن "تذكرة الأولياء" كتاب يشرح لأحوال عدد من الأولياء إلا أن مؤلفه فريد الدين تعرض من خلال ترجمته لهؤلاء الأولياء لبعض الأصول والمفاهيم والمعتقدات الصوفية، وكذلك الأحوال والمقامات والمجاهدات والرياضات، ففريد الدين إذن عرّف بالتصوف وأصوله ومفاهيمه من خلال شرحه لأحوال الصوفية.

٣ - كان فريد الدين يدلي برأيه أحياناً في بعض المسائل التي قد يعرض لها في ذكر من الأذكار، وإن كان يتحرز من ذلك في معظم الأحيان؛ لأنه كان من الطبيعي أن يعرض آراء من يترجم له لا آراءه هو، ولأنه لا يريد أن يقحم كلامه وسط كلام المشايخ والأولياء.

مثال:

ورد في ذكر محمد بن واسع أن شخصاً طلب العظة منه فقال له: كن ملكاً في الدنيا والآخرة بالزهد. ويفسر فريد الدين العطار ذلك بأن الشخص حين يزهد في الدنيا فإنه يستغنى عن الخلق ويصبح غنياً كالملك، وهكذا يكون ملكاً في الدنيا والآخرة^(١).

(١) انظر: تذكرة الأولياء: النصف الأول، (ص ٢).

ثانيًا: الكتب الفارسية:

وتتمثل في كشف المحجوب وأسرار التوحيد.

أما **كشف المحجوب**: فقد جمع مؤلفه بين الأصول الصوفية وتراجم الشيوخ محتديًا حذو القشيري، وتميز على الرسالة بأنه كان يتناول كل شيء بالتفسير والإيضاح، ويناقش الآراء المتعلقة بالموضوع الذي يتحدث عنه، ثم يأتي المؤلف برأيه الخاص، فهو معلم أكثر منه مؤرخ أو راوية، وتميز الكتاب بإيراده لمجموعة من الفرق الصوفية (اثنى عشرة فرقة) نسب كلاً منها إلى مؤسسها، وشرح المذهب الخاص بها والرسوم والعادات المتعلقة بها^(١).

وكتاب **أسرار التوحيد**: ألف في شرح حال الشيخ أبي سعيد بن أبي الخير، لكنه اشتمل على معلومات عن رسوم الصوفية وعاداتهم واجتماعاتهم وتشكيلاتهم والمفاهيم والمصطلحات المتعلقة بهم.

وإن كان "كشف المحجوب" يتميز على "تذكرة الأولياء" بعرضه ودراسته للعديد من الأصول والمبادئ والفرق الصوفية، فقد تعرض العطار لبعض هذه الأصول من خلال تراجمه للأولياء، ولم يفرد لها فصلاً مستقلة، وإذا كان الهجويري توسع في دراستها أكثر من العطار وذلك لاختلاف الغرض عند كل منهما، فقد كان هدف العطار نصيح العامة وإرشادهم بأن يجعلهم يتبعون الأولياء، ويسيروا على نهجهم، ولم يكن غرضه إعداد مؤلف في التصوف كعلم له أصول ومبادئ.

وتتميزت التذكرة على كشف المحجوب بالميزات الآتية:

١ - إن اختصاص التذكرة بالتراجم جعل مؤلفها (فريد الدين) يبذل أقصى جهده في جمع الحكايات والأقوال والأخبار المتعلقة بأصحاب التراجم.

فجاءت التذكرة سبجلاً حافلاً بالعديد من الحكايات والأقوال والأخبار، فقد احتفظت لنا بثمان وثمانين وتسعمائة حكاية وأربعة وستين وثمانمائة وألف من الأقوال المتعلقة بالتصوف وأصوله ومفاهيمه.

٢ - كذلك فإن أسلوب التذكرة جاء أسهل من "كشف المحجوب" حتى إن فريد الدين العطار عندما كان ينقل عن "كشف المحجوب" بعض العبارات كان يبدل الألفاظ القديمة بألفاظ حديثة ملائمة للعصر الذي ألف فيه كتابه فجاءت لغته سهلة بسيطة.

(١) انظر: كشف المحجوب، ترجمة د. إسعاد عبد الهادي قنديل (ص ١٨٢، ١٨٣).

وتميزت التذكرة على أسرار التوحيد :

بأنها شرحت لأحوال اثنين وسبعين شخصاً من شيوخ الصوفية في حين أن "أسرار التوحيد" اقتصر على شرح لحال شيخ واحد من شيوخ الصوفية هو الشيخ أبو سعيد بن أبي الخير .

وهناك مميزات أخرى اختصت بها التذكرة هي :

١ - أن "تذكرة الأولياء" هي المؤلف الثري الوحيد المعروف لفريد الدين العطار ويمكننا من خلاله معرفة سمات أسلوبه الثري، وكذلك سمات النثر الفارسي في القرن السابع الهجري .

٢ - تعد التذكرة من أقدم المؤلفات الفارسية التي اختصت بتراجم شيوخ الصوفية .

٣ - تميز أسلوب التذكرة بالبساطة واللطافة والبعد عن التكلف والصنعة^(١) فقد كتبت بلغة سهلة سلسلة يمكن للعامة والخاصة فهمها وإدراكها .

هذا وتعد التذكرة أفضل نموذج للنثر الفارسي في القرن السابع الهجري^(٢) .

ونظراً لقيمة الكتاب فقد ألزم قطب بن محيي الجهرمي - وهو من صوفية القرن التاسع وعارفيه - مريديه بمطالعة "تذكرة الأولياء" و"كيمياء سعادته" و"إحياء علوم الدين"^(٣) .

ونظراً لأهمية الكتاب أيضاً فقد ترجم إلى عدة لغات هي :

اللغة العربية :

يقال : إن هناك نسخة عربية من "تذكرة الأولياء" في مكتبة جامعة طهران محفوظة تحت رقم (٣٣٧) وتشتمل هذه النسخة على ثلاثمائة وثمان وثلاثين صفحة تبدأ بذكر جعفر الصادق . هذا وقد استنتج القزويني وجود اسم سراج الدين عمر بن علي بن عمر القزويني في الورقة الأولى من النسخة (المتوفى بقول السيوطي في ذيل طبقات الحفاظ للذهبي سنة ٧٧٥هـ / ١٣٧٣م وبقول محشي الكتاب سنة ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) وبقول مؤلف الأعلام ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م) وبناء عليه فإنه رجح أن الترجمة تمت بعد سنة ٧٤٨ أو ٧٧٥هـ . هذا وقد عثر أحمد ناجي القيسي في هامش الصفحة الرابعة بعد الثلاثمائة على هذا السطر : "أين كتاب را در شب ٣١ دلو خط براي یادگاري است" وترجمتها : "كتبت هذا الكتاب في ليلة ٣١ دلو سنة ٨٨٠ وهو للذكرى" . واستنتج د. القيسي من ذلك أن الترجمة تمت ما بين سنتي ٧٤٨ ، ٨٨٠هـ ويذكر أن المترجم مال

(١) تذكرة الأولياء، النصف الأول (ص ١٥) من مقدمة القزويني .

(٢) سعيد نفيسي، جستجود احوال (ص ١١٠) وهذا الرأي بالطبع يستحق المناقشة إلا أنه يشير لأهمية نشر تذكرة الأولياء .

(٣) بدیع الزمان فروزانفر، شرح أحوال (ص ٨٧) .

إلى الاختصار فقد حذف بعض أقوال المشايخ وكلماتهم في الجزء الأول، وقدّم وأخّر في الجزء الثاني، وأسقط ثلاث تراجم من القسم الأول، هي: ترجمة محمد بن فضل وأبي الحسن البوشنجي والحلاج^(١). وقد حاولت الحصول على صورة لهذه النسخة العربية لكنني لم أستطع للأسف، لذلك فلا يمكن إضافة شيء لما سبق ذكره، وقد قام عبد الرحمن بدوي بترجمة ذكر رابعة العدوية إلى اللغة العربية^(٢).

وقد عثر د. القيسي على فصل متعلق بمناقب الحلاج مترجم إلى اللغة العربية في مكتبة الأوقاف العامة^(٣).

اللغة التركية:

ترجمت التذكرة إلى اللغة التركية الشرقية (بالحروف الأويغورية)، وتوجد نسخة من هذه الترجمة في المكتبة الوطنية في باريس محفوظة تحت رقم ١٠٠، وقد قام باثيت كورتي بنشرها في باريس سنة ١٨٩٠م، وتشتمل هذه الترجمة على نفس أبواب التذكرة الأصلية وتختتم بالحلاج، لكن بها سقطات وأحياناً لم يكن المترجم الأويغوري يدرك المعاني ودقائق العبارات، فعجزت عباراته عن بيان حقائق المعرفة^(٤).

وقد كتبت هذه الترجمة بخط كان رائجاً في بلاط الجنكيزيين وتوجد منها نسخة في خزانة السلطان الفاتح محفوظة تحت رقم ٢٨٤٨^(٥).

وقد ترجمت التذكرة إلى التركية عدة مرات:

فهناك ترجمة باللغة التركية القديمة قام بها آيدين أوغلي محمد بك في ٧٠٧ - ٧٣٤هـ، ١٣٠٧ - ١٣٣٣م وتوجد مخطوطة منها في خزانة ولي الدين أفندي محفوظة تحت رقم ١٦٤٣^(٦).

وترجمة قام بها سنان الدين يوسف بن خضر خواجه باشا (٩٩١هـ - ١٤٨٦م).

وترجمة قام بها رضا القره حصاري.

وترجمة يمتلكها العالم التركي حلمي ضيا كتبت بين سنتي ١٠٠٠ و ١١٠٠هـ، ١٥٩١ -

١٦٨٨م.

(١) انظر: أحمد ناجي القيس، عطار نامه (ص ٤٤٣، ٤٤٤)، تذكرة الأولياء، برسي نصحيح متن د. استعلامي (ص ٣٠، ٣١).

(٢) انظر: شهيدة العشق الإلهي، رابعة العدوية، الكويت ١٩٧٨م، الطبعة الرابعة (ص ١٤٦: ١٦١).

(٣) عطار نامه (ص ٤٤٥).

(٤) انظر: أحمد ناجي القيسي، عطار نامه (ص ٤٤٥)، تذكرة الأولياء، برسي د. استعلامي (ص ٣٢).

(٥) انظر: المرجعان السابقان، نفس الصفحات.

(٦) أحمد ناجي القيسي، عطار نامه (ص ٤٤٥).

وترجمة أعدها خواجه شاه بن سيد أحمد بن سيد أسد الله الخوارزمي بالتركية الشرقية،
توجد في المتحف الآسيوي في ليننجراد ١٢٣٤ هـ، ١٨٢٨-١٨٢٩ م.

وترجمة أخرى بالتركية الشرقية الأوزبكية (بلهجة خيوه) موجودة في أكاديمية العلوم
السوفيتية التاجيكية في طاشقند، ترجع إلى القرن التاسع عشر الميلادي^(١).

اللغة الأوردية:

ترجم عطاء الرحمن صديقي التذكرة إلى الأوردية، ونشرت الترجمة في لاهور ١٩٢٥ م.
وكذلك ترجمها ملك محمد غايت إلى الأوردية، ونشرت الترجمة عام ١٩٣٠ م^(٢).

اللغة الفرنسية:

قام باثيت دي كورتني بترجمة التذكرة إلى الفرنسية عن النسخة المترجمة إلى التركية الشرقية
ذات الحروف الأويغورية، المحفوظة في المكتبة الوطنية في باريس ونشرها عام ١٨٩٠ م، وهذه
الترجمة تشتمل على اثنين وسبعين ذكرًا أسوة بالترجمة الأويغورية وفي بدايتها مقدمة متعلقة
بكتاب "تذكرة الأولياء" وموضوعه^(٣).

اللغة السويدية:

ترجمها إلى السويدية البارون إيرك هيرملين عن طبعة نيكلسون الفارسية ونشرها مع النص
الفارسي في مجلدين في أستكهولم سنة ١٩٣١ م^(٤).

اللغة الإنجليزية:

نقلت مارجریت سميث بعض النماذج من التذكرة إلى الإنجليزية في رسالتها عن العطار
ونشرتها في لندن عام ١٩٣٢ م.

وأعد آبري ترجمة مختصرة للتذكرة مشتملة على تراجم الأولياء ومجردة من الأقوال
والروايات ونشرها عام ١٩٦٦ م تحت عنوان : Muslem saints and Mystics بدأها بمقدمة عن
العطار، ثم تحدث عن أصول التصوف، والتصوف في إيران، وازدهار الأدب الصوفي بها، ثم
انتقل إلى الحديث عن أسباب تأليف التذكرة ومصادرها، ثم ختم مقدمته بجدول بين فيه مواضع
التأثير والتأثر بين السلمي والقشيري والهجویری والعطار^(٥).

(١) انظر: المرجع السابق (ص ٤٤٦).

(٢) انظر: سعيد نفيسي، جستجو در احوال عطار (ص ١١١).

(٣) انظر: تذكرة الأولياء، النصف الأول (ص ١٣٦).

(٤) انظر: المرجع السابق (ص ١٠٤، ١٠٥).

(٥) عطار نامه (ص ٤٤٦).

هذا وقد نظم حافظ العلاف - أحد شعراء القرن التاسع الهجري وكان يقيم في شيراز- التذكرة عام ٨٢١هـ بتشجيع من أبي الفتح إبراهيم سلطان بن شاه رخ - أحد ملوك الأسرة التيمورية المشهورين والراعيين للعلم، وكان يحكم العراق وفارس- وسماها "ولي نامه" وهو يقول في مقدمتها: إنه ألهم بأن ينظم هذا الكتاب وعندما وصل الخبر إلى السلطان إبراهيم شجعه على ذلك.

وقد انشغل حافظ بنظمها ست سنوات وهي تشتمل على أربعة وعشرين ألف بيت من الشعر وأتمها عام ٨٢١هـ في حرم جامع البيت العتيق ويقال جامع شيراز العتيق، وتوجد نسخة من هذه المنظومة في مكتبة مدرسة اللغات الشرقية في موسكو، ويقال: إن هناك نسخة أخرى منها في مكتبة المتحف الآسيوي ببلينجراد (موزة آسيائي ليننجراد)^(١).

ومع أن كتاب "تذكرة الأولياء" يتمتع بأهمية كبرى وقيمة عظيمة كما سبق أن ذكرنا إلا أن هناك بعض المآخذ التي تؤخذ عليه ألا وهي:

١ - لم يهتم فريد الدين العطار بالترتيب التاريخي في سرده للشخصيات، فنجد مثلاً بدأ بذكر محمد بن جعفر الصادق (المتوفى ١٤٣هـ) ثم تبعه بذكر أويس القرني (المتوفى ٣٧هـ) ثم ذكر الحسن البصري (المتوفى ٣٧١هـ) ثم مالك بن دينار (المتوفى ١٣١هـ).

٢ - على الرغم من أن فريد الدين العطار اتخذ جانب الحيطة والحذر في نقله للحكايات المنسوبة إلى الأولياء، إلا أن بعض هذه الحكايات جاءت كاذبة بعيدة عن الواقع، فمثلاً يقول فريد الدين في ذكر أبي يزيد البسطامي: "إنه خدم مائة وثلاثة عشر شيخاً كان الصادق من بينهم"^(٢). بينما توفي جعفر الصادق سنة ١٤٣هـ، وتوفي أبو يزيد سنة ٢٦١هـ. وفي ذكر إبراهيم بن أدهم نقل العطار رواية وقعت له مع الصنوبري عندما جلسا تحت شجرة رمان، وطلبت الشجرة من الصنوبري أن يشفع لها عند إبراهيم ليأكل من رمانها، وقد كانت شجرة قصيرة ثمارها حامضة فأينعت ببركة إبراهيم بن أدهم^(٣).

والجدير بالذكر أن الصنوبري شاعر توفي عام ٣٣٤هـ، ولم يكن معاصراً لإبراهيم بن أدهم (المتوفى ١٦١ أو ١٦٢هـ)^(٤).

(١) انظر: عطار نامه (ص ٤٤٧)، تذكرة الأولياء، برسي د. استعلامي (ص ٣٢).

(٢) انظر: عطار نامه (ص ٤٤٧).

(٣) انظر: المرجع السابق (ص ٤٤٧: ٤٤٩).

(٤) فريد الدين العطار، تذكرة الأولياء، برسي د. استعلامي (ص ٨٣٤).

وكذلك في ذكر سري السقطي، ذكر فريد الدين العطار حكاية وقعت بين حبيب الراعي وسري فحواها "أن حبيبًا الراعي مرَّ بـدكانه يومًا فأعطاه شيئًا للفقراء فدعا له ففترت الدنيا على قلبه" (١).

والمعروف أن سري (م ٢٥٧هـ) لم يكن معاصرًا للحبيب الراعي. وجدير بالذكر أن هذه الحكاية وردت في "كشف المحجوب" ونقلها العطار عنه. ويقول العطار عن حمدون القصار: إنه كان شيخًا لعبد الله بن المبارك (٢) في حين أن عبد الله توفي قبله بتسعين عامًا.

٣ - جاءت بعض الحكايات التي نقلها فريد الدين غريبة تتسم بالمبالغات والشطط أحيانًا، فمثلاً ورد في ذكر إبراهيم بن أدهم "أن إبراهيم كان في سفر وفرغ زاده فصبر أربعين يومًا وأكل الطين" (٣).

وذكر كذلك "أن إبراهيم لم يجد ما ينفقه فأكل الحصى خمسة عشر يومًا" (٤). والمعروف أن النتيجة في هاتين الحالتين غالبًا ما تكون الموت.

وفي ذكر الشافعي ورد أنه "أراد أن يرى امرأة منافقة فعقد قرانه عليها ورآها ثم طلقها" (٥). ولا ندرى ما هدف الكاتب من إيراد هذه الحكاية.

ويذكر عن سهل بن عبد الله التستري "أنه كان يفطر مرة كل ليلة ثم مرة كل ثلاثة أيام، ثم مرة كل خمسة أيام، ثم مرة كل سبعة أيام، ثم مرة كل عشرين يومًا، ثم مرة كل سبعين يومًا" (٦).

وإن كان يفطر مرة كل سبعين يومًا لكان قد انتهى قبل أن يتم السبعين يومًا.

ومن الأمور الغريبة التي ذكرها عن شاه شجاع "أنه لم ينم طيلة أربعين عامًا، وكان يضع الملح في عينيه، فكانتا قد أصبحتا كقدحين من الدماء" (٧).

وجدير بالذكر أن فريد الدين العطار كان معبرًا عن الفكر السائد في عصره، ويبدو أن مثل هذه الحكايات كانت مقبولة لدى العامة والخاصة على السواء. وجدير بالذكر أيضًا أن بعض هذه الحكايات وردت في مصادر التصوف الأخرى.

(١) انظر: تذكرة الأولياء، النصف الأول (ص ٢٧٥).

(٢) انظر المرجع السابق (ص ٣٣٢).

(٣) انظر: المرجع السابق (ص ٩٦).

(٤) انظر: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٥) انظر: المرجع السابق (ص ٢١٣).

(٦) انظر: المرجع السابق (ص ٢٥٣).

(٧) انظر: المرجع السابق (ص ٣١٢).

٤ - كذلك اشتملت بعض الحكايات على مبالغات مرفوضة، فقد ورد في ذكر أبي يزيد حين سئل عن مجاهداته ورياضاته "أنه منع الماء عن نفسه عامًا لأنها لم تطع له أمرًا"^(١).

وجاء في ذكر أحمد بن حنبل "أن محمد بن خزيمه رآه في المنام بعد الوفاة فسأله: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي، ووضع تاجًا على رأسي، ونعلًا في قدمي"^(٢).

٥ - أحيانًا كان فريد الدين لا يراعي الدقة في نقل الحكايات، ففي ذكر الفضيل بن عياض يقول: "إن بول ابنه احتبس فدعا له بالشفاء فشفي في الحال"^(٣).

في حين أن الحكاية وردت في الحلية بإسناد العباس بن أبي طالب عن محمد بن إسحاق عن إبراهيم بن عبد الله "أن بول فضيل نفسه هو الذي احتبس فدعا الله بالشفاء فشفي"^(٤).

ونقل فريد الدين حكاية وقعت بين أبي حفص ويهودي طلب منه أبو حفص أن يعد له طلسمًا، يقرب بينه وبين محبوبته، فأعده له، لكن المراد لم يتحقق؛ لأن اليهودي طلب من أبي حفص ألا يفعل خيرًا طيلة أربعين يومًا، لكنه وهو قادم إلى اليهودي بعد انقضاء المهلة، أزال حجرًا في الطريق؛ حتى لا يتعثر فيه أحد، فقال له اليهودي: لا تغضب الله الذي عصيته أربعين يومًا لكنه أكرمك لعمل خير قمت به في يوم، فتاب أبو حفص على يد اليهودي"^(٥).

وهذه الحكاية نقلها العطار عن "كشف المحجوب" كما هي إلا نهايتها، ففي كشف المحجوب "فتاب أبو حفص وأسلم اليهودي"^(٦).

وربما يشير هذا إلى أن كثرة تردد هذه الحكايات على الألسنة أفقدها عنصر الدقة.

٦ - كذلك نقل العطار أقوال المشايخ الشائعة بدون تدقيق، ففي ذكر حارث يقول: "وقال (حارث): هناك ثلاثة أشياء إن ظفروا بها استفادوا منها، ولم نجد لها نحن هي: المحبة الحسنة بالرعاية والوفاء والشفقة"^(٧).

في حين أنها وردت في الحلية بإسناد الجنيد بن محمد عن أبي العباس بن مسروق على هذا النحو: قال الحارث: "فقدنا ثلاثة أشياء لا نكاد نجد لها إلى الممات: حسن الصيانة، وحسن القول مع الديانة، وحسن الإخاء مع الأمانة"^(٨).

(١) انظر: المرجع السابق (ص ١٥٦).

(٢) انظر: المرجع السابق (ص ٢١٩).

(٣) انظر: المرجع السابق (ص ٨٤).

(٤) انظر: حلية الأولياء، ج ٨ (ص ١٠٩).

(٥) انظر: تذكرة الأولياء، النصف الأول (ص ٣٣٣).

(٦) انظر كشف المحجوب (ص ٣٣٦).

(٧) انظر: تذكرة الأولياء، النصف الأول (ص ٢٢٨).

(٨) حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٧٥).

ونقل عن أبي سليمان الدارائي أنه قال: لكل شيء علامة وعلامة الخذلان ترك البكاء، ولكل شيء صداً، وصداً نور القلب الشيع" (١).

في حين أن هذا القول ورد في الرسالة كما يأتي:

وقال (أبو سليمان): "لكل شيء علم وعلم الخذلان ترك البكاء، وقال: لكل شيء صداً وصداً نور القلب شيع البطن" (٢).

وفي ذكره ليحيى بن معاذ قال: قال (يحيى): "العقلاء ثلاثة: من ترك الدنيا قبل أن تتركه، ومن بنى قبره قبل أن يدخله، ومن أَرْضَى ربه قبل أن يلقاه" (٣).

وقد ورد هذا القول في الحلية على هذا النحو: "وقال: المصيب من عمل ثلاثة أشياء: من ترك الدنيا قبل أن تتركه، وبنى قبره قبل أن يدخله، وأَرْضَى ربه قبل أن يلقاه" (٤).

٧ - كذلك يؤخذ على العطار إغفاله ذكر الأسانيد في معظم الأحيان أو اختصارها وإن كان هذا قد حقق له غاية قصدها وهي الاختصار، إلا أن ذكره للأسانيد كان سيعطي كتابه مزيداً من القيمة والثقة في المعلومات التي أتى بها. والأمثلة على ذلك كثيرة ومنتشرة على طول الكتاب.

٨ - كذلك تضمن الكتاب بعض الأحاديث الموضوعة مثل: "قال رسول الله ﷺ: سيكون في أمتي رجل يقال له نعمان بن ثابت وكنيته أبو حنيفة هو سراج أمتي" (٥).

والخلاصة أن كل عمل - سواء أكان عملاً أدبياً أو غير ذلك - يتمتع بمزايا، لا يخلو من عيوب، وكذلك الحال في "تذكرة الأولياء" فكما أن له مزاياه التي تتلخص في أنه من أقدم المؤلفات الفارسية التي اختصت بتراجم الصوفية، وأنه حفظ لنا الكثير من الحكايات والأقوال المتعلقة بالأولياء، وأن لغته جاءت سلسلة سهلة يمكن للعامة والخاصة إدراكها، وذلك لتلائم الهدف الذي ألف من أجله الكتاب وهو النصح والإرشاد، كما أن أسلوب الكتاب يعد من أفضل نماذج النثر الفارسي غير المتكلف في القرن السابع الهجري - فإن عليه بعض المآخذ أيضاً - والتي سبق شرحها - إلا أن هذه المآخذ لا تقلل من شأنه وقيمه خاصة إذا قرأ الكتاب وتم تناوله بشيء من التدقيق والتمحيص.

(١) تذكرة الأولياء، النصف الأول (ص ٢٣).

(٢) ص (٢٥).

(٣) تذكرة الأولياء، النصف الأول (ص ٣٠٤).

(٤) ج ١٠ ص (٦٨).

(٥) نقلاً عن تذكرة الأولياء، النصف الأول (ص كه) من مقدمة القزويني.

الخاتمة

بناءً على ما سبق يمكن القول:

- ١ - إن عنوان الكتاب هو "تذكرة الأولياء" فحسب.
- ٢ - إن فريد الدين العطار ألف كتابه هذا عام ٦١٧ هـ بعد أن أتم تأليف منظوماته، وفرغ من رحلاته، ومال إلى العزلة والاعتكاف، وانتهى من جمع مادته.
- ٣ - إن كتاب "تذكرة الأولياء" يشتمل على اثنين وسبعين ترجمة لأولياء عاشوا قبل الغزو المغولي، ويذكر أقوالهم وآراءهم ومناقبهم ومكارم أخلاقهم وما أثر عنهم من روايات، ويشرح مقاماتهم وكراماتهم وأحوالهم.
- ٤ - إن فريد الدين العطار استفاد في تصنيف كتابه هذا من الروايات الشفوية التي تناقلتها الأفواه والتي ترامت إلى مسامعه، وأفاد كذلك من الكتب الصوفية المؤلفة قبله سواء أكانت عربية مثل "اللمع" و"التعرف لمذهب أهل التصوف"، و"طبقات الصوفية" و"حلية الأولياء" و"الرسالة القشيرية"، و"صفة الصفوة" أم كانت فارسية مثل "كشف المحجوب" و"أسرار التوحيد".
- ٥ - إن فريد الدين العطار كان يبدأ الذكر بمجموعة من الجمل المسجعة التي تصف صاحب الذكر، وتعدد مناقبه، وغالبًا ما تكون على وزن اسمه أو لقبه، ثم يمدحه بمجموعة من الجمل التي تبين مكانته ومقامه في التصوف، ثم يسرد بعد ذلك مجموعة من الحكايات التي تتعلق بصاحب الترجمة، ثم ينقل مجموعة من الأقوال المأثورة عنه، ثم ينتقل إلى الحديث عن وفاة صاحب الذكر والكرامات المتعلقة بها.
- ٦ - إن مضامين الحكايات تنوعت في "تذكرة الأولياء" من حكايات تتعلق بكرامات الأولياء، وأخرى تتعلق بمجاهداتهم، وحكايات تتضمن أخبارًا متعلقة بصاحب الترجمة، وأخرى تتعلق بأدب الأولياء ورسومهم وطيب أخلاقهم وحسن معاملتهم وتوكلهم على الله وثقتهم به، وكذلك عرفت الأقوال بمقامات الصوفية وأحوالهم وآدابهم ومفاهيمهم.

٧ - إن نثر "تذكرة الأولياء" تميز بالسلاسة واللطافة والبعد عن التكلف والصنعة، وجمله في أغلبها بسيطة ليست مركبة ولا معقدة، وألفاظه منتقاة مؤدية للمعنى ومؤكدة له، وهذه الخصائص جاءت مناسبة للهدف الذي صنف من أجله الكتاب وهو نصح العامة وإرشادهم عن طريق ذكر مناقب الصوفية وأخلاقهم.

هذا ويعد نثر الكتاب من أفضل نماذج النثر الفارسي في القرن السابع الهجري.

٨ - إن فريد الدين العطار اعتمد على كتاب "كشف المحجوب" اعتمادًا كبيرًا في تصنيف كتابه "تذكرة الأولياء"، فهو كثيرًا ما كان ينقل عنه عين عباراته سوى أنه كان يبدل الألفاظ القديمة بألفاظ حديثة مناسبة للعصر الذي ألف فيه الكتاب.

٩ - إن استفادة فريد الدين العطار من "اللمع" و"أسرار التوحيد" كانت استفادة محدودة تلخص في أنه نقل منهما بعض الحكايات المتعلقة بمشايع الصوفية، ونقل من أسرار التوحيد بعض الألفاظ والمصطلحات الصوفية.

١٠ - إن فريد الدين العطار أثر في المصادر اللاحقة له - كما تأثر بالمصادر السابقة عليه - ومن هذه المصادر "خزينة الأصفياء" التي تأثر مؤلفها غلام سرور صاحب اللاهوري تأثرًا شديدًا بفريد الدين العطار، وكان ينقل عنه عين عباراته سوى أنه بدل بعض الألفاظ القديمة بألفاظ حديثة مناسبة للعصر الذي ألف فيه الكتاب.

١١ - إن كتاب "تذكرة الأولياء" تميز على غيره من المؤلفات الصوفية بالميزات الآتية:

(أ) إن "تذكرة الأولياء" تعد من أقدم المؤلفات الفارسية التي اختصت بتراجم شيوخ الصوفية.

(ب) إن فريد الدين العطار وجه جل اهتمامه إلى عرض الحكايات والأقوال والأخبار المتعلقة بأصحاب التراجم، وبذل جهدًا كبيرًا في جمعها، فجاءت تذكرته سجلًا حافلًا بالعديد من الحكايات والأقوال، فقد احتفظت لنا بثمان وثمانين وتسع مائة حكاية وأربعة وستين وثمانمائة وألف من الأقوال المتعلقة بالتصوف وأصوله ومفاهيمه.

(ج) شرح فريد الدين العطار بعض الأصول والمفاهيم والمعتقدات الصوفية، وكذلك الأحوال والمقامات والمجاهدات والرياضات من خلال شرحه لأحوال الصوفية.

(د) كان فريد الدين العطار يدلي برأيه أحيانًا في بعض المسائل التي تعرض لها في أذكاره.

١٢ - إن كتاب "تذكرة الأولياء" نظرًا لأهميته، فقد ترجم إلى لغات عدة منها: التركية والأوردية والفرنسية والإنجليزية والسويدية.

كذلك نظمته حافظ العلاف - أحد شعراء القرن التاسع - شعرًا وسماه "ولي نامه".
وبما أن كل عمل له جوانب إيجابية وأخرى سلبية، فهناك بعض المآخذ التي أخذت على
التذكرة مثل: عدم اهتمام فريد الدين بالترتيب التاريخي في سرده للشخصيات، ونقله لحكايات
غريبة وكاذبة وبعيدة عن الواقع، وأقوال خاطئة، وكذلك إغفاله ذكر الأسانيد، وذكره لبعض
الأحاديث الموضوعة، لكن هذه المآخذ لا تقلل من قيمة الكتاب وأهميته إذا تم تناوله بحرص
ودقة. وربما نتذكر هنا ما نادى به فضيلة شيخ الأزهر عند استقباله لأحد الوفود الأجنبية من
ضرورة تنقية التصوف الإسلامي مما علق به من شوائب.



القسم الثاني



مقدمة مخطوطات الكتاب وطبعاته



١- مخطوطات الكتاب :

هناك العديد من النسخ الخطية لكتاب «تذكرة الأولياء» هي نسخ:

- المتحف البريطاني.
- ريو ٨٠٦، ١٩، إضافي القرن ١٤ م.
- المتحف البريطاني ٧٣١، ١٦، إضافي القرن ١٧ م.
- مجموعة المرحوم برون كمبردج رقم ٧ - ١٤ سنة ١٣٠٧ .
- نفسها رقم ١٢٧ .
- نفسها رقم ١٢٨ .
- نفسها رقم ٢٢١ .
- نفسها رقم جي ٣ - ٧ سنة ١٢٩٧ (منتخبات).
- نفسها رقم جي ٤ - ٩ سنة ١٢٦٩ (مختصرة).
- جامعة كمبردج - ملحق رقم ٢٩١ .
- مجموعة شفر رقم ٣٨١ - قرن ١٣ .
- نفسها رقم ١٤٦٦ سنة ٩٨٨ .
- المكتبة الوطنية باريس ٢٣٠٦ سنة ١٢٢٤ .
- نفسها رقم ٤٠٣ سنة ١١٥٩ .
- نفسها رقم ٤٠٤ - القرن ١٣ - ١٤ .
- نفسها رقم ٤٠٥ سنة ٨٨٨ .
- نفسها رقم ٤٠٦ - القرن ١٦ .
- نفسها رقم ٤٠٧ سنة ١٠٤٩ .

- نفسها رقم ٤٠٨ - القرن ١٣ .
- نفسها رقم ١٥٣ - القرن ١٨ (منتخبات).
- ديوان الهنداته رقم ١٠٥١ سنة ١٠٩١ .
- نفسها رقم ١٠٥٢ (٧٠ ترجمة).
- نفسها رقم ١٠٥٣ (٧٠ ترجمة).
- نفسها رقم ١٠٥٤ (قطعة منه).
- بانكيبور الهند - رقم ٦٥٩ سنة ٧٢٤ (جزآن).
- نفسها رقم ٦٦٠ سنة ٨٣٠ .
- نفسها رقم ٦٦١ سنة ٩٣٩ .
- البودلية سخاو رقم ٦٢٢ عليها ختم ١٠٢٠ (جزآن).
- نفسها رقم ٦٢٣ سنة ١٠٢٦ - ١٠٢٧ .
- نفسها رقم ٦٢٤ سنة ١٠٧٨ .
- نفسها رقم ٦٢٥ مجلدان.
- بودلية بيستن رقم ٢٥٦٧ سنة ٦٩١ (٧٢ ترجمة).
- نفسها رقم ٦٥٦٨ سنة ٦٩٥ (٧٢ ترجمة).
- نفسها رقم ٦٥٦٩ سنة ٩٨٧ (٩٦ ترجمة).
- نفسها رقم ٦٥٧٠ - القرن ١٩ .
- طاشقند رقم ٢٢١٣ سنة ٦٩٨ (الجزء الثاني).
- طاشقند رقم ٢٢١٢ سنة ١٣٢٧ مع ترجمة أوزبكية.
- نفسها رقم ٢٢٠٧ - القرن ١٩ .
- نفسها رقم ٢٢٠٦ سنة ١٢٦٢ .
- نفسها رقم ٢٢٠٥ سنة ١٢٥٣ .
- نفسها رقم ٢٢٠٤ سنة ١٢٤١ .
- نفسها رقم ٢٢٠٣ .
- نفسها رقم ٢٢٠٢ سنة ١٢٣٥ .
- نفسها رقم ٢٢٠١ - القرن ١٨ - ١٩ .
- نفسها رقم ٢٢٠٠ سنة ١٢١٢ .

- نفسها رقم ٢١٩٩ - القرن ١٨ .
- نفسها رقم ٢١٩٨ - القرن ١٧ - ١٨ .
- نفسها رقم ٢١٩٧ - القرن ١٧ .
- نفسها رقم ٢١٩٦ - القرن ١٦ - ١٧ .
- نفسها رقم ٢١٩٥ - القرن ١٧ .
- نفسها رقم ٢١٩٤ سنة ٦٩٨ .
- موسكو ميكلوخو رقم ١٤٠ سنة ٨٨٩ (٩٧ ترجمة).
- نفسها رقم ١٤١ - القرن ١٥ .
- نفسها رقم ١٤٢ سنة ١٠٠٣ .
- نفسها رقم ١٤٣ - القرن ١٧ (٧٢ ترجمة).
- نفسها رقم ١٤٤ - القرن ١٧ (٩٦ ترجمة).
- نفسها رقم ١٤٥ - القرن ١٧ .
- نفسها رقم ١٤٦ - القرن ١٨ .
- نفسها رقم ١٤٧ سنة ٩٢٥ (٩٧ ترجمة).
- نفسها رقم ١٤٨ - القرن ١٧ .
- بهر كلكتة رقم ٨٣ - القرن ١٦ .
- الجمعية الآسيوية إيثانوف رقم ٧٧٠ قطعة منها قرن ١٩ .
- نفسها رقم ٧٧١ سنة ١١١٢ (الأول).
- إيسالا زترستين رقم ٤٠٨ سنة ٧٩١ .
- نفسها رقم ٦٣٦ .
- آصفية حيدر آباد رقم ١٣٥ (انتخاب).
- نفسها رقم ٣٤ .
- نفسها رقم ٣ سنة ٩٢٨ .
- نفسها رقم ٣١ (انتخاب).
- نفسها رقم ١١ سنة ١٠٨٢ .
- آصفية سرکار عالي ص ١٦ .
- ولي الدين استنبول رقم ١٦٤٢ .

- نفسها رقم ١٦٤٥ .
- نور عثمانية استانبول رقم ٢٢٩٧ .
- نفسها رقم ٢٥٣١ .
- قليج علي باشا استانبول رقم ٧٣١ .
- نفسها رقم ٧٣٢ .
- جامعة القاهرة رقم ١٤٨ سنة ١٢٦٠ .
- نفسها رقم ٥٢٤ (متنخبات) .
- دار الكتب المصرية رقم ٨ تصوف فارسي سنة ٧١٥ .
- نفسها رقم ٢ تاريخ فارسي قوله سنة ٧١٧ .
- نفسها رقم ٣ تاريخ فارسي .
- نفسها رقم ٥ تاريخ فارسي سنة ١٢٦٧ .
- آستان قدس رضوى رقم ٨٣٤٧ - قرن ١١ .
- مصطفى عاطف استانبول (في جامعة طهران) فلم ١٠٤ سنة ٨٢٨ .
- كلية الآداب طهران رقم ٢٤٣ ج - قرن ١١ .
- سپهسالار طهران رقم ٧٣٤٢ .

* بشأن المخطوطات راجع فهرست المخطوطات بدار الكتب المصرية، أحمد ناجي القيسي، عطار نامه (ص ٤٥٣ : ٤٥٧) .

طبعاآه :

- طبع كتاب «آذآرة الأولياء» عدة طبعات هي :
- ١ - طبعة لاهور ١٣٠٦ هـ - ١٨٨٩ م.
 - ٢ - طبعة لاهور ١٣٠٨ هـ.
 - ٣ - طبعة لكنهو ١٣٠٨ هـ - ١٨٩١ م.
 - ٤ - طبعة بمبي بلا تاريخ.
 - ٥ - طبعة ليدن باهآمام رنولد آلن نكلسون (با مقدمة قزويني ج ١٣٢٢١ هـ - ١٩٠٥ م ج ٢، ١٣٢٥ هـ - ١٩٠٧ م).
 - ٦ - طبعة اسآكهولم ١٩٣١ م (عن الطبعة السابقة بالزنكغراف).
 - ٧ - طبعة طهران الأولى (عن طبعة نكلسون) ١٣٢١ ش.
 - ٨ - طبعة طهران الآانية (عن طبعة نكلسون).
 - ٩ - طبعة طهران الآالثة (عن طبعة نكلسون) ١٣٣٦ ش.
 - ١٠ - طبعة دهلي (مطبعة فآر المطابع ١٨٥٢).
 - ١١ - طبعة دهلي (مطبعة مجآنبائي).
 - ١٢ - طبعى بمبي - مطبعة محمدي ١٣٢٥ (آآرية).
 - ١٣ - طبعة بمبي - مطبعة محمدي ١٣٨١ هـ (آآرية).
 - ١٤ - طبعة بمبي - ١٣٠٥ (آآرية).
 - ١٥ - طبعة لاهور سنة ١٣٤١ هـ. (آآرية).
 - ١٦ - طبعة الهند ١٢٨٣ هـ (آآرية).
 - ١٧ - طبعة بمبي ١٢٩٤ (آآرية).
 - ١٨ - طبعة دهلي ١٣١٧ هـ (آآرية).
 - ١٩ - مآآف الآثار القديمة طهران رقم ٣٥٩٢ سنة ١٠٠٧ (أسرار الأبرار وأآبار الأخيار).
 - ٢٠ - آامعة آوبنآن رقم ١٥٨٦.
- آزانة أآمد ناآي القيسي عليها بعض الآوارىخ أقدمها ١٢٣٣ عليها آملك لعبد القادر إبراهيم باشا بابان.

ترجمة النصف الأول
من كتاب
«تذكرة الأولياء»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الجواد بأفضل أنواع النعماء، المنان بأشرف أصناف العطاء، المحمود في أعالي ذرى العز والكبرياء، المعبود بأحسن أجناس العبادات في أعماق الأرض وأطباق السماء، ذي العظمة والجبروت والبهاء والجلالة والملكوت والثناء، الذي علا فاحتجب بأنوار المجد والقدس والثناء عن أعين الناظرين وأبصار البصراء، ودنا فاقترب من بصائر المحترقين في وهج العناء، وربط طرف بقاء المنغمسين في لجج بحار توحيده بالفناء، وخلط شرف فناء المتغلغلين في قعر قرية البهاء بمحض البقاء، وأغناهم بعزة الفقر إليه عن ذل الركون إلى الأشياء، وأولاهم التوفيق للحمد عما هو في خزانة الآلاء، وأغناهم بالفناء عن البقاء وبالبقاء عن الفناء، فصاروا بنور فناء الفناء مخلصين عن هواء الأهواء، وحطوا رحال الأنس بفناء القدس مودعين بفناء الفناء، وانقطعوا بالنور الحقيقي عن تخايل الأظلال وتمثيل الأفياء التي هي أعيان الدهماء وأشخاص الإنشاء. نحمده أن كفانا كيد من عادانا فيه، ودفع عنا شر من ناوانا بقلبه وآوانا بفيه، وشغل عنا كل شاغل عنه، وألف بيننا وبين كل مؤلف بيننا وبينه، وجعلنا خدماً وعباداً له، وأكرمنا بشريف خطابه وكريم كتابه، وجعلنا متبعين لحبيبه، ثم من جملة أحبائه، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له يوازيه ولا نظير له يضاهيه، فإن نظرنا إلى الأوصاف الأولوية فلا إله إلا هو، وإن تأملنا الوجود فلا هو إلا هو، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ونبيه وصفيه، أرسله بالحق إلى كافة الخلق، فحل برفيع محله عقد أهل الزيغ والضلال، وفل بحده عدد زمر الخزي والنكال، وأطفأ بنوره نار الغواية، وبوأ أنصاره دار الهداية، وأضاء قلوب المهتدين بهديه بأنوار جواهر الدين، ووفقهم لاقتناء مفاخر ذخائر اليقين، وبصرهم بغوامض سراير النبين، وخص الأصفياء والأتقياء من أتباعهم الذين نفضوا أيديهم عن الكونين، ورفضوا عن قلوبهم الالتفات إلى نعيم الدارين، من شواهد الغيب المكنون، بما لا يبصره لواحق العيون، ولا يستشرف له طوالع العقول ونواجم الظنون، وبلغ قلوبهم بما كاشفها به من نهايات المطالب وغايات الهمم،

واقتنع عن أسرارهم مما طالعها به من أفاصي المقاصد وغايات الغمم، واستصغى أرواحهم بما
يستملكه من أنوار الجلايا القدسية عن شوائب الأنوار وكدورات الظلم.
صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه ما ذر شارق لطف من مشرق فضل، وما وقب غاسق
بعد من أفق طرد ما ابتلي بالبعد العاشق، وما أومض بارق هداية من سحاب عناية، وما لفظ ناطق
صدق بكلمة عشق، وما تقلقل قدم شوق في بادية ذوق، وسلم تسليمًا كثيرًا.



مقدمة



إن تجاوزت القرآن والأحاديث، فليس هناك كلام أسمى من كلام مشايخ الطريقة (رحمة الله عليهم)؛ لأن كلامهم نتيجة للعمل والحال وليس ثمرة للحفظ والقال، ومن العيان لا البيان، ومن الأسرار لا التكرار، ومن العلم اللدني لا العلم الكسبي ومن المعاناة لا الاجتهاد، ومن عالم أدبني ربي لا من عالم علمني أبي، فهم ورثة الأنبياء (صلوات اللهم عليهم أجمعين).

وكنت أرى رغبة شديدة لجماعة من الأصحاب في كلام هؤلاء القوم، ورغبت أنا أيضًا في مطالعة أحوالهم رغبة ملحة، وكانت أقوالهم كثيرة، فإن جمعتها كلها طال (الحديث) (لذا) انتخبت (بعضها) من أجلي ومن أجل الأصحاب، وإن أفدت أنت منها فمن أجلك أنت (أيضًا). وإن أراد شخص مزيدًا من أقوالهم، فكتب المتقدمين والمتأخرين تذخر بذكر هذه الطائفة حيث يجد مراده. وإن طلب طالب شرحًا مستفيضًا لكلمات هؤلاء القوم فليتصفح كتاب «شرح القلب» وكتاب «كشف الأسرار» وكتاب «معرفة النفس والرب» ليحيط بتلك المعاني. ونعتقد أن كل من اطلع على هذه الكتب الثلاثة، لا يخفى عليه أي قول من أقوال هذه الطائفة إلا ما شاء الله. وإن شرحت هذه الأقوال هنا لاستغرقت ألف صفحة، لكن طريق الإيجاز والاختصار سنة كما فخر رسول الله ﷺ فقال:

«أوتيت جوامع الكلم» واختصر لي الكلام اختصارًا.

وحذفت الأسانيد لأن الكلام كان (على هذا النحو): نقل عن شيخ في كتاب ما وذكر في كتاب آخر عن شيخ آخر ما هو مخالف لما نقله الشيخ الأول، وكذلك كانت تفاصيل الحكايات والحالات مختلفة أيضًا. فاحتطت (في ذلك) قدر الإمكان.

ومن الأسباب الأخرى لعدم إيراد شرح لأقوالهم: أنني لم أر أنه من الأدب أن أقحم كلامي بين كلامهم، ولم أجد ذلك من الذوق، ولم أستسغ كلامي بين مثل هذا الكلام سوى إشارات

وردت في أماكن قليلة، لدفع خيال الغرباء والمدعين. وسبب آخر هو: أن كل من يحتاج إلى شرح أقوالهم فالأولى به أن ينظر إلى كلامهم ويشرحه.

وسبب آخر هو: أن الأولياء مختلفون: فبعضهم أهل معرفة، وبعضهم أهل معاملة، وبعضهم أهل محبة، وبعضهم أهل توحيد، وبعضهم يجمع بين كل هذا، وبعضهم (يتصف) بصفة، وبعضهم دون الصفة، وبعضهم لا صفة له. فإن شرحت كلامهم على حدة، لخرج الكتاب عن حد الاختصار. وإن ذكرت الأنبياء والصحابة وأهل البيت، يلزمي كتاب آخر منفصل. وكيف يستقيم بلساني شرح (حال) قوم مذكورين لدى الله ورسوله، ومحمودين في القرآن والأخبار، وهم أهل عالم آخر ودنيا أخرى، فالأنبياء والصحابة وأهل البيت ثلاثة أقوام ساعد كتاباً في ذكرهم إن شاء الله، ليبقى عن العطار تذكراً ثلاثياً عن هؤلاء الأقوام الثلاثة.

وقد حملني على جمع هذه الأقوال (تصنيف هذا الكتاب) عدة أسباب:

أولاً: رغبة إخوان الدين الذين كانوا يطلبون ذلك، وسبب آخر هو: أن يبقى تذكراً عني ينشرح به كل من يقرأه، ويذكرني بدعاء الخير، ويسبب انشراحه يوهب لي الانشراح في التراب، فعندما توفي يحيى بن عمار - الذي كان إماماً للهروي، وأستاذاً للشيخ عبد الله الأنصاري - شوهده في المنام فسئل: ما فعل الله بك؟ قال: جاءني الهاتف قائلاً: كان لي حساب شديد معك يا يحيى، لكنك كنت تنهي علينا في مجلس ذات يوم، فمر على مجلسك أحد أحبائنا، وسمع ذلك، فطاب وقته. فجعلت لك ثواباً لإسعاده، وإلا كنت ستري ماذا كنت أفعل بك؟ وسبب آخر هو: أنهم قالوا للشيخ أبي علي الدقاق: هل توجد فائدة (لنا) في سماع كلام الرجال ما دما لا نستطيع العمل به؟ قال: بلى، إن فيه فائدتين: الأولى: إن كان الرجل طالباً تقوى همته ويزداد طلبه. والثانية: إن وجد شخص أن نفسه تتسم بالغرور أطاح بذلك الغرور، وطرده هذا الإدعاء من رأسه، وبدا الحسن منه سيئاً، ويرى نفسه كان مبصراً كما قال الشيخ المحفوظ (رحمة الله عليه) «لا تزن الخلق بميزانك، وزن نفسك بميزان الموقنين؛ لتعلم فضلهم وإفلاسك. وسبب آخر هو: أنهم قالوا للجنيدي: ما فائدة هذه الحكايات والروايات للمريد؟ فقال: إن كلامهم (الأولياء) جند من جنود الله (تعالى)، يقوي قلب المريد إن كان محطماً، فيجد في أولئك الجند مدداً له والدليل على هذا القول أن الحق (تعالى) يقول: «وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك». وسبب آخر هو: أن سيد الأنبياء (صلوات الله عليه) يقول: «عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة» فإن وضع شخص مائدة تنزل الرحمة عليها كالمطر، ولا يمكن إعادته من هذه المائدة بلا نصيب. وسبب آخر هو: أن أرواح الأولياء المقدسة ستكون عوناً له في هذا الزمان المضطرب، وستظله بظل السعادة قبل الأجل. وسبب آخر هو: أنني رأيت أن أفضل كلام بعد القرآن والأحاديث هو

كلامهم (الأولياء)، ورأيت أن كلامهم في مجمله هو شرح للأحاديث والقرآن، فشغلت بهذا العمل لعلي أشبه بهم، وإن لم أكن منهم أكون قد تشبهت بهم «فمن تشبه بقوم فهو منهم» كما قال الجنيد (رحمة الله عليه): أحسنوا للمدعين فهم أهل تحقيق، وقبلوا أقدامهم، فإنهم إن لم تكن لهم همة عالية (في شيء) كانوا يدعون شيئاً آخر. وسبب آخر هو: أنه ما دام يلزم (فهم) القرآن والأخبار (ومعرفة) اللغة والنحو والصرف، لأن أغلب الخلق لا يستطيعون الاستفادة من معانيهما فهذا الكلام - الذي هو شرح لهما وللخاصة والعامة نصيب فيه - مع أن أغلبه كان باللغة العربية، فقد نقلته إلى اللغة الفارسية حتى تعم (الفائدة). سبب آخر يبدو لي واضحاً وهو: إنهم إن قالوا قولاً مخالفاً لهواك، فإنك تسعى للتأثر من ذلك الشخص (الذي خالفك) وتنكر هذا القول أعواماً، فمادام أن القول الباطل له مثل هذا الأثر في نفسك، فإن قول الحق يمكن أن يكون له في قلبك مثل (هذا) الأثر آلاف المرات، وإن لم تكن تدري، بذلك مثلما سئل الإمام عبد الرحمن الإسكافي عمن يقرأ القرآن، ولا يفهم ما يقرأه، أليكون لذلك القرآن أي تأثير فيه، فقال: يتناول المرء الدواء، ولا يعلم تأثير ما يتناوله، والقرآن لا يؤثر فحسب، بل يؤثر بعمق، فكيف لو أنه أدرك ما يقرأه، فسيكون أثر ذلك كبيراً. سبب آخر هو: أن لي قلباً لا يمكنه أن يقول أو يسمع سوى هذا الكلام إلا مكرهاً ومضطراً «وما لا بد لا جرم» فجعلت من كلامهم (الأولياء) واجباً على أهل الزمان، لأجد لي مؤنساً على هذه المائدة، كما يقول الشيخ أبو علي سياه: لي رغبتان الأولى: أن أسمع قولاً من أقواله، والثانية: أن أرى ولياً من أوليائه. ثم قال: أنا رجل أمني لا أستطيع أن أكتب شيئاً، أو أقرأ شيئاً، يلزمني شخص يتحدث هو، وأسمعه أنا، أو أتحدث أنا، ويسمعني هو، فإن لم يكن هناك حديث عنه (الله) في الجنة، لضاق بها أبو علي.

وسبب آخر هو: أنهم سألوا الإمام أبا يوسف الهمداني (رحمة الله عليه) ماذا نفعل - عندما يمضي هذا الزمان، وتواري هذه الطائفة (الأولياء) وجهها في النقاب - حتى نسلم؟ فقال: تقرأون كل يوم ثمان ورقات من كلامهم، ومن ثم فقد رأيت أن إعداد ورد لأهل الغفلة هو فرض عين. سبب آخر هو: أن رياح محبة هذه الطائفة كانت تموج في قلبي منذ الطفولة بلا سبب، وكان كلامهم مفرحاً لقلبي طوال الوقت، فجمعت كلامهم قدر استطاعتي على أمل أن «المرء مع من أحب»، لأن هذا النوع من الكلام قد اختفى كلية في هذا الزمان، ولبس المدعون لباس أهل المعاني، وعز العارفون كالكبريت الأحمر، كما قال الجنيد للشبلي (رحمة الله عليهما): «إذا وجدت من يوافقك على كلمة مما تقول فتمسك به». سبب آخر هو: إنني مثلما أرى فقد حل زمان «الخير فيه شر» ونسى فيه أشرار الناس أخيار الناس، فأعددت تذكرة للأولياء، وأسमित هذا الكتاب «تذكرة الأولياء»؛ حتى لا ينسى أهل الخسران في هذا الزمان أهل السعادة، ويسعون إلى

أهل الاعتكاف والخلو، ويرغبون في وصالهم حتى ينعمون بالسعادة الأبدية في ظل سعادتهم. سبب آخر هو: أنه لما كان هذا الكلام (كلام الأولياء) هو أفضل كلام لعدة أسباب هي: أولاً: أنه يحقر الدنيا في عين الرجل، ثانياً: يذكره بالآخرة، ثالثاً: يغرس في قلب الرجل محبة الحق، رابعاً: عندما يسمع الرجل هذا النوع من الكلام يعد العدة لطريق لا نهاية له، لذا كان جمع مثل هذا الكلام من جملة الواجبات. ويمكن القول: إنه ليس هناك أفضل من هذا الكتاب في الدنيا؛ لأن كلامهم شرح للقرآن والأخبار وهما أفضل الكلام. ويمكن القول: إن هذا الكتاب يجعل المختلين رجالاً، والرجال شجعاناً والشجعان أفراداً والأفراد عين المعاناة وشرط على من يقرأ هذا الكتاب أن يدرك أي معاناة في أرواحهم (الأولياء) بحيث جعلت مثل هذه الأفعال والأقوال تنبعث من قلوبهم. وقد دخلت يوماً على الإمام مجد الدين الخوارزمي فرأيت يبكى، قلت: خير، قال: ما أطيب قادة كانوا في هذه الأمة بمثابة الأنبياء (عليهم السلام) «فإن علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل» ثم قال: أبكي لأنني قلت البارحة: يا إلهي، أن أمرك لا علة له فاجعلني من هؤلاء القوم أو من المشمولين بالرعاية منهم، فإني لا أطيق القسم الآخر، وأبكي لأنه ربما يكون قد استجاب لي، وسبب آخر هو: أن ينظر في أمر هذا العاجز نظرة شفاعة غداً، وألا يعيدوني يائساً مثل كلب أصحاب الكهف وإن كانوا جميعاً يملكون العظم. يروى أن جمال الموصل (رحمة الله عليه) كان يبذل الدم زمناً ويضحى بالروح، وينفق المال والجاه، حتى دفن إلى جوار روضة سيد الأنبياء (عليه الصلاة والسلام)، وعندئذ أوصى (قائلاً) اكتبوا على شاهد قبري «وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد» وأنا أيضاً أدعي محبة أحبائك، إلهي مع أنني لست أي شخص من المعنيين بهذا الكلام، لكنني محب لهم، فبحق أرواح الأنبياء والأولياء والعلماء الطاهرة لا تحجبني أنا الغريب العاجز عن هؤلاء القوم، ولا تحرمني من رعايتك لهم، واجعل هذا الكتاب سبب قرب لك لا بعد عنك، إنك ولي الإجابة.

الآن نذكر أسماء هؤلاء المشايخ المذكورين في هذا الكتاب، وبعد ذلك نبدأ في شرح مقاماتهم وكراماتهم وأحوالهم بعون الله تعالى.



ذكر عبد الله بن محمد خفيف ذكر أبي محمد الجريري ذكر الحسين بن منصور الحلاج
قدس الله أرواحهم. بعد ذلك نبداً بتوفيق الله تعالى بمقامات الإمام جعفر الصادق رضي
الله عنه.



ذكر ابن محمد جعفر الصادق^(١)

رضي الله عنه



هو سلطان الملة المصطفوية، وبرهان الحجة النبوية، هو العامل الصديق، وعالم التحقيق، هو منية قلب الأولياء، وفلذة كبد الأنبياء، هو ناقد علي^(٢)، ووارث النبي، هو العارف العاشق جعفر الصادق عليه السلام.

كنا قد قلنا: إن ذكر الأنبياء والصحابة وأهل البيت، يلزمنا أن نعد كتابًا مستقلًا. (لكن) هذا الكتاب هو شرح للأولياء الذين قد خلفوهم.

لكننا نبدأ بالصادق تبركًا، ولأنه قد خلفهم أيضًا.

ولما كان من أهل البيت، وقد كثرت الأقوال عن طريقته، والروايات عنه، نورد عدة كلمات له. ولأنهم جميعًا متساوون، عندما يرد ذكر له يكون ذكرًا للجميع. ألا ترى أن القوم الذين يعتنقون مذهبه، (هم قوم) يعتنقون مذهب اثني عشر إمامًا. أي أن الواحد هو اثنا عشر والاثنا عشر واحد.

إن أصفه فقط، لا تستقيم (صفته) بلساني وعبارتي، لأنه كان كاملاً في جملة العلوم والإشارات والعبارات بلا مبالغة. وكان قدوة لجملة المشايخ، واعتمدوا جميعًا عليه، فكان المقتدى المطلق (لهم). وكان أيضًا شيخًا للربانيين، وإمامًا للمحمديين، وهاديًا لأهل الذوق ومرشدًا لأهل العشق، ومقدمًا لدى العباد، ومكرمًا لدى الزهاد وكان أيضًا مصنفًا للحقائق، وفريدًا في لطائف التفسير وأسرار التنزيل. وقد نقل أقوالاً كثيرة عن الباقر عليه السلام. وأعجب من أولئك القوم الذين يظنون أن لأهل السنة والجماعة اختلافًا عن أهل البيت إلا أنه حقيقة يجب أن يقال لأهل السنة والجماعة أهل البيت.

(١) هو الإمام السادس للشيعة الإثني عشرية، ولد عام ٧٧هـ وتوفي عام ١٤٣هـ، كان عالمًا في الدين، وزاهدًا في الدنيا، وورعًا، وقد أقام في المدينة فترة يفيد الشيعة المتممين إليه.

انظر: فريد الدين عطار نيسابوري، تذكرة الأولياء، برسي، تصحيح متن، توضيحات وفهارس د. محمد استعلامي، چاپ دوم، ٢٥٣٥هـ. ش. (ص ٨٢٦)، الإمام محمد علي بن حزم الأندلسي المتوفى ٤٥٦هـ كتاب في الفصل في الملل والأهواء والنحل بهامشه كتاب الملل والنحل للإمام أبي الفتح عبد الكريم الشهرستاني المتوفى ٥٤٨هـ القاهرة ٣١٧هـ-١٣٢١م. الطبعة الأولى، (ص ٢٢٣).

(٢) وردت في النسخ الأخرى (الناقل عن علي).

وأنا لا أعتقد أن شخصاً وقد سيطر عليه الخيال الباطل، ما اعتقده، أن كل من يؤمن بمحمد ولا يؤمن بأبنائه فهو لا يؤمن بمحمد.

حتى إن الشافعي قد أحب أهل البيت لدرجة أنه نسب إلى الرافضة^(١) وحبس. وقد قال شعراً في هذا المعنى وهذا بيت (منه):

لو كان رفضاً حب آل محمد فليشهد الثقلان أنني رافض

ولو أن معرفة آل الرسول وأصحابه ليست من أصول الإيمان، فإن كثرة الفضول الذي لا يفيد لا بأس به - كما تعلم - إن علمته أيضاً، بل إن الإنصاف هو مادام أنك تعلم أن محمداً هو ملك الدنيا والآخرة، فيجب أن تعلم أن لوزرائه مكاتته ولأصحابه ولأبنائه أيضاً. فبذلك تكون سنياً طاهراً ولا يكون لك شأن بأي فرد من خاصة الملك (أتباع رسولك).

مثلما سئل أبو حنيفة^(٢) رضي الله عنه عن خاصة النبي ﷺ، أيهم أفضل؟ قال: الصديق والفراروق من الشيوخ، وعثمان وعلي من الشباب، وعائشة من النساء، وفاطمة من الفتيات (رضي الله عنهم أجمعين).

يروى أن الخليفة المنصور^(٣) قال للوزير ذات ليلة: اذهب، واحضر الصادق، كي أقتله، قال الوزير: إنه قد جلس في زاوية، واعتزل، وانشغل بالعبادة، وقصر يده عن الملك. وليس هناك

(١) الرافضة: عندما توفي أبو جعفر محمد علي انقسم أتباعه إلى فرقتين فرقة قالت بإمامة محمد بن عبد الله بن الحسن بن حسن ابن علي بن أبي طالب الخارج بالمدينة وزعموا أنه القائم المهدي، وأنه حي، ويقوم في جبل الطمية في طريق مكة نجد، وتبعهم المغيرة بن سعيد في هذا فبرئت منه شيعة جعفر بن محمد ورفضوه فأطلق عليهم اسم الرافضة. وقال فخر الدين الرازي: سمو بالروافض؛ لأن زيداً بن علي بن الحسين خرج على هشام بن عبد الملك فطعن جنده في أبي بكر فمنعهم من ذلك فرفضوه.

وقال أبو الحسن الأشعري: سمو بالرافضة لأنهم رفضوا إمامة أبي بكر وعمر وأجمعوا على أن النبي استخلف علي بن أبي طالب، وانقسم الرافضة إلى اثنتي عشرة فرقة العلوية، والأمرية، والإسحاقية، والناوسية، والإمامية، واليزيدية، والعباسية، والمتناسخة، والرجعية، واللاعنية، والمترتبة.

انظر: سعد بن عبد الله أبو خلف الأشعري القمي م ٣٠١ هـ، كتاب المقالات والفرق، صححه وقدم وعلق عليه د. محمد جواد مشكور، طهران ١٩٦٣ م (ص ٧٦، ٧٧).

الحافظ الإمام جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي البغدادي م - ٥٩٧ هـ تلبس إبليس، (ص ١٨).

(٢) أبو حنيفة: انظر الكتاب، (ص ٣٠٨).

(٣) المنصور: هو أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي الخليفة العباسي الثاني، ولد سنة ١٠١ هـ، وتولى الخلافة عام ١٣٦ هـ فأنتم دور التأسيس للدولة العباسية، وبنى مدينة بغداد، وجعلها عاصمة للعباسيين، وقد بلغت في عهده درجة كبيرة من العظمة والازدهار، ووطد أمور الدولة لمن بعده وصان حدودها، واتبع سياسة القوة مع العلويين.

انظر: د. حسن أحمد محمود، د. أحمد إبراهيم الشريف، العالم الإسلامي في العصر العباسي ١٩٨٠ م، الطبعة الرابعة، (ص ١٣١، ١٣٢)، محمد بك الخضري، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة العباسية، القاهرة ١٣٤٩ هـ - ١٩٣٠ م، الطبعة الثالثة، (ص ٧٢).

ضرر منه على أمير المؤمنين فما هي الفائدة من قتله؟ ومهما تحدث لم يجد قوله، فذهب الوزير في طلب الصادق، وقال المنصور للغلمان: عندما يدخل الصادق، وأرفع العمامة عن رأسي، اقتلوه. أحضر الوزير الصادق، فهب المنصور في الحال، وتقدم مسرعاً نحو الصادق وأجلسه في الصدارة وجلس أمامه راکعاً. فتعجب الغلمان. ثم قال المنصور: ماذا تريد؟ قال الصادق: ألا تستدعيني أمامك، وتتركني في طاعة الله، فأصدر أمراً (بذلك). وأرسله في إعزاز تام. في الحال، اعترت المنصور رعشة فسحب الملاة على رأسه، وفقد وعيه. يقال: مرت عليه ثلاث صلوات، وعندما عاد إلى رشده، سأله الوزير: أي حال تلك؟ قال: عندما دخل الصادق من الباب، رأيت ثعباناً كان معه، وضع إحدى شفثيه تحت الصفة والأخرى فوقها، وقال لي بلسان حاله: إن تؤذه، أبتلعك وهذه الصفة، فلم أعرف ما أقول خوفاً من ذلك الثعبان، فطلبت المعذرة منه، وهكذا فقدت وعيي^(١).

يروى أن داود الطائي^(٢) مثل ذات مرة أمام الصادق، وقال: يا ابن رسول الله: عظمي، فقد أظلم قلبي، قال يا أبا سليمان، أنت زاهد الزمان، فأني حاجة لك بموعظتي؟ قال: يا ابن الرسول، لك الفضل على كل الخلائق، وعظة الجميع واجبة عليك. قال: يا أبا سليمان، أخاف أن يطرق جدي بابي في القيامة (قائلاً) لماذا لم تؤد حق متابعتي؟ إن هذا الأمر لا يكون صحيحاً بالنسب وقويًا به، هذا الأمر يكون بالمعاملة اللائقة بحضرة الحق. فبكى داود، وقال: يا إلهي، ذلك الذي معجون طينته من ماء النبوة، وتركيب طبيعته من أصل البرهان، وحجته جده الرسول، وأمه البتول، وهو في هذه الحيرة! فأني لداود أن يزهو بحاله.

يروى أنه كان قد جلس ذات يوم مع مواليه، وقال لهم: تعالوا؛ حتى نتبايع، ونتعاهد، بأن كل من ينجو منا يوم القيامة، يشفع للجميع، فقالوا: يا ابن رسول الله، أي حاجة لك بشفاعتنا؟ إن جدك شفيع جملة الخلائق، فقال الصادق: أخجل أن أنظر في وجه جدي يوم القيامة بأفعالي هذه.

يروى أن جعفر الصادق اختلى مدة، ولم يخرج، فدخل سفيان الثوري^(٣) داره، وقال: الناس محرومون من فوائد أنفاسك. فلماذا اعتزلت؟ أجاب الصادق: الحال السائد الآن، «فسد الزمان وتغير الإخوان» وأنشد هذين البيتين:

(١) الرواية المتعلقة بقتل جعفر الصادق تشبه جزءاً من قصة فرعون وموسى. {فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين".

انظر: سورة الأعراف، (الآية ١٠٧) ود. استعلامي، (ص ٨٢٦).

(٢) داود الطائي: انظر الكتاب، (ص ٣٢٤).

(٣) سفيان الثوري: انظر الكتاب، (ص ٢٩٧).

ذهب الوفاء ذهاب أمس الذاهب والناس بين مخايل ومآرب
يفشون بينهم المودة والوفا وقلوبهم محشوة بعقارب

يروى أنهم رأوا الصادق، وكان قد ارتدى خزانة ثميناً، فقالوا: يا ابن رسول الله، «ليس هذا من زي أهل بيتك» فأخذ بيد رجل منهم وأدخلها في كمه، فكان قد ارتدى مرقعة خشنة، أخذ يوخز بها يد الرجل، وقال: «هذا للحق وهذا للخلق».

يروى أنهم قالوا للصادق: تتحلى بكل الفضائل: الزهد، وكرم الباطن، وقرة العين، والانتساب إلى أسرة شريفة، ولكنك متكبر جداً، قال: إنني لست متكبراً لكن الكبر كبرياء، إنني عندما أطحت بالكبر عن رأسي، ساد كبريائه هو، وحل محل كبري. فلا يجوز لي أن أتكبر بكبري، لكن بكبريائه هو.

يروى أن الصادق سأل أبا حنيفة، من العاقل؟ فقال: من يميز بين الخير والشر، فقال الصادق: تستطيع البهائم أيضاً أن تميز بين من يضربها، ومن يمنحها العلف، فقال أبو حنيفة (إذن): من العاقل في رأيك؟ قال: من يميز بين خيرين وشرين، حتى يختار من الخيرين خير الخيرين، ومن الشرين خير الشرين.

يروى أن كيس ذهب كان قد سرق من أحد الرجال، فتعلق ذلك الرجل بالصادق (قائلاً): أنت الذي سرقته، ولم يكن يعرفه، فقال الصادق: كم كان مقداره؟ قال: ألف دينار، فحمله إلى الدار، ومنحه ألف دينار، وبعد ذلك عثر الرجل على ذهبه؛ فحمل الذهب إلى الصادق، وقال: كنت قد أخطأت، قال الصادق: لا نسترد ما منحناه، بعد ذلك سأل الرجل شخصاً: من يكون (هذا الرجل)؟ فقيل له: جعفر الصادق، فخبجل الرجل، ومضى.

يروى أن الصادق كان يسير ذات يوم في طريق بمفرده، وهو يقول: الله الله، وكان عارف يتبعه، ويردد معه: الله الله. فقال الصادق: يا إلهي، ليست لدي جبة، يا إلهي، لا أملك رداء، وفي الحال، ظهرت مجموعة ملابس جميلة، ارتداها جعفر، فتقدم ذلك العارف، وقال: أيها السيد: شاركتك في قول «الله»، فامنحني (خرقتك) البالية فسر الصادق، ومنحه تلك الخرقة البالية.

ويروى أن رجلاً مثل أمام الصادق، وقال: أظهر الله لي، فقال: ألم تسمع بعد، أنه قال لموسى: «لن تراني»، قال: بلى، لكن هذه هي ملة محمد الذي يهتف مرة، «رأى قلبي ربي». ويصبح مرة أخرى، «لم أعبد رباً لم أره»^(١). فقال الصادق: قيدوه، والقوه في دجلة، فقيدوه، وألقوه في دجلة، فابتلعه الماء، وقذف به ثانية، فقال: يا ابن رسول الله، الغوث الغوث، فقال الصادق:

(١) يشير إلى جزء من معنى الآية (١٤٣) سورة الأعراف.

أيها الماء، ابتلعه، فابتلعه ثم لفظ به، وقال: يا ابن رسول الله، الغوث، الغوث، قال: ابتلعه، وعلى هذا النحو مضى يقول للماء عدة مرات: ابتلعه، فكان يبتلعه، وعندما كان يعيده، كان يقول: يا ابن رسول الله، الغوث، الغوث، وعندما يؤس من الجميع، وغرق جسده كله، ويؤس من الخلائق، عندما رفعته المياه هذه المرة قال: يا إلهي، الغوث، الغوث، فقال الصادق: أخرجه، فأخرجه، وتركوه برهة، حتى قر قراره ثانية. ثم قال الصادق: أرايت الحق؟ قال: منذ طرقت باب الغير حجت (عنه)، عندما لجأت إليه كلية، وصرت مضطراً، فتحت طاقة داخل قلبي، نظرت منها، فرأيت كل ما كنت أبحث عنه، ولولا الاضطرار، لما كان ذلك.

﴿أَمَّنْ يُحِبُّ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾^(١)، قال الصادق: عندما كنت تنادي الصادق كنت كاذباً والآن احفظ تلك الطاقة، لأن العالم الإلهي قابع فيها.

وقال: كل من يقول الله على شيء، أو في شيء، أو من شيء، كان كافراً.

وقال: كل معصية كان أولها خوف وآخرها عذر تقرب العبد إلى الحق.

وقال: كل طاعة كان أولها أمن وآخرها عجب تبعد العبد عن الله. لأنه بهذا يصير العبد المطيع بعجب عاصياً بالنسبة للحق، والعاصي بعذر مطيعاً بالنسبة له.

سئل: أيهما أفضل: فقير صابر أم غني شاكر؟ فقال: الفقير الصابر؛ لأن قلب الغني يتطلع إلى الحافظة، والفقير قلبه مع الله.

وقال: لا تستقيم العبادة إلا بالتوبة، لأن الحق تعالى قدم التوبة على العبادة، كما قال الله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَمِيدُونَ﴾^(٢)، وقال: إن ذكر التوبة عند ذكر الله غفلة عن الذكر، وذكر الله في الحقيقة هو: أن ينسى الإنسان كل شيء إلى جانب الله، لأن الله يعوضه عن كل شيء، وقد قال (سبحانه) في هذا المعنى آية ﴿يَخْنُصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾^(٣) وقد محا الوسطة والعلل والأسباب حتى يعلمون أن العطاء محض.

وقال: المؤمن من ثبت مع نفسه، والعارف من ثبت مع ربه.

وقال: كل من يجاهد بالنفس، من أجل نفسه، يدرك الكرامات، وكل من يجاهد بالنفس من أجل ربه، يصل إلى الله.

وقال: الإلهام من أوصاف المقبولين، والدليل أن عدم الإلهام من علامات المطرودين.

وقال: أليس الله أكثر خفية في العبد من سير النملة على حجر أسود في ليلة مظلمة.

(١) سورة النمل، الآية ٦٢.

(٢) سورة التوبة، الآية ١١٢.

(٣) سورة البقرة، الآية (١٠٥)، سورة آل عمران، الآية (٧٤).

وقال: العشق جنون إلهي لا مذموم، ولا محمود.
وقال: ذلك الوقت الذي انكشف لي فيه سر المشاهدة، خلعوا عليّ صفة الجنون.
وقال: إن من حسن طالع الرجل أن يكون خصمه عاقلاً.
وقال: احذر مصاحبة خمسة رجال:
أولاً: الكاذب الذي تكون دائماً منه على غرور.
ثانياً: الأحمق الذي يضرّك في الوقت الذي يريد فيه أن ينفعك دون أن يدري.
ثالثاً: البخيل الذي يقتطع منك أفضل وقت.
رابعاً: الحقود الذي يتركك ضائعاً عند الشدة.
خامساً: الفاسق الذي يبيعك بلقمة، وبأقل منها، قالوا: وما أقل منها؟ قال: الطمع فيها.
وقال: للحق (تعالى) في الدنيا جنة وجحيم: الجنة هي العافية، والجحيم هو البلاء، العافية: هي أن تدع أمرك لله، والجحيم: أن تترك أمر الله عليك.
وقال: «من لم يكن له سر فهو مضر» لو كانت صحبة الأعداء ضارة بالأولياء للحق الضرر بأسيا بسبب فرعون، ولو كانت صحبة الأولياء نافعة للأعداء للحقت المنفعة بامرأتي نوح ولوط.
ولم يكن ذلك سوى القبض والبسط.
وأقواله كثيرة، وقد ذكرنا عدة كلمات كأساس، وختمناها.



ذكر أويس القرني^(١)

رضي الله عنه



هو قبلة التابعين، وقدوة الأربعين^(٢)، هو الشمس المحتجة، هو نفس الرحمن، السهيل اليمني أويس القرني رضي الله عنه.

قال النبي ﷺ: «أويس خير التابعين بإحسان وعطف».

كيف يتأتى للساني مدح شخص كان مادحه هو رحمة للعالمين، ونفسه نفس رب العالمين أحياناً كان سيد الأنبياء (عليهم السلام) يلتفت ناحية اليمن، ويقول: «إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن»^(٣). وقال سيد الأنبياء (عليهم السلام) أيضاً: يخلق الحق (تعالى) سبعين ألف ملاك يوم القيامة على شاكلة أويس، كي يحمل أويس بينهم إلى الحضرة، ويذهب إلى الجنة، فلا يعرف شخص قط إلا ما شاء الله أيهم أويس؟ لأنه كما كان يعبد الحق في الدنيا تحت قبة التواري، وكان يعزل نفسه عن الخلق، يبقى في الآخرة أيضاً محفوظاً عن أعين الأغيار وفقاً للقول: «أوليائي تحت قبائي لا يعرفهم غيري»^(٤).

وقد ورد في الأخبار الغريبة: أن سيد الأنبياء (عليهم السلام) يخرج غداً (يوم القيامة) من حجرته في الجنة، بحيث يطلب (الناس) فرداً، فرداً. فيأتي خطاب: من تريد؟ يقول: أويس،

(١) أويس القرني: هو أويس بن عامر، من مشايخ المتصوفة وسادات التابعين، كان معاصراً للرسول ﷺ قيل: إنه مات بالحيرة، وقيل مات مع علي بن أبي طالب في صفين. انظر ترجمته في كشف المحجوب، (ص ٢٩١) من الترجمة العربية، حلية الأولياء ج ٢، (ص ٧٩). وانظر: د. استعلامي (ص ٨٢٧).

(٢) الأربعين هم مجموعة من أولياء الله عددهم أربعين ويسمون أيضاً بالأبدال وهم يشتون وجود الحق تعالى بوجودهم ويقال إنهم من الثلاثمائة شخص المقربين للحضرة ومقامهم الشام. انظر د. استعلامي، ص (٨٢٧).

(٣) أشير إلى هذا الحديث في مثوي مولانا جلال الدين حيث قال:

من يجد رائحة الرحمن من اليمن

كيف لا يجد رائحة الباطل مني

آن كه يابد رحمن از يمن

چون نيابد بوي باطل را زمن

نقلًا عن د. استعلامي، (ص ٨٢٧).

(٤) لم يرد هذا الحديث في مصادر الحديث الموثوقة.

فيأتي نداء: لا تحزن فإنك كما لم تره في الدنيا، لن تراه هنا أيضًا. فيقول: يا إلهي، أين هو؟ فيصل الأمر الإلهي: ﴿ فِي مَقْعَدِ ۞ صِدْقٍ ۞ ﴾. يقول: ألا يراني؟ فيصل الأمر الإلهي: لماذا يراك شخص يرانا؟

وقال سيد الأنبياء (عليهم السلام) أيضًا: في أمتي رجل سيشفع لعدد يساوي عدد شعر أغنام^(٢) ربيعة ومضر في يوم القيامة^(٣)، وكما يقال: لم يكن لأي قبيلة في العرب مثل عدد الأغنام التي كانت لهاتين القبيلتين. فقال الصحابة: من يكون هذا؟ قال: عبد من عبيد الله. فقالوا: كلنا عبيد، ما اسمه؟ قال: أويس، قالوا: أين يكون؟ قال: بقرن، قالوا: أهو قد رآك؟ قال: لم يرني بالعين الظاهرة بعد، فقالوا: يا للعجب (أ يكون) عاشقًا لك هكذا، ولم يسرع إلى خدمتك بعد؟ قال: لسببين: أولهما: غلبة الحال، والآخر: تعظيم شريعتي، فإن أمه عاجزة، مؤمنة، ضريرة، مقعدة^(٤). وفي النهار يعمل أويس بالرعي، وينفق أجره على حوائجه وعلى أمه، قالوا: أترأه؟ فقال للمصديق: لن تراه في عهدك، لكنه قال للفاروق والمرضى (رضي الله عنهما): أنتما سوف تريانه. وهو رجل غزير الشعر، وعلى جانبه الأيسر وكف يده بياض بحجم درهم، وهو ليس بياض برص. وعندما تلقياه، أبلغاه سلامي، وقولا له: أدع لأمتي.

وقال سيد الأنبياء (عليهم السلام) أيضًا: «أحب العباد إلى الله الأتقياء الأخفاء»^(٥). فقال البعض: يا رسول الله، لا نجد هذا بيننا. فقال الرسول ﷺ: إنه راع في اليمن يقال له أويس، اتبعوه.

يروى أن سيد الأنبياء (عليهم السلام) عندما قارب الوفاة، قالوا: يا رسول الله، لمن تمنح مرقعتك؟ قال: لأويس القرني، وعندما قدم الفاروق والمرضى إلى الكوفة بعد وفاة النبي، قال الفاروق ضمن الخطبة: يا أهل نجد، قوموا، فقاموا. فقال: أبينكم شخص من قرن؟ قالوا: بلى، وأرسلوا إليه قومًا، سألهم الفاروق ﷺ عن أخبار أويس، فقالوا: لا ندري. قال عمر: قد أخبرني صاحب الشرع عنه، وهو لا يتحدث عبثًا. لعلمكم لا تعرفونه، فقال أحدهم: هو أحقر شأنًا من أن يطلبه أمير المؤمنين، فهو مجنون أحمق، ومعتزل عن الخلق، فقال: إنني أريده، أين هو؟

(١) سورة القمر، جزء من الآية (٥٥).

(٢) ربيعة ومضر قبيلتان من أشهر قبائل العرب، تنتسب الأولى إلى ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان وتقيم بين اليمامة والبحرين، ومضر - بضم الأول وفتح الثاني - أخو ربيعة ويعد نبي الإسلام من نسله، وكان له صوت أجش وأول من قام بحدادة النوق. وقد كان لأبناء مضر مقام الرياسة في مكة والحرم. انظر. استعلامي، (ص ٨٢٨).

(٣) وردت في جـ ٢ من حلية الأولياء (ص ٨١، ٨٢)، وكشف المحجوب (ص ١٠٠) من الترجمة العربية.

(٤) وردت في حلية الأولياء، جـ ٢، (ص ٨٧)، وكشف المحجوب، (ص ٩٩، ١٠٠).

(٥) ورد هذا الحديث في إتحاف السادة المتقين للزبيدي جـ ٨، (ص ٤٤٨، ٤٤٩).

فقالوا: في وادية عرنه^(١)، يرعى الإبل في ذلك الوادي، فنعطيه أجره ليلاً وهو هائم، لا يأتي إلى المناطق العامرة، ولا يتحدث مع أحد، لا يأكل ما يأكله الناس، ولا يعرف الحزن والفرح، يبكي عندما يضحك الناس، ويضحك حين يبكون. قال: أريده.

ثم اتجه الفاروق والمرضى (رضي الله عنهما) إلى ذلك المكان، فرأياه قائماً يصلي، وكان الحق (تعالى) قد خصه بملك يرعى إبله. وحين سمع صوت حركة آدمية، قصر الصلاة، وعندما سلم، نهض الفاروق وسلم عليه، فرد عليه السلام. قال الفاروق: ما اسمك؟ قال: عبد الله، قال عمر: كلنا عباد الله، ما هو الاسم الخاص بك؟ قال: أويس، قال: أرني يدك اليمنى، فأظهرها له، فرأى البياض الذي كان الرسول ﷺ قد أشار إليه، فقبل يده، وقال له: قد أبلغك الرسول ﷺ السلام، وقال: ادع لأمتي، فقال: أنت أولى بالدعاء لجميع المؤمنين، فليس هناك شخص أعز منك على وجه الأرض. فقال الفاروق: إنني أفعل هذا الأمر، فنفذ أنت وصية الرسول ﷺ. قال: يا عمر لعله غيري، فقال: قد أشار النبي إليك. فقال أويس: امنحني مرقعة النبي، كي أدعو، فمنحاه المرقعة، ثم قال: ارتديها وادع، فقال: أصبر حتى أدعو بشيء، ولم يرتدها، ومضى بعيداً عنهم، وألقى بتلك المرقعة، وسجد على الأرض، وهو يقول: يا إلهي، لا أرتدي هذه المرقعة، ما لم تهني أمة محمد كلها، فقد حولها نبيك إلى هنا، وهو رسول الفاروق والمرضى. يا إلهي إنهما أديا ما عليهما، الآن الأمر لك. فجاءه خطاب: منحتك كثيراً، ارتد المرقعة، فكان يقول: لا، أريد الجميع. فجاءه خطاب ثانية: أمنتك عدة آلاف أخرى، فارتد المرقعة، فكان يقول: أريد الجميع. وهكذا كان يقول في المناجاة ويسمع حتى نفذ صبر الصحابة؛ فذهبا إليه ليعرفا ماذا يفعل، ووصلا إليه، ولما رآهما أويس قال: آه، لماذا جئتما؟ لو لم يكن مجيئكما هذا، لما كنت ارتديت المرقعة، لأنني لم أكن أريد أمة محمد كلها، (لكن) يجب أن أصبر.

رأه الفاروق، مشتملاً بمرقعته، عاري الرأس والقدم، فرأى ثراء ثمانية عشر ألف عالم تحت تلك المرقعة، فضاق بنفسه وبخلافته، وقال: من يتتاع هذه الخلافة مني برغيف؟ قال أويس: شخص لا يعقل، فالتق بما تبيعه حتى يحمل كل شخص ما يلزمه. أي جدوى للبيع والشراء في ذلك! فصاح الصحابة: الأمر الذي قبلته من الصديق أمر يخص آلاف مؤلفة من المسلمين ولا يمكن التفریط فيه، ويوم عدل لك يسمو على ألف عام عبادة. فارتدى أويس المرقعة، وقال: منح من أمة محمد ﷺ ما يعادل شعر إبل ربعة ومضر وأبقارهما وأغنامهما من بركات هذه المرقعة^(٢).

(١) عُرْنَه: بضم الأول وفتح الثاني والثالث مكان في عرفات.

د. استعلامي، (ص ٨٢٨).

(٢) وردت في حلية الأولياء، ج٢، (ص ٨٢، ٨٣)، وكشف المحجوب، (ص ١٠٠) من الترجمة العربية.

وهنا يمكن لشخص أن يظن أن أويس كان مقدماً على الفاروق. وليس الأمر هكذا، ولكن التجريد كان خاصية أويس، وحظي الفاروق بذلك كله، وكان يريد التجريد أيضاً. كما كان سيد الأنبياء صلى الله عليه وسلم يطرق أبواب العجائز (قائلاً): تذكرن محمداً بالدعاء. فجلس المرتضى صامتاً، فقال الفاروق: لماذا لم تأت يا أويس كي ترى الأعظم؟ قال: أرأيتماه أنتما إذن، قالاً: بلى، قال: لعلكما رأيتما جبهته لو أنكما رأيتما إياها فقولا: هل كان حاجباه معقودين أم منبسطين؟ ويا للعجب كانا قد شاهداها عدة مرات لكنهما لم يستطعا أن يحددا شكلاً لها بسبب الهيبة التي كانت له. قال: أنتما صاحباً محمداً؟ قالاً: بلى، قال: لو أخلصتما في محبته، فلماذا لم تكسرا أسنانكما في ذلك اليوم الذي انكسرت فيه أسنانه المباركة بحكم الموافقة، لأن شرط المحبة الموافقة، ثم أظهر أسنانه فإذا به ليس لديه سنة واحدة في فمه، وقال: وافقته بصورة خفية؛ لأن الموافقة من الدين. فذاب الاثنان رقة، وعلمنا أن الموافقة مقام، والأدب مقام آخر. فهو لم يكن قد رأى الرسول (ولكن) ينبغي على الفاروق أن يتعلم منه. ثم قال الفاروق: ادع لي يا أويس، فقال: لا أهواء في الإيمان، قد دعوت، وأشهد في كل صلاة قائلاً: «اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات»، إن ذهبت إلى القبر بإيمانك كاملاً، تجد الدعاء، وإلا فأنتي لا أضيع الدعاء. فقال الفاروق: عظمي، قال: أتعرف الله يا عمر؟ قال: أعرفه، قال: لو أنك لا تعرف سوى الله، أفضل لك. قال عمر: زدني، فقال: أيعرفك الله يا عمر؟ قال: يعرفني. قال: لو ما عرفك سوى الله، أفضل لك، فقال الفاروق: انتظر حتى أحضر شيئاً لك يا أويس ووضعه يده في جيبه، وأخرج درهمين، وقال قد اكتسبتهما من الرعي، (فقال أويس): لو تضمن لي أن أعيش طويلاً حتى أكل بها، عندئذ آخذها. مضت فترة، ثم قال: تعبتما، ارجعا، فإن القيامة قريبة، وعندئذ لنا لقاء حيث لا مجال للعودة، وإنني مشغول الآن بإعداد زاد طريق القيامة.

عندما عاد أهل قرن من الكوفة، ظهرت لأويس بينهم حرمة وجاه، ولم يكن يطيق هذا، ففر من هناك، وذهب إلى الكوفة، ولم يره شخص بعد ذلك إلا هرم بن حيان^(١) رضي الله عنه^(٢). قال هرم: عندما سمعت ذلك الحديث، وإلى أي حد كانت درجة شفاعة أويس، غلبتني رغبة في رؤيته، فذهبت إلى الكوفة وبحثت عنه، حتى وجدته على شاطئ الفرات كان يتوضأ، ويغسل ثيابه، فعرفته لأنني كنت قد سمعت بأوصافه، سلمت فأجاب السلام، ونظر إليّ، فأردت أن أصافحه، فلم يصافحني، قلت: رحمك الله يا أويس، وغفر لك، كيف حالك؟ وغلبني البكاء

(١) هرم بن حيان: من التابعين الذين كانوا يعيشون في عهدي عمر وعثمان، وقاتل في عديد من المعارك سخرت بوشهر في إحداهما عام ١٨ هـ وتوفي عام ٣٦ هـ. د. استعلامي، (ص ٨٢٨).

(٢) وردت في كشف المحجوب (ص ١٠٠، ١٠١).

بسبب محبته وشفقتي عليه لضعفه، فبكى أويس أيضًا، وقال: حياك الله يا هرم بن حيان، كيف أنت يا أخي؟ ومن ذلك على الطريق؟ فقلت: كيف عرفت اسمي واسم أبي؟ وبما عرفتني؟ ولم ترني قط!

قال: نبأني العليم الخبير الذي لا يبعد شيء عن علمه وخبره، وعرفت روحي روحك، فإن أرواح المؤمنين تتألف بعضها مع بعض، وإن لم تكن قد رأيت بعضها البعض. فقلت: قص لي شيئًا عن الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال: إنني لم أدركه، وقد سمعت أخباره من الآخرين، ولا أريد أن أفتح سبيل الحديث على نفسي وأكون مفتيًا، ومذكرًا، إنني مشغول، لا أقوم بهذا. فقلت: اتل علي آية (من القرآن)، أسمعها منك، فأمسك بيدي وقال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وبكى منتحبًا، ثم قال: هكذا يقول الله جل جلاله: «وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون» «وما خلقتنا السماء والأرض وما بينهما لالعبين ما خلقتنا إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون» حتى «إنه هو العزيز الرحيم». عندئذ صاح صيحة، فظننته فقد صوابه، ثم قال: يا ابن حيان ما أتى بك إلى هنا؟ فقلت: حتى أنس بك، وأستكين إليك. قال: لم أعرف شخصًا قط عرف الله، ويستطيع أن يأنس بأي شيء آخر (دونه). قال هرم: عظمي. فقال أويس: ضع الموت تحت الوسادة حين تنام، وأمام العين حين تستيقظ، ولا تستصغر الذنوب، انظر إلى ضخامتها، لأنك تصير عاصيًا بها، فإنك إن استصغرت ذنبًا فإنك تستهين بالله، وإن استعظمتها، فإنك تعظم الله. قال هرم: أين تأمر أن أقيم؟ قال: في الشام، فقال: وكيف تكون المعيشة هناك؟ فقال أويس: «أف لهذه القلوب قد خالطها الشك ولا تنفعها الموعظة».

قلت: عظمي عظة أخرى، فقال: يا ابن حيان، مات أبوك، ومات آدم وحواء، مات نوح وإبراهيم الخليل، ومات موسى بن عمران، ومات داود خليفة الله، ومات محمد (رسول الله)، ومات خليفته أبو بكر، ومات أخي عمر، ومات حبيبي. واعمره، واعمره. فقلت: رحمك الله، لم يمت عمر بعد. فقال: نعه الحق تعالى لي، ثم قال: أنا وأنت من جملة الموتى، وأدى الصلاة، ودعا ما تيسر من الدعاء، وقال: وصيتي هي: أن تعمل بكتاب الله، وتسلك طريق أهل الصلاح، ولا تغفل لحظة عن ذكر الموت، وعندما تصل إلى قومك انصحهم، ولا تمنع النصيحة عن خلق الله، ولا تحد خطوة عن موافقة الجماعة، لأنك حينئذ تصير بلا دين، وأنت لا تعلم، وتقع في الجحيم. ودعا عدة أدعية. وقال: أنت ذاهب يا هرم بن حيان أيضًا ولن تراني، ولن أراك، وتذكرني بالدعاء، كي أتذكرك أنا أيضًا، واذهب أنت من هذه الناحية، وأنا من تلك. قال: أردت أن أمشي معه برهة، فأبى ومضى، وكان يبكي، فحملني على البكاء، وكنت أتابعه بنظري، حتى نزل بحي، ولم أعرف عنه شيئًا بعد ذلك، وقال: أغلب الكلام الذي قاله لي كان عن الأميرين

الفاروق والمرتضى (رضي الله عنهما)^(١).

ويقول الربيع بن خثيم^(٢): ذهبت لأرى أويس، وكان يصلي الفجر، وعندما فرغ، قلت: أصبر حتى ينتهي من التسبيح، فأبطأت، فلم ينهض من مكانه حتى أدى صلاة الظهر والعصر، والخلاصة أنه لم يفرغ من الصلاة ثلاثة أيام بلياليها، ولم يأكل أو ينام قط (خلالها) وفي الليلة الرابعة كنت أنصت إليه، (وحدث أن) غلبه النوم فناجى الحق في الحال، وقال: يا إلهي، أعوذ بك من عين كثيرة النوم وبطن نهمة. فقلت: يكفيني هذا ولم أزعجه وعدت.

يروى عن أويس أنه لم ينام الليل أبدًا طوال عمره، فكان يقول في ليلة: هذه ليلة القيام، ويقول في ليلة أخرى: هذه ليلة الركوع، وفي ليلة تالية: هذه ليلة السجود. فكان يمضي ليلة في القيام، وليلة في الركوع، وليلة في السجود^(٣). قالوا: يا أويس، كيف تستطيع (أن تمضي) ليلة بهذا الطول على حال واحد. فقال: إننا لم نكد نقل سبحان ربي الأعلى مرة واحدة في السجود حتى ينبلج النهار، والتسبيح ثلاث مرات سنة. إنني أفعل هذا لأنني أريد أن أعبد مثل أهل السماء.

سئل: ما هو الخشوع في الصلاة؟ فأجاب: من إذا ضرب بحربة على جانبه وهو في الصلاة لا يعلم خبرها. قالوا: كيف حاله؟ قال: كشخص يستيقظ في الصباح ولا يعرف هل سيعيش إلى المساء أم لا. قالوا: وكيف يتحقق هذا الأمر؟ قال: واقلة زادي واطول طريقاه.

وقال: إن تعبد الله (تعالى) عبادة قدرها السموات والأرض، لا يقبلها (منك) ما لم تصدقه (فيها). قالوا: وكيف نصدقه؟ قال: بآلا تأمن بما كتبه لك، ولا ترى نفسك فارغًا طالما لا تشغل بشيء آخر في عبادته.

وقال: كل من يحب ثلاثة أشياء كانت جهنم أقرب إليه من جبل الوريد: تناول الطعام الطيب، وارتداء اللباس الحسن، والجلوس مع الأغنياء. قالوا لأويس رضي الله عنه: على مقربة منك رجل منذ ثلاثين عامًا، حفر قبرًا، وعلق كفنًا، وجلس أمامه، وهو يبكي، ولا يهدأ ليلاً ولا نهارًا. قال أويس: احملوني إلى هناك؛ لأراه، فاصطحبوه إليه، فرآه ذابلاً، نحيفًا، غائر العينين بسبب البكاء. فقال له: يا فلان شغلك القبر عن الله. أيها الرجل، شغلك القبر والكفن عن الله ثلاثين عامًا، وانشغلت بهما، فأصبحتا وثنا طريقك، فأدرك الرجل تلك الآفة في نفسه على هدي أويس، وانكشف الحال له، فصاح صيحة، وسقط في ذلك القبر، وأسلم الروح. ولو أن القبر والكفن سوف يكونان حجابين فانظر ما هي حجب الآخرين وكم يبلغ عددها؟!

(١) وردت في حلية الأولياء، ج٢، (ص٨٤، ٨٥، ٨٦).

(٢) ربيع بن خثيم: زاهد كان يعيش في القرن الأول الهجري وتوفي حوالي عام ٧٠هـ. د. استعلامي، (ص٨٢٨).

(٣) وردت في حلية الأولياء، ج٢، (ص٨٧) مع الاختلاف.

يروى أن أويس ذات مرة لم يكن قد أكل قط طيلة ثلاثة أيام بلياليها، وفي صباح اليوم الرابع، خرج، كان دينار من الذهب ملقى في الطريق، فقال: ربما يكون قد وقع من شخص، والتفت، ليقطف عشباً من الأرض ويأكله، فرأى كبشاً قادماً يمسك بفمه رغيفاً ساخناً، وضعه أمامه فقال: ربما كان قد اختطفه من شخص ما، وأشاح بوجهه. فتحدث الكبش قائلاً: أنا عبد من أنت عبده، فخذ رزق الله من عبد الله. قال (أويس): مددت يدي لأخذ الرغيف، فرأيت الرغيف في يدي، واختفى الخروف.

إن محامده كثيرة، وفضائله وفيرة، في البداية، قد ذكره الشيخ أبو القاسم الجرجاني^(١) رضي الله عنه، حين كان يقول: أويس، أويس، أويس، هم يعلمون قدره. ومن أقواله أنه قال: من عرف الله لا يخفى عليه شيء، ومعنى آخر هو: من عرف من هو، هو العارف. ومعنى آخر هو: كل من عرف الأصل، كانت معرفة الفروع سهلة عليه، لأنه ينظر إلى الفروع بعين الأصل. ومعنى آخر هو: يمكن معرفة الله بالله لأن عرفت ربي بربي، فكل من يعرف الله بالله، يعرف كل شيء.

وقوله: السلامة في الوحدة، والوحدة هي أن يكون الفرد في وحدة، والوحدة لا تتسع للغير، حتى تتحقق السلامة، ولا يصح أن تتخذ الوحدة صوراً لأن: «الشیطان أبعد من الاثنين»^(٢) حديث. وقوله: عليك بقلبك، أي عليك أن تستحضر قلبك دائماً، كي لا يجد الغير سبيلاً إليه. وقوله: طلبت الرفعة فوجدتها في التواضع، وطلبت الرياسة فوجدتها في نصيحة الخلق، وطلبت المروءة فوجدتها في الصدق، وطلبت الفخر فوجدته في الفقر وطلبت النسبة فوجدتها في التقوى، وطلبت الشرف فوجدته في القناعة، وطلبت الراحة فوجدتها في الزهد، ومعاني هذا الكلام معروفة ومشهورة.

يروى أن جيرانه قالوا: إننا كنا نعهده من المجانين، وفي نهاية الأمر، عرضنا عليه أن نبني له داراً بجانب ديارنا، فكان يقيم فيه عاماً أو عامين، ولم يكن يظهر له وجه، كان طعامه في الإفطار أنه كان يقطف سبطة من التمر، كان يبيعها ليلاً، وينفقها على قوته، ليفطر به، وإن وجد التمر يابساً، كان يحتفظ به، حتى يفطر به، وإن وجد التمر اليابس كثيراً، كان يبيعه، ويتصدق بثمره. وكان رداؤه خرقة بالية، كان يلتقطها من سلال المهملات، وينظفها، ويوصلها (يحكيها بعضها مع بعض) ويرتديها. ياللعجب، يرتفع النفس الرباني من بين مكان كهذا.

(١) أبو القاسم علي الجرجاني من عارفي القرن الرابع الهجري، ومن نسل الجنيد وكان معاصراً لأبي سعيد بن أبي الخير. د. استعلامي، (ص ٨٢٨).

(٢) لم يرد هذا الحديث في مصادر الحديث الموثوقة.

كان يخرج عند صلاة الصبح، ويعود بعد صلاة العشاء. وفي كل ناحية كان ينزل بها، كان الأطفال يضربونه بالحجارة، فكان يقول: إن قدمي هزيلة، احملوا حجارة أصغر، حتى لا تنكسر قدمي، وتنزف الدماء، وحتى لا أعجز عن الصلاة، فغاييتي هي الصلاة لا القدم.

هكذا قالوا: إن بياضاً ظهر عليه في آخر عمره، وكان في ذلك الوقت يحارب مع أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في صفين، حتى قتل. عاش وحيداً، ومات شهيداً رضي الله عنه.

اعلم أن هناك قومًا يسمون أويسين، ولا حاجة لهم بشيخ؛ لأن النبوة تربيه في حجرها بدون واسطة الغير، كما منحها لأويس، بالرغم من أنه لم ير سيد الأنبياء في الظاهر، لكنه كان يتلقى التربية منه، فكانت ترعاه النبوة. وفي الحقيقة كان ملازمًا لها، وهذا هو المقام العظيم العالي. فمن يرسل إلى هناك؟ ولمن تؤول هذه العظمة؟! ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾^(١).



(١) سورة الحديد، الآية ٥٧.

ذكر الحسن البصري^(١)

رحمة الله عليه



هو ربيب النبوة، ومعتاد الفتوة، هو كعبة العمل والعلم، وخلاصة الورع والحلم، هو السابق إلى صاحب الصدارة، صدر السنة الحسن البصري رضي الله عنه.

مناقبه كثيرة، ومحامده وفيرة، كان صاحب علم ومعاملة، وكان الحزن والخوف من الحق قد شمله بصفة دائمة، وكانت أمه من موالي أم سلمة، وعندما كانت تشغل بأمر، كان الحسن يبكي، فكانت أم سلمة (رضي الله عنها) ترضعه ثديها، فيمتصه، فتظهر عدة قطرات من اللبن، وآلاف البركات التي أظهرها الحق عليه - كلها من أثر لبن أم سلمة^{(٢)(٣)}.

يروى أن الحسن عندما كان طفلاً، شرب ماء ذات يوم من قدح الرسول صلى الله عليه وسلم في دار أم سلمة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: من شرب هذا الماء؟ قالوا: الحسن. قال: إن علمي يسري إليه بقدر ما شرب من هذا الماء.

يروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم دخل دار أم سلمة ذات يوم، فوضعوا الحسن في طرفه، فدعا له الرسول صلى الله عليه وسلم وكل ما أدركه الحسن، أدركه ببركات دعائه.

يروى أن الحسن عندما ولد، أحضره أمام عمر، فقال: «سموه حسناً فإنه حسن الوجه» قبلت أم سلمة (رضي الله عنها) تربيته والتعهد به، وبحكم الشفقة التي أشفقتها عليه ظهر لبنها، وكانت دائماً تقول: «اللهم اجعله إماماً يقتدى به».

وكان قد أدرك مائة وثلاثين رجلاً من الصحابة، وعمر سبعين بَدْراً. وقد كانت إرادته لعلّي (رضي الله عنهما)، ورجع إليه في العلوم. وأخذ الطريقة منه.

(١) الحسن البصري: هو أبو سعيد حسن بن يسار من زاهدي صدر الإسلام المشهورين، كان أبوه من أهل بيسان وكانت أمه تخدم أم سلمة، وولد في خلافة عمر، كتب تفسيراً للقرآن ورسالة في فضل مدينة مكة وله كتاب بعنوان الخلاص وتوفي ببغداد عام ٣٧١ هـ. انظر ترجمته في الرسالة القشيرية، (ص ٥١)، صفة الصفوة، ج ٣، (ص ١٥٥)، كشف المحجوب، (ص ٢٩٤) من الترجمة العربية. وانظر د. استعلامي، (ص ٨٢٩).

(٢) أم سلمة: هند بنت سهل المعروفة بأم سلمة من زوجات الرسول، تزوجها الرسول عام ٤ هـ، وكان لديها ابن يدعى سلمة روى عنها ٣٧٨ حديث. انظر د. استعلامي، (ص ٨٢٩).

(٣) وردت في صفة الصفوة، ج ٣، (ص ١٥٥).

كانت بداية توبته، أنه عندما كان بائع جواهر، وكان يسمى الحسن اللؤلؤي، ويتاجر في بلاد الروم، ويتعامل رضي الله عنه مع أمراء القيصر ووزرائه توجه ذات مرة إلى الروم، وذهب إلى الوزير، وتحدث (معه) فترة، فقال الوزير: إننا سوف نمضي إلى مكان ما فهل ترافقنا؟ قال: كما تريد، أرافقكم فأمر فأحضروا جوادًا للحسن، ركب مع الوزير ومضى، عندما وصلا إلى الصحراء، رأى الحسن خيمة منصوبة من الحرير الرومي، مثبتة في الأرض بالحبال الحربية والأوتاد الذهبية. وقف الحسن في ناحية، عندئذ خرجت عدة فرق جراحة من الجنود مرتدية جميعها معدات الحرب، والتفت حول تلك الخيمة، وقالت شيئًا، وانصرفت. عندئذ وصل ما يقرب من أربعمائة من الفلاسفة والكتاب، والتفوا حول تلك الخيمة، وقالوا شيئًا، وانصرفوا. بعد ذلك اتجه ثلاثمائة من المشايخ النورانيين ذوي اللحى البيضاء إلى الخيمة، والتفوا حولها، وقالوا شيئًا، وانصرفوا. بعد ذلك التفت أكثر من مائتين من الجواري الجميلات وقد حملت كل منهن وعاء من الذهب والفضة والجواهر حول الخيمة، وقلن شيئًا، وانصرفن. عندئذ دخل كل من القيصر وكبير وزرائه الخيمة، وخرجوا، وانصرفوا. قال الحسن: ظلمت حائرًا متعجبًا وقلت لنفسني: أي حال هذه؟ ولما نزلنا، سألته، فقال: كان لقيصر الروم ولد، يستحيل (أن يكون هناك) آدمي في جماله، كامل في أنواع العلوم، فريد في ميدان البطولة.

عشقه والده بشغاف قلبه وحدث أن مرض فجأة، وعجز جملة الأطباء الماهرين عن علاجه، وفي النهاية توفي، فدفنوه في تلك الخيمة، وفي كل عام يخرجون مرة لزيارته، أولاً: يطوف جيش جرار حول الخيمة، وهم يقولون: «يا ابن الملك، لو كانت هذه الحال - التي اعترتك - تنجلي بالحرب، لكننا ضحينا بأرواحنا جميعًا كي نستردك، لكن هذه الحال التي اعترتك بيد شخص لا نستطيع أن نحاربه بأي وجه ولا يمكننا مبارزته، يقولون هذا، ويعودون. وعندئذ يتقدم الفلاسفة والكتاب، ويقولون: هذه الحال قد فعلها شخص لا يمكن مواجهته قط بالعلم والفلسفة والمعرفة والبحث؛ فجميع حكماء العالم عاجزون أمامه، وكل العلماء جاهلون إلى جانب علمه. وإلا كنا تدبرنا وتناقشنا، فالكافة كانوا يعجزون أمام قدرته، يقولون هذا، ويعودون. عندئذ يتقدم الشيوخ في حرمة عظيمة، ويقولون: يا ابن الملك، لو كانت هذه الحال - التي اعترتك - تنجلي بشفاعة الشيوخ، لكننا تشفعنا لك جميعًا وتضرعنا، ولما تركناك هنا، لكن هذه الحال قد أصابتك من شخص لا تجدي معه شفاعة أي عبد. يقولون هذا، وينصرفون. عندئذ تتقدم تلك الجواري الجميلات بأوعية الذهب والجواهر، وتلتف حول الخيمة، وتقلن، يا ابن القيصر، لو كانت هذه الحال - التي اعترتك - تستقيم بالمال والجمال، لكننا ضحينا بأنفسنا جميعًا، ولكننا منحنا المال الوفير، ولما تركناك، لكن هذه الحال كتبت عليك من شخص لا تأثير للمال والجمال عليه، يقلن

هذا، ويعدن. ثم يدخل القيصر مع كبير وزرائه الخيمة، ويقول: لتعلم يا عين الأب وسراجه، ويا منية قلبه، ويا فلذة كبده، ماذا بيد أبيك؟ أحضر لك جيشًا جرارًا، وجلب لك فلاسفة وشيوخًا وشفعاء ومستشارين، وجاء لك بالحسناوات والأموال وألوان النعم، وجاء بنفسه، (لعل) الأمر يتحقق بكل هذه الأشياء، ويوفر لك أبوك بذلك كل ما يمكن عمله، لكن هذه الحال قد تسبب فيها شخص يعجز الأب أمامه بكل هذا الشأن والجند والحشم والنعمة والمال والكنوز، السلام عليك حتى العام التالي، يقول هذا، ويعود، أثر هذا الكلام في الحسن بحيث ذاب قلبه؛ فدبر للعودة في الحال، واتجه إلى البصرة، وأقسم أيضًا ألا يضحك طوال حياته طالما أن عاقبة أمره غير معلومة. كما ألقى بنفسه في أنواع المجاهدة والعبادة، لدرجة إنه لم يستطع أحد في عهده أن يرتاض رياضة تفوق تلك الرياضة، حتى إن رياضته وصلت إلى درجة أنهم قالوا: ظل سبعين عامًا لا تفسد طهارته سوى عند قضاء الحاجة، كما أنه اعتزل إلى حد أنه قطع الأمل عن جملة الخلق، لا جرم أنه فاق الجميع. وحدث أن نهض رجل ذات يوم في جماعة وقال: لماذا الحسن أعظمنا وأفضلنا؟ فقال شيخ كان حاضرًا: لأن جملة الخلق في حاجة إلى علمه اليوم، وهو ليس محتاجًا إلى الخلق مثقال ذرة، الجميع محتاج له في الدين، وهو في غنى عن الجميع في الدنيا، والسمو والفضل يتمثلان في هذا. كان (الحسن) يتحدث مرة في الأسبوع في مجلس الوعظ، وكل مرة كان يعتلي فيها المنبر، ولا يرى رابعة^(١)، كان يترك المجلس، ويهبط. فيقولون له: أيها السيد، قدم إليك كل هذا الحشد من العظماء والسادة والمشايخ، فماذا يهم لو لم تأت العجوز؟ فكان يقول: بل، إننا لا نستطيع صب الحساء - التي نكون قد أعددناه من أجل حوصلة الأفيال - في صدور النمل، وكلما ازداد الإثارة في المجلس، كان يتجه إلى رابعة (قائلًا): يا من ارتديت الصوف، «هذا من جمرات قلبك يا سيدة».

سألوه: نعلم أنك تسعد بهذا الجمع الذي يحتشد تحت منبرك، فقال: إنني لا أسعد بكثرة الجمع، ولكن إن حضر فقير واحد يسعد قلبي.

وسئل أيضًا: ما هو الإسلام؟ ومن هو المسلم؟ قال: الإسلام في الكتب، والمسلمون تحت التراب.

وسئل: ما أصل الدين؟ قال: الورع. فقالوا: وما الشيء الذي يفسد الورع؟ قال: «الطمع». وسئل: ما هي جنات عدن؟ قال: قصر من الذهب لا يدخله إلا رسول، أو صديق، أو شهيد، أو سلطان عادل.

(١) رابعة: انظر الكتاب (ص ١٨٨).

وسئل: الطبيب المريض، كيف يعالج الآخرين؟ قال: عالج نفسك أولاً، وعندئذ عالج الآخرين. وقال: استمعوا إلى كلامي، فإن علمي يفيدكم، ولا يضركم عملي.

وسئل: يا شيخ، لقد نامت قلوبنا، فلا يؤثر قولك فيها، فماذا نفعل؟ قال: ليتها كانت قد نامت، فعندما تحرك النائم يستيقظ، ولقد ماتت قلوبكم، ومهما تحركها لن تستيقظ.

سئل: أيجدر بقوم أن يخيفونا بأقوالهم لدرجة أن قلوبنا تتمزق من الخوف؟ قال: إن تحدثوا مع قوم يخيفونكم اليوم فتأمنوا غداً، أفضل من أن تحدثوا مع قوم يطمئنونكم (اليوم) فتخافون غداً.

قالوا: يأتي قوم إلى مجلسك، ويذكرون أقوالك، ليعترضوا عليها، ويتقصون عيوبها. قال: لقد رأيت نفسي، تطمع في الفردوس الأعلى ومجاورة الحق تعالى، ولا تطمع في السلامة من الناس أبداً؛ لأن خالقهم لا يسلم من لسانهم.

قالوا: يقول رجل: لا تدع الخلق، ما لم تتطهر أمام نفسك، قال: إن الشيطان لا يتمنى شيئاً قط قدر أن يزين هذه الكلمة في قلوبنا؛ ليغلق باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قالوا: أychسد المؤمن؟ قال: أنسيتم إخوة يوسف عليه السلام، ولكن طالما لا تطهرون صدوركم من الحقد فلا بأس. كان للحسن مريد، كلما سمع آية من القرآن، يضرب نفسه على الأرض. فقال له ذات مرة: أيها الرجل، إن كنت تستطيع ألا تفعل ما تفعله فأنت لست ناراً أشعلتها في عمرك كله، وإن كنت لا تستطيع التوقف لابتعدت عنا عشرة منازل، ثم قال: «الصعقة من الشيطان»، كل من يصدر عنه صوت ما هو إلا من الشيطان، وهنا قد رجح الحكم، فلا يكون الأمر كذلك، وشرح بنفسه هذا، أي أن من يستطيع أن يبطل ذلك، وتصدر عنه تلك الصعقة، فهي من الشيطان.

ذات يوم كان يعقد مجلساً، فدخل الحجاج^(١) مع جند غفير، شاهري السيوف، وكان أحد الشيوخ حاضراً، فقال: لأختبر الحسن اليوم، فهذا وقت الاختبار. جلس الحجاج، والحسن غير عابئ به مثقال ذرة، وركز اهتمامه في حديثه الذي كان يقوله، حتى انفض المجلس. فقال ذلك الشيخ: الحسن حسن، في النهاية توجه الحجاج حيث (جلس) الحسن، وأمسك بساعده،

(١) الحجاج: هو الحجاج بن يوسف الثقفي من رجال دولة بني أمية، ولد في الطائف حوالي عام ٤١ هـ - ٦٦١ م، استعان به الخليفة عبد الملك بن مروان في قتال ابن الزبير فحاصره في مكة وقتله وصلبه عام ٧٣ هـ، فكافأه الخليفة بأن ولاء على البلاد التي فتحها وهي مكة والمدينة واليمن واليمامة، ثم ولاء على العراق عام ٦٩٤ م ف قضى على فتنة الخوارج ودخل الكوفة وفي سنة ٧٨ هـ ضم الحجاج إلى ولايته العراق وخراسان وشرقي بلاد العرب كله، ثم ضم عمان وبلغ جنوده وادي السند، ومهد السبل لقيام دولة الوليد، وتوفي عام ٩٥ هـ. انظر ترجمته في: دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الثالث عشر، ص ٣٦٣: ٣٦٨، انظر: د. محمد حلمي محمد أحمد: الخلافة والدولة في العصر الأموي، القاهرة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م.

وقال: «انظروا إلى الرجل»، إن أردتم أن تتروا رجلاً، انظروا إلى الحسن.

شوهده الحجاج في المنام واقفاً في عرصات القيامة، وقالوا: ماذا تطلب؟ قال: اطلب ما يطلبه الموحدون، وهذا لأنه كان قد قال وهو في حالة النزاع: يا إلهي، اظهر لحفنة العجولين هؤلاء أنك معي الغفار وأكرم الأكرمين فالجميع (يقرون) بقلوبهم وألسنتهم أنك سوف تعذبني فنجني بحقدهم، واطهر لهم أنك معي «فعال لما تريد». أخبروا الحسن بهذا القول، فقال: سوف يفوز هذا الخبيث بالآخرة أيضاً بالنصب.

يروى أن المرتضى رضي الله عنه دخل البصرة، عاقداً زمام ناقه على وسطه، ولم يستغرق أكثر من ثلاثة أيام، أمر فيها، فحطموا جملة المنابر، ومنعوا الوعاظ وقدم إلى مجلس الحسن، وكان الحسن يتحدث، فسأله: أنت عالم أم متعلم؟ قال: إني أقص أي قول وصلني عن الرسول صلى الله عليه وسلم فلم يمنعه المرتضى (رضوان الله عليه)، وقال: هذا شاب أهل للكلام، ثم مضى، فعرف الحسن بفراسته من هو، فهبط من فوق المنبر، وأسرع في إثره، حتى لحق به، وأمسك بطرفه، وقال: من أجل الله علمني الموضوع، أحضروا الطست من مكان يسمونه باب الطست، فعلم الحسن الموضوع، ومضى.

ذات مرة حدث في أحد الأعوام قحط بالبصرة، فذهب مائتا ألف من الخلق، وأقاموا منبراً، ورفعوا الحسن فوق المنبر كي يدعو، فقال الحسن: أتريدون أن ينزل الغيث؟ قالوا: بلى، لقد جئنا لهذا، قال: أخرجوا الحسن من البصرة. وكان الخوف قد غلب الحسن إلى درجة أنه - كما روي - عندما كان يجلس كأنه قد جلس أمام جلاله، ولم يره أحد مبتسماً أبداً، (كأنما) قد اعتراه ألم عظيم.

يروى أن (الحسن) رأى رجلاً ذات يوم، كان يبكي، فقال له: لماذا تبكي؟ قال الرجل: كنت في مجلس محمد بن كعب^(١)، فقال: أأكون الرجل من المؤمنين، ويظل عدة أعوام في الجحيم بشؤم الذنوب، فقال (الحسن): ليت الحسن كان منهم، لكان يخرج من الجحيم بعد عدة أعوام. يروى أنه كان يقرأ هذا الحديث ذات يوم: «آخر من يخرج من النار رجل يقال له هناد»^(٢). فقال الحسن: ليتني كنت ذلك الرجل.

(١) محمد بن كعب القرظي: قرّظي بفتح الأول والثاني ينسب إلى قرظ في اليمن أو إلى الصحابي قرظة بن كعب. وقد اشتهر اثنان من الرواة والمحدثين بهذه النسبة اسمهما محمد بن عمار لا محمد بن كعب ويجوز أنه واحد سواهما. د. استعلامي، (ص ٨٢٩).

(٢) لم يرد هذا الحديث في مصادر الحديث الموثوقة.

قال أحد الرفاق: كان الحسن ينوح في داري ذات ليلة، فقلت (له): لم نواحك هذا؟ مع مثل ذلك الزمن الذي أتاح لك التنعم بهذه العظمة، فقال: أنوح وأبكي خشية صدور عمل عن غفلة وسوء قصد، أو تكون القدم قد خطت خطوة أو جرى كلام على لساني مما لا يرضاه الحق تعالى. فيقول للحسن: اذهب، لم يعد لك الآن قدر في حضرتنا. ولن نقبل أي شيء منك من الآن.

يروى أن شخصاً كان قد جلس بجانب باب صومعة الحسن ذات يوم، وكان الحسن يصلي فوق سطح الصومعة، فبكى في سجدة لدرجة أن الماء أخذ يقطر من ماسورة السطح، وسقط على رداء الرجل، فطرق الرجل الباب، وقال: أهذا ماء طاهر أم لا؟ كي أغتسل، قال الحسن: اغتسل، لأنه لا يجوز الصلاة به فهو دمع عصاة.

يروى أن الحسن ذهب ذات مرة إلى جنازة، عندما وضعوا الميت في القبر، وواروه التراب، جلس الحسن فوق القبر، وبكى عليه إلى حد أن تحول التراب إلى طين ثم قال: أيها الناس، اللحد هو الأول والآخر، والقبر هو نهاية الدنيا، وأول الآخرة، ألا ترى أنه القبر «فالقبر أول منزل من منازل الآخرة» فلم تزهون بعالم آخره هذا (أي القبر)؟! وكيف لا تخافون من عالم أوله هذا (أي القبر)؟! طالما أن هذا هو بدايتكم ونهايتكم، فأعدوا أمرهما، يا أهل الغفلة، فبكى الحاضرون لدرجة أنهم صاروا جميعاً على شاكلة واحدة.

يروى أنه كان يمر ذات يوم بالمقابر مع جماعة من الفقراء، وقال لهم: في هذه القبور رجال لم تصل همتهم إلى الجنة، لكن حسرتهم الشديدة معبئة في التراب بحيث إن عرضت ذرة من تلك الحسرة على أهل الأرض والسماء، لخرّ الجميع صرعى من الخوف.

يروى أن معصية كانت قد صدرت من الحسن في الطفولة، وكلما كان يحبك قميصاً جديداً كان يكتب تلك المعصية على تلايبه، ثم يبكي طويلاً حتى يفقد وعيه.

ذات مرة كتب عمر بن عبد العزيز^(١) رضي الله عنه رسالة إلى الحسن، وقال في تلك الرسالة: عظمي عظة قصيرة، بحيث أتذكرها، وأجعلها هادية لي، فكتب الحسن على ظهر الرسالة: يا أمير المؤمنين، عندما يكون الله معك، ممن تخاف؟ وإن لم يكن الله معك ففيم تأمل؟ مرة أخرى كتب له الحسن رسالة (فحواها): عش يومك لأن نهاية الشخص أن يموت كما كتب له وقد كتب عليه الموت، والسلام. فأجابه: تمسك بيومك؛ لأن الدنيا والآخرة لا يجتمعان أبداً.

(١) عمر بن عبد العزيز: هو أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان خامس الخلفاء الراشدين، حفظ القرآن في صغره وتفقه في المدينة حتى بلغ مرتبة الاجتهاد، استمرت خلافته سنتين وستة أشهر، توفي بدير سمعان عام ١٠١ هـ. انظر: أبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، القاهرة ١٣٥٠ هـ الجزء الأول، (ص ١١٩).

ذات مرة كتب ثابت البناني^(١) (رحمة الله عليه) رسالة إلى الحسن (فحواها): أسمع أنك سوف تذهب إلى الحج، وأريد أن أكون في صحبتك، فأجابه: دعك (من هذا)؛ كي نعيش في ستر الله، فإن وجودنا معًا يظهر عيوبنا معًا، (وبجعلنا) نعادي بعضنا البعض.

يروى أن سعيدًا بن جبير^(٢) قال في وعظ (له): لا تفعل ثلاثة أفعال:

أولاً: لا تخط على بساط السلاطين ولو أخلصوا الشفقة على الخلق.

ثانيًا: لا تجلس في خلوة مع امرأة، ولو كانت رابعة، وكنت تعلمها كتاب الله.

ثالثًا: لا تعير أذنك لأمرير قط، وإن كنت من أشجع الشجعان، لأنه لا يخلو من آفة، وفي نهاية

الأمر يصيب جرحك.

قال مالك بن دينار^(٣): سألت الحسن: ما هي عقوبة العالم؟ قال: موت القلب. قلت: وما هو

موت القلب؟ قال: حب الدنيا.

قال شيخ: ذهبت إلى مسجد الحسن وقت السحر للصلاة، وكان باب المسجد مغلقًا،

والحسن يدعو داخله، والقوم يقولون: آمين، فانتظرت، حتى طلع النهار، ووضعت يدي على

الباب، ففتح، فدخلت، ورأيت الحسن بمفرده! فتعجبت، وعندما أدينا الصلاة، حكيت القصة

له، وقلت: لله أخبرني بهذا الأمر! قال: ولا تقل لأحد، كل ليلة جمعة، يأتي الملائكة إليّ،

أحدثهم في العلم، وأدعو فيقولون: آمين.

يروى أن الحسن عندما كان يدعو، كان حبيب العجمي^(٤) يرفع ذيل ثوبه، ويقول: أرى

الإجابة.

يروى أن شيخًا قال: كنت أمضي مع الحسن وجماعة إلى الحج، وفي البادية، انتابنا العطش،

ووصلنا إلى حافة بئر، ولم أر دلوًا ولا حبلًا، فقال الحسن: عندما أشرع في الصلاة، اشربوا الماء،

وما إن بدأ الصلاة، حتى أدركنا الماء الذي كان قد ارتفع حتى حافة البئر، فشربنا، ورفع أحد

الرفاق ركوة ماء، فانخفض الماء داخل البئر، وعندما فرغ الحسن من الصلاة، قال: لم تستقيموا

لله، فانخفض الماء في البئر، ثم رحلنا عن ذلك المكان. وفي الطريق وجد الحسن تمرًا، فمنحه

لنا، فأكلناه، وكان له نوى ذهبي! حملناه إلى المدينة وابتعنا به طعامًا، تصدقنا به.

(١) ثابت البناني: أبو محمد ثابت البناني، من أتباع الحسن البصري، ومن أزهد رجال عصره، توفي عام ١٢٣ هـ.

انظر ترجمته في صفة الصفوة، ج٣، (ص ١٧٥)، وانظر د. استعلامي، (ص ٨٢٩).

(٢) سعيد بن جبير: مولى بني والده، كنيته أبو عبد الله بن الحارثية، من بني أسد بن خزيمة، قتل بأمر الحجاج عام ٩٥ هـ.

صفة الصفوة، ج٣، (ص ٤٩) د. استعلامي، (ص ٨٢٩).

(٣) مالك بن دينار، انظر الكتاب (ص ٢٣٤). (٤) جيب العجمي، انظر الكتاب (ص ٢٤٥).

يروى أن أبا عمرو (إمام القراء)^(١) عندما كان يعلم القرآن، جاءه فجأة طفل جميل ليتعلم القرآن؟ فنظر إليه أبو عمرو نظرة خائنة، فنسي القرآن كله من ألف «الحمد» إلى سين «من الجنة والناس»، وتأججت النار داخله، فذهب إلى الحسن البصري وقص عليه الأمر وبكى متحجبا، وقال: أيها السيد، هكذا وقع الأمر، فنسيت القرآن كله، فحزن الحسن لذلك الأمر! وقال: الآن، وقت الحج، فاذهب وأد وحج، وعندما تفرغ، اذهب إلى مسجد خيف^(٢)، حيث ترى شيئا جالسا في المحراب لا تقطع عليه خلوته، ودعه، حتى ينتهي، ثم قل له أن يدعو لك. هكذا فعل أبو عمرو، جلس في زاوية المسجد، فرأى شيئا مهيبا، تحلق الخلق حوله، وبعد فترة، دخل رجل برداء أبيض طاهر، تزام الخلق أمامه، وسلموا عليه، وتحدثوا مع بعضهم البعض، عندما انقضى وقت الصلاة، ذهب ذلك الرجل، وذهب الخلق معه. وبقي ذلك الشيخ وحيدا. قال أبو عمرو: تقدمت إليه، وسلمت، وقلت: الله الله، أغثني! وقصصت عليه الأمر، فحزن الشيخ، ونظر إلى السماء بطرف عينه، ولم يكن قد أنزل رأسه بعد، حتى استرجعت القرآن، وقال أبو عمرو: ركعت أمامه من السرور، ثم قال: من أرشدك عني؟ قلت: الحسن البصري، قال: من يكون له إمام كالحسن، أي حاجة له بشخص آخر؟! ثم قال: فضحنا الحسن، فلنفضحه نحن أيضا، مزق حجابنا، فلنمزق حجابَه أيضًا، ثم قال: ذلك الشيخ ذو الرداء الأبيض - الذي رأيته، والذي جاء بعد صلاة الظهر، ومضى قبل الجميع، وجلله الجميع - كان الحسن، وهو كل يوم يؤدي في البصرة صلاة الظهر، ويأتي إلى هنا، ويتحدث معنا، ثم يؤدي صلاة العصر في البصرة. وعندئذ قال: كل من له إمام مثل الحسن، لماذا يطلب الدعاء منا؟

يروى أنه في عهد الحسن، أصيب جواد أحد الرجال بعجز، فأسقط في يد الرجل، وقص حاله على الحسن، فابتاع الحسن ذلك الجواد منه بأربعمائة درهم من أجل الجهاد، ومنحه الدراهم الفضية، وفي الليل رأى ذلك الرجل في المنام مرحا في الجنة، وبها جواد وأربعمائة من الجياد الصغار يمرحون معا، وعندما استيقظ، مثل أمام الحسن، وقال: أيها الإمام، ألغ البيع، فإنني نادم، قال الحسن: اذهب، فذلك المنام الذي رأيته، رأيته أنا قبلك، فعاد الرجل حزينا. وفي الليلة التالية، رأى الحسن قصورا ورياضا (جميلة) في المنام، سأل: ملك من هذه؟ فقليل له: إنها ملك الشخص الذي يلغي البيع، فطلب الحسن ذلك الرجل في الصباح، وألغى البيع.

(١) أبو عمرو (إمام القراء): رجل لغوي وأديب ولد في مكة، وتوفي في الكوفة في منتصف القرن الثاني، تنسب إليه قراءة من سبع قراءات للقرآن.

د. استعلامي، (ص ٨٢٩).

(٢) مسجد خيف: أحد مساجد مكة المكرمة، ويقال: لقد صلى فيه سبعون نبيا منهم سيدنا موسى عليه السلام، وكان يعد مصليا الرسول ﷺ في منى.

يروى أن (الحسن) كان له جار يعبد النار، (يدعى) شمعون، حدث أن مرض وانتهى به الأمر إلى النزاع الأخير، فقالوا للحسن: أدرك جارك، اقترب الحسن من فراشه فرآه وقد اسود من النار والدخان، فقال: اخش الله، فقد أَمْضِيتَ العمر كله بين النار والدخان، أَسلم؛ كي يرحمك الله، قال شمعون: تمنعني عن الإسلام ثلاثة أشياء:

أولاً: أنكم تذمون الدنيا، وتطلبونها ليلاً ونهاراً!

ثانياً: أنكم تقولون: إن الموت حق، ولا تعدون العدة له قط.

ثالثاً: أنكم تقولون: إن لقاء الحق يجدر الفوز به، والآن تفعلون كل ما هو مخالف لرضائه. فقال الحسن: هذه علامة العارفين، أن يفعل المؤمنون مثل ذلك، ماذا تقول أنت؟ فهم مُقَرَّرون بوحدانيته، (بينما) أفنيت عمرك في عبادة النار، فعبدت النار سبعين عاماً، وأنا الذي لم أعبدتها، كلانا سيدخل الجحيم، فتحرقك وتحرقني، ولا تحفظ لك حقاً، لكن إن يرد ربي لا تجرؤ النار على أن تحرق شعرة فوق جسدي، لأن النار مخلوق لله، والمخلوق مأمور، والآن وقد عبدتها أنت سبعين عاماً، تعال نضع كلانا أيدينا فوق النار؛ كي تشاهد ضعف النار وقدره الله (تعالى)، قال هذا ووضع يده داخل النار، واستمر (لفترة) ولم يتأثر بها قط ولم يحترق، وعندما رأى شمعون ذلك تحير وأشرق داخله صبح المعرفة، فقال للحسن: قد عبدت النار طيلة سبعين عاماً، الآن وقد بقيت لي عدة أنفاس، ماذا أفعل؟ قال: أن تسلم فقال شمعون: إن منحتني مكتوباً، حتى لا يعاقبني الحق تعالى، أو من، ولكن إن لم تمنحني مكتوباً، لا أو من، فكتب الحسن رسالة، فقال شمعون: مُرْ بأن يشهد عليها عدول البصرة، فسجلوا شهادتهم عليها، فبكى شمعون كثيراً، وأسلم، وأوصى الحسن (قائلاً): عندما أموت مر بتغسيلي وضعني بيدك في التراب، وضع هذا المكتوب في يدي، لأنه سوف يكون حجتي، أوصي بهذه الوصية، ونطق الشهادة، وتوفي فغسلوه، وصلوا (عليه)، ودفنوه، ووضعوا ذلك المكتوب في يده. في تلك الليلة، غلبه النوم وهو يهذي، ما هذا الذي فعلته؟ أنا نفسي غريق، فكيف آخذ بيد غريق آخر؟! لا سيطرة لي على ملكي، فلماذا تناولت على ملك الله؟! واستغرق في النوم بين هذه الأفكار، فرأى شمعون كالشمع المضيئ، فوق رأسه تاج، ويرتدي حلة، مبتسماً مختالاً في رياض الجنة. فقال الحسن: يا شمعون، كيف أنت؟ قال: لم تسأل؟ كما ترى أن الحق تعالى أنزلني بفضلته إلى جواره، وتجلى (لي) بكرمه وما أمر به بلطفه لي، لا يتأتى وصفه والتعبير عنه. أنت الآن بريء، تحللت من ضمانك، خذ مكتوبك هذا، فلم تعد لي حاجة به بعد الآن. عندما استيقظ الحسن، رأى تلك الورقة في يده، فقال: يا إلهي، الواضح أن أمرك لا علة له، سوى الفضل المحض. من يضر على بابك؟ هديت المجوسي البالغ من العمر سبعين عاماً السبيل إلى قربك بكلمة واحدة، فكيف

تحرم المؤمن البالغ سبعين عامًا؟

يروى أنه كان متواضعًا لدرجة أنه كان يعد كل شيء - ينظر إليه - أفضل منه، ذات يوم، كان يمر على شاطئ دجلة، فرأى عبدًا معه ركوة وأمامه سيدة جالسة، تشرب من تلك الركوة، فجال في خاطر الحسن أن هذا الرجل وهو أفضل مني، حاد عن الشرع فهو إذن ليس أفضل مني؛ فقد جلس مع امرأة محرمة عليه، كانت تشرب من القربة، وبينما كان مستغرقًا في هذه الأفكار، وصلت فجأة سفينة مثقلة بالأحمال، وعليها سبعة رجال، وفجأة جنحت. وغرقت فأسرع ذلك العبد، وأنقذ ستة أفراد ثم اتجه إلى الحسن. وقال: انهض، إن كنت أفضل مني، فأنا أنقذت ستة أشخاص فانقذ أنت الشخص (الباقى). يا إمام المسلمين في تلك (القربة) ماء وتلك المرأة أُمي. وأردت أن أختبرك، هل ترى بعين الظاهر أم بعين الباطن؟ الآن صار معلومًا أنك رأيت بعين الظاهر. انحنى الحسن أمامه وطلب المَعذرة، وعلم أنه من رجال الحق، ثم قال: أيها العبد: أنقذني من بحار الشك، كما أنقذتهم من البحر، فقال العبد: لتقر عينك، لا شك أنه بعد ما حدث لم تعد نفسك أفضل من أي شخص آخر. حتى حدث أن رأى كلبًا، وقال: إلهي، ارفعني إلى درجة هذا الكلب. فسألوه: أنت أفضل أم الكلب؟ قال: إن نجوت من عذاب الله، أكون أفضل منه، وإلا فبِعِزَّةِ الله وجلاله هو أفضل من مائة مثلي.

يروى أن الحسن قال: عجبت من قول أربعة أشخاص: طفل، وثل، ومخنث، وامرأة! قالوا: كيف؟ قال: ذات يوم، كشفت ستر مخنث كنت أمر عليه، فقال: أيها السيد، لم يتضح حالنا بعد، فلا تكشف ستري؛ لأن الله يعلم كيف تصير الأمور في الآخرة! ورأيت ثملًا، كان يسير في الوحل مترنحًا، فقلت له: ثبت قدمك يا مسكين حتى لا تزل. قال: ثبت أنت قدمك مع كل هذه الدعاوى؟ إن زللت وأنا ثمل، وأنهض ملوثًا بالطين، واغتسل، فهذا سهل، لكنني أخشى وقوعك أنت. ترك هذا الكلام في قلبي أثرًا عظيمًا. ذات مرة، كان طفل يحمل مصباحًا، فقلت (له): من أين أحضرت هذا الضوء؟ فاهتزت ريح داخل المصباح، فقال: قل إلى أين ذهب هذا الضوء؟ كي أقول لك من أين أحضرته! وكانت امرأة - مكشوفة الوجه، منبسطة اليدين، عيناها تتسمان بجمال عظيم - تشكو لي من زوجها، فقلت (لها): استري وجهك أولاً، قالت: لقد زال عقلي عني بسبب محبة مخلوق، وإن لم تكن تخبرني، فإنني سأذهب إلى السوق هكذا. وماذا لو لم تر عورة وجهي مع كل هذه الدعاوى في محبته. فتعجبت منها أيضًا.

يروى أنه عندما كان يهبط من فوق المنبر كان يمسك بيد عدة أفراد من هذه الطائفة ويقول: «هاتوا بنشر النور» أي تعالوا ننشر النور، ذات يوم، رافقهم رجل ليس من أهل هذا الحديث، فقال له الحسن: لتعد.

يروى أنه قال لأصحابه ذات يوم: قد شابهتم أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، فسروا، فقال الحسن: في الوجه والذقن، لا في شيء آخر، لو كانت عيونكم وقعت على أولئك القوم، لكان الجميع يبدون مجانين في أعينكم، وإن هم اطلعوا على سرائركم، لما اعتبروا أحدكم مسلماً، لأنهم كانوا طلائعاً تقدموا فوق جياذ منطلقة مثل الطيور المحلقة، والريح العاصفة، وقد بقينا نحن فوق حمير ظهورها مجروحة.

يروى أن أعرابياً مثل أمام الحسن، وسأله عن الصبر، قال: الصبر نوعان: أحدهما: الصبر على البلاء والمصائب، والثاني: الصبر على الأشياء التي نهانا الحق تعالى عنها وهكذا بين الصبر الحق للأعرابي. قال الأعرابي: «ما رأيت أزهّد منك»، وما سمعت عن من هو أكثر صبراً منك، قال الحسن: أيها الأعرابي، إن زهدي - كله - ميل، وصبري جزع، فقال الأعرابي: اشرح كلامك لأنك شوشت خاطري! فقال: إن صبري في البلاء أو في الطاعة ناطق بخوفي من نار جهنم، وهذا هو عين الجزع. وزهدي في الدنيا رغبة في الآخرة، وهذا هو عين الطلب. ثم قال: إن صبر الشخص يكون قوياً عندما يستغنى عن نصيبه، كي يكون صبره للحق، لا لإنقاذ جسده من الجحيم، ويكون زهده للحق، لا لوصوله للجنة، وهذه هي علامة الإخلاص.

وقال: يلزم للرجل: علم نافع، وعمل كامل، وإخلاص فيه، وقناعة تامة وصبر معها. إذا ما تحققت هذه الثلاثة لا أعلم بعد ذلك ماذا تفعل به طالما تحققت له؟

وقال: إن الأغنام أكثر علماً من الإنسان، لأن صوت الراعي يمنعها عن الرعي، ولا يمنع كلام الله الإنسان عن رغبته.

وقال: إن مجالسة الأشرار تسيئ ظن الناس بالأخيار.

وقال: إن دعائي شخص لشرب الخمر أحب إليّ من أن يدعوني لطلب الدنيا.

وقال: المعرفة هي ألا تجد في نفسك ذرة خصومة واحدة.

وقال: إن جنة الخلود ليست بهذا العمل اليومي الضئيل، إنها بالنية الحسنة.

وقال: في البداية عندما ينظر أهل الجنة إلى الجنة، يفنون عن أنفسهم سبعمائة ألف عام؛ لأن الحق تعالى يتجلى لهم، فإن نظروا إلى جلاله، يشملون بالهيبة، وإن نظروا إلى جماله، يغرقون في الوحدة.

وقال: الفكرة مرآة تظهر لك حسناتك وسيئاتك.

وقال: كل من لا يتصف كلامه بالحكمة، فهو عين الآفة. وكل من لا ينبع صمته من الفكر، فهو مملوء بالشهوة والغفلة، وكل نظرة لا تتأتى من العبرة، كلها لهو وذلة.

وقال: في التوراة: كل من قنع، استغنى، وطالما اعتزل الخلق، أدرك السلامة. وطالما سحق

الشهوة، تحرر. وطالما تخلى عن الحسد، ظهرت المودة. وطالما صبر عدة أيام على الحرمان، أدرك الخلود.

وقال: يعتاد العارفون الصمت دائماً، حتى تنطق قلوبهم، ثم تسري على ألسنتهم.

وقال: في الورع ثلاثة مقامات:

أولاً: ألا يتحدث العبد إلا بالحق، سواء في الغضب أو الرضا.

ثانياً: أن يحفظ أعضائه عن كل ما يغضب الله.

ثالثاً: أن يقصد شيئاً، يرضى الله تعالى عنه.

وقال: مثقال ذرة من ورع أفضل من ألف مثقال من الصلاة والصيام.

وقال: أفضل الأعمال كلها الفكر والورع.

وقال: لو أعلم أنني لست منافقاً، لكان ذلك أحب إلي من أي شيء على وجه الأرض.

وقال: إن اختلاف الظاهر والباطن والقلب واللسان من جملة النفاق.

وقال: لم يوجد هناك مؤمن قط من السابقين، ولن يكون من اللاحقين، إلا ويخاف على نفسه، (مردداً): لا ينبغي لنا أن نكون منافقين.

وقال: كل من يقول أنا مؤمن حقاً، ليس مؤمناً بدليل: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ (١).

وقال: المؤمن من يتأني، ولا يكون كحاطب الليل، أي لا يكون كشخص يفعل كل ما يستطيع أن يفعله، ويقول كل ما يرد على لسانه.

وقال: لا غيبة لثلاثة أشخاص: صاحب هوى، وفاسق، وإمام ظالم.

وقال: الاستغفار محمود في كفارة الغيبة، لو أنك لا تريد حلاً آخر.

وقال: مسكين ابن آدم، راض بالدار التي حلالها حساب وحرمانها عذاب.

وقال: لا تفارق روح ابن آدم الدنيا، إلا بثلاث حسرات:

الأولى: أنها لم تشبع مما جمعه.

الثانية: أنها لم تدرك ما كانت قد تمتته.

الثالثة: أنها لم تعد زاداً طيباً لمثل ذلك الطريق الذي ينتظرها.

قال شخص: إن فلاناً يسلم الروح، قال: لا تقل هذا، إنه أمضى سبعين عاماً حتى يسلم الروح،

والآن سوف يتحرر من تسليم الروح، فإلى أين سيصل؟

(١) سورة النجم، الآية (٣٣).

وقال: نجا المخففون وهلك المثقلون.

وقال: ليغفر الله عز وجل لقوم كانت الدنيا وديعة لهم، فردوا الوديعة ومضوا فارغي البال.

وقال: العاقل أو العالم في رأيي هو: من يخرب الدنيا، ويؤسس الآخرة بخرابها، ولا يخرب الآخرة، ويؤسس الدنيا بخرابها.

وقال: كل من عرف الله، يحبه. وكل من عرف الدنيا يناصبها العدا، وليست في الدنيا أية دابة أولى من نفسك بلجام قوي.

وقال: إن أردت أن ترى كيف ستكون الدنيا بعدك؛ فانظر كيف هي بعد رحيل الآخرين!

وقال: بالله، إنهم لم يعبدوا الأصنام، إلا محبة في الدنيا.

وقال: إن الرجال الذين سبقوكم، قد عرفوا قدر تلك الرسالة، التي وصلتهم من الحق فكانوا يتأملونها ليلاً، ويعملون بها نهاراً، وأنتم تعلمتموها ولم تعملوا بها، أعددتكم الكلمات لتعدوا بها رسالة الدنيا.

وقال: بالله، لا يعز شخص قط الذهب والفضة، إلا ويحقره الله.

وقال: كل أحق يرى قوماً يتبعونه، لا يثبت قلبه بأي حال.

وقال: كل شيء سوف تأمر به شخصاً، عليك أن تنفذه أولاً.

وقال: كل من يردد كلام الناس أمامك، يردد كلامك أمام الآخرين، فلا يكون جديراً بالصحة.

وقال: الإخوة الأعزاء لدينا هم أصحاب الدين، والأهل والأبناء هم رفاق الدنيا وخصوم الدين.

وقال: كل ما ينفقه العبد على نفسه ووالديه، يحاسب عليه، سوى الطعام الذي يقدمه للرفاق والضيوف.

وقال: كل صلاة لا يكون القلب حاضرًا فيها، تكون أقرب إلى العقاب.

وقالوا: ما الخشوع؟ فقال: هو الخوف الذي كان قد ثبت في القلب، ولازمه القلب.

قالوا: هناك رجل، لم يأت إلى صلاة الجماعة، منذ عشرين عاماً ولم يختلط بأحد، وقد اعتكف في زاوية. فذهب الحسن إليه، وقال: لماذا لا تأتي إلى صلاة الجماعة، ولا تختلط بالناس؟ فقال: اعذرني، فإنني مشغول، قال: مشغول بأي شيء؟ قال: لا يصعد مني نفس قط، إلا ومعه نعمة من الحق إليّ، أو معصية مني إليه، فأنشغل بشكر تلك النعمة، وبالاستغفار عن تلك المعصية. فقال الحسن: إبق هكذا.

سأله: ألم تقض وقتاً طيباً قط؟ فقال: ذات يوم كنت فوق السطح عندما كانت جارتني تقول

لزوجها: ظللت في دارك ما يقرب من خمسين عامًا، وصبرت في السراء والضراء، وفي البرد والحر، ولم أطلب المزيد، وحفظت اسمك وعرضك، ولم أشك منك لأحد. لكنني لا أقبل هذا الأمر وهو أن تفضل عليّ امرأة أخرى، تحملت كل هذا، كي تراني كل شيء، لا كي ترى أخرى واليوم، أنت تلتفت إلى أخرى، وهأنذا أتشبث بطرف إمام المسلمين بسبب التشنيع. فقال الحسن: طاب وقتي، وسال الدمع من عيني، وأردت أن أجدل لها دليلًا في القرآن، فوجدت هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(١).

اعفو عنك ذنوبك كلها، ولكن إن خطر لك أن تميل إلى أخرى، وأن تشرك بالله لا أسامحك أبدًا.

يروى أن شخصًا سأله: كيف حالك؟ قال: كيف يكون حال قوم يوجدون في البحر، وتتحطم سفينتهم، ويتعلق كل منهم بلوح؟ قال: يكون الأمر صعبًا، قال: إن حالي على هذا النحو. يروى أنه مرّ على جماعة يوم العيد كانوا يضحكون ويلعبون، فقال: أعجب من أناس يضحكون، وهم يجهلون حقيقة حالهم!

يروى أنه رأى رجلًا كان يتناول الخبز في المقابر، فقال: إنه منافق، فقالوا: لماذا؟ قال: إن الرجل الذي تتحرك له شهوة أمام هؤلاء الموتى، كأنه لا يؤمن بالآخرة والموت، وهذه هي علامة النفاق.

يروى أنه كان يقول في المناجاة: إلهي، منحتني النعمة، ولم أشكر. وأوقعت بي البلاء، فلم أصبر، ولم تسترد مني نعمة ما لم أشكرك عليها! ولم تدم عليّ بلاء ما لم أصبر عليه! إلهي ماذا يتأتى منك سوى الكرم؟!

وعندما حانت منيته، ضحك، ولم يكن أحد قد رآه ضاحكًا قط، وأسلم الروح وهو يقول: أي ذنب؟ أي ذنب؟

رآه شيخ في المنام، فقال له: إنك لم تضحك وأنت على قيد الحياة أبدًا، فأى حال اعترتك في النزاع؟ فقال: سمعت صوتًا (ينادي): يا ملك الموت، اقضه بشدة، فما زال له ذنب واحد. فغلبنى الضحك من السرور، وقلت: أي ذنب؟ وأسلمت الروح.

وفي تلك الليلة التي توفي فيها رأى شيخ في المنام: أن أبواب السماء مفتوحة، وأن مناديًا ينادي: بأن الحسن البصري وصل إلى الله والله راضٍ عنه، روح الله روحه.

(١) سورة النساء: الآية ١١٦.

ذكر مالك بن دينار^(١)

رحمة الله عليه



هو المتمكن من الهداية، ومتوكل الولاية، هو الهادي الصادق، ومقتدى طريق الدين. هو السالك الطيار، مالك بن دينار (رحمة الله عليه).

كان صاحب الحسن البصري، وكان من مشايخ هذه الطائفة، له كرامات مشهورة، ورياضات مذكورة.

كان اسم والده (دينار)، وولد في ظل عبودية والده، ومع أنه كان ابن عبد، (إلا أنه) كان متحرراً من الكونين.

ويقول البعض: إن مالكا بن دينار كان قد جلس في سفينة، وعندما وصلت إلى وسط البحر، قال أهل السفينة: هات أجرة السفينة. قال: ليس لدي، فضربوه طويلاً حتى فقد وعيه! وعندما تاب إلى رشده ثانية، قالوا له: هات أجرة السفينة، فقال: لا أملك. قالوا: فلنمسك بقدميه، ونلقي به في البحر، فظهر كل ما كان من سمك في الماء، وقد أمسكت كل واحدة دينارين من الذهب بفيها، فمد مالك يده وأخذ دينارين من سمكة، وأعطاهما لهم. وعندما رأى ملاحو السفينة ذلك، خرجوا أمام قدميه. ثم مضى على وجه الماء، حتى اختفى. ولهذا السبب سمي مالك بن دينار. وكان سبب توبته، أنه كان شديد الجمال، ومحباً للدنيا، ولديه مال وفير.

كان يقيم في دمشق، وكان معاوية قد بنى مسجد دمشق الجامع، وأوقف عليه أوقافاً طائلة فطمع مالك في أن يعهد إليه بأمر ذلك المسجد، فذهب، وطرح سجادة في زاوية المسجد، وظل يتعبد بصفة مستمرة لمدة عام، على أمل أن كل من يراه، يجده يصلي. وكان يقول لنفسه: أنت منافق، حتى انقضى عام على هذا الأمر. فأخذ يخرج من هناك ليلاً، ويتجول.

(١) مالك بن دينار، كنيته أبو يحيى، وهو من أهل البصرة، كان مولى لامرأة من بني سامة بن لؤي، وكان يكتب المصحف، توفي عام ١٣١ هـ.

انظر: صفة الصفوة: ج٣، (ص ١٨٤)، كشف المحجوب، (ص ٢٩٨). د. استعلامي: (ص ٨٣٠).

وذات ليلة انشغل بالطرب، وعندما نام رفاقه، انبعث صوت من ذلك العود الذي كان يعزف عليه (قائلاً): «يا مالك ما لك أن لا تتوب» وعندما سمع ذلك، كف عن العزف ثم ذهب إلى المسجد حائراً، وهو يفكر، وقال: ألم يكن من الأفضل أن أعبد الله بإخلاص من أن أعبده بنفاق، وأن أخجل مما أفعله؟ وإن عهد لي بتولي أمر هذا المسجد، لن أقبل، وعقد العزم على هذا، وأخلص النية لله، وأخذ يتعبد تلك الليلة بقلب صادق. وفي اليوم التالي، تجمع الناس أمام باب المسجد، وقالوا: نرى خللاً في هذا المسجد كان يجب أن يتعهد أحد، ثم اتفقوا على مالك، فليس هناك من هو أجدر منه (بذلك)، وتقدموا إليه، وكان يصلي، فصبروا حتى فرغ، وقالوا: لقد جئنا متشفعين كي تقبل هذه الولاية. فقال مالك: إلهي، لم ينظر إليّ شخص قط طيلة عام عبدتك (فيه) برباء. والآن عندما أسلمت لك القلب، وصححت اليقين بزهدي فيه، أرسلت لي عشرين شخصاً، ليلقوا بهذا الأمر على عاتقي، فبعزت أنا لا أريده. عندئذ خرج من المسجد، واتجه إلى العبادة، وسلك طريق المجاهدة والرياضة حتى علا شأنه وعظم أمره.

وكان في البصرة رجل ثري، مات، وترك مالا وفيراً. كانت له ابنة جميلة. جاءت إلى ثابت اللبناني، وقالت له: أيها السيد، أريد أن أتزوج مالكا كي يعاونني في أمر الطاعة. فأخبر ثابت مالكا (بذلك) فأجاب مالك: قد طلقت الدنيا ثلاث طلاقات، وهذه المرأة من جملة الدنيا، ولا يمكن أن تنكح المطلقة لثلاث مرات.

يروى أن مالكا كان قد نام في ظل شجرة، فإذا بثعبان قد أتى وأمسك بفيه غصن نرجس، وأخذ يجلب به الهواء له.

يروى أنه قال: رغبت في الغزو عدة أعوام وقد حدث أن ذهبت إلى الروم، وفي اليوم الذي وجب فيه القتال أصابتنى الحمى بحيث إنني عجزت، فدخلت الخيمة، ونمت حزينا، وكنت أقول لنفسى آنذاك: أيها الجسد، إن كانت لك منزلة لدى الحق تعالى، لما أصابتك هذه الحمى اليوم. ثم استغرقت في النوم فهتف بي هاتف: لو كنت حاربت اليوم لأسرت، وطالما أسرت، يقدم إليك لحم الخنزير، فإن أكلت كفرت، فهذه الحمى كانت هدية عظيمة لك. قال مالك: استيقظت من النوم، وشكرت الله.

يروى أن مناظرة وقعت بين مالك ودهري، وطال بهما الجدل، وكان كل منهما يقول: أنا على حق، فاتفق الناس على أن يقيدوا يدي مالك والدهري بعضها مع بعض، ويضعوها على النار، واليد التي تحترق يكون صاحبها على باطل، ووضعوها على النار، فلم تحترق أي منهم، وخمدت النار. فقالوا: كلاهما على حق. فعاد مالك مهموماً إلى الدار، وسجد على الأرض، وناجى (الله) (قائلاً): سلكت طريق الإيمان سبعين عاماً كي أتساوى مع الدهري. فسمع صوتاً:

أما علمت أن يدك حمت يد الدهري لو كانت يده فحسب وضعت في النار لكنت رأيت.

يروى أن مالكا قال: مرضت ذات مرة، واشتد عليّ المرض بحيث فقدت الأمل، وبعد أن تحسنت قليلاً، احتجت إلى شيء، فاتجهت إلى السوق بصعوبة بالغة، لأنه لم يكن معي أحد ووصل أمير المدينة، فنادى عليّ الحرس (قائلين): ابتعد، ولم تكن لدي قدرة على ذلك فكنْتُ أسير ببطء، فتقدم أحدهم، وضرب كتفي بسوط، فقلت: «قطع الله يدك». وفي اليوم التالي، رأيت الرجل مقطوع اليد، وملقى على مفترق الطريق.

يروى أن شاباً فاسداً جداً وفاسقاً كان يجاور مالك، وكان مالك يتأذى منه دائماً بسبب فساده، لكنه كان يصبر، حتى يشكو شخص آخر (منه). الخلاصة ضج الآخرون بالشكوى فنهض مالك، واتجه إليه، ليأمره بالمعروف، وكان الشاب جباراً للغاية ومتسلطاً جداً فقال لمالك: أنا من رجال السلطان، لا يجروني أحد قط على أن يردعني، أو يمنعي عن هذا، فقال مالك (نعرض الأمر على) السلطان، فقال الشاب: لا يحيد السلطان عن إرضائي أبداً، فهو يرضى بكل ما أفعله. فقال مالك: إن لم يستطع السلطان، أشكو إلى الرحمن، وأشار إلى السماء. فقال الشاب: هو أكرم من أن يعاقبني، فعجز مالك، وخرج.

وانقضت عدة أيام، جاوز (فيها) الفساد حده، فضج الناس بالشكوى ثانية، فنهض مالك؛ كي يؤديه، وفي الطريق الذي كان يسير فيه، سمع صوتاً: ارفع يدك عن حبيينا، فتعجب مالك، ودخل إلى الشاب، فقال الشاب عندما رآه، ماذا حدث؟ فجنّت ثانية! قال: لم أجيء هذه المرة كي أزعرك، لقد جنّت حتى أخبرك بالصوت الذي سمعته، يخبرني عنك، وما إن سمع الشاب ذلك حتى قال: الآن والأمر هكذا، وهبت قصري في سبيله، وضقت ذرعاً بكل ما أملك، قال هذا، وأطاح بكل شيء، واتجه إلى الطريق. قال مالك: رأيته بعد فترة مقيماً في مكة، وقد صار مثل الخلال. وكان يقول في النزع الأخير: لقد قال: إنه حبيينا، فذهبت إلى الحبيب، قال هذا وأسلم الروح.

يروى أن مالكا كان قد استأجر داراً ذات مرة، وكان ليهودي دار أمام داره، وكان محراب منزل مالك ملاصقاً لباب اليهودي، وعرف اليهودي (ذلك)، فأراد أن يؤذيه متعمداً، فحفر حفرة، وأعد منفذاً لها قرب المحراب، وكان يقضي حاجته فيها، ويتركها عارية حتى امتلأت الحفرة. ذات يوم ضاق ذلك اليهودي؛ لأن مالكا لم يكن يتحدث قط، فخرج، وقال: أيها الشاب ألا تصل النجاسة إلى دارك من خلال حائط المحراب؟! قال: بلى، ولكنني قد أعددت جاروفاً ومكنسة، وعندما يصل شيء إلى هذا الجانب، أرفعه وأغسله. قال: أأست غاضباً؟ قال: غاضب، ولكنني أكظم (الغيظ) لقوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾^(١)، فأسلم اليهودي في الحال.

(١) سورة آل عمران: آية ١٣٤.

يروى أن أعراباً كانت تمر، دون أن يتناول مالك فيها مرّاً أو حلواً قط. كل ليلة كان يذهب إلى دكان طبّاح، ويشتري رغيفين، ينهي بهما صيامه، وأحياناً كان يحدث أن يسخن خبزاً، ويتصبر به، لأن الخبز كان طعامه. حدث أن مرض، ورغب في اللحم، فصبر عشرة أيام ولما فاض به، ذهب إلى دكان قصاب، واشترى اثنين أو ثلاثة من الكراع، ووضعها في ثوبه، ومضى. كان للقصاب غلام أرسله في إثره، وقال: راقبه. وبعد فترة، عاد الغلام باكياً، وقال: اتجه من هنا إلى مكان خال، وأخرج تلك الكراع من ثوبه، واشتم رائحتها مرتين أو ثلاث، ثم قال: أيتها النفس، لا يحق لك أكثر من هذا، ثم منح ذلك الخبز وتلك الكراع إلى فقير، وقال: أيها الجسد الواهن لا تظن أنني أحملك كل هذه الآلام بسبب العداء، أصبر عدة أيام كي لا تحترق يوم القيامة بنار جهنم، ربما تنجلي هذه المحنة، وتنعم النعمة التي لا زوال لها. قال (الغلام): لا أعرف ماذا يعني قوله؟ فمن لا يأكل لحمًا طيلة أربعين يومًا، ينقص عقله، وهو الذي لم يأكلها بعد طيلة عشرين عامًا، عقله في ازدياد كل يوم.

يروى أنه أقام في البصرة أربعين عامًا، ولم يكن قد أكل (خلالها) رطبًا، وعندما كان التمر ينضج، كان يقول: يا أهل البصرة، ها هي بطني لم تنقص بسببه بعد، ولم تزد بطونكم - وأنتم تتناولونه كل يوم - قط، وعندما انقضت أربعون سنة، بدا عليه الاضطراب رغبة في الرطب، ومهما حاول، لم يستطع أن يصبر، وعندما انقضت عدة أيام وكانت تلك الرغبة تزداد كل يوم، وكان يمنع نفسه، صار عاجزاً بسببها، فقال: لا شك أنني لن أكل الرطب، فاقتليني أو افني. حتى هتف به هاتف ذات ليلة: يجب تناول الرطب، خلص نفسك من القيد، ولما أجيب هذا الجواب، ووجدت نفسه الفرصة. أخذ في الصباح فقال مالك: إن أردت رطبًا، تصم أسبوعًا، بحيث لا تفطر قط، وتقضي الليل في الصلاة حتى النهار؛ كي أمنحك الرطب. رضى النفس بذلك، وأتم أسبوعًا في قيام الليل وصيام النهار. بعد ذلك ذهب إلى السوق، واشترى رطبًا، وذهب إلى المسجد ليأكلها. فصاح طفل من فوق سطح. يا ابن اليهودي، لقد اشترى الرطب، ويدخل المسجد ليأكله. فقال مالك: أي شأن لليهودي بالمسجد؟ وفي الحال قدم والد الطفل، (ليرى) أي يهودي ذلك؟ فرأى مالكًا، فحجثا أمام قدميه، قال مالك: أي كلام هذا الذي قاله الطفل؟ قال الرجل: اعذره أيها السيد، إنه طفل لا يعلم، ويوجد في محلتنا يهود، وعندما نصوم يرى أطفالنا دائماً اليهود يأكلون شيئاً أثناء النهار، فيظنون أن كل من يأكل شيئاً أثناء النهار يهوديًا، وهذا بسبب الجهل. وقال: أعف عنه. وما إن سمع مالك ذلك، حتى اضطربت النار بداخله، وعرف أن ذلك الطفل ما هو إلا لسان الغيب. فقال: يا إلهي، وأنا لم أكل الرطب بعد سميتني يهوديًا بلا جرم، فإن أكلت ترميني بالكفر. بعزتك لن أكل التمر أبدًا.

يروى أن حريقاً وقع بالبصرة ذات مرة، فحمل مالك عصاه ونعليه، واعتلى مرتفعاً، وأخذ يتطلع إلى الناس وقد سقطوا أسرى للمتاع والأسباب، فكانت مجموعة تحترق، ومجموعة تقفز، ومجموعة تجر المتاع. فكان مالك يقول: «نجا المخفون وهلك المثلثون». وسوف يكون الأمر هكذا يوم القيامة^(١).

يروى أن مالكا ذهب ذات يوم لعيادة مريض. قال: نظرت إليه، وكان أجله قد اقترب. عرضت عليه (النطق) بالشهادة. فلم ينطق، مهما حاولت أن أقول له: انطق، كان يقول: عشرة إحدى عشرة، عشرة إحدى عشرة. عندئذ قال: أيها الشيخ، أأامي جبل ناري، كلما أهر بالشهادة، تنتزع النار صوتي. فسألت عن حرفته، فقيل: كان يقرض المال (بالربا)، ويغش المكيال.

قال جعفر بن سليمان^(٢): كنت مع مالك في مكة، عندما أخذ في قول لبيك اللهم لبيك، سقط، وفقد وعيه، ولما تاب إلى رشده، قلت له: ما سبب وقوعك؟ فقال: عندما قلت لبيك خفت، لأنه ربما يكون الجواب: «لا لبيك الله لا لبيك».

يروى أن مالكا عندما كان يقول: «إياك نعبد وإياك نستعين» كان يبكي منتحباً، ثم كان يقول: لو لم تكن هذه الآية من كتاب الله، ولو لم يأمر بها، لما قرأتها. لأنني أقول: إياك نعبد وأنا أعبد نفسي، وأقول: إياك نستعين، وأذهب إلى باب السلطان، وأشكر كل شخص وأشكو له.

يروى أن مالكا كان يستيقظ طوال الليل، وكانت له ابنة، قالت له ذات ليلة: يا أبي، فلتنم لحظة، قال: يا روح أبيك، أخاف غارة القهر، أو أخاف لأنه لا يجوز أن تتجه السعادة لي، وتجديني نائماً. وقيل (له): كيف حالك؟ فقال: آكل خبز الله، وأطيع أمر الشيطان.

وإن يناد شخص في المسجد (قائلاً): ليخرج أسوأكم، فلا يتقدمني شخص منكم قط سوى بالقهر. سمع ابن المبارك^(٣) رضي الله عنه هذا، فقال: من هنا تتأتى عظمة مالك، وصدق كلامه.

يقال: إن امرأة قالت لمالك: أيها المرأئي، فأجابها: لم ينادني شخص قط باسمي طيلة عشرين عاماً إلا أنت، فقد عرفت جيداً من أنا، فقالت: طالما عرفت الخلق، فلا أخاف قط من شخص يمدحني، أو يذمني، لأنني لم أر ولم أعرف مادحاً إلا مفرطاً، ولا ذاماً إلا مفرطاً. أي أن كلاهما يبالغ. خذ كل ما تريد بغير مبالغة لأن «خير الأمور أوسطها».

وقال: كل أخ وصاحب وجليس لا تستفيد منه فائدة دينية، تخل عن صحبته.

(١) وردت في صفة الصفوة، ج٣، (ص ١٨٤) مع الاختصار.

(٢) جعفر بن سليمان: اسمه حفص بن سليمان وكنيته أبو سلمة وأصله من همدان، التحق بوزارة السفاح وقتل عام ١٣٣ هـ.

د. استعلامي، (ص ٨٣٠).

(٣) ابن المبارك: انظر الكتاب (ص ٤٠٢).

وقال: وجدت صحبة أهل هذا الزمان مثل طعام السوق، رائحته طيبة، ومذاقه سقيم.
وقال: تعفف عن هذه السخارة (أي الدنيا) التي قد سخرت قلوب العلماء لها.
وقال: كل من لا تكون مناجاته مع الله (عز وجل) أحب إليه من حديثه مع الخلق، علمه قليل، وقلبه ضئير، وعمره ضائع.

وقال: أحب الأعمال إليّ الإخلاص فيها (في الأعمال).
وقال: أوحى الله (عز وجل) إلى موسى عليه السلام: أن اصنع نعلين وعصا من الحديد. وسر على وجه الأرض دائماً، واطلب الآثار والعبر، وانظر حكمتنا ونعمتنا، حتى يبلى النعلان وتتحطم العصا، ومعنى هذا القول: إنه ينبغي له أن يكون صبوراً «إن هذا الدين متين فأوغل فيه بالرفق».
وقال: قد قرأت في التوراة، أن الحق تعالى يقول: «شوقناكم فلم تشاقوا، زمناكم فلم ترقصوا».
وقال: قد قرأت في بعض الكتب المنزلة أن الحق تعالى قد وهب أمة محمد شيتين لم يهبهما لجبريل ولا ميكائيل عليهما السلام أولهما: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾^(١). والآخر: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(٢).

وقال: قد قرأت في التوراة أن الحق تعالى يقول: «أيها الصديقون، انعموا في الدنيا بذكري في الدنيا نعمة عظيمة، وجزاء جزيل في الآخرة».
وقال: يقول الحق تعالى في بعض الكتب المنزلة: أقل شيء أفعله مع العالم الذي يحب الدنيا، هو أن أنزع حلاوة ذكري من قلبه.

وقال: كل من يتغلب على شهوات الدنيا، يفرغ الشيطان من طلبه.
وطلب شخص وصية منه وهو في النزاع، فقال: كن راضياً في كل الأوقات، تتوافق الأمور معك، فتحرر.

عندما توفي، رآه أحد المشايخ في المنام، فقال: ماذا فعل الله بك؟ قال: لقيت الله (جل جلاله) (مثقلاً) بذنوبي الكثيرة. لكن بسبب حسن ظني به غفرها كلها.
ورأى شيخ آخر القيامة في المنام، حيث كان يتردد نداء قائلاً: انزل يا مالك بن دينار أنت ومحمد بن واسع في الجنة. قال: نظرت أيهما يسبق الآخر إلى الجنة. فتقدم مالك. قلت: يا للعجب! إن محمداً بن واسع أفضل وأكثر علماً. فقيل: بلى لكن كان لمحمد بن واسع قميصان في الدنيا، ولمالك واحد. من هنا كان هذا الاختلاف، فهنا لن يستوي رداء مع ردائين قط. أي اصبر حتى تفرغ من حساب قميص زائد. رحمة الله عليه.

(٢) سورة غافر، جزء من الآية (٦٠).

(١) سورة البقرة، الآية (١٥٢).

ذكر محمد بن واسع^(١)

رحمة الله عليه



هو المقدم لدى الزهاد، والمعظم لدى العباد، هو العامل العالم، والعارف الكامل، هو الغني القانع محمد بن واسع (رحمة الله عليه رحمة واسعة).

كان فريد زمانه في طريقته، وكان قد التحق بخدمة الكثير من التابعين، وأدرك الشيوخ المتقدمين، وكان ذا حظ وافر في الطريقة والشريعة، ووصل في الرياضة إلى حد أنه كان يبل الخبز اليابس بالماء. ويأكله، وكان يقول: من يقنع بهذا، يستغنى عن كل الخلق.

وكان يقول في المناجاة: إلهي، تملكني عارياً وجائعاً، فبماذا أدرك هذا المقام مثل أحبائك ويصير حالي كحالهم؟!

وأحياناً كان يحل مع أصحابه بمنزل الحسن البصري من شدة الجوع، وما يجده كان يأكله، وعندما كان الحسن يأتي، كان يسر بهذا.

ومن أقواله: إنه كان يقول: السعيد ذلك الشخص الذي يستيقظ جائعاً في الصباح، وينام جائعاً في الليل، ويرضى من الله بهذا الحال.

وطلب شخص عظة منه فقال: أوصيك بأن تكون ملكاً في الدنيا والآخرة، قال الرجل: كيف هذا؟ فقال: بأن تزهد في الدنيا. أي^(٢) أنك حين تزهد في الدنيا، فإنك لا تطمع في شخص قط، وترى جميع الخلق محتاجين، ولا جرم لأنك غني وملك، وهكذا يكون (حال) ملك الدنيا وملك الآخرة.

وقال لمالك بن دينار ذات يوم: حفظ اللسان أصعب على الخلق من حفظ الدرهم والدينار. ودخل على قتيبة بن مسلم^(٣) ذات يوم برداء من الصوف، فقال له: لماذا لبست الصوف؟

(١) محمد بن الواسع، يكنى أبو عبد الله وتوفي عام ١٢٠ هـ. انظر ترجمته في صفة الصفوة، ج٣، (ص ١٧٩: ١٨٣) طبقات الشعراني، ج١، (ص ٢٩).

(٢) وردت في حلية الأولياء، ج٢، (ص ٣٥١).

(٣) قتيبة بن مسلم: أبو حفص قتيبة بن مسلم بن عمرو من فاتحي العرب وسادتهم، قتل في فرغانة عام ٩٦ هـ. د. استعلامي، (ص ٨٣٠).

فسكت، قال (قتيبة): لماذا لا تجيب؟ قال: لا أريد أن أقول من الزهد فأزكي نفسي أو من الفقر فأشكو الحق (تعالى)^(١).

ذات يوم رأى ابنًا له كان يختال، فنادى عليه وقال: ألا تدري من أنت؟ اشتريت أمك بمائتين درهم، وكذلك ليس هناك شخص بين المسلمين أحقر من أبيك، فلم عجبك هذا^(٢)؟
وسأله شخص: كيف أنت؟ قال (كيف يكون) شخص يقل عمره، وتزداد ذنوبه. وهكذا كان قوله في المعرفة: «ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله فيه»^(٣).

وسئل: أتعرف الله؟ فخيم الصمت عليه برهة، وأطرق، ثم قال: من عرفه، قل كلامه، ودام تحيره^(٤).

وقال: جدير بالشخص الذي أعزه الله بمعرفته ألا يرجع عن مشاهدته قط لمشاهدة غيره، ولا يفضل عليه أحدًا قط.

وقال: لا يكن الصادق صادقًا ما لم يكن لديه أمل، وما لم يخف قط، أي ينبغي أن يستوي لديه الخوف والرجاء؛ حتى يكون صادقًا حقيقيًا ومؤمنًا صرفًا. واعلم أن «خير الأمور أوسطها» (رحمة الله عليه).



(١) وردت في كشف المحجوب، (ص ٣٠١).

(٢) وردت في حلية الأولياء، ج ٢، (ص ٣٥٠)، صفة الصفوة، ج ٢، (ص ١٨٢).

(٣) وردت في كشف المحجوب، (ص ٣٠١، ٥٧٦).

(٤) وردت في كشف المحجوب، (ص ٥١٧).

ذكر حبيب العجمي

رحمة الله عليه



هو ولي قبة الغيرة، وصفني حجاب الوحدة، هو صاحب اليقين بلا شك، والمعتكف بلا أثر، هو الفقير المعدم حبيب العجمي (رحمة الله عليه).

كان صاحب صدق وهمة، وكان ذا كرامات ورياضات كاملة.

كان في بداية أمره ثرياً، وكان يقرض بالربا، ويقيم بالبصرة، ويطلب عملاءه كل يوم (بالدين)، وإن لم يكن يجد الفضة، كان يطلب الربا، وكان ينفق منه يومياً. وكان قد ذهب ذات يوم في طلب مدين، ولم يكن ذلك المدين في داره، وعندما لم يره، طلب الربا، فقالت زوجة المدين: إن زوجي ليس هنا. ولا أملك شيئاً أعطيته لك، وكنا قد نحرنا شاة لم يبق منها إلا العنق، أعطيها لك إن أردت، فقال: لا بأس وأخذ منها عنق الشاه، وحملها إلى الدار، وقال لزوجته: هذا ينفع، فلتضعه في قدر، فقالت الزوجة: لا يوجد خبز ولا حطب، قال لها: حسناً، سأذهب لأخذ الربا حطباً وخبزاً، ذهب وأخذها جميعاً، وأحضرها، ووضعت المرأة القدر، وعندما نضج، أرادت الزوجة أن تفرغه في أواني، فحل سائل وطلب شيئاً، فصاح حبيب عليها (قائلاً): إن أعطيت ما نملك، لن نصبح أغنياء، ونصير فقراء، فيئس السائل. وأرادت الزوجة أن تفرغه في أواني، فأمسكت بحافة القدر، فإذا به قد صار دماء سوداء عادت المرأة شاحبة الوجه، وأمسكت بيد حبيب، وأخذته للقدر، وقالت: انظر ما حل بنا بشؤم الربا والصبيحة التي صحت بها على الفقير، فإذا كان هذا ما حل بك في الدنيا فما بالك بالآخرة. رأى حبيب ذلك، فاشتعلت في قلبه نار لم ينطفئ أوارها، وقال: أيتها المرأة تبت عما مضى. وفي اليوم التالي خرج في طلب عملائه، وكان اليوم يوم جمعة، وكان الأطفال يلعبون، وعندما رأوا حبيباً صاحوا: جاء حبيب أكل الربا، ابتعدوا؛ حتى لا يهب غباره علينا، فنصبح تعساء مثله. ضاق حبيب بهذا الكلام فاتجه إلى مجلس، وجرى شيء على لسان الحسن البصري، اقتلع قلب حبيب دفعة واحدة، وفقد وعيه، ثم تاب. وأدرك الحسن البصري، وتشبث بتلابيبه. ولما عاد من ذلك المجلس، رآه مدين، فأراد أن يهرب منه، قال حبيب: لا تهرب، كان يمكنك الفرار مني حتى هذه اللحظة (لكن) الآن عليّ أنا أن أهرب منك، وعاد من هناك. كان الأطفال يلعبون، ولما رأوا حبيباً، قالوا: ابتعدوا كي

يمر حبيب التائب، ولا يهب غبارنا عليه لأننا نعصى الله. قال حبيب: إلهي وسيدي، في هذا اليوم الذي تصالحت معك فيه جعلت القلوب ترق لي، وطببت اسمي. ثم نادى منادٍ: من له شيء عند حبيب فليأت ويأخذه، فتجمع الخلق، وأعطاهم أمواله كلها حتى أفلس. وجاء شخص آخر (يطلب ماله) ولم يكن قد بقي لديه شيء فأعطاه عباءة زوجته. وطلب آخر ماله فأعطاه قميصه، وبقي عاريًا، واعتكف في صومعة على شاطئ الفرات، وانشغل فيها بعبادة الله ليل نهار.

وكان يتعلم من الحسن ولم يكن يستطيع قراءة القرآن، ولهذا سمي بالعجمي.

وقيل: إنه لما انقضى زمن، صار معدماً فقيراً، وكانت زوجته تطلب منه النفقات والحوائج فخرج حبيب، وقصد الصومعة، وتعبد فيها، وعندما حل الليل، عاد إلى زوجته فسألته: أين كنت تعمل حتى إنك لم تحضر شيئاً؟ فقال حبيب: الشخص الذي أعمل لديه كريم جداً، وأخجل أن أطلب منه شيئاً بسبب كرمه، فهو يعطيني حين يحين الوقت، وهو يقول: إنني أعطي الأجر كل عشرة أيام، من ثم كان يذهب إلى تلك الصومعة كل يوم، ويتعبد حتى انقضت عشرة أيام، وفي اليوم العاشر عندما حلت صلاة الظهر، فكر في نفسه (وقال): ماذا أحمل إلى الدار هذه الليلة؟ وما أقول لزوجتي؟ واستغرق في ذلك التفكير. وفي الحال أرسل الله (تعالى) حملاً إلى داره بحمل من الدقيق، وآخر بلحم مسلوخ، وآخر بسمن وعسل، وتوابل وحوائج حملها الحمالون، وجاء معهم شاب جميل (معه) سرة بها ثلاثمائة درهم من الفضة، وطرق الباب، فخرجت زوجته وقالت: ما الأمر؟ قال ذلك الشاب الجميل: قد أرسل السيد هذا كله، فقولي لحبيب أكثر من العمل حتى نكثر من الأجر، قال هذا، ومضى. حل الليل، واتجه حبيب إلى الدار خجلاً حزيناً، وعندما وصل إلى باب الدار، كانت رائحة الخبز والطعام تنبعث منه، وتقدمت إليه زوجته، ونظفت وجهه، ولاطفته - كما لم تفعل من قبل - وقالت: أيها الرجل، لأنك كنت تعمل أرسل ذلك الشخص العظيم جداً الرؤوف الكريم هذا وهذا على يد شاب ذي مروءة جميل الوجه وقال: قولني لحبيب حين يأتي أكثر من العمل حتى نكثر من الأجر. دهش حبيب وقال: عجباً عملت عشرة أيام فأحسن إلي هذا الإحسان! أتدري ما يفعل لي إن أكثر من العمل؟ ثم انصرف عن الدنيا كلية. وكان يتعبد حتى صار من كبار مستجابي الدعوة، كما أن الجميع جرب دعاءه، بل إن عجوزاً جاءت ذات يوم، وتوسلت إليه، وبكت كثيراً (قائلة): لي ابن غائب عني منذ زمن بعيد، ولم تبق لي قدرة على فراقه، فبالله ادع له حتى يعيده الحق (تعالى) إلي ببركة دعائك، فقال: أليديك فضة؟ قالت: لدي درهمان، قال: هاتيهما، واعطيهما للفقراء، ودعا دعاء وقال: اذهبي، فقد وصل إليك. ولم تكد المرأة تصل إلى باب الدار حتى رأت ابنها، فصاحت وقالت: ها هو ابني، وحملتني إلى حبيب، فقال له: كيف الحال؟ قال: كنت في كرمان، وكان أستاذي قد

أرسلني لشراء اللحم، أخذت اللحم، وفي طريقي إلى الدار، اختطفني ريح، وسمعت صوتاً: أيّتها الريح، أعيدني إلى داره ببركة دعاء حبيب وبركة درهمي الصدقة. إن قال شخص: كيف حملته الريح؟ أقول: كما كانت تحمل (المغفور له) سليمان عليه السلام أربعين فرسخاً، وكما كانت تحمل عرش بلقيس في الهواء.

يروى أن حبيباً شوهد في البصرة يوم التروية، وفي عرفات يوم عرفة^(١).

حل قحط بالبصرة ذات مرة، فاشترى حبيب كثيراً من الطعام بالأجل، وتصدق به، وخيط حافظته، ووضعها تحت فراشه، وعندما كان (التجار) يطلبون حقوقهم، كان يخرج الحافظة، فكانت تمتلئ بالدرهم^(٢). فسدد الديون. وكان له منزل في البصرة على مفترق طرق، وكان لديه فراء كان يلبسه صيفاً وشتاءً، وذات مرة رغب في التطهر، فنهض، وترك الفراء. فوصل الحسن البصري إلى البوابة فرأى الفراء ملقى في الطريق، قال: ألا يعرف هذا العجمي إلى هذا الحد أنه لا ينبغي له أن يترك هذا الفراء هنا فيضيع! ووقف وكان ينظر حتى وصل حبيب، فسلم ثم قال: يا إمام المسلمين، لماذا وقفت؟ قال: ألا تعرف أنه لا ينبغي عليك أن تترك هذا الفراء هنا فيضيع! ثم قل لي تركته معتمداً على من؟ قال: على أن يختار الله لي لحافظ عليه.

يروى أن الحسن جاء لزيارة حبيب ذات يوم، فوضع حبيب أمامه رغيفين وقطعة ملح، أخذ الحسن في تناولها ثم دخل سائل، فأعطاه حبيب الرغيفين والملح، وهكذا بقي الحسن (بلا خبز أو ملح)، فقال: يا حبيب، أنت رجل كفء فإن كان لديك قدر من علم لكنت أفضل حالاً من أن تأخذ الخبز من أمام الضيف وتعطيه كله للسائل! فيجوز لك أن تعطي قطعة للسائل، وقطعة للضيف، فلم يقل حبيب شيئاً. ومرت برهة، فجاء غلام وكان قد حمل فوق رأسه خواناً، ووضع أمام حبيب حملاً مشوياً وحلوى وخبزاً نظيفاً وخمس مائة درهم من الفضة، فأعطى حبيب الفضة للفقراء، ووضع الخوان أمام الحسن، وعندما تناول الحسن قطعة شواء، قال حبيب: أيها الأستاذ، إنك رجل طيب وإن كان لك قدر من اليقين لكنت أفضل حالاً، ويلزمك علم اليقين.

مرّ الحسن على باب صومعته وقت صلاة العشاء، وكان قد قام للصلاة، ووقف، فدخل الحسن، وكان حبيب يقرأ الحمد «الهمد»، فقال الحسن: إن الصلاة خلفه ليست صحيحة، ولم يقتد به، وكبر للصلاة بنفسه. ولما حل الليل، نام، فرأى الحق تبارك وتعالى في المنام، فقال: يا إلهي، فيم (يكون) رضاؤك؟ قال: كنت قد أدركت رضائنا يا حسن فلم تعرف قدره، قال:

(١) التروية وعرفة ٨، ٩ من ذي الحجة، د. استعلامي، (ص ٨٣٠)، وردت في حلية الأولياء، ج٦، (ص ١٥٤)، صفة الصفوة، (ص ٢١٥).

(٢) وردت في حلية الأولياء، ج٦، (ص ١٥٠).

يا إلهي، وما هو؟ لو أنك صليت خلف حبيب لكنت قد نلت رضاءنا^(١). وسوف تكون هذه الصلاة أفضل من صلوات عمر ككلها، لكن منعك سقم العبادة عن صحة النية، وفرق كبير بين استقامة اللسان واستقامة القلب.

ذات يوم كان رجال الحجاج يبحثون عن الحسن، فاختفى في صومعة حبيب، قالوا للحبيب: أرأيت الحسن اليوم؟ قال: نعم، قالوا: وأين ذهب؟ قال: إلى هذه الصومعة فدخلوا الصومعة، ومهما بحثوا عنه لم يجدوه، وقد قال الحسن: وضعوا أيديهم عليّ سبع مرات، ولم يروني. خرج الحسن من الصومعة وقال: يا حبيب، لم تحفظ حق الأستاذ وأرشدت عني، قال حبيب: أيها الأستاذ، نجوت بسبب صدقي، ولو كنت أكذب لكنا أسرنا معاً^(٢). قال الحسن: وماذا قرأت حتى إنهم لم يروني؟ قال: قرأت آية الكرسي عشر مرات، وآمن الرسول عشر مرات، وقل هو الله أحد عشر مرات، وقلت: إلهي، استودعتك الحسن فاحفظه.

يروى أن الحسن أراد الذهاب إلى مكان ما، فجاء إلى شاطئ دجلة، وكان يفكر في شيء في نفسه، عندما وصل حبيب وقال: لم وقفت يا إمام؟ قال: سأذهب إلى مكان ما والسفينة تتأخر، قال حبيب: يا أستاذ، ماذا حدث لك؟ إنني تعلمت من علمك، فاخرج الحسد من قلبك، أفرغ قلبك من الدنيا، واعد البلاء غنيمة، وانظر الأفعال من الله، وعندئذ ضع قدميك على الماء، وامض، ووضع حبيب قدميه على الماء ومضى، ففقد الحسن وعيه، ولما عاد إلى رشده قالوا: ما دهاك يا إمام المسلمين؟ قال: لآمني حبيب هذه اللحظة، ووضع قدميه على الماء ومضى، وقد بقيت أنا. إن نودي غداً سيروا على الصراط الناري، فما أستطيع أن أفعل إن بقيت هكذا؟ ثم قال الحسن: يا حبيب، بما نلت هذا؟ قال: بأنني أجعل قلبي صفحة بيضاء وأنت تجعله صفحة سوداء، فقال الحسن: «علمي نفع غيري ولم ينفعني علم».

من هنا قد يظن شخص أن مقام حبيب يفوق مقام الحسن ولكن الأمر ليس كذلك، فليس هناك مقام في طريق الله أسمى من العلم، ولهذا لا يتصف أي أمر بالزيادة إلا العلم، وكما (ورد) في كلام المشايخ أن الكرامات هي الدرجة الرابعة عشرة للطريقة، والأسرار والعلم في الدرجة الثامنة، لأن الكرامات تكثر بالعبادة، وتزداد الأسرار بالتفكير، ومثل هذا حال سليمان الذي فاز بأمر لم يفز به شخص في العالم، فسخرت له الشياطين والملائكة والوحوش والطيور، وكان الماء والنار طوعاً له، وأرسل له في الهواء بساط طوله أربعين فرسخاً، وبكل تلك العظمة فهم ألسنة الطيور ولغة النمل. وكانت كل الكتب التي هي عن عالم الأسرار لموسى عليه السلام ولا جرم أن كل الأمور كانت تابعة له.

(١) وردت في كشف المحجوب، (ص ٢٩٧) من الترجمة العربية. (٢) وردت في كشف المحجوب، (ص ٢٩٨).

يروى أن أحمد بن حنبل^(٦٦) والشافعي رضي الله عنهما كانا قد جلسا، فخرج حبيب من زاوية، فقال أحمد: سأسأله سؤالاً، فقال الشافعي: لا يجوز لنا أن نسألهم، فهم قوم عجبون، قال أحمد: لا مفر، ولما اقترب حبيب، قال أحمد: ما تقول في شخص تفوته صلاة من الصلوات الخمس ولا يدري أيهم هي؟ وما ينبغي عليه أن يفعل؟ قال حبيب: «هذا قلب غفل عن الله فليؤدب» وينبغي عليه أن يؤدي الصلوات الخمس قضاء، فدهش أحمد من جوابه، فقال الشافعي: ألم أقل لا يمكن لنا أن نسألهم؟!

يروى أن داراً مظلمة كانت لحبيب، وكانت في يده إبرة، وقعت وضاعت، فأضيء الدار في الحال، ووضع حبيب يده على عينيه، وقال: لا، لا، لا أعرف أين هي سوى بالسراج. يروى أن حبيباً كانت له جارية طيلة ثلاثين عاماً، ولم يكن قد رأى وجهها قط، وذات يوم قال لجاريتها: يا مستورة، ناد جاريتنا، فقالت: ألسنت جاريتك؟ قال: لم يجرؤ حبيب على النظر إلى أي شيء سواه طيلة ثلاثين عاماً، فكيف كنت أستطيع النظر إليك؟ يروى أن حبيباً كان يختلي في زاوية، وكان يقول: لتكف عين الشخص الذي يرى سواك، ولا أنس بشيء قط كل من لا يأنس بك.

وكان يعتكف في زاوية، وينفض يده من التجارة، ويقول: الثقة بالله. سأله شخص: فيم (يكون) الرضاء؟ قال: في قلب ليس فيه غبار النفاق^(٦٧). يروى أن القرآن كلما كان يقرأ أمامه كان يبكي متحجاً بشدة، فقالوا له: أنت أعجمي والقرآن عربي، ولا تعرف ما يقوله فلم هذا البكاء؟ قال: إن لساني أعجمي لكن قلبي عربي. قال فقير: رأيت حبيباً في مرتبة عظيمة، فقلت: إنه أعجمي فما كل هذا القدر؟ فسمعت صوتاً: مع إنه أعجمي إلا أنه حبيب.

يروى أنهم قتلوا سفاكاً، فأرأه في تلك الليلة في المنام، وهو يطوف في رياض الجنة مرتدياً حلة خضراء، فقالوا: يا فلان، إنك رجل قاتل، فيما أدركت هذا؟ قال: مرّ حبيب في تلك اللحظة التي شنقوني فيها، فنظر إليّ بطرف عينه، وكل هذا من بركات تلك النظرة (رحمة الله عليه).

(١) أحمد بن حنبل: انظر الكتاب، انظر (ص ٤٤٦).

(٢) وردت في كشف المحجوب، (ص ٢٩٨) من الترجمة العربية.

ذكر أبي حازم المكي^(١)

رحمة الله عليه



هو المخلص المتقي، المقتدي المهتدي، هو شمع السابقين وصبح الصادقين، هو الفقير الغني أو حازم المكي (رحمة الله عليه).

كان فريداً في المجاهدة والمشاهدة، وكان مرشداً لكثير من المشايخ، وكان قد عمر طويلاً، وبيالغ أبو عمرو بن عثمان المكي^(٢) في أمره مبالغة تامة، وكلامه مقبول في كل القلوب، ومفتاح لكل المشكلات، وكلامه كثير في الكتب ومن يرد الزيادة يسع إليها، لكننا نذكر له عدة أقوال على سبيل التبرك، ونسلك طريق الاختصار. لأننا إن استرسلنا في شرح حاله لطال الكلام، وكفناك أن تعرف أنه كان من كبار التابعين، وأنه قد أدرك كثيراً من الصحابة مثل: أنس بن مالك وأبي هريرة (رضي الله عنهما).

سأل هشام بن عبد الملك أبا حازم عن الشيء الذي نجد النجاة به في هذا الأمر، فقال: كل درهم تكسبه اكسبه حالاً، وانفقه في موضعه الحق، فقال: ومن يستطيع أن يفعل هذا؟ قال: من يفر من الجحيم، ويطلب الجنة، ويرجو رضاء الرحمن.

ومن أقواله: عليكم بالاحتراس من الدنيا، فقد ثبت لي أن العبد الذي كان قد عظم الدنيا، ير كل يوم القيامة أمام الجميع، ثم ينادى انظروا، هذا هو العبد الذي أعز ما حقره الحق (تعالى)، وأحب ما عداه الله، وقد أحبه وأعزه، وهو الذي تمسك بما نهى الله عنه وتشبث به.

وقال: لا شيء في الدنيا تسر به إلا وفيه شيء تحزن عليه؛ لأن الله لم يخلق سعادة محضة. وقال: يشغلك قليل الدنيا عن كثير الآخرة.

(١) أبو حازم المكي: ذكر في المصادر الأخرى بأبي حازم المدني، وكان من معاصري هشام بن عبد الملك وبناء عليه فقد عاش حتى أواخر القرن الأول الهجري. د. استعلامي، (٨٣١).

(٢) عمرو بن عثمان بن كعب: كنيته أبو عبد الله، وينسب إلى الجند في الصحبة وصحب أبا سعيد الخراز وغيره، مات ببغداد عام ١٩١ هـ.

كشف المحجوب، (ص ٣٠٠). وانظر ترجمته في: نفحات الأنس، (ص ٢٨٤)، خزينة الأصفياء، ج ١، (ص ١٧١).

وقال: وجدت كل أمر في شيئين: واحد لي وآخر ليس لي، مالي إن فررت منه كثيرًا يأتي إليّ، وما ليس لي إن سعيت إليه كثيرًا لن أدركه في الدنيا قط بسعيي.

وقال: إن حرمت من الدعاء لكان هذا أشد قسوة عليّ من أن أحرم الإجابة.

وقال: عشت في زمان رضي فيه بالقول عن الفعل، وبالعلم عن العمل ومن ثم فقد بقيت بين أسوأ ناس وأسوأ زمن.

سأله شخص ما هو مالك؟ قال: مالي هو رضاء الله، والاستغناء عن الخلق^(١). فمن يرض بالحق يستغن عن الخلق لا محالة.

وفرغ عن الخلق إلى حد أنه مرّ على قصاب لديه لحم سمين، فقال له: خذ من هذا اللحم قال: لا أملك الفضة. فقال القصاب: أمهلك، فقال: أمهل أنا نفسي أفضل من أن تمهلني أنت، وأخلصها، قال القصاب: لا جرم قد ظهرت عظام جانبك، وهذا يكفي دود القبر.

وقد قال شيخ من المشايخ: دخلت على أبي حازم فوجدته نائمًا، فانتظرت حتى استيقظ، فقال: رأيت النبي ﷺ في المنام هذه اللحظة، وحملي رسالة إليك. وقال: إن رعاية حق الأم أفضل لك كثيرًا من الحج، فعد، وأطلب رضاءها فرجعت من هناك، ولم أذهب إلى مكة^(٢). (رحمة الله عليه).



(١) وردت في كشف المحجوب، (ص ٣٠٠) من الترجمة العربية.

(٢) وردت في كشف المحجوب، (ص ٣٠١) من الترجمة العربية.

ذكر عتبة الغلام^(١)

رحمة الله عليه



هو فتان الجمال، وفقيد الوصال، هو بحر الوفاء، ومنجم الصفاء، هو سيد الأيام عتبة الغلام (رحمة الله عليه).

كان مقبولا لدى العارفين، وكان ذا طريقة عجيبة، كان ممدوحا بكل الألسنة، وكان تلميذا للحسن البصري.

ذات مرة كان الحسن البصري يمضي على شاطئ البحر، فسار عتبة على صفحة الماء. تعجب الحسن على الساحل، وقال مندهشا: أيا (عتبة) بما نلت هذه الدرجة؟ فصاح إنك تفعل ما يأمر به منذ ثلاثين عامًا، وأنا أفعل ما يريد منذ ثلاثين عامًا. وهذه إشارة إلى التسليم والرضا. وكان سبب توبته: أنه نظر إلى شخص من الظاهر في بداية أمره، فضاق صدره. وأخبروا ذلك الرجل، فأرسل شخصًا متسائلًا: ما رأيت منا؟ قال: العين، فاقتلع الرجل عينيه، ووضعها على طبق، وأرسلها إليه، وقال: انظر ما رأيت، فاستيقظ عتبة وتاب، والتحق بخدمة الحسن، حتى إنه كان يزرع التوت والشعير بيده، وكان يطحن ذلك الشعير، ويعجنه بالماء، ويضعه في الشمس حتى يجف، فكان يأكل منه مرة في الأسبوع، وكان ينشغل بالعبادة، ولم يكن يأكل أكثر من ذلك. وكان يقول: أحجل من كرام الكاتبين؛ لأنه ينبغي لي الذهاب لقضاء حاجتي مرة في الأسبوع. يروى أن عتبة شوهده وهو يقف في مكان، ويتصبب منه العرق، قالوا: ما الحال؟ قال: في البداية جاءني جماعة للضيافة، فانتزعت لهم قالب آجر من حائط الجار؛ كي يغسلوا أيديهم. كلما أصل هناك، يتصبب مني كل هذا العرق - مهما حاولت التغلب على ذلك - بسبب الخجل والندم^(٢).

(١) عتبة الغلام: سمي بالغلام لجده واجتهاده مع صغر سنه، وكان يقتل الخوص، اشتغل بالعبادة، وقتل شهيدًا في إحدى الغزوات.

انظر: صفة الصفوة، ج٣، (ص ٢٥١: ٢٥٣). وانظر: ترجمته في ج٦، من الحلية، (ص ٢٢٦).

(٢) وردت في حلية الأولياء، ج٦، ص (٢٢٨)، صفة الصفوة، ج٣، (ص ٢٥٢) مع الاختلاف.

قالوا لعبد الواحد بن زيد^(١): أتعرف أحدًا انشغل بحاله عن الخلق؟ قال: أعرف واحدًا سيدخل هذه اللحظة، فدخل عتبة الغلام، فقال: من رأيت في الطريق؟ قال: لم أر شخصًا قط، وكان في طريقه إلى السوق^(٢).

يروى أن عتبة لم يكن يتناول طعامًا أو شرابًا طيبًا قط، فقالت له أمه: ترفق بنفسك، فقال: أريد الرفق بها، فهي ستعذب عدة أيام، وستخلد في راحة ورفق.

يروى أن عتبة لم ينم ليلة حتى الصباح. وكان يقول: إن تعذبني فأني أحبك، وإن ترحمني فأني أحبك^(٣).

وقال عتبة: رأيت حورية في المنام ذات ليلة، قالت: يا عتبة انظر فأني عاشقة لك، فلا تفعل شيئًا يفرق بيني وبينك، فقال عتبة: طلقت الدنيا طلاقًا لا أرجع فيه قط حتى أراك.

يروى أن واحدًا جاءه ذات يوم، وكان في سرداب، فقال: يا عتبة، يسألني الناس عن حالك، فاطهر لي شيئًا أراه، قال: اطلب ما تريد، قال الرجل: تلزمني رطب. وكان الوقت شتاءً. قال: خذ، وأعطاه زنبيلًا مملوءًا بالرطب^(٤).

يروى أن محمدًا بن السماك وذا النون كانا عند رابعة، فدخل عتبة، وكان يرتدي قميصًا جديدًا ويختال، فقال له محمد بن السماك: ما هذه المشية؟ قال: كيف لا أختال واسمي غلام الجبار، قال هذا القول، وسقط. نظروا فكان قد أسلم الروح.

وبعد وفاته شوهده في المنام، وكان نصف وجهه قد أسود، فقالوا: ماذا حدث؟ قال: ذات مرة كنت أذهب إلى الأستاذ، فرأيت رجلًا أمرد، فنظرت إليه. وقد أمر الله أن يحملوني إلى الجنة، وكانت جهنم في الطريق، فألقت حية منها بنفسها عليّ، ولدغت نصف وجهي، وقالت: لدغة لنظرتك، وإن كنت أطلت النظر لكثرت اللدغات. (رحمة الله عليه).



(١) عبد الواحد بن زيد: كان من زاهدي البصرة وتوفي ١٧٧ هـ. د. استعلامي، (ص ٨٣١).

(٢) وردت في حلية الأولياء، ج٦، (ص ٢٣٤)، صفة الصفوة، ج٣، (ص ٢٥٢).

(٣) وردت في حلية الأولياء، ج٦، (ص ٢٣٥)، صفة الصفوة، ج٣، (ص ٢٥٠)، كشف المحجوب، (ص ٤٠٧) من الترجمة العربية.

(٤) وردت في حلية الأولياء، (ص ٢٣٧)، صفة الصفوة، ج٣، (ص ٢٥١).

ذكر رابعة^(١)

رحمة الله عليها



هي المخدرة بالخدر الخاص، والمستورة بستر الإخلاص، هي متقدة العشق والاشتياق، ومفتونة القرب والاحتراق. هي فقيدة الوصال، والمقبولة عند الرجال، التالية لمريم الصفية، رابعة العدوية رحمة الله عليها.

إذا قال شخص: لماذا ذكرتها بين الرجال؟ أقول: إن سيد الأنبياء (عليهم السلام) يقول: «إن الله لا ينظر إلى صوركم»^(٢).

أي أن الأمر ليس بالصورة إنما بالنية. كما قال عليه السلام: «يحشر الناس على نياتهم» فلو جاز للإمام بئلي الدين من عائشة الصديقة (رضي الله عنها). لجازت الاستفادة الدينية من أمة من إمائها. وطالما كانت المرأة رجلاً في طريق الله، فلا يمكن أن تسمى امرأة. وكما قالت عباسة الطوسية: عندما ينادون غداً في ساحات القيامة: يا رجال! فإن أول شخص يخطو في صف الرجال هي مريم (عليها السلام).

إنها الشخص الذي لو لم يكن حاضراً في مجلس الحسن البصري، كان الحسن يترك المجلس، (لذلك) يمكن ذكرها بين الرجال. بل إن المعنى الحقيقي هو: أليس هؤلاء القوم جميعاً موحدين، فكيف يبقى وجودي ووجودك في التوحيد؟ وما يضير رجل أو امرأة؟! وكما يقول أبو علي الفارمدي^(٣) رضي الله عنه: النبوة عين العزة والرفعة، ليس فيها عظمة وذلة، وكذلك الولاية، خاصة رابعة التي لا مثيل لها في المعاملة والمعرفة. وكانت موضع ثقة مشايخ عصرها جميعاً، وحجة قاطعة على أهل الزمان.

(١) كانت رابعة مولاة لآل عتيك الذين ينتمي إليهم آل عدوة ولهذا تسمى رابعة العدوية وكنيتها أم الخير، ولدت في أسرة فقيرة، وتوفي وزالدها وهي في ريعان شبابها، وحدث أن حل قحط بالبصرة ففترقت وأخواتها الثلاث، فرأها ظالم وباعها بستة دراهم، ونظراً لما كانت تعانيه في رقبها من ذل ومهانة فقد انصرفت إلى الحياة الروحية والزهد، وبدأت تستشعر الحب لله ونذرت نفسها له. انظر: عبد الرحمن بدوي، شهيدة العشق الإلهي، رابعة العدوية، (ص ١٠: ٦١).

(٢) ورد هذا الحديث في مسند ابن حنبل، ج ٢، (ص ٢٨٥).

(٣) أبو علي الفارمدي: من أهل فارمد أو فريومد التابعة لطوس، ولد عام ٤٠٢ هـ وتوفي عام ٤٧٧ هـ، عاصر الشيخ أبا سعيد، وأدرج مجلس الشيخ أبي القاسم القشيري وكان موضع اهتمام السيد نظام الملك. د. محمد استعلامي، (ص ٨٣١).

يروى أنه في تلك الليلة التي ولدت فيها رابعة، لم يكن هناك شيء قط في دار والدها، إذ كان والدها فقيرًا جدًا، ولا يملك قطرة زيت يدهن بها موضع خلاصها ولم يكن هناك قنديل، ولا خرقة يلفها بها. وكانت له ثلاث بنات، جاءت رابعة رابعتهم ولهذا سميت رابعة. ومن ثم نادته زوجته (قائلة): اذهب إلى الجار فلان، واطلب قطرة زيت، كي أشعل القنديل - وكان قد أخذ على عاتقه ألا يطلب شيئاً قط من أي مخلوق - فخرج ووضع يده على باب الجار، وعاد، وقال: إنه لا يفتح الباب، فبكت تلك المرأة كثيراً، وأطرق الرجل على ركبتيه وهو حزين، واستغرق في النوم، فرأى النبي عليه السلام في المنام، قال له: لا تحزن، إن هذه البنت التي ولدت هي سيدة سوف يرجو سبعون ألفاً من أمتي شفاعتها.

ثم قال: اذهب غداً إلى عيسى بن زاذان أمير البصرة، واكتب على ورقة: بدليل أنك تصلي على (النبي) كل ليلة مائة مرة، وأربعمائة ليلة الجمعة، ونسيتني ليلة الجمعة التي مضت، فادفع كفارتها أربعمائة دينار حلالاً إلى هذا الرجل. عندما استيقظ والد رابعة بكى ونهض، وكتب تلك الرسالة: وأرسلها إلى الأمير على يد حاجب، فقال الأمير عندما رأى تلك الرسالة: اعطوا الفقراء ألفين دينار هبة لهم لأن النبي عليه السلام ذكرني، وأعطوا أربعمائة دينار لذلك الشيخ، وقلوا له: إنني أريد أن تأتي إليّ كي أراك، لكنني لا أجزئ أن يأتي إليّ شخص مثلك، سأجيء أنا، وأمسح ذقني بعتبتك. لكن بالله عليك، تعرض عليّ كل حاجة تحتاج إليها. فأخذ الرجل الذهب، واشترى كل ما يلزمه. وعندما شبت رابعة، ومات والدها، حل قحط بالبصرة، وتفرقت الأخوات، فخرجت رابعة، ورأها ظالم، فسبها، وباعها بستة دراهم، وكان مشتريها يأمرها بالأعمال الشاقة. وذات يوم كانت تمضي، فاعترضها رجل غريب، ففرت رابعة، وسقطت في الطريق، وعجزت عن النهوض فوضعت وجهها في التراب، وقالت: يا إلهي، أنا غريبة، يتيمة بلا أم أو أب. وأسيرة، وعبد، وعاجزة، ولا أبتغي من هذا الكرب إلا رضاءك، وينبغي لي أن أعرف هل أنت راض أم لا؟ فسمعت صوتاً: ألا تحزني إن غداً ستكون منزلتك هي أن يزهو بك المقربون إلى السماء. ثم عادت رابعة إلى دار سيدها، وكانت تصوم النهار دأماً، وتقوم بالخدمة، وكانت تقف على قدميها في خدمة الله حتى النهار.

ذات ليلة استيقظ سيدها من النوم، ونظر في طاقة المنزل، فرأى رابعة، كانت قد سجدت، وكانت تقول: إلهي، أنت تعلم أن هوى قلبي في اتباع أمرك، ونور عيني في خدمتك، لو أن الأمر بيدي، لما توانيت عن خدمتك لحظة، ولكنك جعلتني تابعة لمخلوق. (بينما) كانت تناجي هذه المناجاة، رأت قنديلاً متدلياً فوق رأسها، ومعلقاً بلا زنجير، وأضيء الدار كله من أشعته. عندما رأى السيد ذلك، خاف، فنهض، وعاد إلى مكانه، وجلس يفكر، حتى طلع النهار، وعندئذ، دعا

رابعة، ورق لحالها وأطلق سراحها. قالت رابعة: اسمح لي أن أنصرف، فسمح لها، وخرجت من هناك، ومضت إلى خرابة. ثم انصرفت عنها، واتخذت صومعة وتعبدت فيها فترة. بعد ذلك قصدت الحج، فاتجهت إلى البادية، وكان لديها حمار، وضعت عليه متاعها، (وحدث أن) نفق الحمار وسط البادية، فقال الناس: نحمل متاعك، قالت: اذهبوا أنتم، فلم أجيء متوكلة عليكم، فمضى الناس، وبقيت رابعة وحدها. فرفعت رأسها وقالت: إلهي، أيفعل الملوك هكذا بامرأة غريبة عاجزة، دعوتني إلى بيتك، ثم أنفقت حماري في الطريق، وتركتني وحيدة في البداء، ولم تكد تتم هذه المناجاة، حتى تحرك الحمار، ونهض، فوضعت رابعة المتاع عليه، ومضت. قال راوي هذه الحكاية: بعد ذلك بفترة رأيت الحُمير، يباع في السوق.

ثم نزلت بالبادية بعد عدة أيام، وقالت: إلهي، سلبتني القلب أين أذهب، أنا لبنة وذلك البيت حجر، إنني أبتغيك أنت هنا. فأوحى الحق تعالى إلى قلبها بلا واسطة: يا رابعة إنك تغتسلين بدماء ثمانية عشرة^(١) ألف عالم، ألم تر أن موسى أراد رؤيتنا فألقينا بعدة ذرات من التجلي على الجبل، فانشطر إلى أربعة أقسام، فاقنعي باسمي هنا.

يروى أنها كانت تمضي إلى مكة في حين آخر، وفي الطريق رأت الكعبة، جاءت لاستقبالها، فقالت رابعة: أبتغي رب البيت، ماذا أفعل بالبيت؟ أبتغي استقبال «من تقرب إليَّ شبراً^(٢)» تقربت إليه ذراعاً» ماذا يلزمي من رؤية الكعبة. وليست لي طاقة بها، فأني سرور أبديه بجمالها؟!

يروى أن إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه، أتم أربعة عشر عاماً في السير حتى حل بالكعبة، لأنه كان يؤدي ركعتين في كل مصلى حتى وصل إلى هناك في نهاية الأمر، فلم ير البيت، قال: آه! أي حادثة، ربما قد أصاب عيني خلل. فهتف به هاتف: ليس هناك أي خلل في عينيك، لكن الكعبة قد خرجت لاستقبال ضعيفة تتجه إليها. أثارت الغيرة إبراهيم، فقال: من هذه؟ وجرى، فرأى رابعة كانت تأتي، وعادت الكعبة إلى مكانها. عندما رأى إبراهيم ذلك، قال: يا رابعة أي ضجة وشأن وحيثية (لك) في الدنيا؟ فقالت: إنني لم أحدث ضجة في العالم، أنت الذي قد أحدثتها، لأنك تأخرت أربعة عشر عاماً، حتى وصلت إلى البيت، قال: بلى، قد قطعت البادية في أربعة عشر عاماً بسبب الصلاة. فقالت: قد قطعته في الصلاة، وقطعتها أنا في طلب حاجة. ثم مضت، وأدت الحج، وبكت منتجة، وقالت: إلهي، وعدت بالجزاء الحسن على الحج وعلى المصائب أيضاً، الآن لو أنك قبلت الحج، فما هو ثواب حجي؟ ولو لم تقبله، فهذه مصيبة كبرى، فما هو ثواب مصيبيتي؟ ثم عادت، ورجعت إلى البصرة، وانشغلت بالعبادة حتى العام التالي ثم

(١) ثمانية عشر ألف عالم يعتقد السابقون أن الوجود يشتمل على ثمانية عشر ألف عالم، وربما يوحي هذا العدد بالكثر.

د. استعلامي، (ص ٨٣١).

(٢) ورد هذا الحديث في مسند ابن حنبل، ج٢، (ص ٣١٣).

قالت: إن (كانت) الكعبة استقبلتني في العام الماضي أستقبلها أنا هذا العام، طالما حان الوقت. يروي الشيخ أبو علي الفارمدي: أن رابعة اتجهت إلى البادية، وكانت قد كابدت العناء سبعة أعوام، حتى بلغت عرفات، ولما وصلت هناك، نادى هاتف: أيتها المدعية، أي طلب سعت إليه، إن تريدنا أن نتجلى لحظة، تفنين في الحال. قالت: يا رب العزة لا طاقة لرابعة بهذه الدرجة، لكن أريد ذرة فقر. فانبعث نداء: يا رابعة إن فقر سنين القحط هو قهرنا الذي قد وضعناه في طريق الرجال، وعندما لا يكون قد بقي سوى قيد شعرة ويصلون إلى حضرة وصالنا، يتبدل الأمر، ويصير الوصال فراقًا. وأنت لا تزالين قابضة تحت سبعين حجابًا من زمانك، طالما لا تخرجين من تحت هذه الحجب، وتسلكين طريقنا، وتجتازين سبعين مقامًا، لا يمكن التحدث إليك بحديث الفقر. ولكن انظري، نظرت رابعة، فرأت بحرًا من الدماء، معلقًا في الهواء، وهتف هاتف: إن كل هذه (الدماء) هي دموع عشاقنا الذين جاءوا طالبين وصالنا، سقطوا جميعًا في المقام الأول، فلم يبدو اسم لهم ولا أثر في مقام قط في العالمين.

قالت رابعة: يا رب العزة، اظهر لي شيئًا من سعادتهم، وفي الحال أناها الحيض. وهتف هاتف: إن مقامهم الأول أن يكابدوا العناء سبعة أعوام في سبيلنا؛ كي يزوروا حجرًا (الكعبة)، وعندما يقتربون من ذلك الحجر، ينغلق الطريق عليهم كلية بسبب علة فيهم. أسرع رابعة وقالت: يا إلهي، لا تدعني في بيتك، ولا تتركني في بيتي، إما أن تتركني في بيتي، أو تدعوني إلى بيتك في مكة، لم أستكن في البيت، إنني أريدك أنت. وأنا الآن لست جديرة ببيتك، قالت هذا، وعادت.

يروي أن رابعة كانت تصلي ذات ليلة في الصومعة، وقد أثر فيها التعب، فاستغرقت في النوم، وانكسر عود في عينها من كثرة الاستغراق، وسال الدم، ولم تكن تدري، دخل لص، وكانت لديها عباءة، أخذها، وأراد أن يخرج، فلم يجد مخرجًا، فوضعها ومضى، ثم رأى مخرجًا، فذهب، وأخذها ثانية، وجاء فلم يجد مخرجًا، فوضعها ثانية، وهكذا عدة مرات، وفي المرة السابعة، صدر صوت من زاوية بالصومعة أيها الرجل، لا تتعب نفسك، فقد أسلمتنا نفسها منذ عدة سنين، فلا جرة لإبليس أن يحوم حولها، فكيف يجرو لص على الدوران حول عبائتها. أيها اللص، لو أن حبيبًا قد نام، فهناك حبيب يقظ يحافظ عليه.

يروي أن شيخين دخلا لزيارتها، وقد كان كلاهما جوعان، فقال كل منهما للآخر: لنأكل ما تقدم لنا من طعام، فإن طعامها من مصدر حلال، ولما جلسا كان هناك إزار، وضعت عليه رغيفين من الخبز، فسرا. ودخل سائل، فأعطته رابعة الرغيفين، فتحير الاثنان، ولم يقولا شيئًا. ومَرَّ وقت، ودخلت جارية، وأحضرت عددًا من الخبز الطازج، وقالت: قد أرسلته هذه السيدة،

عَدَّتْه رابعة فكان ثمانية عشر رغيفًا، قالت: ربما لم ترسله لي، ومهما تحدثت الجارية، لم يكن هناك جدوى؛ فأخذته الجارية، وحملته، إلا رغيفين كانت قد أخذتهما لنفسها، سألت السيدة (أن تعطيها بدلًا منهما)، ووضعتهما عليهم، وأعادتهما ثانية. عَدَّتْه رابعة فكان عشرين رغيفًا، فأخذته، وقالت: قد أرسلت هذا لي، ووضعتة أمامهما، فكانا يأكلان ويتعجبان، ثم قال لها: أي سر هذا؟ إننا رغبتنا في خبزك فأخذتيه من أمامنا، وأعطيتيه لدرويش، وفي ذات الوقت قلت: إن تلك الثمانية عشر رغيفًا ليست لي، وعندما أصبحت عشرينًا، أخذتها! فقالت: عندما دخلتما، عرفت أنكما جوعتان، فقلت: كيف أضع رغيفين أمام شيخين؟ ولما دخل سائل، أعطيتهما له، وقلت للحق تعالى: إلهي، إنك قلت: أجزى الحسنة بعشرة أمثالها، وأنا على يقين من هذا. الآن تصدقت بالرغيفين من أجل رضائك، كي تجزني بهما عشرين من أجلهما، وعندما أحضرت الثمانية عشر رغيفًا، عرفت، أنها ليست خالية من التلاعب أو أنها ليست لي.

يروى أن خادمة رابعة كانت تعد بصلاً ذات مرة، لأنها لم تكن قد أعدت طعامًا طوال أيام مضت. احتاجت الخادمة إلى البصل، فقالت: أطلبه من الجار، فقالت رابعة: منذ أربعين عامًا وأنا على عهد مع الحق تعالى، ألا أطلب من غيره قط، فتوقفي عن طهي البصل. وفي الحال حط طير من الهواء، مقشرًا ببصل، ألقي به في المقلاة، فقالت: إنني لست آمنة المكر، وتركت البصل المطهي، وأكلت الخبز خالصًا.

يروى أن رابعة كانت قد ذهبت إلى جبل ذات يوم، وكان قد التف حولها كثير من الغزلان والماعز الجبلي والنيوس وحمير الوحش، وكانوا ينظرون إليها ويقربون منها. وفجأة ظهر الحسن البصري، ولما رأى رابعة، اتجه إليها فانصرفت تلك الحيوانات - عندما رأت الحسن - جميعها مرة واحدة، وبقيت رابعة بمفردها، فغضب الحسن - الذي شاهد ذلك - ونظر إلى رابعة، وقال: لماذا فروا مني وأنسوا بك؟ قالت رابعة: ماذا أكلت اليوم؟ قال: أكلت قليلًا من السمن بالبصل. فقالت: إنك تأكل شحمهم، فكيف لا يفرون منك؟!

يروى أن رابعة مرت على دار الحسن ذات مرة، وكان الحسن قد أطل من النافذة، وهو يبكي، فسقطت دموعه على رداء رابعة، فظنتها الأمطار، ولما علمت أنها دموع الحسن، اتجهت إليه في الحال وقالت: أيها الأستاذ، هذا البكاء من رعونات النفس، احفظ دموعك، حتى تصير بحرًا بداخلك، وكلما تبحث عن القلب في ذلك البحر، لا تجده إلا ﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ﴾^(١). ضاق الحسن بهذا الكلام، لكنه أذعن، إلى أن رأى رابعة ذات يوم، وكانت بالقرب من الماء، فطرح الحسن سجادة على الماء، وقال: يا رابعة تعالي، كي نصلي ركعتين هنا. فقالت رابعة: يا حسن،

(١) سورة القمر: الآية (٥٥).

يجب أن تعرض نفسك في سوق الدنيا من أجل الآخرة، بحيث يجب أن يعجز أبناء جنسك عن ذلك. ثم طرحت رابعة السجادة في الهواء، وطارت عليها، وقالت: يا حسن، تعال هنا، كي يرانا الناس، ولم يحظ الحسن بهذا المقام، فلم يقل شيئاً. أرادت رابعة أن تستحضر قلبه، فقالت: يا حسن، ما فعلته، تفعل مثله سمكة، وما فعلته أنا، تفعله ذبابة، والأمر خارج عن كليهما، ويجب الانشغال بالعمل.

يروى أن الحسن البصري قال: بقيت يوماً بليلة عند رابعة، وتحدثت عن الطريقة والحقيقة، ولم يجلب بخاطري أنني رجل، ولم يجلب بخاطرها أنها امرأة، وعندما نهضت في آخر الأمر، نظرت، فرأيت نفسي مفلساً، ورأيت رابعة مخلصاً.

يروى أن الحسن واثنتين أو ثلاثة من أصحابه ذهبوا إلى رابعة ذات ليلة، ولم يكن لديها سراج، وأرادت لهم نور القلب، فنفتخت رابعة في (طرف) إصبعها، فكان إصبعها يضيء كالصباح في تلك الليلة وحتى النهار، وجلسوا في ذلك النور حتى الصباح، إن يقل شخص: كيف يكون هذا؟ أقول: مثل يد موسى عليه السلام، إن يقل: هو نبي، أقول: كل من يتبع نبي، يمكن أن تكون له ذرة من النبوة، كما يقول النبي ﷺ: «من رد دنانقاً من الحرام فقد نال درجة من النبوة» وقال: الرؤيا الصحيحة جزء من أربعين جزءاً من النبوة.

يروى أن رابعة أرسلت إلى الحسن ثلاثة أشياء: قطعة من الشمع، وإبرة، وشعرة، ثم قالت: كن كالشمعة، احترق لتنير العالم، وكن كالإبرة، اعمل مجرداً على الدوام، وطالما أنجزت كلا العاملين، فإن كل شعرة من عملك هي بمثابة آلاف الأعوام من العمل.

يروى أن الحسن قال لرابعة: أترغبين في أن نتزوج ونعقد العقد. فقالت: يعقد عقد النكاح على موجود، وهنا قد انعدم الوجود، لأنني فئت عن نفسي، وبقيت به، وأنا كلي ملكه، وتحت أمره، فيجب أن تخطبني منه، لا مني، فقال: يا رابعة، بماذا نلت هذه المكانة؟ قالت: بأن فقدت كل المنال منه، قال الحسن: كيف تعرفينه؟ قالت: كما تعرفه أنت يا حسن، أعرفه بلا شيء.

يروى أن الحسن ذهب إلى صومعة رابعة ذات يوم، وقال لها: حدثيني عن تلك العلوم التي كانت قد وهبت لك بلا تعليم، فقالت رابعة: كنت قد غزلت الخيط كي أبيعته وأقتات منه، بعته، وأخذت قطعتين من الفضة، ووضعت واحدة في هذه اليد، والثانية في اليد الأخرى، وخفت أن يتزاجا إذا وضعتهما في يد واحدة، ويضلا الطريق وكان ظفري اليوم سبب هذا.

قالوا: يقول الحسن: لو أحرم لحظة من رؤية الحق في الجنة، أنوح، وأبكي إلى حد أن يشفق علي جميع أهلها (الجنة). قالت رابعة: حسناً، لكن إن يغفل عن الحق لحظة في الدنيا، ويبدو عليه نفس الحزن والعيول والنواح كذلك، فهذا دليل على أنه سيكون في الآخرة كما قال، وإلا فإنه ليس كذلك.

قالوا (الرابعة): لماذا لا تتزوجين؟ فقالت: أسألكم عن ثلاثة أشياء تجيئونني عليها كي أليكنكم، أولاً: هل سأنعم بسلامة الإيمان عند الموت أم لا؟ قالوا: لا نعرف. ثانياً: عندما تسلم الصحف للعباد، ستسلم لي في اليد اليمنى أم لا؟ قالوا: لا نعرف. ثالثاً: في تلك الساعة التي سيحمل فيها جماعة إلى الناحية اليمنى، وجماعة إلى الناحية اليسرى، فإلى أي ناحية سيحملونني؟ قالوا: لا نعرف. قالت: الآن، كيف يكون لشخص مثلي ينتظره هذا المأتم قدرة على الزواج.

قالوا لها: من أين جئت؟ قالت: من تلك الدنيا. قالوا: وإلى أين ستذهبين؟ قالت: إلى تلك الدنيا. قالوا: ماذا تفعلين في هذه الدنيا؟ قالت: أتحسر. قالوا: كيف؟ قالت: أكل خبز هذه الدنيا، وأعد أمر تلك الدنيا. قالوا: يجدر إخفاء طلاوة اللسان. قالت: أنا نفسي أخفيه، كل شيء بداخلي لا أخرجه، وكل شيء خارجي لا أدخله، إن يدخل شخص أو يخرج، فلا شأن له بي، إنني أحفظ القلب لا الطين.

قالوا: أتحبين حضرة العزة؟ قالت: بلى. قالوا: أتكريهين الشيطان؟ قالت: لا، قالوا: لماذا؟ قالت: لا أخاف عداء الشيطان بسبب محبة الرحمن. وإنني رأيت الرسول عليه السلام في المنام، قال لي: أتحبيني يا رابعة؟ قلت: من لا يحبك يا رسول الله؟! ولكن محبة الحق قد استغرقتني إلى حد أنها لم تترك مكاناً لمحبة الغير أو كراهيته. قالوا: وما المحبة؟ قالت: قد جاءت المحبة من الأزل ومرت على الأبد، ولا يدركها شخص في ثمانية عشر ألف عالم، فمن يتجرع شربة منها، يتجه إلى الآخر والحق، ومنها وردت هذه العبارة ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾^(١).

قالوا: أترين من تعبدينه؟ قالت: لو لم أكن أراه، لما كنت عبدته. يروى أن رابعة كانت دائمة البكاء. قالوا: لم تبكين كل هذا البكاء؟ قالت: أخشى القطيعة لأنني قد اعتدت عليه، فلا ينبغي أن ينبعث نداء عند الموت: إنك لست جديرة بنا. قالوا: متى يكون العبد راضياً؟ قالت: عندما يسر بالمحنة كما يسر بالنعمة. قالوا: إن يتب شخص كثير الذنوب، يُغفر له؟ قالت: كيف يتوب ما لم يفضل الله عليه بالتوبة ويعف عنه؟!

ومن أقوالها: يا بني آدم، لا مقام لكم مع الحق بالعين، ولا سبيل إليه باللسان، والسمع هو الوسيلة الأساسية لعناء القائلين، واليد والقدم هما حيرة الساكنين. وقع الأمر في القلوب، اجتهدوا أن توقظوا القلوب، فطالما استيقظ القلب، فلا حاجة له برفيق، أي أن القلب يقظ هو الذي قد فنى في الحق، ومن فنى، ماذا يفعل له الرفيق؟ فالفناء في الله هناك.

(١) سورة المائدة: الآية (٥٤).

وقالت: الاستغفار باللسان هو دأب النساء الكاذب.

وقالت: إن نتب بأنفسنا نحتاج إلى توبة أخرى.

وقالت: إن صبرت صبر الرجال، لكنت كريماً.

وقالت: ثمرة المعرفة الاتجاه إلى الله.

وقالت: العارف من يرجو قلباً من الله، عندما يهبه الله قلباً، يرده إليه في الحال، حتى يحفظ في قبضته، ويحجب في ستره عن الخلق. وكثيراً ما كان صالح المري يقول^(١): من يطرق باباً سرعان ما يفتح له، وكانت رابعة حاضرة ذات مرة فقالت: مع أنك تقول: إن هذا الباب مغلق، وسيفتح، فمتى أغلق قط حتى يفتح؟ قال صالح: عجباً، رجل جاهل، وامرأة ضعيفة عالمة! يروى أن رابعة رأت رجلاً ذات مرة، كان يقول: واحزنه! قالت: هكذا قل: وا دون حزنه، لأنك لو كنت حزيناً لما جرؤت أن تتنفس.

يروى أن رابعة رأت شخصاً كان قد عصب على رأسه عصابة؛ فقالت: لماذا عقدت عصابة؟ قال: لأن رأسي تؤلمني. قالت رابعة: كم تبلغ من العمر؟ قال: ثلاثين عاماً. قالت: هل أمضيت أغلب العمر في الداء والألم؟ قال: لا. قالت: حظيت بجسد سليم طيلة ثلاثين عاماً، ولم تعقد عصابة الشكر قط، وفي ليلة أملكك رأسك، تعصب عصابة الشكوى.

يروى أنها أعطت أربعة دراهم من الفضة إلى شخص (قائلة): اشتر لي مرقعة لأنني عارية. فانصرف ذلك الرجل وعاد، وقال: يا سيدة، أي لون أشتريها؟ فقالت رابعة: طالما تدخل اللون، أعطني الدراهم، وأخذتها، وألقت بها في نهر دجلة، أي أن التفرقة ظهرت لها وهي لم ترد المرقعة بعد.

يروى أنها دخلت ذات مرة الدار في فصل الربيع، واعتكفت. فقالت الخادمة: اخرجي يا سيدة كي ترين الصنع. قالت رابعة: أدخلي أنت مرة حتى ترين الصانع، فقد «شغلتنى مشاهدة الصانع عن مطالعة المصنوع».

يروى أن جماعة ذهبت إليها، وكانت تقطع قليلاً من اللحم بأسنانها، قالوا: ألا تملكين سكيناً تقطعين به اللحم؟ قالت: إنني لم أملك سكيناً في الدار قط، ولن أملك خشية القطيعة.

يروى أنها صامت ذات مرة سبع أيام بلياليها، ولم تكن قد أكلت خلالها قط، ولم تكن قد نامت الليل خلالها مطلقاً، فقد شغلت طوال الليل بالصلاة، (ولما) تجاوز الجوع الحد، دخل

(١) صالح المري: هو صالح بن بشير بن وداع، ولد لأب عربي وأم خراسانية، وكان من المحدثين، ودعاه المهدي إلى بغداد للإفادة من علمه للحديثه.

د. استعلامي، (ص ٨٣٢).

شخص المنزل، وأحضر قدحًا يستحق الشراب، أخذته رابعة، وذهبت حتى تحضر السراج، ولما عادت، كانت القطة قد سكبت ذلك القدح، قالت: أذهب وأحضر القدح، وأُفطر، وعندما أحضرت القدح، كان السراج قد انطفأ، فعزمت أن تشرب الماء في الظلام، فوق القدح من يدها، وانكسر، ناحت رابعة، وتأوهت لأنها خافت أن يحترق نصف الدار، وقالت: إلهي، ما هذا الذي تفعله بي أنا المسكينة؟ فسمعت صوتًا: ويحك، أتريد أن أجعل نعمة الدنيا وقفًا عليك؟! لكني أرفع حزنك عن قلبك، فإن نعمة الدنيا ونعمتها لا يجتمعان في قلب واحد. يا رابعة إن لكي مراد ولنا مراد، ولا نجتمع نحن ومرادك في قلب واحد. قالت: عندما سمعت هذا الخطاب، قطعت القلب عن الدنيا، وقصرت الأمل إلى حد أنني صليت ثلاثين عامًا كل صلاة أديتها ظننت أنها ستكون آخر صلاة لي، وكذلك انقطعت عن الخلق خشية يوم لا ينبغي لشخص فيه أن يشغلني عنه، وقلت: يا إلهي، اشغلني بك كي لا يشغلوني عنك.

يروى أن رابعة كانت تنوح، قالوا: يا عزيزة العالم، لا نرى (لك) علة ظاهرة قط، ودائمًا تتألّمين وتنوحين. قالت: بلى لدي علة داخل صدري، جميع أطباء العالم عاجزون عن معالجتها، فمرهم الجراح هو وصال المحبوب، ونتعلل بالغد الذي نصل فيه إلى المقصود، وطالما أننا لسنا الأطباء، اعرض نفسك على أطباء لا ينبغي لهم أن يكونوا أقل من ذلك.

يروى أن جماعة من المشايخ ذهبوا إلى رابعة، سألت رابعة أحدهم: لماذا تعبد الله؟ قال: إن لطبقات جهنم السبع عظمة، وللجميع عليها مرور، فينبغي أن نعمل مضطرين خشية دعرها. وقال آخر: إن لدرجات الجنة منزلة كبيرة، والراحة فيها أمر موعود. قالت رابعة: إن العبد السيئ من يعبد ربه خشية وخوفًا منه أو طمعًا في جزائه. فقالوا: ولماذا تعبدينه أنت إذن؟ أليس طمعًا في الجنة، قالت: «الجار ثم الدار»، وقالت: ألا يكفيني أنه أمرنا أن نعبد فلو لم تكن هناك جنة ونار، ألا تجوز الطاعة له، ألا يستحقها، لأنه يُعبد بلا واسطة.

يروى أن شيخًا ذهب إلى رابعة، فرأى رداءها باليًا جدًّا، فقال: لو تأمرين يهتم كثير من الناس بأمرك. قالت رابعة: أخجل أن أطلب الدنيا ممن ملك الدنيا بأسرها، فكيف أستطيع طلبها من شخص هي عارية في يده. قال الرجل: انظر هذه الهمة العالية للعجوز، وكيف سمت بها هذا السمو إنها تظن أن تشغل وقتها بالسؤال عنها.

يروى أن جماعة دخلت على رابعة لامتحانها، وأرادوا امتحانها فقالوا: قد نثرت جميع الفضائل على رؤوس الرجال، ووضع تاج النبوة على رؤوس الرجال، وعقد حزام الكرامة على صدورهم، ولم تبعث أي امرأة للنبوة قط. قالت رابعة: كل هذا صحيح ولكن ادعاء الألوهية

﴿أَنَا رَبِّكُمْ الْأَعْلَى﴾^(١) لم يصدر عن امرأة قط، ولم تكن هناك امرأة مخنثة قط، وقد بدا هذا في الرجال.

يروى أن رابعة مرضت ذات مرة، واشتد عليها المرض، سألوها: ما سبب هذا؟ قالت: «نظرت إلى الجنة فأدبني ربي» وهذا الداء بسبب عتاب الحبيب^(٢).

ثم جاء الحسن البصري لعيادتها، قال: رأيت سيِّداً من سادة البصرة كان يضع كيساً من الذهب على باب صومعتها، وهو يبكي، فقلت: أيها السيد، لماذا تبكي؟ قال: من أجل زاهدة الزمان هذه، التي لو خلت بركاتها من بين الخلق، لهلك الخلق، وقال: قد أحضرت شيئاً للعهد معها، وأخشى ألا تقبله، اشفع لي أنت كي تقبله، فدخل الحسن، وقص لها الأمر، فنظرت إليه رابعة بطرف عينها، وقالت: «هو يرزق من يسبقه فلا يرزق من يحبه»، منذ عرفته، انقطعت عن الخلق، وكيف آخذ مال شخص لا أعرف هل هو حلال أم لا؟ إنني حكمت القميص الذي ألبسته - على ضوء السراج السلطاني - فضاقت قلبي زمناً، حتى تذكرت، فمزقت ما كنت قد حكته، فسر قلبي. اعتذر لذلك السيد حتى لا يضيق قلبي.

يقول عبد الواحد بن عامر: دخلت أنا وسفيان الثوري لعيادة رابعة، ولم أستطع أن أبدأ الحديث بسبب هيبتها، فقلت لسفيان: قل شيئاً، قال: إن دعوت الله يخفف هذه الآلام عليك؛ فالتفتت إليه وقالت: يا سفيان، ألا تعرف من أراد هذا الألم لي، ألم يرده الله؟ قال: بلى. قالت: طالما أنك تعرف (فكيف) تأمرني أن أطلب منه ما يخالف إرادته! فلا تجوز مخالفة الحبيب. ثم قال سفيان: يا رابعة أي شيء ترغيبينه؟ قالت: يا سفيان، لماذا تقول مثل هذا الكلام وأنت رجل من أهل العلم؟ فأني رغبة يرغبها هو لي؟ فبعزة الله إنني أشتهي الرطب منذ اثني عشر عاماً، وأنت تعلم أن التمر متوفر في البصرة ولم آكله حتى الآن، فأنا عبدة وأي شأن للعبد بالرغبة، لو أنني أريد وربي لا يريد لكان هذا كفراً، فيجب إرادة ما يريد حتى تكون عبداً حقيقة، لو يمنحك هو بنفسه، لكان هذا أمراً آخر. قال سفيان: سكنت، ولم أتحدث قط، طالما لا يمكن التحدث في أمرك تحدث أنت في أمري. قالت: إنك رجل حسن لو أنك لا تحب الدنيا. وقالت: أحب رواية الحديث؟ أي أن هذا هو الجاه فقال سفيان: رق حالي، وقلت: ارض عني يا إلهي. قالت رابعة: ألا تخجل أن ترجو رضاء شخص لست راضياً عنه.

يروى أن مالكا بن دينار قال: ذهبت إلى رابعة، ورأيتها ومعها قرح مكسور، كانت تشرب منه، وتتوضأ منه، وحصير بالية وخشنة كانت ترقد عليها زمناً، وقال: تألم قلبي وقلت: لي رفاق

(١) سورة النازعات: الآية (٢٤).

(٢) وردت في التعرف لمذهب أهل التصوف، (ص ١٥٥).

أغنياء، لو تريدون أن آخذ لكي شيئاً منهم. قالت: أخطأت خطأً عظيماً يا مالك، أليس من يرزقني وإياهم واحداً؟ قلت: بلى. قالت: قد نسيت رازق الفقراء بسبب الفقر، وتذكر الأغنياء بسبب الغنى؟ قلت: لا، فقالت: طالما هو يعلم الحال، فيما أذكره، إنه يريد ونحن كذلك نريد ما يريد. يروى أن الحسن البصري ومالكاً بن دينار وشقيق البلخي دخلوا على رابعة ذات يوم، وكانت مريضة، قال الحسن: ليس بصادق في دعواه من لم يصبر على ضرب مولاه. قالت رابعة: «تفوح رائحة الغرور من هذا الكلام». وقال شقيق: «ليس بصادق في دعواه من لم يشكر على ضرب مولاه». قالت رابعة: ينبغي الأفضل من هذا. قال مالك: «ليس بصادق في دعواه من لم يتلذذ بضرب مولاه». قالت رابعة: ينبغي الأفضل من هذا. فقالوا: إذن قل لي أنت. فقالت: «ليس بصادق في دعواه من لم ينس الضرب في مشاهدة مولاه». ولا عجب في ألا يشعر نساء المحلة بألم الضرب في مشاهدة المخلوق. إن يتصف شخص بهذه الصفة في مشاهدة الخالق لا يكون بديعاً.

يروى أن أحد مشايخ البصرة دخل (عليها)، وجلس على فراشها، وكان يذم الدنيا بشدة. فقالت رابعة: إنك تحب الدنيا جداً، ولو أنك لا تحبها لما ذكرتها بهذه الدرجة، فإن مفسد البضاعة شاربها، لو فرغت من الدنيا، لما ذكرتها بالخير أو الشر، لكنك تذكرها لأن «من أحب شيئاً أكثر من ذكره».

قال الحسن: ذهبت إلى رابعة ذات يوم في صلاة العصر، وأرادت أن تطهو شيئاً، وكانت قد ألقت اللحم في القدر، ووضعت الماء، ولما استرسلت معي في الحديث، قالت: إن هذا الكلام أشهى عندي من طعام القدر، وهكذا كانت تتحدث حتى أدبنا صلاة العشاء، فأحضرت قطعة خبز يابسة وقدر ماء حتى نفطر، وذهبت كي ترفع القدر، فاحترقت يداها ونظرنا، فكان الطعام قد نضج، وكان يغلي بقدره الحق تعالى، أحضرته، وأكلنا ذلك اللحم، وكان لذيذاً حتى إننا لم نكن قد أكلنا طعاماً قط بهذه اللذة، قالت رابعة: ذهب الداء هكذا يفعل القدر.

قال سفيان: اقتربت من رابعة، وكانت في المحراب، وكانت تصلي حتى النهار، وكنت أصلي في زاوية أخرى حتى السحر، ثم قلت: بما نشكر من وفقنا أن نصلي له طوال الليل؟ قالت: بأن نصوم غداً، وقالت: يا إلهي، لو أنك سترسلني يوم القيامة إلى جهنم، أصرح بأنها ستفر مني ألف عام. وكانت تقول: يا إلهي، كل شيء قدرته لنا من الدنيا هبه لأعدائك، وكل ما قدرته لنا من الآخرة هبه لأحبائك فيكفيني أنت.

وكانت تقول: لو أنني أعبدك خشية جهنم، احرقني في جهنم، ولو أعبدك أملاً في الجنة حرمتها عليّ، ولو أعبدك من أجلك، فلا تضن عليّ بالجمال الباقي.

وكانت تقول في المناجاة: يا إلهي، لو ألقيت بي غداً في جهنم، أصرخ (قائلة): إنني أحبه، أيفعل هذا مع الحبيب؟ فهتف هاتف: يا رابعة، «لا تظني بنا ظن السوء» سننزلك إلى جوار أحبائنا حتى تتحدثين معنا بحدِيثنا.

وكانت تقول في المناجاة: يا إلهي، إن شغلي في الدنيا بأسرها ورغبتني فيها هو ذكرك، وشغلي في الآخرة بجملتها ورغبتني فيها لقاءك، إن هذا الذي قلته مني، وأفعل كل ما تريده.

وكانت تقول في المناجاة ذات ليلة: يارب، استحضر لي قلبي، وإلا فاقبل الصلاة بدون قلبي. ولما حضرتها الوفاة، خرج الناس، واعتلوا مرتفعاً، فسمعوا صوتاً: ﴿يَتَأَيَّنُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَأَدْخِلِي فِي عِبْدِي (٢٩) وَأَدْخِلِي جَنِّي (١). مرّ وقت ولم ينبعث أي صوت، ففتحوا الباب، وكانت قد أسلمت الروح.

وهكذا قال المشايخ: دخلت رابعة الدنيا، ومضت إلى الآخرة، ولم تتجرأ على الحق قط، ولم ترجوه شيئاً، ولم تقل هبني شيئاً أو افعل لي شيئاً، حتى تطلب شيئاً من الخلق.

رأوا رابعة في المنام بعد موتها، فقالوا: اشرح حالك، وكيف نجوت من منكر ونكير؟ قالت: دخلا المكان وقالوا: من ربك. فقلت: عوداً، وقولا لله: إنك لم تكن تنسى عجزاً ضعيفة بين آلاف مؤلفة من الخلق، وأنا الذي عرفتكم في الدنيا بأسرها، لا أنساك قط، حتى ترسل شخصاً (يسألني) من ربك؟!

جاء محمد بن أسلم^(٢) ونعمى الطرطوسي - اللذين سقيا ثلاثين ألف رجل في البادية - إلى قبر رابعة، وقالوا: إنك (كنت) تدعين إنك لا تحنين رأسك في العالمين، فإلى أين وصل بك الحال؟ فانبعث صوت: وصلت إلى ما رأيتهما. رحمة الله عليها.



(١) سورة الفجر، الآيات الأربع الأخيرة.

(٢) محمد بن أسلم، انظر الكتاب (ص ٣٤١).

ذكر الفضيل بن عياض^(١)

رحمة الله عليه



هو المقدم لدى التائبين، والمعظم لدى النائبين، هو شمس الكرم والإحسان وبحر الورع والعرفان، هو المعرض عن الكونين، شيخ الزمان الفضيل بن عياض (رحمة الله عليه).

كان من كبار المشايخ، وكان عيار الطريقة، وكان ممدوح الأقران، ومرجع القوم. وله في الرياضات والكرامات شأن رفيع، وكان فريداً في الورع والمعرفة.

كانت بداية أمره أنه كان قد نصب خيمة وسط صحراء «مرو وبارود»، وارتدى المرقعة، ووضع على رأسه عمامة من الصوف، وعلق مسبحة في رقبته. وكان له أصحاب كثيرون، كانوا جميعاً لصوصاً وقطّاع طرق. وكانوا يقطعون الطرق ليلاً ونهاراً، ويحضرون البضائع إلى الفضيل لأنه كان زعيمهم، فكان يقسمها بينهم، وكان يستولى على ما يريد لنفسه ويسجله، ولم يكن يبعد أبداً عن الجماعة. وكل غلام لم يكن يأت إلى الجماعة، كان يبعده.

ذات يوم كانت قافلة عظيمة تقدم، وكان أصحابه يتجسسون عليها. كان هناك رجل في القافلة قد سمع صوت اللصوص، وشاهدهم. وكان معه كيس ذهب، كان يحاول أن يخفيه، فقال لنفسه: أذهب، وأخبئ هذا الكيس، فإن هاجموا القافلة، أجعلها بضائتي، ولما انتحى جانباً من الطريق، رأى خيمة فضيل، ورآه على مقربة منها على هيئة الزاهدين ولباسهم، فسر، وعهد إليه بذلك الكيس على سبيل الأمانة. قال الفضيل: اذهب، وضعه في ركن من الخيمة هذه. ففعل الرجل ذلك، وعاد إلى القافلة وعندما وصل إليها، كانوا قد سطوا عليها، وسرقوا كل البضائع، وقيدوا أهلها، وألقوا بهم. فخلصهم جميعاً، وجمعوا ما كان قد بقي، ومضوا. وجاء ذلك الرجل إلى الفضيل؛ كي يأخذ الكيس، فرآه جالساً مع اللصوص، وهم يقتسمون البضائع. عندما رأى الرجل ذلك، قال: أعطيت ذهبي للصوص. رآه الفضيل من بعيد فنأى عليه، ولما تقدم الرجل، قال: أين الوديعة؟ قال: هناك

(١) أبو علي الفضيل بن عياض، خراساني من ناحية مرو، ولد بسمرقند ونشأ بأبيورد، وقدم إلى الكوفة، وهو كبير، فسمع بها الحديث، وتعبد ومات بمكة عام ١٨٧ هـ. انظر ترجمته في: الرسالة القشيرية، (ص ١٥)، صفة الصفوة، ج ٣، (ص ١٥٩)، حلية الأولياء، ج ٨، (ص ١٦١)، كشف المحجوب، (ص ٣٠٨) من الترجمة العربية.

حيث وضعتها، خذها واذهب، دخل الرجل الخيمة، وحمل الكيس، ومضى. فقال له الأصحاب: إننا لم نجد درهماً واحداً نقداً في القافلة بأسرها، وتعيد عشرة آلاف درهم! قال الفضيل: لقد ظن بي الرجل ظناً حسناً، وأنا أيضاً قد ظننت بالله ظناً حسناً بأن يتوب علي، فحققت ظنه حتى يحقق الحق ظني.

بعد ذلك، هاجموا قافلة ذات يوم، وسرقوا البضائع، وجلسوا، وكانوا يتناولون الطعام. فسأل واحد من أهل القافلة: من كبيركم؟ قالوا: ليس معنا، إنه يصلي هناك عند شجرة على حافة الماء. قال: ليس الوقت وقت صلاة. قالوا: إنه يصلي متطوعاً. فقال: ألا يأكل معكم؟ قال: إنه صائم، قال الرجل: ليس الشهر رمضان. قالوا: يصوم متطوعاً. تعجب هذا الرجل واقترب منه، فكان يصلي في خشوع، فانتظر حتى فرغ، وقال: «الضدان لا يجتمعان» فكيف يجتمع الصوم والسرقه؟! وأي علاقة بين الصلاة وقتل المسلمين؟! قال الفضيل: أتعرف القرآن؟ قال: بلى، قال: ألم يقل الحق تعالى: ﴿وَأَخْرُونَ أَعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾. فلم يقل الرجل شيئاً، وعجب لأمره.

يروى: أن المروءة والهمة كانتا من طباعه دائماً، بحيث إنه لو كانت في القافلة امرأة فلم يكن يسرق متاعها، ولم يكن يستولى على مال الفقير، أو يأخذه، وكان يترك لكل شخص على قدر ماله، وكان يميل إلى الصلاح دائماً.

وفي البداية، عشق امرأة، كان يمنحها كل ما يحصل عليه من قطع الطرق، وكان يعتلي الجدران دائماً افتناناً بعشقها، ويكي. ذات ليلة، كانت قافلة تمر، بها شخص يتلو القرآن، فترامت إلى مسامعه هذه الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾^(١). وهكذا خرجت الآية لمبارزة فضيل، فكانت بمثابة سهم انقض على روحه، وقال: يا فضيل، إلام تقطع الطريق، فقد حان الوقت أن نقطع نحن طريقك أيضاً. واتجه مضطرباً وحيراناً وخجلاً وهائماً إلى الخرابات حيث كانت جماعة من أهل القوافل، وكانوا يقولون: لنمضي، فقال أحدهم: لا يمكننا الذهاب لأن الفضيل في الطريق. فقال الفضيل: بشراكم، إنه تاب^(٢). وكان يتجول طوال اليوم ويكي، وكان يعادي المرح.

كان في باورد يهودي، وكان يريد الحل منه، فلم يحله. فقال ذلك اليهودي لأصحابه: اليوم هو اليوم الذي نهزأ فيه بأتباع محمد. ثم قال: لو تريد أن أحلك فهناك تل من الحصى - يصعب على الإنسان حمله سوى في دهر - وقال: ارفعه. فكان الفضيل يلقي به حصوة حصوة بسبب

(١) سورة الحديد: الآية (١٦).

(٢) وردت في الرسالة القشيرية، (ص ١٥).

العجز، وكيف ينجز المهمة بذلك الأسلوب؟ ولما يئس، هبت ريح في السحر، وأخفته. لما رأى اليهودي ذلك، اندهش، وقال: أقسم ألا أحلك ما لم تعطني مالا. ضع يدك الآن تحت هذا الغصن، وخذ قبضة ذهب من هناك، واعطها لي، فيصح قسمي وأحلك. فجاء الفضيل إلى دار اليهودي وكان اليهودي قد وضع تراباً تحت غصن - فغرس يده تحت الغصن، ورفع حفنة من الدنانير، ومنحها له. قال اليهودي، اشرح لي الإسلام، فشرحه له، فأسلم اليهودي ثم قال: أتعلم لماذا أسلمت؟ لأنني لا أعرف حتى اليوم أي دين هو الحق؟ واليوم اتضح لي أن الإسلام هو الدين الحق، لأنني قد قرأت في التوراة: أن من يتب توبة نصوحة، عندما يضع يده في التراب يصير ذهباً، وكنت قد وضعت تراباً تحت الغصن لاختبارك، ولما وضعت يدك في التراب صار ذهباً، فعرفت أن توبتك حقيقية ودينك هو الحق. الخلاصة، قال الفضيل لشخص: بالله، قيد يدي وقدمي، واحملني إلى السلطان، فإن عليّ حداً كبيراً، وينبغي عليه أن يقيم الحد علي. ففعل الرجل ذلك. ولما رآه السلطان، ورأى فيه سمة أهل الصلاح، قال: لا يمكنني هذا، وأمر فصحبوه إلى داره معزراً. لما وصل الفضيل إلى باب الدار، نادى أهل الدار، فقالوا: إن صوته قد تغير كما لو أنه جرح. قال الفضيل: بلى، لقد جرحت جرحاً عظيماً، قالوا: أين؟ قال: في الروح. ثم دخل، وقال لزوجه: أيتها المرأة، إنني سأقصد بيت الله: إن تريدي أطلقك. قالت المرأة: لا أنفصل عنك قط، وكل مكان تحل فيه أحل فيه. ثم مضيا حتى وصلا إلى مكة. ويسر الحق (تعالى) الطريق عليهما. وجاور (الفضيل) المكان، وأدرك بعض الأولياء، وصاحب الإمام أبي حنيفة فترة. وكانت له روايات عظيمة، ورياضات عميقة، وذاع صيته في مكة، وكان أهل مكة يجتمعون حوله، وكان يتحدث إلى الجميع، ووصل أمره إلى حد أن نهض أهله وأقاربه من باورد، وجاءوا لرؤيته، وقرعوا الباب، فلم يفتح ولم يعودوا، صعد الفضيل سطح المنزل، وقال: يا لكم من رجال عاطلين ليهبكم الله عملاً، وقال كثيراً من هذا القبيل، فبكى الجميع، وأغشى عليهم، وفي النهاية، عاد الجميع يائسين من صحبته، وظل هو على السطح، ولم يفتح الباب.

يروى أن هارون الرشيد قال للفضل البرمكي - الذي كان أحد المقربين إليه - ذات ليلة: خذني هذه الليلة إلى رجل يشرح لي حالي، فقد ضاق قلبي بسبب الوحدة والفرقة، فأخذه الفضل إلى دار سفيان بن عيينة^(١)، وقرعا الباب، قال: من؟ قال: أمير المؤمنين. قال: لماذا تكبد المشقة؟ كان يجب أن يخبرني حتى كنت أجيء إليه بنفسي. فقال هارون للفضل: ليس هذا هو الرجل الذي أنشده، أنه مثل من يدعون لي بطول العمر. علم سفيان بتلك الواقعة فقال: فضيل بن العياض

(١) سفيان بن عيينة: هو أبو محمد بن سفيان الأعور الكوفي، من الزاهدين والعارفين المشهورين. د. استعلامي، (ص ٨٣٢).

هو ما تنشده انه ينبغي عليكما الذهاب إليه، فذهبا إلى هناك وكان يتلو هذه الآية ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾^(١). قال هارون: لو أنني أطلب النصيحة، فهذا كاف. ثم قرعا الباب، قال الفضيل: من؟ قال: أمير المؤمنين. قال: أي شأن له بي؟ وأي شأن لي به؟ قال: إن طاعة أولي الأمر واجبة. قال: لا تزعجني. قال: أدخل بالإذن أم بالأمر؟ قال إن دخلتما بالإكراه، فلا إذن إذن، وأنتما تعلمان. دخل هارون، ولما اقترب من الفضيل أطفأ الفضيل السراج، حيث لا ينبغي له أن يرى وجهه، مد هارون يده، فأعادها الفضيل له، وقال: «ما ألين هذا الكف لو نجا من النار». قال هذا، ونهض، ووقف للصلاة. فتغير حال هارون وغلبه البكاء، وقال: فلتتحدث. سلم الفضيل وقال: كان والدك عم المصطفى (عليه الصلاة والسلام) فدعا: أن اجعلني أميراً على قومي. فقال: يا عم، أمرناك على نفسك لحظة، أي لأن تكن في طاعة الله لحظة خير من طاعة الخلق لك ألف عام «إن الإمارة يوم القيامة الندامة» قال هارون: زدني. قال: لما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة، دعا سالمًا بن عبد الله^(٢) ورجاء بن حية^(٣) ومحمدًا بن كعب وقال لهم: إنني ابتليت بهذا البلاء، فما تدبيري؟ إنني اعتبرها بلاء مع أن الناس يعتبرونها نعمة. فقال أحدهم: إن أردت النجاة من عذاب الله تعالى غدا القيامة، عدّ شيوخ المسلمين كأبيك، وشبابهم كأخوتك، واحفظ أطفالهم مثل أبنائك وعاملهم كما يعامل الأب والأخ والولد^(٤). قال: زدني، فقال: إن ديار الإسلام مثل ديارك، وأهلها عيالك، «زر أباك، وأكرم أخاك، وأحسن إلى ولدك».

ثم قال: أخشى أن يتلى وجهك الجميل بنار الجحيم، فأخش الله (تعالى) وأطعه وكن يقظًا عاقلًا، لأن الحق (تعالى) سيسألك عن المسلمين واحدًا واحدًا يوم القيامة، ويطلبك بحق كل واحد منهم، فلو أن عجزًا كانت قد نامت في دارها بلا زاد، فإنها تشبث بطرفك، وتعاذك. فبكى هارون كثيرًا إلى حد أن فقد وعيه، فقال الوزير فضل: كفا إنك قتلت أمير المؤمنين، قال: اصمت، يا هامان، فإنك تهلكه أنت وقومك، ثم تقول لي قتلته أنت. وهذا هو القتل. فزاد بكاء هارون لهذا الكلام، وعندئذ التفت إلى الفضل، وقال: قال لك هامان لأنه قد وضعني في مكانة فرعون. ثم قال هارون: أعليك دين؟ قال: بلى، دين الله علي بالطاعة، فإن حاسبني عليها فالويل لي، قال: يا فضيل، أتحدث عن دين الخلق، قال: الحمد لله (عز وجل) إن نعمه علي كثيرة، وليس لدي أي شكوى منه كي أشكوه إلى عباده، فوضع هارون أمامه ألف دينار (قائلًا): هذه

(١) سورة الجاثية: الآية (٢١).

(٢) سالم بن عبد الله: من فقهاء ومحدثي أواخر القرن الأول الهجري. د. استعلامي، (ص ٨٣٢).

(٣) رجاء بن حية: هو أبو المقدم رجاء كندي من فقهاء العصر الأموي. د. استعلامي، (ص ٨٣٢).

(٤) وردت في كشف المحجوب، (ص ١٢٤).

النقود حلال، من ميراث أُمِّي. قال الفضيل: لم تفدك نصائحي هذه قط يا أمير المؤمنين، والآن بدأت الظلم أيضًا، وسلكت مسلك الظالم. قال: أي ظلم؟ قال: إنني أدعوك إلى النجاة، وتلقي بي أنت في البلاء، وهذا ظلم وأقول لك رد ما تملكه إلى أصحابه، فتعطيه إلى آخر لا يستحقه فلا فائدة لكلامي، قال هذا، ونهض من أمامه، وألقى بالذهب خارج الباب، فخرج هارون الرشيد وقال: «أواه أي رجل هو» إن الملك في الحقيقة هو الفضيل، وإن جأه عظيم وحقارة الدنيا زائدة في نظره.

يروى أنه احتضن طفله ذي الأربعة أعوام ذات يوم، وقبله كعادة الآباء، فقال ذلك الطفل: أتحنني يا والدي؟ قال: نعم، قال: أحب الله؟ قال: نعم، قال: وكم قلب لديك؟ قال: واحد، قال: أيمن محبة حبيبين بقلب واحد؟ فعرف في الحال أن الطفل لا يقول ذلك، بل إن ذلك هو تعريف بالحقيقة بسبب غيرة الحق. فأخذ في التدب، وتاب، وقطع قلبه عن الطفل، ووهبه للحق^(١).

يروى أن الفضيل كان قد وقف بعرفات ذات يوم، وكان كل الخلق يبكون في تضرع ونحيب وبكاء ورجاء، قال: يا سبحان الله، ما بالك لو أن كل هؤلاء الناس يذهبون إلى رجل مرة واحدة، ويطلبون منه دانقًا من الفضة، فماذا تظن هل يخيب رجاءهم جميعًا؟ فقال ذلك الرجل: لا، فقال: إن العفو عنهم جميعًا أسهل على الله تعالى من أن يعطيهم ذلك الرجل دانقًا من الفضة لأنه «أكرم الأكرمين»، الرجاء أن يغفر لهم جميعًا.

وسأله في عرفات ليلاً: كيف ترى حال هؤلاء الناس؟ قال: قد غفر للجميع، وإن كنت لست بينهم، قالوا: كيف؟ ولا نراك خائفًا قط؟ قال: لو أنك كنت خائفًا لم يكن الخائفون في خفية عنك فإنه لا يرى الخائف إلا الخائف، ويستطيع الحزين أن يرى المحزونين^(٢).

قالوا: متى يبلغ الرجل غايته في حب الله (تعالى)؟ فقال: عندما يتساوى لديه المنع والعطاء، فقد بلغ غاية محبته.

قالوا: ما تقول في شخص يريد أن يقول لبيك، ولا يطبق قولها خشية أن يقال له: لا لبيك. قال: أمل أن من يرى نفسه في ذلك الموقف، لا تردد وراءه كلمة لبيك. قالوا: ما أصل الدين؟ قال: العقل، قالوا: ما أصل العقل؟ قال: الحلم. قالوا: ما أصل الحلم؟ قال: الصبر.

(١) وردت في حلية الأولياء، ج٨، (ص ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧)، وصفة الصفوة، ج٢، (ص ١٦١، ١٦٢، ١٦٣)، كشف المحجوب، (ص ٣١٠، ٣١١) من الترجمة العربية مع الاختلاف.
(٢) وردت في حلية الأولياء، ج٨، (ص ١١٣).

قال أحمد بن حنبل رضي الله عنه: سمعت من الفضيل: أن كل من طلب الرياسة ذل.
وقال: قلت للفضيل: عظمي، فقال: كن في المؤخرة ولا تكن في المقدمة فهذا أفضل لك.
قال بشر الحافي رضي الله عنه سألته: الزهد أفضل أم الرضا؟ فقال: الرضا أفضل لأن الرضا لا يرجو أي مقام أسمى من مقامه.

قال سفيان الثوري رضي الله عنه: ذهب إلي ذات ليلة، وظلمت أتلو الآيات وأقص الأخبار والآثار طوال الليل، ولما نهضت. قلت: يا لها من ليلة مباركة ليلة أمس، ويا لها من جلسة محموددة جلسة أمس، فإن هذه الجلسة أفضل من الوحدة. فقال الفضيل: يا لها من ليلة مشثومة ليلة أمس، ويا لها من جلسة مذمومة جلسة أمس. قلت لماذا تقول مثل هذا الكلام؟ قال: لقد كنت في أسرها طوال الليل كي تقول تقول كلامًا حسنًا يعجبني، وكنت أنا أسيرًا لها على أمل أن أجيب جوابًا حسنًا يعجبك، وكنا قد شغلنا بعضنا البعض بكلام بعضنا البعض عن الله، فاعلم أن الوحدة والمناجاة مع الله أفضل^(١).

ذات يوم رأى عبد الله بن المبارك وكان قد اتجه إليه، فقال: عد من المكان الذي بلغته وإلا عدت أنا، أتأتي كي تقص علي بعض الكلام، وأقص عليك بعض الكلام!
يروي: أن شخصًا قصده ذات يوم، فقال له: لما جئت؟ قال للاستكانة والراحة برؤيتك.
فقال: بالله، إن هذا أقرب إلى الوحشة، ولم تأت إلا كي تخدعني بالكذب، وأخدعك بالكذب، فارجع من هنا.

وكان يقول: أريد أن أصاب بمرض، يقعدني عن صلاة الجماعة؛ حيث لا ينبغي لي رؤية الخلق.

وقال: إن استطعتم أن تسكنوا في مكان لا يعرفكم فيه أحد، ولا تعرفون فيه أحدًا، لكان هذا الأمر عظيمًا وحسنًا، فافعلوا ذلك^(٢).

وقال: أمتن منة عظيمة من شخص يمر علي ولا يسلم، وعندما يصيبني مرض، لا يأتي لعيادتي.
وقال: أسر عندما يحل الليل؛ لأنه خلوة لي مع الحق بلا فرقة، وعندما يطلع الصبح أحزن كراهية لرؤية الخلق الذين لا ينبغي لهم الدخول علي وإزعاجي في الخلوة.

وقال: من يستوحش الوحدة، ويستأنس بالخلق، فهو بعيد عن السلامة.

وقال: من عدّ القول من العمل، قل كلامه إلا عند الضرورة.

وقال: من يخف الله، يصم لسانه.

(١) وردت في حلية الأولياء، ج٨، (ص ١١٤) مع الاختلاف.

(٢) وردت في حلية الأولياء، ج٨، (ص ٨٨)، الرسالة القشيرية، (ص ١٥).

وقال: عندما يحب الحق تعالى عبداً، يكثر همه، وإذا بغضه وسع عليه دنياه.

وقال: إن بكى حزين في أمتي، لسعت كل الأمة في أمره.

وقال: لكل شيء زكاة، وزكاة العقل الحزن الطويل، ومن العجيب كذلك أن يكون هناك شخص في الجنة ويبكي. ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل الأحران.

وقال: الأعجب من ذلك حال شخص يضحك في الدنيا، ولا يعلم كيف ستكون عاقبة أمره.

وقال: خمسة أشياء من علامات سوء الطالع: قسوة القلب، وجمود العين، وقلة الحياء، والرغبة في الدنيا، وطول الأمل.

وقال: عندما يسكن الخوف قلب شخص، لا يجري شيء لا قيمة له على لسانه، ويتغلب على الشهوات وحب الدنيا ويبعد عن قلبه الرغبة فيها.

وقال: من يخشى الله، تخشاه كل الأشياء، ومن لا يخشى الله، يخشى كل شيء.

وقال: خشية الله والخوف منه تكون على قدر علم العبد، وزهد العبد في الدنيا يكون على قدر رغبته في الآخرة.

وقال: لم أر آدمياً قط في هذه الأمة أكثر رجاءً في الله وأكثر خوفاً منه إلا ابن سيرين (رضي الله عنهما).

وقال: لو أن الدنيا بأسرها منحت لي حلالاً دون حساب أتقذرها كما تتقذرون الجيفة^(١).

وقال: قد جمعت المساوئ كلها في دار واحدة مفتاحها محبة الدنيا، وجمعت جملة المحاسن في دار واحدة مفتاحها عداوة الدنيا^(٢).

وقال: القدوم إلى الدنيا سهل، لكن الخروج منها والخلاص منها صعب.

وقال: الدنيا مستشفى والخلق فيها كالمجانين، وللمجانين في المستشفى أغلال وقيد.

وقال: بالله إن كانت الآخرة من الحقارة الباقية، والدنيا من الذهب الفاني لكان جديراً أن يرغب الخلق في الحقارة الخالدة، لأن الدنيا ليست إلا سفالة فانية والآخرة ذهب باقي.

وقال: لم يمنح شخص شيئاً قط من الدنيا، ما لم ينفض عنه مئات الأشياء في الآخرة لأنه سيكون لك عند الله بما كسبت، وما فعلت، فافعل الآن سواء أكان كثيراً أم قليلاً.

وقال: لا تتلذذوا بالثياب الناعمة والطعام اللذيذ، فإن التمتع بتلك الثياب وذلك الطعام لن يبقى غداً.

(١) وردت في حلية الأولياء، ج٨، (ص ٨٩)، الرسالة القشيرية، (ص ١٥)، صفة الصفوة، ج٨، (ص ١٥٩).

(٢) وردت في الرسالة، (ص ٩٦).

وقال: الناس الذين انقطعوا عن بعضهم البعض بالتكلف، يستطيعون أن يروا وقاحة بعضهم البعض عندما يرفع التكلف.

وقال: أوحى الله (عز وجل) للجبال: إني مكلم نبيًا على واحد منكم، فتكبرت الجبال جميعها إلا طور سيناء، فكلم عليه موسى عليه السلام لتواضعه.

وقال عن التواضع: هو الخضوع لله والطاعة له والانقياد لما يأمر به.

وقال: من يظن أن لنفسه قيمة، فلا نصيب له في التواضع.

وقال: لا تبحثوا عن ثلاثة أشياء لأنكم لن تجدوها: لا تبحثوا عن عالم يزن علمه بميزان العمل؛ لأنكم لن تجدوه، وتبقوا جاهلين، ولا تبحثوا عن عامل لا يصاحب إخلاصه عمله؛ لأنكم لن تجدوه، وتبقوا عاطلين، ولا تطلبوا إخوة بلا عيب؛ لأنكم لن تجدوها، وتبقوا بلا أخ. وقال: من يظهر المحبة لأخيه باللسان، ويكون له العدا في القلب يلعنه الله، ويجعله أعمى القلب وأصم.

وقال: عندما كانوا يفعلون ذلك كانوا يراءون، والآن لا يفعلون هذا ويراءون.

وقال: ترك العمل من أجل الخلق رياء، والعمل من أجلهم شرك، والإخلاص: أن يحفظ الحق (تعالى) العبد من هاتين الخصلتين.

وقال: إن أقسمت أنني مرء أحب إلى من أن أقسم أنني لست بمرء^(١).

وقال: أصل الزهد الرضاء من الحق تعالى بكل ما يفعله، وأجدر الخلق برضاء الله (تعالى) أهل المعرفة.

وقال: كل من يعرف الله حق المعرفة، يعبد به بكل طاقته.

وقال: الفتوة ترك الأخوة.

وقال: حقيقة التوكل ألا يأمل (المرء) فيما سوى الله، وألا يخشى غيره.

وقال: المتوكل من يثق في الله عز وجل، وألا يتهم الله في أي شيء يفعله، وألا يشكو منه، أي يستوي لديه الظاهر والباطن في التسليم.

وقال: عندما يقال لك، هل تحب الله؟ اصمت، فإن قلت لا، تكون كافرًا، وإن قلت نعم، لا يكون مسلكك مثل مسلك الأحبة.

(١) وردت في حلية الأولياء، ج٨، (ص ٩٤)، الرسالة القشيرية، (ص ١٥).

وقال: خجلت من الله، من كثرة ذهابي إلى المبرز، وكان كل ثلاثة أيام يقضي حاجته مرة، وقال: كثيرًا ما يذهب الرجل إلى المبرز، ويخرج نظيفًا. وكثيرًا ما يذهب رجل إلى الكعبة، ويخرج ملوثًا.

وقال: الحرب مع العقلاء أيسر من تناول الحلوى مع الجهلاء.

وقال: من يضحك هائنًا في وجه فاسق، يسعى في تخريب الإسلام.

وقال: من يلعن حيوانًا، يقول له الحيوان: آمين مني ومنك.

وقال: اللعنة على كل من هو أكثر عصيًّا لله.

وقال: لو أعلم قوله: الدعاء مستجاب لك، فاطلب كل ما تريده، أدعو للسلطان، لأنني إن دعيت بصلاحي لكان الصلاح لي فقط، وفي صلاح السلطان صلاح الخلق^(١).

وقال: خصلتان يفسدان القلب: كثرة النوم وكثرة الأكل.

وقال: فيكم خصلتان من الجهل إحداهما: أنكم تضحكون ولا تتعجبون، والأخرى: أنكم تنصحون ولا تستيقظون الليل.

وقال: يقول الله (عز وجل): يا بن آدم، إن ذكرتني، ذكرتك، وإن نسيتني نسيته، والبرهة التي لن تذكرني فيها هي عليك لا منك، فانظر الآن ما تفعل.

وقال: قال الله لأحد الأنبياء: بشر المذنبين بقولي إن تبتم أقبل توبتكم، وأنذر الصديقين باني إن عدلت معهم، لعاقبتهم جميعًا.

ذات يوم دخل عليه شخص، وقال له: عظمي، فقال: «أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار».

ذات يوم رأى ابنه يعد دينارًا من الذهب كي يعطيه لشخص، وكان ينظف تلك القذارة التي كانت في نقش الذهب، فقال: يا بني، إن هذا أفضل لك من عشر حجات وعشر عمرات.

وذات مرة، احتبس بول ابنه، فرفع الفضيل يده وقال: يا رب، بحق محبتي لك، خلصه من هذا الألم، ولم يكن قد نهض بعد حتى كان قد شفى^(٢).

وورد أنه كان يقول في المناجاة: يا إلهي، ارحمني، فإنك عالم بتبوتي، ولا تعذبني فإنك قادر علي. وكان يقول: يا إلهي، تملك أمري جائعًا وعيالي، وتملك أمري عاريًا، وعيالي، ولا تمنحني السراج في الليل، وتفعل هذا مع أوليائك، فبأي منزلة حاز الفضيل هذه السعادة منك؟!

(١) وردت في حلية الأولياء، ج٨، (ص ٩١) مع الاختلاف.

(٢) وردت في حلية الأولياء، ج٨، (ص ١٠٩).

يروى: أن شخصًا لم يكن قد رآه باسمًا قط طيلة ثلاثين عامًا. إلا اليوم الذي مات فيه ولده ابتسم، قالوا له: أيها السيد، أي وقت هذا؟ فقال: علمت أن الله راضٍ بموته، وابتسم موافقة لرضائه^(١).

وكان يقول في آخر الأمر: لا غيرة لي من الأنبياء. فسيئظرهم لحد وصراط وقيامة، وسوف يقولون جميعًا نفسي نفسي بقلّة حيلة. ولا غيرة لي من الملائكة؛ لأن خوفهم أكبر من خوف بني آدم، وليس لهم داء بني آدم، ومن ليس له هذا الداء لا أريده. لكنني غيور من الشخص الذي لم يولد، ولن يولد.

يروى: أن مقررًا حسن القراءة قدم إليه، وتلى عليه آية، قال: خذوه إلى ابني كي يقرأ، وقال: حذار ألا تقرأ آية بها صفة جهنم والقيامة. فليست له طاقتها. وحدث أن قرأ المقرئ سورة القارعة فصاح في الحال، وأسلم الروح.

عندما اقترب أجله، كانت لديه ابتتان، فأوصى زوجته (قائلًا): عندما أموت، خذي هاتين البنتين، وارثي جبل أبي قبيس، واتجهي إلى السماء، وقولي: يا إلهي أوصاني الفضيل، وقال: طالما كنت على قيد الحياة، كنت أحافظ على هاتين البنتين بكل طاقتي، وطالما دفنت في القبر فإنني أعيدهما لك. لما دفن فضيل، نفدت زوجته ما قاله، فارتقت الجبل، وأخذت البنتين معها هناك؟ وناجت (الله)، وبكت كثيرًا وبدأت النواح، وفي الوقت ذاته مرّ أمير اليمن مع ولديه في ذلك المكان، فرآهم في بكاء ونحيب، فقال: من أين أنتم؟ فقصت تلك المرأة الحال: قال الأمير: زوجت تلك البنتين إلى ولدي هذين، ومنحت لكل واحدة عشرة آلاف دينار مهرًا. أرضيت بهذا؟ قالت: نعم، وفي الحال أعد الهودج والفراش والحريز، وأخذهم إلى اليمن «ومن كان لله كان الله له».

وقال عبد الله بن المبارك: لما مات الفضيل ارتفع الحزن^(٢).



(١) وردت في حلية الأولياء، ج٨، (ص ١٠)، الرسالة القشيرية، (ص ١٥).

(٢) وردت في حلية الأولياء، ج٨، (ص ٨٧)، الرسالة القشيرية، (ص ١٥).

ذكر إبراهيم بن أدهم^(١)

رحمة الله عليه



هو سلطان الدنيا والدين، وعنقاء قاف اليقين، هو كنز عالم العزلة، وخزينة قصر الثروة، هو ملك الإقليم الأعظم، وربيب اللطف والكرم، شيخ الزمان إبراهيم بن أدهم (رحمة الله عليه). كان متقي زمانه، وكان ربيب الإقبال، وكان حجة الزمان وبرهانه، وله في مختلف معاملات الملة وأصناف الحقائق حظ كامل، وكان مقبولاً لدى الجميع. وكان قد رأى كثيراً من المشايخ، وصاحب الإمام أبا حنيفة.

قال الجنيد (رضي الله عنه): «مفاتيح علوم هذه الطريقة إبراهيم»^(٢).

دخل إبراهيم بن أدهم على أبي حنيفة (رضي الله عنه) ذات يوم، فنظر إليه أصحاب أبي حنيفة بعين الاحتقار، فقال أبو حنيفة: جاء سيدنا إبراهيم. فقال له أصحابه: وبما وجد هذه السيادة؟ قال: بالمدامومة على الخدمة، فقد انشغل بخدمة الله، وانشغلنا نحن بخدمة أنفسنا^(٣). وكان ابتداء أمره أنه كان ملك بلخ، أخضع عالمًا لهيئته، وكانوا يحملون أربعين سيفًا ذهبيًا وأربعين حربة ذهبية من أمامه ومن خلفه.

وكان قد نام على السرير ذات ليلة، فتحرك سقف القصر في منتصف الليل كما لو أن شخصًا يسير عليه، فصاح: من؟ قال: عارف، فقدت ناقة أبحث عنها على هذا السطح، فقال: يا جاهل! أتبحث عن ناقة على السطح؟ قال: يا غافل! أتطلب الله وأنت نائم في ثوب حريري على سرير ذهبي؟ فوقعت هيبة في قلبه لهذا الكلام، واشتعلت النار في قلبه، ولم يستطع النوم حتى النهار ولما طلع النهار، عاد إلى الصفة، وجلس على العرش مفكرًا وحائرًا وحزينًا، بينما وقف أركان

(١) أبو إسحق إبراهيم بن أدهم، من أهل بلخ، كان من أبناء الملوك، خرج متصيدًا فهتف به هاتف أيقظه من غفلته وجعله يسلك طريق الزهد والورع. صحب سفيان الثوري والفضيل بن عياض ودخل الشام ومات بها سنة ١٦١، أو ١٦٢هـ.

انظر ترجمته في طبقات الصوفية، (ص ٢٧)، الرسالة القشيرية، (ص ١٣)، صفة الصفوة، ج ٤، (ص ١٣٤)، حلية الأولياء، ج ٧، (ص ٣٦٧)، كشف المحجوب (ص ٣١٤) من الترجمة العربية.

(٢) وردت في كشف المحجوب، (ص ٣١٥) من الترجمة العربية.

(٣) وردت في كشف المحجوب، (ص ٢٤٣).

الدولة كل واحد في مكانه، واصطف الغلمان، وعقدوا مجلس البلاط العام، وفجأة دخل رجل مهيب من الباب بحيث إن أحداً من الحشم والخدم لم يجرؤ أن يقول له من أنت؟ وانعقدت ألسنتهم جميعاً، وهكذا أخذ الرجل يتقدم إلى العرش، فقال إبراهيم: ما تريد؟ قال: أن أنزل في هذا الرباط، قال: ليس هذا رباطاً، إنه قصري، أنت مجنون. قال: لمن كان هذا القصر قبل ذلك؟ قال: ملك والدي، قال: وقبله؟ قال: كان ملكاً لجدي، قال: وقبل ذلك؟ قال: ملك فلان، قال: وقبل ذلك؟ قال: والد فلان: قالوا: وأين صاروا جميعاً؟ قال: مضوا وماتوا، قال: ألم يكن هذا القصر رباطاً واحد يأتي إليه، وآخر يمر عليه، قال هذا واختفى. وكان الخضر (عليه السلام). فتأججت حرقه روح إبراهيم ونارها، وتضاعفت آلامه فأبى حال هذه، وأصبحت تلك الحال مائة حال، حيث اجتمعت رؤية النهار بسماع الليل، ولم يعرف ممن سمع؟ ولم يعرف ماذا رأى اليوم؟.

قال: اسرجوا الحصان، إنني ذاهب للصيد، فقد حدث لي اليوم شيء لا أعرف كنهه. إلهي! إلام سيصل هذا الحال؟ أسرجوا الحصان، واتجه إلى الصيد، كان يتجول حائرًا في الصحراء بحيث لم يكن يعلم ماذا يفعل؟ وانفصل عن الجند في تلك الحيرة، وفي الطريق سمع صوتاً: «انتبه» فلم يهتم ومضى، فسمع نفس الصوت للمرة الثانية ولم يهتم، سمع نفس الصوت للمرة الثالثة فابتعد عنه، وفي المرة الرابعة سمع صوتاً: «انتبه قبل أن تنبه» هنا فقد صوابه مرة واحدة^(١١٢).

فجأة ظهر غزال، فشغل نفسه به، فحدثه الغزال قائلاً: أرسلت لصيذك لكنك لا تستطيع صيدي «أل هذا خلقت أو بهذا أمرت» فقال إبراهيم: ما هذا الحال؟ وولى عن الغزال، فبدا عليه الخوف والفرع، وازداد الكشف^(١١٣). وعندما أراد الحق (تعالى) أن يتم هذا الأمر، هتفت تلايبيه بنفس الكلام ثلاث مرات، وابتلت ثيابه جميعها وجواده بدموعه، وتاب توبة نصوحة.

واتجه إلى ناحية فرأى راعياً ارتدى اللباد، ووضع على رأسه عمامة من اللباد، والأغنام أمامه، نظر الغلام، وكان إبراهيم يرتدي قباء مذهباً، فمنحه عمامة مبتلة بالعرق ووهبه الأغنام، وأخذ منه إبراهيم اللباد ولبسه، ووضع على رأسه عمامة اللباد، ووقف الملكوت بأسره لمشاهدته. فما أحسنها سلطنة تلك التي آلت إلى ابن أدهم فقد أطاح بثوب الدنيا النجس، ولبس خلعة الفقر، ومن ثم أخذ يطوف مترجلاً في الجبال والقفار وهائماً، وكان قد وقع من فوق ذلك الجسر، وإن جرفه الماء هلك في الحال، فصاح من بعيد «اللهم احفظه»؛ فظل الرجل معلقاً في الهواء حتى وصلوا وحملوه، وبقوا في حيرة من إبراهيم. فأبى رجل هذا!

(١) وردت في طبقات الصوفية، (ص ٣٠)، صفة الصفوة، ج٤، (ص ١٣٤) مع الاختلاف، كشف المحجوب، (ص ٣١٤) من الترجمة العربية.

(٢) وردت في التعرف لمذهب أهل التصوف، (ص ١٤١)، الرسالة القشيرية (ص ١٣) مع الاختلاف.

ثم رحل من هناك حتى وصل نيسابور، وكان يبحث عن زاوية خالية؛ لينشغل بالطاعة، حتى وصل إلى ذلك الغار المشهور، وسكنه تسعة أعوام، (وقضى) في كل منزل منه ثلاثة أعوام. ومن يعرف في أي أمر انشغل هناك طوال الليالي والأيام؟ يجب أن يكون الشخص رجلاً عظيمًا وكنزاً دفيناً؛ حتى يمكنه أن يتواجد هناك بمفرده ليلاً، كان يوم الخميس يصعد أعلى الغار ويجمع حزمة من الحطب، وكان يتجه في الصباح إلى نيسابور وبيعها، ويؤدي صلاة الجمعة، ثم كان يشتري بئمنها خبزاً كان يعطي نصفه للدراويش، ويقتات بالنصف الآخر، ويفطر به ويستعمله حتى الأسبوع التالي.

يروى أن إبراهيم قضى ليلة من الشتاء في ذلك المنزل، وكانت ليلة شديدة البرودة، وكان قد كسر الجليد، واغتسل به، لما كان الليل بطوله بارداً، وانشغل هو في الصلاة حتى السحر، وفي السحر خاف أن يهلك من البرد، فهفت نفسه إلى النار، فرأى فراء قد سقط خلفه، واستغرق في النوم، عندما استيقظ، كان النهار قد طلع، وشعر بالدء فنظر فإذا بالفراء كان حية ولها عينان مثل صحنين عظيمين من الدماء؛ فتملكه الخوف، وقال: إلهي! أرسلتها لي في صورة اللطف، وأراها الآن في صورة القهر ولا أطيعها، فمضت الحية في الحال، ومسحت بوجهها الأرض أمامه عدة مرات، واختفت.

يروى أنه عندما علم الناس بأمره، فرّ من الغار، واتجه إلى مكة، وفي الوقت الذي كان الشيخ أبو سعيد (رحمة الله عليه) قد ذهب فيه لزيارة الغار، قال: سبحان الله إن كان هذا الغار مفعماً بالمسك، لما فاحت منه مثل تلك الرائحة، فقد قضى رجل ذو مروءة بصدق عدة أيام هنا، وترك كل هذه الروح والرائحة.

ثم اتجه إبراهيم إلى البادية خشية الشهرة، فأدركه فيها واحد من العارفين، علمه اسم الله الأعظم^(١)، ومضى، وبدأ يدعو الله بذلك الاسم الأعظم. وفي الحال رأى الخضر (عليه السلام). قال: يا إبراهيم! إنما علمك أخي داود اسم الله الأعظم^(٢). ثم دار بينه وبين الخضر حديثاً طويلاً، وكان شيخه الخضر (عليه السلام) الذي كان قد هداه في بداية أمره بإذن الله تعالى. وكان يمضي في البادية، وقال: وصلت إلى «ذات العرق»، فرأيت سبعين شخصاً يرتدون المرقعات، كانوا قد أسلموا الروح، وسالت الدماء من أنوفهم وآذانهم، فطفت حول أولئك القوم، وكان الرمي ما زال في أحدهم، فسألته: ما هذه الحال أيها الفتى؟ قال: عليك بالماء والمحراب^(٣). يا ابن أدهم لا تذهب بعيداً حتى لا تهجر ولا تقترب جداً، حتى لا تؤذى، فليس

(١) وردت في الرسالة، (ص ١٣). (٢) وردت في طبقات الصوفية، (ص ٣١)، الرسالة القشيرية (ص ١٣).

(٣) أي تظهر وتعبد. د. استعلامي، (ص ٨٣٤).

هناك شخص يتجراً على بساط السلاطين، اخش الحبيب الذي يقتل الحجاج مثل كفر الروم ويغزو مع الحجيج، واعلم أننا كنا قومًا صوفية، سرنا في البادية متوكلين، وعزمنا ألا نتكلم وألا نفكر إلا في الله، ونتحرك ونسكن من أجله، ولا نلتفت إلى غيره، وعندما تركنا البادية، ووصلنا إلى الأرض الحرام، أدر كنا الخضر (عليه السلام)، فسلمنا، وأجاب السلام، سررنا وقلنا «الحمد لله» أن وفق السفر والتحق الطالب بالمطلوب، لأن مثل ذلك الشخص جاء لاستقبالنا. فنودي على أرواحنا في الحال: نسيتم قولكم وعهدكم معنا أيها الكذابون المدعون وانشغلتم بغيرنا اذهبوا، فإنني لن أرضى عنكم ما لم أسلبكم أرواحكم جزاء لكم، وأريق دماءكم بسيف الغيرة. هؤلاء الفتيان الذين تراهم، كلهم احترقوا بسبب هذا الحساب، هلا تحفظ هذا السري إبراهيم؟ فأقدم وإلا فابتعد، صار إبراهيم حائرًا مضطربًا لهذا الكلام، وقال: قلت: ولماذا حرروك أنت؟ قال: قيل: هم ناضجون وأنت مازلت صغيرًا، إحياء ساعة حتى تنضج أيضًا، وحين تنضج تأتي في أثرهم. قال هذا وأسلم الروح أيضًا.

دام سفك الدماء في أرضنا —————
 دامت سفك الدماء في أرضنا —————
 احفظ سرنا وإلا فابتعد عن صدورنا —————
 فحزن نحب وأنت لا تحفظ سرنا —————

يروى أنه أمضى أربعة عشر عامًا في قطع البادية، وكان يصلي ويتضرع طوال الطريق حتى اقترب من مكة. علم مشايخ الحرم (بمجيئه)، فخرجوا لاستقباله، وقد تقدم القافلة كي لا يعرفه أحد، تقدم الخدم فرأوا إبراهيم كان يتقدم القافلة، ولم يكونوا قد رأوه من قبل، فلما وصلوا إليه قالوا: هل اقترب إبراهيم بن أدهم، فقد خرج مشايخ الحرم لاستقباله. قال إبراهيم: ما تريدون من ذلك الزنديق؟ فصفعوه في الحال، وقالوا: يخرج مشايخ مكة لاستقباله، وتدعوه أنت زنديقًا! قال: وأنا أقول إنه زنديق. وعندما تجاوزوه، النفث إبراهيم إلى نفسه وقال: انتبهى كنت تريد أن يأتي المشايخ لاستقبالك، فصفعت وأبلاً من الصفعات، الحمد لله أنني رأيتك محققة لرغبتك ثم سكن مكة، فظهر أصحابه، وكان يأكل من كسب يده، وكان يعمل بالنجارة.

يروى أن إبراهيم بن أدهم كان له طفل رضيع حين رحل عن بلخ، ولما كبر سأل أمه عن أبيه، فشرحت أمه الحال (قائلة): ضل أبوك. نادى منادٍ في بلخ: ليأت من له رغبة في الحج، فجاء أربعة آلاف شخص، فمنحهم جميعًا نفقات الحج وناقته، وصحبهم إلى الحج أملًا في أن يحقق الله له لقاء أبيه ذات يوم. عندما دخلوا مكة، كان أصحاب المرقعات على باب المسجد الحرام، فسألهم: أتعرفون إبراهيم بن أدهم؟ قالوا: إنه صاحبنا قد استضافنا، وذهب في طلب الطعام، فطلب أوصافه، ومضى في أثره، وخرجوا إلى بطحاء مكة، فرأى أباه كان يأتي بحزمة حطب عاري القدم والرأس، فغلبه البكاء ونظر إليه، ثم تعقبه، فجاء إلى السوق، وكان يصيح: «من

يشترى الطيب بالطيب» فناداه خباز، وأخذ الحطب، وأعطاه الخبز، فحمل الخبز إلى أصحابه، ووضعهم أمامهم. خاف الابن (وقال): إن قلت له من أنا يفرّمني، فذهب ليتدبر مع أمه وسيلة العثور عليه، فأمرته أمه بالصبر، وقالت: اصبر حتى نؤدي الحج. عندما مضى الابن كان إبراهيم قد جلس مع أصحابه، وأوصاهم قائلاً: يوجد اليوم في الحج نساء وأولاد فغضوا البصر، فقبلوا جميعاً، عندما دخل الحجيج مكة، وطافوا حول البيت، كان إبراهيم مع أصحابه في الطواف، فتقدم إليه غلام جميل، تأمله إبراهيم بعينه. رأى الأصحاب ذلك، فتعجبوا منه، ولما فرغوا من الطواف قالوا: رحمك الله، أمرتنا ألا ننظر إلى أي امرأة أو طفل ونظرت أنت إلى غلام حسن الوجه. قال: رأيتم؟ قالوا: بلى، قال: لما جئت من بلخ تركت طفلاً رضيعاً، وأنا أعلم أن هذا الغلام هو ذلك الطفل. في اليوم التالي خرج أحد أصحاب إبراهيم، وسأل عن قافلة بلخ، ودخل فيها، فرأى خيمة من الحرير في وسطها، وبها كرسي، وكان ذلك الغلام يجلس على ذلك الكرسي، ويقرأ القرآن ويكي، فطلبه صاحب إبراهيم، وقال له: من أين أنت؟ قال: من بلخ، قال: وابن من؟ فوضع الغلام يده على وجهه، وغلبه البكاء، ووضع المصحف من يده، وقال: إنني لم أر أبي سوى بالأمس، ولا أعرف أهو أم لا، وأخشى إن قلت له أن يهرب؛ لأنه هارب منا. والدي هو إبراهيم بن أدهم ملك بلخ، فأخذ ذلك الرجل إلى إبراهيم ورافقته أمه. وكان إبراهيم قد جلس مع أصحابه أمام الركن اليماني، ونظر من بعيد، فرأى صاحبه ومعه الطفل وأمّه. عندما رآته تلك المرأة صرخت ونفد صبرها، وقالت: ها هو أبوك، فاندلعت ثورة لا يمكن وصفها، وانخرط الخلق والأصحاب جميعاً في البكاء مرة واحدة. عندما تاب الطفل إلى رشده، سلم على أبيه، فأجاب إبراهيم السلام، واحتضنه، وقال: على أي دين أنت؟ قال: على دين الإسلام، قال: الحمد لله، سأله ثانية: أتعرف القرآن؟ قال: بلى، قال: الحمد لله، سأله مرة ثالثة: هل حصلت العلم؟ قال: بلى، قال: الحمد لله. ثم أراد إبراهيم أن ينصرف فلم يترك الطفل بالطبع يده قط، وكانت أمه قد توقفت عن الصياح، فاتجه إبراهيم إلى السماء، وقال: «إلهي أغثني»، فأسلم الابن الروح بجانبه. وقال الأصحاب: ما حدث يا إبراهيم؟ قال: عندما احتضنته، تحرك حبه في قلبي، فنودي: يا إبراهيم «تدعي محبتنا وتحب معنا غيرنا وتنشغل بغيرنا، وتجعله شريكاً في محبتنا، وتوصي الأصحاب ألا ينظروا إلى أي امرأة أو طفل، وعلقت قلبك بتلك المرأة والطفل»، عندما سمعت هذا النداء، دعوت «يارب العزة» أغثني، لو أن محبته سوف تشغلني عن محبتك، إما أن تزهد روحه أو روحي، فأجاب دعوتي في حق ابني. إن تعجب شخص من هذه الحال أقول: إن إبراهيم ضحى بابنه ولا عجب.

يروى أن إبراهيم قال: كنت أبحث عن فرصة طوال الليالي حتى أجد الكعبة خالية من

الطائفين لأطلب حاجة، لكنني لم أكن أجد الفرصة، حتى كانت الأمطار تهطل بشدة ذات ليلة، فذهبت واغتنمت الفرصة، وقد خلت الكعبة، وطففت، وتشبثت بالحلقة وطلبت العصمة من الذنوب، فسمعت نداء: أطلب العصمة من الذنب، وجميع الخلق يطلبون نفس الشيء، إن أعطيت العصمة للجميع، فأين تسري بحوري الغفار والغفور والرحمن والرحيم، فقلت: «اللهم اغفر لي ذنوبي» فسمعت نداء: تتحدث معنا عن الدنيا كلها، وتحدثك عن نفسك أفضل من أن يتحدث عنك الآخرين.

وقد قال في المناجاة: إلهي! إنك تعلم أن الثمان جنان قليلة إلى جانب الكرم الذي أكرمته لي، وإلى جانب محبتك والأنس بذكرك، والفراغ الذي وهبته لي عند التفكير في عظمتك. وهذه مناجاة أخرى له: يارب ارفعني من ذل المعصية إلى عز الطاعة. وكان يقول: «إلهي آه من عرفك لم يعرفك، فكيف حال من لم يعرفك».

يروى أنه قال: كابدت العناء والمشقة خمسة عشر عامًا، حتى سمعت نداء: «كن عبدًا» فاسترحت «أي» «فاستقم كما أمرت»^(١).

يروى أنه سئل: ما حل بك حتى تركت الملك؟ قال: كنت قد جلست على العرش يومًا، فوضعت أمامي مرآة نظرت فيها، فرأيت قصري قبرًا لا مؤنس فيه، ورأيت السفر طويلًا أمامي ولا زاد لي، ورأيت قاضيًا عاديًا ولا حجة لي، ففتر الملك على قلبي.

قالوا: ولماذا فررت من خراسان؟ قال: كثيرًا ما سمعت هناك كيف يكون الحبيب.

قالوا: لماذا لا تتزوج؟ قال: أهنك امرأة تتزوج من زوج يجعلها جائعة وعارية؟ قالوا: لا. قال: لذلك لا أتزوج لأن كل امرأة أتزوجها سوف تبقى جائعة وعارية، ولو أنني استطعت طلاق واحدة فكيف أكره أخرى على الاقتران بي.

ثم سأل فقيرًا كان حاضرًا: هل أنت متزوج؟ قال: لا، قال: ألدك أولاد؟ قال: لا، قال: حسن حسن، قال الفقير: كيف؟ قال: الفقير الذي تزوج كأنه جلس في سفينة، وطالما رزق بابل غرق^(٢).

يروى أنه رأى فقيرًا ذات يوم كان ينوح، قال: أظن أنك اشتريت الفقر بلا مقابل. قال: أيشترى الفقر؟ قال: اشتريته مرة بملك بلخ. وما زال هو الأفضل.

يروى أن شخصًا أحضر لإبراهيم ألف دينار، وقال: خذها، قال: أنا لا آخذ من الفقراء. قال: أنا غني، قال: أترغب في الزيادة، قال: بلى، قال: خذ إنك أفقر الناس، إن هذا ليس فقرًا إنه العدم.

(١) سورة هود: بداية الآية (١١٢).

(٢) وردت في اللمع (ص ٢٦٥).

ومن أقواله التي قالها: أشد حال تعتريني أن أحل بمكان أعرف فيه؛ فإن الخلق كانوا يدخلون عليّ ويعرفونني ويشغلونني، وحينئذ ينبغي عليّ الفرار من هناك، ولا أعلم أيهما أصعب: الذل عند الجهل، أم الفرار من العز عند المعرفة.

وقال: إننا بحثنا عن الفقر فتحقق لنا الغنى، وأناس آخرون بحثوا عن الغنى فتحقق لهم الفقر. وحمل رجل إليه عشرة آلاف درهم فلم يقبلها، وقال: أتريد أن تمحو اسمي من بين الفقراء بهذا القدر من الفضة.

يروى أنه عندما كان يهبط عليه وارد من الغيب كان يقول: أين ملوك الدنيا حتى يروا أي أمر هذا، وأي حمل حتى يخجلوا من ملكهم.

وقال: ليس صادقاً من طلب الشهرة.

وقال: الإخلاص صدق النية مع الله (تعالى).

وقال: من لا يستحضر قلبه في ثلاثة مواضع فذلك دليل على أن الباب قد أغلق أمامه: أولاً: عند قراءة القرآن، ثانياً: عند الذكر، ثالثاً: عند الصلاة.

وقال: علامة العارف هي: أن تكون أكثر خواطره في التفكير والعبرة، وأكثر كلامه في الثناء على الحق ومدحه، وأغلب أعماله في الطاعة، وأغلب نظراته إلى لطائف الصنع والقدرة.

وقال: رأيت حجرًا ملقى في الطريق، وقد كتب عليه: «اقلب واقرأ» فقلبته وقرأت، فكان قد كتب على ذلك الحجر: طالما إنك لا تعمل بما تعلم فكيف تطلب ما لا تعلم؟^(١).

وقال: ليس هناك شيء قط في هذا الطريق أشد علي من مفارقة الكتاب حيث أمرت: لا تطالعه.

وقال: إن أثقل الأعمال التي ستكون في الميزان غدًا أثقلها عليك اليوم.

وقال: هناك ثلاثة حجب يجب أن تنقشع من أمام قلب السالك، حتى يفتح له باب السعادة، أولاً: ألا يسعد وإن أعطوه ملك العالمين عطاء أبدياً؛ لأنه بذلك يسر بالموجود، فيكون بهذا لا يزال رجلاً حريصاً. «والحريص محروم». والثاني: إن تحقق له ملك العالمين، ثم فقدهما، لا يحزن بسبب الإفلاس؛ لأن هذا يكون دليل السخط «والساخط معذب». الثالث: ألا ينخدع بأي مدح وإعزاز؛ لأن من يمدح يخدع وتثبط همته وحقير الهمة محجوب، ويجب أن يكون عالي الهمة.

يروى أنه قال لرجل: أتريد أن تكون ولياً من الأولياء؟ قال: نعم، قال: لا ترغب في شيء من الدنيا والآخرة، واتجه إلى الله كلية، وفرغ نفسك عما سوى الله^(٢)، وكل من حلال، ولا حرج عليك ألا تقوم الليل أو تصوم النهار.

(١) وردت في حلية الأولياء، ج ٨ (ص ٢٦) مع الاختلاف، كشف المحجوب (ص ٢٠٥) من الترجمة العربية.

(٢) وردت في كشف المحجوب (ص ٢٠٥) من الترجمة العربية.

وقال: لم يدرك أحد قط درجة الرجال بالصلاة والصوم والغزو والحج إلا حين يعلم ما يدخل في حلقة، قالوا: هناك شاب صاحب وجد وحال، وirtاض رياضة عنيفة. قال إبراهيم: احملوني إليه؛ كي أراه، فحملوه، قال الشاب: كن ضيفي، فبقي هناك ثلاثة أيام، وراقب حال ذلك الشاب، فكانت أكثر مما قيل عنه، حيث كان يقظاً مضطرباً طوال الليل، ولم يكن يهدأ لحظة أو ينام. غار إبراهيم وقال: هكذا نحن مقصرون، وهو يقظ مضطرب طوال الليل، وقال لنفسه: تعالي لنبحث أحواله، وهل تسلل أي شيطان إلى هذه الأحوال أم أنها خالصة كما ينبغي، ثم قال لنفسه: يجب البحث عن حقيقة الأمر، وأساسه ومصدر اللقمة، فبحث فلم تكن حلالاً، قال: الله أكبر إنه الشيطان، ثم قال للشاب: كنت ضيفك لثلاثة أيام، فتعال، وكن ضيفي لأربعين يوماً، قال: سأنفذ ذلك. كان إبراهيم يأكل لقمته من العمل، أحضر للشاب منها، وكان يعطيه لقمته، فزالت حالة الشاب وزهد شوقه، وخبا عشقه، وزالت حرقة واضطرابه وولى سهده وبكاؤه، فقال لإبراهيم: ما فعلت معي؟ قال: لم تكن لقمته حلالاً، وكان الشيطان يتردد معها بداخلك، وعندما نزلت لقمة حلال إلى بطنك، زال كل ما كان يعتريك من مظاهر شيطانية، باللقمة الحلال التي هي أصل الأمر؛ فلتعرف أن اللقمة الحلال هي أساس هذا الحديث.

يروى أنه قال لسفيان: من عرف ما يطلب، يحقر في عينيه ما يجب أن يفعله بقلبه، وقال لسفيان: إنك محتاج لقليل من اليقين مع أنك غزير العلم.

يروى أن إبراهيم وشقيق كانا معاً ذات يوم، فقال له شقيق: لماذا تهرب من الخلق؟ قال: قد احتضنت ديني، وأفرّ من هذه المدينة إلى تلك المدينة، ومن قلة الجبل هذه إلى قلة الجبل تلك، ومن يراني يظن أنني محموم أو موسوس، لعلي أحفظ الدين من يد إبليس وأخرج بسلامة الإيمان من بوابة الموت.

يروى أنه كان يحصد الزرع في النهار في رمضان، وما يأخذه كان يعطيه للفقراء وكان يصلي طوال الليل، ولم يكن ينم^(١) قط. قالوا: لماذا لا يعرف النوم عينيك؟ قال: لأنني لا أكف عن البكاء لحظة، وطالما أكون على هذه الحال، كيف يتأتى النوم.

عندما كان يؤدي الصلاة كان يضع يديه على وجهه ويقول: أخشى أن يصنع وجهي. يروى أنه لم يجد شيئاً ذات يوم، فقال: إلهي! لو أنك لا تهبني شيئاً قط، أزيد الصلاة أربعمئة ركعة شكراً لك، فلم يجد شيئاً لثلاثة أيام أخرى، فصلى أربعمئة ركعة كذلك، حتى بدا عليه الضعف في الليلة السابعة، فقال: إلهي! إن أعطيتني، فهذا يليق بك. وفي الحال قدم شاب وقال له: أحتاج إلى طعام؟ قال: بلى، فحملة إلى داره، ولما نظر إلى وجهه، صاح صيحة. قالوا:

(١) وردت في كشف المحجوب، (ص ٥٦٧) من الترجمة العربية.

ماذا حدث؟ قال: أنا غلامك، وكل ما أملكه ملك لك، فقال: حررتك وكل شيء في يدك منحتك لك، فأذن لي أن أنصرف، قال بعد هذا: عزمت يا إلهي ألا أرجو غيرك قط، فقد طلبت خبزاً من شخص فأحضرت الدنيا أمامي.

يروى أن ثلاثة أشخاص رافقوا إبراهيم بن أدهم، وكانوا يتعبدون ذات ليلة في مسجد خرب، ولما ناموا وقف هو على الباب حتى الصباح، فقالوا له: لماذا فعلت هكذا؟ قال: كان الهواء جد بارداً والريح باردة، فسددت الباب بجسدي حتى أذفع الأذى عنكم.

يروى أن عطاء السلمي قد حكى بإسناد عبد الله بن المبارك أن إبراهيم كان في سفر، وفرغ زاده، فصر أربعين يوماً، وأكل الطين، ولم يقل لأحد؛ حتى لا يصل ألمه إلى إخوانه^(١).

يروى أن سهلاً بن إبراهيم كان يقول: سافرت مع إبراهيم بن أدهم فمرضت، فباع ما كان يملكه وأنفقه عليّ فطلبت طلباً، وكان لديه حمار فباعه وأنفق عليّ ثمنه، فلما تماثلت للشفاء قلت: أين الحمار؟ قال: بعته، قلت: على ماذا أركب؟ قال: على كفتي يا أخي، ووضعتني على عنقه ثلاثة منازل وحملني^(٢).

يروى أن عطاء السلمي قال: لم يجد إبراهيم ما ينفقه مرة، فأكل الحصى خمسة عشر يوماً وقال: لم أكل من فاكهة مكة طيلة أربعين عاماً، إلا عندما كنت في حال النزع، ولم أعلم. ولم يأكل لأن الجنود كانوا قد اشتروا بعض أراضي مكة.

يروى أنه حج عدة مرات مترجلاً، ولم يشرب من ماء زمزم، وقال: لقد تم شراء دلوها وحبلها من مال السلطان.

يروى أنه كان يذهب كل يوم للعمل، وكان يعمل حتى الليل، وما كان يأخذه كان ينفقه على أصحابه، لكنه كان يعمل حتى صلاة المغرب ويشترى شيئاً، ويأتي لأصحابه في الليل متعباً. قال أصحابه ذات ليلة: إنه يتأخر، تعالوا لنأكل الخبز، وننام؛ حتى يأتي مبكراً بعد هذا، ولا يفيدنا، وهكذا فعلوا، عندما جاء إبراهيم وجدهم نائمين، فظن أنهم لم يأكلوا وناموا جائعين، فأشعل النار في الحال، وكان قد أحضر مقداراً من الدقيق، عجنه ليعدهم شيئاً يأكلونه حين يستيقظون فيستطيعون الصيام نهاراً. استيقظ أصحابه من النوم، فأروه كان قد وضع محاسنه على التراب، وكان ينفخ في النار، وكان الدمع يسيل من عينيه، والدخان يلتف حوله، فقالوا: ما تفعل؟ قال: رأيتم نائمين، فقلت: ربما لم تجدوا شيئاً، ونمتم جائعين؛ لذا فإنني أعد لكم شيئاً تتناولوه حين تستيقظون فقالوا: انظروا مدى ظنه بنا، وما كان ظننا به!

(١) وردت في حلية الأولياء، جـ٧، (ص ٣٨١) مع الاختلاف.

(٢) وردت في حلية الأولياء، جـ٧، (ص ٣٨٢)، الرسالة القشيرية، ص (١٤).

يروى أن كل من كان يريد صحبتَه كان يشترط عليه ويقول: أقوم أنا بالخدمة، وأؤذن للصلاة وكل فتح تفتحهُ الدنيا علينا (نقتسمه)، عندما قال رجل: لا أطيق هذا، قال إبراهيم: إنني أعجب لصدقك.

يروى أن رجلاً صاحب إبراهيم مدة وأراد المفارقة، فقال: أيها السيد: أخبرني بالعيب الذي رأيته فيّ، قال: لم أرى فيك عيباً قط؛ لأنني قد نظرت إليك بعين المحبة، فلا جرم أن كل شيء رأيته منك قد طابني.

يروى أنه كان صاحب عيال، وكان يذهب وقت صلاة المغرب، ولم يكن لديه شيء من الطعام، وكان جائعاً مهموماً (وقال): ما أقول للأطفال والعيال لأنني أذهب فارغ اليد؟ بينما كان يسير وهو في غاية الألم، رأى إبراهيم جالساً في صمت فقال: يا إبراهيم إنني أغار منك؛ فقد جلست ساكناً فارغاً، وأنا حائر عاجز، فقال إبراهيم: كل ما فعلناه من حج وعبادات مقبولة وخيرات مبرورة، منحناها لك جميعها، وامنحنا أنت لحظة من حزنك.

يروى أن المعتصم^(١) سأل إبراهيم: أي حرفة تحترفها؟ قال: تركت الدنيا لطالبيها والعقبى لراغبيها، واخترت ذكر الله في الدنيا، ولقاءه في العقبى.

سأله آخر: ما حرفتك؟ قال: ألا تعلم أن عمال الله لا حاجة لهم بالحرفة. يروى أن شخصاً قال لإبراهيم: يا بخيل! فقال: إنني تركت ولاية بلخ، وتركت الملك أيضاً، وأكون بخيلاً!.

وكان المزين يصلح له شعره يوماً، فمر عليه مريد من مريديه، فقال له: ألدبك شيء؟ وضع المريد كيساً من الذهب، أعطاه إبراهيم إلى المزين، فسأل سائل المزين، وطلب منه شيئاً، فقال المزين: خذ، قال إبراهيم: في الكيس ذهب، قال: أعرف أيها البخيل «الغنى غنى القلب لا غنى المال» قال: إنه ذهب، قال: أيها البطال! أعطه لمن يعرف ما هو. قال إبراهيم: لن أستطيع أن أصف هذا الخجل بشيء قط، ورأيت النفس وقد حققت مرادها في ذلك.

قيل له: أبلغت مرادك في هذا الطريق؟ قال: عدة مرات: مرة كنت في سفينة، ولم يكن الربان يعرفني، وكنت ألبس خلقاً، وقد طال شعري، وكنت على حال غفل بسببه أهل السفينة عني،

(١) المعتصم: هو أبو إسحق محمد بن الرشيد بن المهدي بن المنصور، ولد عام ١٧٩هـ، كان والياً على الشام ومصر في عهد أخيه المأمون الذي ولّاه عهده، فتولى الخلافة العباسية عام ٢١٨هـ وسار على سياسته نفسها، ولهذا يعد حكمه امتداداً لحكم المأمون، فقد مال إلى الترك، وبنى لهم عاصمة جديدة، وتوفي في سامراء عام ٢٢٧هـ.

انظر: محمد بك الخضري، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة العباسية، (ص ٣١٢)، د. حسن أحمد محمود، د. أحمد إبراهيم الشريف، العالم الإسلامي في العصر العباسي، (ص ١٣٥).

وكانوا يسخرون مني ويهزأون بي، وكان في السفينة مهرج، كان يأتي إليّ كل لحظة ويشد شعر رأسي وينزعه مني، ويصفعني على عنقي، وكنت أجد نفسي على مرادي، وأفرح بذل نفسي^(١). فجأة ارتفعت موجة عظيمة، وساد الخوف من الهلاك، فقال الملاح: يجب أن نلقي واحدًا من هؤلاء في البحر كي تخف السفينة، فأخذوني ليلقوا بي في البحر، فهدأ الموج وسكنت السفينة، في ذلك الوقت الذي كانوا قد أمسكوا فيه بأذني ليلقوا بي في الماء، رأيت نفسي على مرادي وسررت.

ومرة أخرى ذهبت إلى مسجد لأنام، فلم (يتركوني) وكنت من الضعف والعجز بحيث إنني لم أكن أستطيع النهوض، فأمسكوا بقدمي وكانوا يسحبونها، وكانت للمسجد ثلاث درجات، كانت رأسي تهشم على كل درجة كانت تنزلها، وكان الدم يسيل، فرأيت نفسي على مرادها وحين كانوا يلقيون بي على هذه الدرجات الثلاث، كان ينكشف لي على كل درجة إقليم، فقلت: ليت درجات المسجد كانت أكثر حتى كانت أسباب السعادة تزيد.

ومرة أخرى استبد بي حال، فقبول المهرج عليّ. وهنا سررت أيضًا. ومرة أخرى ارتديت فراءً كانت قد حلت به حشرات كثيرة، وكانت تلدغني، فجأة تذكرت تلك الثياب التي كنت قد وضعتها في الخزانة، فصرخت النفس (قائلة): ما آخر هذا العقاب؟ وهنا رأيت نفسي على مرادها.

يروى أنه قال: قضيت في البادية عدة أيام متوكلًا، ولم أجد شيئًا، كان لي صديق. قلت: إن ذهبت إليه يبطل توكلي، فدخلت المسجد وأنا أردد على لساني: «توكلت على الحي الذي لا يموت لا إله إلا هو»^(٢) فهتف هاتف: سبحان الله الذي طهر الأرض من المتوكلين، قلت: لماذا؟ قال: كيف يكون متوكلًا من يسلك طريقًا طويلًا من أجل لقمة يمنحها له صديق مجازي وعندئذ يقول: «توكلت على الحي الذي لا يموت» سميت الكذب توكلًا.

وقال: رأيت زاهدًا متوكلًا ذات مرة، فسألته: من أين تأكل؟ قال: لا علم لي بهذا، سل الرزاق، أي شأن لي بهذا.

وقال: اشتريت غلامًا ذات مرة، وقلت: ما اسمك؟ قال: ما تسميني به، قلت: ما تأكل؟ قال: ما تعطيني، قلت: وما تلبس؟ قال: ما تلبسني إياه، قلت: ما تفعل؟ قال: ما تأمرني به، قلت: ما تطلب؟ قال: وأي شأن للعبد بالطلب. فقلت لنفسي: يا مسكين هكذا كنت عبدًا لله طوال العمر، فتعلم العبودية، وبكيت إلى حد أن زال العقل عني. ولم يره أحد قط جلس مربيًا، فسألوه: لماذا

(١) وردت في كشف المحجوب، (ص ٢٦٥) من الترجمة العربية.

(٢) سورة الفرقان، الآية (٥٨) "وتوكل على".

لا تجلس مربعاً قط؟ قال: جلست هكذا ذات يوم فسمعت صوتاً من الهواء: يا ابن أدهم! أجلس العبيد هكذا أمام السادة؟ فاستقمت في جلستي، وتبت^(١).

يروى أنه سئل ذات مرة: عبد من أنت؟ فارتعد ووقع وأخذ يتمرغ في التراب، وعندئذ نهض وهو يقرأ هذه الآية ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾^(٢) قالوا له: لماذا لم تجب منذ البداية؟ قال: خفت أن أقول أنا عبده؛ فيطلب مني حق العبودية، ويقول: كيف أديت حق عبوديتنا، وإن قلت لا فلا يمكنني قول هذا أبداً لشخص آخر.

يروى أنه سئل: كيف تقضي وقتك؟ قال: أملك أربعة مراكب مفيدة، عندما (تظهر) النعمة أركب مركب الشكر، وأتقدم به إليه، وحين تبدو المعصية، أستقل مركب التوبة، وأعود بها إليه. وعندما تنزل المحنة، أركب مركب الصبر وأذهب به إليه، وعندما تبدو الطاعة، أركب مركب الإخلاص، وأعود به إليه.

وقال: لا تجعل زوجك كالأرامل وأبنائك كالأيتام، ولا تنم الليل في مزبلة الكلاب، ولا تطمع في أن يمنحك سبيلاً إلى صف الرجال. وصدق ذلك السيد في هذا القول الذي قاله لأنه ترك الملك حتى وصل إلى هذه المكانة.

يروى أن جماعة من المشايخ كانوا قد جلسوا ذات يوم، فقصده إبراهيم أصحابهم، فقالوا: اذهب فإن راحة الملك ما زالت تفوح منك، يقولون له هذا مع كل ماله من أعمال فماذا يقولون عن الآخرين؟

يروى أنهم سألوه: لماذا حجبت قلوبنا عن الحق؟ قال: لأنها أحببت ما كرهه الحق، وشغلت بمحبة هذا الموقد الفاني الذي هو دار اللعب واللهو، وتركت دار جنات النعيم المقيم حيث الملك والحياة واللذة التي لا نقصان فيها ولا انقطاع.

يروى أن شخصاً قال: «أوصني»، قال: اذكر الله، ودع الخلق^(٣). وأوصى آخر قائلاً: افتح المغلق، وأغلق المفتوح، فقال: لا أفهم هذا؛ قال: افتح الحافظة المغلقة، وقيد اللسان السليط. وقال أحمد بن خضرويه^(٤): قال إبراهيم لرجل أثناء الطواف: لا تنال درجة الصالحين ما لم تجتز ست عقبات: تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدة، وتغلق باب العز وتفتح باب الذل، وتغلق باب النوم وتفتح باب السهر، وتغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر، وتغلق باب الأمل وتفتح باب الأجل والتزين والاستعداد للموت^(٥).

(١) سورة مريم: الآية (٩٣).

(٢) وردت في اللمع (٢٦٧) مع الاختلاف.

(٣) وردت في طبقات الصوفية (ص ٣٧).

(٤) أحمد خضرويه، انظر الكتاب (ص ٥٤٣).

(٥) وردت في طبقات الصوفية (ص ٣٨)، الرسالة القشيرية (ص ١٣).

يروى أن إبراهيم كان قد جلس، فاقترب رجل منه، وقال: يا شيخ، لقد ظلمت نفسي كثيرًا، فحدثني حتى أجعل (كلامك) إمامي، قال إبراهيم: إن قبلت أن تحفظ عني ست خصال فلا ضرر فيما تفعله بعد ذلك، وهي:

أولاً: عندما تريد أن ترتكب معصية، لا تأكل من رزقه، فقال: كل شيء في العالم هو رزقه فمن أين آكل؟ قال إبراهيم: أيطيب أن تأكل رزقه وتعصاه!

ثانيًا: عندما تريد أن ترتكب معصية، اسكن مكانًا لا يكون ملكًا له، فقال: هذا الكلام أكثر صعوبة فإنها بلاد الله من المشرق إلى المغرب فأين أذهب؟ قال: أيلق أن تسكن ملكه وتعصاه! ثالثًا: عندما تريد أن ترتكب معصية، أسكن مكانًا لا يراك فيه، فقال: كيف يمكن أن يكون هذا؟ فهو عالم الأسرار والمطلع على الضمائر، قال إبراهيم: أيطيب أن تأكل من رزقه، وتسكن بلاده، وترتكب المعصية تحت نظره وفي مكان يراك فيه؟!

رابعًا: عندما يقترب منك ملك الموت قل له: امهلني حتى أتوب، فقال: إنه لا يقبل مني هذا الكلام، قال إبراهيم: إنك لست بقادر على أن تدفع ملك الموت عن نفسك، وكان ممكنًا أن تتوب قبل أن يأتي إليك، فأدرك تلك اللحظة وتب.

خامسًا: عندما يأتي إليك منكر ونكير، ادفعهما عن نفسك، قال: لا أستطيع، قال: فاستعد إذن للجواب عليهما.

سادسًا: يؤمر يوم القيامة بأن خذوا المذنبين إلى جهنم، فقل أنت: لن أذهب، فقال: هذا كاف وتاب في الحال، ومضت على توبته ستة أعوام ثم رحل عن الدنيا.

يروى أنهم سألوا إبراهيم: ما سبب أننا ندعو الله فلا يستجيب؟ قال: لأنكم تعرفون الله ولا تطيعونه، وتعرفون الرسول ولا تطيعونه، ولا تتبعون سنته، وتقرأون القرآن ولا تعملون به، وتأكلون نعمة الله، ولا تشكروها، وتعلمون أن الجنة مزية للمطيعين، ولا تطلبوها، وتعرفون أن جهنم معدة بالأغلال النارية للعاصيين، ولا تفرون منها، وتعرفون أن هناك موتًا، ولا تستعدون له، وتوارون الأم والأب والأبناء التراب، ولا تأخذون العبرة من ذلك، وتعلمون أن الشيطان عدو ولا تعادونه بل وافقتموه، ولا تقلعون عن العيب، وتنشغلون بعيوب الآخرين، وأناس على هذا النحو كيف يستجاب لهم دعاء^(١).

يروى أنه سئل: ما يفعل الرجل حين يجوع وهو لا يملك شيئًا؟ قال: يصبر يومًا ويومين وثلاثة، قالوا: صبر عشرة أيام فما يفعل؟ قال: يصبر شهرًا، قالوا: ألا يطلب شيئًا آخر؟ قال: يصبر، قالوا: إلى متى؟ قال: حتى يموت لأن الدية على القاتل!

(١) وردت في حلية الأولياء، ج ٨ (ص ١٥).

يروى أنهم قالوا له: اللحم غال، قال: نرخصه، قالوا: كيف؟ قال: لا نشتره ولا نأكله^(١).
يروى أنه كان قد دعي ذات يوم إلى دعوة، إلا أنهم كانوا في انتظار شخص كان متأخراً، فقال واحد من الجمع: إنه رجل فظ، فقال: أيتها البطن! ماذا ينبغي لي أن أراه منك؟ ثم قال: بالقرب منا لحم يأكلونه بعد الطعام، فكلوه أنتم أولاً، ونهض في الحال لأن الغيبة هي أكل لحم الناس.

يروى أنه قصد حماماً ولبس ثياباً خلقاً، فلم يرشده إلى الطريق، فاعترفته حال، وقال: لا يرشدونني إلى بيت الشيطان ويدي خالية، فكيف يرشدونني إلى بيت الرحمن بلا طاعة.
يروى أنه قال: كنت أسير في البادية متوكلاً لثلاثة أيام، ولم أجد شيئاً، فجاء إبليس وقال: تركت الملك وتلك النعم الكثيرة الوفيرة؛ لتذهب إلى الحج جائعاً، وكان يمكنك الذهاب إليه متجماً فلا تصيبك مثل هذه الآلام، قال: عندما سمعت هذا الكلام منه، اعتليت مرتفعاً وقلت: إلهي أَسْلَطَ العدو على الحبيب، وتجعله يحرقني، أغثني فإنني أستطيع أن أقطع هذه البادية بمددك، فجاء هاتف: يا إبراهيم! إلق بما تملكه في جيبك لنظهر لك ما في الغيب، فوضع يده في جيبه وكانت فيه أربع قطع من الفضة كان قد نساها، وقال: عندما ألقيتهم، فرّمني إبليس واعترتني قوة من الغيب^(٢).

يروى أنه قال: كنت قد جعت عدة أيام ذات مرة، فذهبت لقطف العنب، وكل مرة ملأت فيها طرفي بالعناقيد، كانوا يضربونني ويأخذونها مني، وهكذا فعلوا أربعين مرة، وفعلت ذلك أيضاً، في المرة الحادية والأربعين، لم يقولوا شيئاً؛ فسمعت صوتاً: إن الأربعين مرة هذه في مقابل الأربعين درعاً ذهبياً تلك التي كانوا يحملونها أمامك^(٣).

يروى أنه قال: منحت حديقة ذات مرة لرعايتها، فجاء صاحبها وقال لي: آتني رماناً حلواً، أحضرته له فكان حامضاً، فقال: آتني رماناً حلواً، فأحضرت طبقاً آخر فكان حامضاً أيضاً، فقال: سبّحان الله؛ أتظل في الحديقة زمناً طويلاً، ولا تعرف الرمان الحلو، قال: إنني أحفظ بستانك، ولا أعرف طعم الرمان لأنني لم أذوقه، فقال الرجل: أظن أنك إبراهيم بن أدهم بزهدك هذا، وعندما سمعت هذا رحلت من هناك^(٤).

(١) وردت في حلية الأولياء، ج٨ (ص ٣٢)، الرسالة القشيرية (ص ١٣).

(٢) وردت في كشف المحجوب (ص ٣١٤) مع الاختلاف.

(٣) وردت في حلية الأولياء، ج٧ (ص ٣٧٩) مع الاختلاف، الرسالة القشيرية (ص ١٣، ١٤)، صفة الصفوة، ج٤ (ص ٣١٤) مع الاختلاف.

(٤) وردت في حلية الأولياء، ج٧ (ص ٣٦٨)، صفة الصفوة، ج٤ (ص ١٣٧).

يروى أنه قال: رأيت جبريل في المنام وقد هبط من السماء إلى الأرض، وفي يده صحيفة، فسألته: ماذا تفعل؟ قال: أسجل أسماء أحياء الحق، فقلت: اكتب اسمي، قال: إنك لست منهم، قلت: أنا حبيب أحياء الحق، ففكر لحظة ثم قال: أمرت أن أسجل اسم إبراهيم أولاً، فالأمل في هذا الطريق ييزغ من اليأس.

يروى أنه قال: خبأت نفسي في حصيرة في مسجد بيت القدس ذات ليلة؛ لأن الخدم لا يسمحون لأحد بأن يظل في المسجد، ولما مضى جزء من الليل، فتح باب المسجد، ودخل شيخ يرتدي قميصاً خشناً وخلفه أربعين شخصاً ارتدى كل منهم قميصاً خشناً، اتجه الشيخ إلى المحراب ليصلي ركعتين، واستند إلى المحراب. فقال أحدهم: في هذا المسجد الليلة شخص ليس منا فابتسم ذلك الشيخ وقال: إنه ابن أدهم، لم يجد حلاوة العبادة مدة أربعين يوماً. عندما سمعت هذا، خرجت وقلت: كيف عرفت ذلك؟ بالله عليك قل لأي سبب كان هذا؟ قال: اشتريت تمرًا من البصرة في اليوم الفلاني، وكانت ثمرة قد وقعت، وظننت أنها ملك لك، ورفعتها ووضعتها على تمر. عندما سمعت هذا ذهبت إلى بائع التمر، وطلبت الحل منه، فأحلني، وقال: طالما أن الأمر بهذه الدقة أترك بيع التمر، وتاب عن ذلك العمل، وأطاح بدكانه، وصار من جملة الأبدال.

يروى أن إبراهيم كان يمضي في الصحراء ذات يوم، فتقدم إليه جندي، وقال: من أنت؟ قال: عبد، قال: أين العمار؟ فأشار إلى القبور، فقال ذلك الرجل: أتستخف بي، وضربه عدة مقارع على رأسه، وهشم رأسه، وسال الدم، وربط حبلًا في رقبته، وأخذ يمضي. فقدم أهل المدينة، وعندما رأوا الأمر هكذا قالوا: أيها الجاهل! إنه إبراهيم بن أدهم وليّ الله، فجثا ذلك الرجل على قدميه وطلب منه المعذرة، وكان يريد منه الحل، وقال: قلت لي أنا عبد، قال: ومن ليس بعبد. قال: إنني هشمت رأسك وأنت دعوت لي، قال: برغم معاملتك لي كنت أدعوك بالخير فكان نصيبي من معاملتك الحسنة، ولم أرد أن يكون نصيبك الجحيم، قال: لماذا أشرت إلى القبور، وأنا أردت العمار؟ قال: لأنها تكون أكثر عمارًا كل يوم، وتكون المدينة أكثر خرابًا. قال أحد أولياء الحق: رأيت أهل الجنة في المنام وقد حمل كل منهم طرفه، فقلت: ما تلك الحال؟ قالوا: هشم جاهل رأس إبراهيم بن أدهم، وحين يحضرونه إلى الجنة، يصدر الأمر بأن تنشر الجواهر على رأسه، وهذه الأطراف والتلابيب مرفوعة لهذا.

يروى أنه مرّ على ثمل ذات مرة، وكان فمه ملوثًا، فأحضر ماء، وغسل فم ذلك الثمل، وكان يقول: من يترك فمًا يجري عليه ذكر الحق ملوثًا، يكون بلا حرمة، عندما استيقظ هذا الرجل، قالوا له: غسل زاهد خراسان فمك، فقال ذلك الرجل: وأنا تبت أيضًا، ثم رأى إبراهيم في المنام بعد ذلك أنهم قالوا له: غسلت فمًا من أجلنا فغسلنا قلبك.

يروى أن الصنوبري^(١) يقول: كنت مع إبراهيم في بيت المقدس، فجلسنا تحت شجرة رمان عند القيلولة، وأدبنا عدة ركعات. فسمعت صوتاً من تلك الشجرة: يا أبا إسحق! أكرمنا وكل شيئاً من هذا الرمان، فأومأ إبراهيم برأسه، فكانت الشجرة تقول الكلام ذاته ثلاث مرات ثم قالت الشجرة: يا أبا محمد اشفع لي ليأكل من رماننا، فقلت: أسمع يا أبا إسحق، قال: بلى، وسأفعل. ثم نهض، وجمع رمانتين، أكل واحدة، وأعطاني الأخرى فكانت حامضة، كانت تلك الشجرة قصيرة، عندما عدت، ووصلت ثانية إلى شجرة الرمان تلك، فرأيت الشجرة قد نمت، وطاب رمانها فكانت تثمر مرتين في العام، وأطلق الناس على تلك الشجرة «رمان العابدين» ببركة إبراهيم والعبدين الذين كانوا يجلسون في ظلها.

يروى أنه كان قد جلس مع شيخ على قلة جبل، وكان يتحدث، فسأله ذلك الشيخ: ما علامة الرجل الذي وصل إلى الكمال؟ قال إبراهيم: إن قال للجبل تحرك يتحرك، وفي الحال تحرك الجبل، فقال إبراهيم: أيها الجبل، إنني لا أقول لك تحرك ولكني أمثل بك.

يروى أن الرجاء^(٢) يقول: كنت مع إبراهيم في سفينة، فهبت الريح وأظلمت الدنيا. قلت: آه غرقت السفينة، فجاء صوت من الهواء: لا تخافوا غرق السفينة؛ فإن إبراهيم بن أدهم معكم، وفي التوسكت الريح، وأضاءت الدنيا المظلمة.

يروى أن إبراهيم كان قد جلس في سفينة ذات مرة، فهبت ريح عاتية إلى حد أنها كادت تغرق السفينة، نظر إبراهيم^(٣) فرأى كراسية معلقة، رفعها، وألقاها في الهواء، وقال: إلهي! تجعلنا نغرق وكتابك بيننا، فهدأت الريح في الحال، وجاء صوت: لا أفعل.

يروى أنه أراد الركوب في سفينة ولم يكن لديه فضة، وقيل: على كل شخص أن يدفع ديناراً، فأدى ركعتين، وقال: إلهي! إنهم يريدون مني شيئاً لا أملكه، فامتلاً البحر بالذهب في الحال، فأخذ قبضة وأعطاهم لهم^(٤).

يروى أنه جلس على شاطئ دجلة يوماً، وكان يرقع خرقة البالية، ف وقعت إبرته في البحر، سأله شخص (قائلاً): هكذا فقدت الملك فما نلت؟ فأشار إلى البحر (قائلاً): أعيدوا إبرتي، فخرجت ألف سمكة من البحر، وقد أمسكت كل واحدة منها إبرة ذهبية بفمها، قال إبراهيم: أريد

(١) الصنوبري: اسم شاعر حلبي توفي عام ٣٣٤هـ ولم يكن معاصراً لإبراهيم بن أدهم. د. استعلامي (ص ٨٣٤).

(٢) الرجاء المقصود رجاء بن حيوة أبو المقدم الكندي، كان يصحب الخلفاء ويأمرهم بالمعروف، فلما مات عمر بن عبد العزيز انقطع عن صحبتهم. انظر ترجمته في صفة الصفوة، ج ٤ (ص ١٨١).

(٣) أصل الكلمة (كوراسك) وهي كلمة بهلوية ساسانية. د. استعلامي (ص ٨٣٤).

(٤) وردت في حلية الأولياء، ج ٨ (ص ٧) مع الاختلاف.

إبرتي، فخرجت سمكة ضعيفة وضعت إبرته في فمها، فقال: إن أقل شيء حصلت عليه أفضل من بقاء ملك بلخ، وها هي أشياء أخرى لا تعرفها^(١).

يروى أنه ذهب إلى حافة بئر ذات يوم، وألقى دلوًا فخرج مملوءًا بالذهب، ألقاه ثانية، فخرج مملوءًا باللؤلؤ، فقلبه وطاب وقته، وقال: إلهي! تعرض علي خزانتي، وأنا أعلم أنك قادر، وأنت تعلم أنني لا أغتر بهذا، فامتنحي الماء كي أتطهر.

يروى أنه كان يذهب للحج ذات مرة وكان معه آخرون، قالوا: لا يملك أي واحد منا الزاد ولا الراحلة، فقال إبراهيم: أتؤمنون بالله في الرزق. عندئذ قال: انظروا إلى الشجرة إن طمعتم في الذهب تصير ذهبًا، وكانت كل الأشجار قد صارت ذهبًا بقدره الله (تعالى).

يروى أن جماعة كانت تسير معه يومًا، فوصلوا إلى حصن، كان أمامه حطب كثير، قالوا: نبقى هنا الليلة فإن الحطب كثير لنحرقه، وأشعلوا النار وجلسوا على ضوئها، وكل منهم كان يأكل الخبز خالصًا، ووقف إبراهيم للصلاة، فقال أحدهم: ليتني أحصل على لحم حلال فكنت أشويه على هذه النار. ختم إبراهيم الصلاة وقال: الله قادر أن يمنحك لحمًا حلالًا، قال هذا ووقف للصلاة، فصدر زئير أسد في الحال، ورأوا أسدًا جاء ممسكًا بحمار وحشي أخذه، وكانوا يشوونه، ويأكلون منه، وكان الأسد قد جلس هناك يشاهدهم.

يروى أنه اختفى في نهاية عمره، كما أن أرضه لم تكن معلومة على وجه التحديد، يقول البعض في بغداد، ويقول البعض في الشام، ويقول البعض هناك حيث أرض لوط النبي (صلى الله عليه وسلم) الذي كان قد هبط تحت الأرض مع كثير من الخلق، فقد هرب هو إلى هناك من الخلق وتوفي هناك أيضًا.

يروى أنه حين توفي هتف هاتف: ألا إن أمان الأرض قد مات، اعلموا أن أمان الأرض قد مات، فاحتر كل الخلق في ماذا يمكن أن يكون هذا؟ حتى جاء الخبر أن إبراهيم بن أدهم (قدس الله روحه العزيز) قد مات.

(١) وردت هذه القصة نظمًا في مثنوي مولانا جلال الدين، الجزء الثاني نورد بيتين منها:

هم زابراهيم ادهم آمده ســــت كو زراهي برب دريا نشست

دلق خود مي دوخت بر ساحل روان يك اميري آمد آنجا ناگهان

نقلًا عن د. استعلامي (ص ٨٣٤، ٨٣٥).

وترجمتها:

ورد عن إبراهيم بن أدهم أيضًا:

أنه جلس على شاطئ بحر وكان يحيك مرقعته على الشاطئ فقدم أمير إلى ذلك المكان فجأة.

ذكر بشر الحافي^(١)

رحمة الله عليه



هو مبارز ميدان المجاهدة، ومجاهز إيوان المشاهدة، هو عامل معمل الهداية، وكامل حضرة العناية، هو الصوفي الصافي بشر الحافي (رحمة الله عليه).

كانت له مجاهرة عظيمة، وشأن رفيع، وكان موضع اهتمام القوم، كان قد أدرك الفضيل بن عياض، وكان مريدًا لخاله علي بن حشرم، وكان عالمًا في علم الأصول والفروع.

ولد في مرو، وكان يقيم في بغداد.

وكانت بداية توبته، أنه اضطرب زمنًا، وكان يسير ثملًا ذات يوم، فوجد ورقة مكتوب عليها «بسم الله الرحمن الرحيم»، فاشتري عطرًا، وعطرها، ووضعها بإجلال في الدار. رأى شيخ في تلك الليلة في المنام هاتفًا قال له: قل لبشر. «طيبت اسمنا فطينناك وبجلت اسمنا فبجلناك وطهرت اسمنا فطهرناك، فبعزتي لأطيبن اسمك في الدنيا والآخرة^(٢). فقال الشيخ: إنه رجل فاسق، ربما أخطأت الرؤية، فطهر، وأدى الصلاة، واستغرق في النوم، فرأى نفس المنام، وهكذا حتى المرة الثالثة. نهض في الفجر، وطلبه، قالوا: إنه في مجلس الخمر، فذهب إلى الحانة التي كان بها، وقال: أبشر هنا؟ قالوا: بلى. ولكنه ثمل وغافل، قال: قولوا له: إنني أحمل له رسالة. قال (بشر): قولوا له رسالة من التي تحملها؟ قال: رسالة الله، فبكى وقال: آه، يعاتب أم يعاقب؟! قال: انتظر حتى أقول للأصحاب، وقال: أيها الأصحاب، إنني قد دعيت، فذهبت، وألقيت عليكم السلام، والأكثر من هذا إنكم لن تروني في هذا الأمر مطلقًا، وهكذا لم يعد أي أحد يسمع اسمه إلا وكانت السكينة تصل إلى قلبه^(٣)، وسلك طريق الزهد، ومن شدة غلبة مشاهدة الحق تعالى لم ينتعل نعلًا في قدميه قط، ولهذا سمي بالحافي، وقالوا له: لماذا لا تنتعل نعلًا؟ قال: في ذلك اليوم

(١) أصله من مرو وسكن بغداد ومات بها، ولد عام ١٥٠ هـ وتوفي ٢٢٧ هـ. صاحب الفضل ابن عياض، وكان عالمًا ورعًا كبير الشأن. انظر ترجمته في حلية الأولياء، ج٨ (ص ٣٣٦)، الرسالة القشيرية (ص ١٨)، صفة الصفوة، ج٢ (ص ٢١٤)، كشف المحجوب (ص ٣١٦) من الترجمة العربية.

(٢) وردت في الرسالة القشيرية (ص ١٨)، كشف المحجوب (ص ٣١٦) من الترجمة العربية مع الاختلاف.

(٣) وردت في صفة الصفوة، ج٢ (ص ٢١٤، ٢١٥) مع الاختلاف.

الذي تم فيه الصلح، كانت قدماي عارية، لذا اخجل أن أنتعل نعلًا، ويقول الحق تعالى أيضًا: «جعلت الأرض بساطًا لكم»^(١). وليس من الأدب السير بالنعال على بساط الملوك. ووصل الأمر بمجموعة من أصحاب الخلوة إلى أنهم لم يستطيعوا الاستنجاء بالأجر، ولم يستطيعوا البصق على الأرض، لأنهم جميعًا يرون نور الله فيها، وحدث هذا أيضًا لبشر بل أن نور الله يسري في عينه، فلا يبصر سوى الله، فمن أبصرت عينه الله، لا يستطيع أن يرى سوى الله. كذلك كان سيد الأنبياء (عليهم السلام) يسير خلف جنازة ثعلبة^(٢) على أطراف أصابعه، وقال: أخاف أن أضع قدمي على رؤوس الملائكة، وما هي تلك الملائكة؟ هي نور الله، «والمؤمن ينظر بنور الله».

يروى أن أحمد بن حنبل كان يذهب إليه كثيرًا، وكان مريدًا له إرادة تامة، إلى حد أن تلاميذه قالوا: أنت عالم الآن في الأحاديث والفقه والاجتهاد، ولا نظير لك في أنواع العلوم، وتسير دائمًا في إثر مجذوب؟، أليق هذا بك؟ قال أحمد: بلى، أعلم أنني أفضل منه في كل هذه العلوم التي عددتموها. لكنه يعرف الله أفضل مني، ومن ثم كان يذهب إليه، وكان يقول: «حدثني عن ربي». يروى أن بشرًا أراد أن يدخل الدار ذات ليلة، فترك قدمًا خارجها، وظل هكذا حتى الصباح، حائرًا مضطربًا، ويقال أيضًا: إنه وقع في قلب أخته أيضًا أن بشرًا سيكون ضيفك هذه الليلة فكنست الدار، ونثرت المياه، وانتظرت مجيئه. فجأة جاء بشر كالمجذوب، وقال: يا أختاه، وارتقى السطح، ووضع قدمه، وصعد عدة درجات، وكان قد وقف على هذا الحال حتى النهار، ولما طلع النهار، نزل، وذهب لصلاة الجماعة، وعاد في الصباح. قالت له أخته: ما كان سبب وقوفك؟ فقال: ورد بخاطري أن في بغداد عدة أشخاص يلقبون ببشر: واحد يهودي، وآخر مسيحي، وثالث زردشتي، وأنا اسمي بشر، وحظيت بمثل هذه السعادة، وأسلمت، فما فعلوا هم حتى طردوا؟ وما فعلت أنا حتى حظيت بمثل هذه السعادة؟ وكنت قد بقيت حائرًا لهذا^(٣). يروى أن بلالًا الخواص قال: كنت أمضي في تيه بني إسرائيل، وكان رجل يمضي معي فألهمني قلبي أنه الخضر، قلت: بحق الحق قل: ما اسمك؟ قال: أخوك الخضر، قلت: ما تقول في الشافعي؟ قال: من الأوتاد. قلت: ما تقول في أحمد بن حنبل؟ قال: من الصديقين. قلت: ما تقول في بشر؟ قال: لن يوجد بعده مثله^(٤).

(١) وردت في حلية الأولياء، ج ٨ (ص ٣٣٦) مع الاختلاف.

(٢) ثعلبة: سمي اثنان وعشرون شخصًا من صحابة الرسول بهذا الاسم ولا يمكن القول أبهم هو المقصود.

د. استعلامي (ص ٨٣٦).

(٣) وردت في صفة الصفوة، ج ٢ (ص ٢١٨) مع الاختلاف.

(٤) وردت في الرسالة القشيرية (ص ١٩).

يروى أن أبا عبد الله الجلا يقول: رأيت ذا النون، وكانت له العبادة، ورأيت سهلاً وكانت له الإشارة، ورأيت بشراً وكان له الورع، قالوا: وأنت إلى أيهم أميل؟ قلت: لبشر بن الحارث، إنه أستاذنا.

يروى أن بشراً ملك سبع قماطر من كتب الحديث، دفنها تحت التراب، ولم يروها، قال: إنني لا أرويهما لأنني أرى شهوة في نفسي، فإذا رأيت شهوة القلب ساكنة، أرويهما.

يروى أنه قيل لبشر: قد اختلط الأمر في بغداد، بل عمها الحرام، فما تأكل؟ قال: أكل مما تأكلون، وأشرب مما تشربون. قالوا: إذن بما نلت هذه المنزلة؟ قال: بلقمة أقل من اللقمة، ويد أقصر من اليد، ولا يستوي شخص يأكل ويكي بشخص يأكل ويضحك.

ثم قال: لا يقبل الحلال الإسراف^(١). سأله شخص: بأي شيء أكل خبزي؟ فقال: كل الخبز بالعافية^(٢).

يروى أن بشراً كان يشتهي الشواء طيلة أربعين سنة، ولم يكن يمتلك ثمنه^(٣).

ويقال: إنه كان يشتهي الباقلاء أعواماً، ولم يكن قد أكلها^(٤).

يروى أن بشراً لم يكن يشرب قط من الآبار التي كان قد حفرها السلاطين. قال أحد المشايخ: كنت عند بشر، وكان البرد شديداً، ورأيت عاريًا، وكان يرتعد، قلت: يا أبا نصر إنهم يثقلون الثياب في مثل هذا الوقت، وأنت تخلعها! قال: تذكرت الدراويش، وليس لدي مال كي أواسيهم، فأردت مشاركتهم بالجسد.

سأله: بما نلت هذه المنزلة؟ قال: بأن أخفيت حالي عما سوى الله طوال عمري. قالوا: ولم لا تعظ السلاطين فهم يظلموننا؟ فقال: اعلم أن الله أعظم من أن أذكره أمام شخص لا يعرفه^(٥).

قال أحمد بن إبراهيم المتطيب: قال لي بشر: خبر معروف إنني آت إليه عندما أصلي، فبلغت الرسالة، وكنا ننتظر، أدينا صلاة الظهر، ولم يأت، وأدينا صلاة العصر، ولم يأت، وأدينا صلاة العشاء، فقلت لنفسي: سبحان الله، عندما يخلف رجل مثل بشر (الميعاد) فهذا أمر غريب، وكنت أترقب، وكنا على باب المسجد، عندما جاء بشر، أمسك بسجاده، ومضى في طريقه ولما وصل إلى (نهر) دجلة، مضى على الماء، وجاء، وتحدثوا حتى عاد وقت السحر، ومضى

(١) وردت في الرسالة القشيرية (ص ٢٠).

(٢) وردت في طبقات الصوفية (ص ٤٥) وفي الرسالة القشيرية (ص ١٩).

(٣) وردت في طبقات الصوفية (ص ٤٥)، وفي الرسالة القشيرية (ص ١٩)، صفة الصفوة، جـ ٢ (ص ٢١٦).

(٤) وردت في الرسالة القشيرية (ص ١٩). (٥) وردت في اللمع (ص ٢١٤) مع الاختلاف.

على الماء كذلك ألقيت بنفسي من السطح، وجئت، وقبلت يديه وقدميه، وقلت: ادع لي، فدعا وقال: لا تفصح (بهذا الأمر) طالما كان بشر على قيد الحياة.

يروى أن جماعة كانت عنده، وكان يتحدث عن الرضا، فقال أحدهم: يا أبا نصر، إنك لا تقبل أي شيء من الخلق ابتغاء الجاه، فلو أنك متحقق بالزهد، ومنصرف عن الدنيا خذ شيئاً من الخلق لينمحي جاهك في نظرهم، وامنح ما تأخذه منهم إلى الدراويش خفية، وتوكل، وخذ قوتك من الغيب^(١)، ضاق الأصحاب بهذا الكلام ضيقاً شديداً. قال بشر: اسمعوا الجواب، وعندئذ قال: الفقراء ثلاثة أقسام: القسم الأول: هم الذين لا يسألون قط، وإن يعطوهم لا يأخذون أيضاً، وهؤلاء القوم هم الروحانيون الذين عندما يسألون الله، يهبهم كل ما يطلبون، وإن أقسموا بالله، تبر حاجتهم في الحال. والقسم الثاني: هم الذين لا يسألون، وإن يعطون يقبلون، وهؤلاء القوم من الأواسط ويستكينون بالتوكل على الله تعالى، وهؤلاء هم القوم الذين يجلسون على مائدة الخلد. والقسم الثالث: هم الذين يصبرون، ويحفظون الوقت كلما استطاعوا، ويرفعون الدواعي. عندما سمع ذلك الصوفي الجواب، قال: رضيت بهذا الكلام، فليرضى الله عنك.

وقال بشر: وصلت إلى علي الجرجاني، وكان بجانب ينبوع ماء، ولما رأيته؛ قال هل اقترفت أي ذنب اليوم كي أرى آدمياً؟ قال: أسرع خلفه، وقلت: عظمي، فقال: تمسك بالفقر، واحيا بالصبر، وتجنب الأهواء، وخالف الشهوات، واجعل دارك اليوم أكثر خلوداً من اللحد، وكلما كان دارك كذلك، يمكنك أن تلتحق بالله مرفهاً وهانئاً في ذلك اليوم الذي يضعوك فيه في اللحد. يروى أن جماعة جاءت إلى بشر (قائلة): قد قدمنا من الشام في طريقنا إلى الحج، أترغب في صحبتنا؟ قال: بثلاثة شروط: أولاً: ألا نأخذ شيئاً قط، وألاً نطلب شيئاً قط، وإن منحنا شيئاً لا نقبله. قالوا: نستطيع الاستغناء عن الطلب والأخذ، لكن إن تيسر فتح، لا نستطيع ألا نأخذ. فقال: قد توكلتم على زاد الحجيج، وهذا هو شرح ذلك القول الذي ورد في جواب ذلك الصوفي: لو كنت قد اعترمت في القلب إنني لن أقبل شيئاً من الخلق، لكنت بهذا متوكلاً على الله.

يروى أن بشراً قال: دخلت الدار ذات يوم، فرأيت رجلاً، قلت: من أنت حتى تدخل بلا استئذان؟ قال: أخوك الخضر، وقال: ادع لي، فقال: ليسر الله لك طاعته، ويخفي طاعتك عنك. يروى أن شخصاً شاور البشر (قائلاً): أملك ألفي دينار حلالاً، وأريد التوجه إلى الحج، فقال: إنك ذاهب للفرجة، ولو أنك تبتغي مرضاة الله، اذهب، وسدد دين شخص، أو إعط يتيماً أو رجلاً فقيراً، فإن الراحة التي تحل بقلوب المسلمين في الإسلام أفضل من مائة حجة. قال: أرغب في الحج أكثر، قال: لقد حصلت على هذا المال بدون وجه حق لأنك لا تنفقه في موضعه.

(١) وردت في طبقات الصوفية (ص ٤٧).

يروى أن بشرًا مرَّ على القبور، وقال: رأيت أهل القبور كلهم كانوا يعتلون قلة جبل، ويتشاجرون، ويتنازعون بعضهم مع بعض كما لو أن شخصًا يقسم شيئًا. قلت: يا إلهي أطلعني على هذا الحال! فقيل لي: اذهب هناك، واسأل، فذهبت وسألت، قالوا: منذ أسبوع مرَّ علينا رجل من رجال الدين، وقرأ «قل هو الله أحد» ثلاث مرات، ومنحنا الثواب، ونحن نتقاسم ثوابه منذ أسبوع، ولم تنتهي حتى الآن.

يروى أن بشرًا قال: رأيت المصطفى (صلى الله عليه وسلم) في المنام، قال لي: يا بشر، ألا تدري لماذا اختارك الله من بين أقرانك، ورفع منزلتك؟ قلت: لا يا رسول الله. لأنك اتبعت سنتي، وحفظت حرمة الصالحين، ونصحت الإخوان، وأحببت أصحابي وأهل بيتي، لذا رفعك الله (تعالى) إلى مقام الأبرار^(١).

يروى أن بشرًا قال: رأيت المرتضى في المنام ذات ليلة، فقلت: عظمي، قال: ما أطيب شفقة الأغنياء على الفقراء ابتغاء ثواب الرحمن، والأطيب منها تكبر الفقراء على الأغنياء اعتمادا على كرم خالق الدنيا.

يروى أن بشرًا قال لأصحابه: سيروا فعندما يجري الماء يصير طيبًا، وحين يسكن يتغير ويتكدر.

وقال: قل لمن يريد أن يكون عزيزًا في الدنيا وشريفًا في الآخرة، اجتنب ثلاثًا: ألا تطلب حاجة من مخلوق، وألا تسيء إلى شخص، وألا تذهب إلى ضيافة شخص^(٢).

وقال: لا يدرك حلاوة الآخرة من يحب أن يعرفه الناس.^(٣) وقال: لو أن لا فائدة للقناعة قط سوى الحياة بالعزة فهذا كاف.

وقال: إذا أحببت أن يعرفك الخلق، لكانت هذه المحبة هي سر محبة الدنيا.

وقال: لا تدرك حلاوة العبادة قط طالما لا تحيل بينك وبين شهواتك بحائط حديدي^(٤).

وقال: أشد الأمور ثلاثة: السخاوة عند الضيق، والورع في الخلوة، والحديث أمام شخص تخشاه.

وقال: الورع أن تتطهر من الشبهات، وتحاسب النفس في كل طرفة عين. وقال: الزهد ملك لا يستقر إلا في قلب خال.

(١) وردت في الرسالة القشيرية (ص ١٨).

(٢) وردت في كشف المحجوب (ص ٣١٧) من الترجمة العربية.

(٣) وردت في حلية الأولياء، ج ٨ (ص ٣٤٣).

(٤) وردت في حلية الأولياء، ج ٨ (ص ٣٥٤).

وقال: الحزن ملك طالما استقر في مكان لا يرضى أن يشاركه فيه أي شيء آخر.

وقال: أفضل شيء حصل عليه عبد: المعرفة، والصبر في الفقر.

وقال: لو أن هناك خاصة لله فهم العارفون.

وقال: الصوفي من يصفي قلبه بالله.

وقال: العارفون هم قوم لا يعرفون سوى الله، ولا يعززون شيئاً سوى لله.

وقال: قل لمن يريد أن يتذوق طعم الحرية: طهر سريرتك.

وقال: من يعامل الله بصدق، تعثره وحشة عظيمة مع خلقه.

وقال: سلموا على أبناء الدنيا بمسالمتهم.

وقال: النظر إلى البخيل يقسي القلب^(١).

وقال: التأدب بين الإخوان هو الأدب.

وقال: لم أجلس مع شخص قط، ولم يجالسني شخص قط، لأننا عندما نفترق عن بعضنا، لم يتيقن لي أنه لو أننا لم نجلس معاً لكان أفضل لنا نحن الاثنين.

وقال: أنا كاره للموت ولا يكره الموت سوى شخص في شك.

وقال: لا تكون كاملاً ما لم يأمن عدوك جانبك.

وقال: إن لم تطع الله فلا تعصاه^(٢).

قال شخص أمامه: توكلت على الله، فقال بشر: لا تكذب على الله، فلو أنك كنت قد توكلت عليه، لرضيت بما يفعله.

وقال: إن أعجبك شيئاً من الكلام أصمت، وإن أعجبك الصمت تكلم^(٣).

وقال: إن شغلت في الدنيا بسجود الشكر طوال العمر، لا تفنيه بشكره، لأنه كان حديث الأعبة منذ الأزل، فاجتهد أن تكون من الأعبة.

لما حان أجله اضطرب اضطراباً عظيماً، وكان في حالة عجيبة. قالوا: لعلك تحب الحياة؟ قال: لا، ولكن الحلول في حضرة ملك الملوك أمر عسير.

يروى أنه مرض مرض الموت، فدخل شخص، وشكا من ضيق الزمان، فأعطاه قميصه، واختال به إلى دار الآخرة.

(١) وردت في حلية الأولياء، ج ٨ (ص ٣٥٠).

(٢) وردت في طبقات الصوفية (ص ٤٥).

(٣) وردت في حلية الأولياء، ج ٨ (ص ٣٤٧).

يروى أن بشرًا طالما كان على قيد الحياة، لم تكن الدواب تلقي بروثها في الطريق حرمة له؛ لأنه كان يسير في الطريق حافيًا. كان لرجل دابة، فرآها تتبرز في الطريق ذات ليلة فصاح، مات بشر الحافي، نظروا، فكان الأمر كذلك. قالوا: بما عرفت؟ قال: لأنه طالما كان على قيد الحياة، لما تبرزت دابة في الطريق في بغداد كلها، رأيت هذا على خلاف العادة فعرفت أن بشرًا مات. بعد وفاته، رأوه في المنام، فقالوا: ماذا فعل الله بك؟ قال: عاتبني، وقال: لماذا خفت مني كل هذا الخوف في الدنيا «أما علمت أن الكريم صفتي».

ورآه آخر في النوم، فسأله: ماذا فعل الحق بك؟ قال: غفر لي وقال: كل يا من لم يأكل واشرب يا من لم يشرب لأجلي^(١).

ورآه آخر في المنام، فقال: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، وأباح لي نصف الجنة وقال لي: يا بشر، لو سجدت لي على الجمر، ما أدبت شكر ما وهبتك من منزلة في قلوب عبادنا^(٢). ورآه آخر في المنام فقال: ما فعل الله بك؟ قال: قال: مرحبا يا بشر، لم يكن هناك أحب إليّ منك على وجه الأرض في تلك اللحظة التي أزهقوا فيها روحك.

يروى أن امرأة ضعيفة جاءت إلى أحمد بن حنبل ذات يوم وقالت: إنني أغزل بالمغزل على السطح، والقنديل يضيء، عندما يمر الخليفة، أيجوز أن أغزل عدة قطع على ضوء ذلك القنديل أم لا؟ فقال أحمد من أنت؟ حتى أتعلق بطرفك هذا، فهذا أمر عجيب. قالت: أنا أخت بشر الحافي، فبكى أحمد منتحبًا، وقال: مثل هذه التقوى لا تخرج سوى من أسرة بشر الحافي، وقال: لا يجوز لك، احفظي العهد، حتى لا يتعكر الماء الصافي، واقتدي بتلك القدوة الطاهرة؛ حتى تصبحي كأخيك، فإن أردت الغزل تحت مشاغلهم، لا تطاوعك يدك، وهكذا كان أخوك، كلما كان يمد يده إلى طعام كانت به شبهة، ما طاوعته يده. قالت: لي سلطان يسمونه القلب، يرغب في التقوى، ولا أستطيع السفر بدون إذنه.



(١) وردت في صفة الصفوة، جـ ٢ (ص ٢٢١) عن أحمد بن حنبل.

(٢) وردت في حلية الأولياء، جـ ٨ (ص ٣٣٦).

ذكر ذي النون المصري^(١)

رحمة الله عليه



هو إمام أهل الملامة، وشمع جمع القيامة، هو برهان المرتبة والتجريد. وسلطان المعرفة والتوحيد، هو حجة الفقر الفخري^(٢)، قطب الزمان ذو النون المصري (رحمة الله عليه).
كان من ملوك الطريقة، وسالك طريق البلاء واللامة، وله آراء عظيمة ودقيقة في الأسرار والتوحيد، وطريقة كاملة، ورياضات وكرامات وفيرة. كان أغلب أهل مصر يسمونه الزنديق، وكان البعض يحتار في أمره أيضًا، وطالما كان على قيد الحياة، كان الجميع ينكرونه، ولم يطلع شخص على حاله حتى مات. ومن ثم أخفى نفسه.

وكان سبب توبته أنهم أخبروه أن هناك زاهدًا في المكان الفلاني، قال: ذهبت لزيارته فرأيت أنه كان يعلق نفسه في شجرة، وكان يقول أيها الجسد! عاوني على الطاعة؛ وإلا أمسكت عليك هكذا حتى تموت جوعًا. فغلبني البكاء. سمع العابد صوت البكاء فقال: من يرحم شخصًا خجله قليل وجرمه كبير؟ قال: اقتربت منه وسلمت عليه، قلت: أي حال هذه؟ قال: هذا الجسد لا يستقر لي في طاعة الحق (تعالى)، ويريد الاختلاط بالخلق. قال ذو النون: ظننت أنه سفك دماء المسلمين، أو ارتكب كبيرة. قال: أما علمت أنك طالما اختلطت فإن كل شيء يتأتى من جراء ذلك. قلت: يا للهول، إنك زاهد، قال: أترى أن ترى أزهدي مني قلت: بلى، قال: اعتل هذا الجبل كي ترى. عندما اعتلته، رأيت شابًا يجلس في صومعة، وقد قطع إحدى قدميه، وألقى بها خارج الصومعة حيث كان الدود يأكلها. اقتربت منه، وسلمت عليه، وسألت عن حاله، فقال: كنت قد جلست في هذه الصومعة ذات يوم، فمرت عليها امرأة، مال قلبي إليها، وأراد جسدي أن اتبعها، أخرجت قدمًا من الصومعة، فسمعت صوتًا: ألا تخجل أن تطيع الشيطان وتقصد الفاحشة الآن بعد ثلاثين عامًا عبدت الله فيها وأطعته! فقطعت هذه القدم التي كنت قد أخرجتها من الصومعة، وجلست هنا

(١) اسمه ثوبان بن إبراهيم وقيل الفيض إبراهيم ولقبه ذو النون، أصله من النوبة وكان من قرية من قرى مصر يقال لها أخميم، كان أواخر زمانه علمًا وورعًا وأدبًا، توفي عام ٢٤٥هـ. انظر ترجمته في حلية الأولياء، ج٩ (ص ٣٣١)، الرسالة القشيرية (ص ١٥)، صفة الصفوة، ج٤ (ص ٢٦١)، كشف المحجوب (ص ٣١١) من الترجمة العربية.

(٢) ورد هذا الحديث في إتحاف السادة المتقين للزبيدي، ج٨ (ص ٢١٨).

فيها (أترقب) ما يحدث وما سيفعل بي. فلما جئت للمذنبين؟ إن أردت أن ترى رجلاً من رجال الله، إعتل قمة هذا الجبل، قال ذو النون: فلم أستطع لارتفاع ذلك الجبل، فسألت عن الخبر، قالوا: منذ زمن بعيد هناك رجل يتعبد في تلك الصومعة، وكان رجل يتناظر معه ذات يوم (قائلاً): هل الرزق بسبب الكسب، فنذر ألا يأكل قط ما كان فيه سبب كسب المخلوقات. وانقضت عدة أيام، ولم يأكل فيها قط. فأرسل الحق (تعالى) نحلاً كان يطير حوله، ويمنحه العسل. قال ذو النون: تألم قلبي ألماً عظيماً بسبب هذه الأمور والأقوال، وعلمت أن من يتوكل على الله يهيهي الله له أمره، ولا يضيع تعب. وعند عودتي رأيت طائراً أعمى جالساً على شجرة، سقط من فوقها، فقلت: من أين يتناول هذا المسكين الطعام والماء؟ فحفر الأرض بمنقاره، فظهرت سكرجتان أحدهما ذهبية مملوءة بالسمسم، والأخرى فضية مملوءة بماء الورد، شبع ذلك الطير، وطار على الشجرة، واختفت السكرجتان^(١). هنا فقد ذو النون الوعي مرة واحدة واعتمد على التوكل، وتحققت توبته. ثم سلك عدة منازل، ولما حل الليل، دخل أرض خربة، فرأى فيها آنية من الذهب والجواهر، مكتوب عليها بسم الله، اقتسم أصحابه الذهب والجواهر، وقال ذو النون: امنحوني هذه اللوحة المكتوب عليها اسم حبيبي، فأخذها، وأخذ يقبلها في ذلك اليوم حتى الليل، حتى وصل أمره ببركاتها إلى حد أنه رأى في المنام ذات ليلة أن جاءه الهاتف قائلاً: يا ذا النون، رضوا جميعاً بالذهب والجواهر لأنها ثمينة، ورضيت أنت بما هو أسمى من ذلك وهو اسمنا، فلا جرم أننا سنفتح عليك باب العلم والحكمة.

ثم عاد إلى المدينة، وقال: كنت أمضي ذات يوم، فوصلت إلى شاطئ نهر، ورأيت قصرًا، فذهبت إلى حافة الماء، وتطهرت، ولما فرغت، وقعت عيني فجأة على سطح القصر، فرأيت جارية شديدة الجمال واقفة في شرفة القصر، أردت أن أختبرها فقلت: أترغبين أيتها الجارية؟ قالت: يا ذا النون، لما ظهرت من بعيد ظننت أنك مجنون، وحينما اقتربت ظننت أنك عالم، وحينما اقتربت أكثر ظننت أنك عارف، ثم نظرتك فلا أنت مجنون ولا عالم ولا عارف، قلت: من أكون إذن؟ قالت: إن كنت مجنوناً لما تطهرت، وإن كنت عالمًا لما نظرت إلى غير محرم، وإن كنت عارفًا لما وقعت عينك على ما دون الحق. قالت هذا، واختفت، فعلمت أنها لم تكن آدمية، إنما كان هذا تحذيرًا لي أشعل النار في روحي، وألقيت بنفسي في البحر، فرأيت جماعة كانوا يجلسون في سفينة، وجلست أنا أيضًا في السفينة، ولما انقضت عدة أيام، فقدت جوهره لتاجر في السفينة، فكانوا يأخذون أهل السفينة واحدًا واحدًا ويفتشون عنها، واتفقوا (قائلين): إنها معك، ثم آذوني واستهزأوا بي كثيرًا، وكنت صامتًا، ولما جاوز الأمر الحد، قلت: أيها الخالق،

(١) وردت في الرسالة القشيرية (ص ١٥).

أنك تعلم (الأمر) فظهرت آلاف الأسماك من البحر في فم كل واحدة جوهرة. أخذ ذو النون واحدة وأعطاهما إلى ذلك التاجر. ولما رأى أهل السفينة ذلك، انحنوا له، وطلبوا منه المعذرة. وهكذا ارتفع شأنه في عيون الناس، ولهذا السبب سُمي ذو النون^(١).

ولم يكن لعبادته ورياضته حد. كانت له أخت في خدمته، كما أنها كانت قد أصبحت عارفة، وذات يوم كانت تقرأ هذه الآية: ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَزَلْنَا عَنْهُمْ آلْمَنَ وَالسَّلَوىَ﴾^(٢). فاتجهت إلى السماء وقالت: أرسلت المن والسلوى للإسرائيليين، ولم ترسلها لأمة محمد، بعزتك لم أتحرك ما لم تمطر المن والسلوى، وفي الحال أخذ المن والسلوى في الهطول من نافذة الدار، فخرجت من الدار، واتجهت إلى الفيافي واختفت، ولم يجدوها قط.

يروى أن ذا النون قال: كنت أطوف في الجبال ذات مرة فرأيت قومًا مبتلين كانوا قد تجمعوا، سألت ما حل بكم؟ قالوا: هنا عابد في الصومعة، يخرج مرة كل عام، ويتنفس نفسًا في هؤلاء القوم، فيشفى الجميع، ثم يدخل الصومعة ثانية، ولا يخرج حتى العام التالي. صبرت حتى خرج، فرأيت رجلًا أصفر الوجه نحيفًا، غائر العينين، فارتعدت من هيئته، ثم نظر إلى الخلق بعين الشفقة، وعندئذ نظر إلى السماء، وتنفس عدة أنفاس في هؤلاء المرضى، فشفوا جميعًا. ولما أراد أن يدخل الصومعة، أمسكت بطرفه وقلت: بالله، عالجت علة الظاهر فعالج علة الباطن، فنظر إليّ وقال، اتركني يا ذا النون، فإن الحبيب ينظر من أوج العظمة والجلال، وعندما يراك تتشبث بشخص آخر سواه يتركك له، ويتركه لك، وتهلكان واحدًا بالآخر، قال هذا ودخل الصومعة.

يروى أن أصحاب ذي النون دخلوا ذات يوم فوجدوه كان يبكي، قالوا: ما سبب البكاء؟ قال: غفلت عيني في سجدة بالأمس، فرأيت الله، قال: يا أبا الفيض، خلقت الخلق على عشرة أقسام، وعرضت الدنيا عليهم، فاتجهت تسعة أقسام منها إلى الدنيا وبقي قسم. وانقسم هذا القسم بدوره إلى عشرة أقسام، عرضت الجنة عليها فاتجهت إليها تسعة أقسام وبقي قسم انقسم بدوره إلى عشرة أقسام: عرضت عليهم جهنم، ففرت جميعًا، وتفرقت خوفًا منها، وبقي قسم لم يفتن بالدنيا، ولم يرغب في الآخرة، ولم يخش الجحيم. فقلت لعبادي: أنتم الذين لم تنظروا إلى الدنيا، ولم ترغبوا في الجنة، ولم تخشوا الجحيم، ما تطلبون؟ فرفعوا رؤوسهم جميعًا وقالوا: أنت تعلم ما نريد^(٣).

(١) وردت هذه القصة في حلية الأولياء ج٩ (ص ٣٥٧) مع الاختلاف، وهي تشبه قصة مالك بن دينار وإبراهيم بن أدهم.

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٦٠).

(٣) يجوز أنها ﴿وَإِنَّكَ لَنَافِلٌ مَّا تُرِيدُ﴾ سورة هود، الآية (٧٩)، وردت على لسان قوم هود إلى هود.

يروى أن طفلاً دخل ذات يوم على ذي النون، وقال: لدي مائة ألف دينار، وأريد أن أنفقها في خدمتك، وأعطى ذلك المال لدرأويشك، قال ذو النون: هل أنت بالغ؟ قال: لا، قال: لا يجوز لك الإنفاق فاصبر حتى تبلغ. ولما بلغ الطفل، جاء وتاب على يد الشيخ، وأعطى ذلك الذهب للدرأويش حتى أنفق المائة ألف دينار. ذات يوم وقع أمر ولم يبق شيء للدرأويش بنفقونه. فقال الطفل: واأسفاه، أين (أجد) مائة ألف (دينار) أخرى حتى كنت أنفقها على هؤلاء الأسخياء، سمع ذو النون هذا الكلام، فعرف أنه لم يدرك حقيقة الأمر بعد، فالدنيا مهمة وأكثر خطراً عنده. دعا ذو النون ذلك الطفل وقال: اذهب إلى دكان فلان العطار، وبلغه عني أن يمنحك الدواء الفلاني بثلاثة دراهم، فذهب، وأحضره. قال: دقه في الهاون واسحقه، حينئذ صب عليه قليل من السمن حتى يصير عجينة، واصنع منه ثلاث حلقات، واثقب كل واحدة بالإبرة، وأحضرها إليّ. فعل الطفل ما طلبه منه، وأحضره، مسحها ذو النون بيده، وتنفس فيها، فصارت ثلاث قطع من الياقوت لم يكن قد رأى مثلها قط من قبل. قال: احملها إلى السوق، وقدر ثمنها، ولكن لا تبعها، فحملها الطفل إلى السوق، وعرضها، فطلبوا الواحدة بألف دينار، عاد، وقال للشيخ، قال ذو النون ضعها في الهاون، واسحقها، وألق بها في الماء، ففعل كما قال، وألقى بها في الماء. قال أيها الطفل هؤلاء الدراويش ليسوا جوعى بسبب انعدام الخبز، لكن هذا هو اختيارهم، فتاب الطفل، وتنبه، ولم يبق لهذه الدنيا مكان في قلبه.

يروى أن بشراً قال: دعوت الخلق ثلاثين عاماً، فقدم شخص واحد إلى حضرة الله كما ينبغي، وهو ابن ملك، مرّ عليّ مع كوكبة من أمام المسجد، وكنت أقول هذا القول: ليس هناك من هو أحق من ضعيف يشتبك مع قوي، فدخل، وقال: أي قول هذا، قلت: أيشتبك الأدمي الضعيف مع الله (تعالى) القوي! فتغير لون الشاب، ونهض، وانصرف. عاد في اليوم التالي وقال: ما الطريق إلى الله؟ قلت: طريق صغير وطريق كبير، أيهما تريد، إن أردت الطريق الأصغر فاترك الدنيا والشهوات والذنوب، وإن أردت الطريق الكبير، فدع ما دون الحق، واجعل القلب فارغاً عن الجميع، قال: «والله لا أختار إلا الطريق الأكبر» وفي اليوم التالي ارتدى الصوف، وانخرط في العمل، وصار من الأبرار.

قال أبو جعفر الأعور: كنت عند ذي النون، وكان معه جمع من الرفاق كانوا يحكون عن عبادة الجمادات، وكان لوح قد وضع هناك في ذلك المكان. قال ذو النون: طاعة الجمادات للأولياء هي: أن أقول لهذا اللوح در فأخذ في الدوران حول الدار في الحال، وعاد إلى مكانه، كان شاب حاضراً هناك، رأى تلك الحال فغلبه البكاء حتى أسلم الروح، فغسلوه على نفس اللوح ودفنوه. يروى أن شيخاً قدم إليه، وقال: عليّ دين، ولا أملك شيئاً قط كي أؤديه، فرفع حجراً من

الأرض، وأعطاه له، فحمل الرجل الحجر إلى السوق، فكان قد صار زمردًا، باعه بأربعمائة درهم، وسدد الدين.

يروى أنه كان هناك شاب ينكر التصوف دائمًا، ذات يوم أعطاه ذو النون خاتمه، وقال: احمله إلى السوق، وارهنه بدينار. فمضى الشاب، وحمل الخاتم إلى السوق، فلم يكونوا ليأخذوه بأكثر من درهم، وأخبره الشاب بالأمر، فقال له: احمله إلى باعة الجواهر، وانظر ماذا يريدونه! (ما يدفعونه) فحملة فطلبوه بألف دينار فأخبره، فقال للشاب: إن علمك بحال الصوفية كعلم أولئك التجار بهذا الخاتم، فتاب الشاب وعدل عن أفكاره.

يروى أن ذا النون كان يشتهي السكباغ طيلة عشر سنوات، ولم يكن يفصح لنفسه عن تلك الرغبة، وكانت ليلة عيد، فقالت النفس: ما يحدث إن تمنحنا لقمة سكباغ في العيد! قال أيتها النفس إن أردت أن أفعل ذلك فعاونيني هذه الليلة على أن أقرأ القرآن كله في ركعتين، طوعته النفس، فأعد السكباغ في اليوم التالي، ووضعه أمامه، ونظف أصابعه، ووقف للصلاة قالوا: وما حدث؟ قال: قالت النفس لي في هذه اللحظة حققت رغبة العشر سنوات أخيرًا.، فقلت بالله لن تحققيها. وذلك الشخص الذي كان يحكي هذه الحكاية قال: بينما كان ذو النون في ذلك القول حتى دخل رجل بقدر من السكباغ، وضعه أمامه، وقال: أيها الشيخ! إنني لم أجد (من تلقاء نفسي) فقد أرسلت إليك، واعلم أنني رجل جمال. ولدي أطفال يطلبون السكباغ منذ مدة، وكنت أجمع الفضة، وأعددت هذا السكباغ أمس ليلة العيد، واليوم استغرقت في النوم، فرأيت جمال زينة العالم الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) قال: إن أردت أن تراني غدًا احمل هذا إلى ذي النون، وقل له: إن محمدًا بن عبد الله بن عبد المطلب يشفع عندك، فصالح نفسك لحظة، وتناول عدة لقم، بكى ذو النون وقال: سأنفذ الأمر.

يروى أنه عندما علا شأنه لم تكن عين لشخص تقع على أمره، وكان أهل مصر يرمونه بالزندقة، واتفق الجميع على هذا. واطلع الخليفة المتوكل^(١) على أحواله فأرسل شخصًا، وتم إحضاره إلى بغداد، وقيدوا قدميه. ولما وصل إلى حضرة الخليفة. قال: تعلمت الإسلام الآن من عجوز والمروءة من سقاء قالوا: كيف؟ قال لما وصلت إلى حضرة الخليفة، ورأيت تلك الحضرة العظيمة والحجاب والخدم، أردت أن يبدو عليّ قليل من التغير، فتقدمت امرأة بعصاة، ونظرت إليّ وقالت: أيها الجسد لا تخشى من يحملونك إليه، فأنت وهو كلاهما عبدان لإله واحد

(١) المتوكل: هو جعفر المتوكل على الله بن المعتصم بن الرشيد الخليفة العباسي العاشر، ولد بقم الصلح عام ٢٠٦هـ، وتولى الخلافة عام ٢٣٢هـ، واستمر خليفة إلى أن قتل عام ٢٤٧هـ.

محمد بك الخضري، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة العباسية (ص ٣٤٦).

جل جلاله ولا يستطيعون أن يفعلوا مع عبد شيئاً قط ما لم يرد الله، ثم رأيت سقاء في الطريق أعطاني ماءً طاهراً؛ فأشرت إلى الرجل الذي كان معي فأعطاه ديناراً، لم يقبله وقال: إنك أسير وليس من المروءة أخذ شيء من أسير وغريب ومقيد مثلك. ثم صدر أمر، أحملوه إلى السجن، وأن يظل في الحبس أربعين يوماً بلياليها. كل يوم كانت أخت بشر الحافي تحمل إليه رغيفاً من صنعها، وفي ذلك اليوم الذي كان سيخرج فيه من السجن، كانت الأرغفة الأربعون موضوعة ولم يكن قد تناول أحدها. ولما سمعت ذلك أخت بشر، حزنت، وقالت: إنك تعلم أن تلك الأرغفة كانت حلالاً وبلا منة، فلماذا لم تأكلها؟ قال: لأن وعاءها لم يكن طاهراً أي أنها كانت تمر على يد حارس السجن، ولما خرج من السجن وقع، وأصيب جبينه، ويروى أنه نزف دماءً غزيرة لكن لم تسقط قطرة على وجهه أو شعره أو ثيابه، وما سقط على الأرض، اختفى كله بأمر الله (عز وجل). ثم حملوه إلى الخليفة، فطلب منه شرحاً لقوله، فشرح ذلك القول، فأخذ المتوكل في البكاء، وعجب كل أركان الدولة لفصاحته وبلاغته، وصار الخليفة مريده، وأعاده معززاً مكرماً.

يروى أن أحمد السلمي^(١) قال: توجهت إلى ذي النون، فرأيت طستاً ذهبياً أمامه، وحوله رائحة ذكية من المسك والعبير. قال لي: إنك تذهب إلى الملوك حيث المسك فخفت من ذلك وعدت، ثم أعطاني درهماً، كنت أنفق منه في بلخ.

يروى أن مريداً كان لذي النون - حظي بأربعين أربعينية، ووقف أربعين موقفاً، وترك نوم الليل أربعين عاماً، ومكث أربعين أخرى في حراسة حجرة القلب - قدم إلى ذي النون ذات يوم، وقال: فعلت كذا وكذا، ومع كل هذه المشقة لا يتحدث الحبيب معنا، ولا يلقي نظرة علينا، ولا يساويننا بشيء قط، ولا ينكشف لي شيء قط من عالم الغيب، وكل ما أقوله هذا لا أمدح به نفسي (لكنني) أشرح حالي، أدت ما استطاعه عجزي، ولا أشكو من الحق، بل أشرح حالي، فقد وضعت روحي وقلبي في خدمته، لكنني أقص همّ شقائي، وأحكي حكاية سوء طالعي، ولا أقول هذا كي أقطع قلبي عن الطاعة، لكنني أخشى إن طال عمري تكون البقية كذلك - وكنت أدق الحلقة طوال عمري على أمل، فلم أسمع صوتاً قط، وعلى هذا يشق عليّ الصبر، أنت الآن الطبيب الشافي، والمعالج العارف فتدبر لعجزي، فقال ذو النون: اذهب، واشبع الليلة، ولا تصل صلاة العشاء. ونم طول الليل، فإذا لم يرق الحبيب، يعاتب، وإذا لم ينظر إليك بالرحمة، ينظر إليك بالعنف. ذهب الدرويش وشبع، ولم يطاوعه قلبه على ترك صلاة العشاء فأداها ونام، فرأى المصطفى عليه الصلاة والسلام في المنام قال: يقرئك حبيبك السلام، ويقول: من يأت إلى

(١) أحمد السلمي: أحمد بن محمد السلمي كان يعيش في القرن الثالث الهجري وعاصر ذا النون. د. استعلامي (ص ٨٣٧).

حضرتنا ويجهر بسرّه يكون مخنثاً وجباناً لأن الاستقامة هي الأصل والأساس في العمل، ويقول الحق تعالى: حققت مرادك أربعين عاماً، وجعلتك تدرك كل ما تتمنى، ومع أنني أحقق مرادك، لكن بلغ سلامنا إلى ذلك العيار المدعي ذي النون، وقل له: أيها المدعي الكاذب! إذا لم أشهر الفضيحة، لما كنت ربك فلا تسلك سبيل المكر مع عاشقي الحضرة ومساكينها، ولا تنفرهم من حضرتنا فاستيقظ المريد، وغلبه البكاء. فذهب إلى ذي النون، وقص حاله، سمع ذو النون هذا الكلام (وقال): قد بعث لي الله السلام، ووصفني بالمدعي الكاذب، وكان يتقلب على جانبيه من السرور، وكان يبكي في صخب. إن قال شخص: كيف؟ أيجوز أن يقول: لشخص لا تصل، ونم؟ أقول: هم أطباء، وأحياناً يعالج الطبيب بالسم، طالما كان يعلم أن انبلاج أمره في هذا، أمره بذلك لأنه علم أنه محفوظ، ولا يمكن ألا يصلي كما أمر الحق (تعالى) الخليل (عليه السلام) بأن اذبح ابنك وعلم أنه لن يفعل، (وهكذا) تحدث أشياء في الطريقة لا تستقيم في الظاهر مع الشرع، مثلما أمر الخليل بالقتل، ولم يرد، وكما لم يأمر الخضر بقتل الغلام وأراد. ومن لم يدرك هذا المقام، ويضع قدميه هناك، كان زنديقاً وإباحياً وجديراً بالقتل. ولو أن كل شيء يفعله يكون موافقاً للشرع.

يروى أن ذا النون قال: رأيت في الطواف أعرابياً نحيفاً وذابلاً وهزلاً فقلت له: «هل أنت محب؟ قال: بلى، قلت: أحبيك قريب إليك أم بعيد عنك؟ قال: قريب. قلت: أيوافقك أم لا؟ قال: بلى. قلت: سبحان الله، محبوبك قريب منك وأنت في هذا الألم والوهن، قال الأعرابي: أيها البطل، أما علمت أن عذاب القرب والموافقة أشد من عذاب البعد والمخالفة».

يروى أن ذا النون قال: رأيت امرأة في بعض أسفاري، سألتها عن غاية المحبة، فقالت: أيها البطل، لا غاية للمحبة، قلت: لماذا؟ قالت: لأنه لا غاية للمحبيب.

يروى أن أحاً من أولئك القوم الذين ذكروا بالمحبة ذهب إليه، فرآه مبتلياً ببلاء، قال: لا يحب الحق من يتألم من دائه، قال ذو النون: لكنني أقول: لا يحبه من يشهر نفسه بمحبته، فقال ذلك الرجل: أستغفر الله وأتوب إليه.

يروى أن ذا النون مرض، فدخل رجل لعيادته، ثم قال: يطيب ألم الحبيب، فغضب ذو النون غضباً شديداً، وقال: إن كنت تعرفه، لما ذكرت اسمه بهذه السهولة.

يروى أن ذا النون كتب رسالة إلى بعض الأصحاب (فحواها): ليسترني الحق (تعالى) ويسترك برداء الجهل، ويجلب تحت هذا الرداء ما يرضيه، فما أكثر المستورين تحت ستره، فإنه العدو الباقي.

يروى أن ذا النون قال: كنت في سفر، وكانت الصحراء ممتلئة بالثلوج، ورأيت زردشياً

ملقيًا بطرفه على رأسه، وكان يمضي في الصحراء الممتلئة بالثلوج وكان ينثر الحب، فقال ذو النون: أيها القروي، لما تنثر الحب، قال: لا تجد الطيور قوتها، أنثر الحب حتى تثمر هذه البذور، ويرحمني الله بها. قلت: إنه لا يقبل من زردشتي الحبة الغريبة. قال: إذا لم يقبلها، فهو ينظر إلى ما أفعله، قلت: بلى، قال: يكفيني هذا. ثم قال ذو النون: عندما ذهبت للحج، رأيت ذلك الزردشتي في الطواف كالعاشق، قال: أرأيت يا أبا الفيض أنه رأى وقبل، وأثمرت تلك البذور، ووهبني المعرفة ومنحني الدليل، ودعاني إلى بيته، فاضطرب ذو النون لذلك الكلام، وقال: يا إلهي، أتبيع الجنة رخيصة بحفنة حب للزردشتي ذي الأربعين عامًا! فنادى هاتف: من يدعوه الحق (تعالى) لا يدعوه بعلة، ومن يطرده لا يطرده بعلة، أصمت أنت يا ذا النون، إنه قال «الفعال لما يريد» ولا يستقيم هذا بقياس عقلك.

يروى أن ذا النون قال: كان لي رفيق فقير، مات، فرأيت في المنام، قلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، وقال: غفرت لك لأنك لم تأخذ شيئًا قط من دهماء الدنيا هؤلاء، مع احتياجك^(١). يروى أن ذا النون قال: لم أشبع من خبز وماء قط، فلم أرتكب معصية لله أو قصدت المعصية. يروى أن ذا النون كلما أراد الوقوف للصلاة، كان يقول: يا إلهي، بأي قدم أجيء إلى حضرتك، وبأي عين أنظر إلى قبلتك، وبأي لسان أتحدث بسرك؟ وبأي لغة أنطق اسمك؟ أغنيتني دون غنى فجئت إلى الحضرة، وطالما كانت هناك ضرورة، تمسكت بالحياة.

وعندما كان يقول هذا، كان يستمر في التكبير. وكثيرًا ما كان يقول: اليوم الذي يصيبني فيه حزن، أشكو له، فإن ابتلاني هو بالحزن غدًا، فلمن أشكو؟

وكان يقول في المناجاة: «اللهم لا تعذبني بذل الحجاب». وقال سبحانه الله الذي حجب أهل المعرفة عن جملة خلق الدنيا بحجب الآخرة، وعن جملة خلق الآخرة بحجب الدنيا. وقال: أشد حجب النفس الرؤية.

وقال: لا تستقر الحكمة في معدة امتلأت بالطعام.

وقال: الاستغفار بدون الإقلاع عن الذنب توبة الكاذبين.

وقال: المبارك من كان شعار قلبه الورع، وكان قلبه منزهاً عن الطمع، ومحاسب لنفسه فيما صنع.

وقال: صحة البدن في قلة الطعام، وصحة الروح في قلة الذنوب.

وقال: لا عجب ممن يتلى ببلاء ويصبر، بل العجب ممن يتلى ببلاء ويرضى.

(١) وردت في طبقات الصوفية (ص ٢٥)، كشف المحجوب (ص ٦٠٥) من الترجمة العربية.

وقال: الناس الخائفون سائرون في الطريق، وطالما ذهب الخوف من قلوبهم، ضلوا الطريق.

وقال: الخائف من الله، على الطريق القويم، وطالما ذهب الخوف، ضل الطريق.

وقال: علامة غضب الله على العبد خوفه من الفقر.

وقال: يفسد الرجال بستة أشياء:

أولاً: ضعف الاعتقاد في الآخرة.

ثانياً: وحدتهم التي كانت قد جعلتهم رهناً للشهوات.

ثالثاً: طول الأمل الذي كان قد غلب غلبهم مع قرب الأجل.

رابعاً: أنهم يفضلون رضا المخلوق على رضا الخالق.

خامساً: أنهم يتبعون الهوى.

سادساً: أنهم يجعلون زلة السلف حجة لهم، وأخفوا فنونهم جميعها حتى بدا عليهم الفساد.

وقال: صاحب الهمة أقرب إلى السلامة ولو كان معوجاً، وصاحب الإرادة منافق وإن كان

مستقيماً. أي أن لصاحب الهمة إرادة لا تجعله يخضع لشخص قط، وليس له طلب، وصاحب

الإرادة سرعان ما يرضى، ويستقر.

وقال: لا حياة إلا مع أناس ترغب قلوبهم في التقوى، ويتجدد نشاطهم بذكر الله.

وقال: صاحب شخص لا يتغير بتغيرك.

وقال: إن أردت أن تكون من أهل الصحة، فصاحب الأصحاب كما صاحب الصديق نبي

الله ﷺ، فهو لم يخالفه قط في الدين والدنيا، لا جرم أن الحق (تعالى) سماه صاحبه.

وقال: علامة محبة الله هي اتباع حبيب الله ﷺ في الأخلاق والأفعال والأوامر والسنن.

قال: لا تصاحب الله إلا بالموافقة، ولا تصاحب الخلق إلا بالمناسبة، ولا تصاحب النفس

إلا بالمخالفة، ولا تصاحب العدو إلا بالعداوة.

وقال: لم أر طبيباً قط أجهل ممن يعالج الثمالي عند السكر، أي أنه لا جدوى للحديث مع

شخص يكون ثملاً بالدنيا، ثم قال: لا دواء للثمل سوى أن يفيق، عندئذ يعالج بالتوبة.

وقال: لا يعز الله (عز وجل) عبداً بعز أعز من أن يدلّه على ذل نفسه، ولا يذل عبداً بذل أذل

له من أن يحجبه فلا يرى ذل نفسه^(١).

وقال: الرفيق الحسن هو المعرض عن الشهوات، الحافظ للعين والأذن.

وقال: إن أنست بالخلق، فلا تطمع أن تأنس بالله قط.

(١) وردت في حلية الأولياء، ج٩ (ص ٣٧٤)، صفة الصفوة، ج٤ (ص ٣٦٤).

وقال: لم أر شيئاً قط أبلغ إلى الإخلاص من الخلوة، لأن من اختلى لا يرى سوى الله شيئاً قط، ومن يحب الخلوة، يتعلق بعمود الإخلاص^(١)، ويتشبث بركن من أركان الصدق.

وقال: تجد كل ما تبحث عنه في أول خطوة، أي إنك إذا لم تجد شيئاً فهو دليل على أنك لم تخط خطوة في هذا الطريق بعد، فطالما بقيت ذرة من وجودك لا تحظى بذرة من الطريق.

وقال: ذنوب المقربين هي حسنات الأبرار.

وقال: حين ينسبط بساط محمد، تنمحي ذنوب الأولين والآخرين على أطرافه، وتزول.

وقال: طرحت أرواح الأنبياء في ميدان المعرفة، فتقدمت روح نبينا ﷺ كل الأرواح حتى وصلت إلى روضة الوصال.

وقال: لا يمنح المحب لله كأس المحبة إلا بعد أن يحرق الخوف قلبه، ويقطعه.

وقال: أعلم أن نار الخوف بالنسبة للفراق بمثابة قطرة ماء تصب في بحر أعظم، وأنا لا أعرف شيئاً أكثر أخذاً للقلب من خوف الفراق.

وقال: لكل شيء عقوبة، وعقوبة المحبة الغفلة عن ذكر الله.

وقال: الصوفي هو الذي عندما لا ينطق، يعبر نطقه عن حقائق حاله. أي أنه لا يقول شيئاً لا يكونه، وحين يصمت تعبر معاملته عن حاله، وينطق حاله بقطع العلائق الدنيوية.

قالوا: من العارف؟ قال: رجل منهم منفصل عنهم.

وقال: العارف يكون أكثر خشوعاً كل لحظة، لأنه يكون أكثر قرباً في كل لحظة.

وقال: لا يلزم العارف حالة واحدة، لأنه في كل لحظة يعتريه حال من عالم الغيب، لا جرم أنه صاحب حال.

وقال: ينبغي على العارف أن يكون عارفاً خائفاً لا عارفاً واصفاً، أي يصف نفسه بالمعرفة، لكنه لا يكون عارفاً فإن كان عارفاً لكان خائفاً. ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(٢).

وقال: يسمو أدب العارف على كل الآداب، لأنه عرف المؤدّب.

وقال: المعرفة على ثلاثة وجوه:

الأول: معرفة التوحيد وهي لعامة المؤمنين.

الثاني: معرفة الحجة والبيان وهي للحكماء والبلغاء والعلماء.

(١) وردت في حلية الأولياء، ج٩ (ص٣٧٦، ٣٧٧)، صفة الصفوة، ج٤ (ص٢٦٤).

(٢) سورة فاطر: الآية (٢٨).

الثالث: معرفة صفات الوجدانية وهي لأهل ولاية الله، تلك الجماعة المشاهدة للحق بقلوبها؛ حتى يتجلى الحق (تعالى) عليهم ذلك التجلي الذي لا يتجلاه على شخص قط من العالمين.

وقال: حقيقة المعرفة اطلاع الحق على الأسرار، لأن لطائف أنوار المعرفة لا ترتبط بها، لأنه يمكن أيضًا رؤية الشمس بنورها.

وقال: إياك أن تكون مدعيًا للمعرفة، أي إن كنت مدعيًا لكذبًا، ومعنى آخر هو: طالما العارف والمعروف سواء في الحقيقة فما شأنك بهما؟ ومعنى آخر هو: إن كنت مدعيًا إما تصدق أو تكذب، إن صدقت فلا يمدح الصديقون أنفسهم، كما كان يقول الصديق رضي الله عنه: «لست بخير كم» وقد قال ذو النون في هذا المعنى: «أكبر ذنبي معرفتي إياه» وإن كذبت، فالعارف لا يكون كاذبًا. ومعنى آخر هو: لا تقل: أنا عارف حتى يقول هو.

وقال: الأكثر معرفة بالله هو الأكثر تحيرًا فيه، لأن من كان أقرب إلى الشمس، كان أكثر تحيرًا فيها، حتى يصل إلى حد ألا يكون هو هو.

كما سئل عن صفة العارف فقال: العارف بصير بلا علم وبلا عين وبلا خبر وبلا مشاهدة وبلا وصف وبلا كشف وبلا حجاب، فهم لا يكونون هم، ولا يقولون بأنفسهم بل إنهم يكونون بأنفسهم (ثم) (يقول) بالحق، وتكون حركتهم بحركته، وحديثهم حديث الحق وقد سرى على ألسنتهم، ونظرهم نظر الحق يسري إلى أعينهم. ثم قال: تحدث النبي ﷺ عن هذه الصفة، وحكى عن الحق تعالى أنه قال: طالما أحببت عبدًا أنا ربه أكون أذنه فيسمع بي، وعينه فيبصر بي ولسانه فيتحدث بي، ويده فيأخذ بي^(١).

وقال: الزهاد ملوك الآخرة، والعارفون ملوك الزهاد.

وقال: علامة محبة الحق هي أن يترك (العبد) كل ما يشغله عن الله، حتى ينشغل بالله فقط.

وقال: علامات القلب المريض أربع:

الأولى: أنه لا يجد حلاوة في الطاعة.

الثانية: أنه لا يخشى الله.

الثالثة: أنه لا ينظر إلى الأشياء بعين العبرة.

الرابعة: أنه لا يفهم ما يسمعه من العلم.

وقال: علامة الرجل الذي وصل إلى مقام العبودية مخالفة الهوى وترك الشهوات.

(١) إشارة إلى الحديث: "لا يزال عبي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته..."

وقال: العبودية هي أن تكون عبده في كل الأحوال مثلما هو ربك في كل الأحوال.
وقال: العلم موجود والعمل به مفقود، والعمل موجود والإخلاص فيه مفقود، والحب موجود والصدق فيه مفقود.

وقال: توبة العوام من الذنب، وتوبة الخواص من الغفلة^(١).
وقال: التوبة قسمان: توبة الإنابة وتوبة الاستجابة، وتوبة الإنابة هي: أن يتوب العبد خوفاً من عقوبة الله، وتوبة الاستجابة هي: أن يتوب خجلاً من كرم الله. وقال: على كل عضو توبة، فتوبة القلب العزم على ترك الحرام، وتوبة العين الغض عن المحارم، وتوبة اليد الإعراض عن المناهي، وتوبة القدم ترك الذهاب إلى الملاهي، وتوبة الأذن حفظها عن سماع الأباطيل، وتوبة المعدة أكل الحلال، وتوبة الفرج البعد عن الفواحش.

وقال: الخوف رقيب العمل، والرجاء شفيح المحسن^(٢).
وقال: ينبغي أن يكون الخوف أكثر قوة من الرجاء، فإن غلب الرجاء شوش القلب.
وقال: تسئل الحاجة بلسان الفقر لا بلسان الحكم.
وقال: إن دوام الفقر مع التخليط أحب إليّ من دوام الصفاء مع العجب^(٣).
وقال: ذكر الله غذاء روحي، والثناء عليه شرابها، والحياء منه لباسها.
وقال: الحياء هيبة في القلب مع وحشة مما قد يجري عليك مما لا يجب عمله.
وقال: تحملك المحبة على الكلام، ويجعلك الخجل تصمت، ويجعلك الخوف مضطرباً.
وقال: التقوى هي ألا يلوث (المرء) الظاهر بالمعاصي، والباطن بالفضول، ويكون واقفاً مع الله (عز وجل) في مقام.

وقال: الصادق من ينطق لسانه بالصواب والحق.
وقال: الصديق سيف الله (عز وجل) لم يوضع على شيء قط إلى مزقه.
وقال: الصدق لسان المحزون، وقول إلى الله (تعالى) موزون.
وقال: المراقبة أن تؤثر ما فضله الحق (تعالى). أي ألا تؤثر الأفضل، وتعظم ما عظمه الله. عندما تتأتى منك ذرة في الوجود بالإيثار، فلا تنظر إليها بطرف العين، وعدّها بفضل الله لا بفصلك، ولا تلتفت إلى الدنيا وعلائقها، وانفض يدك منها أيضاً، ولا تر وجودك في هذا الإعراض.

(١) وردت في اللمع (ص ٦٨)، كشف المحجوب (ص ٥٤١) من الترجمة العربية.

(٢) وردت في حلية الأولياء، ج ٩ (ص ٣٩٥).

(٣) وردت في صفوة الصفوة، ج ٤ (ص ٢٦٣).

وقال: الوجد سر في القلب.

وقال: السماع وارد الحق، يزعج به القلوب، وتحرص على طلبه، فمن أصغى إليه بحق تحقق، ومن أصغى إليه بنفس تزندق^(١).

وقال: التوكل هو الخروج عن طاعة آلهة متعددة، والانشغال بطاعة إله واحد، والانقطاع عن الأسباب.

وقال: التوكل هو احتفاظ النفس بصفة العبودية، وخروجها عن صفة الربوبية.

وقال: التوكل هو احتفاظ اليد بالتدبير وخروجها عن قوتها وحيلتها.

وقال: الأنس يظهر على صاحبه الوحشة من الدنيا والخلق ما عدا أولياء الحق؛ لأن الأنس بالأولياء أنس بالله. وقال: عندما أنس الأولياء بعيشهم كأنهم يتخاطبون في الجنة بلسان من نور، وعندما يشعرون بالهية في الحياة، فكأنهم يتخاطبون بلسان من نار في الجحيم.

وقال: أدنى منزلة للمؤتسسين بالله، أنهم إن احترقوا في النار، لما غابت همتهم مثقال ذرة، لأنهم يأنسون به^(٢).

وقال: علامة الأنس أن يجعلك تستوحش الخلق وتأنس بنفسك.

وقال: الفكر مفتاح العبادة، ودليل الوصول مخالفة النفس والهوى، ومخالفتها في ترك الشهوات، ومن يداوم على الفكر يرى عالم الغيب بالقلب والروح. وقال: الرضا سرور القلب بمر القضاء^(٣).

وقال: الرضا ترك الاختيار قبل القضاء، وفقدان المرارة بعد القضاء، وهيجان المحبة في عين البلاء^(٤).

قالوا: من أعلم بنفسه؟ قال: من رضي بما قسم له.

وقال: لا يتم الإخلاص سوى بالصدق فيه والصبر عليه، ولا يتم الصدق سوى بالإخلاص فيه والمداومة عليه.

وقال: الإخلاص هو الاحتفاظ بطاعة العدو حتى لا يضيع.

وقال: علامات الإخلاص ثلاث: من يستوي لديه المدح والذم، وينسى رؤية الأعمال، ولا يهتم بالثواب قط في الآخرة على ذلك العمل.

(١) وردت في اللمع (ص ٣٤٢).

(٢) وردت في حلية الأولياء، ج ٩ (ص ٣٩٥).

(٣) وردت في حلية الأولياء، ج ٩ (ص ٣٧٧).

(٤) وردت في حلية الأولياء، ج ٩ (ص ٣٤٢).

وقال: لم أر شيئاً قط أفسى من الإخلاص في الخلوة.

وقال: كل شيء يرى بالعين ينسب إلى العلم، وكل شيء يدرك بالقلب ينسب إلى اليقين^(١).

وقال: علامات اليقين ثلاث:

الأولى: النظر إلى الحق في كل شيء.

الثانية: الرجوع إليه في كل أمر.

الثالثة: طلب المدد منه في كل حال^(٢).

وقال: يدعو اليقين إلى قصر الأمل، وقصر الأمل إلى الزهد، والزهد إلى الحكمة، والحكمة تؤدي إلى النظر في العواقب.

وقال: الصبر ثمرة اليقين.

وقال: القليل في اليقين كثير في الدنيا، لأن قلة اليقين تملأ القلب بحب الآخرة. وبها يطلع على جملة ملكوت الآخرة.

وقال: علامة اليقين أن يخالف (المراء) الخلق كثيراً في الحياة، ويترك مدحهم وإن أعطوه، ويفرغ من ذمهم وإن منعه.

وقال: من أنس بالخلق، استقر على بساط فرعون، ومن غاب عن الاستماع إلى النفس بعد عن الإخلاص، ومن أخرج نصيب الحق من كل الأشياء، لا يخاف قط، لو أن كل شيء فاته دون الحق طالما يحدث حضور الحق^(٣).

وقال: كل مدح محجوب بدعواه عن مشاهدة الحق وعن حديثه، وإن حضر الحق لرجل، فلا حاجة له بالدعوى، لكن إن غاب عنه فتكون الدعوى هنا، لأن الدعوى علامة المحجوبين.

وقال: ليس مريداً من لا يكون أكثر إذعائاً لأمر أستاذه عن أمر الله.

وقال: من يراقب الله في خطرات قلبه، يعظمه الله في حركاته الظاهرة، ومن يخاف يلجأ إلى الله، ومن يلوذ بالله يجد النجاة.

وقال: من يقنع يجد الراحة من أهل زمانه، ويصير أعظم الجميع، ومن يتوكل، يستقم، ومن يتكلف فيما لا يفيد، يضيع ما يفيد.

وقال: من يخشى الله يذوب قلبه، وتتحكم محبة الله (فيه) ويكمل عقله.

(١) وردت في التعرف لمذهب أهل التصوف (ص ١٠٣).

(٢) وردت في حلية الأولياء، ج ٩ (ص ٣٥٣)، صفة الصفوة، ج ٤ (ص ٢٦٣).

(٣) وردت في حلية الأولياء، ج ٩ (ص ٣٩٥).

وقال: من يطلب طلباً عظيماً فقد خاطر مخاطرة جسيمة، ومن يعرف قدر ما يطلب، يحقر في نظره ما يجب عليه أن يفعله بقلبه.

وقال: من قل أسفه للحق فهذا دليل على أن قدر الحق قليل بالنسبة له.

وقال: لا تجالس من لا يدللك ظاهره على باطنه.

وقال: لا تحزن على مفقود، واذكر المعبود الموجود.

وقال: من يذكر الله حقيقة ينس جملة أشياء إلى جانب ذكره، ومن ينس جملة أشياء إلى جانب ذكر الله، يحفظ الله له جملة أشياء، ويكون الله عوضاً له عن كل شيء^(١).

وسئل: بما عرفت الله؟ قال: عرفت الله بالله، وعرفت الخلق بالرسول، أي الله ونور الله، فالله هو الخالق، ويمكن معرفة الخالق بالخالق، والخلق نور الله، وأصل الخلق نور محمد ﷺ ومن ثم يمكن معرفة الخلق بمحمد^(٢).

وقالوا: ما تقول في الخلق؟ قال: كل الخلق في وحشة، وذكر الحق بين أهل الوحشة غيبة. وسئل: متى يكون العبد مفوضاً؟ قال: حين يئأس من نفسه وفعله، ويلجأ إلى الله في جملة الأحوال، ولا تبقى له أي صلة سوى بالحق.

قالوا: من نصاحب؟ قال: من لا يكون له ملك، ولا ينكرك بأي حال، ولا يتغير بتغيرك، مهما كان ذلك التغير عظيماً؛ لأنك مهما ازدددت تغيراً، ازدددت حاجة إلى الصديق.

قالوا: متى يتيسر للعبد طريق الخوف؟ قال: حين يعد نفسه مريضاً، ويتعفف عن كل الأشياء خشية طول المرض.

قالوا: بأي شيء يستحق العبد المحبة؟ قال: بخمسة أشياء: الاستقامة التي ليس فيها زرع ولا ثمر، والاجتهاد الذي لا يخالطه السهو، والمراقبة لله سرّاً وجهراً، وانتظار الموت بإعداد زاد الطريق، وأن تحاسب نفسك قبل أن تحاسب.

سئل: ما علامة الخوف؟ قال: من يؤمنه الخوف عن كل المخاوف الأخرى.

قالوا: من الناس أكثر حرصاً؟ قال: من هو أكثر حفاظاً على لسانه.

قالوا: ما علامة التوكل؟ قال: من يقطع الطمع عن جملة الخلائق.

سئل مرة أخرى عن علامة التوكل؟ فقال: هو خلع الأرباب وقطع الأسباب.

قالوا: زدنا، قال: طرح النفس في العبودية وإخراجها من الربوبية^(٣).

(١) وردت في حلية الأولياء، ج٩ (ص ٣٥٣)، صفة الصفوة، ج٤ (ص ٢٦٣).

(٢) إشارة إلى فكرة النور المحمدي أو الحقيقة المحمدية. (٣) وردت في حلية الأولياء، ج٩ (ص ٣٨٠).

سئل: متى تصح العزلة؟ قال: حين تعتزل نفسك^(١).
وقالوا: على من يغلب الحزن؟ قال: على أسوأ الناس خلقاً.
سئل: ما هي الدنيا؟ قال: كل ما يشغلك عن الحق.
قالوا: من السافل؟ قال: من لا يعرف الطريق إلى الله^(٢).
سأله يوسف بن الحسين^(٣): من أصحاب؟ قال: من لا يبقى معه أنا وأنت.
وقال يوسف بن الحسين: عظمي، فقال: صاحب الله في خصومة نفسك، ولا تصاحب نفسك في خصومة الله، ولا تحقر شخصاً قط ولو كان مشركاً، وانظر في عاقبته، لأنه يمكن أن تسلب المعرفة منك، وتمنح له.
وطلب شخص عظة منه، فقال: دع باطنك لله، وامنح ظاهرك للخلق، وكن عزيزاً بالله كي يغنيك.
طلب شخص آخر من الخلق العظة، فقال (له): لا تفضل الشك على اليقين، ولا ترض عن نفسك ما لم تستكن، وإن حل بك بلاء تحمله في صبر، والزم حضرة الله.
وأراد شخص آخر العظة فقال: لا تبعثر همتك هباء، قال: اشرح لي هذا القول، فقال: لا تفكر فيما مضى، وفيما لم يأت، واحرص على الوقت.
سئل: من هم المتصوفة؟ قال: أناس يفضلون الله على كل شيء، ويفضلهم الله على الجميع.
جاء شخص وقال: دلني على الحق! قال: إن أردت الأدلة عليه فهي أكثر من أن تحصى، وإن أردت القرب منه فهو في أول خطوة لك. وقد سبق شرح هذا.
قال له رجل: إنني أعزك، قال: إن عرفت الله، لكفاك هو، وإن كنت لا تعرفه، فاطلب شخص يعرفه ليدلك عليه.
سئل عن غاية المعرفة، فقال: كل من وصل إلى غاية المعرفة، تكون علامته كما كان. أي أن يكون هناك كما كان في السابق.
سئل: ما أول درجة يرقاها العارف؟ قال: التحير ثم الافتقار، ثم الاتصال ثم الحيرة^(٤).
سئل عن عمل العارف فقال: مراقبة الحق في كل الأحوال.

(١) وردت في حلية الأولياء، ج٩ (ص ٣٥٢، ٣٦٨).

(٢) وردت في حلية الأولياء، ج٩ (ص ٣٧٢).

(٣) يوسف بن الحسين: انظر الكتاب (ص ٥٨٠).

(٤) التعرف لمذهب أهل التصوف (ص ١٣٧)، وردت في حلية الأولياء، ج٩ (ص ٣٧٤).

سئل: عن كمال معرفة النفس، فقال: كمال معرفة النفس سوء الظن بها، وعدم حسن الظن بها مطلقاً.

وقال: حقائق القلوب هي نسيان نصيب النفوس.

وقال: أبعد شخص عن الله أكثر إشارة إليه في الظاهر^(١) (أي يخفى).

كما يروى عنه أنه قال: سلكت (سبيل) التوحيد والتفريد والتجريد والتأييد والتشديد طيلة سبعين عاماً، ولم أحظ من كل هذا سوى بوهم في قبضتي.

يروى أن ذا النون عندما مرض مرض الموت قالوا: أي رغبة ترغبها؟ قال: أريد أن أعرفه ولو لحظة واحدة قبل أن أموت، ثم أنشد هذا البيت:

الخوف أمرضني والشوق أحرقني والحب أصفدني والله أحيانني
وبعدها غاب عن الوعي.

ذات يوم قال يوسف بن الحسين: (قلت له) عند الوفاة عظمي، فقال: صاحب شخص تجد السلامة في ظاهره، وتكون صحبته باعثاً لك على الخير، وتذكرك رؤيته بالله.

قالوا لذي النون عند النزح: عظنا، فقال: لا تشغلوني، فأنا في عجب من محاسنه، ثم توفي. في تلك الليلة التي فارق فيها الدنيا، رأى سبعون رجلاً الرسول في المنام، وقالوا: قال: أراد حبيب الله المبجيء، فخرجنا لاستقباله. ولما توفي، رأوا على جبينه كتابة بخط أخضر (مضمونها): «هذا حبيب الله مات في حب الله هذا قتيل الله بسيف الله».

ولما حملوا نعشه، كانت الشمس شديدة اللمع، وهبطت طيور الهواء، وحطت على بابه، وظللت نعشه من المنزل وحتى حافة القبر، وكان مؤذن يؤذن في الطريق الذي كانوا يحملونه فيه، ولما وصل إلى كلمة الشهادة، رفع ذو النون إصبعه من الكفن، فصاح الجميع: إنه على قيد الحياة، ووضعوا النعش، وكان الإصبع مرفوعاً، وهو ميت، ومهما حاولوا، لم يعد الإصبع إلى مكانه. فهاج أهل مصر الذين رأوا تلك الحال جميعاً، وقالوا: ندمنا عما كنا قد ارتكبناه معه من جفاء، وفعلوا أفعالاً على قبره لا يمكن وصفها.
رحمة الله عليه.



(١) وردت في حلية الأولياء، ج٩ (ص ٣٥٣)، صفة الصفوة، ج٤ (ص ٢٦٣).

ذكر أبي يزيد البسطامي^(١)

رحمة الله عليه



هو الخليفة الإلهي، والدعامة اللامتناهية، هو سلطان العارفين، وحنة الخلائق أجمعين، هو خبير عالم المعانة، أبو يزيد البسطامي رحمة الله عليه.

كان أكبر المشايخ وأعظم الأولياء، وكان حجة الله، والخليفة الحق، وكان قطب العالم ومرجع الأوتاد، وله رياضات وكرامات وحالات وأقوال لا تحصى. وله آراء نافذة وبليغة جدا في الأسرار والحقائق، وكان في مقام القرب والهيبة غريق الأنس والمحبة. حفظ جسده دائماً في المجاهدة، وقلبه في المشاهدة. وكانت رواياته في الأحاديث السامية، ولم يستنبط أحد قبله معاني الطريقة بهذا الحد لدرجة أنهم قالوا (عنه): إنه كان أول من وضع العلم في صحراء هذه الطريقة، وكماله ليس خافياً إلى حد أن الجنيد قال: أبو يزيد منا بمنزلة جبريل بين الملائكة، وقال أيضاً: إن نهاية ميدان جملة السائرين المتجهين إلى التوحيد هو بداية ميدان هذا الخراساني، وجملة الرجال الذين يصلون إلى طرف قدمه يضطربون جميعاً ويهوون ويفنون، والدليل على هذا القول هو أن أبا يزيد يقول: إنه يمر على البستان طوال مائتي عام ليثمر وردة مثلنا. ويقول الشيخ أبو سعيد بن أبي الخير (رحمة الله عليه): أرى ثمانية عشر ألف عالم امتلأت بأبي يزيد أي أن أبا يزيد فان في الحق. وكان جده مجوسياً من سادة بسطام^(٢).

وقد حدث له واقعة منذ كان جنيماً، وكما تقول أمه: كلما كنت أضع في فمي لقمة فيها شبهة، كانت تتحرك في بطني، ولا تستقر حتى أتقيأها، ومصدق هذا القول: إنهم سألوا الشيخ: ما هو أفضل شيء للرجل في هذا الطريق؟ قال: حسن الخلق، قالوا: إن لم يكن، قال: جسد قوي، قالوا: وإن لم يكن، قال: أذن حادة السمع، قالوا: وإن لم يكن، قال: قلب عارف، قالوا: وإن لم يكن، قال: عين بصيرة، قالوا: وإن لم يكن، قال: موت مفاجئ.

(١) هو أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي، كان جده مجوسياً يدعى سروشان وأسلم، وكانوا ثلاثة أخوة: آدم وطيفور وعلي كانوا جميعاً زهاداً وعباداً قيل إنه مات ٢٦١هـ وقيل ٢٣٤هـ. انظر ترجمته في حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٣٤)، الرسالة القشيرية (ص ٢٣)، صفة الصفوة، ج ٤ (ص ٩٩)، كشف المحجوب (ص ٣١٧) من الترجمة العربية.

(٢) وردت في كشف المحجوب (ص ٣١٨) من الترجمة العربية.

يروى أن أمه عندما أرسلته إلى الكتاب، ولما وصل إلى سورة لقمان وإلى هذه الآية: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْ لَدَيْكَ﴾^(١) وكان الأستاذ يشرح معنى هذه الآية، أثر هذا الكلام في قلب أبي يزيد عندما سمعه، فوضع اللوح، وقال: اسمح لي أيها الأستاذ أن أذهب إلى المنزل، وأتحدث مع والدتي فأذن له، قدم أبو يزيد إلى الدار، فقالت أمه: بما جئت يا طيفور؟ ربما أحضرت هدية، أو جئت لعذر، قال: لا، بل وصلت إلى آية يأمرنا الحق فيها بشكره وشكرك، وأنني لا أستطيع العمل في داريّ سيدين وقد أثرت هذه الآية في روحي، فاطلبي مني إما أن أكون طوع أمرك كلية أو أعمل له كي أكون معه كلية. قالت الأم: يا بني، تركتك لأمر الله، ومنحتك حقّي فاذهب، وكن لله.

ومن ثم رحل أبو يزيد عن بسطام، وكان يطوف في الشام وضواحيها طيلة ثلاثين عامًا، ويرتاض، وسلك مسلك اليقظة والجوع الدائمين، وخدم مائة وثلاثة عشر شيخًا وأفاد منهم جميعًا، وكان الصادق من بينهم.

وكان قد جلس أمامه، وقال: يا أبا يزيد، خذ ذلك الكتاب من الطاقة، قال أبو يزيد: أي طاقة؟ قال: تأتي إلى هنا منذ مدة طويلة، ولا ترى الطاقة! قال: كلا، وأي شأن لي بها؟ ولم أجيء للمشاهدة. قال الصادق: طالما الأمر هكذا، فاذهب، وعد إلى بسطام، فقد تم أمرك.

يروى أنهم أخبروه أنه في المكان الفلاني شيخ كبير، فذهب لرؤيته من بعيد عندما اقترب منه، رأى ذلك الشيخ، وقد بصق تجاه القبلة، فعاد في الحال، وقال: لو كان له قدر في الطريقة، لما خالف الشريعة^(٢).

يروى أن (المسافة) من داره إلى المسجد كانت أربعين خطوة، ولم يكن يبصق في الطريق قط حرمة للمسجد.

يروى أن أبا يزيد وصل إلى الكعبة بعد اثني عشر عامًا؛ لأنه كان يطرح السجادة في كل مصلى، ويؤدي ركعتين، ثم كان يمضي ويقول: ليس هذا طريق ملك الدنيا لأنه يمكن قطعه مرة واحدة، ثم ذهب إلى الكعبة، ولم يذهب إلى المدينة في ذلك العام، وقال: ليس من الأدب، أن تتبع زيارته (أي الرسول ﷺ) هذه الزيارة، (بل ينبغي) أن أحرم لها إحرامًا مستقلًا، وعاد في العام التالي، وأحرم من مشارف البادية إحرامًا خاصًا، وفي الطريق توقف في مدينة، فتبعه خلق غفير ولما خرج، تعقبه الناس، نظر الشيخ وقال: من هؤلاء؟ قالوا: إنهم سوف يصحبونك، قال: يا إلهي، أرجوك لا تحجب الخلق بك عنك، قلت: أحجبهم بي، ثم طلب أن يمحو محبته من

(١) سورة لقمان: جزء من الآية (١٤).

(٢) وردت في اللمع (ص ١٤٤)، الرسالة القشيرية (ص ٢٣)، كشف المحجوب (ص ٤٥٣) من الترجمة العربية.

قلوبهم، ويرفع مشقته عن طريقهم، وأدى صلاة الصبح ثم نظر إليهم وقال: (إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدوني). قالوا: جن هذا الرجل، وتركوه، ومضوا وهنا كان الشيخ يتحدث بلسان الله، مثلما يقولون على المنبر «حكاية عن ربه» ثم كان يمضي في الطريق، فوجد عمامة مكتوب عليها: ﴿صُمْ بُكُمْ عُمِّيْ فَهُمْ لَا يَعْقِلُوْنَ﴾^(١) فصاح صيحة، ورفعها، وقبلها، وقال: يبدو الصوفي وقد انمحي في الحق، وفنا فلا أذن له كي يسمع خطاب الخلود، ولا عين له كي يرى الجمال الأبدي، ولا لسان له كي يشي عليه ثناءً شريفاً، ولا عقل ولا علم له كي يعرفه مثقال ذرة. وهذه الآية متعلقة به.

وأرسل ذو النون مريداً إلى أبي يزيد، وقال: اذهب وقل له: يا أبا يزيد تنام طوال الليل في البادية، وتنشغل بالراحة، ومضت القافلة، فجاء المريد، وقال ذلك الكلام (للشيخ) فأجاب الشيخ: قل لذي النون، الرجل الكامل من ينام الليل كله، وينهض في الصباح، ويترك المنزل قبل نزول القافلة. ولما قصّ هذا الكلام لذي النون، بكى، وقال: لباركه الله، فلم تصل أحوالنا لهذه الدرجة بعد. فهو يطلب الطريقة بهذه البادية، ويتبغي علم الباطن بهذا السلوك.

يروى أن أبا يزيد كانت لديه ناقة، وكان قد وضع عليها متاعه. في الطريق قال شخص: مسكينة تلك الناقة فالأحمال كثيرة عليها، وهذا ظلم تام، عندما سمع أبو يزيد منه هذا القول عدة مرات، قال: أيها السخي، الناقة ليست محملة، فنظر، هل الأحمال موجودة على ظهر الناقة؟ فرأى يداً رفعتها عن ظهر الناقة، ولم تشعر الناقة بثقلها قط. فقال: «سبحان الله» يا له من أمر عجيب، قال أبو يزيد: إن أخفيت عنكم حقيقة حالي، تسلطون عليّ السنة الملامة، وإن كشفتها لكم، لا تطيقها حوصلتكم فماذا يجب أن أفعل معكم؟

ومن ثم عندما ذهب، وزار المدينة، أمر بالعودة إلى والدته، فاتجه مع جماعة إلى بسطام، وانتشر الخبر في المدينة، فذهب أهل بسطام إلى الأطراف لاستقباله، وكانت مجاملتهم ستشغل أبا يزيد، وتبعده عن الحق، ولما اقتربوا منه أخذ الشيخ رغيفاً من كمه وكان (الوقت) رمضان، ووقف يأكله، رأى الجميع ذلك، فانفضوا عنه، قال الشيخ لأصحابه: ألم تروا أنني تركت مسألة من الشرع، فرفضني الخلق جميعاً^(٢)، ثم انتظر، حتى حل الليل، وفي منتصف الليل ذهب إلى بسطام ودخل دار أمه، وأنصت، فسمع صوتاً بأن أمه كانت تتطهر، وتقول: يا إلهي، أحسن إلى غريبي، واجعل قلوب المشايخ راضية عنه، وأكرمه بالأحوال الطيبة، كان أبو يزيد يسمع ذلك فغلبه البكاء، ثم طرق الباب، قالت الأم: من؟ قال غريبك، قدمت أمه باكية، وفتحت الباب

(١) سورة البقرة: الآية (١٧١).

(٢) وردت في كشف المحجوب (ص ٢٦٢) من الترجمة العربية.

وكانت عينها قد أضررت، وقالت: يا طيفور، أتعلم لم أضررت عيني، لأنني كنت أبكي فراقك، وانحنى ظهري لأنني كابدت الحزن عليك.

يروى أن الشيخ قال: ذلك الأمر الذي كنت أعده آخر الأمور، كان أولها جميعاً وهو رضاء الأم. وقال: ما كنت أبحت عنه في جملة الرياضات والمجاهدات والغربة والخدمة، وجدته فيه (رضاء الأم). ذات ليلة عندما طلبت أمي مني ماء ذهبت لإحضاره، فلم يكن هناك ماء في القدح، ذهبت إلى الوعاء، فلم يكن فيه ماء، ذهبت إلى المجرى، وأحضرت الماء، ولما عدت، كانت قد نامت، وكانت الليلة باردة، وكنت أمسك القدح بيدي، وعندما استيقظت من النوم وتنبهت، علمت فشربت الماء، ودعت لي، لأنها رأت القدح كان قد تجمد في يدي، وقالت: لماذا لم تضعه عن يديك؟ قلت: خشيت أن تستيقظي ولا أكون حاضراً، فقالت: وارب هذا الباب، فبقيت حتى منتصف النهار لأتحقق من أنه موارب أم لا، ولا أكون قد خالفتها، وكل ما كنت أبحت عنه وقت السحر، كان يتأتى من الباب عدة مرات.

يروى أن أبا يزيد حين قدم من مكة، ووصل إلى همدان، كان قد اشترى حمصاً وتناول القليل منه، وربط الباقي في الخرقه، ولما وصل إلى بسطام، تذكره، ففتح الخرقه، فخرج النمل منها، قال: لقد أبعدت النمل عن مكانه ونهض، وحمله إلى همدان، ووضعها هناك حيث كان مقره. فالشخص الذي لا يصل إلى الغاية في «التعظيم لأمر الله» لا يصل إلى درجة «الشفقة على خلق الله».

وقال الشيخ: كنت حداً للنفس طيلة اثني عشر عاماً، وكنت أضعها في موقد الرياضة، وكنت أشعلها بنار المجاهدة، وأضعها على سندان المذمة، وأطرقها بمطرقة الملامة، حتى جعلت من نفسي مرآة، وكنت أصقلها بأنواع العبادات والطاعة طيلة خمس سنوات، وبعد عام نظرت إلى نفسي نظرة متفحصة فرأيتني متمنطقاً بزنا من الغرور والته والكبر؛ فاجتهدت خمس سنوات أخرى مكتفياً بطاعتي وعملي حتى انقطع ذلك الزنا، وأسلمت من جديد ونظرت، فرأيت كل الخلائق موتى، فكبرت عليهم أربع تكبيرات وعدت من جنازاتهم جميعاً، ووصلت إلى الله بعون الله وبلا عناء الخلق.

يروى أن الشيخ عندما كان يصل إلى باب مسجد، كان يقف برهة، ويبيكي. سئل ما هذه الحال؟ فكان يقول: أجد نفسي كامرأة محيضة، تخشى أن تدخل المسجد؛ فتلوته.

يروى أن الشيخ عزم على السفر إلى الحجاز ذات مرة ولما خرج، عاد فقالوا: إنك لم تقعد عن عزمك قط! فلماذا عدت؟ قال: اتجهت إلى الطريق، فرأيت زنجياً، مشهراً سيفه (وقال لي): إن عدت أفضل لك، وإلا أفصل رأسك عن جسدك، ثم قال لي: «تركت الله ببسطام وقصدت

البيت الحرام».

يروى أنه قال: اعترضني رجل في الطريق، وقال: أين تذهب؟ قلت: إلى الحج، قال: وما تملك؟ قلت: مائتي درهم، قال: تعال وامنحها لي، فإنني صاحب عيال، وطف حولي سبع مرات، فهذا هو حجك، قال (أبو يزيد): وهكذا فعلت وعدت. ولما علا شأنه، لم يستوعب أهل الظاهر كلامه الظاهر، والنتيجة طردوه من بسطام سبع مرات. وكان الشيخ يقول: لماذا تطردوني؟ قالوا: نظردك لأنك رجل سيئ، فكان الشيخ يقول: ما أطيب تلك المدينة التي أكون أنا أسوأ من فيها.

يروى أن أبا يزيد اعتلى سطح رباط ذات ليلة كي يذكر الله، ووقف على ذلك الحائط حتى الصباح، ولم يذكر الله، نظروا، فكان قد تبول، وكان كل بوله دمًا، قالوا: أي حال أصابتك؟ قال: ظللت متوقفاً حتى الصباح لسببين: الأول: أنه كان قد ورد قول على لساني في الطفولة، والآخر: أن العظمة كانت قد احتوتني إلى حد أن قلبي ظل حائراً، فإن كان قلبي حاضراً شل لساني، وإن تحرك لساني شل قلبي، وظللت على هذا الحال طوال الليل وحتى الصباح.

ويقول شيخ الزمان: إنه عندما أراد الخلوة للتعبد أو التفكير كان يدخل الدار ويحكم كل النوافذ، وكان يقول: أخشى أن يزعجني صوت أو نداء، وهذا حجة في حد ذاته.

ويقول عيسى البسطامي: صحبت الشيخ ثلاثة عشر عاماً لم أسمع منه قولاً خلالها، وكان من عادته أنه كان يضع رأسه على ركبته، ولما كان يرفعها، كان يتأوه، ويعود لتلك الحال مرة ثانية.

يروى أن السهلي^(١) يقول: إنه كان في حال القبض وإلا أفاد كل شخص منه فائدة كبيرة وهو في حال البسط.

وكان في خلوة ذات مرة، فجرى على لسانه «سبحاني ما أعظم شأني» وعندما أفاق قال له المريدون: [كيف] وردت على لسانك مثل هذه الكلمة؟ قال الشيخ: فليعادي إلهكم يا يزيد كم «إن قلت كلمة من هذا القبيل قطعوني إرباً إرباً، ثم أعطى كل واحد سكيناً (قائلاً): إن قلت مثل هذا الكلام اقتلوني بهذه السكاكين، وربما حدث ذلك عندما قال الكلام نفسه مرة ثانية، فعزم المريدون على قتله، وكانت الدار ممتلئة بأبي يزيد. فانزعوا لبنة من الحائط، وأخذ كل منهم يضرب بسكين، لتنفذ الضربات كرجل يضرب بسكين على الماء فلا تسبب أي جرح ولما مرت برهة، أخذت تلك الصورة تتضاءل، وظهر أبو يزيد جالساً في المحراب كصعوبة صغيرة، دخل الأصحاب، وشرحوا الحال، فقال الشيخ: إن أبا يزيد هذا الذي ترونه وذلك لم يكن أبو يزيد.

(١) الشيخ السهلي: أحد تلاميذ أبي عبد الله محمد بن علي الداستاني، ومن فحول متصوفة القرن الخامس ومشايخه.

د. استعلامي (ص ٨٣٩).

ثم قال: «الجبار نفسه على لسان عبده». إن قال شخص: كيف هذا؟ أقول: مثلما كان آدم عليه السلام في البداية يتطلع برأسه إلى الملك، وأنزل جبريل (عليه السلام) ملاكًا على مفرقه، فعاد (كان) آدم أقل قدرًا منه، فكيف يجوز للكبير أن يكون صغيرًا والعكس جائز. كالطفل في بطن أمه يزن منين، وعندما يصل إلى مرحلة الشباب يصير مائتي مَن. «وكما تجلى جبريل عليه السلام على مريم في صورة بشر»، وربما يكون حال الشيخ على هذا النحو، لكن طالما لا يمر الشخص بالتجربة، لا يفيد الشرح.

يروى أن أبا يزيد قطف تفاحة حمراء ذات مرة، ونظر إليها وقال: هذه التفاحة لطيفة، فناداه منادٍ: يا أبا يزيد، ألا تخجل أن تضع اسمنا على تفاحة، فقد أطاح الحق (تعالى) باسمك عن قلبه أربعين يومًا، قال الشيخ: أقسمت ألا أكل تفاح بسطام ما حيت.

وقال: كنت قد جلست ذات يوم، ولم يجلب بخاطري أنني اليوم شيخ زمني وسيد عصري، وعندما فكرت في هذا، علمت أن خطأ عظيمًا حدث فنهضت، واتجهت إلى خراسان، وأقمت في منزل، وأقسمت ألا أغادر المكان حتى يرسل الحق تعالى شخصًا لي، يكشفني لي، وظللت هناك ثلاثة أيام بلياليها، وفي اليوم الرابع رأيت رجلًا أعورًا، كان يقدم على راحلة، ولما نظرت إليه، رأيت فيه أثرًا للمعرفة، فأشرت إلى الناقة، قفي، وفي الحال اصطدمت قدما الناقة بياضة على الأرض، ووقفت، فنظر إليّ ذلك الرجل الأعور ثانية وقال: أهذا ما تستطيعه؟ إنني (أستطيع) أن أشفي العين العوراء، وأفتح الأبواب المغلقة، وأغرق بسطام وأهلها ومعهم أبا يزيد. قال أبو يزيد: فقدت وعيي وقلت: من أين أنت قادم؟ قال: قد طويت ثلاثة آلاف فرسخ منذ ذلك الوقت الذي أخذت فيه على عاتقك العهد، وعندئذ قال: احذر يا أبا يزيد، واحفظ قلبك، وأشاح بوجهه عني، ومضى.

يروى أن الشيخ جاور المسجد أربعين عامًا، وكان لديه رداء خاص بالمسجد وآخر خاص بالدار، وثالث خاص بمكان الطهارة.

وقال: لم أسند ظهري على حائط قط لمدة أربعين عامًا، إلا حائط مسجد أو رباط.

وقال: سيسأل الله تعالى عن كل ذرة، ويكون هذا من ذرة سابقة.

وقال: لم أكل ما يأكله الآدميون طيلة أربعين عامًا، أي أن قوتي كان من مكان آخر.

وقال: راقبت القلب أربعين عامًا، وعندما نظرت، رأيته متمنطقًا بزنا الشريك، وكان شره لأنه كان يلتفت لغير الحق، فالقلب الذي زال شره لا يميل قط سوى للحق، وطالما يسعى إلى شيء آخر، فالشرك باق.

وقال: كنت حارسًا لقلبي طيلة أربعين عامًا، وعندما نظرت رأيت العبودية والألوهية من عند الله.

وقال: كنت أطلب الله طيلة ثلاثين عامًا، وعندما نظرت، كان هو الطالب وأنا المطلوب.
وقال: (ظلمت) ثلاثين عامًا كلما أريد أن أذكر الحق أتمضمض ثلاث مرات إجلالاً له^(١).
وسأل أبو موسى^(٢) أبا يزيد: ما هو أصعب أمر رأيته في هذا الطريق؟ قال: منذ مدة كنت أحمل النفس إلى الحضرة، وكانت تبكي، وعندما حل مدد الحق كنت أحمل النفس، وكانت تضحك.

وسئل: ما أعجب أمر رأيته في هذا الطريق؟ قال: لا يحل فيه أحد قط، ويُرى ثانية.
يروى أن أبا يزيد في آخر أمره، كان قد وصل إلى حد أن كل شيء كان يحول بخاطره، كان يظهر أمامه في الحال، وعندما كان يذكر الحق (تعالى) كانت الدماء تجري منه مجرى البول.
ذات يوم دخلت جماعة على الشيخ، وكان الشيخ مطأطأ الرأس فرفعها، وقال: أطلب حبة فاسدة منذ الصباح، كي أمنحها لكم، فأنتم تطيقون غرسها، وأنا لأجدها.

يروى أنه كان لأبي تراب النخشي^(٣) (رحمة الله عليه) مريد شديد الحزن وصاحب وجد، وكثيراً ما كان أبو تراب يقول له: هكذا ينبغي لك أن ترى أبا يزيد. فقال المريد له ذات يوم: أيها السيد، الشخص الذي يرى رب أبي يزيد مائة مرة كل يوم، ما يفعل بأبي يزيد حتى يراه؟ قال أبو تراب: أيها الرجل، عندما ترى الله تراه على قدرك، وعندما تراه عند أبي يزيد، تراه على قدر أبي يزيد، وهنا اختلاف في الرؤية. فإنه (الله) لن يتجلى للصديق (رضي الله عنه) مرة واحدة، ولا لجملة الخلق. أثر ذلك القول في قلب المريد، وقال له: هيا بنا نذهب، وقدم الاثنان إلى بسطام، ولم يكن الشيخ في الدار، فذهب إلى الغابة، وكان الشيخ يخرج منها وفي يده قذح ماء، وعلى قده فراء بال، ولما وقعت عين مريد أبي تراب على أبي يزيد، ارتعد، وتيسس في الحال، ومات.

قال أبو تراب: أيها الشيخ، نظرة وموت، فقال الشيخ: هناك أمر في سليقة هذا الشاب، لم يحن وقت كشفه بعد، وعند مشاهدة أبي يزيد غلبه ذلك الأمر دفعة واحدة، فلم يطق وهوى. وحدث مثل ذلك الأمر لنساء مصر اللاتي لم يطقن جمال يوسف. فقطعن أيديهن دفعة واحدة.
يروى أن يحيى بن معاذ^(٤) (رحمة الله عليه) كتب رسالة إلى أبي يزيد وقال: ما تقول في شخص شرب قذحاً من الشراب، وثمل ثمالة الأزل والأبد، فأجاب أبو يزيد: لا أعرف ذلك، ما أعرفه أن هنا رجل، يسبح في بحور الأزل والأبد ليلاً ونهاراً، ويصيح قائلاً: «هل من مزيد».

(١) وردت في حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٣٥)، صفة الصفوة، ج ٤ (ص ٩٩).

(٢) أبو موسى: يقال أبو موسى الديلمي من المشايخ المعاصرين لأبي يزيد البسطامي. د. استعلامي (ص ٨٣٩).

(٣) أبو تراب النخشي: انظر الكتاب (ص ٥٥١).

(٤) يحيى بن معاذ: انظر الكتاب (ص ٥٥٧).

فكتب يحيى رسالة (فحواها): لي معك سر، ولكن موعدنا الجنة، نتحدث في ظل طوبى وأرسل رغيًا مع تلك الرسالة، وقال: يجب أن يتناول الشيخ هذا، فقد عجنته بماء زمزم. أجاب أبو يزيد، وقد تذكر سره ثانية، وقال: هناك حيث يكون ذكره ناعم بكنوز الجنة، وظلال طوبى، لكني لن أتناول ذلك الرغيف، لأنك كنت قد قلت بأي ماء عجنته، ولم تقل بأي بذرة زرعت.

اشتاقت يحيى بن معاذ كثيرًا للشيخ، فنهض، وجاء لزيارته، وصل هناك عند صلاة العشاء، وقال: لم أستطع إزعاج الشيخ، ولم أصبر حتى الصباح، فذهبت إلى مكان في الصحراء دلوني عليه، فرأيت الشيخ يؤدي صلاة العشاء، وكان قد وقف على أطراف أصابعه حتى الصباح. وقال: بقيت في عجب، وكنت أنصت إليه، فقد انشغل طوال الليل بالعمل، وعندما تنفس الصبح ورد على لسان الشيخ: «أعوذ بك أن أسألك هذا المقام»، فتقدم يحيى في وقته، وسلم، وسأل عن واقعة الليل، فقال الشيخ: أحصوا لنا نيفًا وعشرين مقامًا، فقلت: لا أريد منها شيئًا قط، فجميعها حجب، بدايتها يحيى، ونهايتها أبو يزيد.

قال يحيى: أيها الشيخ، لماذا لم تطلب المعرفة من الله؟ وهو ملك الملوك وقد قال: اطلب ما تريد، فصاح أبو يزيد قائلاً: اصمت يا يحيى، إنني أغار عليك فأنا أعرفه هو ولا أريد قط أن يعرفه سواه، أي شأن لي حيث كانت معرفته، فهو أراد ذلك يا يحيى. لا يعرفه سواه شخص آخر، ومن ثم قال يحيى: بحق عزة الله، اجعل لي نصيبًا من تلك الفتوح التي حلت عليك بالأمس، فقال الشيخ: إن وهبت صفوة آدم، وقدس جبريل، وخلة إبراهيم، وشوق موسى، وطهارة عيسى ومحبة محمد ﷺ، أقسم أنك لا ترضى بها، وتطلب ما وراء ذلك، فإن ما وراءها أمور، فكن صاحب همة ولا تنزل قط، لأن كل شيء تتدنى له، تحجب به.

وأرسل أحمد بن حرب^(١) حصيرًا للشيخ (قائلاً): صل عليه بالليل، فقال الشيخ: إنني جمعت عبادات أهل السماء وأهل الأرض، ووضعتها في وسادة وضعتها تحت رأسي^(٢).

يروى أن ذا النون المصري أرسل مصلى للشيخ، فأعاده الشيخ إليه قائلاً: أي حاجة لنا بالمصلى؟ أرسل لنا مسندًا نتكى عليه. أي أن الأمر تجاوز الحاجة ووصل إلى الغاية، فأرسل ذا النون مسندًا طيبًا، فأعاده الشيخ أيضًا، لأنه كان قد فنى في هذا الوقت، ولم يكن قد بقي منه سوى الجلد والعظم. قال: من كان مسنده لطف الحق وكرمه، لا يحتاج إلى مسند مخلوق قط.

(١) أحمد بن حرب: انظر الكتاب (ص ٤٨٢).

(٢) وردت في حلية الأولياء، ج ١٠ ص ٣٥، ٣٦.

يروى أن أبا يزيد قال: إنه كان في الصحراء ذات ليلة، وقد توارت رأسه في الخرقه لعل النعاس يغلبها، فجأة أصابته حال يجب عليه الاغتسال منها، أي الاحتلام، وكانت الليلة باردة جدًا، يقول أبو يزيد: وعندما استيقظت، كانت نفسي تقعدني عن الاغتسال بماء بارد، فكانت تقول: اصبر حتى تشرق الشمس، عندئذ اغتسل. قال: عندما رأيت كسل نفسي، وعلمت أنها ستؤدي الصلاة قضاءً، نهضت، وهكذا كسرت الثلج بالخرقة، واغتسلت، وهكذا كنت أرديها حتى سقطت وفقدت الوعي، ولما عدت إلى رشدي، كانت الخرقه قد جفت فجأة.

يروى أن الشيخ كثيرًا ما كان يطوف في القبور، وذات ليلة كان قادمًا منها، وكان شاب من أبناء سادة الولاية يضرب على عود في يده، ولما صل إلى أبي يزيد، قال أبو يزيد: لا حول، فضربه الشاب بالعود على رأسه، فتحطم الاثنان: رأس أبي يزيد والعود، وكان الشاب ثملًا، فلم يعرف من هو؟ عاد أبو يزيد إلى زاويته، وجلس، وفي الصباح استدعى أحد الأصحاب، وقال: بكم يبيعون العود؟ وعرف ثمنه، فربطه في خرقه ومعه قطعة حلوى، وأرسله إلى ذلك الشاب، وقال: قل لذلك الشاب: إن أبا يزيد يطلب المعذرة، ويقول: ضربتنا بالأمس بذلك العود فانكسر فخذ هذا الذهب ثمنًا له، واشتر عوضًا عنه، وهذه الحلوى كي تذهب غصة كسره عن قلبك، وعندما عرف الشاب (الأمر)، جاء وطلب المعذرة من الشيخ، وتاب، وتابت معه مجموعة من الشبان^(١).

يروى أن أبا يزيد كان يمضي ذات يوم مع جماعة، فوقف في طريق ضيق، وكان كلب قادمًا، فعاد أبو يزيد، وأثر مرور الكلب، لكي لا يضطر الكلب أن يعود. ولعل مرید استنكر هذا الأمر، لأن الحق (تعالى) قد كرم بني آدم، ويفضل أبو يزيد (سلطان العارفين) مع كل هذا النفوذ وجماعة المريدين - مرور الكلب ويعود! كيف يكون ذلك؟ قال الشيخ: أيها السخي، إن هذا الكلب قال لأبي يزيد بلسان الحال: «السبق في السبق» أي تقصير ارتكبه في الوجود؟ وأي توقيير بدا منك؟ فألبسوني جلد الكلب، وخلعوا عليك «سلطان العارفين» فاعتملت هذه الفكرة في رأسي وأثرت مروره.

يروى أن أبا يزيد كان يمضي ذات يوم، وكان كلب برفقته، فلملم الشيخ أطراف ثيابه (بعيدًا) عنه، قال الكلب: لو أنني جاف فلا ضرر، ولو أنني مبتل فإن تطهرت مني سبع غسلات بالماء أو التراب، لكن إن ضربتني بطرفك، لا تتطهر وإن اغتسلت في سبع بحور، قال أبو يزيد: أنت نجس

(١) هذه الرواية نظمها سعدي في بوستانه في الباب الرابع في التواضع قال في بدايتها:

يكي بریطي در بغل داشت، مست به شب در سر پرسائی شکست

وترجمته: حمل شخص ثمل عودًا تحت إبطه ذات ليلة وضربه على رأس زاهد.

الظاهر، وأنا نجس الباطن، تعالى كي نمتزج معاً ليظهر ما بيننا من طهر بالامتزاج. قال الكلب: لا يجدر بك أن ترافقني وتزاملني، لأنني مرفوض من الخلق، وأنت مقبول منهم، ومن يصل إليّ يضربني بحجر على جانبي، ومن يصل إليك يقول: «السلام عليك يا سلطان العارفين» وأنا لم أدر عظمة قط للغد، وأنت تدخر دن قمح. قال أبو يزيد: لست جديرًا بصحبة الكلب، فكيف أكون جديرًا برفقة «لم يزل ولا يزال»؟ سبحان الله الذي يربي أفضل الخلق بأقلهم! ثم قال الشيخ: ضقت، ويشت من الطاعة، فقلت: أذهب إلى السوق، واشتري زنارًا، وأعقده على وسطي، حتى ينتشر عاري بين الخلق، خرجت، وكنت أسأل عنه فرأيت دكانًا علق زنارًا. قلت (لنفسى): أبيع هذا بدرهم؟ وقلت (للباع): بكم تبيعه؟ قال: بألف دينار، دهشت، وهتف بي هاتف: ألا تعلم أن الزنار الذي يعقد على خصر مثل خصرك لا يقل عن ألف دينار. قال: سر قلبي، لأنني علمت أنها عناية الحق.

يروى أنه كان هناك زاهد من جملة مشايخ بسطام صاحب طبع، وقبول، ولم يكن يغيب عن حلقة أبي يزيد قط، وكان يسمع كل كلامه ويجلس مع أصحابه، وقال لأبي يزيد ذات يوم: أيها السيد، منذ ثلاثين عامًا وأنا صائم الدهر، قائم الليل (للصلاة)، حتى إنني لم أنم قط (مع هذا) لا أجد في نفسي أثرًا من هذا العلم الذي تتحدث عنه، وأصدق، والكلام الذي أحبه. قال أبو يزيد: إن صمت النهار وقمت الليل طيلة ثلاثمائة عام لن تدرك ذرة من هذا الحديث! قال الرجل: لماذا؟ قال: لأنك محبوب بنفسك، قال الرجل: وما علاج هذا؟ قال الشيخ: لن تقبل قط، قال: بل أقبل، قل لي كي أنفذ كل ما تقوله، قال الشيخ: اذهب الآن، وأطلق ذقنك ورأسك، وارقد ستر، واخلع هذه الثياب التي ترتديها، واعقد على خصرك إزارًا خشنًا، وعلق في رقبتك كيسًا مملوءًا بالجوز، واخرج إلى السوق، واجمع الأطفال، وقل لهم: من يصفعني أعطيه جوزة، وهكذا طف في المدينة، وكل مكان تُعرف فيه اذهب إليه، فهذا هو علاجك. سمع الرجل هذا، وقال: «سبحان الله لا إله إلا الله» قال: إن نطق كافر بهذا القول يؤمن، وقد أشركت بنطقك هذا القول، قال الرجل: لماذا؟ قال الشيخ: لأنك ظننت أنك أكبر من أن يمكنك أن تفعل هذا، فلا جرم أنك أشركت، لأنك قلت هذا القول تعظيمًا لنفسك لا تعظيمًا لله. قال الرجل: لا أستطيع أن أفعل هذا، مرني بشيء آخر، فقال: العلاج ما قلته، قال الرجل: لا أستطيع فعله، قال الشيخ: ألم أقل لك إنك لن تفعل، ولن تطيع الأمر.

يروى أن تلميذًا لشقيق البلخي (رحمة الله عليه) قصد الحج، فقال له شقيق: أسلك طريق بسطام، حتى تزور ذلك الشيخ، فقدم ذلك التلميذ إلى بسطام، قال له أبو يزيد: من شيخك؟ قال: شقيق، قال الشيخ: وما يقول؟ قال: قد فرغ شقيق من الخلق، وجلس متوكلاً، وهكذا يقول: إن

صارت السماء نحاسًا، والأرض حديدًا، فلا تسقط من السماء أمطار قط، ولا تنمو من الأرض أعشاب، ويكون كل خلق العالم عيالي لا أحيد عن التوكل عليك. فقال أبو يزيد عندما سمع ذلك: يا له من كافر فاجر. يا له من مشرك جاحد، لو كان أبو يزيد غرابًا، لما كان يحلق في مدينة ذلك المشرك، عندما تعود، قل له: انظر، ولا تختبر الله برغيفين من الخبز، عندما تجوع، اطلب رغيفين من النوع الخاص به، ودع برنامج التوكل جانبًا، حتى لا تسوى تلك المدينة والولاية بالأرض من سوء معاملتك. فعاد ذلك المريد من هول هذا الكلام، ولم يذهب للحج واتجه إلى بلخ لدى شقيق، فقال شقيق: سرعان ما عدت! قال: كلا، إنك كنت قد قلت: مرّ على أبي يزيد، فذهبت إليه، وهكذا سأل، وهكذا أجبت، فقال: كذا وكذا، فعدت من هول هذا الكلام؛ كي أخبرك. كان شقيق ذكيًا، فأعاب عليه هذا الكلام، ويقال: إنه كان لديه أربعمئة حمل بعير من الكتب، وكان شيعيًا فذاً، لكنه ظن أنه فاق المشايخ، قال شقيق للمريد: ألم تقل له لو أنه كان كذلك، فكيف تكون أنت؟ قال: لا، قال شقيق: اذهب إليه الآن، واسأله: لو كان هو كذلك فكيف تكون أنت؟ نهض المريد، وعاد إلى بسطام، قال أبو يزيد: عدت، قال: أرسلني كي أسألك لو أنه كذلك فكيف تكون أنت؟ قال أبو يزيد: انظر جهله أيضًا، ثم قال: إن قلت، فأنت لا تعرف، قال (المريد): قد جئت من مكان بعيد أملًا في هذا، إن ترى الصالح، تأمر بكتابة رسالة، حتى لا يضيع التعب، قال أبو يزيد: اكتبوا «بسم الله الرحمن الرحيم» هو أبو يزيد. وطوى الورقة وأعطاه له. إن أبا يزيد ليس شيعيًا ولأنه ليس موصوفًا، فكيف يمكن وصفه بما يدركه الواصلون، فكيف به وهو يتوكل أو يخلص وكل هذه صفات الخلق، ويجب عليهم أن «يتخلقوا بأخلاق الله»، ولا يتحلون بالتوكل. ذهب المريد، وكان شقيق قد مرض، واقترب أجله، وكل لحظة كان يرسل شخصًا إلى السطح؛ حتى يراقب الطريق؛ كي يسمع إجابة أبي يزيد قبل أن ينتهي أجله، وكانت قد بقيت عدة أنفاس حين وصل المريد، فقال: ما قال؟ قال المريد: قد كتب على ورقة، فقرأها شقيق، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله» ونزه الإسلام عن عيب أفكاره، ورجع عنها، وتاب، وأسلم الروح.

يروى أن أحمد بن خضرويه^(١) ذهب إلى أبي يزيد ومعه ألف مريد، كانوا جميعهم يستطيعون السير على الماء، والطير في الهواء، وقال أحمد لهم كذلك: من ليست له القدرة على مشاهدة أبي يزيد منكم، يخرج لأننا سنذهب لزيارة الشيخ، فمضى الجميع، وكانت مع كل واحد منهم عصا، وضعها في دهليز دار الشيخ، حيث (بيت العصا) فامتلا الدار بالعصي، فراجع مريد، ولم يذهب إلى أبي يزيد، وقال: لا أرى في نفسي لياقة الذهاب إلى الشيخ، وسأحرص العصي.

(١) أحمد بن خضرويه: انظر الكتاب (ص ٥٤٣).

ولما دخل الجميع على أبي يزيد قال أبو يزيد: هل أحضرتم أفضلكم والأصل فيكم؟ أحضروه، فذهبوا وأحضره، فقال أبو يزيد لخضريه: إلام السباحة والطواف حول العالم؟ قال خضريه: عندما (يركد) الماء في مكان واحد، يتكدر، قال الشيخ: «كن بحرًا لا يتغير»، ثم استرسل الشيخ أبي يزيد في الكلام، فقال أحمد: مهلاً أيها الشيخ، فلتتمهل إنني لا أفهم كلامك فتمهل، ثم قال له مرة أخرى: تمهل فتمهل وهكذا أخذ يقول (تمهل) سبع مرات عندئذ فهم كلام أبي يزيد، وصمت أبو يزيد، فقال أحمد: يا شيخ، رأيت إبليس على قارعة حيك معلقاً على مشنقة، قال أبو يزيد: بلى، كان قد تعاهد معنا ألا يحوم حول بسطام، والآن وسوس لفرد فارتكب جريمة القتل، وجزاء اللصوص أن يشنقوا في بلاط الملوك، وسأل رجل الشيخ: نرى عندك جماعة مثل الرجال والنساء، من هم؟ قال: إنهم الملائكة، يأتون، ويسألونني عن العلوم، وأجيبهم.

يروى أن أبا يزيد كان يرى في المنام ذات ليلة، أن ملائكة السماء الأولى يهبطون عليه قائلين: انهض؛ كي نذكر الله، قال: لا أملك لساناً للذكر، فجاء ملائكة السماء الثانية وقالوا الكلام نفسه، فأجاب نفس الإجابة، وهكذا حتى قدم ملائكة السماء السابعة، وكان يجيب نفس الإجابة، قالوا: ومتى ستملك لسان الذكر إذن؟ قال: عندما يستقر أهل الجحيم في الجحيم وأهل الجنة في الجنة، وتمر القيامة، ثم يطوف أبو يزيد حول العرش ويقول: الله الله.

وقال: أضيء الدار ذات ليلة، فقلت: لو أنه الشيطان فأنا أكثر عزة منه، وأوفر همة إنه طمع في، وإن كان من لدنك فدعه، حتى أصل من دار الخدمة إلى دار الكرامة.

يروى أن أبا يزيد لم يتذوق طعم العبادة ذات ليلة، فقال: انظروا هل هناك شيء في الدار، نظروا، فرأوا نصف عنقود عنب، قال: احمלוه وأعطوه لشخص، فدارنا ليست دكان بقال، حتى طاب وقته.

يروى أن مجوسياً جاوره، وكان له طفل، كان هذا الطفل يبكي؛ لأنهم لا يملكون قنديلاً، فحمل أبو يزيد قنديلاً بيده إلى دارهم، فسكت طفلهم، قالوا: طالما حل نور أبي يزيد، فما يدعو للأسف، أن نعيش في ظلامنا، وأسلموا في الحال.

يروى أن مجوسياً عاصر الشيخ، قالوا له: أسلم، فقال: لو أن الإسلام ما يفعله أبو يزيد فلا طاقة لي به، ولو أنه ما تفعلونه، فلا أرغبه.

يروى أن أبا يزيد كان قد جلس في مسجد ذات يوم، فقال للمريدين: انهضوا كي نستقبل حبيباً من أحباب جبار العالم، فذهبوا، ولما وصلوا إلى البوابة كان إبراهيم الهروي^(١) يقدم

(١) إبراهيم الهروي: يقال إنه أبو إسحق إبراهيم الهراشي الذي كان من أصحاب إبراهيم بن آدم.

د. استعلامي (ص ٨٣٩).

جالسًا فوق حمار. قال أبو يزيد: جاء نداء من الحق إلى قلبي أن انهض واستقبله وتشفع لنا. قال (إبراهيم): إن منحوك شفاعة الأولين والآخرين، فلا تزال قبضة تراب. تعجب أبو يزيد من قوله، ولما حان وقت الطعام، فكر إبراهيم في نفسه (قائلًا): لعله طعام طيب، لأن الشيخ يأكل مثل هذه الأطعمة الطيبة، أدرك الشيخ هذا المعنى ولما فرغوا، أخذ بيد إبراهيم، وحملها إلى طرفه، وضرب بها على الحائط، فشقت بحيرة، وظهر بحر لا نهاية له، قال: الآن، تعال؛ كي نسبح في هذا البحر، فخاف إبراهيم، وقال: لا أحظى بهذا المقام، فقال الشيخ: ذلك الشعير قد جمعته من الصحراء، وخبزته، ووضعت في الجراب، وقد كان الشعير الذي أكلته الدواب، وتبرزته، وقد كان نجسًا، وهكذا كان ما كان الشيخ قد قاله، فتاب إبراهيم.

وقال رجل لأبي يزيد ذات يوم: رأيتك في طبرستان مع الخضر (عليه السلام) في جنازة شخص كان قد مات، وقد وضع يده على عنقك، ووضعت يدك على كتفه، ولما عاد الخلق من الجنازة، رأيتك كنت تطير في الهواء، قال الشيخ: الأمر كما تقول.

يروى أن جماعة جاءت إليه ذات يوم (قائلة): يا شيخ، نخاف القحط، والأمطار لا تسقط، فطأ الشيخ رأسه وقال: هيا أصلحوا القنوات، فقد هطل المطر، وفي الحال بدأت الأمطار (في السقوط) إلى حد أنها لم تنقطع طيلة عدة أيام بلياليها.

يروى أن الشيخ مد قدمه ذات يوم، فمدّ مريد قدمه معه، ورفع أبو يزيد قدمه، وقال لذلك الرجل: ارفع قدمك، فلم يستطع ذلك الرجل رفعها، وبقي كذلك حتى آخر عمره، وذلك لأنه ظن أن تدلية قدم العارفين، تكون مقياسًا لسائر الخلق.

يروى أن الشيخ كان قد مد قدمه ذات مرة، فهمّ عالم، ووضع قدمه (العالم) فوق قدمه (الشيخ)، قالوا: أيها الجاهل، لماذا فعلت ذلك؟ أسبب التفكير! قال: ما تقولون؟ وقد لحقت به طامات. بعد ذلك أصيبت تلك القدم بالجزام، وكما يقال: سرت هذه العلة في عدة أبناء له. سئل أحد المشايخ: كيف يرتكب شخص ذنبًا فتسري عقوبته في الآخرين؟ وما معنى هذا؟ قال: طالما كان الرجل ماهرًا، يصيب سهمه أبعد مسافة.

يروى أن منكرًا تقدم لامتحان الشيخ، وقال: اشرح لي المسألة الفلانية، رأى الشيخ تلك الأفكار فيه، فقال: هناك غار في الجبل الفلاني، وفيه واحد من أحبابنا، سله؛ كي يشرحها لك، فنهض وذهب إلى الغار، فرأى أفعى عظيمة مهيبة، عندما رأى ذلك، فقد الوعي، وتبول في رداءه، وألقى بنفسه - وهو فاقد الوعي - خارج المكان، وترك مداسه هناك، وهكذا عاد إلى خدمة الشيخ، وجثا على قدمه وتاب، قال الشيخ: سبحان الله ألا تستطيع الحفاظ على مداسك من هيبة مخلوق، فكيف تحفظ الكشف في هيبة الخالق وقد جئت منكرًا له وقلت لي: اشرح لي القول

الفلاني!

يروى أن أحد القراء أنكر الشيخ؛ لأنه يرى منه أمورًا عظيمة، محروم منها ذلك المسكين، قال: هذه المعاملات والرياضات التي يرتاضها، أرتاضها أنا أيضًا، وهو يقول: نحن غرباء عنه. علم الشيخ بذلك، وقصد الشيخ ذات يوم، فتنفس الشيخ نفسًا في ذلك المقرئ، فقد (على أثره) وعيه ثلاثة أيام، وتبول على نفسه، ولما عاد إلى رشده اغتسل، ثم قدم إلى الشيخ بعد ذلك، فقال الشيخ: ألم تعلم أنهم لا يضعون أحمال الأفيال على الحمير.

يروى أن الشيخ أبا سعيد المنجوراني قدم إلى أبي يزيد، وأراد أن يمتحنه، فأحاله الشيخ إلى مرید اسمه سعيد الراعي، وقال: اذهب إليه، لأننا منحناه ولاية الكرامة إقطاعًا، وعندما ذهب إلى سعيد، رأى راعيًا، كان يصلي في الصحراء، وكانت الذئب ترعى غنمه، ولما فرغ من الصلاة، قال: ما تريد؟ قال: أريد خبرًا ساخنًا، وعنبًا. كانت لدى الراعي عصا قسمها إلى نصفين، وضع نصفًا على طرف الشيخ أبي سعيد، ونصفًا على طرفه هو، وفي الحال: أثمر العنب، وكان طرف الراعي أبيض وطرف سعيد المنجوراني أسود، قال: لماذا طرفك أبيض وطرفي أسود؟ فقال الراعي: لأنني أردت اليقين، وتريد أنت الامتحان، فسيكون لون كل شيء لائقًا بحاله. بعد ذلك أعطى خرقه لسعيد المنجوراني وقال: حافظ عليها. ولما ذهب سعيد إلى الحج، ضاعت منه تلك الخرقه في عرفات، ولما عاد إلى بسطام، وجدها مع الراعي.

يروى أنهم سألو أبا يزيد: من شيخك؟ قال: عجوز، فقد غلبني الشوق والتوحيد ذات يوم إلى حد أنني لم أحتمل شعرة، فذهبت إلى الصحراء فانيًا، فوصلت عجوز ومعه جوال دقيق، وقالت لي: ارفع معي هذا الجوال، ولم أكن أستطيع أن أحمل نفسي فأشرت إلى أسد، فجاء، فوضعت الجوال على ظهره، وقلت للعجوز: ما تقولين إن ذهبت إلى المدينة عمن رأيت؟ إنني لا أريد أن يعرف أحد من أنا، قالت: رأيت من! رأيت ظالمًا، رأيت أحمقًا، فقال الشيخ: احذري ما تقولين، قالت العجوز: أهذا الأسد مكلف أم لا؟ قلت: لا، قالت: كلفت من لم يكلفه الله، ألا تكون ظالمًا! قلت: نعم، قالت: ومع كل هذا، تريد أن يعرف أهل المدينة أنه مطيع لك، وإنك صاحب كرامات! ألا يكون هذا حمقًا! قلت: بلى، وتبت، وانقلبت رأسًا على عقب، كان هذا القول شيعي. وبعد ذلك كلما كانت تحل عليه آية أو كرامة، كان يطلب مصداقها من الحق (تعالى)، وفي الحال يأخذ نورًا أصفر في الظهور، مكتوب عليه بخط أخضر لا إله إلا الله محمد رسول الله، نوح نجي الله، إبراهيم خليل الله، موسى كليم الله، عيسى روح الله، فكان يقبل الكرامة بهذه الأدلة الخمس، وهكذا لا يصدق حتى يظهر ذلك، قال أحمد بن خضرويه: رأيت الحق في المنام، وقد قال: يطلب مني جملة الرجال ما يطلبون ما عدا أبي يزيد فهو يطلبني أنا.

يروى أن شقيق البلخي وأبا تراب النخشي جاء إلى الشيخ، فأمر الشيخ بطعام، فأحضره، وكان أحد المريدين يقوم بخدمة الشيخ، وكان واقفاً، فقال أبو تراب: تفضل معنا، قال: إني صائم، قال: كل، وخذ ثواب شهر، قال: إني لا أستطيع أن أفطر، قال شقيق: أفطر وخذ أجر سنة، فقال: لا أستطيع، فقال أبو يزيد: دعه فهو مطرود من الحضرة، ولم تمر مدة حتى قبض عليه بالسرقة، وقطعت يده.

يروى أن الشيخ كان قد وضع عصاه على الأرض في الجامع ذات يوم، فسقطت على عصا شيخ، فاحتنى ذلك الشيخ، ورفع العصا. فذهب الشيخ (أبو يزيد) إلى داره، وطلب الحل منه، وقال: احتيت ظهرك لرفع العصا.

يروى أن رجلاً دخل عليه ذات يوم، وسأله عن الحياء، فأجابه الشيخ، فقبول ذلك الرجل، ودخل رجل آخر، فرأى ماء أصفر اللون، فوقف وقال: يا شيخ، ما هذا؟ قال: دخل شخص من الباب، وسأل عن الحياء، وأجبت، ولم يطق، فقبول من الخجل.

يروى أن الشيخ قال: وصلت إلى نهر دجلة ذات مرة، وقد تلاطمت مياهه، قلت: لا أغتر بأن يجعلوني أعبّر بنصف دانق، فإنني لا أضيع ثلاثين عامًا من عمري بنصف دانق؛ لأنه ينبغي لي الكرم لا الكرامة.

يروى أن الشيخ قال: أردت أن أسأل الحق تعالى أن يكفيني مؤنة النساء، ثم قلت: لا يجوز لي هذا، ولم يسأله النبي ﷺ هذا، وبهذه الحرمة كفاني الحق تعالى ذلك، حتى تساوت لدي المرأة والحائط^(١).

يروى أن الشيخ كان يصلي خلف إمام، فقال الإمام: يا شيخ، إنك لا تكتسب، ولا تطلب شيئاً من أحد، فمن أين تأكل؟ قال الشيخ: أصبر حتى أؤدي الصلاة، قال: لماذا؟ قال: لأن الصلاة لا تجوز أن تؤدي خلف رجل لا يعرف الرازق.

وذات مرة رأى رجلاً في مسجد، كان يصلي، قال: إن ظننت أن هذه الصلاة هي سبب الوصول إلى الله (تعالى)، فأنت مخطئ، لأن هذا ظن لا مواصلة، وإن لم تصل فأنت كافر، وإن نظرت إليه نظرة واحدة بعين الاعتماد فأنت مشرك.

يروى أن الشيخ قال: ربما يأتي شخص لزيارتنا، فتكون ثمرته اللعنة، وربما يأتي شخص آخر، فائدته الرحمة. قالوا: كيف؟ قال: يأتي رجل، وتغلبني حالة أفنى فيها عن نفسي، فيقع في اللعنة، ويأتي آخر، فيغلبني الحق، ويعذرني، فتكون ثمرته الرحمة.

(١) وردت في اللمع (ص ١٤٥)، الرسالة القشيرية (ص ٢٣).

وقال: أريد أن تقوم القيامة سريعاً حتى كنت أنصب خيمتي على طرف الجحيم، لأن الجحيم عندما يراني، ينعدم، فأكون سبباً في راحة الخلق.

قال حاتم الأصم^(١) للمريدين: كل من لا يشفع منكم يوم القيامة لأهل الجحيم، فهو ليس من مريديني. (قيل) هذا الكلام لأبي يزيد، فقال أبو يزيد: وأنا أقول: إن مريدي من وقف على حافة الجحيم، يأخذ بيد من يحمل إليها، ويرسله إلى الجنة، ويذهب هو إلى الجحيم بدلاً منه. قالوا لماذا لا تدعو الخلق إلى الله بهذا الفضل الذي قد فضلك الحق به؟ قال: كيف يستطيع أبو يزيد تحرير رجل قيده هو (الحق).

ذهب شيخ إلى أبي يزيد، فرآه وقد وضع رأسه في تلابيبه مستغرقاً في التفكير، وعندما رفع رأسه، قال: أيها الشيخ، ما فعلت؟ فقال: وضعت رأسي بفنائني، ورفعتها ببقاء الحق.

ذات يوم كان خطيب يتلو هذه الآية على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾^(٢) فضرب برأسه على المنبر إلى أن فقد الوعي، وعندما ثاب إلى رشده، قال: طالما علمت، فمن أين جئت بهذا المسكين الكاذب كي يدعي معرفتك؟!

رأى مريد الشيخ كان يرتعد، قال: يا شيخ، لم ارتعذك هذا؟ قال الشيخ: ينبغي عليك أن تسلك طريق الصدق ثلاثين عاماً، وتكنس تراب المزابل بمحاسنك، وتضع رأسك على ساعد الحزن؛ حتى تعرف سلوك الرجال، أتنهض من خلف الحجاب منذ يوم أو اثنين، وتريد أن تقف على أسرار الرجال!

يروى أن جيش الإسلام عندما كان قد أصابه الضعف في الروم، وأوشك على الهزيمة من الكفار. سمع صوتاً بأن أدر كنا يا أبا يزيد، وفي الحال هبت نار من جهة خراسان، أثارت الفزع في جيش الكفار، وانتصر جيش الإسلام.

يروى أن رجلاً جاء إلى الشيخ، وكان الشيخ قد وضع رأسه، ولما رفعها، قال ذلك الرجل: أين كنت؟ قال: في الحضرة، فقال ذلك الرجل: وأنا كنت في الحضرة، ولم أرك، قال الشيخ: صدقت، فقد كنت داخل الحجاب وأنت خارجه، ولا يرى من في الخارج من في الداخل.

قال: من لا يقرأ القرآن، ولا يحضر جنائز المسلمين، ولا يذهب لعيادة المرضى، ولا يصل اليتامى، ويدعي هذا، اعلموا أنه مدع.

قال واحد للشيخ: صف قلبك؛ كي أتحدث معك، قال الشيخ: ثلاثين عاماً وأنا أطلب من الحق قلباً صافياً، ولم أحصل عليه حتى الآن، فمن أين أحضر لك قلباً صافياً في لحظة.

(١) حاتم الأصم: انظر الكتاب (ص ٣٤٧).

(٢) سورة الأنعام: الآية (٩١).

وقال: يظن الخلق أن الطريق إلى الله أكثر وضوحًا من الشمس، وأنا أطلب منه طوال عدة أعوام أن يظهر لي مقدار رأس الإبرة من هذا الطريق، ولن يحدث.

يروى أن أبا يزيد كان يقول في ذلك اليوم الذي لم يكن يصيبه فيه بلاء: يا إلهي أرسلت الخبز، ويلزمه الأكل، فأرسل البلاء كي أكل الخبز.

ذات يوم سأل أبو موسى الشيخ: متى صباحك؟ فقال: ليس لي صباح ولا مساء.

وقال: نودي في صدورنا: يا أبا يزيد، إن خزائنا مملوءة بالطاعة المقبولة، والخدمة المحمودة إن تريدنا، احضر لنا شيئًا ليس لدينا، قلت: يا إلهي، ما ذلك (الشيء) الذي ليس لديك؟ قال: الفقر والعجز والحاجة والذلة والضعف^(١).

وقال: ذهبت إلى الصحراء، وكانت قد أمطرت عشقًا، وابتلت الأرض لدرجة تغوص معها قدم الرجل في الطين، وغاصت قدمي في العشق.

وقال: لم أر من الصلاة سوى ثبات الجسد، ومن الصوم سوى الجوع، وما لي هو من فضله وليس من فعلي. ثم قال: لا يمكن نيل أي منال بالجهد والكسب، وحديثي خارج عن الكونين، لكن العبد الحسن الطالع من يمضي، وفجأة تسقط قدمه في كنز، فيغنى.

وقال: كل مريد أدرك الإرادة، ينبغي عليه أن يأتي إليّ خاضعًا، وأتحدث معه لأجله.

يروى أن أبا يزيد عندما كان يتحدث في صفات الحق، كان يسعد ويستكين، وعندما كان يتحدث في الذات، كان ينهض من المكان، ويأخذ في الحركة، ويقول: جاء، جاء، وانتهى.

رأى الشيخ رجلًا كان يقول: أعجب من شخص يعرفه ولا يطيعه، فقال الشيخ: أعجب من شخص يعرفه ويطيعه. أي أن العجب أن يظل على وجوده.

يروى أن أبا يزيد سئل: بما نلت هذه الدرجة؟ وبما أدركت هذا المقام؟ فقال: خرجت من بسطام ذات ليلة في الطفولة، وكان ضوء القمر يتلألأ، والدنيا ساكنة، ورأيت حضرة بدت الثمانية عشر ألف عالم إلى جانبها ذرة، فاضطربت، وغلبتني حالة عظيمة، وقلت: يا إلهي حضرة بمثل هذه العظمة ومثل هذا الاتساع، وأمور بهذه العظمة ومثل ذلك التفرد. فهتف بي هاتف: ليست الحضرة خالية لأن شخصًا لا يأتي إليها، لكن لأننا لا نريد، لأن كل قدر الوجه ليس جديرًا بها. نويت أن أدعو لجملة الخلائق، فجال بخاطري أن مقام الشفاعة لمحمد (عليه الصلاة والسلام) فحفظت الأدب، وسمعت خطابًا: رفعنا اسمك بهذا الأدب الذي حفظت، وهكذا يقولون حتى يوم القيامة: أبو يزيد سلطان العارفين.

(١) وردت في حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٤٠).

قالوا أمام الإمام أبي نصر القشيري^(١): قد حكى أبو يزيد مثل تلك الحكاية: أردت بالأمس أن أطلب من كرم الربوبية أن يسدل ذيل الغفران على جرائم الخلق الأولين والآخرين، لكنني خجلت أن أعاود حضرة الكرم بحاجة بهذا القدر، واستولى على الشفاعة التي هي مقام صاحب الشريعة، فحفظت الأدب. قال القشيري: «بهذه المهمة نال ما نال» وقد حلق أبو يزيد بهذه المهمة العالية في أوج الشرف.

يروى أن الشيخ قال: أول مرة ذهبت فيها إلى البيت (الحرام)، رأيت البيت وثاني مرة ذهبت فيها إلى البيت، رأيت رب البيت، وثالث مرة لم أر البيت ولا رب البيت^(٢) أي أنني ففيت في الحق، فلم أعرف شيئاً قط، فإن رأيت، رأيت الحق، والدليل على هذا القول، أن رجلاً ذهب إلى دار أبي يزيد، ونادى (عليه) فقال الشيخ: من تريد؟ قال: أريد أبا يزيد، قال: مسكين أبو يزيد، أبحث عنه طيلة ثلاثين عاماً، ولا أجد له أثراً^(٣).

أخبر ذو النون بهذا الكلام، فقال: ليغفر الله لأخي أبي يزيد، فقد ضل مع الضالين في الله^(٤).

يروى أنهم قالوا لأبي يزيد: قل لنا شيئاً عن مجاهدتك، قال: إن تحدثت عن أعظم شيء لما طقتموه، لكنني أتحدث عن أقل شيء، ذات يوم، أمرت النفس بأمر ما، فرفضت، أي لم تطع الأمر، فلم أمدّها بالماء عامّاً، وقلت: يا نفس، هبي الجسد للطاعة أو اهلكي من العطش. وقال أبو يزيد: ما تقول في شخص حجابته الحق، أي طالما يعرف أنه الحق، فينبغي أن ينمحي حجابته، وينمحي علمه أيضاً، حتى يتحقق الكشف الحقيقي.

وكان مستغرقاً إلى حد أن مريداً كان لديه، لم ينفصل عنه طيلة عشرين عاماً، وكل يوم كان الشيخ يدعوه، وكان يقول له: ما اسمك يا بني؟ فقال له المريد ذات يوم: أيها الشيخ، إنك تحزنني لأنني أخدمك طيلة عشرين عاماً، وكل يوم تسأل عن اسمي! قال الشيخ: أي بني، إنني لا أهزأ بك، لكن اسمه قد جاء، ومحا كل الأسماء من قلبي فأتذكر الاسم الجديد، ثم أنساه.

يروى أن أبا يزيد قال: ينبغي عليّ أن أصلي صلاة تليق بحضرته، ولم أفعل ذلك طوال عمري، وذات ليلة كنت أؤدي أربع ركعات منذ صلاة العشاء وحتى الصباح، وكل مرة كنت أفرغ فيها، كنت أقول ينبغي (أن أؤدي) أفضل من هذا، حتى أوشك الصبح أن يتنفس، ابتليت

(١) القشيري: سبق التعريف به في الباب الثالث.

(٢) وردت في كشف المحجوب (ص ٣١٩) من الترجمة العربية.

(٣) وردت في كشف المحجوب (ص ٤٩٠، ٤٩١) من الترجمة العربية.

(٤) وردت في كشف المحجوب (ص ٤٩٠، ٤٩١) من الترجمة العربية.

وقلت: يا إلهي، اجتهدت كي أكون جديرًا بك، لكن أبا يزيد ليس جديرًا بك، الآن لك كثير من تاركي الصلاة، فعدّ أبا يزيد واحدًا منهم.

وقال: رفع الحجاب بعد أربعين عامًا من الرياضة، فانتحبت قائلاً: امنحوني السبيل، فجاءني خطاب: لا قبول لك مع القدح والفراء اللذين تملكهما، فألقيت بالقدح والفراء، وسمعت نداء: يا أبا يزيد، قل لهؤلاء المدعين: لم تستقبل الحضرة أبا يزيد بعد أربعين عامًا من الرياضة والمجاهدة، ما لم يطح بالقدح المكسور والفراء المتهالك، وطالما تعلقتم بمثل هذه العلائق المتعددة، وجعلتم الطريقة طعمًا لشباك أهواء النفس، كلا وحاشا أن يفسح لكم السبيل.

يروى أن شخصًا كان ينصت وقت السحر لما سيفعله (الشيخ)، (فسمعه) قال: الله مرة واحدة وسقط، وسال الدم منه، قالوا: وما هذه الحال؟ فقال: جاء نداء (فحواه): من أنت؟ حتى تتحدث بحديثنا!

يروى أن أبا يزيد وقف ذات ليلة على أطراف أصابع قدمه منذ صلاة العشاء، وحتى السحر، وكان الخادم يشاهد تلك الحال، وكان الدم يسيل من عين الشيخ على الأرض، فتعجب الخادم، وسأل الشيخ في الصباح: ما تلك الحال؟ اجعل لنا نصيبًا منها، قال الشيخ: ذهبت إلى العرش في أول خطوة خطوتها، فرأيت العرش كذب مخضب الشفاء وخالي المعدة، قلت: أيها العرش، يدللون عليك بـ ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(١) تعال (حتى نرى) ما عندك، قال: ما جدوى هذا الحديث، فإنهم يدللون لنا على قلبك بـ "أنا عند المنكسرة قلوبهم"^(٢) فلو أنهم هم أهل السماء، فإنهم يبحثون عن أهل الأرض، ولو أنهم أهل الأرض، فهم يطلبون أهل السماء. ولو أنه شاب فهو يطلب الشيخ، ولو أنه شيخ فهو يطلب الشاب، ولو أنه خراباتي فهو يريد الزاهد، ولو أنه زاهد فهو يريد الخراباتي.

وقال: عندما وصلت إلى مقام القرب، قالوا: اطلب، قلت: لا طلب لي. (قالوا) اطلب من أجلنا، اطلب، قلت: أريدك وكفى. قالوا: طالما يبقى وجود أبي يزيد مثقال ذرة، فهذا الطلب محال، «دع نفسك وتعال» قلت: لا أستطيع العودة بلا ذلة، لأنني سوف أتجرأ، وقال: قل: فقلت: ارحم جميع الخلائق، قال: انظر، نظرت، فلم أر مخلوقًا إلا وله شفيعة، ورأيت الحق ألطف بهم أكثر من أنفسهم، فصمت، ثم قلت بعد ذلك: ارحم إبليس، قال: تجرأت، فاذهب، إنه في النار، وينبغي للنار نار، اجتهد ألا تفعل ما تستحق عليه النار التي لا طاقة لك بها.

يروى أن أبا يزيد قال: أحضر الحق (تعالى) لي ألفي مقام أمامه، وعرض عليّ مملكة في كل مقام، ولم أقبل، قال لي: ما تريد يا أبا يزيد؟ قلت: لا أريد شيئًا قط.

(٢) ورد هذا الحديث في إتحاف السادة المتقين للزبيدي، ج٦ (ص ٢٩٠).

(١) سورة طه: الآية ٥.

وعندما كان شخص يطلب منه الدعاء، كان يقول: يا إلهي، إنهم خلقك وأنت خالقهم فمن أنا لأكون الواسطة بينك وبين خلقك!

وكان يقول لنفسه: هو عالم الأسرار، أي شأن لي بهذا الفضول.

وجاء شخص إلى الشيخ وقال: علمني شيئاً يكون سبباً لنجاتي، فقال: اعلم إنك حظيت بقدر من العلم، واعلم أن الله مطلع عليك، ويرى كل ما تفعل، واعلم أن الله (تعالى) مستغن عن عملك. وذات يوم كان الشيخ يسير، فوضع شاب قدمه على قدم الشيخ، وأخذ يقول: هكذا توضع الأقدام على أقدام المشايخ، وكان الشيخ يرتدي فراء، فقال: يا شيخ، اعطني قطعة من هذا الفراء؛ حتى تحل بركتك عليّ، قال الشيخ: إن ارتديت فراء أبي يزيد فلن يفيدك طالما لا تعمل عمل أبي يزيد.

ورأى مجذوباً ذات يوم كان يقول: يا إلهي، انظر إليّ، قال الشيخ بسبب الغيرة وغلبات الوجد: ألك عقل حسن ووجه طيب كي يُنظر إليك؟! فقال: أيها الشيخ، إنني أطلب تلك النظرة حتى يحسن عقلي ويطيب وجهي، فسر الشيخ كثيراً لهذا القول، وقال: صدقت. يروى أن أبا يزيد كان يتحدث عن الحقيقة ذات يوم، وكان يمص شفتيه، ويقول: أنا الشارب والشارب والساقى أيضاً.

يروى أن أبا يزيد قال: خلعت سبعين زناً عن خصري، وبقي واحد، كلما اجتهدت أن أخلعه لم ينخلع، تعبت، وقلت: يا إلهي، امنحني القوة كي أخلعه أيضاً، فجاء صوت: خلعت كل الزناير وخلع هذا ليس من شأنك.

وقال: طرقت باب الحق بكل الأيدي وفي النهاية لم يفتح حتى طرقت بيد الحاجة، وطلبت النعمة بكل الألسنة، فلم تمنح لي حتى طلبتها بلسان الحزن، وسلكت سبيله بكل قدم، ولم أصل إلى مقام العزة حتى سرت بقدوم الذل.

وقال: مضت ثلاثون عاماً وكنت أقول: افعل هكذا، وامنح هكذا، وعندما وصلت إلى المعرفة، قلت في أول خطوة: يا إلهي، كن لي وافعل ما تريد.

وقال: ذكرت الله ثلاثين عاماً، وعندما فرغت، نظرت، فكان ذكرى حجاباً لي.

وقال: ناجيته في الحضرة ذات مرة، وقلت: «كيف الوصول إليك؟» فسمعت نداء: يا أبا يزيد «طلق نفسك ثلاثاً ثم قل الله».

وقال: إن طلب الحق تعالى مني حساب سبعين عاماً، أطلب منه حساب سبعين ألف عام، فقد قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾^(١) وهاج الجميع بسبب قول بلى، وجملة الفتن في السموات

(١) سورة الأعراف: جزء من الآية (١٧٢).

والأرض بسبب شوق ألتست. ثم قال: بعد ذلك جاء خطاب (فحواه): اسمع الإجابة، في اليوم السابع نقطع جسدك إرباً إرباً، ونمنح الرؤية لكل ذرة منه ونقول: ها هو حساب السبعين ألف عام، ونضع الحاصل والباقي في كنفك.

وقال: إن بسطت الجنان الثماني في دارنا، وأقطعونا ولاية الدارين، لا نمنحهم بها قط آهة تصعد من روحنا وقت السحر على ذكر الشوق إليه، بل إن نفساً يصعد بسبب تباريح الشوق إليه لا نساويه بملك ثمانية عشر ألف عالم.

وقال: إن انمحت الرؤية في الجنة غداً، أنوح وأئن لدرجة أن أهل السبع جحيمات ينسون عذابهم بسبب بكائي ونواحي.

وقال: كل شخص من الأشخاص الذين سبقونا خضع لشيء، ولم نخضع نحن لشيء قط، وضحينا بأنفسنا مرة واحدة فداء له، ولا نطلبه من أجل أنفسنا؛ لأن مثقال ذرة من صفائنا إن حلت في صحراء لتخبط السموات والأرض بعضها ببعض.

وقال: أراد هو أن يرانا، ولم نرد نحن أن نراه، أي أن لا إرادة لعبد.

وقال: اتجهت للخلق أربعين عاماً، ودعوتهم إلى الحق، فلم يجبني شخص، فأشحت بوجهي عنهم، وعندما ذهبت إلى الحضرة، رأيتهم سبقوني جميعاً، أي أنني رأيت أن عناية الحق بالخلق أكثر من عنايتي بهم، وما كنت أريده، أوصله الحق (تعالى) بعنايته للجميع قبلي.

وقال: خرجت من بايزيديني كالحية من الجلد، ثم نظرت فرأيت العاشق والمعشوق والعشق واحداً؛ لأنه في عالم التوحيد يمكن أن يكون الجميع واحداً.

وقال: ذهبت من الله إلى الله، فصدر نداء مني إليّ: يا من أنت أنا، أي أنني وصلت إلى مقام الفناء في الله.

وقال: تجاوزت عدة آلاف من المقامات، ولما نظرت، رأيت نفسي في مقام حزب الله بمعنى أن الله (تعالى) لا سبيل إلى كنهه.

وقال: كان الحق (تعالى) امرأة لي طيلة ثلاثين عاماً، والآن أنا امرأة لنفسي أي لم يبق (ما كنته)، لأنني والحق كنا شركاء، وطالما لم أبق أنا فالحق تعالى امرأة لي وهنا أقول: إن الحق مرآتي، فهو يتحدث على لساني، وأنا فئيت.

وقال: جاورت هذه الحضرة أعواماً، وفي العاقبة رأيت الحيرة، ولم يكن نصيبنا سوى الحيرة. وقال: ذهبت إلى حضرة العزة، ولم يكن هناك عناء قط، فقد انشغل أهل الدنيا بالدنيا وحجبوا، وانشغل أهل الآخرة بالآخرة، والمدعون بالدعوى، وانشغل قوم من أرباب الطريقة والتصوف بالأكل والشرب والبكاء، وقوم آخرون بالسماع والرقص وكانوا من تقدموا الطريق

وقادوا الجيش قد ضلوا في بادية الحيرة، وغرقوا في بحر العجز.

قال: كنت أطوف حول البيت لفترة، ولما وصلت إلى الحق، رأيت البيت كان يطوف حولي.

قال: كنت أطلب قلبي ذات ليلة، ولم أجده، وفي السحر سمعت نداء: يا أبا يزيد اطلب شيئاً آخر سوانا، فما شأنك بالقلب!

وقال: ليس الرجل من يسعى وراء شيئاً، لكن الرجل من يأتي إليه كل ما يريد، أينما يكون، ويسمع الإجابة من كل من يتحدث إليه.

وقال: أوصلني الحق إلى مقام رأيت فيه الخلق جميعاً بين إصبعين من أصابعي.

وقال: يمنح المريد حلاوة الطاعة، وحين يفرح بها، تصير حجاب قربه.

وقال: أقل درجة للعارف هي: أن تكون صفات الحق فيه.

وقال: إن حرقت بالنار بدلاً من الخلق، أصبر لأنني ما زلت لم أظهر حبي له قط، وإن غفر ذنبي أنا وكل الخلائق؛ لأن الرأفة والرحمة من صفاته، وينتهي الأمر.

وقال: التوبة من المعصية واحدة ومن الطاعة ألف، أي أن العجب في الطاعة أسوأ من الذنب.

وقال: كمال درجة العارف احتراقه في المحبة.

وقال: يصح ادعاء علم الأزل من شخص يبدو عليه نور الذات في البداية.

وقال: عادت الدنيا، وذهبت إلى الخلق، وفضلت الله (تعالى) على المخلوقات، حتى استولت محبة الحق عليّ إلى حد أنني كرهت وجودي، ولما تخلصت من العناء، أنست ببقاء لطف الحق.

وقال: لله عباد إن عرضت عليهم الجنة بكل زينتها صرخوا منها كما صرخ أهل جهنم من جهنم.

وقال: العابد الحقيقي والعامل الصادق من يقطع رؤوس كل الرغبات بالسيف، وتفنّى كل شهواته وأمانيه في الحق، وهو يحب ما يريده الحق، وكذلك يرغب في أن يشاهده الحق.

وقال: ألا يدخل الحق (تعالى) العباد إلى الجنة برضائه؟ قالوا: بلى، وقال: عندما يهب رضاء لشخص، فماذا يفعل ذلك الشخص بالجنة؟

وقال: إن ذرة من حلاوة المعرفة في القلب أفضل من ألف قصر في الفردوس الأعلى.

وقال: إن وحدانيته تعجز كثيراً من الرجال الشجعان، وتمنح الرجولة لكثير من العجزة.

وقال: إن استطعتم الذهاب إلى حافة قاعدة الفناء الأولى، أدركتم هذا الحديث وإلا، فإن كل هذا الصلاح والزهد ليس إلا رياحاً تهب عليكم.

وقال: جزاء العارفين الجنة وهي وبال عليهم.

وقال: لا يضيركم الذنب إلى درجة هوان أخوة المسلمين وذلتهم.

وقال: الدنيا لأهل الدنيا غرور في غرور، والآخرة لأهل الآخرة سرور في سرور، ومحبة الحق لأهل المعرفة نور على نور.

وقال: العمل في المعاينة نقد، لكن في المشاهدة نقد النقد.

وقال: عبادة أهل المعرفة حراسة الأنفاس.

وقال: حين يصمت العارف، يكون مراده أن يتحدث مع الحق، وحين يغمض عينيه، يكون مقصوده أن ينظر إلى الحق عندما يفتحها، وحين يضع رأسه على ركبته، يكون طلبه ألا يرفعها حتى ينفخ إسرافيل من كثرة أنه مع الله (تعالى).

وقال: كن فارس القلب، وساحق الجسد.

وقال: علامة معرفة الحق الهروب من الخلق، والصمت في معرفته.

وقال: من ابتلي بالحق، لا يضمن بالملك عليه، ولا يذله (الحق تعالى) في الدارين.

وقال: جاء عشقه، ومحي كل ما كان دونه، ولم يتركنا بلا أثر، حتى بقي وحيداً، مثلما هو وحيد.

وقال: كمال العارف احترامه في محبة الحق.

وقال: غداً يذهب أهل الجنة لزيارتها، وعندما يعودون، تعرض عليهم صور، وكل من اختار صورة، لا يمنح السبيل لزيارتها.

وقال: لا شيء أفضل للعبد قط من أن يفنى فلا يملك الزهد ولا العلم ولا العمل وعندما يفنى عن الجميع، يبقى بالجميع.

وقال: ينبغي لهذه القصة «ألم» لأن لا شيء يتأتى من القلم.

وقال: يتحدث العارف كثيراً عن المعرفة، ويطوي سبيلها فلا تبقى المعارف ويصل العارف، ثم تنوب المعارف عن العارف، ولا يصل العارف إلى المعرفة، طالما يتذكر المعارف.

وقال: طلب العلم والأخبار جدير بشخص يتجاوز العلم إلى المعلوم، والخبر إلى المخبر لكن من يتعلم العلم للمباهاة، ويطلب به مكانة وزينة، ليقبله مخلوق، يصير كل يوم أبعد عن الله وأكثر هجرًا منه.

وقال: أي قدر للدنيا عند شخص يفكر في تركها.

وقال: يستحيل أن يعرف شخص الحق ولا يحبه، فلا قدر للمعرفة بدون المحبة.

وقال: تسمع صوتاً من جداول الماء الجارية، فكيف تأتي؟ وعندما تصل إلى البحر تسكن، ولا يزداد البحر أو ينقص من مجيئها وذهابها.

وقال: له عباد إن حجبوا عنه لحظة في الدنيا، ما عبدوه ولا طاعوه، أي أنهم عندما يحجبون يفتنون، وكيف يتعبد الفاني؟

وقال: من يعرف الله، لا يستطيع أن يفتح فمه بحديث آخر سوى ذكر الحق.

وقال: أقل شيء وجب على العارف التبرؤ من المال والملك، والحق إن طويت العالمين في محبته، يكون ذلك قليل بالنسبة له.

وقال: الحق ثواب العارفين من الحق.

وقال: يبحث العارفون في عيان المكان، ولا يقولون بأثر في الظاهر، وإن خطا مائة ألف آدمي من العرش إلى الثرى ومعهم ذريات كثيرة وأتباع ونسل وفير ومائة ألف ملاك مقرب مثل جبريل وميكائيل (عليهم السلام) خطوة من العدم في زاوية قلب العارف، لا يظنهم موجودين إلى جانب وجود الحق ومعرفته، ولا يعلم شيئاً عن ورودهم وخروجهم وإن كان على خلاف هذا، كان مدعيًا لا عارفًا.

وقال: يرى العارف المعروف، ويجلس العالم مع العالم، فيقول العالم: ماذا أفعل؟ ويقول العارف: ماذا يفعل هو؟

وقال: لا أهمية للجنة عند أحبة الحق، ومع كل هذا فإن أهل المحبة مهجورون بمحبتهم شأن أولئك القوم أنهم الطالب والمطلوب في النوم واليقظة، ومن الطلب والمحبة هم فارغون، وتغلبهم مشاهدة المعشوق، فالعشق لدى العاشق هو الرؤية الممكنة، وفي مواجهة المطلوب لطالبه النظر في طريق المحبة طغيان.

وقال: اطلع الحق على قلب أوليائه، فرأى أن بعض القلوب لا تستطيع أن تحتل معرفته، فانشغلت بعبادته^(١).

وقال: لا يحمل أحمال الحق سوى خواص الحماليين، فهم أذلاء المجاهدة، ومرتاظو المشاهدة.

وقال: ليت الخلق يستطيعون إدراك معرفته؛ لأن معرفتهم تتم بمعرفته.

وقال: اجتهد أن تحظى بلحظة لا ترى فيها في الأرض والسماء سوى الحق، أي أنك تغني بتلك اللحظة طوال عمرك.

(١) وردت في طبقات الصوفية (ص ٧١)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٣٩)، صفة الصفوة، ج ٤ (ص ٩٩).

وقال: علامة من يحبه الحق هي أن يهبه (الحق) ثلاث خصال: سخاوة كسخاوة البحر، وشفقة كشفقة الشمس، وتواضع كتواضع الأرض.

وقال: يطوف الحجاج حول الكعبة بأجسادهم، ويطلبون البقاء، ويطوف أهل المحبة حول العرش بقلوبهم ويطلبون اللقاء.

وقال: في العلم علم لا يعلمه العلماء، وفي الزهد زهد لا يعرفه الزهاد.

وقال: من يقع عليه الاختيار، ينتخب له فرعوناً يعذبه.

وقال: كل هذه الأقاويل والمشاكل والأصوات والحركات والرغبات خارج الحجاب، وفي داخله الصمت والسكون والهدوء.

وقال: هذا القدر من الجرأة لأن السيد غائب عن حضرة الحق، وعاشق لنفسه، وطالما حضر، فأني مجال للأقاويل.

وقال: صحبة الأخيار أفضل من العمل الطيب، وصحبة الأشرار أسوأ من العمل السيئ.

وقال: يجب أن يصرف (المرء) كل أعماله في المجاهدة، وحينئذ يرى فضل الله (عز وجل) لا فعله هو.

وقال: من عرف الله (عز وجل)، لا حاجة له بالسؤال، ولن تكون له حاجة، ومن لم يعرفه لا يدرك قول العارف.

وقال: العارف لا يعكر سبيله شيء قط، وكل كدورة تصل إليه تجعله صافياً.

وقال: النار هي عذاب ذلك الشخص الذي لا يعرف الله، لكن العارفين بالله يتعذبون بالنار.

وقال: يسلك ألف شخص هذا الطريق كل يوم، ويعودون بالإيمان ليلاً.

وقال: كل موجود يستند على قدمين: يضع واحدة على نصيبه، والأخرى (تذعن) لأوامر الحق، يرفع القدم الأولى، ويثبت القدم الثانية في مكانها.

وقال: من ترك الهوى، أدرك الحق.

وقال: من اقترب من الحق، ملك كل شيء وكل مكان؛ لأن الحق (تعالى) في كل مكان وله كل الأشياء.

وقال: العارف بالحق جاهل، والجاهل بالحق عارف.

وقال: العارف طيار والزاهد سيار.

وقال: من عرف الله يتعذب بالنار، ومن لم يعرف الله تتعذب به النار. ومن عرف الله يثاب بالجنة، وتصير الجنة وبلاً عليه.

وقال: لا يفرح العارف بشيء قط سوى الوصال.

وقال: نفاق العارفين أفضل من إخلاص المريدين.

وقال: أعتقد فيما يروى من أن إبراهيم وموسى وعيسى (صلوات الله عليهم أجمعين) قالوا: يارب، اجعلنا من أمة محمد. أظن أنهم أرادوا فضيحة هذه الحفنة الباحثة عن الرياسة كلا وحاشا، لكنهم رأوا رجلاً في أمة محمد غاصت أقدامهم تحت الثرى، وتجاوزت رؤوسهم أعلى العليين، وفقدوا هم وسط ذلك.

وقال: حظ الأولياء على تفاوت درجاتهم متعلق بأربعة أسماء، وقيام كل فرقة منهم مربوط باسم من أسماء الله وهو قول الله (عز وجل): ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾^(١). من كان نصيبه من هذه الأسماء (الظاهر) كان أكثر ملاحظة في عجائب قدرته، ومن كان نصيبه من هذه الأسماء (الباطن) يلاحظ ما يسري من الأنوار والأسرار، ومن كان نصيبه من هذه الأسماء (الأول) انشغل بأنه قد سبق، ومن كان نصيبه من هذه الأسماء (الآخر) كان قد علق اهتمامه بالمستقبل وبما سيكون، ولكل شخص من هذا الكشف قدر طاقته.

وقال: إن حولت لكم كل سعادة الخلق، فلا تتحولوا، ولو وقعت كل التعاسة في سبيلكم، لا تيأسوا، لأن أمر الله (عز وجل) ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٢) ومن ينظر إلى نفسه، ويرى عبادته خالصة، ويمكنه أن يكتسب كثيراً من صفاء كشفه، ولا يرى نفسه أخبث النفوس، لا حساب له قط.

وقال: من يُمت قلبه بكثرة الشهوات، يلف في كفن اللعنة، ويدفن في أرض الندامة، ومن يُمت نفسه بالإعراض عن الشهوات، يلف في كفن الرحمة، ويدفن في أرض السلامة.

وقال: لم يصل إلى الحق (تعالى) من وصل إليه إلا بحفظ الحرمة، ولم يسقط في الطريق من سقط إلا بترك الحرمة. وقال: لا يمكن أن يدرك هذا الحديث بالطلب قط، لكن لا يفهمه سوى الطالبين.

وقال: عندما يصيح المريد وينادي يكون حوضاً، وعندما يصمت يصير بحرًا مملوءًا بالدم.

وقال: إما أن تبدو كما تكون أو تكون كما تبدو.

وقال: من يؤجل الله ثوابه للغد، فإنه لم يعبد اليوم؛ لأن ثواب كل نفس من المجاهدات وارد في الحال.

وقال: العلم عذر، والمعرفة مكر، والمشاهدة حجاب، ومن ثم كيف ستدرك شيئاً تطلبه؟!

(١) سورة الحديد: الآية (٣).

(٢) وردت هذه الآية في كثير من سور القرآن منها سورة يس: الآية (٨٢).

وقال: قبض القلوب في بسط النفوس، وبسط القلوب في قبض النفوس.

وقال: النفس صفة لا تتجه قط إلا للباطل.

وقال: الحياة في العلم، والراحة في المعرفة، والرزق في الذكر.

وقال: شوق العشاق هو دار الملك، وُضع فيها عرش من سيف الفراق، وأشهر فيها سيف من هول الهجران، وغُرس فيها غصن من نرجس الوصال في يد الرجاء، وفي كل لحظة يضربون ألف رأس بذلك السيف.

وقال: مرت سبعة آلاف عام، وما زال ذلك النرجس غصًا طريًا؛ لأن يدًا لم تأمل في الوصول إليه قط.

وقال: المعرفة أن تعرف أن حركات الخلق وسكناتهم بالله.

وقال: التوكل هو الإعداد للحياة يوم واحد وإطاحة التفكير في الغد.

وقال: كثرة الذكر ليست بالعدد بل بالحضور دون غفلة.

وقال: المحبة أن تعد الكثرة منك قلة، والقلة من الحق كثرة.

وقال: المحبة ألا تحب الدنيا والآخرة.

وقال: اختلاف العلماء رحمة إلا في التجريد والتوحيد^(١).

وقال: الجوع غيم لا تمطر سوى أمطار الحكمة^(٢).

وقال: أبعد الخلائق عن الحق أكثرهم إشارة إليه^(٣).

وقال: أقرب الخلائق إلى الحق هم الذين يتحملون عناء الخلق، ويتمتعون بالطبع الحسن.

وقال: نسيان النفس ذكر للحق، ومن يعرف الحق بالحق يحيا، ومن يعرف الحق بنفسه يفنى.

وقال: يشبه قلب العارف سرًا في قنديل من زجاجة صافية، يضيء شعاعه جملة الملكوت، فأى خوف له من الظلام؟

وقال: وهلاكه في شيئين: عدم مراعاة حرمة الخلق، وعدم مراعاة منة الحق.

قالوا: ما الفريضة وما السنة؟ قال: الفريضة صحبة المولى والسنة ترك الدنيا^(٤).

(١) وردت في طبقات الصوفية (ص ٧٠)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٣٦)، صفة الصفوة، ج ٤ (ص ٥٨).

(٢) وردت في حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٣٩) مع الاختلاف.

(٣) وردت في طبقات الصوفية (ص ٧٤)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٣٩)، صفة الصفوة، ج ٤ (ص ٩٩، ١٠٠).

(٤) وردت في طبقات الصوفية (ص ٧٤).

يروى أن مريدًا كان يمضي إلى سفر، فقال للشيخ: عطني، قال: أوصيك بثلاث خصال: عندما تصاحب سيئًا حسن طبعه السيئ بطبعك الحسن، حتى يطيب عيشك ويهنأ، وعندما ينعم عليك شخص، اشكر الله أولاً، وبعد ذلك اشكر ذلك الشخص الذي جعل الحق (تعالى) قلبه يعطف عليك، وعندما يصيبك بلاء، اعترف بالعجز واطلب النجدة لأنك لا تستطيع الصبر، ولا يخاف الحق^(١).

سئل عن الزهد فقال: لا قيمة للزهد، فقد زهدت ثلاثة أيام: في اليوم الأول زهدت في الدنيا، وفي اليوم الثاني زهدت في الآخرة، وفي اليوم الثالث زهدت فيما سوى الله. هتف هاتف: يا أبا يزيد، لا طاقة لك بنا، قلت: هذا هو مرادي، قرّن في أذني أصبت، أصبت. وقال: (بلغ) كمال رضائي عنه إلى حد أنه لو خلد عبد في العليين وخلدني أسفل السافلين، أكون أكثر رضاء من ذلك العبد.

سئل: متى يصل العبد إلى درجة الكمال؟ قال: عندما يعرف عيبه، ويرفع الهمة عن الخلق، عندئذ يقربه الحق إليه بقدر همته وبقدر بعده عن نفسه.

قالوا: تأمرنا بالزهد العبادة ولا تزيد من زهدك وعبادتك! فصاح الشيخ صيحة وقال: قد انشق الزهد والعبادة عليّ.

سئل: كيف السبيل إلى الحق؟ قال: انهض للطريق تصل للحق.

قالوا: بما يمكن الوصول للحق؟ قال: بالعمى والصم والخرس.

قالوا: سمعنا كثيراً من أقوال الشيخ، وليس هناك قول أعظم من قولك قط، فقال: إنهم تحدثوا في بحر صفاء المعاملة، وأتحدث أنا عن بحر صفاء السنة، فهم يتحدثون مختلطين وأتحدث أنا خالصاً، ولا يظهر المشوب مشوباً، هم قالوا: أنت ونحن، وأنا أقول: أنت أنت!

وطلب شخص وصية، فقال له: انظر إلى السماء، فنظر، قال: أتعرف من خلقها؟ قال: بلى، قال: الذي خلقها مطلع عليك أينما تكون، فاحذره.

قال رجل: لا يهدأ هؤلاء الطالبون عن السياحة، فقال: المقصود مقيم وليس مسافراً، وطلب المقيم محال في السفر.

قالوا: من نصاحب؟ قال: من يعاودك حين تمرض، ويقبل توبتك حين تذب^(٢) وكل شيء يعلمه الحق عنك ليس خافياً عليه.

(١) طبقات الصوفية (ص ٧٣).

(٢) وردت في حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٣٨)، صفة الصفة، ج ٤ (ص ١٠١).

قال رجل: لماذا لا تصلي ليلاً؟ قال: لا وقت لدي للصلاة إنني أطوف حول الملكوت، وأخذ بيده في كل مكان حل فيه، أي أنني أعمل في سريرتي.

قالوا: ما أعظم علامة للعارف؟ قال: أن يأكل معك، ويفر منك، ويشترى منك، ويبيع لك، ويكون قد وضع قلبه على وسادة الأنس في حضرات القدس.

وقال: العارف هو الذي لا يرى في المنام سوى الله عز وجل، ولا يرافقه شخصاً سواه، ولا يفصح بسرّه إلا له.

وسئل عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال: نحن في ولاية ليس فيها أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، فكلاهما في ولاية الخلق، وليس هناك أمر بالمعروف ونهي عن المنكر في حضرة الوحدة.

قالوا: متى يعرف الرجل أنه قد وصل إلى حقيقة المعرفة؟ قال: حين يفنى تحت اطلاع الحق، ويبقى على بساطه بعيداً عن الخلق بلا نفس ثم يكون فانيًا باقياً، وباقيًا فانيًا، وميتًا حيًا، وحيًا ميتًا، ومحجوبًا مكشوفًا، ومكشوفًا محجوبًا.

قالوا للشيخ: يتحدث سهل بن عبد الله^(١) (رحمة الله عليه) في المعرفة، فقال: مضى سهل على شاطئ البحر وسقط في دوامة، قالوا: أيها الشيخ، كيف يكون حال من يغرق في البحر؟ قال: إما أنه يرى الخلق أو يتبع الكونين، ولا يطوي بساط القيل والقال لأن «من عرف الله كل لسانه»^(٢).

قالوا: ما الفقر؟ قال: أن يضع الشخص قدمه على كنز في زاوية قلبه، ويسمى ذلك افتضاح الآخرة لأنه يجد في ذلك الكنز جوهرًا يسمى المحبة، ومن وجد ذلك الجوهر، هو فقير.

قالوا: متى يصل الرجل إلى الله؟ قال: لا يصل قط أيها المسكين.

قالوا: بما نلت ما نلت؟ قال: جمعت أسباب الدنيا، وقيدتها بزنجير القناعة، ووضعتها في منجنيق الصدق، وألقيت بها في بحر اليأس.

قالوا: كم عمرك؟ قال: أربعة أعوام، قالوا: كيف؟ قال: مضت سبعون عامًا كنت فيها في حجب الدنيا، لكن آراه منذ أربعة أعوام، بناء على هذا لا تسأل، ولا يحسب زمن حجابي من عمري.

قال أحمد خضرويه للشيخ، ألا أدرك نهاية التوبة، فقال الشيخ: لنهاية التوبة عزة، والعزة صفة الحق، فكيف يمكن لمخلوق إدراكها؟

(١) سهل بن عبد الله: انظر الكتاب (ص ٤٩٧).

(٢) لم يرد هذا الحديث في مصادر الحديث الموثوقة.

سئل عن الصلاة، فقال: هي وصال ولا يكون الوصال إلا بعد القطع.
قالوا: كيف السبيل إلى الله؟ قال: ابتعد عن السبيل واتصل بالله.
قالا: لماذا تمدح الجوع؟ قال: إن كان فرعون جائعاً لما كان يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ أَتَعْلَى﴾ (١) قط.
وقال: لا يشتتم متكبر قط رائحة المعرفة، قالوا: وما علامة المتكبر؟ قال: من يرى نفساً أخبث
من نفسه في الثمانية عشر ألف عالم.
قالوا: إنك تسير على الماء! فقال: تسير قطعة الخشب على الماء.
قالوا: وتطير في الهواء! قال: تطير الطيور في الهواء، قالوا: تسير إلى الكعبة ليلاً! قال: يذهب
الساحر من الهند إلى دوماندا ليلاً. قالوا: وما دأب الرجل إذن؟ قال: ألا يعلق قلبه سوى بالله عز
وجل.
قالوا: كيف كان حالك في المجاهدات؟ قال: ظللت في المحراب ستة عشر عاماً، ورأيت
نفسي كامراًة حائض.
وقال: طلقت الدنيا ثلاث طلقات، وانفردت للواحد، ومثلت أمام الحضرة، وقلت: يا إلهي،
ليس لي سواك، وطالما أنت لي فالكل لي. ولما علم بصدقي، فإن أول فضل تفضل به عليّ هو
أنه نزع عن نفسي إرادتها (٢).
وقال: أمر الحق (تعالى) (بأمر) ونهى (عن أخرى)، من أطاعوا أوامرهم خلع عليهم خلعة
فشغلوا بها وأنا لم أرد منه سواه (٣).
وقال: ذكرته كما ذكره الخلق حتى صار ذكرى ذكره، ثم هاجمتني معرفته وأفتني، ثم
هاجمتني مرة أخرى وأحيتني.
وقال: ظننت أنني أحبه، ولما نظرت (وجدت أن) محبته سبقت محبتي.
وقال: غرق الجميع في بحر العمل، واعتليت أنا دوامة فيه، أي رأى الآخرون رياضاتهم
ورأيت أنا عناية الحق.
وقال: تلقى الناس العلم من الموتى، وتلقيناه نحن من الأحد الذي لا يموت قط ومن ثم
يتحدث الجميع إلى الحق وأتحدث أنا عن الحق. لا جرم أنه قال: ليس هناك شيء قط أقسى
عليّ من متابعة العلم (٤)، أي علم التعليم الظاهر.

(١) سورة النازعات: الآية (٢٤).

(٢) وردت في حلية الأولياء، جـ ١٠ (ص ٣٦) مع الاختلاف.

(٣) وردت في طبقات الصوفية (ص ٧٢)، وحلية الأولياء، جـ ١٠ (ص ٣٩)، صفة الصفوة، جـ ٤ (ص ٩٨).

(٤) وردت في طبقات الصوفية (ص ٧٠)، حلية الأولياء، جـ ١٠ (ص ٣٦)، صفة الصفوة، جـ ٤ (ص ٩٨).

وقال: دعوت النفس للحق، فلم تجب، فتركتها، وذهبت إلى الحضرة بمفردي.

وقال: حمل قلبي إلى السماء، فطاف حول الملكوت وعاد، قلت: بما جئت؟ قال: المحبة والرضا^(١)، بحيث ملكت الاثنين فصار ملكًا لهما.

وقال: عندما عرفت الحق (تعالى) بعلمي، قلت: لو أنه ليس كافيًا لك بكفايته لا يرضى لك بكفاية شخص قط، حتى ألحقت الجوارح بالخدمة، كلما كانت تكسل كنت أنشغل بعضو آخر حتى صارت أبا يزيد.

قال: أردت أن أعرف ما هي أقسى عقوبة لجسدي فلم أر أسوأ من الغفلة، ولا تفعل نار جهنم بالناس ما تفعله بهم ذرة من الغفلة.

وقال: أصلي منذ أعوام، وظننت في نفسي أنني سأقضي على زردشتيتي وسأقطع زناري في كل صلاة.

وقال: شأن النساء أفضل من شأننا فهم يغتسلون بالماء من النجاسة، ولم نغتسل نحن طوال عمرنا من الطهارة^(٢).

وقال: صدقت لأبي يزيد كلمة طوال عمره وهي أنه لا يخاف من شيء قط.

وقال: إن قيل لي غداً في العرصات: لماذا لم تفعل (كذا)^(٣)؟ أحب إليّ من أن يقال لي: لماذا فعلت؟ أي أن كل شيء أفعله له يكون فيه الأنا والأنا شرك والشرك أسوأ من الذنب سوى طاعة تسري عليّ، وأكون فانيًا فيها.

وقال: الله (تعالى) مطلع على أسرار الخلائق، وكل سر ينظر إليه يراه فارغًا سوى سر أبي يزيد فهو يراه منعماً به.

وقال: ما أكثر المقربين إلينا والبعيدين عنا، وما أكثر البعيدين عنا والمقربين إلينا.

وقال: رأيت في المنام أنني كنت أريد من الحق (تعالى) ما هو بعد التوحيد، ولما استيقظت، قلت: يارب، إنني لا أريد ما هو بعد التوحيد.

وقال: رأيت الحق في المنام قال لي: يا أبا يزيد، ما تريد؟ قلت: أريد ما تريده، فقال: أنا لك كما أنك لي.

وقال: رأيت الحق (عز وجل) في المنام، فسألته: كيف السبيل إليك؟ قال: اترك نفسك تصل إليّ^(٤).

(٢) وردت في صفة الصفوة، ج٤ (ص ١٠١) مع الاختلاف.

(١) وردت في صفة الصفوة، (ص ١٠١).

(٣) وردت في حلية الأولياء، ج١٠ (ص ٣٩).

(٤) وردت في صفة الصفوة، ج٤ (ص ١٠٢).

وقال: يظن الخلق أنني فرد مثلهم، وإن اطلعوا على صفتي في عالم الغيب لهلكوا.

وقال: مثلي كمثل البحر ليس له عمق ظاهر، ولا أول واضح ولا آخر.

وسأله شخص: ما العرش؟ قال: أنا، قال: والكرسي؟ قال: أنا، قال: واللوح والقلم؟ قال:

أنا، قالوا: لله (تعالى) عباد غير إبراهيم وموسى وعيسى (صلوات الله عليهم أجمعين) قال: أنا كل أولئك. فصمت الرجل، فقال أبو يزيد: بلى، كل من فنى في الحق، أدرك حقيقة كل ما هو موجود، فكله الحق، وإن فنى ذلك الشخص، يرى أنه (في حد ذاته) الحق، فلا عجب، والله أعلم وأحكم.



معراج الشيخ أبي يزيد

قدس الله روحه



نذكر هذا ونختم:

قال الشيخ: نظرت إلى الحق بعين اليقين، بعد أن أوصلني إلى درجة الاستغناء عن جميع الموجودات، وجعلني أستنير بنوره، وكشف لي عجائب الأسرار، وأظهر لي عظمة هويته. ونظرت إلى نفسي بالحق، وتأملت أسراري وصفاتي، فكان نوري ظلمة إلى جانب نور الحق، وصارت عظمتي عين الحقارة إلى جانب عظمة الحق، فتلاشت عزتي إلى جانب عزته، هناك كان كل الصفاء، وهنا كانت كل الكدورة. عندما نظرت ثانية، رأيت نفسي بنوره وعلمت أن عزتي من عظمته وعزته، وكل شيء فعلته، استطعت أن أفعله بقدرته، وكل ما أدركته عين قلبي أدركته به.

نظرت بعين الإنصاف والحقيقة، فكانت كل عبادتي من الحق لا مني، وكنت قد ظننت أنني أعبد.

قلت: يا إلهي، ما هذا؟ قال: أنا كل ذلك، وليس سواي، أي مباشر الأفعال لكني أنا المقدر والميسر لك، وطالما لا يحل توفيقي، لا يتأتى شيء من طاعتك، فرويتي نابعة من رؤيته؛ لأنه سيطر على عيني، وعلمني النظر إلى أصل أمره وهويته، وأفناني عن نفسي، وأبقاني ببقائه، وأعزني، وبيّن لي وجودي دون عناء، لا جرم أوضح الحق بالحقيقة لي، ونظرت من الحق إلى الحق، ورأيت الحق بالحقيقة وأقمت هناك، وسكنت، وشحذت أذن الاجتهاد، وسحبت لسان الحاجة في حلق الإخفاق وتركت اكتساب العلم، وقضيت على عناء النفس الأمار، واستقرت فترة بدون حركة وأزلت الفضول عن طريق الأصول بيد التوفيق، فتعطف الحق عليّ، ووهبني العلم الأزلي، ووضع لساناً من لطفه في حلقي، وخلق عيني من نوره، فرأيت جميع الموجودات بالحق.

عندما ناجيت الحق بلسان اللطف، وحصلت على علم من علم الحق، ونظرت بنوره إليه قال: يا من أنت الجميع دون الجميع مع الجميع، وبآلة دون آلة. فقلت: يا إلهي، لا أغتر بهذا،

ولا استغنى بوجودي عنك، إن كنت لي بدوني أفضل من أن أكون لي بدونك، وإن تحدثت بك إليك أفضل من أن أتحدث إلى نفسي بدونك. قال: الآن أنصت إلى الشريعة، ولا تتجاوز حد الأمر والنهي حتى يكون سعيك مشكوراً لدينا. قلت: لأن لي دين ولقلبي يقين إن شكرت نفسك، تشكر لأنك الخالق، وإن تدم فإنك منزّه.

قال لي: ممن تعلمت؟ قلت: يعلم السائل أفضل من المسئول لأنه المراد والمريد، والمجيب والمجيب أيضاً. عندما رأى صفاء سريرتي، سمع قلبي نداء من رضا الحق، وخلع عليّ خلعة الرضاء، وجعلني أستنير، وأتجاوز ظلمة النفس وكدورات البشرية، فعلمت أنني أحيا به، وطرح بفضلته بساط السرور في قلبي، وقال: اطلب ما تريد، فقلت: أريدك أنت، فإنك أفضل من الفضل، وأعظم من الكرم، منعت عنك بك، طالما تكون لي، أطوي منشور الفضل والكرم، لا تردني عنك، ولا تحضر لي ما هو دونك. فلم يجبني زمناً ثم وضع تاج الكرامة على مفريقي، وقال لي: إنك تقول الحق، وتبحث عن الحقيقة؛ لأنك رأيت الحق وسمعته. فقلت: إن رأيت رأيت بك، وإن سمعت سمعت بك، فقد سمعت أنت أولاً ثم أنا، وأثنت عليه، لا جرم أنه وهبني جناحاً من الكبرياء، فحلقت في ميادين عزه، فكنت أرى عجائب صنعته، وعندما علم بضعفي، وعرف حاجتي، جعلني أقوى بقوته، وزينني بزینته ووضع تاج الكرامة على رأسي، وفتح لي باب قصر التوحيد ولما علم أن صفاتي من صفاته خلع عليّ اسماً من حضرته، وشرفني به، وتجلت الوحدة، وزالت الإثنية، وقال: رضاؤنا رضاؤك، ورضاؤك رضاؤنا، لا يقبل قولك الدم، ولا يمتن شخص عليك، ثم أذاقني جرح الغيرة، وأحياناً ثانية، وخرجت من بوتقة الامتحان خالصاً، فقال: لمن الملك؟ قلت: لك، قال: لمن الحكم؟ قلت: لك، قال: لمن الاختيار؟ قلت: لك لما كان الكلام هو نفس الكلام الذي سمعته في البداية، أراد أن يبين لي أنه لو لم تكن رحمته سبقت، لما ارتاح الخلق قط، ولو لم تكن محبته، لاجتاحت قدرة الدمار الجميع، ثم نظر إليّ نظرة الفهار بواسطة الجبار، فلم ير أحد أثراً لي من الآدمية، وعندما ألقى نفسي في كل وادي وأنا ثمل، وصهرت جسدي في كل بوتقة بنار الغيرة، وهاجمت بجواد الطلب في فضاء الصحراء، لم أر صيداً أفضل من الحاجة، ولم أجد شيئاً أفضل من العجز، ولم أر سراجاً أضوأ من الصمت، ولم أسمع قولاً أفضل من الصمت، فسكنت قصر السكوت، وارتديت صدره الصبر ووصل بي الأمر إلى أنني رأيت ظاهري وباطني خالياً من علة البشرية، فانفرجت فرجة من الفرج في صدري المظلم، ومنحني لساناً من التجريد والتوحيد، لا جرم أن لسانني الآن من اللطف الصمداني، وقلبي من النور الرباني، وعيناي من الصنع الإلهي، أتحدث بمدده، وأخذ بقوته، طالما أحيا به، فلن أموت قط، طالما أدركت هذا المقام فإن إشارتي أزلية وعبادتي أبدية، ولساني التوحيد،

ونفسي نفس التجريد. لا أتحدث عن نفسي، فأكون المحدث أو أتحدث إلى نفسي فأكون أنا المذكر، فهو يحرك اللسان بما يريد وأنا الترجمان، متحدث بحقيقته هو لا أنا. الآن، عندما جعلني عظيمًا قال لي: يريد الخلق أن يروك، فقلت: وأنا لا أريد أن أراهم إن أحببت أن تظهرني لهم، لا أخالفك، زيني بوحدانيتك، فعندما يراني الخلق، يتأملون صنعك، ويرون الصانع، و(أنعدم) أنا. فحقق لي هذا المراد، ووضع تاج الكرامة على رأسي، جعلني أتجاوز مقام البشرية، ثم قال: تعال أمام خلقي، فخطوت بقدم من الحضرة، ووقعت بالثانية، وسمعت نداء: هاتوا حبيينا، فإنه لا يستطيع الوجود بدوني، ولا يعرف الطريق إلا بي.

وقال: عندما أدركت الوحدانية، وكانت تلك أول لحظة نظرت فيها إلى التوحيد، أسرع في ذلك الوادي أعوامًا بقدّم الإفهام، حتى صرت طائرًا، عيناه من الوحدة وجناحاه من الديمومة، وكنت أحلق في هواء الكيفية ولما غبت عن المخلوقات، قلت: وصلت إلى الخالق، ثم طللت برأسي من وادي الربوبية، وتجرعت كأسًا لا أرتوي إلى الأبد عطشًا إليه، ثم حلقت ثلاثين ألف عام في فضاء وحدانيته، وحلقت ثلاثين ألف أخرى في الألوهية، وثلاثين ألف أخرى في الفردانية، ولما انقضت تسعون ألف عام، رأيت أبا يزيد، وكل شيء رأيت كان أنا، ثم قطعت أربع آلاف بادية، ووصلت في النهاية ولما نظرت، رأيت نفسي في أول درجة للأنبياء، وطويت مسافة في ذلك اللامتناهي، وقلت: لم يصل شخص إلى أعلى من هذه الدرجة والمقام الأسمى من هذا المقام غير ممكن ولما أمعنت النظر، رأيت رأسي على قدم أحد الأنبياء، فعلمت أن نهاية حال الأولياء هي بداية أحوال الأنبياء، ولا غاية لنهاية الأنبياء.

ثم مرت روحي على جملة الملوك، وبدت لها الجنة والنار، فلم تلتفت إليهما قط وكل شيء اعترأها، لم تطقه، ولم تصل إلى روح نبي قط إلا وسلمت، ولما وصلت إلى روح المصطفى ﷺ رأيت هناك مائة ألف بحر ناري لا حد لها، وألف حجاب من نور فإن كنت قد خطوت إلى أول البحر لا احترقت، وضعت هباء، لا جرم أنني ذهلت من الهيبة والدهشة إلى أن ففيت، ومهما حاولت رؤية رباط خيمة محمد (رسول الله) لم أستطع ذلك ومع أنني وصلت إلى الحق، لم أطق الوصول إلى محمد ﷺ، أي أن كل شخص يمكنه الوصول إلى الله (تعالى) بحسب قدره، لأن الحق مع الجميع، لكن محمد هو باب الحرم الخاص أمامه فلا جرم طالما لا تقطع وادي لا إله إلا الله لا يمكنك الوصول إلى وادي محمد رسول الله، وفي الحقيقة الواديان كلاهما واحد.

كما شرحنا ذلك المعنى في أن مرید أبي تراب كان يرى الحق، ولم يطق رؤية أبي يزيد.

ثم قال أبو يزيد: يا إلهي، كل ما رأيته، كان أنا، لا سبيل لي إليك بأنيتي، ولا معبر لي من نفسي، لما ينبغي علي أن أفعل؟ قال: خلاصك من أنيتك في متابعة حبيينا محمد العربي ﷺ،

كحل عينك بتراب قدمه، وداوم على متابعتة.

أعجب من قوم يعظمون شخصًا بالنبوة، وعندئذ يتحدثون بخلاف هذا، ولا يعرفون معنى هذا. كما قالوا لأبي يزيد: سيكون الناس يوم القيامة تحت لواء محمد ﷺ فقال: بربوبية الله، إن لوائي سيعلو لواء محمد، وسيكون الأنبياء والخلائق تحت لوائي. أي أنهم لا يجدون في السماء مثيلاً لي، ولا يعرفون صفتي في الأرض، فصفتي غائبة في الغيب، والحديث عما هو غائب في الغيب جهل محض، وكله غيبة. وشخص على هذا النحو كيف يكون هذا الشخص هو نفسه، بل إن لهذا الشخص لسان الحق، وهو يتحدث عن الحق أيضاً، وقال: من كان نطقه بمن لا ينطق، ولا يسمع ولا يبصر، لا جرم أن الحق يتحدث على لسان أبي يزيد، ويفسر ذلك: «لوائي أعظم من لواء محمد» بل لواء الحق أعظم من لواء محمد، فطالما تجيز أن تنبعث «إني أنا الله» من شجرة، فأجز أن تصدر «لوائي أعظم من لواء محمد» «وسبحاني ما أعظم شاني» من شجرة سليقة أبي يزيد.

والله أعلم وأحكم.



مناجاة الشيخ أبي يزيد

قدس الله روحه العزيز



لأبي يزيد مناجاة، (يقول فيها):

إلهي، إلام تظل الأنية والأنتية بيني وبينك، ارفع الأنية؛ حتى تلحق أنيتي بك وينعدم وجودي.
وقال: إلهي، طالما أنا معك، فأنا أكثر من الجميع، وطالما أنا مع نفسي، أكون أقل من الجميع.
وقال: إلهي، أوصلني إليك الفقر والفاقة، ولم يزلهما لطفك، وقال: إلهي، لا يلزمني زهد،
ولا قراءة، ولا علم، إن أردت أن تجعلني أهلاً لشيء، اجعلني أهلاً لشمة من أسرارك، وأوصلني
إلى درجة أحبائك، فأتدلل عليك، وأصل منك إليك.

إلهي، ما أطيب واقعات إلهامك على خطرات القلوب، وما ألطف طريقة إفهامك في سبل
الغيب، وما أعظم الحال التي لا يستطيع الخلق كشفها، ويعجز اللسان عن وصفها ولا تنته هذه
القصة.

وقال: إلهي، لا عجب أنني أحبك، وأنا عبد عاجز وضعيف ومحتاج، العجب أنك تحببني
وأنت الإله والملك والمستغني^(١).

وقال: إلهي، هذا فرحي بك وأنا أخافك فكيف فرحي بك إذ أمتك^(٢).

يروى أن أبا يزيد حظى بقرب حضرة العزة سبعين مرة، كلما كان يعود، كان يعقد زنازاً
ويقطعه ثانية، ولما انتهى عمره ذهب إلى المحراب وعقد زنازاً، وكان لديه فراء، ارتداه مقلوباً،
ووضع عمامة مقلوبة على رأسه، وقال: إلهي لا أبيع رياضة العمر كله، ولا أعرض صلاة كل
الليالي، ولا أتحدث عن صوم العمر كله، ولا أحصي خواتم القرآن، ولا أتحدث عن الأوقات
والمناجاة والقرب، وأنت تعلم أنني لا أنظر إلى شيء قط، وهذا الذي أشرحه بلساني ليس
بسبب التفاخر أو الاعتماد عليه، بل أذكره لأنني أخجل مما فعلته، وقد خلعت عليّ هذه الخلعة
وهي أن أرى نفسي هكذا، وكل هذا لا شيء، والظن أنه العدم. أنا تركماني، أبيض شعري في

(١) وردت في حلية الأولياء، جـ ١٠ (ص ٣٤)، صفة الصفوة، جـ ٤ (ص ٩٩).

(٢) وردت في طبقات الصوفية (ص ٧١)، صفة الصفوة، جـ ٤ (ص ٩٩).

الزردشتية، أعود الآن من الصحراء وأقول: تنكري، تنكري^(١). وأتعلم الآن قول: الله، الله، أقطع الزنار الآن، وأضع قدمي في دائرة الإسلام، وأنطق الآن بالشهادة، لا علة لأمرك، قبولك ليس بالطاعة، وليس بسبب المعصية، كل شيء فعلته، ظننته هباءً، وكل شيء تراه مني لا يليق بحضرتك، اعف عنه، وانفض غبار المعصية عني فإنني نفضت غبار الوهم في الطاعة.

يروى أن الشيخ كان يكثر من قول الله، الله في البداية، وكان يقوله في النزاع أيضًا، ثم قال: يارب، لم أذكرك قط إلا في غفلة، والآن حيث تصعد الروح أنا غافل عن طاعتك، ولا أعلم متى سيكون الحضور، ثم أسلم الروح وهو في الذكر والحضور.

في تلك الليلة التي أدركته فيها الوفاة، كان أبو موسى غائبًا، قال: رأيت في المنام أنني قد وضعت العرش على مفريقي، وكنت أحمله، وأعجب. وفي الصباح توجهت لأقص المنام على الشيخ وكان الشيخ قد توفي، وكان خلق غفير قد جاء من الأطراف، ولما رفعوا نعشه، سعت كي يفسحوا لي ناحية من النعش، ولم أتمكن منه فنقد صبري وزججت بنفسي تحت النعش ورفعته على رأسي، وأخذت في السير، وكنت قد نسيت ذلك المنام، فرأيت الشيخ قال: يا أبا موسى، هذا هو تفسير منام الأسس، وذلك العرش الذي قد حملته هو نعش أبي يزيد.

يروى أن مريدًا رأى الشيخ في المنام، فقال: كيف تخلصت من منكر ونكير؟ قال: عندما سألاني هذان العزیزان، قلت: عجبًا من هذا السؤال! لأنني لو أقول: هو ربي فلا يصدر هذا القول مني قط، لكنه عاد وسأل: من أنا بالنسبة له؟ ما يقوله هو يكون، فلو قلت: هو ربي مائة مرة، فلا جدوى طالما لا يعدني هو عبدًا له.

رآه شيخ في المنام قال: ماذا فعل الله (عز وجل) بك؟ قال: سألني: يا أبا يزيد ماذا أحضرت؟ قلت: يا إلهي، لم أحضر شيئًا يليق بعزتك، ومع هذا لم أجيء بالشرك أيضًا (فقال الحق تعالى): ولا ليلة اللبن؟ ألم تشرك في تلك الليلة؟ قال: كنت قد شربت لبنًا ذات ليلة، فآلمتني بطني، فعاتبني الحق (تعالى) قائلاً: إلى هذا الحد، أي أن هناك فعالًا غيري.

يروى أنه عندما دفن الشيخ، جاءت أم علي التي كانت زوجة لأحمد خضرويه، لزيارته، ولما فرغت من الزيارة، قالت: أتعلمون من كان الشيخ أبي يزيد؟ قالوا؟ أتعلمين أنت؟ فقالت: كنت أطوف حول الكعبة ذات ليلة، وجلست برهة، واستغرقت في النوم، وهكذا رأيت أنني حملت إلى السماء، حتى وصلت أسفل العرش، وهناك رأيت صحراء لا يبدو طولها ولا عرضها، قد امتلأت بالورد والرياحين، ومكتوب على كل ورقة ورد: أبو يزيد ولي الله.

(١) تنكري، تنكري: كلمة تركية قديمة بمعنى المعبود أو الله واستعملت في هذه العبارة على أساس أن عبادة الأصنام راجت في تركستان ويريد أبو يزيد أن يقول: إن كل ما فعلته حتى الآن قد كان عبادة للأصنام. د. استعلامي (ص ٨٣٩).

يروى أن شيخًا قال: رأيت الشيخ في المنام، فقلت: عطني، قال: الناس في بحر بلا نهاية، والبعد عنهم سفينة، فاجتهد أن تجلس في هذه السفينة، وتخلص الجسد المسكين من هذا البحر. يروى أنهم رأوا الشيخ في المنام، فقالوا له: ما التصوف؟ قال: إغلاق باب الراحة أمامه والجلوس خلفه على ركبة المحبة.

وعندما جاء الشيخ أبو سعيد بن أبي الخير لزيارة الشيخ وقف برهة، وفي طريق عودته، كان يقول: هذا هو المكان الذي كل من يفقد فيه شيئًا في الحياة يجده ثانية. رحمة الله عليه واسعة وسلم تسليمًا.



ذكر عبد الله بن المبارك^(١)

رحمة الله عليه



هو زين الزمان، وركن الأمان، هو إمام الشريعة والطريقة، وذو الجهادين في الحقيقة^(٢)، هو أمير القلم والسيوف، عبد الله بن المبارك (رحمة الله عليه). وقد سمي ملك العلماء ولم يكن له نظير في العلم والشجاعة، وكان من سادة أصحاب الطريقة ومن المحترمين بين أرباب الشريعة، وله في فنون العلوم أحوال محموددة، وكان قد أدرك كبار المشايخ وصحبهم، وكان مقبولا لدى الجميع، وله تصانيف مشهورة وكرامات مذكورة.

ذات يوم كان قادما، فقال له سفيان الثوري^(٣): «تعال يا رجل المشرق» وكان الفضيل حاضرا، فقال: «والمغرب وما بينهما»^(٤). وشخص يفضل الفضيل، كيف يمكن مدحه؟

وكانت بداية توبته أنه فتن بجارية، إلى حد أنه هام بها. وذات ليلة في الشتاء، وقف تحت حائط دار معشوقته حتى الصباح في انتظارها، وكانت تمطر ثلجا طوال الليل، ولما أذن للصلاة ظن أنه أذان العشاء، فلما طلع النهار أدرك أنه قد ظل طوال الليل مستغرقا في حال معشوقته، فقال لنفسه: أخطئك الله يا ابن المبارك إذ وقفت ليلة مباركة كهذه حتى الصباح على قدميك موافقة لهواك، وإن قرأ الإمام سورة طويلة في الصلاة تجن. فتألم قلبه في الحال، وتاب^(٥) وانشغل بالعبادة إلى حد أن أمه دخلت عليه البستان ذات يوم، فرأته نائما في ظل شجرة ورد، وقد أمسكت حية بغصن من النرجس في فمها، تذب به الذباب عنه. وفي ذلك الوقت رحل عن مرو، وظل مدة في بغداد في صحبة المشايخ.

(١) عبد الله بن المبارك: يكنى بأبي عبد الرحمن، كان أبوه تركيا عند رجل من التجار من بني حنظلة، وكانت أمه تركية خوارزمية، ولد سنة ١١٨ أو ١١٩ هـ، وتوفي ١٨١ هـ.

انظر ترجمته في صفة الصفوة، ج٤ (ص ١٢١)، كشف المحجوب (ص ٣٠٦) من الترجمة العربية.

(٢) ذو الجهادين: من يجاهد الجهاد الأصغر والجهاد الأكبر أي يقاتل الكفار ويعادي النفس. د. استعلامي (ص ٨٤٢).

(٣) سفيان الثوري: انظر الكتاب (ص ٢٩٧).

(٤) صفة وردت في صفة الصفوة، ج٤ (ص ١٢٣، ١٢٤) مع الاختلاف.

(٥) رواية مشابهة للرواية التي وردت في ذكر مالك بن دينار.

ثم ذهب إلى مكة، وبعد أن جاورها مدة، عاد إلى مرو، فتولاه أهلها، وأعدوا له دروسًا ومجالس، وفي ذلك الوقت، كان نصف أهل مرو يتبع الحديث، والنصف الآخر يهتم بعلم الفقه، كما هو الحال اليوم ويسمونه «رضى الفريقين» بحكم أنه موافقًا لكل منهما، وكان الفريقان كلاهما يختصمان إليه، فأعد رباطين في ذلك المكان: أحدهما لأهل الحديث، والآخر لأهل الفقه^(١). ثم مضى إلى الحجاز وجاورها.

يروى أن عبد الله بن المبارك كان يحج عامًا، ويغزو عامًا، ويتاجر عامًا، وكان يفرق مكسبه على أصحابه، وكان يعطي الدراويش التمر، ويعد النوى، ومن كان يأكل أكثر، كان يمنحه درهمًا مقابل كل نواة.

يروى أن عبد الله بن المبارك رافق خسيبًا ذات مرة، ولما انفصل عنه، بكى عبد الله، قالوا: لماذا تبكي؟ قال: مضى ذلك المسكين، ومضت معه كذلك تلك الطوية السيئة، وانفصل عنا، ولم ننفصل عنه.

يروى أنه كان يمضي في البادية ذات مرة، وكان قد ركب ناقه، فوصل إلى فقير، وقال: أيها الفقير، أنا غني، وقد دعيت، فإلى أين تذهب أنت أيها الطفيلي. قال الفقير: طالما كان المضيف كريمًا، فإنه يفضل الطفيلي، وإن كان قد دعاك إلى بيته فقد دعاني إليه أيضًا بنفسه، قال عبد الله: إنه طلب منا نحن الأغنياء القرض، فقال الفقير: إن كان يطلب منك القرض فمن أجلنا، فحجل عبد الله وقال: صدقت.

يروى أن عبد الله بن المبارك وصل في التقوى إلى حد أنه كان قد نزل في منزل ذات مرة، وكان له جواد ثمين، وانشغل بالصلاة، فدخل الجواد مزرعة فتركه فيها ومشى على قدميه، وقال: إنه أكل زرع السلاطين، وذهب ذات مرة من مرو إلى الشام بسبب قلم - كان قد طلبه ولم يعده - وسلمه.

ويروى أن عبد الله بن المبارك كان يمر ذات يوم، فقالوا للضرير: إن عبد الله بن المبارك قادم، فاطلب كل ما يلزمك، فقال الفقير: قف يا عبد الله، فوقف عبد الله، وقال: ادع الحق (تعالى) أن يعيد لي بصري، فرفع عبد الله رأسه ودعا، فأبصر في الحال^(٢).

يروى أن عبد الله بن المبارك ذهب ذات يوم في العشرة الأوائل من أيام ذي الحجة إلى الصحراء، وكان يحترق رغبة في الحج، وقال: لو أنني لست هناك اتحسر على ضياع هذه (الفرصة)، وأدى أعمالهم (المقصود الحجيج)؛ لأن من يتبعهم ولا يطلق شعره، أو يقص

(١) وردت في كشف المحجوب (ص ٣٠٧) من الترجمة العربية.

(٢) وردت في صفة الصفوة، ج ٤ (ص ١٢٨).

أظافره، يكون له نصيب من ثواب الحجيج. وفي تلك الأثناء قدمت عجوز، محنية الظهر ممسكة بعصاة في يدها، وقالت: يا عبد الله، لعلك ترغب في الحج، قال: بلى، فقالت: يا عبد الله قد أرسلت إليك، فاصطحبني حتى توصلني من مرو إلى عرفات، فقالت العجوز: الشخص الذي يؤدي سنة صلاة الصبح في السنجاب، وفريضة على شاطئ جيحون، والضحي في مرو، كيف يمكن مرافقته؟ فقلت: «بسم الله» ووضعت قدمي على الطريق، وعبرت عدة بحار شاسعة، يصعب عبورها بسفينة، كل بحر كنت أصل إليه، كانت تقول لي: اغمض عينيك، ولما كنت أغمضها، كنت أرى نفسي في وسط المياه، حتى أوصلتني إلى عرفات، ولما أدبنا الحج، وفرغنا من الطواف والسعي والعمرة، وطفنا طواف الوداع، قالت العجوز: تعال، فإن لي ابناً جلس يرتاض في الغار زمناً؛ كي نراه، عندما ذهبنا إلى هناك، رأيت شاباً، أصفر الوجه، وضعيفاً ونورانياً، ولما رأى أمه جثا على قدميها ومسح وجهه في قدميها، وقال: أعلم أنك لم تأت لكن الله قد أرسلك، إن وقت رحيلي قريب، وقد جئتني كي تعديني. قالت العجوز: يا عبد الله، ابق هنا كي تدفنه، ثم توفي ذلك الشاب في الحال، ودفناه. بعد ذلك قالت تلك العجوز: ليس لدي عمل قط، سأقيم على قبره حتى آخر العمر. اذهب أنت يا عبد الله، وعندما تعود في العام القادم، ولا تراني، تذكرني بالدعاء.

يروى أن عبد الله كان في الحرم، وكان قد فرغ من الحج ذلك العام فاستغرق في النوم برهة، فرأى في المنام أن ملكين هبطا من السماء، وسأل أحدهما الآخر: كم من الخلق جاء هذا العام؟ فقال: ستمائة ألف، قال: وكم شخص قُبل حجه؟ قال: لم يقبل حج أي منهم، فقال عبد الله: عندما سمعت هذا، بدا عليّ الاضطراب، فقلت: تجيء كل هذه الخلائق من أطراف الدنيا وأكنافها بكل هذه الآلام والمتاعب ﴿مِنْ كُلِّ فِجٍّ عَمِيقٍ﴾^(١) وتقطع الفياقي، ويضيع كل هذا! فقال ذلك الملاك: في دمشق إسكافي اسمه علي بن الموفق، لم يأت للحج، لكن حجه مقبول، وغفر للجميع بسببه، وقد فعلوا كل هذا من أجله. ولما سمعت هذا، استيقظت من النوم، وقلت: ينبغي علي الذهاب إلى دمشق، وزيارة ذلك الرجل، فذهبت إلى دمشق، وسألت عن دار ذلك الرجل، وناديت عليه، فخرج شخص، قلت: ما اسمك؟ قال: علي بن الموفق، قلت: لي معك كلام، قال: قل، فقلت: أي عمل تعمل به؟ قال: إنني إسكافي، فقصصت تلك الواقعة، قال: ما اسمك؟ قلت: عبد الله بن المبارك، فصاح صيحة، وهوى، وفقد وعيه، وعندما تاب إلى رشده، قلت: أخبرني بأمرك، قال: رغبت في الحج طيلة ثلاثين عاماً، وجمعت من الحياكة ثلاثمائة وخمسين درهماً، هذا العام، قصدت الذهاب إلى الحج، فقالت لي زوجتي التي كانت

(١) سورة الحج: الآية (٢٧).

حاملًا - ولعل رائحة الطعام كانت تفوح من عند الجار - اذهب، واحضر قدرًا من ذلك الطعام، فذهبت إلى باب دار ذلك الجار، وأخبرته بتلك الحال، فأخذ الجار في البكاء، وقال: اعلم أن أطفالنا لم يكونوا قد أكلوا شيئًا قط طيلة ثلاثة أيام، واليوم رأيت حمارًا ميتًا، فقطعت قطعة منه، وأعددت طعامًا لا يحل لكم، ولما سمعت هذا اشتعلت النار في روحي، فحملت تلك الدراهم الثلاثمائة والخمسين، ومنحتها له، وقلت: انفق على الأطفال، فهذا هو حجي، قال عبد الله: صدق الملك في الرؤيا، وصدق الملك في الحكم والقضاء.

يروى أنه كان لعبد الله غلام مكاتب، قال واحد لعبد الله: هذا الغلام يعمل نباشًا، ويمنحك الفضة، فحزن عبد الله، وأخذ يتعقبه ذات ليلة فذهب إلى القبور، وشق قبرًا، كان فيه محراب، ووقف للصلاة: وكان عبد الله يراه من بعيد، فاقترب في هدوء فرأى الغلام كان قد ارتدى المرقعة، ووضع جنزيرًا على رقبته، وكان يمسح وجهه في التراب، وكان يبكي متنجسًا. عندما رأى عبد الله ذلك، انسحب في هدوء، وبكى، وجلس في زاوية، وظل الغلام هناك حتى الصباح، ثم عاد، وأخفى حافة القبر ودخل المسجد، وأدى صلاة الصبح، وقال: إلهي، طلع النهار، ويريد سيدي المجازي مني درهمًا، أنت ثروة المفلسين، فاعطني من حيث تعلم، وفي الحال ظهر نور في الهواء، وسقط درهم من الفضة على يد الغلام، فلم يطق عبد الله (ذلك) فنهض واحتضن رأس الغلام وأخذ يقبله ويقول: لتفد ألف روح مثل ذلك الغلام، لقد كنت أنت السيد لا أنا، ولما رأى الغلام تلك الحال قال: يا إلهي طالما مزق حجابي وأفشى سري، لم تعد لي راحة في الدنيا، فبعزت لك لا تفقني، وأزهد روحي، وبينما كانت رأسه في حضن عبد الله أسلم الروح، فأعد عبد الله أسباب تجهيزه وتكفينه، ودفنه في المرقعة نفسها وفي القبر نفسه، وفي الليلة نفسها، رأى في المنام سيد العالم وإبراهيم الخليل (عليهما السلام) وقد جاء!!؟ وجلس كل واحد منهما على براق وقالوا: يا عبد الله لماذا دفنت حبيبًا بالمرقعة؟

يروى أن عبد الله كان قد خرج ذات يوم مع كوكبة تامة من المجلس، وكان يمضي، فقال له طفل علوي: يا ابن الهندي ما هذا الشأن الذي تحقق لك؟ إنني ابن محمد (رسول الله)، أصنع العلم عدة أيام حتى أحصل على القوت، أما أنت فتسير مع مثل هذه الكوكبة، فقال عبد الله: إنني أفعل ذلك لأن جدك قد فعله وأمر به، وأنت لا تفعله، ويقال أيضًا: إنه قال هكذا: بلى يا ابن السيد كان لك أب، ولي أب، وكان أبوك المصطفى (صلى الله عليه وعلى آله وسلم)، وبقي عنه العلم ميراثًا، وكان أبي من أهل الدنيا، وبقيت عنه الدنيا ميراثًا، فأخذت ميراث أبيك وصرت عزيزًا ببركته وأخذت ميراث أبي، وصرت ذليلاً به، وفي تلك الليلة رأى عبد الله الرسول ﷺ في المنام غاضبًا، فقال، يا رسول الله ما سبب غضبك، قال: بلى، فلتوضح المسألة لابننا، فاستيقظ

عبد الله وعزم أن يطلب ابن العلوي، ويطلب المعذرة منه. وفي الليلة نفسها، رأى ابن العلوي الرسول ﷺ في المنام، قال: إن كنت كما ينبغي، لما استطاع أن يقول لك ذلك. لما استيقظ العلوي، اعترم التوجه لعبد الله ليعتذر له، فتقابل في الطريق، وقصا الواقعة، وتابا.

يروى أن سهلاً بن عبد الله المروزي^(١) كان يأتي كل يوم إلى (حلقة) درس - عبد الله، فخرج ذات يوم وقال: لن أجيء إلى درسك ثانية، فقد اعتلت جواريك السطح ودعوني إليهن، وقالت كل منهن: سهلي، لما لا تؤدبهن؟ قال عبد الله لأصحابه: استعدوا للصلاة على سهل، وفي الحال توفي سهل، وصلوا عليه، ثم قالوا: كيف علمت يا شيخ؟ فقال: كانت تلك الحور اللاتي تنادي عليه حور الخلد، ليست لدي جارية قط.

يروى أنه سئل: ماذا رأيت من العجائب؟ قال: رأيت راهباً، أصابه الضعف من المجاهدة، وانحنى ظهره من خشية الله، سألته: ما الطريق إلى الله؟ قال: إن عرفته عرفت الطريق إليه^(٢). وقال: إنني أعبد الأصنام وأخشى ما لا أعرفه عنه، وأنت تعصي ما تعرفه، أي المعرفة تقتضي الخوف، ولا أراك خائفاً، والكفر يقتضي الجهل، وأرى نفسي ذائِباً من الخوف، فصار قوله عظة لي، ومنعني عن كثير مما لا يليق عمله.

يروى أن عبد الله بن المبارك قال: كنت في غزو ذات مرة في ناحية من بلاد الروم ورأيت فيها خلقاً كثيرين، قد تجمعوا، وسحبوا واحداً على عقابين، وقالوا: ليعاديك الصنم الأكبر إن قصرت مثقال ذرة، وضربوه بشدة وقسوة، وتألّم ذلك المسكين كل الألم ولم يتأوه، فسألته: تتكبد كل هذه القسوة، ولا تتأوه ما السبب؟ قال: ارتكبت جرماً عظيماً، وفي ملتنا سنة وهي طالما لا تطهر المرء من الأدران، لا يرد على لسانه اسم الصنم العظيم. الآن: إن تظهر الإسلام اعلم أنني قد وضعت اسم الصنم العظيم بين كفتي ميزان، هذا جزاء ذلك. قال عبد الله: البارئ في ملتنا من يعرفه لا يستطيع أن يذكره لأن «من عرف الله كل لسانه».

يروى أن عبد الله كان قد ذهب للغزو ذات مرة، وكان يقاتل كافراً. وحل وقت الصلاة، فطلب مهلة من الكافر، وصلّى، ولما حل وقت صلاة الكافر، طلب المهلة كي يصلي، وعندما اتجه إلى الصنم، قال عبد الله: انتصرت عليه هذه اللحظة، وذهب إليه مشهراً سيفه كي يقتله، فسمع صوتاً: «يا عبد الله أوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً» فبكى عبد الله، ورفع الكافر رأسه، فرأى عبد الله مشهراً سيفه، وباكباً، فقال: ما أصابك؟ قص عبد الله حاله وقال: هكذا عوتبت

(١) سهل بن عبد الله المروزي: يبدو أنه سهل بن عبد الله التستري، انظر الكتاب (ص ٤٩٧).

(٢) وردت في كشف المحجوب (ص ٣٠٧) من الترجمة العربية.

من أجلك، فصاح الكافر صيحة، وقال: جبان من يعصي مثل ذلك الإله الذي يعاتب الحبيب من أجل العدو ويطغى عليه، وأسلم في الحال، وصار عزيزاً في طريق الدين.

يروى أن عبد الله قال: رأيت في مكة شاباً جميلاً قصد الذهاب إلى الكعبة، وفجأة فقد وعيه، وسقط، فتقدمت إليه وهو ينطق بالشهادة، وقلت: أيها الشاب ما أصابك؟ فقال: كنت راهباً، وأردت أن ألقى بنفسي في الكعبة تلبساً؛ كي أرى جمالها، فهتف بي هاتف: «تدخل بيت الحبيب وفي قلبك معادة الحبيب».

يروى أن عبد الله كان يسير في سوق نيسابور في شتاء بارد، فرأى غلاماً يرتدي قميصاً فحسب، وكان يرتجف من البرد، قال: لماذا لا تطلب من سيدك أن يعد لك جبة! قال: ما أقول؟ فهو يعلم ويرى بنفسه، طاب الوقت لعبد الله، فصاح صيحة وخر فاقدًا الوعي، ثم قال: تعلموا الطريقة من هذا الغلام.

يروى أن مصيبة حلت بعبد الله ذات مرة، فذهب الخلق لمواساته، وذهب مجوسي أيضاً، وقال لعبد الله: العاقل من عندما تحل به مصيبة يفعل في اليوم الأول لها ما سيفعله بعد ثلاثة أيام، فقال عبد الله: اكتبوا هذا الكلام، إنه الحكمة.

يروى أن عبد الله سئل: أي خصلة أنفع للآدمي؟ قال: العقل الراجح، قيل: إن لم يكن، قال: حسن الأدب، قيل: إن لم يكن، قال: أخ مشفق يتشاور معه، قيل: إن لم يكن، قال: الصمت الدائم، قيل: إن لم يكن، قال: الموت في الحال.

يروى أن عبد الله قال: من يستسهل طريق الأدب يظهر الخلل في السنن ومن يستسهل السنن، تحرمه من الفرائض، ومن يستسهل الفرائض تحرمه من المعرفة، ومن يحرم من المعرفة تخيل كيف يكون حاله؟!

وقال: طالما تكون منزلة فقراء الدنيا هكذا، فكيف تكون منزلة فقراء الآخرة؟

وقال: لا تسكن قلوب أحبة الحق قط، أي أنها تطلب دائماً من ثبت في إظهار مقامه.

وقال: نحن أحوج إلى قليل من الأدب أكثر من كثرة العلم.

وقال: تطلب الأدب الآن، وقد مضى الرجال المتأدبون.

وقال: كثيراً ما تحدث الناس في الأدب، والأدب بالنسبة لي هو معرفة النفس.

وقال: السخاء بما في يد الناس أفضل من بذل ما في يدك.

وقال: من يقرض الله درهماً أحب إليّ من أن يتصدق بمائة ألف، ومن يأخذ شيئاً حراماً لا

يكون متوكلاً.

وقال: ليس التوكل أن ترى نفسك متوكلاً، لكن التوكل هو أن يعلم الله عنك التوكل .
وقال: لا يمنع الكسب عن التفويض والتوكل إن لم يكنا عادتين في الكسب .
وقال: إن اكتسب شخص بالقوة، يجوز له أن ينفق إن مرض، وأن يكون له كفن من ماله إن مات .

وقال: تافه ذلك الإنسان الذي لم يحتمل ذل الكسب .
وقال: مروءة الرضا أفضل من مروءة العطاء .
وقال: يتساوى عند الله زهد الآمن ومحبة الفقير .
وقال: من لم يتذوق طعم العبودية لم يتمتع بذوق قط .
وقال: الشخص الذي يحظى بعيال وأبناء، ويرعاهم في الصلاح، ويستيقظ من النوم ليلاً، فيرى الأطفال عرايا، ويلقي عليهم ثياباً، كان عمله أفضل من الغزو .
وقال: من كان قدره أعظم لدى الخلق يجب أن يرى نفسه أحقر .
وقالوا: ما دواء القلب؟ قال: البعد عن الناس .
وقال: من التواضع أن تتكبر مع الأغنياء وتتواضع مع الفقراء .
وقال: التواضع هو أن تتكبر على من هو أسمى منك في الدنيا، وتتواضع مع من هو أقل .
وقال: الرجاء الحقيقي هو ما يظهر من الخوف، والخوف الحقيقي ما يظهر من صدق الأعمال، وصدق الأعمال يتأتى من التصديق، وكل رجاء لا يتقدمه خوف سرعان ما يطمئن صاحبه، ويجعله يسكن .

وقال: ما يجعل الخوف يستقر في القلب، دوام المراقبة في السر والعلانية .
يروى أن حديث الغيبة كان يجري أمامه، فقال: إن اغتبت أمي وأبي فهما أولى بالإحسان .
يروى أن شاباً جاء ذات يوم، ووقف على باب عبد الله، وبكى منتحباً، وقال: لقد ارتكبت ذنباً لا أستطيع ذكره من الخجل، قال عبد الله: قل: ماذا فعلت؟ قال: زנית، قال عبد الله: خفت، ربما كنت قد اغتبت .

وقال رجل: إن عبد الله وعظني وقال: احفظ الله، قلت: ما تفسير هذا؟ قال: كن دائماً كأنك ترى الله .

يروى أن عبد الله وهب كل ماله للدررايش وهو على قيد الحياة، وجاءه ضيف ذات مرة، وقد أنفق كل ما يملك، فقال: الضيوف رسل الرحمن، فعادته امرأته، قال: المرأة التي تخالفني في هذا الأمر، لا يجوز بقاؤها، وطلقها. هكذا أراد الله (تعالى): أن جاءت إلى مجلسه فتاة من أبناء

السادة، وطاب لها قوله. فذهبت إلى الدار، وطلبت من والدها أن يزوجه إياه، فمنحها خمسين ألف دينار، وزوجه لها، فرأى في المنام، طلقت زوجتك من أجلنا، وها هو العوض؛ حتى تعلم أنه لا يضر شخص معنا.

ولما اقترب وقت وفاته، أعطى كل ماله للدراويش، فاقترب مريد من فراشه وقال: أيها الشيخ، لديك ثلاث بنات، وأنت تودع الدنيا فاترك لهن شيئاً، ماذا أعددت لهن؟ قال: قد قلت: «هو يتولى الصالحين» والشخص الذي يتولى هو أمره أفضل من أن يتولاه عبد الله بن المبارك، ثم فتح عينيه عند الموت، وكان يبتسم ويقول: «لمثل هذا فليعمل العاملون».

رأوا سفيان الثوري في المنام، فقالوا: ما فعل الله بك؟ قال: رحمني، قالوا: وما حال عبد الله ابن المبارك، قال: هو من الجمع الذي يذهب إلى الحضرة مرتين في اليوم (رحمة الله عليه).



ذكر سفيان الثوري^(١)

قدس الله روحه



هو تاج الدين والديانة، وشمع الزهد والهداية، هو شيخ العلماء وملكهم، هو صاحب حضرة القدماء، وقطب الحركة الدائرية، هو إمام العالم سفيان الثوري (رحمة الله عليه).

كان من كبار رجال الدين، وكانوا يقولون له: أمير المؤمنين، ولم يتول خلافة قط واقتدى بالحق، وكان صاحب قبول، ولا نظير له في علم الظاهر والباطن، وكان من المجتهدين الخمسة، وكان قد وصل إلى منتهى التقوى، وحاز غاية الأدب والتواضع، وكان قد رأى كثيرًا من المشايخ الكبار، ولم يترجع ذرة عما كان عليه منذ بداية أمره وحتى نهايته.

كما يروى أن إبراهيم دعاه (قائلًا): تعال؛ حتى نستمع إلى الحديث، فجاء في الحال، فقال إبراهيم: كان يجب علي أن أختبر خلقه.

وكان قد ولد لأم ورعة. وكان يروى أن والدته كانت قد اعتلت سطح المنزل ذات يوم وتناولت قطعة مخلل من سطح الجار، فضرب برأسه على بطن أمه لدرجة أنها فكرت في الذهاب (للجار) وطلب الحل.

وكانت بداية أمره: أنه دخل المسجد بقدمه اليسرى ذات يوم في المسجد غافلًا فسمع صوتًا: أيها الثور، ولذلك سمي بالثوري، عندما سمع ذلك الصوت، فقد صوابه، ولما تاب إلى رشده، أمسك بمحاسنه، وكان يلطم وجهه ويقول: طالما لم تكن تضع قدمك بأدب في المسجد، فإن اسمك قد محي من صحيفة الإنسان، فانتبه على أي نحو تخطو.

يروى أنه وضع قدمه في مرعى، فنادى صوت: يا ثور، انظر أي اهتمام نبديه بشخص لا يستطيع أن يخطو خطوة مخالفًا للسنّة، طالما حاز هذا القدر في الظاهر فمن يستطيع أن يقول كلامه الباطن. ولم ينم الليل قط طوال عشرين عامًا.

(١) سفيان الثوري: أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق بن عدنان الثوري الكوفي، ولد عام ٩٧هـ وكان إمامًا في علم الحديث، ومن آثاره الجامع الكبير، والجامع الصغير وكلاهما في الحديث وكتاب الفرائض. توفي بالبصرة عام ١٦١هـ. انظر ترجمته في صفة الصفوة، ج ٣ (ص ٩٧)، وانظر كشف المحجوب (ص ٢٤٢) من الترجمة العربية.

يروى أنه قال: لم أسمع شيئاً من حديث النبي ﷺ قط إلا وعملت به. وكان يقول: يا أصحاب الحديث، أدوا زكاة الحديث، قيل: وما زكاة الحديث؟ قال: أن تعملوا بخمسة أحاديث من كل عشرين حديثاً.

يروى أن خليفة عهده كان يؤمه في الصلاة، وكان يحرك محاسنه أثناءها. فقال سفيان: إن مثل هذه الصلاة ليست بصلاة، وستضرب بها يوم القيامة على وجهك كخرقة قدرة. قال الخليفة: تمهل في القول، قال: لو أنني تخليت عن مثل هذه المهمة لصار بولي دماً في الحال، فنقل قوله ذلك على قلب الخليفة، فأمر بأن ينصبوا مشنقة ويشنقوه كي لا يتجرأ على أحد ثانية، وفي اليوم الذي نصبوا فيه المشنقة كان سفيان قد وضع رأسه إلى جانب شيخ. ووضع قدميه تجاه سفيان ابن عيينة^(١) واستغرق في النوم. عرف هذان الشيخان هذا الحال، وقالوا لبعضهما البعض: لا نخبره بهذا فاستيقظ بنفسه وقال: ما الأمر؟ فقصا الحال، وكانا يبديان ضيقاً شديداً، قال سفيان: ليست لي سيطرة على روحي، ولكن يجب علي أن أؤدي حق أمور الدنيا، ثم اغرورقت عيناه وقال: يا إلهي، اقبضها قبضاً عظيماً، قال هذا الدعاء، بينما اعتلى الخليفة العرش، وكان أركان الدولة قد جلسوا على الجانبين، وقع زلزال في القصر، وانكب الخليفة وأركان الدولة على الأرض دفعة واحدة، وقال الشيخان: أدعاء بهذه الاستجابة وبهذه السرعة؟ قال سفيان: بلى، إننا لم نرق ماء وجهنا في هذه الحاضرة.

يروى أن خليفة آخر تولى الخلافة، وكان معتقداً في سفيان، وحدث أن مرض سفيان، وكان للخليفة طبيب مسيحي ماهر جداً وحاذاق، فأرسله إلى سفيان ليعالجه، وعندما رأى قارورته (بوله) قال: هذا رجل آدمى كبده من خشية الله، وكان يتساقط قطعة قطعة من مثانته، ثم قال ذلك الطبيب المسيحي: الدين الذي يكون عليه رجل كهذا، لا يكون باطلاً، وأسلم في الحال. قال الخليفة: ظننت أنني أرسل طبيباً إلى فراش مريض، لكنني أرسلت مريضاً إلى طبيب^(٢).

يروى أن ظهر سفيان كان قد احدودب في شبابه، فقليل: يا إمام المسلمين لم يحن الوقت لهذا بعد. فلم يجب؛ لأنه لم يكن يتبع الخلق في ذكر الحق، حتى ألحوا عليه يوماً، فقال: كان لي أستاذ، وكان رجلاً طاعناً في السن، وكنت أتعلم العلم منه، ولما انتهى عمره، وغاصت سفينة عمره في دوامة الأجل، كنت قد جلست على فراشه، ففتح عينيه فجأة وقال لي: يا سفيان، أترى

(١) سفيان بن عيينة: أبو محمد سفيان الأعور الكوفي الأصل، ولد بالكوفة عام ١٠٧هـ فهو من صوفية القرن الثاني الهجري وسكن مكة وتوفي عام ١٩٧هـ. انظر صفة الصفوة، ج٢ (ص ١٥٤)، د. استعلامي (ص ٨٤٣).

(٢) صفة الصفوة، ج٣ (ص ٩٩) مع الاختلاف.

ما يفعل معنا؟ نرشد الخلق للطريق المستقيم طيلة خمسين عامًا، وندعو إلى حضرة الحق، والآن أطرده، ويقال لي: اذهب فإنك لا تليق بنا.

ويقال إنه قال: التحقت بخدمة ثلاثة من الأساتذة، وتعلمت العلم، وانتهى أمر أحدهم باليهود، ومات على ذلك، وتمجس الثاني، وتنصر الثالث، فتخبط ظهري خشية ذلك وانكسر. يروى أن رجلًا أرسل إليه كيسين من الذهب، وقال: خذهما، فقد كان أبي صاحبك ومريدك، وهي حلال أحضرتها لك من ميراثه، فأعطاهما لابنه وأعادها، وقال: قل له إن محبتي لوالدك كانت من أجل الله. قال ابن سفيان: عندما رجعت قلت: يا والدي ربما أن قلبك من حجر، ألا ترى أن لي عيالًا، ولا أملك شيئًا، فترحمني.. قال سفيان: أي بني، ينبغي عليك أن تأكل، وأنا لا أبيع محبة الله بمحبة الدنيا، فأصبح عاجزًا يوم القيامة.

يروى أن هدية أحضرت إلى سفيان، ولم يقبلها، وقال لصاحبها: لم أسمع منك حديثًا قط، قال سفيان: قد سمع أخوك، وأخشى أن يكون قلبي أكثر شفقة عليه من الآخرين بسبب مالك فتكون هذه رغبة. ولم يكن يأخذ شيئًا من شخص قط، وكان يقول: إن كنت أعرف أنني لن أتخلف لكنت آخذ. وكان يمر ذات يوم مع رجل على باب قصر أحد السادة فنظر ذلك الرجل على ذلك الإيوان، فنهاه وقال له: لو لم تكن تنظر إلى ذلك المكان لما كانوا يسرفون كل هذا الإسراف، ومن ثم عندما تنظرون تشاركون في مظلمة هذا الإسراف.

وتوفي له جار، فذهب إلى جنازته، فسمع بعد ذلك: أن الناس يقولون: إنه كان رجلًا طيبًا، قال سفيان: لو أكن أعرف أن الخلق يرضون عنه، لما كنت أذهب لجنازته؛ لأنه إن لم يكن رجلًا منافقًا لما رضي الخلق عنه.

وأثر عن سفيان أنه عندما كان يجلس في المقصورة، أعدت مجمرة مملوءة بالعود من مال السلطان، ففرّ من هناك كي لا يشم تلك الرائحة، ولم يجلس هناك ثانية.

يروى أنه كان قد لبس لباسًا مقلوبًا ذات يوم، فطلبوا منه أن يعدلها، فلم يفعل وقال: كنت قد لبست هذا القميص من أجل الله ولا أريد أن أعد له من أجل الخلق، وتركه على ما هو عليه. يروى أن الحج كان قد فات شابًا، فتأوه. قال سفيان: أمتحك أربعين حجة إن كنت تهبني هذه الآهة فقال: وهبتها لك، فرأى تلك الليلة في المنام أن قيل له: ربحت ربحًا إن قسمته على أهل عرفات كلهم، لصاروا أغنياء.

يروى أنه دخل حمامًا يومًا، ودخل غلام أمرد، فقال: أخرجوه، فإن مع كل امرأة شيطان، ومع كل أمرد ثمانية عشر من الشياطين يزينوه في عيون الرجال.

يروى أنه كان يأكل خبزًا ذات يوم، وكان هناك كلب، كان يعطيه (من الخبز)، فقيل له: لماذا لم تأكل مع زوجك وأولادك؟ قال: إن أعطيت الخبز لكلب فإنه يحرسني حتى النهار كي أصلي، وإن أعطيته لزوجتي وأولادي أعاقوني عن الطاعة. وقال لأصحابه يومًا: حلوا الطعام ومره يصل من الشفاة إلى الحلق ليس أكثر، فاصبروا إن لم يكن حلواً أو مرًا حتى يستوي لديكم الحلو والمر، فالشيء الذي يمر بهذه السرعة يمكن الصبر بدونه وكما يروي الفقراء عن عظمتهم: إن الفقراء كانوا يشبهون الأمراء في مجلسه.

يروى أنه كان يمضي إلى مكة على محمل ذات مرة وكان معه رفيق، وكان يبكي طوال الطريق، فقال له رفيقه: أتبكي خشية ذنب؟ فمد سفيان يده، وحمل ورقة شجر يابسة وقال: الذنوب كثيرة، لكن ذنوبي لا تساوي شيئًا بالقياس إلى هذه الورقة، لكنني أخشى الإيمان الذي أمنت به أهو إيمان أم لا!

وقال: شغل الآخرون بالعبادة، فأثمرت لهم الحكمة.

وقال: البكاء عشرة أجزاء: تسعة منها الرياء، وواحد لله، إن سقطت قطرة من العين كل عام من ذلك الجزء الذي لله، تكون غزيرة.

وقال: إن جلس كثير من الخلق في مكان، ونادى شخص: من يعلم أنه سيعيش اليوم حتى الليل فلينهض، فلم ينهض أحد، والعجب هو إن قيل للخلق جميعًا: من استعد منكم للموت ذلك الأمر المقدر للجميع فلينهض، فلن ينهض أحد.

وقال: التقوى في العمل أشد من العمل. وكثيرًا ما يعمل المرء طيبًا حتى يكتب في ديوان العلانية، ثم يفتخر بذلك كثيرًا ويظل يردده حتى يكتب في ديوان الرياء.

وقال: عندما يطوف الفقير حول الغني اعلم أنه مرء، وعندما يدور حول السلطان اعلم أنه لص.

وقال: الزاهد من يخرج زهده في الدنيا إلى حيز الفعل، والمتزهّد من كان زهده باللسان.

وقال: ليس الزهد في الدنيا لبس المرقعة ولا أكل الشعير، لكنه استغناء القلب عن الدنيا وقصر الأمل.

وقال: إن اتجهت إلى الله وأنت كثير الذنوب فالذنب الذي يكون بينك وبين الله أسهل من ذنب يكون بينك وبين عبده.

وقال: هذا هو الزمان الذي تصمت فيه وتنتحي جانبًا، زمان السكوت ولزوم البيت.

قال له شخص: أجلس في زاوية للكسب فما تقول في ذلك؟ قال: إخش الله فإنني لم أرَ خائفًا قط احتاج إلى الكسب.

وقال: لا أعرف شيئاً أطيب للإنسان من مهرب يهرب إليه ويختبئ فيه فقد كره السلف أن يلبسوا لباس الشهرة قديماً كان أو جديداً بل إنهم وكما ينبغي لا يتحدثون عنها وهذا هو «النهي عن الشهرتين».

وقال: لا أعرف شيئاً قط أسلم لأهل هذا الزمان من النوم.

وقال: أفضل السلاطين من يجالس أهل العلم، ويتعلم منهم العلم، وأسوأ العلماء من يجالس السلاطين.

وقال: أول العبادة الخلوة ثم طلب العلم ثم العمل به ثم نشره.

وقال: لم أتواضع لأحد قط قبل أن أرى له كلمة من الحكمة.

وقال: تمسك بالدنيا من أجل الجسد وبالأخرة من أجل القلب.

وقال: إن كان للذنوب كيد، فلم ينج شخص قط من كيده ومن يفضل نفسه على غيره متكبر.

وقال: أعزاء الخلق خمسة: عالم زاهد، وفقه صوفي، وغني متواضع، وفقير شاكِر، وشريف سني.

وقال: من لا يخشع في صلاته، لا تصلح له صلاة.

وقال: من يتصدق من الحرام ويفعل خيراً يكون كشخص يغسل ثياباً قدرة بالدم أو البول، فتصبح أكثر قدارة.

وقال: الرضا قبول المقدور بالشكر.

وقال: يخمد خلق المرء الحسن غضب الله.

وقال: اليقين هو ألا تتهم الله فيما يحل بك.

وقال: سبحانه الله الذي يقبض أرواحنا، ويأخذ أموالنا، ومع هذا نفضله عليهما.

وقال: من أخذه بالمحبة لا يأخذه بالعداء.

وقال: التنفس حرام في المشاهدة، وحرام في المكاشفة، وحرام في المعاينة، وحلال في الخطرات.

وقال: إن قال لك شخص: «نعم الرجل أنت» وسرك هذا أكثر من أن يقال لك: «بئس الرجل أنت»؛ فاعلم أنك ما زلت رجلاً سيئاً.

وسئل عن اليقين، فقال: هو فعل في القلب كلما صحت معرفته ثبت يقينه. واليقين هو أن تعلم أن كل شيء يحل بك هو من الحق، بحيث تكون على نحو يتحقق لك الوعد فيه عياناً بل أكثر من العيان أي يكون حاضراً بل أكثر من هذا.

سئل عن قول الرسول ﷺ: إن الله يكره أهل دار تؤكل فيه اللحوم بكثرة، فقال: قاله عن أهل الغيبة الذين يأكلون لحوم المسلمين.

يروى أنه قال لحاتم الأصم: أقول لك أربعة أقوال من أربعين:

أولاً: إن ملامة الناس من الجهل بالقضاء، والجهل بالقضاء كفر.

ثانياً: حسد أخوة المسلمين من الجهل بالقسمة، والجهل بالقسمة من الكفر.

ثالثاً: المال الحرام وشبهة جمعه من الجهل بحساب القيامة، والجهل بالحساب من الكفر.

رابعاً: الاطمئنان إلى وعيد الحق واليأس من وعده من الجهل، والجهل بهما كفر.

يروى أنه عندما كان يسافر أحد تلاميذ سفيان، كان يقول له: إن رأيت الموت في مكان اشتريه لي. وعندما اقترب أجله، بكى وقال: رغبت الموت والآن الموت صعب، ليته كان يشبه كل الأسفار التي كانت تستقيم بالعصا والركوة، ولكن القدوم على الله شديد. وكلما كان يسمع حديث عن الموت وسطوته كان يفنى عن نفسه عدة أيام، وكان يقول لكل من يصادفه: «استعد للموت قبل نزوله» وبقدر ما كان يخاف الموت، كان يطلبه. وحين كان أصحابه يقولون له: لتطب في الجنة. كان يهز رأسه قائلاً: ما تقولون لا تصل الجنة إليّ قط، أو تمنح لشخص مثلي. ثم كان مرضه في البصرة، وأراد أمير البصرة أن يمنحه ثياباً، فطلبوه، وكان في الاصطبل وقد أصابه ألم في معدته، لكنه لم يقعد لحظة عن العبادة، وحسبوا في تلك الليلة ستين مرة كان قد اغتسل فيها، ولم يكذب يتوضأ ويصلي، حتى كانت تعاوده الحاجة، فقليل له: لا تتوضأ ثانية، قال: أريد أن أكون طاهراً حين يدخل عزرائيل لا نجساً؛ فإن النجس لا يستطيع أن يتجه إلى الحضرة^(١).

قال عبد الله بن المهدي^(٢): قال سفيان: ضع وجهي على الأرض فإن أجلي قد اقترب، فوضعت وجهه على الأرض.. وخرجت لأخبر الجميع، ولما عدت، كان كل الأصحاب حاضرين. فقلت: من أخبركم؟ قالوا: رأينا في المنام أن احضروا جنازة سفيان^(٣). دخل الناس، وضاق به الحال فمد يده، وأخرج كيساً به ألف دينار، وقال: تصدقوا، قالوا: سبحان الله، كان سفيان دائماً يقول: إنه لا يحب التمسك بالدنيا، وامتلاك كل هذا الذهب! فقال سفيان: كان هذا حارساً لديني، واستطعت أن أحافظ به على ديني، فلم يتسلط إبليس عليّ بسببه، فإن كان يقول لي: ما تأكل اليوم؟ وما تلبس؟ أقول: ها هو الذهب. وإن كان يقول: إنك لا تملك الكفن

(١) وردت في كشف المحجوب (ص ٥٣٤).

(٢) عبد الله بن المهدي: كان خادماً سفيان ومريده. د. استعلامي (ص ٨٤٣).

(٣) وردت في صفة الصفوة، ج ٣ (ص ٩٨).

أقول: ها هو الذهب، وكنت أدفع وسواسه عني، مع أنني لم أكن في حاجة إلى ذلك ثم نطق كلمة الشهادة، وأسلم الروح.

ويقال: كان له مورث في بخارى، ومات، فحفظ علماء بخارى ذلك المال، وأخبروا سفيان، فاتجه إلى بخارى، فاستقبله أهل بخارى على شاطئ الماء، وحملوه إلى بخارى في إعزاز تام، وكان يبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا، وأعطوه ذلك الذهب، فكان يحفظه؛ لأنه لا ينبغي عليه أن يطلب شيئًا من شخص قط حتى أيقن أنه سوف يموت، فتصدق به.

وفي تلك الليلة التي توفي فيها، سُمع صوت: «مات الورع مات الورع»، ثم رأوه في المنام، فقالوا: كيف صبرت على وحشة القبر وظلامه؟ فقال: قברי روضة من رياض الجنة. رآه آخر في المنام فقال: ما فعل الله بك؟ قال: وضعت قدمًا على الصراط والأخرى في الجنة.

ورآه آخر في المنام كان يطير من شجرة إلى شجرة في الجنة، فسأله: بما نلت هذا؟ قال: بالورع.

يروى أنه بسبب شفقتة على خلق الله رأى ذات يوم في السوق طائرًا في قفص كان يصيح ويتخبط، فاشتراه، وحرره، فكان الطائر يأتي كل ليلة إلى دار سفيان، وكان سفيان يصلي طوال الليل، وكان ذلك الطائر يشاهده، وأحيانًا يحط عليه. وعندما دفن سفيان كان ذلك الطائر يرفرف على جنازته ويصيح. وكان الخلق ينتحبون، ولما دفن الشيخ. كان الطائر يضرب بنفسه على الأرض. فصدر صوت من القبر: رحم الحق (تعالى) سفيان لشفقتة على الخلق. ومات ذلك الطائر أيضًا وأدرك سفيان (رحمة الله عليه).



ذكر شقيق البلخي^(١)

رحمة الله عليه



هو متوكل الأبرار، والمتصرف في الأسرار، هو ركن المحترم، وقبله المحتشم، هو شجاع أهل الطريق، أبو علي شقيق (رحمة الله عليه).

كان فريد زمانه، وشيخ وقته، وله في الزهد والعبادة قدم راسخة، وأمضى عمره كله في التوكل، وكان كاملاً في أنواع العلوم، وله تصانيف كثيرة في فنون العلم، وكان أستاذ حاتم الأصم، وكان قد سلك الطريق على يد إبراهيم بن أدهم^(٢) وكان قد صاحب كثيراً من المشايخ. وقال: تتلمذت على يد ألف وسبعمائة أستاذ، وحصلت عدة أحوال بعير من الكتب. وقال: طريق الله في أربعة أشياء: الأول: الأمن في الرزق، والثاني: الإخلاص في العمل، والثالث: عداوة الشيطان، والرابع: الاستعداد للموت.

وكان سبب توبته أنه مضى إلى بلاد الترك في تجارة، وذهب لمشاهدة معبد أصنام، فرأى عابداً للأصنام، كان يعبد صنماً وينتحب. قال له شقيق: لك خالق حي وقادر وعالم، فاعبده، واستح ولا تعبد صنماً، لا يتأتى منه خير قط أو شر. فقال عابد الأصنام: لو أنه كما تقول، أليس قادراً على أن يرزقك في بلدك، فلا ينبغي عليك أن تأتي إلى هنا، فتبقي شقيق لهذا الكلام^(٣).

واتجه إلى بلخ، فقابلته مجوسي، قال له: فيما تعمل؟ قال: في التجارة. قال: إن سعيت وراء رزق لم يقدر لك لن تدركه إلى يوم القيامة، وإذا لم تسع وراء رزق قدر لك فإنه يصل إليك. عندما سمع شقيق هذا الكلام، انتبه وفترت الدنيا على قلبه، ثم اتجه إلى بلخ، فاجتمعت حوله جماعة من الأصحاب، وكان في ريعان شبابه، وكان علي بن عيسى بن همام أميراً لبلخ، وكان

(١) شقيق البلخي: شقيق بن إبراهيم أبو علي الآذري، من أهل بلخ، ومن مشاهير مشايخ خراسان، وكان أستاذ حاتم الأصم، صاحب إبراهيم بن أدهم، وأخذ عنه الطريقة.

انظر ترجمته في حلية الأولياء، ج٨ (ص ٥٩)، الرسالة القشيرية (ص ٢٢)، صفة الصفوة، ج٤ (ص ١٣٩).

(٢) إبراهيم بن أدهم: سبق التعريف به.

(٣) وردت في حلية الأولياء، ج٨ (ص ٥٩)، الرسالة القشيرية (ص ٢٢)، صفة الصفوة، ج٤ (ص ١٣٩).

يملك كلاب صيد، فُقدَ له واحد منها، فُقل له: إنه عند جار شقيق، فقبض على ذلك الشخص على أنه قد أخذه، ثم عذب ذلك الجار، فلجأ إلى شقيق، فذهب شقيق إلى الأمير، وقال: سأحضر لك الكلب بعد ثلاثة أيام، فأخلى الأمير سبيله، وبعد ثلاثة أيام كان شخص قد وجد ذلك الكلب، فأخذه، وفكر في أنه ينبغي عليه أن يحمله إلى شقيق، فهو كريم وقد يمنحه شيئاً ومن ثم حمله إلى شقيق، فحمله شقيق إلى الأمير، وتحلل من العهد، وهنا عقد العزم، وأعرض عن الدنيا كلية^(١).

يروى أن قحطاً شديداً حل ببلخ، إلى درجة أنهم كانوا يأكلون بعضهم البعض. رأى شقيق في السوق غلاماً مسروراً ضاحكاً فقال: أيها الغلام، أي مجال للسرور! ألا ترى كيف حال الخلق بسبب الجوع؟ قال الغلام: أي خوف لي (من ذلك) إنني عبد لشخص لديه قرية خاصة به، ومقدار من الغلال يؤمنني من الجوع. غادر شقيق المكان، وقال: إلهي هكذا سعد هذا الغلام بسيدة الذي كان قد خزن وأنت مالك الملوك، ومقدر الأرزاق، فلماذا نحزن؟ وفي الحال رجع عن الانشغال بالدنيا، وتاب توبة نصوحة، واتجه إلى طريق الحق، ووصل في التوكل إلى حد الكمال، وكان يقول دائماً: أنا تلميذ غلام^(٢).

يروى أن حاتم الأصم قال: ذهبت مع شقيق إلى الغزو، وكان يوماً عصيباً، فقد كانوا يتقاتلون فيه إلى حد أنه كان لا يمكن رؤية سوى رؤوس الحراب، وكانت السهام تقصف من الهواء، فقال لي شقيق: بما تشعر يا حاتم؟ لعلك تفكر في البارية التي زفت إليك امرأتك فيها. قلت: لا، فقال: بالله أجد نفسي كما لو أنني كنت بالأمس في الليلة التي زفت إليّ فيها امرأتي، ثم أقبل الليل، فنام، وجعل الخرقه وسادة واستغرق في النوم، وهكذا استغرق في النوم وسط الأعداء باعتماده على الله^(٣).

يروى أن شقيق كان يعقد مجلساً ذات يوم، وذاع في المدينة أن جاء الكفار، فخرج شقيق مسرعاً، وهزم الكفار، وعاد. فوضع مريد عدة وردات على سجادة الشيخ، وكان يتشممها، رأى جاهل ذلك فقال: الجند على باب المدينة، والورود أمام إمام المسلمين يتشممها! فقال الشيخ: يرى المنافق شم الورد، ولا يرى هزيمة الجند قط.

يروى أنه كان يمضي ذات يوم، فرآه غريب، فقال: يا شقيق، ألا تخجل أن تدعو الخاصة، وتقول مثل هذا الكلام: من يعبه ويؤمن به من أجل الرزق فهو عابد للنعمة. فقال شقيق

(١) وردت في الرسالة القشيرية (ص ٢٢، ٢٣).

(٢) وردت في الرسالة القشيرية (ص ٢٢).

(٣) وردت في حلية الأولياء، ج ٨ (ص ٦٤)، الرسالة القشيرية (ص ٢٢)، صفة الصفوة، ج ٤ (ص ١٤٠).

لأصحابه: اكتبوا هذا الكلام الذي يقوله، فقال الغريب: أكتب رجل مثلك قول رجل مثلي! قال: بلى إننا حين نجد الجوهر نلتقطه، وإن كان ملقي في النجاسة ولا نخاف، فقال الغريب: اشرح الإسلام، فدينك هو التواضع، وقبول الحق، قال: بلى، فقد قال الرسول ﷺ: «الحكمة ضالة المؤمن فاطلبها لو كانت عند الكافر».

يروى أن شقيق كان يعظ في مجلس في سمرقند، فاتجه إلى القوم وقال: أيها القوم لو أنكم موتى في القبور، أو أطفال في المدارس، أو مجانين في المستشفيات، أو كفار في بلد كافر، أو عبيد، اثاروا للإسلام من أنفسكم، يا عباد المخلوق. فقال شخص لشقيق: يلومك الناس، ويقولون: إنك تأكل الخبز من كدهم، فتعال كي أقتص لك، فقال: إن لم يكن فيك خمسة عيوب، لكنت أفعل ذلك، الأول: تقل خزائنك، والثاني: يسرقها اللص، والثالث: تندم عليها، والرابع: لا تتبعد إن رأيت عيباً صدر مني، وتثار مني، والخامس: يجوز أن يحين الأجل وأظل بلا عدة، لكن لي رب بريء من كل العيوب ومنزه عنها.

يروى أن شخصاً قدم إليه، وقال: أريد أن أحج، فقال له: ما زاد طريقك؟ قال: أربعة أشياء. قال: ما هي؟ قال: لا أرى شخصاً قط أقرب إليّ في رزقي عن نفسي، ولا شخصاً قط أبعد عن رزقه سواي، وأرى قضاء الله (تعالى) يأتي إليّ حيثما كنت، كما أعلم في كل حال أكون فيه إن الله أعلم بحالي مني. فقال شقيق: أحسنت باركك الله.

يروى أن شقيق عندما قصد الكعبة، ووصل إلى بغداد، دعاه هارون الرشيد، ولما ذهب شقيق إلى هارون، قال هارون: أنت شقيق الزاهد؟ قال: أنا شقيق، لكنني لست زاهداً، فقال هارون: عظمي، قال له: احذر فقد أجلسك الحق تعالى مكان الصديق، ويطلب منك الصدق كما طلبه منه، وأجلسك مكان الفاروق، ويريد منك أن تفرق بين الحق والباطل كما أراد منه، وأحلك محل ذي النورين^(١) ويريد منك الحياء والكرم مثله، وأجلسك مكان المرتضى ويريد منك العلم والعدل مثله. قال: زدني، فقال: لله دار تسمى الجحيم، جعلك حارساً عليها، وأعطاك ثلاثة أشياء: المال والسيف والسوط، وقال: احجب الخلق عن الجحيم بهذه الأشياء الثلاثة وكل محتاج يأتي إليك لا تضمن عليه بالمال، ومن يخالف أمر الحق أدبه بهذا السوط، ومن يقتل شخصاً، اقتص منه بهذا السيف بالأمر، وإلا تكون قدوة أهل جهنم. قال هارون: زدني، قال: أنت الينبوع والعمال الجدول، فإن كان الينبوع صافياً، فلا يلحقه الضرر من تكدر الجدول، وإن كان الينبوع كدراً، فلا أمل قط في صفاء الجدول. قال: زدني، قال: إن أصابك عطش في الصحراء، إلى حد أنك قاربت الهلاك، ووجدت شربة ماء في تلك اللحظة، بكم تشربها؟ قال: بكل شيء،

(١) ذو النورين: لقب الخليفة عثمان وسمي بذی النورین لأنه تزوج بنتين من بنات الرسول. د. استعلامي (ص ٨٤٣).

قال: وإن لم تبع إلا بنصف ملك، قال: أهبه، قال: وإذا لم تتبول ذلك الماء الذي شربته إلى حد أنك تخشى الهلاك، وقال واحد: أعالجك، على أن آخذ نصف ملكك، ماذا تفعل؟ قال: أهبه إياه، فقال: إذن أي زهو بملك قيمته شربة ماء تشربها وتبولها، فبكى هارون، وأعاده في إعزاز تام. ثم ذهب شقيق إلى مكة، وهناك تجمع الناس حوله، وقال: السعي وراء الرزق هنا جهل، والعمل من أجل الرزق حرام.

وصادفه إبراهيم بن أدهم، فقال له شقيق: يا إبراهيم، ماذا تفعل في أمر معاشك؟ قال: إن يصلني شيء أشكر، وإن لا يصلني أصبر، فقال شقيق: هكذا تفعل كلاب بلخ فعندما يكون هناك شيء يرعونه يهزون ذيولهم، وإن لم يكن، يصبرون، فقال إبراهيم: وكيف تفعل أنت؟ قال: إن وصلنا شيء نؤثره، وإن لم يصلنا نشركه، فنهض إبراهيم، واحتوى رأسه، وقبلها، وقال: «أنت الأستاذ والله». عندما عاد من مكة إلى بغداد، وعظ في مجلس، وكان أغلب كلامه في التوكل، وقال أثناء حديثه: نزلت في البادية وكانت في جيبي أربع قطع من الفضة، أحفظها، فنهض شاب وقال له: ألم يكن الله تعالى موجودًا عندما كنت تضع تلك العملات الأربع في جيبك، ولم تكن قد اعتمدت عليه في ذلك الوقت؟! فتغير شقيق، وأقر بذلك، وقال: صدقت، وهبط من فوق المنبر.

يروى أن شيخًا قدم إليه، وقال: ارتكبت ذنوبًا كثيرة، وأريد أن أتوب، فقال له: تأخرت، قال الشيخ: بل أسرع، قال: كيف؟ قال: من جاء قبل الموت، يكون قد أسرع، فقال شقيق: أحسنت المجيء والقول.

وقال: رأيت في المنام، أنهم قالوا: من يعتمد على الله، تزيد النية الحسنة رزقه، ويصبح سخيًا، ولا يكون له وسواس في الطاعة.

وقال: من جزع في مصيبة كأنه قد أخذ حربا يقاتل بها.

وقال: أصل الطاعة الخوف والرجاء والمحبة.

وقال: علامة الخوف ترك المحارم، وعلامة الرجاء دوام الطاعة، وعلامة الشوق المحبة ولزوم الإنابة.

وقال: من لا يحظى بثلاثة أشياء، لا ينجو من الجحيم وهي: الأمن والخوف والاضطرار^(١).

وقال: العبد الخائف من خاف مما مضى من الحياة وكيف مضى؟ والخوف لأنه لا يعلم ما سيكون بعد هذا.

(١) وردت في طبقات الصوفية (ص ٦٦).

وقال: العبادة عشرة أجزاء: تسعة منها الفرار من الخلق، والجزء الباقي الصمت.
 وقال: هلاك الرجل في ثلاثة أشياء: أن يذنب على أمل التوبة، ولا يتوب على أمل طول الأمد،
 ويظل عاصياً على أمل الرحمة، ومثل ذلك الشخص لا يتوب أبداً.
 وقال: يحيي الحق (تعالى) أهل طاعته عند الموت، ويميت أهل المعصية أثناء الحياة.
 وقال: ثلاثة أشياء قرائن للفقراء هي: فراغة القلب، وخفة الحساب، وراحة النفس. وثلاثة
 أشياء ملازمة للأغنياء هي: تعب الجسد، وانشغال القلب، وشدة الحساب.
 وقال: ينبغي الاستعداد للموت لأنه عندما يأتي لا يعود.
 وقال: إن أحببت من تعطيه شيئاً أكثر ممن يعطيك فإنك محب للآخرة، وإلا فإنك محب
 للدنيا^(١).

وقال: ليس هناك شيء أحب إليّ من الضيف لأن رزقه ومؤنته على الله، وأنا لا شأن لي
 بينهما، ولي أجره وثوابه^(٢).

وقال: من وقع في ضيق بعد النعمة، ولم يكن الضيق أعظم بالنسبة له من النعمة الوفيرة فقد
 وقع في غمين عظيمين: غم في الدنيا، وغم في الآخرة، ومن وقع في ضيق وكان أعظم بالنسبة
 له من النعمة وقع في سعدين: سعد في الدنيا وآخر في الآخرة^(٣). قالوا: بما يعرف أن العبد واثق
 بربه ومعتمد عليه؟ قال: عندما يفوته شيئاً من الدنيا، يحسبه غنيمته.

وقال: إن أردت أن تعرف رجلاً، انظر أحواله أكثر أمناً بوعده الله أم بوعده الخلق^(٤).

وقال: يمكن معرفة التقوى بثلاثة أشياء: بالإرسال، والمنع والقول. الإرسال هو الدين أي أن
 ما أرسلته هو الدين، والمنع هو الدنيا أي أن المال الذي يمنح لك لا تأخذه لأنه الدنيا، والقول
 في الدين والدنيا، أي أنه يمكن التحدث عن كلا الدارين. وقال: الحديث ديني ودنياوي. ومعنى
 آخر هو: ما أرسلته هو الدين، أي طاعة الأوامر، والمنع هو الدنيا أي تجنب النواهي، والقول هو:
 الإحاطة بالأمرين؛ لأنه بالقول يمكن العلم هل المرء في أمر الدين أم الدنيا؟.

وقال: سألت سبعمائة عالم عن خمسة أشياء: من العاقل؟ ومن الغني؟ ومن الذكي؟ ومن
 الفقير؟ ومن البخيل؟ فأجاب السبعمائة إجابة واحدة قالوها جميعاً: العاقل من لا يحب الدنيا،

(١) وردت في طبقات الصوفية (ص ٦٤)، حلية الأولياء، ج ٨ (ص ٦٢).

(٢) وردت في طبقات الصوفية (ص ٦٥).

(٣) وردت في طبقات الصوفية (ص ٦٥)، حلية الأولياء، ج ٨ (ص ٦٩).

(٤) وردت في حلية الأولياء، ج ٨ (ص ٦٤) مع الاختلاف.

والذكي من لا يفتن بها، والغني من يرضى بقسمة الله، والفقير من لا يطلب الزيادة في قلبه،
والبخيل من يمنع حق مال الله عن الله.

قال حاتم الأصم: طلبت منه وصية بشيء ينفع، فقال: إن أردت وصية عامة فاحفظ اللسان،
ولا تتحدث قط حتى ترى ثواب ذلك القول في ميزانك، وإن أردت وصية خاصة فانظر حتى لا
تتحدث لعلك ترى نفسك تحترق إذا لم تتحدث. والله أعلم.



ذكر الإمام أبي حنيفة^(١)

رضي الله عنه



هو سراج الشرع والملة، وشمع الدين والدولة، هو نعمان الحقائق، ومجمع جواهر المعاني والحقائق، هو العارف العالم الصوفي، إمام العالم أبو حنيفة الكوفي (رضي الله عنه).

كيف يمكن وصف شخص كان قد مدح بكل الألسنة وقبل في كل الملل. ولا نهاية لرياضته ومجاهدته وخلوته ومشاهدته، وله في أصول الطريقة وفروع الشريعة درجة رفيعة ونظرة نافذة، وكان فريداً في الفراسة والسياسة والكياسة، وأعجوبة في المروءة والفتوة، وكان كريم الدنيا وجواد الزمان، وأفضل عهده، وأعلم وقته «وهو كان في الدرجة القصوى والرتبة العليا».

وروى أنس عن الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم): يوجد رجل في أمتي «يقال له نعمان بن ثابت وكنيته أبو حنيفة هو سراج أمتي». ووردت صفة أبي حنيفة في التوراة.

وقال أبو يوسف^(٢): ظللت تسعة عشر عاماً في خدمته، كان طوال هذه الأعوام يؤدي صلاة الصبح بطهارة صلاة العشاء.

قال مالك بن أنس: هكذا رأيت أبا حنيفة، إن ادعيت أمامه أن هذا الشيء عمود ذهبي كان يستطيع أن يقيم الدليل على ذلك.

قال الشافعي: إن جملة علماء العالم عيال أبي حنيفة في الفقه.

وقال علي بن أبي طالب (رضي الله عنه): سمعت النبي (صلوات الله عليه وعلى آله وسلم) يقول: «طوبى لمن رآني أو رأى من رآني».

(١) الإمام أبو حنيفة: أبو حنيفة النعمان بن ثابت الخزاز هو إمام الفرقة السنية الحنفية، ولد عام ٨٠هـ، وتوفي ١٥٠ أو ١٥٣هـ ودفن في مقابر خيرزان التابعة للكوكة، ومن آثاره: الفقه الأكبر، كتاب الرد على القدرية، كتاب العلم والمتعلم، كتاب الوصية. انظر ترجمته في كشف المحجوب (ص ٣٠٢) من الترجمة العربية.

د. استعلامي (ص ٨٤٣).

(٢) أبو يوسف: المقصود يعقوب الأنصاري الذي كان تلميذاً لأبي حنيفة ووصل إلى منصب قاضي القضاة في عهد هارون الرشيد.

د. استعلامي (ص ٨٤٤).

وكان قد أدرك العديد من الصحابة (مثل): عبد الله بن جزء الزبيدي، وأنس بن مالك، وجابر ابن عبد الله، وعبد الله بن أبي أوفى، ووائلة بن الأسقع، وعائشة بن عجرد، ومن ثم فهو مقدم لهذه الأسباب التي ذكرناها. وكان قد رأى كثيرًا من المشايخ وصاحب الصادق (رضي الله عنه)، وكان أستاذ علم الفضيل، وإبراهيم بن أدهم، وبشر الحافي، وداود الطائي، وعبد الله بن المبارك. وحين وصل إلى حافة روضة سيد المرسلين (صلوات الله عليه)، وقال: «السلام عليك يا سيد المرسلين» جاء الجواب: «وعليك السلام يا إمام المسلمين»، واعتزم العزلة في أول أمره. يروى أن أبا حنيفة اتجه إلى القبلة الحقيقية، وأشاح بوجهه عن الخلق، وارتدى الصوف، حتى رأى في المنام ذات ليلة أن عظام النبي ﷺ كانت تدور في اللحد، وتختار بعضها البعض، فاستيقظ من الهيبه، وسأل واحدًا من أصحاب ابن سيرين، فقال له: إنك سوف تحظى بدرجة عظيمة من علم الرسول ﷺ وحفظ سنته، بحيث إنك تجتهد فيه (العلم)، وتفصل الصحيح منه عن السقيم. ورأى النبي ﷺ في المنام مرة أخرى، وقد قال له: يا أبا حنيفة، قد أنيط بك سبب إحياء سنتي، فلا تعتزل. وكان من بركات حيطته أن الخليفة أعد مجلسًا ودعا الشعبي^(١) - الذي كان أستاذ أبي حنيفة - وكان قد أصبح شيخًا - إليه وأحضر علماء بغداد، وأصدر أمرًا بأن تكتب ضياعًا باسم كل خادم، بعضها بالإقرار والبعض بالملك والبعض بالوقف. ثم أحضر الخادم ذلك المكتوب للشعبي الذي كان قاضيًا وقال: يأمر أمير المؤمنين بأن تشهد على هذا المكتوب، فوقّع، ووقع جملة الفقهاء، ثم أحضره إلى أبي حنيفة، وقالوا: يأمر أمير المؤمنين بأن تشهد، قال: وأين هو؟ قالوا: في القصر، قال: ليأت أمير المؤمنين إلى هنا، أو أذهب إليه، حتى تصح الشهادة، فأغلظ له الخادم (قائلًا): لقد وقع القاضي والفقهاء والشيوخ، وأنت تتمنع في شبابك، فقال له أبو حنيفة: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾^(٢) وصل هذا إلى سمع الخليفة، فأحضر الشعبي، وقال: هل الرؤية شرط في الشهادة أم لا؟ قال: بلى هي شرط، قال: فمتى رأيته إذن حتى تكتب الشهادة؟

قال الشعبي: علمت بمعرفتكم، لكنني لا أستطيع أن أطلب مشاهدتك، قال الخليفة: هذا القول بعيد عن الحقيقة، وهذا الشاب أولى بالقضاء. وبعد ذلك فكر المنصور - وكان الخليفة آنذاك - أن يمنح القضاء إلى شخص، وتشاور على واحد من أربعة أشخاص كانوا فحول العلماء وتم الاتفاق على أن الأول هو: أبو حنيفة والثاني: سفيان، والثالث شريك^(٣) والرابع: مسعر

(١) الشعبي: مستشار الخليفة في أمور الشرع والقضاء، توفي حوالي عام ١٠٠ هـ. وكان من محدثي القرن الأول الهجري، ومن التابعين. د. استعلامي (ص ٨٤٤).

(٢) سورة البقرة: الآية (٢٨٦).

(٣) شريك: من محدثي القرن الأول. د. استعلامي (ص ٨٤٤).

ابن كدام^(١) فاستدعى الأربعة، وقال لهم أبو حنيفة في الطريق الذي سلكوه: أفكر لكل منكم، قالوا: لعلك تصيب!

قال: سأدفع القضاء عن نفسي بالحيلة، ويفر سفيان، ويدعي مسعر الجنون، ويصبح شريك القاضي، ومن ثم هرب سفيان في الطريق، واختفى في سفينة، وقال: خبئوني إنهم سوف يقطعون رأسي، تأويلًا لذلك الخبر الذي ذكره الرسول ﷺ: «من جعل قاضي، فقد ذبح بغير سكين»، ثم أخفاه الملاح. وذهب هؤلاء الثلاثة إلى المنصور، وفي البداية، قال لأبي حنيفة: يجب أن تتولى القضاء، فقال: أيها الأمير، إنني لست من العرب، ولن يرضى سادات العرب بحكمي، وقال جعفر: هذا الأمر لا يتعلق بالنسب ويلزمه العلم، فقال أبو حنيفة: إنني لا أليق بهذا العمل، ولا أستحقه لما سبق أن ذكرته، فإن صدقت فأنا لا أليق به، وإن كذبت، فلا يليق الكاذب بقضاء المسلمين، وأنت خليفة الله لا تجيز أن تجعل خليفتك كاذبًا، وتعتمد عليه في دماء المسلمين وأموالهم. قال هذا ونجا. ثم ذهب مسعر إلى الخليفة، وأمسك بيده، وقال: كيف حالك؟ وكيف حال الحرير؟ وكيف حال الأبناء؟ فقال المنصور: أخرجوه، إنه مجنون. ثم قال لشريك: يجب أن تتولى القضاء؟ فقال: إنني مختل، وضعيف العقل، قال المنصور: عالج نفسك؛ حتى يكمل عقلك، ثم ولوا شريك القضاء، فهجره أبو حنيفة، ولم يتحدث معه ثانية.

يروى أن مجموعة من الأطفال كانوا يلعبون الكرة، ف وقعت كرتهم وسط جمع أبي حنيفة فلم يذهب أي طفل ليخرجها، فقال طفل: أذهب أنا، وأحضرها، ثم دخل بجرأة وأخرجها. قال أبو حنيفة: هذا الطفل ليس ابن حلال، بحثوا الأمر، فكان كذلك.

قالوا: يا إمام المسلمين، بما عرفت؟ قال: إن كان ابن حلال، لمنعه الحياء.

يروى أن مالا كان له عند شخص، وتوفي في محلة ذلك الشخص تلميذ من تلاميذ الإمام، فذهب الإمام للصلاة عليه، وكان القيظ شديدًا، ولم يكن هناك ظل قط إلا حائطًا يملكه ذلك الرجل، الذي ينبغي عليه أن يرد المال للإمام. قال الناس: اجلس برهة في هذا الظل، فقال: لي مال عند صاحب هذا الحائط، ولا يجوز أن أتمتع بحائطه لأن الرسول ﷺ قال: «كل قرض جر منفعة فهو ربا».

يروى أن أبا حنيفة سجن ذات مرة، فجاءه واحد من الظلمة وقال: إبر لي القلم. قال: لا أبري ومهما قال لم يجد قوله، فقال: لماذا لا تبريه؟ قال: أخشى أن أكون من أولئك القوم الذين قال عنهم الحق (تعالى): ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾^(٢).

(١) مسعر بن كدام: روي الحديث عن التابعين، توفي حوالي ١٥٠هـ. د. استعلامي (ص ٨٤٤).

(٢) سورة الصافات: الآية (٢٢).

وكان يصلي ثلاثمائة ركعة كل ليلة، وذات يوم كان يمضي، فقالت امرأة لامرأة: هذا الرجل يصلي كل ليلة خمسمائة ركعة، سمع الإمام ذلك، فعقد النية على أن يصلي بعد ذلك خمسمائة ركعة في كل ليلة، حتى يصدق ظنهم. وكان يمضي في يوم آخر، فقال الأطفال بعضهم لبعض: هذا الرجل الذي يسير يصلي كل ليلة ألف ركعة، قال أبو حنيفة: فنويت أن أصلي ألف ركعة. وذات يوم قال تلميذ للإمام: يقول الناس: إن أبا حنيفة لا ينام الليل، فقال: نويت ألا أنام الليل ثانية، قال: لماذا؟ قال: يقول الحق (تعالى): ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾^(١) الآن لا أضع جانبي على الأرض حتى لا أكون من أولئك القوم، وبعد ذلك كان يؤدي صلاة الصبح بطهارة صلاة العشاء طيلة ثلاثين عامًا.

يروى أن ركبته كانت قد شابته ركة الجمل من كثرة السجود.

يروى أن أبا حنيفة كان قد تواضع لغنى لإيمانه، وقال: قد ختمت (القرآن) ألف مرة كفارة لذلك. وقالوا: أحياناً كان يختم (القرآن) أربعين مرة حتى تنكشف له مسألة صعبة.

يروى أن محمد بن الحسن^(٢) (رحمة الله عليه) كان وسيماً جداً، رآه ذات مرة ولم يره مرة أخرى بعد ذلك، وعندما كان يلقي الدرس عليه، كان يجلسه خلف عمود خشية أن تقع عينه عليه. يروى أن داود الطائي^(٣) قال: ظللت عشرين عامًا عند الإمام أبي حنيفة، ولم أره طوال هذه المدة جلس عاري الرأس في الخلاء أو في الملاء، ولم يمد قدمه للراحة، فقلت له: يا إمام الدين، ما يحدث إن مددت قدمك في الخلوة؟ قال: أدب السماع أولى لله في الخلوة.

يروى أن أبا حنيفة كان يمضي ذات يوم، فرأى طفلاً كان قد وقع في الوحل، فقال له: انتبه كي لا تقع، فقال الطفل: إن وقوعي سهل فإن وقعت وقعت بمفردي، لكن احذر أنت فلو زلفت قدمك، زلف كل المسلمين الذين يتبعونك، ويصعب نهوضهم، فتعجب الإمام من حذاقة هذا الطفل، وبكى في الحال، وقال لأصحابه: احذروا، إن ظهر لكم شيء في مسألة، كان الدليل فيها أكثر وضوحاً أن تتبعوني في ذلك. وهذا دليل كمال الإنصاف. ولا جرم أن أبا يوسف ومحمد^(٤) (رحمهما الله) لهما أقوال كثيرة في مسائل مختلفة، ومع هذا قالوا: هكذا استقام سهم اجتهاده على هدف الجنان بحيث لم يمل، وكان اجتهاد الآخرين غباراً حول الهدف.

(١) سورة آل عمران: الآية (١٨٨).

(٢) محمد بن الحسن: أبو عبد الله محمد بن حسن الشيباني، ولد في واسط وتلمذ على يد أبي حنيفة في الكوفة، وكان من عقلاء زمانه، وعاش ٥٧ عاماً. د. استعلامي (ص ٨٤٤).

(٣) داود الطائي: انظر الكتاب (ص ٣٢٤).

(٤) أبو يوسف هو: يعقوب الأنصاري، ومحمد هو: محمد بن الحسين، وسبق التعريف بهما.

يروى أن رجلاً كان موسراً، وكان يكره أمير المؤمنين عثمان (رضي الله عنه) إلى حد أنه كان يسميه (اليهودي). وصل هذا الكلام إلى أبي حنيفة، فدعاه وقال: سأزوج ابنتك إلى فلان اليهودي، فقال: أنت إمام المسلمين، أتجيز أن تزوج ابنة مسلم يهودي! وأنا لن أزوجه له قط. فقال أبو حنيفة: سبحان الله، لأنك لا تجيز زواج ابنتك لليهودي، فكيف يجوز أن يزوج محمد (رسول الله) ابنتيه لليهودي؟! علم ذلك الرجل في الحال فحوى الكلام، ورجع عن اعتقاده، وتاب ببركات الإمام أبي حنيفة.

يروى أن أبا حنيفة كان ذات يوم في حمام، فرأى واحداً بدون إزار، قال البعض: إنه فاسق، وقال البعض: إنه دهري، فاغمض أبو حنيفة عينيه. قال ذلك الرجل: أيها الإمام، متى سلبت نور العين؟ قال: حين رفعوا الستر عنك.

وقال: عندما تناظر قدرياً قل له قولين: إما أن يكفر أو يترد عن مذهبه، لأن الله أراد أن يستقيم علمه فيهما، ويتساوى معلومه مع علمه. إن قال لا كان كافراً؛ لأنه عندما يقول: لم يرد أن يستقيم علمه ويتساوى العلم بالمعلوم، يكون هذا كفراً، وإن قال: أراد فقد سلم وضاق بمذهبه. وقال: إنني لا أصلح (حال) البخيل، ولا أسمع شهادته فإن البخل يمنعه أن يستقضي، وهو يأخذ زيادة عن حقه.

يروى أنهم كانوا يشيدون مسجداً، وطلبوا شيئاً من أبي حنيفة على سبيل التبرك، فثقل ذلك على الإمام، قال الناس: غرضنا التبرك بما سيعطيه لنا، فأعطاهم كيس ذهب وهو مستاء جداً، قال التلاميذ: أيها الإمام، إنك كريم وعالم ولا مثيل لك في السخاء، فلماذا ثقل عليك منح هذا القدر من الذهب؟ قال: ليس بسبب المال، ولكنني أعلم يقيناً أن المال الحلال لا ينفق قط على الماء والطين، وأعلم أن مالي حلال، وعندما طلبوا مني شيئاً كرهت أن تظهر شبهة في مالي الحلال، ولهذا السبب كنت أتأذى جداً، ولما انقضت عدة أيام، أعادوا إليه ذلك الكيس، وقالوا: إنه مبلغ تافه، ففرح الإمام فرحاً عظيماً.

يروى أن أبا حنيفة كان يمضي في السوق، فتطايرت نقطة طين على رداءه، فذهب إلى شاطئ دجلة، وكان يغسلها، قالوا له: أيها الإمام: إنك تسمح بمقدار معين من النجاسة على الرداء، وتغسل هذا القدر من الطين! قال: بلى، فتلك فتوى وهذه تقوى، كما لم يسمح الرسول ﷺ لبلال أن يدخر نصف رغيف، ووضع للنساء قوت عام.

ويقال: عندما صار داود الطائي قدوة، قال لأبي حنيفة: ماذا أفعل الآن؟ قال: عليك باتباع العلم لأن كل علم لا تعمل به يكون كجسد بلا روح.

ويقال: رأى خليفة العهد في المنام، وقد سأل ملك الموت: كم بقي من عمري؟ فرفع ملك

الموت خمسة أصابع، وأشار بها، فسأل أشخاص كثيرين عن تفسير هذا المنام ولم يفسره له أحد فسأل أبا حنيفة قال: إن إشارة الخمسة هي إشارة لخمس علوم، أي أن تلك العلوم الخمسة لا يعرفها شخص، وهذه العلوم الخمسة في هذه الآية: يقول الحق (تعالى): ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ (١).

يقول الشيخ أبو علي بن عثمان الجلابي (٢): كنت في الشام، وكنت قد نمت على حافة قبر بلال المؤذن (رضي الله عنه)، رأيت نفسي في مكة في المنام، وكان الرسول ﷺ يدخل من باب بني شيبه، ويحتضن شيخاً، مثلما تحتضن الأطفال بشفقة تامة، فأسرعت إليه، وقبلت قدميه، وظللت في عجب من هذا الشيخ! فاطلع النبي بحكم معجزته على باطني، وقال: هذا إمام أهل ديارك أبو حنيفة (رحمة الله عليه).

يروى أن نوفل بن حيان قال: عندما توفي أبو حنيفة، رأيت القيامة في المنام، وكان كل الخلق قد وقفوا في ساحة القيامة، ورأيت الرسول ﷺ واقفاً على حافة حوض، ورأيت المشايخ واقفين على جانبيه يميناً ويساراً، ورأيت شيخاً حسن الوجه، أبيض الشعر والوجه، وجهه مواجه لوجه النبي، ورأيت الإمام أبا حنيفة واقفاً أمام النبي، فسلمت وقلت: اعطني ماء، قال: أيسمح الرسول؟ فأمر الرسول (قائلاً): امنحه ماء، فأعطاني كأساً من الماء، وشربت أنا والأصحاب من تلك الكأس فلم ينقص قط، فقلت لأبي حنيفة: من ذلك الشيخ الذي على يمين الرسول؟ قال: إبراهيم الخليل وأبو بكر الصديق على يساره، وهكذا سألته، وكنت أمسك العقد بإصبعي حتى سألته عن سبعة عشر شخصاً، وعندما استيقظت، كنت قد أخذت سبعة عشر عقداً.

قال يحيى بن معاذ الرازي: رأيت الرسول ﷺ في المنام، فقلت: «أين أطلبك؟» قال: عند علم أبي حنيفة.

إن مناقبه كثيرة ومحامده وفيرة وليست خافية. وختمنا بهذا.



(١) سورة لقمان: الآية (٣٤).

(٢) أبو علي بن عثمان الجلابي: سبق التعريف به.

ذكر الإمام الشافعي^(١)

رضي الله عنه



هو سلطان الشريعة والطريقة، وبرهان المحبة والحقيقة، هو مفتي الأسرار الإلهية ومهدي الأطوار اللامتناهية، هو وارث النبي وابن عمه، وتد العالم الشافعي المطليبي (رضي الله عنه). ليست هناك حاجة لشرح أحواله، فالعالم كله مملوء بشروحه وفوائده ومناقبه وشمائله كثيرة، وهذا هو وصفه التام: إنه شعبة الدوحة النبوية، وفاكهة الشجرة المصطفوية. كان فريداً في الفراسة والسياسة والكياسة، وأعجوبة في المروءة والفتوة، وكان كريم الدنيا وجواد الزمان، وكان أفضل عهده وأعلم وقته، وكان حجة الأئمة من قريش، ومقدم «قدموا آل قريش». ورياضاته وكراماته من الكثرة بحيث لا يمكن أن يحتويها هذا الكتاب.

قال في الحرم - وهو في الثالثة عشرة من عمره - : «سلوني ما شئتم»، وكان يفتي وهو في الخامسة عشرة من عمره.

تلمذ على يدي أحمد بن حنبل - الذي كان إمام الدنيا والذي حفظ ثلاثمائة ألف حديث - وعرى رأسه من الغاشية فاعترض عليه قوم (قائلين): أيجلس رجل بهذه المكانة أمام (شاب) في الخامسة والعشرين، ويترك صحبة المشايخ والأساتذة الأجلاء؟!

فقال أحمد: كل ما نذكره، يعرف معناه، ولو أنه لم يكن قد قابلنا، لطلبناه؛ لأنه قد فهم ما فهم من الحقائق والأخبار والآيات، ولم نعرف نحن أكثر من الأحاديث، لكنه كالشمس للدنيا والعافية للخلق!!

وقال أحمد أيضاً: كان باب الفقه قد أغلق أمام الخلق، ففتح الحق (تعالى) ذلك الباب بسببه. وقال أيضاً: لا أعرف شخصاً أكثر منة على الإسلام في عهد الشافعي إلا الشافعي.

(١) الشافعي: أبو عبد الله محمد بن إدريس الهاشمي، واحد من أئمة السنة الأربعة، ولد عام ١٥٠ هـ في غزة، وتوفي ٢٠٤ هـ في القاهرة، ومن آثاره: كتاب الأم في الفقه، والمسند، وأحكام القرآن، والمواarith والسنن وسبيل النجاة. انظر ترجمته في صفة الصفوة، جـ ٢ (ص ١٦٥)، كشف المحجوب (ص ٣٢٧) من الترجمة العربية، وانظر د. استعلامي (ص ٨٤٤، ٨٤٥).

وقال أحمد أيضًا: الشافعي فليسوف في أربعة علوم: في اللغة، واختلاف الناس وعلم الفقه، وعلم المعاني.

وقال أيضًا: قال المصطفى ﷺ: يبعث على رأس كل مائة عام رجل يعلم الخلق ديني، وذلك الرجل هو الشافعي^(١).

وقال الثوري^(٢): إن وزن عقل الشافعي أمام عقل نصف الخلق، لكان عقله الأرجح. ويقول بلال الخواص: سألت الخضر: ما تقول في حق الشافعي؟ قال: هو من الأوتاد. وفي بداية أمره لم يكن يذهب إلى عرس أو دعوة قط، وكان دائمًا باكيًا محترقًا، وخلعت عليه خلعة من بلغ من العمر ألف عام وهو ما زال طفلًا.

ثم التقى بسليم^(٣) الراعي، وظل في صحبته مدة طويلة، حتى سبق الجميع في التصرف، إلى حد أن عبد الله الأنصاري يقول: إنني لا أعتنق مذهبه، (لكنني) أحب الإمام الشافعي؛ لأنني أراه أمامي في كل مقام أنظر إليه.

يقول الشافعي: رأيت الرسول ﷺ في المنام، قال لي: من أنت يا ولدي؟ قلت: واحد من صحابتك يا رسول الله، فقال: اقترب، اقتربت فأخذ بصاقه كي يضعه في فمي، ففتحت فمي، بحيث وصل إلى شفتي وفمي ولساني، ثم قال: اذهب الآن عاونك الله، وفي الوقت نفسه، رأيت عليًا المرتضى في المنام، وقد أخرج خاتمه، ووضع في إصبعي؛ كي يسري إليّ علم علي وعلم النبي.

لما بلغ الشافعي الستة أعوام، وكان يذهب إلى المدرسة، وكانت أمه زاهدة من بني هاشم، وكان الناس يعهدون إليها بأماناتهم، ذات يوم جاء شخصان، وعهدا إليها بحقية، بعد ذلك جاء أحدهما، وطلب الحقية، فقالت: أعطيتها لصاحبك، قال: ألم نتفق ألا ترديها طالما لا نحضر نحن الاثنين، قالت: بلى، قال: لماذا أعطيتها له إذن؟ ضاقت أم الشافعي. ودخل الشافعي، وقال: لماذا ضقت يا أمه؟ فقصت الحال، قال الشافعي: لا مجال للخوف قط، أين المدعي حتى أجيبه؟ قال المدعي: هأنذا، قال الشافعي: حقيبتك في مكانها اذهب وهات صاحبك، وخذها، فتعجب ذلك الرجل واندعش وكيل القاضي - الذي كان قد أحضره - من كلامه، ومضيا.

(١) وردت في صفة الصفوة، ج ٢ (ص ١٦٦).

(٢) سفيان الثوري: سبق التعريف به.

(٣) سليم الراعي: من أتقياء القرن الثاني الهجري وعارفيه.

د. استعلامي (ص ٨٤٥).

بعد ذلك تتلمذ على يد مالك، وكان مالك يبلغ نيفاً وسبعين من عمره، وجلس على باب دار مالك، وكل فتوى كان يفتيها كان ينظر فيها، ويقول للمستفتي: عد، وقل له: احتط أكثر من هذا، وعندما كان يرى أن الحق عند الشافعي كان يزهو به، وكان هارون الرشيد هو الخليفة في ذلك الوقت.

يروى أن هارون تناظر مع زبيدة ذات ليلة، فقالت زبيدة لهارون: يا من أنت من أهل جهنم، قال هارون: لو أنني من أهل جهنم فأنت طالق، وانفصلا عن بعضهما، وكان هارون يحب زبيدة حباً شديداً، فتضجر، وأمر منادياً، فأحضر علماء بغداد واستفتاهم في هذه المسألة، فلم يجب شخص قط، وقالوا: يعلم الله (إن كان) هارون من أهل جهنم أو من أهل الجنة. فنهض طفل من وسط الجمع، وقال: أجيب أنا، فتعجب الخلق، وقالوا: لعله مجنون أي مجال له في حديث عجز فيه عدة من فحول العلماء؟!

دعا هارون، وقال: أجب، قال: أأنت محتاج لي أم أنا محتاج لك؟ قال: أنا محتاج لك، فقال الشافعي: فانزل من فوق العرش إذن، إن مكانة العلماء سامية فأجلسه الخليفة على العرش، ثم قال الشافعي: أجب أنت أولاً عن سؤالني وعندئذ أجيب عن سؤالك، قال هارون: وما السؤال؟ قال: أقدرت على معصية وامتنعت عنها خوفاً من الله؟ قال: بلى، هكذا (الحال) والله.

قال: حكمت أنك من أهل الجنة. فصاح العلماء بأي دليل وحجة؟ قال: بالقرآن حيث يقول الحق (تعالى): ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ﴾ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿١﴾ فصاح الجميع، وقالوا: هكذا يكون في طفولته فكيف يكون في الشباب.

يروى أن الشافعي ذات مرة قام وجلس عشر مرات أثناء درس، قالوا: ما الأمر؟ قال: إن ابن العلوي يلعب على الباب، وكل مرة يأتي فيها أمامي، أنهض مراعاة لحرمة فلا يجوز أن يظهر ابن الرسول، ولا تنهض.

يروى أن شخصاً أرسل مالا ذات مرة؛ كي ينفق على مجاوري مكة، وكان الشافعي هناك، فحملوا إليه بعضاً من المال، قال: ما قال صاحب المال؟ قالوا: قد أوصى بأن يعطى هذا المال للفقراء الأتقياء، فقال الشافعي: لا يجوز لي أن آخذ هذا المال فإنني لست تقياً ولم يأخذ.

يروى أن الشافعي قدم من صنعاء إلى مكة ذات مرة ومعه عشرة آلاف دينار، فقالوا له: لا بد أن تشتري ضياعاً وأغناماً، فنصب خيمة خارج مكة، وألقى بذلك الذهب، وكل من كان يأتي إليه كان يعطيه قبضة منه، فلم يبق شيء قط عند صلاة الظهر (٢).

(١) سورة النازعات: الآيتان (٤٠، ٤١).

(٢) صفة الصفوة، ج ٢ (ص ١٧٠).

يروى أن مالا وفيرا كان يرسل لهارون الرشيد من بلاد الروم كل عام، وذات عام أرسل الروم عدة رهبان ليتناقشوا مع العلماء، فإن عرفوا (ما وجه إليهم)، نعطيهم المال، وإلا لا تطلبوا منا مالا مرة أخرى. وجاء أربعمئة رجل من الرهبان، فأمر الخليفة، فنادوا وحضر جملة علماء بغداد على شاطئ (نهر) دجلة، ثم طلب هارون الشافعي، وقال: ينبغي عليك أن تجيب عليهم، وعندما حضر الجميع على شاطئ دجلة، ألقى الشافعي بسجادة على كتفه، ومضى، وألقى بها على وجه الماء. وقال: من يتناقش معنا يأتي إلى هنا، عندما رأى الرهبان ذلك أسلموا جميعاً، ووصل الخبر إلى قيصر الروم أنهم أسلموا على يد الشافعي، فقال القيصر: الحمد لله، إن ذلك الرجل لم يأت إلى هنا، لو كان قد جاء إلى هنا لما بقي في بلاد الروم كلها زنارى.

يروى أن جماعة قالوا لهارون: إن الشافعي لا يحفظ القرآن، وكان كذلك، لكن حافظته كانت قوية إلى درجة أن هارون أراد أن يمتحنه، فأمره بالإمامة طوال شهر رمضان، فكان يطالع كل يوم جزءاً من القرآن، ويقرأه كل ليلة، حتى حفظ القرآن كله في شهر رمضان.

وكانت في عهده امرأة منافقة، أراد أن يراها، فعقد قرانه عليها بمائة دينار، ورآها ثم طلقها. طبقاً لمذهب أحمد بن حنبل: من يترك صلاة متعمداً، يصير كافراً، وفي مذهب الشافعي: لا يجوز أن يعذب لأن الكفار لا يصلون. قال الشافعي لأحمد: عندما يترك شخص الصلاة ويكفر فماذا يفعل حتى يسلم؟ قال: يصلي، فقال الشافعي لأحمد: وكيف تصح صلاة كافر؟ فسكت أحمد. وهناك كثير من هذا الكلام الذي هو أسرار الفقه، وكثير من الأسئلة والأجوبة. لكن هذا الكتاب ليس مجالاً لها.

قال: إن رأيت عالماً ينشغل بالرخص والتأويلات فاعلم أن شيئاً لن يتأتى منه.

وقال: أنا عبد شخص علمني حرفاً من آداب التعليم.

وقال: من يتعلم العلم من جهلة، يضيع حق العلم، ومن يمنع العلم عن شخص جدير به فقد ظلمه.

وقال: إن بيعت الدنيا لي برغيف خبز، لا أبتاعها.

وقال: من كان همه شيئاً يضعه في بطنه، فهو يساوي ما يخرج منها.

وقال له شخص ذات مرة: عظني، فقال: اغتبط غبطة الأحياء على الأموات، أي لا تقل قط: وأأسفاه، إنني لم أجمع قدراً من الفضة كما جمع، وتركها متحسراً، بل اغتبط قائلاً: أطيع الله قدر ما أطاع، فلا يحسد شخص قط ميتاً، وينبغي على الحي ألا يحسد شخصاً حياً؛ لأنه سرعان ما يموت أيضاً.

يروى أن وقت الشافعي مضى ذات يوم، فطاف كل المقامات ومر على الخرابات، ومضى

إلى المسجد والمدرسة والسوق، فلم يجده، ومر على خائقه، فرأى مجموعة من الصوفية كانوا قد جلسوا، وقال أحدهم: أعزوا الوقت فإن الوقت يقدم، فاتجه الشافعي إلى الخادم وقال: ها أنا وجدت الوقت بسماعي ما يقولونه.

يذكر الشيخ أبو سعيد (رحمة الله عليه) أن الشافعي قال: لم يصل علم العالم كله إلى علمي، ولم يصل علمي إلى علم الصوفية، ولم يصل علمهم إلى علم كلمة لشيخهم الذي قال: «الوقت سيف قاطع».

وقال ربيع: رأيت في المنام قبل وفاة الشافعي أن آدم عليه السلام كان قد توفي، وكان الخلق يريدون الخروج لجنازته، ولما استيقظت، سألت عن تفسيره، فقال شخص: سيموت أعلم رجل في الزمان؛ لأن العلم خاصية آدم ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾^(١) ثم توفي الشافعي في تلك الأثناء.

يروى أن الشافعي أوصى عند وفاته أن قولوا لفلان أن يغسلني، وكان ذلك الشخص في مصر، ولما عاد قالوا له: هكذا أوصى الشافعي أن قولوا لفلان أن يغسلني، قال: احضروا الوصية فأحضروها لذلك الشخص الذي كان الشافعي قد أوصاه، بعد ذلك نظر الرجل في الوصية، وكان قد كتب فيها عليّ دين بألف درهم، فأدى ذلك الرجل دينه وقال: هذا غسله.

وقال: ربيع بن سليمان^(٢): رأيت الشافعي في المنام، فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: أجلسني على كرسي من ذهب، ونثر اللؤلؤ عليّ، ومنحني ما يساوي الدنيا سبعمائة ألف مرة (رحمة الله عليه)^(٣).



(١) سورة البقرة: الآية (٣١).

(٢) ربيع بن سليمان: هو أبو محمد ربيع بن عبد الجبار المرادي المصري، ولد عام ١٧٣ هـ. وتوفي ٢٧٠ هـ في مصر، وهو مؤذن وراوي وكان من أصحاب الإمام الشافعي. د. استعلامي (ص ٨٤٥).

(٣) وردت في صفة الصفوة، ج ٢ (ص ١٧٢).

ذكر الإمام أحمد بن حنبل^(١)

قدس الله روحه



هو إمام الدين والسنة، ومقتدى المذهب والملة، هو دنيا الدراية والعمل، ومكان الكفاية بلا بدل، هو متبع زمانه، وصاحب الورع الفريد، هو سنى الآخرة والأولى، الإمام الحق أحمد بن حنبل (رضي الله عنه).

كان شيخ السنة والجماعة، وإمام الدين والدولة، وليس لشخص قط (مكانته) في علم الأحاديث، وله في الورع والتقوى والرياضة والكرامة شأن عظيم، وكان صاحب فراسة، ومستجاب الدعوة، وقد بورك جملة فرقه بغاية الإنصاف، وأطلق عليه المقدس والمبرأ إلى حد أن ابنه كان ذات يوم يشرح معنى هذا الحديث: «خمر طينة آدم بيده»^(٢) وكان قد أخرج يده من تلايبه في شرحه لهذا المعنى، فقال أحمد: عندما تقول: «يد الله، لا تشر إلى يدك».

وكان قد أدرك كثيراً من المشايخ الكبار مثل ذي النون وبشر الحافي وسري السقطي ومعروف الكوفي وأمثالهم.

وقال بشر الحافي: لأحمد ثلاث خصال ليست لي منها طلب الحلال لنفسه ولعِياله، وأنا أطلبه لنفسِي.

ثم قال سري السقطي: كان أحمد ممتحناً في جميع الأحوال، في حال حياته بطعن المعتزلة، وفي حال مماته باتهامات المشبهة وهو بريء من كل هذا^(٣).

يروى أنه عندما غلب المعتزلة في بغداد، قالوا: يجب أن يكلف بأن يقول إن القرآن مخلوق ومن ثم حملوه إلى قصر الخليفة وكان هناك حارس باب القصر، قال: أيها الإمام احذر حتى

(١) أحمد بن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن حنبل، سكن والده مرو، ولد عام ١٦٤ هـ ببغداد بعد أن جيء به حملاً من مرو، وتوفي عام ٢٤١ هـ وله مؤلف معروف في الحديث بعنوان المسند.

انظر ترجمته في طبقات الفقهاء لأبي إسحق الشيرازي المتوفي ٤٧٦ هـ، بغداد ١٣٥٦ هـ، (ص ٧٥)، حلية الأولياء، ج ٩ (ص ١٦١). صفة الصفوة، ج ٢ (ص ٢٢١)، كشف المحجوب (ص ٣٢٨) من الترجمة العربية.

(٢) ورد هذا الحديث القدسي في الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٣٢٧).

(٣) وردت في كشف المحجوب (ص ٣٢٩، ٣٣٠) من الترجمة العربية.

تكون رجلاً لأنني سرقت ذات مرة، فضربت ألف مفرعة، ولم أفر حتى تحررت في النهاية، وهكذا صبرت وأنا على باطل، والأولى أن تصبر أنت على الحق.

قال أحمد: كان قوله ذلك عوناً لي، ثم حملوه، وكان شيئاً وضعيفاً، وشدوه على عقابين، وضربوه ألف سوط (وهم يقولون): قل إن القرآن مخلوق! فلم يقل. وفي أثناء ذلك حل رباط إزاره، وكانت يده مغلولتين، فظهرت يدان من الغيب، وعقدتا الإزار، فلما رأوا هذا البرهان، حرروه، ومات في تلك الأثناء^(١). وفي أواخر عهده جاء إليه قوم وقالوا له: ما تقول في هؤلاء القوم الذين عذبتهم؟ قال: إنهم كانوا يضربونني من أجل الله، طائنين أنني على باطل، فلن اختصمهم يوم القيامة لمجرد جرح سوط^(٢).

يروى أن شاباً كانت له أم مريضة، ومَرَّ عليها زمن، فقالت له يوماً: يا بني، إن أردت رضائي، اذهب إلى الإمام أحمد، وقل له يدعوك لي، لعل الحق (تعالى) يهبني الصحة، فقد أنهكني المرض، فدخل الشاب دار الإمام أحمد، ونادى، فقيل: من؟ قال: صاحب حاجة، لي أم مريضة، وتطلب منك الدعاء، فكره الإمام ذلك كرهاً عظيماً (وقال: لا): لماذا تعرفني؟ ثم نهض، واغتسل، وانشغل بالصلاة، قال خادم الإمام: عد أيها الشاب، فالإمام مشغول بأمر، فعاد الشاب، ولما وصل إلى الدار نهضت أمه، وفتحت الباب وصحت كل الصحة بأمر الله (تعالى)^(٣).

يروى أن أحمد كان يتوضأ على حافة ماء، وكان شخص آخر يتوضأ أمامه، فنهض حرمة للإمام، وجاء خلفه، وتوضأ وعندما توفي ذلك الرجل، رأوه في المنام، فقالوا: ما فعل الله بك؟ قال: رحماني بتلك الحرمة التي راعيتها للإمام في الوضوء.

يروى أن أحمد قال: نزلت بالبادية بمفردي؛ فضلت الطريق، ورأيت أعرابياً قد جلس في زاوية حديثاً، فقلت: أذهب وأسأله عن الطريق، فذهبت وسألته فقال لي: إنني جوعان، كانت لدي قطعة خبز، كنت قد أعطيتها له، فقال متضجراً: يا أحمد، من أنت حتى تذهب إلى بيت الله؟! ولا ترضى برزقك من الله تعالى، لا جرم أنك تضل الطريق، قال أحمد: استبدت بي نار الغيرة، فقلت: يا إلهي، ألك في الزوايا كل هذه العباد المستتر! قال ذلك الرجل: فيم تفكر يا أحمد؟ فيم تفكر؟ إن له عبداً إن أقسموا على الله (تعالى) تتحول الأرض والجبال بأسرها ذهباً من أجلهم، فقال أحمد: نظرت، فكانت الأرض والجبال كلها أصبحت ذهباً، ففانيت عن نفسي،

(١) وردت في كشف المحجوب (ص ٣٢٩) من الترجمة العربية.

(٢) وردت في كشف المحجوب (ص ٣٢٩) من الترجمة العربية.

(٣) وردت في حلية الأولياء ج ٩ (ص ١٨٦، ١٨٧)، صفة الصفوة، ج ٢ (ص ٢٢٩).

وهتف بي هاتف: لماذا لا تحفظ قلبك يا أحمد؟ فهو عبد لنا، إن أراد، ضربنا السماء على الأرض والأرض على السماء من أجله، ونظهره لك، لكنك لن تراه ثانية.

يروى أن أحمد كان يقيم في بغداد، لكنه لم يكن يأكل خبزاً في بغداد قط، وكان يقول: قد أوقف أمير المؤمنين عمر (رضي الله عنه) هذه الأرض على الغزاة، وكان يرسل الذهب للموصل، حتى يجلبون له به الدقيق، وكان يأكل منه الخبز.

عمل ابنه صالح بن أحمد قاضياً في إصفهان لمدة عام، وكان صائم النهار وقائم الليل ولم يكن ينام في الليل أكثر من ساعتين، وكان قد بنى داراً بلا باب بجوار داره، كان يجلس فيه في الليل؛ لأنه لا ينبغي أن يكون لأحد مشكلة، ويجد باب مثل هذا القاضي مغلقاً.

وذات يوم كانوا يعدون الخبز للإمام أحمد، فأخذوا عججين صالح، ولما أحضروا الخبز أمام أحمد قال: ما هذا الخبز؟ قالوا: العجين الأساسي ملك صالح، قال: قد عمل قاضياً لإصفهان لمدة عام فلا يحل (خبزه) لنا، قالوا: وما نفعل به إذن؟ قال: اتركوه وعندما يأتي سائل قولوا له: إنه خبز صالح، خذه إن شئت، وظل في الدار أربعين يوماً، ولم يأت سائل ليأخذه، فتعفن ذلك الخبز، وألقوا به في دجلة، قال أحمد: ماذا فعلتم بذلك الخبز؟ قالوا: ألقينا به في دجلة، فلم يأكل أحمد بعد ذلك سمكاً من دجلة قط^(١)، ووصل في التقوى إلى حد أنه قال: لا يجوز الجلوس في جمع لأعضائه جميعاً مراود من فضة.

يروى أن أحمد كان قد ذهب ذات مرة إلى سفيان بن عيينة في مكة؛ ليتقصى الأخبار، ولكنه لم يذهب يوماً، فأرسل شخصاً ليعرف لماذا لم يأت؟ ولما ذهب، كان أحد قد أعطى ثوبه للغسال، وجلس عارياً، ولم يستطع، فعاد الرجل إليه وقال: أمنتك عدة دنائير تنفقها على نفسك، قال: لا، قال: أعيرك ثيابي، قال: لا، قال: لن أعود ما لم أدبر لك أمرك، فقال له: اكتب لك كتاباً وبأجره اشترى كرباساً، قال: اشتريها كتان، قال: لا، اشترى عشرة أجازير^(٢)، اجعل خمسة منها قميصاً وخمسة إزاراً^(٣).

يروى أن تلميذاً لأحمد حل ضيفاً عليه، وفي تلك الليلة حمل إليه قدحاً من الماء، وفي الصباح كان القدح مملوءاً كما كان، فقال أحمد: لماذا (ظل) قدح الملاء مملوءاً هكذا؟ قال طالب العلم: ماذا كنت أفعل؟ قال: الطهارة وصلاة الليل وإلا لم تتعلم هذا العلم^(٤)؟.

(١) وردت في حلية الأولياء، ج٩ (ص ١٧٧) مع الاختلاف.

(٢) كَر: مقياس طول يساوي ١٦ عقدة ذراع.

(٣) وردت في حلية الأولياء، ج٩ (ص ١٧٧)، صفة الصفوة، ج٢ (ص ٢٢٥) مع الاختلاف.

(٤) وردت في صفة الصفوة، ج٢ (ص ٢٢٣) مع الاختلاف.

يروى أن أجيراً كان لأحمد، وفي صلاة المغرب قال لتلميذ من تلاميذه أن يعطيه شيئاً زيادة على أجره، فلم يأخذها الأجير. وعندما مضى، أمر الإمام أحمد (تلميذه قائلاً): تعقبه كي يأخذها، فقال التلميذ: كيف؟ قال: حين لا يرى في باطنه طمعاً فيها، عندما يمر بهذه اللحظة، يأخذها. ذات مرة هجر تلميذاً لمدة طويلة؛ لأنه كان قد طلي باب الدار بالتبن والطين وقال: (إن) أخذت ظفراً من طريق المسلمين، لا يجوز لك أن تتعلم.

وذات مرة، كان أحمد قد رهن سطلاً، وعندما كان يسترده، أحضر له البقال سطلين وقال: خذ سطلك، إنني لا أعرف أيهما سطلك؟ فترك الإمام أحمد السطل له ومضى^(١).

يروى أن أحمد كان يرغب (في رؤية) عبد الله بن المبارك مدة طويلة، حتى قدم عبد الله إليه، فقال ابن أحمد: يا أبت، إن عبد الله بن المبارك على باب الدار، وقد جاء لرؤيتك. فلم يأذن له الإمام أحمد، فقال ابنه: ما الحكمة في هذا؟ كنت تحترق أعواماً شوقاً إليه، الآن وقد جاءت السعادة إلى دارك، لا تأذن لها، فقال أحمد: هكذا كما قلت، لكنني أخشى إن رأيت، اعتاد لطفه، وبعد ذلك لا أطيق فراقه، وأمضى العمر متلهفاً إليه حتى أراه هناك حيث لا يتعقبنا الفراق.

وله كلمات عالية في المعاملات، وكل من يسأله مسألة كان يجيبه عنها إذا كانت من المعاملات، ويحيله على بشر الحافي إذا كانت من الحقائق^(٢).

وقال: رجوت الله (تعالى) أن يفتح عليّ باباً من الخوف، حتى وصل خوفي إلى حد أن زال العقل عني، فدعوت وقلت: يا إلهي، بأي شيء يكون التقرب أفضل؟ قال: بكلامي، أي القرآن. سئل: ما الإخلاص؟ قال: أن تجد الخلاص من آفات الأعمال.

قالوا: ما التوكل؟ قال: الثقة بالله في الرزق. قالوا: ما الرضا؟ قال: أن تسلم أمورك إلى الله. قالوا: ما المحبة؟ قال: سلوا بشراً عنها، فطالما كان حياً، لا أجيب عن هذا^(٣).

قالوا: ما الزهد؟ قال: الزهد على ثلاثة أقسام: ترك الحرام وهو زهد العوام، وترك الزيادة من الحلال وهو زهد الخواص، وترك كل شيء يشغلك عن الحق وهو زهد العارفين.

قالوا: هؤلاء الصوفية الذين جلسوا بالمسجد الجامع، جاهلون بالتوكل، قال: إنكم مخطئون، فقد أجلسهم العلم، قالوا: لقد عقدوا كل همتهم في كسر الخبز، فقال: إنني لا أعرف قوماً على وجه الأرض أعظم همة من أولئك القوم الذين لا يصرفون همتهم في شيء أكثر من تقطيع الخبز.

(١) وردت في حلية الأولياء، ٩٤ (ص ١٦٩)، صفة الصفوة، ج ٢ (ص ٢٢٨).

(٢) وردت في كشف المحجوب (ص ٣٢٩) من الترجمة العربية.

(٣) وردت في كشف المحجوب (ص ٣٢٩) من الترجمة العربية.

ولما حانت وفاته بسبب ذلك الجرح الذي تحدثت عنه، والذي رفعه إلى درجة الشهداء، في تلك الحال كان يشير بيده ويقول بلسانه: ليس بعد، فقال ابنه: يا أبت، أي حال هذه؟ قال: عندما يكون وقت الخطر، فأني وقت للإجابة؟! وكان إبليس من جملة الحاضرين على فراشه ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾^(١). وكان يقف أمامه، ويلقي على رأسه تراب الإدبار، ويقول: يا أحمد إزهاق الروح بيدي، فأقول: ليس بعد، فقد بقي نفس، والمجال مجال الخطر لا الأمن^(٢).

وعندما توفي، وحملوا نعشه، كانت الطيور تأتي، وترفرق على نعشه، حتى أسلم عشرات الآلاف من مجوسي وبهودي وراهب. وكانوا يلقون بزنانيرهم، ويصيحون ويقولون: «لا إله إلا الله» وكان سبب ذلك أن الحق (تعالى) ألقى بالبكاء على أربعة أقوام: في اليوم الأول: على الزردشتيين وفي اليوم الثاني: على اليهود، وفي اليوم الثالث: على المسيحيين (الرهبان) والرابع: على المسلمين^(٣).

لكنهم سألوا شيخًا: أكانت كراماته أكثر في الحياة أم الممات؟ فقال: كان له دعاءان مستجابان، الأول: أنه كان يقول: يا إلهي، هب إيمانًا لمن لا يؤمن، ولا تسترده ممن آمن، فأجيب دعاء من هذين الدعائين في الحال، فلم يرتد كل من كان قد آمن، والآخر أجيب عند الوفاة فرزقهم الإسلام.

وقال محمد بن خزيمة^(٤): رأيت أحمد في المنام بعد الوفاة، وكان يعرج، فقلت: أي مشية هذه؟ قال: مشية إلى دار السلام^(٥). فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، ووضع تاجًا على رأسي، ونعلًا في قدمي، وقال: يا أحمد، هذا لأنك كنت تقول: القرآن ليس مخلوقًا، ثم قال لي: اقرأ الأدعية التي بلغتك^(٦). (رحمة الله عليه).

(١) سورة ق: الآية (١٧).

(٢) وردت في حلية الأولياء، ج٩ (ص ١٨٣)، صفة الصفوة، ج٢ (ص ٢٢٣) مع الاختلاف.

(٣) وردت في حلية الأولياء، ج٩ (ص ١٨٠) مع اختلاف الأعداد.

(٤) محمد بن خزيمة: كان أبو بكر محمد بن خزيمة السلمي النيسابوري من الحفاظين والمحدثين المشهورين. توفي ٣١١ هـ.

د. استعلامي (ص ٨٤٦).

(٥) وردت في حلية الأولياء، ج٢ (ص ٢٣٤).

(٦) وردت في حلية الأولياء، ج٩ (ص ١٨٩، ١٩٠)، صفة الصفوة، ج٢ (ص ٢٣٤).

ذكر داود الطائي^(١)

قدس الله روحه



هو شمع العلم والبصيرة، وسراج الخلق، هو عامل الطريقة، وعالم الحقيقة، هو الرجل الرباني داود الطائي (رحمة الله عليه).

كان من أكابر هذه الطائفة، وسيد القوم، ووصل في الورع إلى حد الكمال، وأفاد من أنواع العلم فائدة تامة خاصة الفقه الذي أتقنه، وبرع فيه.

وكان قد تتلمذ على يد أبي حنيفة لمدة عشرين عامًا، وأدرك فضيل وإبراهيم بن أدهم. وكان حبيب^(٢) الراعي شيخ طريقته.

وكان الحزن يسيطر عليه ويتملكه في بداية الأمر، وكان قد اعتزل الخلق، وكان سبب توبته أنه كان ينشد هذا البيت نائحًا:

بأي خديك تبدي البلى وأي عينيك إذا سـالـا^(٣)

فأصابه داء عظيم بسبب هذا المعنى، وفقد قراره، واضطرب، وبينما هو كذلك ذهب إلى درس الإمام أبي حنيفة، فقال الإمام الذي رآه على هذه الحال: ما أصابك؟ فقص الواقعة، وقال: قد فتر قلبي عن الدنيا، وأصابني شيء فلا أعرف السبيل إليها، ولا أجد معنى لذلك في أي كتاب، ولا تضمنته أي فتوى. قال الإمام: اعرض عن الخلق فأعرض عنهم، واعتكف في الدار، ولما انقضت مدة، ذهب إليه الإمام أبو حنيفة، وقال: لا يكون الأمر هكذا أن تعتكف في المنزل، ولا تتحدث، لكن أن تجلس بين الأئمة، وتسمع كلامهم الغامض، وتمتعنه، ولا تتحدث قط، وعندئذ تفضلهم في معرفة تلك المسائل، فأدرك داود ما يقوله:

(١) داود الطائي: أبو سليمان داود بن نصير الطائي، سمع الحديث وتفقه ثم اشتغل بالتعب، كان معاصرًا للخليفة المهدي العباسي ومن عارفي العصر المشهورين. انظر ترجمته في حلية الأولياء، جـ ٧ (ص ٣٣٥)، الرسالة القشيرية (ص ٢١)، صفة الصفوة، جـ ٣ (ص ٨٦)، كشف المحجوب (ص ٣٢٠) من الترجمة العربية.

(٢) حبيب الراعي: هو أبو حاتم حبيب بن سليم الراعي، صاحب سلمان الفارسي (رضي الله عنه)، وكان صاحب أغنام، يقيم على شاطئ الفرات، ويسلك طريق العزلة. انظر: كشف المحجوب (ص ٢٩٩) من الترجمة العربية.

(٣) وردت في صفة الصفوة، جـ ٣ (ص ٨٧)، الرسالة القشيرية (ص ٢١) مع الاختلاف.

وذات عام قدم إلى الدرس، وجلس بين الأئمة، ولم يقل شيئاً، وكان يتمعن كل ما يقولونه، ولم يكن يجيب، وكان يكتفي بالاستماع، ولما انقضى عام قال: إن صبر عام يعدل عمل ثلاثين عاماً عملت فيها.

ثم التقى بحبيب الراعي، وكان إقباله على هذا الطريق بسببه، وخطا في هذا الطريق برجولة، وألقى بكتبه في الماء، واعتزل، وقطع أمله عن الخلق.

يروى أن داود كان قد ورث عشرين ديناراً، كان ينفقها في عشرين عاماً^(١)، حتى قال بعض المشايخ: إن طريقته الإيثار لا الاحتفاظ، فقال: إنني أملك هذا القدر من النقود لأنه سبب فراغي، أنفق منه حتى أموت. ولم يهدأ عن العمل قط إلى حد أنه كان يبل الخبز بالماء ويقتات به، وكان يقول: إنه يستطيع قراءة خمسين آية من القرآن بين بله وأكله، فلماذا أضيع الوقت؟

يقول أبو بكر العياش: ذهبت إلى حجرة داود، فرأيتُه وقد أمسك بقطعة خبز يابسة في يده، وكان يبكي، فقلت: ما جرى لك يا داود؟ قال: أريد أن أكل قطعة الخبز هذه، ولا أعرف أهي حلال أم حرام؟

وقال آخر: ذهبت إليه، فرأيت قدح ماء، وضع في الشمس، فقلت: لماذا لا تضعه في الظل؟ قال: عندما وضعته هناك، كان الظل، الآن أخجل من الله أن أتعم من أجل نفسي.

يروى أن داراً عظيمة كانت لداود، وبها حجرات كثيرة، وكان يقيم في حجرة حتى تهدم، فينتقل إلى حجرة أخرى، قالوا: لماذا لا تعمر دارك؟ قال: أنا على عهد مع الله ألا أعمر الدنيا. ويروى: أن الدار كلها تهدمت، ولم يبق سوى الدهليز وفي تلك الليلة التي توفي فيها انهار الدهليز أيضاً.

وذهب له شخص آخر وقال: لقد تحطم سقف الدار وسيسقط، قال: لم أر هذا السقف منذ عشرين عاماً.

يروى أنهم قالوا له: لماذا لا تجلس مع الخلق؟ قال: أجالس من؟ إن جالست من هم أصغر مني، لا يأمروني بأمر الدين، وإن جالست من هم أكبر مني، لا يفصحون لي بعيوبي، ويزينون لي نفسي في عيني، ومن ثم ماذا أفعل بصحبة الخلق^(٢).

قالوا: لم لا تزوج؟ قال: لا أستطيع أن أخدع مؤمنة، قالوا: كيف؟ قال: طالما أريدها على أن أتكفل بها فعلي القيام على أمورها، وطالما أنني لا أستطيع تأدية الأمور الدينية والدنيوية (معاً) فإنني أخدعها.

(١) وردت في حلية الأولياء، جـ ٧ (ص ٣٤٧)، الرسالة القشيرية (ص ٢١)، صفة الصفوة، جـ ٣ (ص ٩٢).

(٢) وردت في حلية الأولياء، جـ ٧ (ص ٣٤٤) مع الاختلاف.

قالوا له: مشط لحيتك، فقال: بعدما أفرغ ربما أنجز هذا الأمر.

يروى أن داود اعتلى السطح في ليلة مقمرة، وكان ينظر إلى السماء، ويتفكر في الملكوت، ويبكي، حتى فني عن نفسه، فوقع على سطح جار له، فظن الجار أن هناك لص على السطح، فاعتلى السطح بسيفه، فرأى داود فأمسك بيده وقال: من ألقاك؟ قال: لا أعرف، كنت فانيًا ولا علم لي^(١).

يروى أنهم رأوه كان يسرع إلى الصلاة، فقالوا: لم العجلة؟ قال: هؤلاء الجنود- الذين على باب المدينة- في انتظاري، قالوا: أي جند؟ قال: موتى القبور، وعندما كان يسلم في الصلاة، كان يجري كأنه يهرب من شخص، حتى كان يدخل البيت، وكان يكره الذهاب للصلاة كرهًا عظيمًا بسبب وحشة الخلق، حتى كفاه الحق (تعالى) تلك المؤنة.

كما يروى أن أمه رأتها ذات يوم وقد جلس في الشمس، يتصبب منه العرق، فقالت: يا عزيزي، القيظ شديد، وأنت صائم الدهر، فماذا لو جلست في الظل؟ قال: يا أمي أخجل من الله أن أخطو خطوة موافقة لنفسي وإرضاء لها، ولا أجز هذا، قالت الأم: أي قول هذا؟ قال: يا أمي، عندما رأيت أحوالًا وأمورًا سيئة في بغداد، دعوت، فسلبني الحق (تعالى) اللياقة لأكون معذورًا، ولا أذهب لصلاة الجماعة؛ لأنه لا ينبغي لي رؤيتهم، الآن لا أملك اللياقة منذ ستة عشر عامًا، ولم أقل لك.

يروى أن داود كان دائم الحزن، وعندما كان يحل الليل كان يقول: إلهي، فاق حزني كل الأحزان، وسلبتني النوم، وكان يقول: متى ينجلي الحزن عمن تتوالى عليه المصائب. ومرة أخرى فقال فقير: ذهبت إلى داود، فوجدته ضاحكًا، فتعجبت وقلت: يا أبا سليمان، لما سعادتك هذه؟ قال: منحوني شرابًا في السحر يقال له: شراب الأنس فجعلت اليوم عيدًا، وسررت.

يروى أن داود كان يأكل خبزًا، فمر عليه راهب، أعطاه قطعة ليأكلها، وفي تلك الليلة التقى ذلك الراهب بزوجه، وولد معروف الكرخي.

يقول أبو ربيع الواسطي^(٢): قلت لداود: عظمي، فقال: «صم عن الدنيا وأفطر في الآخرة، وفر من الناس كما يفرون من الأسد المفترس»^(٣).

(١) وردت في حلية الأولياء، ج٧ (ص ٣٥٨).

(٢) أبو ربيع الواسطي: هو أشعث بن سعيد البصري، كان من المحدثين.

د. استعلامي (ص ٨٤٦).

(٣) وردت في حلية الأولياء، ج٧ (ص ٣٤٣، ٣٤٥)، الرسالة القشيرية (ص ٢١)، صفة الصفوة (ص ٨٧، ٨٨).

وطلب آخر عظة، فقال له: احفظ لسانك، قال: زدني، قال: اعتزل الخلق، وإن تستطع أفرغ القلب منهم، قال: زدني، قال: يجب أن ترضى بسلامة الدين من هذه الدنيا، كما رضى أهل الدنيا بسلامة الدنيا^(١).

وأراد آخر عظة، فقال له: الجهد الذي تبذله في الدنيا ابذله بالقدر الذي سيكون لك به مقامًا في الدنيا وبما سيفيدك فيها، والجهد الذي تبذله للآخر ضاعفه بالقدر الذي سيكون عليه مقامك في الآخرة وبالقدر الذي سيفيدك فيها.

وطلب آخر وصية: فقال له: الموتى في انتظارك^(٢). وقال: كان شخص يلقي بالتوبة والطاعة لمن يصطاد لتصل المنفعة لشخص آخر.

وقال لمريد: إن أردت السلامة، سلم على الدنيا سلام المودع، وإن أردت الكرامة، كبر بترك الآخرة، أي دعك منهما كي يمكنك الوصول للحق^(٣).

يروى أن فضيل رأى داود مرتين طوال عمره، وكان يفتخر بذلك. ذات مرة، كان قد جلس تحت سقف مهدم، فقال له: انهض، هذا السقف مهدم، وسوف يسقط، قال: طالما أفني في هذه الصفة لم أر هذا السقف «كانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام»، والمرة الأخرى قال له: عطني، فقال له: انقطع عن الخلق.

ويقول معروف الكرخي: لم أر شخصًا قط حقر الدنيا أكثر من داود، فلم تكن الدنيا وأهلها جميعًا في نظره تساوي مثقال ذرة، فإن كان يرى واحدًا منهم، كان يشكو من ظلمها حتى تحرر من الطريق، وابتعد إلى حد أنه قال: كلما أغسل قميصي، أجد قلبي متغيرًا لكنه كان يعتقد في الفقراء عظيم الاعتقاد، وينظر إليهم بعين الاحترام والمروءة^(٤).

قال الجنيد: كان حجامًا يحتجم له، فأعطاه دينارًا، قالوا له: أسرقت؟ قال: «لا دين لمن لا مروءة له»^(٥).

يروى أن شخصًا تقدم له، وكان ينظر إليه، فقال له: ألا تعلم أنه كما أن كثرة الكلام مكروهة فإن كثرة النظر مكروهة أيضًا.

(١) وردت في حلية الأولياء، جـ٧ (ص ٣٤٣)، صفة الصفوة، جـ٣ (ص ٨٨).

(٢) وردت في حلية الأولياء، جـ٧ (ص ٣٥٦)، الرسالة القشيرية (ص ٢٢)، صفة الصفوة، جـ٣ (ص ٩٣).

(٣) وردت في كشف المحجوب (ص ٣٢١) من الترجمة العربية.

(٤) وردت في كشف المحجوب (ص ٣٢١) من الترجمة العربية.

(٥) وردت في حلية الأولياء، جـ٧ (ص ٣٥٤)، الرسالة القشيرية (ص ٢١)، صفة الصفوة، جـ٣ (ص ٩٠).

يروى أنه عندما كان يقع خلاف بين محمد وأبي يوسف، يكون هو الحكم، وعندما كانا يقدمان إليه، كان يدير ظهره لأبي يوسف، ويتجه إلى محمد، ويتناقش معه، ولم يكن يتحدث إلى أبي يوسف، وإن كان القول قول محمد، كان يقول: القول ما يقوله محمد، وإن كان القول قول أبي يوسف، كان يقول: هذا هو القول، ولم يكن يذكر اسمه، فقالوا له: كلاهما عظيم في العلم، فلماذا تفضل أحدهما، وتقضي عنك الآخر، قال: لأن محمدًا بن الحسن نشأ في نعمة وفيرة ورفعة من الدنيا وأقبل على العلم، والعلم سبب عزة دينه وذل دنياه، وأقبل أبو يوسف على العلم من الذل والفاقة، فصار العلم سبب عزه وجاهه. ومن ثم فمحمد ليس مثله قط. ضُرب أستاذنا أبو حنيفة بالمقرعة ولم يقبل القضاء^(١)، وقبله أبو يوسف، وكل من يخالف طريق أستاذه لا أتحدث معه.

يروى أن هارون الرشيد قال لأبي يوسف: احملني إلى داود؛ كي أزوره، فدخل أبو يوسف الدار، ولم يسمح له فطلب من أمه، فشفعت له (قائلة): ائذن له، فلم يقبل، وقال: ما شأننا بأهل الدنيا والظالمين؟ فقالت له أمه: بحق لبني ائذن له. فقال داود: يا إلهي، أمرت برعاية حق الأم فقلت: رضائي من رضائها، وإلا فأني شأن لي بهما؟ وأذن، فدخل، وجلسا، وبدأ داود الوعظ، فبكى هارون كثيرًا عندما عاد (إلى رشده) وضع قدرًا من الذهب، وقال: إنه حلال، فقال داود: احمله، فلا حاجة لي به، فقد بعت داري من ميراث حلال، وأنفق منه، ورجوت الحق (تعالى) أن يزهد روعي عندما تنتهي تلك النفقة؛ كي لا أحتاج إلى شخص، وأمل أن يستجاب الدعاء. ثم عاد الاثنان، وسأل أبو يوسف وكيل نفقاته: كم بقي من نفقات داود؟ قال: درهمان وكل يوم كان ينفق دنانير فضة، وفي اليوم الأخير كان أبو يوسف قد أدار ظهره للمحراب وقال: لقد توفي داود اليوم، نظروا، فكان الأمر كذلك، فقالوا: بما عرفت؟ قال: حسبت نفقاته فلم يبق منها اليوم شيء قط، فعلمت أن دعاءه مستجاب.

وسألوا أمه عن حال وفاته فقالت: كان يصلي طوال الليل، وفي آخره وضع رأسه للسجود ولم يرفعها، فانشغل قلبي، وقلت: يا بني الوقت وقت الصلاة، وعندما نظرت، كان قد توفي. قال شيخ: كان قد نام أثناء مرضه في ذلك الدهليز الخرب، وكان القيظ شديدًا وكان قد وضع يابسة تحت رأسه، وهو في النزاع وكان يقرأ القرآن، فقلت: أتريد أن أحملك إلى هذه الصحراء؟ قال: أخجل أن أنفذ رغبة نفسي، فلم تكن لها عليّ سلطة قط، والأولى ألا يكون لها في هذه الحال، ثم توفي في الليلة نفسها.

(١) وردت في كشف المحجوب (ص ٣٢١) من الترجمة العربية.

كان داود قد أوصى (قائلاً): ادفنوني خلف حائط، حتى لا يمر شخص أمامي، وهكذا فعلوا، وظل على هذا الحال إلى اليوم.

وفي تلك الليلة التي فارق فيها الدنيا، انبعث صوتاً من السماء: يا أهل الأرض، وصل داود الطائي إلى الحق، والحق سبحانه وتعالى راضٍ عنه.

بعد ذلك رأوا في المنام أن داود كان يطير في الهواء، ويقول: خرجت الساعة من السجن، فجاء ذلك الشخص، ليقص منامه، فكان قد توفي، وبعد وفاته انبعث نداء من السماء أدرك داود مقصوده^(١).

(رحمة الله عليه).



(١) وردت في حلية الأولياء، ج٧ (ص ٣٥٥)، الرسالة القشيرية (ص ٢١) مع الاختلاف.

ذكر حارث المحاسبي^(١)

قدس الله روحه



هو سيد الأولياء، وعمدة الأتقياء، هو السيد المبجل، والمحترم المفتخر، هو خاتم ذوي المناقب، شيخ العالم الحارث المحاسبي (رحمة الله عليه).

كان من علماء المشايخ، وكان مقبول الرأي في العلوم الظاهرة والباطنة، وفي المعاملات والإشارات، وكان مرجع أولياء عصره في كل فن، وله تصانيف كثيرة في أنواع العلوم، وله همة عالية جداً، وكان عظيمًا، وله سخاوة ومروءة عجيبة، ولا نظير له في الفراسة والحداقة.

وكان شيخ مشايخ بغداد في عصره، واختص بالتجريد والتوحيد، ووصل في المجاهدة والمشاهدة إلى أقصى غاية. واجتهد في الطريقة، والرضا لديه من الأحوال لا المقامات، ويطول شرح هذا الكلام. كان من البصرة، وتوفي في بغداد.

قال عبد الله بن خفيف^(٢): اقتدوا بخمسة من شيوخنا، واتبعوا أحوالهم مع التسليم للآخرين: الأول: الحارث المحاسبي، والثاني: جنيد البغدادي، والثالث: رويم^(٣)، والرابع: ابن عطاء، والخامس: عمرو بن عثمان المكي^(٤) (رحمهم الله)؛ لأنهم جمعوا بين العلم والحقيقة^(٥)، وبين الطريقة والشرعة، ويجوز الاعتقاد فيما عدا هؤلاء الخمسة، أما هؤلاء الخمسة يعتقد فيهم ويقتدى بهم.

(١) حارث المحاسبي: أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي، من أهل البصرة، ومن زاهدي القرن الثالث الهجري وعارفيه، مات ببغداد عام ٢٤٣هـ. ومن مؤلفاته كتاب "الرعاية لحقوق الله".

انظر ترجمته في طبقات الصوفية (ص ٥٦)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٧٣)، الرسالة القشيرية (ص ٢٠)، صفة الصفوة، ج ٢ (ص ٢٤٠).

(٢) عبد الله بن خفيف: هو أبو عبد الله بن خفيف واسمه محمد بن خفيف، أقام في شيراز، كانت أمه نيسابورية، وكان شيخ المشايخ في وقته، وكان عالمًا بعلوم الظاهر وعلم الحقائق، توفي عام ٣٧١هـ. طبقات الصوفية (ص ٤٦٢).

(٣) رويم: هو أبو محمد رويم بن أحمد بن يزيد، من أهل بغداد، كان فقيهاً على مذهب داود الإصبهاني، توفي عام ٣٠٣هـ. طبقات الصوفية (ص ١٨٠).

(٤) عمرو بن عثمان المكي: هو أبو عبد الله عمرو بن عثمان بن كرب بن عضض، انتسب إلى الجنيد في الصحية، وصحب أبا سعيد الخراز وغيره من المشايخ، توفي ببغداد عام ٢٩١هـ، وقيل ٢٩٧هـ. طبقات الصوفية (ص ٢٠٠، ٢٠١).

(٥) وردت في الرسالة (ص ٢٠).

وقال شيوخ الطريقة: إن عبد الله بن خفيف سادسهم، يجوز الاعتقاد فيه والاعتداء به، لكن ليس من شأنهم مدح أنفسهم.

يروى أن الحارث ورث ثلاثين ألف دينار عن والده، فقال: احملوها إلى بيت المال حتى تكون للسلطان، قالوا: لماذا؟ قال: لأن الرسول قد قال وهو الصادق: «القدرى مجوس هذه الأمة» وكان أبي قدرياً، وقال الرسول ﷺ أيضاً: لا يرث المسلم قدرياً، وأبي زردشتي وأنا مسلم^(١).

وكانت عناية الحق (تعالى) تحفظه إلى حد أنه عندما كان يمد يده إلى طعام فيه شبهة، كان عرقه يتحرك داخل إصبعه^(٢)، بحيث لا يطاوعه الإصبع، فكان يعرف أن تلك اللقمة فيها شبهة.

قال الجنيد: جاءني الحارث ذات يوم، فرأيت فيه أثر جوع، قلت: يا عم، أحضر طعاماً؟ قال: حسناً، فدخلت الدار، وطلبت طعاماً كان قد أحضر من عرس ليلاً، وقدمته إليه، فلم يطاوعه إصبعه بأن يضع لقمة في فمه، ومهما حاول لم تبلع، فكان يلوكها في فمه، ثم نهض في آخر الأمر، وألقاها في الدهليز وخرج. قال: بعد ذلك سألته عن تلك الحال؟ فقال الحارث: كنت جائعاً، وأردت أن أرضيك؟ لكن لي مع الله علامة، ألا يسوغني طعاماً فيه شبهة، ولا يطاوعني إصبعي ومهما حاولت فلا تبلع. فمن أين ذلك الطعام؟ قلت: من دار قريب لي، ثم قلت: أندخل اليوم داري؟ قال: نعم، فدخلنا، وأحضرت كسرة خبز يابسة، فأكلنا، وقال: هكذا يجب أن يكون الشيء (الطعام) الذي تقدمه للفقراء^(٣).

وقال: لم تسمع أذني شيئاً قط طيلة ثلاثين عاماً سوى سريرتي، وتبدل حالي بعد ثلاثين عاماً أخرى، فلم يسمع سري سوى الله شيئاً قط.

وقال: الشخص الذي يرى في صلاة، ويسر بذلك، فكرت في شأنه هل تبطل صلاته أم لا؟ أغلب ظني الآن أنها تبطل. وكان مبالغاً جداً في المحاسبة بحيث كان يسمى المحاسبي لهذا السبب.

وقال: لأهل المحاسبة عدة خصال تعلموها بالقول: فهم عندما نهضوا، بلغوا بتوفيق الحق (تعالى) المنازل الشريفة، وتيسر لهم كل شيء بقوة العزم وبقهر الأهواء والنفس، فكل من يصح منه العزم يسهل عليه مخالفة الأهواء، ومن ثم كن قوي العزم، وواظب على هذه الخصال فهذا

(١) وردت في الرسالة القشيرية (ص ٢٠) مع الاختلاف في قيمة الميراث.

(٢) وردت في الرسالة القشيرية (ص ٢٠)، صفة الصفة، جـ ٢ (ص ٢٤٠) مع الاختلاف.

(٣) وردت في الحلية، جـ ١٠ (ص ٧٤، ٧٥)، الرسالة القشيرية (ص ٢٠).

هو المجرب. وأول خصلة هي: ألا تقسم بالله صدقًا أو كذبًا، سهوًا أو عمدًا، والثانية: تعفف عن الكذب، والثالثة: ألا تخلف الوعد طالما تستطيع الوفاء به، ولا تعد شخصًا قدر استطاعتك فهذا أقرب إلى الصواب، والرابعة: ألا تلعن شخصًا قط وإن كان ظالمًا، والخامسة: ألا تدعو بالسوء قولًا أو فعلًا ولا تبحث عن الأجر، وأن تتحمل من أجل الله، والسادسة: ألا تشهد على شخص قط لا بالكفر ولا بالشرك ولا بالنفاق، فهذا أقرب إلى الرحمة بالخلق وأبعد عن مقت الله (تعالى)، والسابعة: ألا ترتكب معصية في الظاهر أو الباطن، وتعقل جوارحك عن كل شيء، والثامنة: ألا تلق بحملك على شخص قط، وأن ترفع أحمالك عن كل شخص سواء أكانت خفيفة أم ثقيلة، فما تحتاج إليه في هذا وما تستغنى عنه في ذاك، والتاسعة: ألا تطمع في الخلق، وتأس من كل ما يملكونه، والعاشرة: إن كنت تريد رفعة الدرجة وغاية العزة لدى الله والخلق في الدنيا والآخرة فيمكنك الحصول عليها بألا تر شخصًا قط من أبناء آدم (عليه السلام) إلا وتعهده أفضل منك.

وقال: المراقبة هي: علم القلب في قرب الحق (تعالى).

وقال: الرضا هو: الخضوع تحت مجاري الأحكام.

وقال: الصبر هو: هدف سهم البلاء.

وقال: التفكير هو: رؤية الأسباب قائمة بالحق.

وقال: التسليم هو: الثبات عند نزول البلاء بلا تغير في الظاهر والباطن^(١).

وقال: الحياء: الرجوع عن جملة العادات السيئة التي لا يرضى الله عنها.

وقال: المحبة فرط الميل إلى شيء، ثم إثارة على نفسك بالجسد والروح والمال، وموافقته في الباطن والظاهر، ثم العلم بأن كل التقصير منك.

وقال: الخوف هو: ألا يستطيع المرء أن يتحرك حركة ولا تستبد به الظنون فيقول: سوف أعاقب بهذه الحركة في الآخرة.

وقال: علامة الأنس بالحق هي الوحشة بالخلق، والهروب من كل شيء فيه الخلق، والتفرد بحلاوة ذكر الحق تعالى وبقدر ما يستقر الأنس بالحق في قلبك يتسلل الأنس بالمخلوقات منه^(٢).

وقال: الصادق من لا يخاف وإن لم يبق له أي قدر لدى الخلق، ويعرف قلبه ولا يحب أن يرى الناس ذرة من أعماله.

(١) وردت في حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ١٠٩)، طبقات الصوفية (ص ٥٩).

(٢) وردت في حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ١٠٧) مع الاختلاف.

وقال: احذر فتور العزم في كل الأعمال؛ لأن العدو سيطفر بك في هذا الوقت، وكلما رأيت فتور العزم، لا تهدأ لحظة، واستعن بالله.

وقال لفقيه: «كن لله وإلا لا تكن». هذا هو أفضل الكلام^(١).

وقال: جدير بالشخص الذي هذب نفسه بالرياضة أن يرشدها إلى المقامات.

وقال: قل لمن يريد أن يظفر بلذة أهل الجنة: اقنع بمصاحبة الفقراء الصالحين.

وقال: من يصلح باطنه بمراقبة الله (تعالى) والإخلاص له يزين ظاهره بالمجاهدة واتباع السنة^(٢).

وقال: من كان عالمًا بحركات القلب في الغيب أفضل ممن كان عالمًا بحركات الجوارح.

وقال: دائمًا يهبط العارفون إلى خندق الرضا، ويغوصون في بحر الصفا، ويستخرجون جواهر الوفا، لا جرم أنهم يدركون الله في السر والخفا^(٣).

وقال: هناك ثلاثة أشياء إن ظفروا بها استفادوا منها، ولم نجدوها نحن هي: المحبة الحسنة بالرعاية والوفاء والشفقة^(٤).

ويروى أن الحارث كان يصنف مصنفًا، فسأله فقير: هل معرفة الحق حق على العبد أم حق له على الحق؟ فترك التصنيف لهذا القول؛ لأنه إن قلت: إن عرف العبد المعرفة بنفسه، وحصلها بجهده، فهي حق على الحق للعبد، وهذا لا يجوز، وإن كانت معرفة الحق حق على العبد للحق لا يجوز؛ لأنه يجب عليه أن يؤدي للحق حقه ومن هنا تعجب، وترك التصنيف وبمعنى آخر: هو طالما أن معرفة الحق حق (عليّ) أن أؤدي هذا الحق كرمًا، وفيما يجدي التأليف في المعرفة، فالحق يمنح العبد ما هو حق له، مصداقًا لقوله: «أدبني ربي»، وإن كان شخص سيؤدي حق ذلك الحق في معنى ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾^(٥). لا جرم أنه ترك التصنيف.

ومعنى آخر هو: أن معرفة الحق حق على العبد بمعنى طالما منح الحق العبد المعرفة، فواجب على العبد تأدية حق ذلك الحق لأن كل حق سيؤدي العبد بالعبادة سيكون حق الحق وبتوفيق منه، ومن ثم فإن على العبد حق أن يؤدي الحق حقه. ثم صنف الكتاب والله أعلم بالصواب.

(١) وردت في كشف المحجوب (ص ٣٢٠) من الترجمة العربية.

(٢) وردت في طبقات الصوفية (ص ٦٠)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٨٨).

(٣) وردت في طبقات الصوفية (ص ٥٩) مع الاختلاف، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ١٠٩).

(٤) وردت في حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٧٥) مع الاختلاف، صفة الصفوة، ج ٢ (ص ٢٤٠).

(٥) سورة القصص: النصف الأول من الآية (٥٦).

قال ابن مسروق: إن الحارث احتاج إلى درهم في الوقت الذي كان يسلم فيه الروح. وكانت قد بقيت عن والده ضياع كثيرة، فلم يأخذ منها شيئاً قط، وتوفي في تلك اللحظة التي احتاج فيها^(١). (رحمة الله عليه رحمة واسعة).



(١) وردت في حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٧٥)، الرسالة القشيرية (ص ٢٠)، صفة الصفوة، ج ٢ (ص ٢٤٠).

ذكر أبي سليمان الدارائي^(١)

قدس الله روحه



هو مجرد الباطن والظاهر، المسافر الغائب والحاضر، هو العامل في الورع والمعرفة، والكامل في مائة نوع من الصفة، هو دُر بحر المعرفة، أبو سليمان الدارائي (رحمة الله عليه).

كان فريد زمانه، وسمي «ريحان القلوب» لغاية لطفه، وله شأن حسن في الرياضة الشاقة والجوع المفرط، بحيث إنهم كانوا يسمونه «بندار الجائعين» لأن شخصاً قط من هذه الأمة لم يستطع الصبر على الجوع مثله، وله في المعرفة وحالات غيوب القلوب وآفات عيوب النفس حظ عظيم وافر، وله كلمات عالية وإشارات لطيفة. وكان من قرية «دارا» بدمشق^(٢).

قال أحمد بن الحواري الذي كان مريداً له: ذات ليلة كنت أصلي في خلوة، ووجدت في ذلك راحة عظيمة، وفي اليوم التالي قلت لسليمان، فقال: أنت رجل ضعيف، فإن لك لدى الخلق لون في الخلاء وفي الملاء لون آخر، ولا شيء في العالمين أخطر مما يمكن أن يعوق العبد عن الحق.

وقال أبو سليمان: كنت في المسجد ذات ليلة، فأقلقني البرد، فخبأت إحدى يدي عند الدعاء، وارتحت راحة عظيمة لهذا، فهتف بي هاتف: يا أبا سليمان، منحنا تلك اليد التي كنت قد أخرجتها رزقها، وإن أخرجت الأخرى، لمنحناها نصيبها. فأقسمت ألا أدعوق قط إلا وأخرج يدي، برداً كان الوقت أو حرّاً^(٣). ثم قال: سبحان الله الذي حشد لطفه بلا هدف أو مراد.

وقال: نمت عن وردي ذات مرة، فرأيت حوراء، قالت لي: تنام هانئاً وأنا أربي لك في الخدور منذ خمسمائة عام^(٤)؟

(١) أبو سليمان الدارائي: هو عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي، سمي الدارائي نسبة إلى قرية "داريا" من قرى دمشق، توفي عام ٢٢٥هـ. انظر ترجمته في حلية الأولياء، ج٩ (ص ٢٥٤)، الرسالة القشيرية (ص ٢٥)، صفة الصفوة، ج٤ (ص ١٨٩).

(٢) وردت في صفة الصفوة، ج٤ (ص ١٨٩).

(٣) وردت في حلية الأولياء، ج٩ (ص ٢٥٩)، الرسالة القشيرية (ص ٢٥)، صفة الصفوة، ج٤ (ص ١٩٠).

(٤) وردت في حلية الأولياء، ج٩ (ص ٢٥٩)، الرسالة القشيرية (ص ٢٥)، صفة الصفوة، ج٤ (ص ١٩٠).

وقال: رأيت حوراء ذات ليلة، ابتسمت لي من زاوية، وبلغ بهاؤها حدًا لا يمكن وصفه، ولا يستقيم وصف جمالها بالعبارة، قلت: من أين جئت بهذا البهاء والجمال؟ قالت: كانت العبرات تقطر من عينيك ذات ليلة، فغسل بها وجهي، وكل هذا منها فإن عبراتك زينة وجوه الحور، وكلما ازدادت ازددن جمالاً.

وقال: اعتدت أن أكل الخبز والملح وقت الطعام، ذات ليلة كان في الملح حبة من السمسم نسيتها منذ عام، عندما كنت أتناوله وحيث إن المكان لا يتسع لحبة السمسم، فلا أعلم ماذا ستفعل مئات الآلاف من الشهوات بقلبك؟

وقال: لي صديق، كان يعطيني كل شيء أريده، ذات مرة طلبت منه شيئاً، فقال: أزهقت كثرة المطالب حلاوة الصداقة عن قلبي.

وقال: أنكرت على الخليفة شيئاً، وعرفت أنه سمع قولي، ولم أعبأ بذلك، لكن الناس كانوا كثيرين، فخفت أن يروني، ويحلوا لقلبي إعجابهم بشجاعتي فأصير عندئذ خائناً.

وقال: رأيت مريداً في مكة، لم يكن يشرب شيئاً قط إلا ماء زمزم، فقلت له: ما تشرب إن جف هذا الماء؟ فنهض، وقال: «جزاك الله خيراً»، هديتني السبيل، فقد كنت عابداً لزمزم طيلة عدة أعوام، قال هذا، ومضى.

قال أحمد بن الحواري^(١): لم يكن أبو سليمان يقول «لبيك» في الإحرام، وقال: أوحى الحق (تعالى) إلى موسى (عليه السلام): بأن قل لظالمي أمتك ألا يذكروني لأن من يظلم ويذكرني، ألعنه، ثم قال: سمعت أن من ينفق في الحج من مال فيه شبهة، ويقول «لبيك» عندئذ يقال له: «لا لبيك ولا سعديك حتى ترد ما في يديك»^(٢).

يروى أن ابن الفضيل لم يكن يطيق سماع آية العذاب، فسألوا الفضيل: بما أدرك ولدك درجة الخوف؟ قال: بقلّة الذنوب. وقالوا هذا لسليمان فقال: يعتري الخوف المرء بكثرة الذنوب لا قلتها.

يروى أن صالحاً بن عبد الكريم^(٣) قال: الرجاء والخوف نوران في القلب، فقالوا له: أيهما أضوأ؟ قال: الرجاء.

أبلغوا أبا سليمان بهذا القول، فقال: سبحان الله أي قول هذا؟ فقد رأينا أن التقوى والصوم والصلاة وغيرها تنبعث من الخوف ولا تنبعث من الرجاء، ومن ثم كيف يكون الرجاء أكثر ضياءً؟ وقال: أخاف من نار هي عقوبة الله أو أخاف من إله عقوبته النار؟

(١) أحمد بن أبي الحواري: انظر الكتاب (ص ٥٤٠).

(٢) وردت في صفة الصفوة، ج ٤ (ص ١٩٣) مع الاختلاف.

(٣) صالح بن عبد الكريم: كان عابداً من أهل بغداد، روى عن الفضيل بن عياض وسفيان بن عيينة.

وقال: الخوف من الحق (تعالى) هو أصل كل الأشياء في الدنيا والآخرة، وكلما يغلب الرجاء الخوف يفسد القلب، وكلما يدوم الخوف في القلب، يظهر عليه الخشوع، وإذا لم يدم ويمر أحياناً على القلب، فلا يخشع قط.

وقال: لا ينفصل الخوف عن قلب إلا ويصير خراباً.

وقال لأحمد بن الحواري ذات يوم: حين ترى الناس يعملون بالرجاء، اعمل أنت بالخوف إن استطعت.

وقال للقمان بن جود: اخش الله خشية لا تياس فيها من رحمته، وأمل في الله أملاً لا تأمن فيه من مكره.

وقال: طالما ألقيت بقلبك في الشوق، إلق به في الخوف بعد ذلك؛ حتى يمحو الخوف الشوق عن الطريق، أي أنك أحوج للخوف من الشوق.

وقال: أفضل الأعمال مخالفة رضاء النفس، ولكل شيء علامة وعلامة الخذلان ترك البكاء، ولكل شيء صداً، وصداً القلب الشيع^(١).

وقال: الاحتلام عقوبة ولهذا السبب يقول إنه علامة الشيع.

وقال: من يشيع، تعثره ستة أشياء هي: أنه لا يجد حلاوة للعبادة، ويقل حفظه في تذكر الحكمة، ويحرم من الشفقة على الخلق؛ لأنه يظن أن العالمين جميعهم شبعانون، وتثقل عليه العبادة، وتزداد الشهوات لديه، ويحوم جميع المسلمين حول المساجد، ويحوم هو حول المزابل. وقال: الجوع عند الله خزينة من الخزائن المدخرة، لا يعطى (منها) إلا من يحب^(٢).

وقال: حين يشيع المرء، تجوع جملة أعضائه رغبة في الشهوات، وحين يجوع تشيع جملة أعضائه من الشهوات. أي طالما تجوع البطن تتجنب الشهوات.

وقال: الجوع مفتاح الآخرة والشيع مفتاح الدنيا.

قال: كلما كانت لك حاجة من حوائج الدنيا والآخرة، لا تأكل قط حتى تنقضي تلك الحاجة؛ لأن الطعام يغير العقل، ويتغير طلب الحاجة من المتغير، ومن ثم عليك بالحرص على الجوع، فإنه يذل النفس، ويرقق القلب، ويصب عليك العلم السماوي.

وقال: إن تناولت لقمة من حلال ذات ليلة أحب إليّ من أن أصلي حتى النهار لأن الليل يحل عندما تغرب الشمس، ويحل ليل قلوب المؤمنين عندما تمتلئ معداتهم بالطعام.

(١) وردت في الرسالة القشيرية (ص ٢٥).

(٢) وردت في صفة الصفوة، ج٤ (ص ١٨٩).

وقال: لا تصبر على شهوات الدنيا إلا نفساً في قلبها نور يشغلها بالآخرة.

وقال: طالما لا يصبر العبد على ما يحبه فكيف يصبر على ما لا يحبه.

وقال: لم يرجع من رجح من الطريق لأنه إذا وصل إليه لم يرجع عنه أبداً^(١).

وقال: طوبى لمن خطا خطوة بإخلاص طوال عمره.

وقال: ينجو العبد حين يتخلص من كثرة الوسوس والرياء.

وقال: الأعمال الخالصة قليلة.

وقال: إن أراد صادق أن يصف ما في قلبه لا يطاوعه لسانه.

وقال: مضى الصدق بالسنة الصادقين وبقي على السنة الكاذبين.

وقال: لكل شيء تراه زينة، وزينة الصدق الخشوع.

وقال: اجعل الصدق ظنك، والحق سيفك، واعلم أن الله غاية طلبك.

وقال: القناعة من الرضا كالورع من الزهد. فهذه أول الرضا، وذاك أول الزهد.

وقال: لله عباد يخجلون أن يعاملونه بالصبر، فيعاملونه بالرضا. أي أن في الصبر معنى أنا صبور، لكن هذا ليس في الرضا، ويكون الإنسان على النحو الذي بداخله، فيتعلق الصبر بك والرضا به.

وقال: الرضا ألا (تطلب) الجنة من الله، أو تطلب النجاة من الجحيم.

وقال: لا أعرف للزهد ولا الورع ولا الرضا حداً ولا غاية، ولكني أعرف السبيل إليها.

وقال: ورد عليّ حال من كل مقام إلا الرضا لم تصلني منه سوى الرائحة، ومع هذا فإن يحمل خلق العالم جميعاً إلى الجحيم ويذهبون كارهين، أذهب أنا راضياً؛ لأنه لو أنني لست راضياً عن دخول الجحيم فهو راض.

وقال: وصلنا في الرضا إلى حد أنهم إن وضعوا طبقات الجحيم السبع في عيننا اليمنى، لا يجول بخاطرنا لماذا لم يضعوها في اليسرى؟

وقال: التواضع: ألا يبدو عليك عجب قط في عملك.

وقال: لا يتواضع العبد قط حتى يتجاهل نفسه، ولا يتزهد قط حتى يتغاضى عن الدنيا، والزهد هو أن تترك كل شيء يمنعه الحق (تعالى) عنك.

وقال: علامة الزهد هي: إن ارتدى شخص أمامك صوفاً قيمته ثلاثة دراهم، لا يرغب قلبك في صوف قيمته خمسة دراهم^(٢).

(١) وردت في حلية الأولياء، ج٩ (ص ٢٦١).

(٢) وردت في حلية الأولياء، ج٩ (ص ٢٦٠) مع الاختلاف.

وقال: لا تشهد بالزهد على شخص قط لأنه غائب عنك في القلب، وحاضر في الورع.

وقال: الورع أقسى على اللسان من الفضة والذهب على القلب.

وقال: حفظ اللسان هو الحصن الحصين، والجوع لب العبادة، ومحبة الدنيا سبب كل الخطايا.

وقال: الصوفي هو من تسري عليه أفعال لا يعلمها إلا الله، ويكون مع الله دائماً بحيث لا يعرف سواه.

وقال: التفكير في الدنيا حجاب الآخرة، والتفكير في الآخرة ثمرة الحكمة وحياة القلوب.

وقال: يزداد العلم بالغيرة والخوف بالتفكير.

وذكر شخص معصية أمامه، فبكى متحجاً وقال: بالله، أرى الآفاق في الطاعة في غنى عن تلك المعصية.

وقال: عودوا العين البكاء والقلب الفكر.

وقال: إذا لم يبك العبد قط إلا على ما أضاعه من عمره فكفاه حزناً حتى الموت.

وقال: من عرف الله، يفرغ قلبه، وينشغل بذكره وطاعته، ويبكي على أخطائه.

وقال: في الجنة صحراوات، حين ينشغل العبد بالذكر تغرس الأشجار باسمه فيها حتى يكف، ويقال للملائكة: لما اكتفيتن؟ فيقولن: لأنه كف.

وقال: قل لمن يرجو عظة الوهاب: انظر في اختلاف الليل والنهار!

وقال: من أحسن في نهاره كوفئ في ليله، ومن أحسن في ليله كوفئ في نهاره^(١).

وقال: من صدق في ترك شهوة فإن الحق تعالى أكرم من أن يعذبه، وسيذهب بتلك الشهوة عن قلبه^(٢).

وقال: من يشغل بالنكاح والسفر وتدوين الحديث فقد انشغل بالدنيا إلا امرأة صالحة فهي ليست من الدنيا بل من الآخرة. أي التي تجعلك فارغاً لإنجاز أمور الآخرة لكن ما يشغلك عن الحق من مال وأهل وولد يكون شؤماً عليك.

وقال: اعلم أن كل عمل لا تثاب عليه في الدنيا، لن تثاب عليه في الآخرة. أي أن راحة قبول تلك الطاعة يجب أن (تصلك) هنا (في الدنيا).

وقال: إن نفساً بارداً يصعد من قلب فقير عند رغبة عجز عن تحقيقها، أفضل من ألف عام طاعة وعبادة لغني.

(١)، (٢) وردت في حلية الأولياء، ج٩ (ص ٢٥٥، ٢٥٦)، الرسالة القشيرية (ص ٢٥)، صفة الصفوة، ج٤ (ص ١٩٤).

وقال: أفضل سخاوة التي تتفق مع الحاجة.

وقال: آخر أقدام الزاهدين هو أول أقدام المتوكلين.

وقال: إن علم الغافلون ما يفوتهم مما هم فيه، لماتوا جميعاً من هول المفاجأة.

وقال: يفشي الحق (تعالى) لعارف نائم فوق فراش الأسرار ويظهر له ما لا يظهر قط لواقف في صلاة.

وقال: طالما فتحت للعارف عين القلب، أغلق عليه عين الرأس، فلا يرى أحداً سواه.

كما قال أيضاً: أقرب شيء يتقرب به إلى الله (تعالى) هو أن تعرف أن الله (تعالى) مطلع على قلبك، ويعرف منه أنك لا تريد من الدنيا والآخرة إلا هو.

وقال: إن صورت المعرفة في مكان، لا ينظر إليها شخص قط إلا وينبهر من حلاوتها وجمالها وحسنها ولطفها، ويظلم كل نور إلى جانب نورها.

وقال: المعرفة أقرب إلى الصمت من الكلام، وقلب المؤمن مضيء بذكره، وذكره غذاء له والأنس به راحته، وتجارته حسن معاملته، والليل سوقه، والمسجد مكانه، والعبادة كسبه والقرآن بضاعته، والدنيا مزرعته، والقيامة بيدره، وثاب الحق تعالى ثمرة كفاحه.

وقال: أفضل ما في زماننا الصبر، والصبر قسمان: صبر على ما تكرهه من أوامر الحق مع التزامك باتباعها، وصبر على ما تطلبه مما يدعوك إليه الهوى وينهيك الحق عنه.

وقال: الخير الذي لا شرف فيه هو الشكر عند النعمة والصبر عند البلاء.

وقال: كل من يعرف قيمة نفسه، لا يذوق حلاوة الخدمة قط.

وقال: إن اجتمع الخلق كي يذلوني، لما استطاعوا ما لم أذل نفسي وإن أرادوا أن يعزوني لما استطاعوا ما لم أعز نفسي. أي أن ذلي في المعصية وعزي في الطاعة.

وقال: لكل شيء صدق، وصدق الجنة ترك الدنيا، وكل ما فيها.

وقال: كل قلب استقرت فيه محبة الدنيا تسلفت منه محبة الآخرة.

وقال: حين يترك الحكيم الدنيا فإنها تضيء بنور حكمته.

وقال: إن الدنيا عند الله أقل من جناح بعوضة، فأى قيمة لها حتى يزهد الشخص فيها؟!

وقال: من يبحث عن وسيلة إلى الله فيها مضرة لنفسه يحفظ الله عليه نفسه، ويجعله من أهل الجنة.

وقال: يقول الله (تعالى): يا عبدي إن خجلت مني أخفي عيوبك عن الخلق، وأمحو زلتك من اللوح المحفوظ، ولا أحاسبك يوم القيامة.

وقال لمريد: حين ترى خيانة من صاحب، لا تعاتبه، فربما تسمع في العتاب كلامًا أشد. فقال المريد: وهو كذلك.

قال أحمد بن الحواري: كان الشيخ قد ارتدى ثيابًا بيضاء ذات يوم، وقال: ليت قلبي بين القلوب كان مثل ذلك الثوب بين الثياب.

ويقول الشيخ الجنيد (رحمة الله عليه): وصلت حيطته إلى حد أنه قال: كثيرًا ما مرت على قلبي أمور من أمور هؤلاء القوم، فلم أقبلها طوال عدة أيام إلا بشاهدي عدل من الكتاب والسنة. وكان يقول في المناجاة: إلهي، كيف يليق بخدمتك من لا يمكن له أن يكون جديرًا بها أو كيف يأمل في رحمتك من لا يخجل من النجاة من عذابك؟

يروى أن أبا سليمان كان صاحبًا لمعاذ بن جبل^(١) وتلقى العلم منه، وحين اقتربت وفاته، قال الأصحاب: بشرنا بأنك ستذهب إلى الحضرة حيث الله الغفور والرحمن. فقال: لماذا لا تقولون ستذهب إلى الحضرة الإلهية، ويحاسبك فيها على الصغيرة، ويعذبك على الكبيرة عذابًا شديدًا، ثم أسلم الروح.

رآه آخر في المنام بعد وفاته، فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: رحمني، ورعاني، ولكن إشارات هؤلاء القوم كانت ضررًا فادحًا لي. أي أنني كنت مشهورًا بين (العارفين) (رحمة الله عليه).



(١) معاذ بن جبل: كان من صحابة النبي (توفي ١٨ هـ).

د. استعلامي (ص ٨٤٧).

ذكر محمد بن السماك^(١)

قدس الله روحه



هو واعظ الأقران، وحافظ الإخوان، هو الزاهد المتمكن والعابد المتدين، هو قطب الأفلاك محمد بن السماك (رحمة الله عليه).

كان إماماً في كل وقت، وكان مقبولاً لدى الأنام، وله كلام سامي وبيان شافي، وكان آية في الموعظة، تحقق الفتح لمعروف الكرخي من كلامه، ويجله هارون الرشيد كذلك وتواضع له؛ لأنه قال: يا أمير المؤمنين! تواضعك في شرف أكثر شرفاً من كثرة الشرف.

وقال: أشرف التواضع ألا ترى فضلاً لك على شخص قط.

وقال: كان هناك دواء لهؤلاء الناس دواء من قبل يشفى به، الآن أصيبوا جميعاً بالداء الذي لا دواء له. ومن ثم فالطريق هو: أن تجعل الله مؤنسك، وتجعل كتابه موضع أسرارك.

وقال: الطمع طناب في الرقبة وقيد في القدم، فألق به حتى تتحرر.

وقال: كانت الموعظة تثقل على الواعظين حتى الآن بحيث كان المقفون لأثرهم قليلين، كذلك فالعاملون بها اليوم قليلون.

قال أحمد الحواري: مرض ابن السماك، وأخذنا بوله لنعرضه على طبيب نصراني كان معاصراً له، وفي الطريق الذي كنا نسير فيه رأينا رجلاً جميل الوجه، زكي الرائحة، طاهراً، يرتدي ثياباً نظيفة، قدم إلينا وقال: إلى أين تذهبون؟ قلت: إلى الطبيب النصراني فلان، نريده أن يفحص ابن السماك، ونحمل البول؛ لنعرضه عليه. فقال: سبحان الله! أيسعين حبيب الله بعدو الله! وتذهبون إليه، عودوا واذهبوا إلى ابن السماك وقولوا له أن يضع يده على تلك العلة، ويقرأ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلُ﴾^(٢) فعدنا، وشرحنا له الحال، ففعل ما أمر به، فشفي في الحال، وقال: اعلّموا أنه كان الخضر (عليه السلام).

(١) محمد بن السماك: كنيته أبو العباس، من زاهدي النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، كان من أهل الكوفة ثم قدم إلى بغداد، ومكث بها فترة، ثم عاد إلى الكوفة، وتوفي بها عام ١٨٣ هـ.

انظر ترجمته في حلية الأولياء، ج ٨ (ص ٢٠٣)، صفة الصفوة، ج ٣ (ص ١١٥).

(٢) سورة الإسراء: الآية (١٠٥).

يروى أنه كان يقول حين وافته المنية: يا إلهي أتعلم أنني في الوقت الذي كنت أرتكب فيه المعصية، كنت أحب أهل طاعتك، فاجعل هذا كفارة لذلك^(١).

يروى أنه كان أعزبًا، فقيل له: أتريد زوجة؟ قال: لا، قالوا: لماذا؟ قال: لأن معي شيطان، ويدخل شيطان آخر، وأنا لا أطيق أن يكون هناك شيطانان في داري. قالوا: كيف؟ قال: لكل منا شيطان، واحد لي وواحد لها، فكيف يبقى شيطانان في بيت واحد؟ بعد ذلك توفي، فأرأوه في المنام، فقالوا: ماذا فعل الله بك؟ قال: أظهر لي كل عطف ومودة وتبجيل وإكرام، ولكن أحدًا لا يريق هناك ماء وجهه إلا من كابد أعباء العيال، وكد في أثر الدابة والزنبيل. (رحمة الله عليه).



(١) وردت في صفة الصفوة، ج ٣ (ص ١١٦).

ذكر محمد بن أسلم^(١)

قدس الله روحه



هو قطب الدين والدولة وشمع جمع السنة، هو طاوي الأرض بالجسد المطهر، والفلك بالروح المنور، هو المتمكن من البساط القدسي محمد بن أسلم الطوسي (رحمة الله عليه).
كان فريد الدنيا، والقدوة المطلقة، وقد سمي «لسان الرسول» وكتب عنه «حارس خراسان». ولم تكن لشخص قط همته في اتباع السنة، فقد كانت سكناته وحركاته طوال عمره على بساط السنة.

قدم إلى نيسابور مع علي بن موسى الرضا (رضي الله عنه)، ركب الاثنان معاً هودجاً على ناقة، وكان إسحق بن راهويه الحنظلي يمسك بزمامها (ولما) وصلوا إلى نيسابور، بدا وسط المدينة، مرتدياً عمامة من اللباد على رأسه، وقميصاً من الصوف على جسده، وواضعاً خرطة مملوءة بالكتب على كتفه، عندما رآه الناس بتلك الهيئة بكوا، وبكى هو أيضاً، وقالوا: إننا لا نستطيع أن نراك بهذا القميص وهذه العمامة.

يروى أن محمداً كان يعقد مجلساً، ولم يكن يأتي إليه أكثر من عدة أشخاص قليلين، ومع هذا اهتدى ما يقرب من خمسين ألف آدمي إلى الطريق المستقيم ببركات نفسه، وتابوا وكفوا عن الفساد.

وبعد ذلك سجن عامين؛ لأن ظالمًا كان يقول له: القرآن مخلوق، فقال: لا، ومن ثم وضع في السجن، وكان يغتسل كل جمعة، ويؤدي السنن، وكان يرفع السجادة، ويمضي إلى باب السجن وعندما ينتعش، كان يعود، ويضع وجهه على التراب، ويقول: يا إلهي أديت ما عليّ، وأنت تعلم الآن.

(١) محمد بن أسلم: هو أبو عبد الله محمد بن القاسم الطوسي، خادم ابن أسلم، كان يعد من الأبدال، ويقال له: رباني هذه الأمة، توفي عام ٢٤٢ هـ.

انظر ترجمته في حلية الأولياء ج٩ (ص ٢٣٨)، صفة الصفوة، ج٤ (ص ١١٣).

ولما أطلق سراحه، كان عبد الله بن طاهر^(١) أميرًا على خراسان، وكان رجلًا شديد الوسامة وطيب السيرة، (وقد أحسن إلى العلماء. (حدث أن) جاء إلى نيسابور، فخرج أعيان المدينة جميعًا لاستقباله والسلام عليه، وخرجوا في اليوم الثاني للسلام عليه، وكذلك في الأيام الثالث والرابع والخامس والسادس. قال عبد الله: ألم يبق شخص قط في هذه المدينة لم يأت للسلام علينا؟ قالوا: جاءوا جميعًا سوى شخصين، قال: من هما؟ قالوا: أحمد بن حرب ومحمد بن أسلم الطوسي (رحمهما الله)، قال: لماذا لم يأتيا إلينا؟ قالوا: هما عالمان ربانيان، لا يذهبان للسلام على السلاطين، فقال: إن لم يجيئا للسلام علينا، نذهب نحن للسلام عليهما، وذهب إلى أحمد بن حرب، فقال شخص: إن عبد الله بن الطاهر قادم، قال: لا مفر دخل، فنهض أحمد، وظل يومئ برأسه ساعة تامة، ثم رفعها، وكان ينظر إليه، وقال: كنت قد سمعت أنك رجل حسن الوجه، ولكن منظر ك أجمل مما أخبرت به، الآن لا تقبح هذا الوجه الحسن بالمعصية ومخالفة أمر الله، ثم خرج من هناك، وذهب إلى محمد بن أسلم، فلم يأذن له (بلقائه) ومهما حاول فلا جدوى، وكان اليوم جمعة، فانتظر حتى خرج لصلاة الجمعة، ونظر إليه، فلم يطق ذلك، ونزل من فوق دابته، ووضع وجهه على تراب قدمي محمد بن أسلم، وقال: يا إلهي العزيز، إنه يكرهني لأنني عبد سيئ وإنني أحبه لأنه عبد حسن، وأنا غلامه، طالما أننا لك، اجعل أمر هذا السيئ في أمر هذا الحسن! قال هذا، وعاد.

ثم ذهب محمد بن أسلم بعد ذلك إلى طوس، وأقام فيها، وكان له مسجد هناك، كل من كان ضريراً كان (يشفى) حين يصل إليه، ويرى أي مكان ذلك. وكان عريباً، فلما أقام هناك، اشتهر بمحمد بن أسلم الطوسي. وأمضى مدة طويلة في طوس، وكان هناك سلسبيل على باب داره لم يملأ منه قدحاً قط، وقال: هذا الماء ملك للناس ولا تجوز تعبته، ورغب مدة في الماء الذلال، بلا جدوى، ولما تجاوزت رغبته الحد في النهاية، ملأ قدح ماء من البئر وصبه في ذلك الجدول، وحمل منها ماء ذلاً، ثم عاد إلى نيسابور.

يروى أن واحداً من أكابر الطريقة قال: كنت في الروم في جمع، فجأة رأيت إبليس وقد سقط من الهواء، فقلت: أيها اللعين ما هذه الحال؟ وما حل بك؟ قال: تنحج محمد بن أسلم في المتوضأ في هذه اللحظة، فسقطت هنا خوفاً من صوته وكاد أن يغشى عليّ.

(١) عبد الله بن طاهر الأمير الثالث للأسرة الطاهرية، وابن طاهر ذي اليمينين، تولى العرش عام ٢١٣هـ وتوفي عام ٢٣٠هـ. واتخذ نيسابور عاصمة له وبهزمته مازيار بن قارن ومعاركه الأخرى ضم طبرستان وكرمان والري إلى منطقة نفوذه.

د. استعلامي (ص ٨٤٨).

يروى أن محمدًا كان يقترض دائمًا، ويتصدق على الفقراء، وذات مرة جاء يهودي، وقال: قد أعطيتك بعض الذهب، فردّه، ولم يكن لدى محمد بن أسلم شيء قط، وفي تلك اللحظة كان قد برى القلم، ووضع نشارته أمامه، وقال لليهودي: انهض، وخذ نشارة القلم تلك، فنهض اليهودي ليرى أن نشارة القلم كانت قد صارت ذهبًا، فتعجب، وقال: كل دين تتحول فيه نشارة القلم ذهبًا بواسطة نفس عزيزة، لا يكون باطلاً، وآمن، وآمنت القبيلتان.

يروى أن الشيخ علي بن الفارمدي كان يعظ في مجلس في نيسابور ذات يوم، وكان إمام الحرمين حاضرًا، فسأل واحد: أي العلماء ورثة الأنبياء؟ قال: لا القائل ولا السامع، أي إمام الحرمين، لكنه هذا الرجل الذي قد نام على بوابته، وأشار إلى تراب محمد بن أسلم.

يروى أن محمدًا مرض في نيسابور، فرآه أحد جيرانه في المنام، وهو يقول: الحمد لله وجدت الخلاص، وشفيت من المرض. فنهض ذلك الرجل؛ كي يخبره، ولما وصل إلى باب داره، سأل: ما حال السيد؟ فقالوا: ليجزيك الله، قد توفي البارحة.

ولما حملوا نعشه، طرحوا عليه الخرقة التي كان يملكها، وبسطوا تحته قطعة لباد قديمة كان يجلس عليها. وكانت هناك عجوزتان على سطح (دار)، كانتا تقولان لبعضهما البعض: مات محمد بن أسلم، وحمل ما ملكه معه^(١)، ولم تستطع الدنيا خداعه قط. (رحمة الله عليه).



(١) وردت في حلية الأولياء، ج٩ (ص ٢٤١).

ذكر أحمد بن حرب^(١)

قدس الله روحه



هو الراسخ في مقام المكنة، والأمين على السنة وإمامها، هو زاهد الزهاد، وقبلة العباد، هو قدوة الشرق والغرب، شيخ خراسان أحمد بن حرب (رحمة الله عليه). فضائله كثيرة، ولا نظير له في الورع، ولا مثيل له في العبادة، وكان معتقداً فيه إلى حد أن يحيى بن معاذ الرازي (رحمة الله عليه) كان قد أوصى (قائلاً): ضعوا رأسي على قدميه. ووصل في التقوى إلى حد أن أمه كانت قد شوت له طائراً، وقالت: كله فقد ربيته في الدار، ولا شبهة فيه قط، فقال أحمد: ذات يوم حط على سطح الجار وأكل هناك بعض الحبوب، وكان ذلك الجار جندياً، فلا يليق هذا بحلقتي.

وقيل: كان هناك أحمدان في نيسابور، واحد همه في الدين والآخر همه في الدنيا؛ فسمي أحدهم أحمد بن حرب، والآخر أحمد بن بازرگان، وقد انصف هذا الأحمد بأن الذكر غلبه إلى حد أنه عندما كان يطلب المزين ليصلح له شعر شاربه، كان يحرك شفتيه، فيقول له: كف حتى أصلح لك هذا الشعر، فكان يقول: انشغل أنت بشغلِكَ. وفي كل مرة كانت تنجرح شفاته.

ذات مرة كتب شخص رسالة إليه، فظل مدة طويلة يريد أن يكتب رد الرسالة، ولم يجد الوقت. ذات يوم كان المؤذن يؤذن للصلاة، فقال لواحد أثناء الإقامة: اكتب رد رسالة الصاحب، وقل له: ألا يكتب لي مرة أخرى، فليس لدي وقت للرد، اكتب له انشغل بالله، والسلام.

وغلب حب الدنيا على أحمد بازرگان إلى حد أنه طلب طعاماً من جاريته، فأعدت له الجارية الطعام، وأحضرتة إليه ووضعتة أمامه، وكان يحسب حساباً إلى حد أن صار الوقت ليلاً، وغلبه النوم حتى استيقظ في الصباح، وسأل: ألم تعدي الطعام يا جارية؟ فقالت: بلى، (لكنك) شغلت بالحساب، وأعدته مرة ثانية، وأحضرتة إليه، فلم يجد وقتاً أيضاً ليأكله، ومرة ثالثة أعدته ولم يتم

(١) أحمد بن حرب: كان زاهداً من زهاد نيسابور، ومن مؤلفاته كتاب الدعاء، وكتاب الزهد، وكتاب الحكمة، وكتاب الكسب، توفي عام ٢٣٤هـ.

د. استعلامي (ص ٨٤٨).

الأمر، فذهبت إليه الجارية ووجدته نائمًا، فحكّت شفتيه بقطعة من الطعام، فاستيقظ، وقال: احضري الطست، لأنه ظن أنه قد تناول الطعام.

يروى أن أحمد بن حرب كان يربي ابنه على التوكل، فقال له: كلما لزمك طعام أو أي شيء آخر، اذهب إلى هذه الطاقة، وقل: يا إلهي، يلزمني خبز، ومن ثم كلما كان يذهب الطفل إلى ذلك الموضع كل شيء كان يطلبه كان يُعد له ويلقى به في تلك الطاقة. وذات يوم غاب الجميع عن الدار، فغلب الجوع الطفل، فاتجه إلى الطاقة كعادته، وقال: يا إلهي، يلزمني الخبز والشيء الفلاني، وفي الحال وصلت إليه في تلك الطاقة، فجاء أهل الدار، ورأوه جالسًا وهو يأكل شيئًا، فقالوا: من أين أحضرت هذا؟ قال: ممن يعطيني كل يوم؛ فعلموا أن هذا الطريق انفتح عليه.

يروى أن أحد التجار قال: مررت على مجلس أحمد بن حرب، وقد جرت مسألة على لسانه استضاء بها قلبي كالشمس، وقد ظللت عامًا على هذا النحو، ولن يزول (النور) عن قلبي.

وكان أحمد مريدًا ليحيى بن يحيى، وكان لديه بستان، أكل منه قليلًا من الكروم ذات يوم، فقال له أحمد: لماذا تأكل؟ قال: هذا البستان ملكي! قال: الماء وقف في هذه القرية يوم بليلة، ولا يهتم الناس بهذا، فتاب يحيى بن يحيى (وقال): لن أكل كرومًا من ذلك البستان ثانية.

يروى أن أحمد كانت لديه صومعة، كان يذهب إليها في كل وقت للعبادة حتى يفرغ، ذات ليلة كان قد ذهب إليها للعبادة، وعندما أخذت الأمطار الغزيرة تهطل، فكر في أمر الدار، ربما تسرب إليه المياه وتبل الكتب، فسمع صوتًا: يا أحمد، انهض واذهب إلى الدار، فما يتأتى منك من عمل، وجهته إلى الدار فما تفعل هنا؟ فتاب في الحال توبة نصوحة.

يروى أن سادات نيسابور جاءوا ذات يوم للسلام عليه، فدخل من الباب ولده وهو ثمل وكان يعزف على العود، ومروا عليهم، ولم يهتم بهم، فتغيروا جميعًا، رأى أحمد هذا الحال، فقال لهم: اعذروه لأنهم ذات ليلة أحضروا لنا مأكولًا من منزل الجار، فأكلنا منه (أنا وزوجي)، وكانت لنا صحبة في تلك الليلة، جاء منها إلى الوجود، تتبععت الأمر فكانت أمه قد ذهبت إلى عرس في قصر السلطان، وأحضرت منه مأكولًا (٣٦٥).

يروى أن مجوسيًا يدعى بهرام كان جاريًا لأحمد، وكان شريكه قد أرسله في تجارة، وفي الطريق سرق اللصوص المال، ولما وصل الخبر للشيخ قال للمريدين: انهضوا نشاطر جارنا الأحران لما حل به، فمع أنه مجوسي إلا أنه جار، وعندما وصلوا إلى باب داره وكان بهرام يشعل نار المجوسية، فأسرع إليه وقبل يده، وجال في خاطر بهرام: ربما هم جوعى، والخبز أقل من

(١) وردت في كشف المحجوب (ص ٦١٢) من الترجمة العربية.

أن أضعه على مائدة. قال الشيخ: ما عليك، فقد جئنا نواسيك؛ لأنني سمعت أن لصاً قد سرق أموالكم، قال المجوسي: بلى الأمر كذلك لكنه من الواجب أن أشكر الله ثلاث مرات: أولاً: لأنها سرت مني ولم أسرقها أنا من غيري، ثانياً: لأن نصفها سرق ولم يسرق النصف الآخر، ثالثاً: لأن ديني معي، فالدنيا تجيء وتروح. سر أحمد بهذا الكلام، وقال: اكتبوا هذا، فإن رائحة الإسلام تفوح من هذه الأقوال الثلاثة، ثم اتجه الشيخ إلى بهرام وقال: لما تعبد تلك النار؟ قال: حتى لا تحرقني، وسبب آخر هو أنني أزودها بالحطب اليوم، فلا تخونني في الغد، وتوصلني إلى الله. قال الشيخ: أخطأت خطأ عظيماً، فالنار ضعيفة وجاهلة ولا وفاء لها وكل ما تعقده عليها باطلاً، فإن صب عليها طفل قدرًا من الماء تتمد، وشخص ضعيف إلى هذا الحد كيف يستطيع أن يوصلك إلى قوي كهذا؟ شخص لا يقوى أن يدفع ذرة تراب عن نفسه، كيف يستطيع أن يوصلك إلى الحق، والشيء الثاني: أنها جاهلة، إن ألقيت فيها مسكاً وقذارة تلتهمهما ولا تدري أيهما أفضل ومن هنا فهي لا تفرق بين النجاسة والعود، والشيء الثالث هو: أنك عبدتها طيلة سبعين عاماً، ولم أعبدها أنا قط. هيا نضع أيدينا فيها، لترى أنها ستحرق كلا اليدين، ولا تحفظ لك وفاء. فوق هذا الكلام من قلب المجوسي موقعاً، فقال: أسألك أربع مسائل، إن أجبت أو من، قل: لماذا خلق الحق (تعالى) الخلق؟ ولماذا رزقهم حين خلقهم؟ ولماذا يميّتهم؟ ولماذا يبعثهم بعد أن يميّتهم؟ قال: خلقهم ليعبدوه، ورزقهم ليعترفوا بأنه الرزاق، ويميّتهم ليعترفوا له بالقهر، ويحييهم ليعترفوا له بالقدرة والعلم. عندما سمع بهرام هذا. قال: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد رسول الله» وعندما أسلم، صاح الشيخ صيحة، وفقد وعيه، ومضت فترة عاد فيها إلى رشده.

قالوا له: ما سبب هذا يا شيخ؟ قال: في تلك اللحظة التي كان يبسط فيها إصبعه للشهادة، نودي عليّ: يا أحمد، قبع بهرام في المجوسية سبعين عاماً، ثم آمن وأمضيت أنت سبعين عاماً في الإسلام، إلام ستؤول في العاقبة؟

يروى أن أحمد لم يكن قد نام ليلة طوال عمره، فقالوا له: فلتسترح لحظة، قال: كيف يأتي النوم لشخص تزين له الجنة من أعلى ويشعل له الجحيم من أسفل، ولا يدري من أهل أيهما سيكون؟! وأيها مقرر؟

ومن أقواله: ليتني أعلم من يكرهني ومن يغتابني، ومن يسيئ إليّ القول؛ حتى كنت أرسل إليه الفضة والذهب، لأنه طالما ينشغل بأمر ينفق من مالي.

وقال: اخشوا الله ما استطعتم، وأطيعوه قدر ما تستطيعون، وأطيعوه حتى لا تخدعكم الدنيا، فلا تبتلون بالبلاء كالسابقين.

ذكر حاتم الأصم^(١)

قدس الله روحه



هو زاهد الزمان، والعابد الفريد، هو المعرض عن الدنيا، والمقبل على العقبى، هو حاكم الكرم الشيخ حاتم الأصم (رحمة الله عليه).
كان من كبار مشايخ بلخ، وكان قد اشتهر في خراسان. كان مريدًا لشقيق البلخي وكان قد أدرك خضرويه أيضًا.

وكان فريدًا في الزهد والرياضة والورع والأدب والصدق والحذر، ويمكن القول: إن نفسًا لم يكن قد صعد منه بعد البلوغ دون مراقبة ومحاسبة، ولم يخط خطوة بغير صدق وإخلاص حتى قال الجنيد عنه: «صديق زماننا حاتم الأصم».

وله أقوال عجيبة في مجاهدة النفس، ودقائق مكرها، ومعرفة رعوناتها، ولا مثيل لتصانيفه القيمة، وآرائه وحكمته، مثلما قال لأصحابه ذات يوم: إن سألكم الناس ماذا تعلمتم من حاتم؟ ما تقولون؟ قالوا: نقول العلم، قال: وإن قالوا: لا علم لحاتم؟ قالوا: نقول: الحكمة، قال: وإن قالوا: لا حكمة له؟ ما تقولون؟ قالوا: نقول: تعلمنا شيئين: الأول: الرضا بما في اليد، والثاني: اليأس مما في يد الناس.

ذات يوم سأل أصحابه (قائلًا): أتحمل عناءكم منذ عمر طويل، ألم يصبح أي شخص منكم لائقًا؟ فقال أحدهم: غزا فلان عدة غزوات، قال: أكون غازيًا ويكون لائقًا عندي! قالوا: بذل فلان أموالًا طائلة، فقال: أكون سخيًا ويكون لائقًا لدي! قالوا: حج فلان كثيرًا، قال: أكون حاجًا، ويكون لائقًا في نظري. فقالوا: لا ندري، اشرح لنا إذن من هو اللائق لديك؟ قال: من لا يخاف سوى الله، ولا يأمل إلا فيه.

(١) حاتم الأصم: هو أبو عبد الرحمن حاتم بن عنوان وقيل حاتم بن يوسف من قدماء مشايخ خراسان ومن أهل بلخ، توفي بواشجر (إحدى قرى ما وراء النهر) سنة ٢٣٧هـ.

انظر ترجمته في طبقات الصوفية (ص ٩١)، الرسالة القشيرية (ص ٢٦)، صفة الصفوة، ج ٤ (ص ١٤٢).

ووصل كرمه إلى حد أن امرأة جاءت إليه ذات يوم، وسألته عن مسألة، فخرج منها صوت (ريح)، قال حاتم: ارفعي صوتك فإنني أصم كي لا ينجلها، فرفعت العجوز صوتها، فأجابها في تلك المسألة^(١). وكانت تلك العجوز قد عمرت ما يقرب من خمسة عشر عامًا، جعل نفسه فيها أصم حتى لا يقل شخص للعجوز أنه ليس كذلك. ولما توفيت العجوز أجاب الكلام ذي الصوت الخفيض حيثئذ، وكان قبل ذلك يقول لكل من كان يتحدث معه: ارفع صوتك، ولهذا السبب سمي بالأصم.

يروى أن حاتمًا كان يعظ في مجلس بلغ ذات يوم، وكان يقول: إلهي، اغفر لمن هو أكثر ذنبًا في هذا المجلس، وأسود صحيفة وأجرأ على الذنوب. كان رجلًا يعمل نباشًا حاضرًا في ذلك المجلس، وكان قد شق كثيرًا من القبور، وسرق الأكفان، ولما حل الليل، ذهب للنباشة كعادته، وعندما رفع التراب من على القبر، سمع صوتًا من اللحد: ألا تخجل، فقد غُفر لك في مجلس الأصم بالأصم، وتستمر في عملك هذه الليلة أيضًا، فنهض النباش من التراب، وذهب إلى حاتم، وقص القصة، وتاب.

يقول سعد بن محمد الرازي^(٢): تلمذت على يد حاتم عدة أعوام، ولم أره غاضبًا قط إلا عندما كان قد ذهب إلى السوق ذات مرة، فرأى واحدًا كان قد تلمذ على يديه، وكان يصيح: قد استولي على بضاعتي عدة مرات، ولا يعطيني ثمنها. قال الشيخ: أيها السخي، اصفح عنه، قال: لا أعرف الصفح وأريد الفضة، ومهما تحدث فلا جدوى، فغضب ورفع الرداء عن كتفه، وألقاه على الأرض، فامتألت حلبة السوق بالذهب، وكلها صحيحة فقال: هلا خذ حقك ولا تزد حتى لا تتييس يدك، فأخذ الرجل الذهب المتناثر حتى حصل على حقه، ولم يستطع الصبر، فمدّ يده، وحمل ذهبًا آخر، فتيست يده في الحال.

يروى أن شخصًا دعا حاتم إلى دعوة، فقال له: لست معتادًا على الذهاب إلى ضيافة، فألح الرجل، فقال: إن كان لابد فأنا موافق بشرط أن توافق على ثلاثة أعمال، قال: موافق، قال: أجلس حيث أريد، وأفعل ما أريد، وأكل ما أريد، قال: حسنًا، ثم ذهب، ودخل، وجلس في مكان النعال، قالوا: ليس هذا مكانك! فقال: قد اشترطت أن أجلس حيث أريد، ولما وضعوا المائدة، أخرج حاتم رغيفًا من الشعر من كفه، وأخذ يأكل منه، فقال: يا شيخ، كل شيئًا من طعامنا، فقال: قد اشترطت أن أكل ما أريد، ولما فرغوا قال: ضع تلك النعال الثلاثة في النار حتى تلتهب،

(١) وردت في الرسالة القشيرية (ص ٢٦).

(٢) سعد بن محمد الرازي: يقال هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن شاذان المتوفي عام ٣٧٤ هـ.

د. استعلامي (ص ٨٤٩).

فعل الرجل كذلك، فقال (له): الآن ضعه في هذا الممر، فعل الرجل ذلك، فنهض ووضع قدميه على الثلاثة نعال وقال: أكلت رغيفاً، ومضى. وقال: إن علمتم أن الصراط حق، والجحيم حق، وأن كل ما تفعلونه تستلون عنه فوق ذلك الصراط، فتخيّلوا أن هذه النعال الثلاثة هي ذلك الصراط، وضعوا أقدامكم عليها، وكل ما تناولتموه اليوم في هذه الدعوة، تعطوني حسابه، قالوا: لا طاقة لنا بذلك يا حاتم، فقال حاتم: عندما تطيقون ذلك غداً تسألون عما تكونوا قد فعلتموه في الدنيا وأكلتموه منها. ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾^(١) فصارت تلك الدعوة مأتمّاً للجميع. يروى أن شخصاً جاء ذات يوم، وقال: أملك ما لا وفيراً، وأريد أن أعطيك وأصحابك من هذا المال، أتأخذ؟ قال: أخشى أن تموت، وحينئذ ينبغي عليّ أن أقول: يا رازق السماء مات رازق الأرض.

قال رجل لحاتم: من أين تأكل؟ قال: من بيد الله الذي لا يقبل الزيادة ولا النقص، فقال ذلك الرجل: أتأكل مال الناس بالحسرة؟ قال حاتم: أأكلت من مالك شيئاً؟ قال: لا، قال: ليتك كنت من المسلمين، قال: إنك تسوق الحجاج، قال: يطلب الله (تعالى) الحجة من العبد يوم القيامة، فقال: أهى كل هذا الكلام؟ قال: قد أنزل الله (تعالى) الكلام، وقد حللت أمك لأبيك بالكلام، قال: أيأتي رزقك من السماء؟ قال: يأتي الرزق للجميع من السماء ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾^(٢) قال: وربما ينزل من طاقة داركم. قال: كنت في بطن أمي، ولم يكن الرزق قد أتى في ذلك الوقت، فقالت: ارضع الثرى حتى يأتي الرزق إلى فمك، قال حاتم: كنت قد رقدت عامين في مهدي، وكان الرزق يأتي إلى فمي، قال: رأيت شخصاً يحصد ما لم يزرع؟ قال: شعر رأسك الذي تحصده لا تزرعه، قال: انطلق في الهواء حتى يصل رزقك إليك، قال: يصل إليّ عندما أصبح طائراً، قال: اهبط على الأرض حتى يصل إليك، قال: إن أصبحت نملة يصل إليّ، قال: اغطس تحت الماء إذن واطلب الرزق، قال: يرزق السمك تحت الماء فلا عجب أن يصل رزقي إليّ. فسكت الرجل، وتاب، وقال: عظمي، فقال: لا تطمع في الخلق حتى لا يخلون عليك، وأحسن باطنك مع الله حتى يحسن الله ظاهرك، وطع الله حيثما كنت حتى يطيعك الخلق. وقال له رجل أيضاً: من أين تأكل؟ قال: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٣).

يروى أن حاتماً سأل أحمد بن حنبل (قائلاً) أتسعى وراء رزقك؟ قال: بلى، قال: قبل أوانه أم بعده أم فيه؟ فكر أحمد (وقال): إن قلت قبل حينه لقال: لماذا تضيع وقتك؟ وإن قلت بعد حينه

(١) سورة التكاثر: الآية (٨).

(٢) سورة الذاريات: الآية (٢٢).

(٣) سورة المنافقون: جزء من الآية (٧).

لقال: لما تبحث عن شيء ضاع منك. وإن قلت في حينه لقال: لماذا تنشغل بشيء سوف يأتي؟ وبقي عاجزاً أمام تلك المسألة، فقال الشيخ: هكذا ينبغي أن يكون الجواب: إن السعي (وراء الرزق) ليس بفريضة علينا ولا واجب ولا سنة فلماذا أسعى وراء شيء ليس من هذه الأشياء الثلاثة؟ وتساءل عن شيء هو نفسه يبحث عنك يقول الرسول ﷺ: يأتي هو إليك، وها هي إجابة حاتم: «علينا أن نعبدك كما أمرنا وعليه أن يرزقنا كما وعدنا».

يروى أن حامد اللفاف^(١) قال: قال حاتم: ما من صباح إلا وإبليس يوسوس لي قائلاً: ما تأكل اليوم؟ أقول: الموت، يقول: وما تلبس؟ أقول: الكفن، يقول: وأين تسكن؟ أقول: القبر^(٢)، فيقول: يا لك من رجل سيئ، أعجزتني، ويمضي.

يروى أن حاتمًا قال لزوجه: سأذهب للغزو، وأترك لك قليلاً من النفقات، قالت: بقدر ما تحيا، قال: الحياة ليست بيدي، قالت: والرزق أيضًا ليس بيدك. لما مضى حاتم، قالت عجوز لامراته: ألم يترك حاتم رزقاً لكم؟ فقالت: كان حاتم مرزقاً، والرازق هنا ولم يمض بعد.

يروى أن حاتمًا قال: عندما كنت في الغزو، أسرني تركي، وأضجعني كي يقتلني فلم ينشغل به قلبي قط، ولم يخف، بل كنت أنظر ما سيفعل؟ وبينما هو يبحث عن سكين، أصابه سهم فجأة، وطرحه عني^(٣)، فقلت: أقتلني أم قتلتك؟

يروى أن شخصاً أراد السفر، فقال لحاتم: عظمي، قال: إن أردت العون فكفاك بالله عوناً، وإن أردت الصحبة فكفاك «كram الكاتبين»، وإن أردت العبرة فكفاك الدنيا، وإن أردت المؤنس فكفاك القرآن، وإن أردت العمل فكفاك عبادة الله، وإن أردت الموعظة فكفاك الموت، وإن لم تكتف بما ذكرته لك فكفاك الجحيم.

يروى أن حاتمًا قال لحامد اللفاف ذات يوم: كيف حالك؟ قال: بسلامة وعافية، فقال: السلامة بعد عبور الصراط، والعافية أن تكون في الجنة. قالوا: وفيما ترغب؟ قال: في العافية، قالوا: ألسنت في عافية كل يوم؟ قال: إن عافيتي تكون في ذلك اليوم الذي لا أعصي الله فيه.

يروى أنهم قالوا لحاتم: قد جمع فلان مالاً وفيراً، قال: أجمع الحياة معه؟ قالوا: لا، قال: وما يفعل المال لميت؟! قال شخص لحاتم: أحتاج شيئاً؟ قال: أحتاج، قال: اطلبه، قال: حاجتي هي: ألا تراني وألا أراك.

(١) حامد اللفاف: هو حامد بن محمود بن حرب النيسابوري من قارئ خراسان ورواتها، عاش في القرن الثالث الهجري، توفي عام ٢٦٦هـ. د. استعلامي (ص ٨٤٩).

(٢) وردت في طبقات الصوفية (ص ٩٦)، الرسالة القشيرية (ص ٢٦)، صفة الصفوة، ج٤ (ص ١٤٢).

(٣) وردت في الرسالة القشيرية (ص ٢٦)، صفة الصفوة، ج٤ (ص ١٤٢) مع الاختلاف.

وسأل أحد المشايخ حتمًا: كيف تصلي؟ قال: حين يحل الوقت، أتوضأ وضوءًا ظاهريًا وآخر باطنيًا، وقال: الظاهري بالماء والباطني بالتوبة، وعندئذ أدخل المسجد، وأجعل المسجد الحرام شاهدي، وأضع مقام إبراهيم بين حاجبي، وأرى الجنة عن يمين والجحيم عن يساري والصراط تحت قدمي، وأتخيل ملك الموت خلفي، وأعهد بقلبي لله، عندئذ أكبر بتعظيم، وأقوم بحرمة، وأقرأ بهيئة، وأسجد بتضرع، وأركع بتواضع، وأجلس بحلم، وأسلم بالشكر، وهكذا تكون صلاتي^(١).

يروى أن حاتمًا مر ذات يوم على جماعة من أهل العلم وقال: اتصفوا بثلاثة وإلا وجبت الجحيم عليكم، قالوا: وما هي؟ قال: حسرة الأمس الذي مر عليكم ولم تستطيعوا الإكثار من الطاعة فيه ولا الاستغفار لذنوبكم، وإن شغلت اليوم بالاستغفار عن الأمس، فمتى تؤدي حق اليوم؟ والثانية: اغتنام اليوم والسعي في صلاح أمرك بالطاعة ومصالحة الخصوم، والثالثة: الخوف والخشية مما يصيبك في الغد من نجاة أو هلاك.

وقال: وضع الله (تعالى) ثلاثة أشياء في ثلاثة أشياء: فراغة العبادة في أمن المونة والإخلاص في العمل في اليأس من الخلق، والنجاة من العذاب في الطاعة، فطالما تطيعه فالأمل في النجاة موجود. وقال: احذر أن يدركك الموت وأنت على حال من ثلاثة أحوال: الكبر والحرص والخيلاء، أما المتكبر فلن يخرج به الله من هذه الدنيا إلا ويذيقه الذلة من أقل شخص من أهله، وأما الحرص فلن يخرج به من هذه الدنيا إلا جائعًا يستولى العطش على حلقة ولا يسمح له بمرور شيء ليشر به، وأما المحتال فلا يخرج به إلا مبتلًا ببوله وحدثه.

وقال: إن وُزِنَ كبر زهاد زماننا وعلمائه وقرائه، لفاق كبر الأمراء والملوك كثيرًا.

وقال: لا تغتر بالدار والبستان المزين، فلم ير آدم مكانًا أفضل من الجنة، في كل ما رأى، ولا تغتر أيضًا بكثرة الكرامات والعبادات، فقد رأى بلعم^(٢) ما رأى مع القدر الكبير من الكرامات والاسم الأعظم الذي كان الله قد منحه إياه، وقال الله (تعالى): ﴿فَثَلُّهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾^(٣)، ولا تغتر بكثرة العمل، فقد رأى إبليس ما رأى مع كل طاعته، ولا تغتر برؤية الزهاد والعلماء، فليس هناك شخص قط أعظم من المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والتحق ثعلبة بخدمته^(٤)، وكان أقاربه يرونه ويقومون بخدمته ولم يستفيدوا شيئًا.

(١) وردت في كشف المحجوب (ص ٥٤٢، ٥٤٣).

(٢) بلعم: هو بلعم بن بعور أبو بلعم بن بعور، كان من أهل الجزيرة وكانت لديه القدرة على التنبؤ. د. استعلامي (ص ٨٤٩).

(٣) سورة الأعراف: جزء من الآية (١٧٦).

(٤) ثعلبة: اسم عدة أشخاص من صحابة الرسول ﷺ. د. استعلامي (ص ٨٤٩).

وقال: من يذهب هذا المذهب، فليتذوق ثلاثة أنواع من الموت: الموت الأبيض وهو الجوع، والموت الأسود وهو الاحتمال، والموت الأحمر وهو ارتداء المرقعة^(١).

وقال: من لا يطلع على حكايات للزهاد تعادل سبع القرآن في يوم بليته، لا يستطيع الحفاظ على سلامة دينه.

وقال: القلوب على خمسة أنواع: قلب ميت، وقلب مريض، وقلب غافل، وقلب منتبه، وقلب صحيح^(٢). القلب الميت قلب الكفار، والقلب المريض قلب المذنبين، والقلب الغافل قلب اللاهين، والقلب المنتبه قلب اليهودي سيئ الفعال ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾^(٣) والقلب الصحيح قلب العاقل العامل كثير الطاعة الخائف من الملك ذي الجلال.

وقال: تعهد نفسك في ثلاثة مواضع: إذا عملت فاذكر أن الله مطلع عليك، وإذا تكلمت فاذكر أن الله سميع لما تقول، وإذا سكنت فاذكر أن الله عليم بحالك^(٤).

وقال: الشهوة ثلاثة أقسام: شهوة في الأكل، وشهوة في الكلام، وشهوة في النظر، فاحفظ الاعتماد على الله بالأكل، واللسان بالصدق، والنظرة بالعبرة^(٥).

وقال: اطلب نفسك في أربعة مواضع: العمل الصالح بغير رياء، والأخذ بغير طمع، والعطاء بغير منة، والإمساك بغير بخل^(٦).

وقال: المنافق: ما أخذ من الدنيا يأخذه بالحرص، وإن منع، منع بالشك، وإن أنفق في المعصية، والمؤمن يأخذ ما يأخذه بقلّة الرغبة والخوف، وإن حفظه حفظه بالضيق أي أن التملك صعب عليه، وإن أنفق، أنفق لوجه الله تعالى خالصاً في الطاعة^(٧).

وقال: الجهاد ثلاثة: جهاد في السر مع الشيطان حتى يتحطم، وجهاد في العلانية في أداء الفرائض حتى تؤدي، وكما قالوا: صلاة الفرض ظاهرة في الجماعة والزكاة أيضاً، وجهاد مع أعداء الدين في غزو الإسلام حتى يقتل أو يقتل^(٨).

وقال: ينبغي على الناس أن يحتملوا كل شيء سوى أنفسهم.

(١) وردت في طبقات الصوفية (ص ٨٧)، حلية الأولياء، ج ٨ (ص ٨٧)، الرسالة القشيرية (ص ٢٦).

(٢) وردت في طبقات الصوفية (ص ٩٧).

(٣) سورة البقرة: الآية (٨٨).

(٤) وردت في طبقات الصوفية (ص ٩٧)، حلية الأولياء، ج ٨ (ص ٧٥)، صفة الصفوة، ج ٤ (ص ١٤٢).

(٥) وردت في طبقات الصوفية (ص ٩٦)، كشف المحجوب (ص ٣٢٦).

(٦) وردت في طبقات الصوفية (ص ٩٥).

(٧) وردت في طبقات الصوفية (ص ٩٥)، حلية الأولياء، ج ٨ (ص ٧٩).

(٨) وردت في طبقات الصوفية (ص ٩٥، ٩٦).

وقال: أول الزهد الاعتماد على الله، ووسطه الصبر، وآخره الإخلاص.

وقال: لكل شيء زينة، وزينة العبادة الخوف، وعلامة الخوف قصر الأمل، وقرأ هذه الآية: ﴿أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾^(١).

وقال: إن أردت أن تكون حبيب الله، ارض بكل ما يفعله الله، وإن أردت أن تُعرف في السماوات عليك بصدق الوعد.

وقال: العجلة من الشيطان إلا في خمس: إطعام الضيف، وتجهيز الموتى، وتزويج البكر، وقضاء الدين، وتوبة المذنبين^(٢).

يروى أنهم كانوا يرسلون شيئاً لحاتم فلم يكن يقبله، فقالوا: لماذا لا تأخذه؟ قال: أرى في قبوله ذلي، وفي رده عزي، وقبله ذات مرة، فقالوا: وما الحكمة؟ قال: فضلت عزه على عزي، وذلي على ذله.

يروى أن حاتمًا عندما قدم إلى بغداد، أخبروا الخليفة بأن زاهد خراسان قد جاء، فطلبه، ولما دخل حاتم من الباب، قال للخليفة: يا زاهد، فقال الخليفة: لست بزاهد، فالدنيا بأسرها طوع أمري، إنك أنت الزاهد، قال حاتم: لا بل أنت الزاهد؛ لأن الله (تعالى) يقول: ﴿قُلْ مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾^(٣) وقد قنعت بالقليل، فأنت الزاهد لا أنا، فإنني لا أقنع بالدنيا والعقبى، فكيف أكون زاهدًا؟



(١) سورة فصلت: جزء من الآية (٣٠).

(٢) وردت في طبقات الصوفية (ص ٩٣)، حلية الأولياء، ج ٨ (ص ٧٨).

(٣) سورة النساء: جزء من الآية (٧٧).

ذكر سهل بن عبد الله التستري^(١)

قدس الله روحه العزيز



هو سياح بیداء الطريقة، وغواص بحر الحقيقة، هو شرف الأكابر والمشرق الخاطر، هو مهدي الطريق ومرشده سهل بن عبد الله التستري (رحمة الله عليه).

كان من سادة أهل التصوف، ومن كبار هذه الطائفة، وكان مجتهداً في هذه الطريقة، وكان سلطانها في زمانه، وكان برهان الحقيقة، كراماته كثيرة. وله في الجوع والسهر شأن عال، وكان من علماء المشايخ، وكان إماماً للعهد، وأهلاً لثقة الجميع، وكان في الرياضات والكرامات بلا نظير، وفي المعاملات والإشارات بلا بديل، وفي الحقائق والدقائق بلا مثيل.

وكما يقول عنه علماء الظاهر: إنه جمع بين الشريعة والحقيقة وهذا وجه العجب فيه لأن كليهما واحد، فالحقيقة زيت الشريعة والشريعة لبها.

وكان ذو النون المصري شيخه، وقد أدركه في ذلك العام الذي كان قد ذهب فيه للحج، ولم تقع هذه الواقعة لشيخ قط منذ طفولته كما حدثت له قبيل الطفولة.

كما يروى عنه أنه قال: أذكر أن الحق تعالى يقول: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾^(٢) فقلت: بلى وأجبت، وأذكر ذلك وأنا في بطن أمي.

وقال: كنت ابن ثلاث سنين، وكنت أقوم الليل، وكان خالي محمد بن سوار يبكي أثناء الصلاة لقيامي، وكان يقول: نم يا سهل، فإنك تشغل قلبي^(٣) وكنت أراقبه سرّاً وعلانية، وحدث أن قلت لخالي: تعتريني حالة صعبة بحيث أنني أرى رأسي أمام العرش في السجود، فقال: اخف تلك الحال يا بني، ولا تقل عنها لشخص قط، ثم قال: أذكره بقلبك حين تتقلب في ثياب النوم

(١) سهل بن عبد الله التستري: هو سهل بن عبد الله بن يونس، من أهل تستر، صحب خاله محمد بن سوار، ورأى ذا النون بمكة، توفي عام ٢٨٣هـ، وقيل ٢٧٣هـ.

انظر ترجمته في طبقات الصوفية (ص ٢٠٦)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ١٨٩)، الرسالة القشيرية (ص ٢٤)، صفة الصفوة، ج ٤ (ص ٥٩).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٧٢).

(٣) وردت في الرسالة القشيرية (ص ٢٦).

من جنب إلى جنب، دون أن تحرك به لسانك وقل: «الله معي، الله ناظري، الله شاهدي». قال: كنت أقول هذا وأخبرته، فقال: قل في كل ليلة سبع مرات، قال: (قلت) ثم أخبرته، فقال: قل في كل ليلة خمس عشرة مرة، وبعد هذا كانت حلاوة تسري في قلبي، ولما انقضى عام، قال لي خالي: احفظ ما علمتك، وداوم عليه حتى تدخل القبر، فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة.

ثم قال: مرت أعوام، كنت أقول فيها ذلك، حتى ظهرت حلاوته في سريري. ثم قال لي خالي: يا سهل، من كان معه ويراه كيف يرتكب المعصية؟! فبالله عليك لا ترتكب معصية^(١)!

وأقمت في خلوة حتى بعثوني إلى الكتاب، فقلت: إني لأخشى أن تشتت همتي، فاشترطوا على المعلم أن أذهب إليه ساعة، فأتعلم شيئاً، ثم أرجع إلى عملي. ثم مضيت إلى الكتاب بهذا الشرط، وحفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين، وكنت أصوم دائماً وكان قوتي خبز الشعير، وفي الثانية عشرة صادفتني مسألة لم يكن شخص يستطيع حلها، فسألت (أهلي) أن يعثوني إلى البصرة حتى أسأل عنها، فجنّت وسألت علماءها، فلم يجبني أحد منهم، فخرجت إلى «عبادان» إلى رجل كان يعرف بحبيب بن حمزة سألته عنها، فأجابني، وأقمت عنده مدة وجيزة، وأفدت منه فوائداً جمّة، ثم رجعت إلى تستر، فجعل قوتي مقتصرًا على درهم واحد، اشتروا لي به شعيرًا، كانوا يطحنونه ويخبزونه لي، وكنت أفطر عند السحر كل ليلة على أوقية واحدة بغير ملح ولا إدام، فكان يكفيني ذلك الدرهم سنة. ثم عزمت على أن أفطر مرة كل ثلاثة أيام، ثم وصلت إلى خمسة أيام ثم إلى سبعة أيام ثم إلى عشرين يومًا^(٢).

يروى أن سهل قال: كنت قد وصلت إلى سبعين يومًا، وقال أحيانًا كنت أكل لبة لوز في أربعين يومًا بلباليهم وقال: كابدت الشبع والجوع عدة أعوام، وفي البداية أصابني الضعف بسبب الجوع، وقويت بالشبع، ولما انقضى زمن استمدت قوتي من الجوع وضعفي من الشبع، وحينئذ قلت: يا إلهي، اغمض عينًا من عيني سهل حتى يرى الشبع في الجوع والجوع في الشبع بك. وقد كان أغلب صيامه في شعبان؛ لأن أغلب الأخبار في شعبان، ولما كان يحل رمضان، كان يأكل شيئًا مرة واحدة، وكان يقضي الليل والنهار في القيام.

قال ذات يوم: التوبة فريضة على العبد في كل لحظة، سواء كان من الخاصة أو العامة، سواء كان مطيعًا أو عاصيًا، فخرج عليه رجل في تستر كان ينسب إلى الزهد والعلم، لهذا الكلام الذي يقوله والذي يعني أنه ينبغي على العاصي أن يتوب عن المعصية، والمطيع عن الطاعة وحقره في أعين العامة، ونسب أحواله إلى المخالفة، فكفر لدى العامة والمشايخ، ولم يكن لديه القدرة

(١) وردت في الرسالة القشيرية (ص ٢٤).

(٢) وردت في الرسالة القشيرية (ص ٢٥).

على مناظرتهم، فشتتوه، وأمسكت نار الدين بطرفه، وكتب كل ما لديه من ضياع وعقار ومتاع وأواني وذهب وفضة على ورقة، وجمع الخلق، ونثر قطع الورقة على رؤوسهم، وكل من أخذ قطعة من الورق، كان يعطيه كل ما كان قد كتب في تلك الورقة شاكرًا لهم لأنهم قبلوا الدنيا منه. ولما منحهم كل ما لديه، قصد السفر إلى الحجاز، وقال لنفسه: أيتها النفس إنني صرت مفلسًا، فلا تطلبي مني شيئًا قط؛ لأنك لن تحصلي عليه، فاتفقت معه النفس ألا تطلب. ولما وصل إلى الكوفة، قالت له النفس: إلى هنا لم أطلب منك شيئًا، والآن أرغب في قطعة خبز وسمك، وقالت: اعطني مقدارًا منها لأتناوله ولا أزعجك حتى مكة، فدخل الكوفة، فرأى طاحونة كانوا قد عقدوا ناقة بها، فقال: كم تدفعون أجرًا لهذه الناقة؟ قالوا: درهمين، قال الشيخ: أطلقها، وقيدني حتى صلاة المغرب واعطني درهمًا فأطلق الناقة، وربط الشيخ في الطاحونة، وأعطوه درهمًا في المساء، فاشترى خبزًا وسمكًا، ووضعها أمامه، وقال: أيتها النفس، إذا رغبت في شيء من هذا القبيل، فعاهدي نفسك أن تقومي بعمل الدواب من الصباح حتى المساء؛ كي تحققي رغبتك.

ثم ذهب إلى الكعبة، وأدرك كثيرًا من المشايخ هناك، وعندئذ قام إلى تستر، وكان قد أدرك ذا النون هناك، ولم يستند إلى حائط قط، ولم يتجول قط، ولم يجب على أي سؤال، ولم يعتل منبرًا وكان قد ربط أصابع قدميه أربعة أشهر، فسأله فقير: ما أصاب أصابعك؟ قال: لا شيء، وعندئذ ذهب ذلك الفقير إلى مصر لدى ذي النون، فرآه وقد رُبطت أصابع قدميه، فقال: ما دهاك؟ قال: أصبت بداء، قال: منذ متى؟ قال: منذ أربعة شهور، قال: حسبتها فعرفت أن سهل قد وافق ذا النون - أي أن الموافقة شرط - قصصت الواقعة، فقال ذو النون: إنه الشخص الذي يعلم بدائنا ويوافقنا.

يروى أن سهل تجول في تستر ذات يوم، واستند إلى حائط، وقال: «سلوني عما بدا لكم»، فقالوا: لم تفعل هذا من قبل! قال: طالما كان الأستاذ حيًا يجب أن يكون التلميذ مؤدبًا، وسجل التاريخ أن ذا النون كان قد توفي في ذلك الوقت.

يروى أن عمرو بن الليث مرض، بحيث عجز كل الأطباء عن معالجته، وقالوا: هذا من اختصاص رجل يدعو (الله)، فقالوا: سهل مستجاب الدعاء، طلبوه فأجاب طاعة لأولي الأمر، ولما جلس أمامه قال: يستجاب الدعاء في حق شخص يتوب، وإن لك في السجن مظالم، فحررهم جميعًا وتاب. فقال سهل: يا إلهي، مثلما أظهرت له معصيته فأره عز طاعتي، ومثلما ألبست باطنه لباس الإنابة فألبس ظاهره لباس العافية، ولما ناجى هذه المناجاة، جلس عمرو بن الليث، وصح (بدنه)، وعرض عليه مالا وفيرا، فلم يقبله قط، وخرج من هناك.

قال مريد: إن قبلت شيئاً على سبيل دين نؤديه ألم يكن أفضل؟ فقال للمريد: أيلزمك ذهب؟ فانظر، نظر المريد، فإذا الفيافي والصحاري صارت ذهباً وياقوتاً، فقال: الشخص الذي يكون مع الله على مثل تلك الحال، لماذا يأخذ شيئاً من مخلوق^(١)؟!

يروى أن سهل عندما كان يسمع سماعاً كان الوجد يعتريه، ويظل خمسة وعشرين يوماً في هذا الوجد، لا يتناول طعاماً، وكان العرق يتصبب منه - ولو كان الوقت شتاء - حتى كان قميصه يبتل، ولما كان العلماء يسألونه وهو على تلك الحال، كان يقول: لا تسألوني، فلا منفعة لكم مني ومن كلامي الآن.

يروى أن سهل كان يسير على الماء ولم تكن قدميه تبتل، فقال شخص: يقول قوم: إنك تسير على الماء! فقال له: سل مؤذن هذا المسجد فهو رجل صادق، قال: سألته فقال: لم أر ذلك، لكنه دخل حوض في هذه الأيام كي يغتسل، فوقع فيه، ولو لم أكن هناك لمات. لما سمع الشيخ أبو علي الدقاق هذا، قال: إن له كرامات كثيرة لكنه أراد أن يخفيها.

يروى أن سهل كان قد جلس في المسجد ذات يوم، فسقطت حمامة من الحر والتعب، فقال: مات شاه الكرمان، ولما نظروا كان الأمر كذلك.

يروى أن أحد المشايخ قال: ذهبت إلى سهل يوم الجمعة قبل الصلاة، فرأيت حية في داره، خفت، فقال: ادخل، قلت: إني أخاف، فقال: لا يدرك شخص حقيقة الإيمان طالما يخاف شيئاً آخر سوى الله، وقال لي: ما تقول في صلاة الجمعة؟ فقلت: بيننا والمسجد يوم بليلة، فأخذ بيدي، ثم نظرت فرأيت نفسي في المسجد الجامع فأدبنا الصلاة، وخرجنا، وكنت أنظر إلى الناس، فقال: أهل لا إله إلا الله كثيرون والمخلصون قليلون.

يروى أن كثيراً من الأسود والسباع كانت تجيء إليه، فكان يقدم لها الطعام، ويرعاها، ويسمون بيت سهل في تستر اليوم «بيت السباع»^(٢).

ومن كثرة ما ارتاض وعانى من الرياضة، لم يستقر في مكان إلا وحضرته حرقرة البول، بحيث إنه كان يقضي حاجته عدة مرات في الساعة، وكان يحمل وعاء معه دائماً؛ لأنه لم يكن يستطيع الإمساك (على نفسه)، لكن عندما كان يحين وقت الصلاة كانت تنقطع، فكان يتطهر، ويصلي، وحينئذ كان يبقى قعيداً في مكانه، وعندما كان يعتلي المنبر، كانت تزول كل حرقته، وتنقطع، وتنمحي كل آلام قدميه، وعندما كان يهبط، كانت علته تعاوده، لكن مثقال ذرة من الشريعة لم تكن تفوته.

(١) وردت في حلية الأولياء، جـ ١٠ (ص ٢١٠)، وذكر يعقوب بدلاً من عمرو.

(٢) وردت في كشف المحجوب (ص ٤٧٠) من الترجمة العربية.

يروى أن سهل قال لمريد: اجتهد أن تقول الله الله طوال اليوم، فكان الرجل يقولها حتى اعتادها، فقال له: الآن داوم عليها ليلاً، ففعل كذلك، حتى أنه إن كان يجد نفسه في الفراش يقول الله في النوم، حتى قيل له: كف عن هذا، وانشغل بالذكر، حتى حدث أنه استغرق طوال عمره في الذكر.

وكان في الدار ذات مرة، فسقطت قطعة خشب من فوقه، ووقعت على رأسه فأصابته، وسالت قطرات الدم من رأسه على الأرض، ونقشت جميعها الله، الله.

يروى أن سهل أمر مريداً بعمل، فقال له: لا أستطيع خشية السنة الناس، فالتفت سهل إلى أصحابه وقال: لا يدرك حقيقة هذا الأمر ما لم يحظ بصفة من صفتين: إما أن يسقط الخلق من عينه، فلا يرى سوى الخالق، أو تسقط نفسه، ولا يبالي بأي صفة يراه الخلق عليها، أي يرى الجميع الحق.

يروى أن سهل كان يحكي أمام مريد (قائلاً): هناك خباز في البصرة، يحظى بدرجة الولاية، فنهض المريد، وذهب إلى البصرة، فرأى ذلك الخباز، وفي ذقنه خرطة كعادة الخبازين، ولما وقعت عليه عين المريد، جال بخاطره: إن كانت له درجة الولاية، لما كان يحترز من النار، ثم سلم وسأل سؤالاً، فقال الخباز: طالما نظرت إليّ بعين الاحتقار منذ البداية، فلا فائدة لك من كلامي.

يروى أن الشيخ قال: كنت أسير في البادية ذات مرة، فرأيت عجوزاً كانت قادمة بمفردها، وقد عقدت عصاها على رأسها وأمسكت بعصا في يدها، فقلت: ربما تخلفت عن قافلة، فوضعت يدي في جيبها وأعطيتها شيئاً (قائلاً): اعتدي به حتى تبلغني مقصودك، فعضت العجوز بنان التعجب ومدت يدها في الهواء، فأخذت حفنة من الذهب، وقالت: أنت تأخذ من الجيب، وأنا آخذ من الغيب، قالت هذا واختفت، فكنت أسير متعجباً لذلك، حتى وصلت إلى عرفات، ولما ذهبت إلى الكعبة للطواف، رأيت الكعبة كانت تطوف حول شخص، فذهبت إلى هناك، فرأيت تلك العجوز قالت: يا سهل، من يخطو خطوة ليرى جمال الكعبة فلا بد له من الطواف حولها، وأما من يخطو خطوة من وجوده ليرى جمال الحق، فلا بد للكعبة من الطواف حوله.

وقال: قدم إليّ رجل من الأبدال وتحدثت معه، وكان يسألني عن الحقيقة وكنت أجيبه، حتى كان يصلي الصبح. وكان يسقط تحت الماء ويجلس تحته حتى وقت الزوال، وعندما كان أخي إبراهيم يؤذن للصلاة، كان يخرج من تحت الماء، ولم يكن طرف شعرة قد ابتل على جسده، وكان يصلي الظهر، ثم يسقط تحت الماء، ولم يكن يخرج من تحته إلى عند الصلاة، وقضى معي مدة على هذا الحال، ولم يأكل شيئاً قط، ولم يجلس مع شخص قط حتى مضى.

وقال: رأيت القيامة في المنام ذات ليلة، وكنت قد وقفت في هذا الموقف، وفجأة رأيت طائراً

أبيض كان يمسك بواحد من كل جانب في الموقف، وكان يطير به إلى الجنة، فقلت: أي طائر هذا الذي امتن به الحق تعالى على عباده؟ فجأة بدت ورقة من الهواء، فتحتها وكان قد كتب عليها: إنه الطير الذي يسمى الورع، فمن كان ورعاً في الدنيا، كان حاله كذلك في القيامة.

وقال: رأيت في المنام أنهم حملوني إلى الجنة، فرأيت ثلاثمائة شخص، فقلت: السلام عليكم، ثم سألت: ما أفزع شيء أثار خوفكم؟ قالوا: الخوف من الخاتمة.

وقال: أراد الحق (تعالى) أن يهب الروح لآدم، فنفخ فيه الروح باسم محمد، وجعل كنيته أبا محمد، وليست هناك ورقة في الجنة كلها إلا مكتوباً عليها محمد، ولا شجرة في أرجاء الجنة إلا وغرست باسمه، وفي البداية سميت كل الأشياء باسمه، وسوف يكون خاتماً لجملة الأنبياء، فلا جرم أن جاء اسمه خاتم النبيين.

وقال: رأيت إبليس في المنام، فقلت: ما أشد شيء عليك؟ قال: إشارة قلوب العبيد إلى سيد العالم.

وقال: رأيت إبليس بين قوم، فقيدته بالهمة، ولما انصرف أولئك القوم قلت: لا أحرره، تعال، وتحدث في التوحيد وقال: جاء إبليس، وقال فصلاً في التوحيد لو كان عارفو الزمان حاضرين، لأخذوا جميعاً يعضون على نواجزهم.

وقال: رأيت شخصاً، وقد أحضروا له لقمة في ليلة جاع فيها جوعاً شديداً، فاشتبه فيها ولم يأكلها، ولم يستطع التعبد في تلك الليلة من الجوع، وتساوى أجر ثلاثة أعوام كان يقضي ليلها في الطاعة، بأجر الجوع والتعفف عن طعام مشبوه في تلك الليلة.

وقال: إن تمتلئ معدتي بالخمير أحب إليّ من أن تمتلئ بطعام حلال، قالوا: لماذا؟ قال: لأنه عندما تمتلئ المعدة بالخمير، يستريح العقل وتخمد نار الشهوة، ويأمن الخلق من يدي ولساني، ولكن عندما تمتلئ بالطعام الحلال ترغب في الفضول، وتقوى الشهوة، وتسعى النفس في طلب شهواتها^(١).

وقال: لا تصح الخلوة إلا بأكل الحلال ولا يصح الحلال إلا بأداء حق الله.

وقال: من يأكل مرة واحدة في يوم بليلة فهذا هو أكل الصديقين.

وقال: لا تصح العبادة لشخص قط ولا يخلص له عمل ما لم يكن جائعاً.

وقال: يجب عدم الفرار من أربعة أشياء حتى تصح العبادة هي: الجوع والفقر والذلة والقناعة.

وقال: من يجوع لا يحوم الشيطان حوله بأمر الله، فاطلبوا الجوع حين تشبعون، لأنه قد ابتلاكُم بالشبع، وإن لم تفعلوا ذلك تتجاوزون الحد وتطفون.

(١) وردت في كشف المحجوب (ص ٥٩٣) من الترجمة العربية.

وقال: الشبع أساس كل الآفات.

وقال: من يأكل حرامًا تقع أعضاؤه السبعة في المعصية، فيبتلى بالمعصية أراد أو لم يرد، ومن يأكل حلالًا تشمل الطاعة أعضائه السبعة ويلزمه التوفيق والخير.

وقال: الحلال الصافي هو الذي لا ينسى (المرء) الله فيه.

يروى أن تلميذًا له جاع جوعًا شديدًا، وانقضت عدة أيام، فقال: «يا أستاذ! ما القوت؟ قال: ذكر الحي الذي لا يموت».

وقال: الخلق ثلاثة أقسام: مجموعة في حرب مع أنفسهم من أجل الله تعالى، ومجموعة في حرب مع الحق من أجل أنفسهم. إذ لماذا قضاؤك لا يرضينا ومشيتك ليست بمشورتنا؟ وقال: قل لمن يريد أن تصح قواه: تجنب كل الذنوب.

وقال: اعلّموا أن كل عمل تؤدوه ولا تقتدون فيه بقدوة هو من جملة عذاب أنفسكم.

وقال: لا يصح تعبد العبد ما لم ير أثر المحبة على نفسه في العدم، وأثر الوجود عليها في الفناء.

وقال: خرج العلماء والعباد والزهاد من الدنيا وما زالت قلوبهم غلف، ولم تهتد سوى قلوب الصديقين والشهداء.

وقال: لا يكمل إيمان المرء ما لم يتورع في عمله، ويخلص في ورعه، ويكون إخلاصه بالمشاهدة، ويتبرأ إخلاصه عما دون الله.

وقال: أفضل الخائفين المخلصون، وأفضل المخلصين أولئك القوم الذين يخلصون حتى الموت. وقال: لا يطلع على الرياء إلا مخلصًا.

وقال: أولئك القوم الذين أدركوا هذا المقام، تحركوا بالبلاء، إن تحركوا انفصلوا، وإن سكنوا اتصلوا.

وقال: من لا يعبد الله بالاختيار، عليه أن يعبد خلقه بالاضطرار.

وقال: حرام على القلب الذي يستطيع السكون إلى غير الله أن تصل إليه رائحة اليقين قط.

وقال: حرام على القلب الذي يشوبه شيء لا يرضى الله عنه، أن يسري فيه نور.

وقال: كل وجد ليس دليله الكتاب والسنة هو باطل^(١).

وقال: أفضل الأعمال أن يتطهر العبد من خبث طهارته.

وقال: من ينقل عن نفسه إلى نفسه يضيع ذكر خالقه من آن لآخر.

(١) وردت في اللمع (ص ٣٧٦).

وقال: الهممة هي أن يطلب (المرء) الزيادة، وعندما تنتهي، إما أن يصل إلى مقصوده أو ينقطع.
وقال: إن لم يكن البلاء لما كان السبيل إلى الحق.

وقال: من يخلص أربعين يومًا، يزهد في الدنيا، وتظهر عليه الكرامات وإن لم تظهر يكون قد أخل بالزهد، قالوا: وكيف تظهر عليه الكرامات؟ قال: بأن يأخذ ما يريد كما يريد.

وقال: كل قلب يشتد بالعلم يصير أشد القلوب، وعلامته هي أنه يتعلق بالتدابير والحيل، ولا يمكن أن يسلم تدبيره لله، ومن يدعه الحق تعالى لتدبيره، يلق به في الجحيم في الدنيا والآخرة.

وقال: العلماء ثلاثة أقوام: عالم بعلم الظاهر، يحدث بعلمه أهل الظاهر، وعالم بعلم الباطن يحدث بعلمه لأهله، وعالم علمه بينه وبين الله ولا يستطيع التحدث به لشخص قط.

وقال: لا تشرق الشمس ولا تغرب على شخص قط أفضل ممن يفضل الله على الجسد والمال والدنيا والروح والآخرة.

وقال: ليست هناك معصية قط أعظم من الجهل.

وقال: لا تنظروا إلى هؤلاء المجانين بعين الاحتقار، لأنهم أطلقوا عليهم خلفاء الأنبياء.

وقال شخص: ما علمك؟ قال: لا يتأتى علمنا بالتصرف، ولكن لا يمكن إطلاقه بالتكلف، عندما يرد هذا الحديث، يسلبك كل شيء.

وقال: أصولنا ستة: التمسك بكتاب الله، والافتداء بسنة الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وأكل الحلال، وكف الأذى عن الخلق وإن آذوك، واجتناب الآثام، والتعجيل بأداء الحقوق^(١).

وقال: أصول مذهبنا ثلاثة: الافتداء بالرسول في الأخلاق والأقوال والأفعال وأكل الحلال، والإخلاص في جملة الأعمال.

وقال: أول شيء ينبغي على المبتدئ: التوبة وهي الندم، ونزع الشهوات من القلب، وتبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة، ولا يدرك عبد التوبة ما لم يلزم الصمت، ولا يلزمه الصمت ما لم يختل، ولا تلزمه الخلوة ما لم يأكل حلالًا، ولا يتيسر الحلال ما لم يؤد حق الله، ولا يؤدي حق الله إلا بحفظ الجوارح، ولا يتيسر له ما أعدناه ما لم يطلب من الله العون عليه.

وقال: أول مقام للعبودية ترك الاختيار والتبرم من حولك وقوتك.

وقال: أعظم المقامات أن يبدل المرء طبعه السيئ بالطبع الحسن.

وقال: شيان يهلكان بني آدم: طلب العز والخوف من الفقر.

(١) وردت في طبقات الصوفية (ص ٢١٠)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ١٩٠).

وقال: من كثر خشوع قلبه، لا يحوم الشيطان حوله.

وقال: خمسة أشياء من جوهر النفس: فقير يظهر الغنى، وجائع يظهر الشبع، وحزين يظهر السرور، ورجل يكره شخصاً ويظهر له المحبة، ورجل يقوم الليل ويصوم النهار ويظهر القوة.

وقال: ليس بين العبد وبين الله حجاب أغلظ من حجاب الدعوى، وليس هناك طريق أقرب إلى الله من الافتقار إليه^(١).

وقال: من ادعى لا يخاف، ومن لا يخاف لا يأمن، ومن لا يأمن لا يطلع على خزائن الملك.

وقال: من يداهن غيره، لا يجد رائحة الصدق، ومداهنة النفس رياء.

وقال: من يداهن مبتدعاً يسلبه الحق (تعالى) السنة، ومن يبتسم في وجه مبتدع يسلبه الحق (تعالى) نور الإيمان.

وقال: كل حلال يريدون أخذه من أهل المعاصي، يكون حراماً عليهم.

وقال: مثل السنة في الدنيا كالجنة في العقبى، فمن دخل الجنة آمن الخوف والبلاء، كذلك من عمل جادة السنة، آمن البدع والهوى.

وقال: من يطعن في الكسب فقد طعن في السنة، ومن يطعن في التوكل فقد طعن في الإيمان، ولا يصح كسب أهل التوكل سوى على جادة السنة، ومن هو ليس من أهل التوكل لا يصح كسبه سوى بنية التعاون، أي يتعاون حتى يفرغ قلب الخلق منه.

وقال: إن استطعت أن تتشبث بالصبر فافعل، ولا تكن من أولئك القوم الذين يحيلون الصبر إليك.

وقال: أصل جملة الآفات قلة الصبر على الأشياء. وغاية شكر العارف هي أن يعرف أنه عاجز عن أنه يستطيع أن يؤدي حق شكره، أو أن يصل إلى حد شكره.

وقال: لله عطايا في كل يوم وساعة وليلة وأعظم عطاياهم أن يلهمك ذكره.

وقال: ليست هناك معصية أسوأ من الغفلة عن الحق.

وقال: من يغمض عينه عن الحرام، لا يصيب الحق تعالى عينه بداء قط طوال عمره.

وقال: لم يخلق الحق (تعالى) مكاناً قط أعز من قلب المؤمن؛ لأنه لم يمنح الخلق شيئاً قط أعز من المعرفة، ويوضع أعز عطاء في أعز مكان، وإن كان في العالم مكان أعز من قلب المؤمن، لكان وضع معرفته فيه.

وقال: العارف لا يتغير طعمه قط، وفي كل لحظة يكون أطيب رائحة.

(١) وردت في صفة الصفوة، ج٤؛ (ص ٥٩).

وقال: لا معين إلا الله، ولا دليل إلا رسول الله، ولا زاد إلا التقوى، ولا عمل إلا الصبر على الأشياء الخمسة التي ذكرناها.

وقال: لا يمر يوم إلا وينادي الحق (تعالى): إنك لا تنصف يا عبدي، اذكرك وتنساني، أدعوك إليّ فتذهب إلى حضرة شخص آخر، أرد عنك البلاء وتداوم على الذنب، يا ابن آدم، أي عذر ستعذر به حين تقدم يوم القيامة؟

وقال: خلق الله (تعالى) الخلق، وقال: قولوا لي أسراركم، وإلا فانظروا إليّ، وإن لم تفعلوا هذا، اطلبوا حوائجكم.

وقال: لا يحيا القلب ما لم تمت النفس.

وقال: من ملك نفسه عز، وملك الآخرين أيضًا، وكما قالوا: من ملك جسده ملك كل جسده، ولا يثور عليك خصمك طالما تثور على نفسك، ومن ملكته نفسه ذل، وأول جناية للصديقين هي انسجامهم مع أنفسهم.

وقال: لا يُعبد الله عبادة أفضل من مخالفة الهوى والنفس.

وقال: من لا يعرف نفسه من أجل معرفة ربه، لا يعرفه الله.

وقال: من عرف الله، غرق في بحر من الحزن والسرور.

وقال: غاية المعرفة الحيرة والدهشة.

وقال: أول مقام للمعرفة، هو أن يمنح العبد اليقين في سريره، فتطمئن جملة جوارحه بذلك اليقين، أي أن الخواطر السيئة من ضعف اليقين.

وقال: العارفون بالله هم أصحاب الأعراف، يعرفونه جميعًا بدليله.

وقال: الصادق من يسلط الله (تعالى) عليه ملك، عندما يحين وقت الصلاة، يحثه عليها ليؤديها وينبهه إن كان نائمًا^(١).

وقال: اليأس من توبة القراء، أكبر من اليأس من توبة الكفار وأهل المعاصي.

وقال: على الخلق الاعتقاد في لا إله إلا الله بالقلب، والاعتراف بها باللسان، والوفاء بها بالعمل.

وقال: أول التوبة الإجابة، ثم الإنابة، ثم التوبة، ثم الاستغفار، والإجابة بالفعل، والإنابة بالقلب، والتوبة بالنية، والاستغفار عن التقصير.

(١) وردت في كشف المحجوب (ص ٥٤٤) من الترجمة العربية.

وقال: الصوفي من يصفى من الكدر، ويمتلئ بالفكر، وينقطع في قرب الله عن البشر، ويستوي لديه الذهب والمدر.

وقال: التصوف قلة الطعام، والسكون إلى الله، والفرار من الخلق.

وقال: التوكل حال الأنبياء، فقل لمن يحظى بحال النبي في التوكل: لا تحيد عن سنته.

وقال: أول مقام في التوكل أن تكون أمام القدرة كالميت أمام المغسل، يحركه كما يريد، ولا تكون له أي إرادة أو حركة.

وقال: لا يصح التوكل إلا ببذل الروح، ولا يمكن أن تبذل الروح إلا بترك التدبير.

وقال: علامات التوكل ثلاث: ألا يسأل، وعندما يقدم (له شيء) لا يقبله، وطالما لا يقبله يتركه.

وقال: يمنح المتوكلون ثلاثة أشياء: حقيقة اليقين، ومكاشفة الغيب، ومشاهدة قرب الحق (تعالى).

وقال: التوكل: ألا تتهم الله، أي أن ما قدره لك سيحل بك.

وقال: التوكل: هو السكون في كلا الحالتين السراء والضراء.

وقال: يوهب التوكل لقلب حيًّا مع الله بلا غرض.

وقال: لجملة الأحوال وجه وقفاً إلا التوكل كله وجه بلا قفاً^(١). والمعنى أن الزهد والتقوى يكونان في اجتناب الدنيا، وتكون المجاهدة في مخالفة النفس والهوى، والعلم والمعرفة في رؤية الأشياء والعلم بها، والخوف والرجاء في اللطف والكبرياء، والتفويض والتسليم في الألم والعناء والرضا بالقضاء والشكر على النعماء والصبر على البلاء والتوكل على الله، فلا جرم أن التوكل كله وجه بلا قفاً. إن قال شخص: المحبة أيضاً كالتوكل على الله، نقول: لا تكون المحبة على الله بل مع الله.

وقال: المحبة: التعلق بالطاعة، والبعد عن المخالفة.

وقال: من يحب الله يحظى بالسعادة.

وقال: الحياء أسمى من الخوف لأن الحياء للخاصة، والخوف للعلماء.

وقال: العبودية هي الرضا بفعل الله.

وقال: المراقبة: ألا تخاف أن تفوتك الدنيا وتخشى أن تفوتك الآخرة.

وقال: الخوف ذكر والرجاء أنثى وابنيهما الإيمان.

(١) وردت في اللمع (ص ٧٩).

وقال: كل قلب فيه كبر لا يستقر فيه الخوف أو الرجاء.

وقال: الخوف: هو البعد عن النواهي، والرجاء: هو الإسراع في أداء الأوامر، لا يصح علم الرجاء إلا للخائف.

وقال: أسمى مقام للخوف هو: أن يخاف العبد مما قدر له في علم الله، وكان رجل يدعي الخوف، فقال له: أتفكر في أي خوف خلافاً لخوف القطيعة؟ فقال: بلى، قال: إنك لم تعرف الله ولم تخش قطيعته.

وقال: الصبر: انتظار الفرج من الله تعالى.

وقال: المكاشفة هي كما قالوا: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً»^(١).

وقال: الفتوة: متابعة السنة.

وقال: الزهد في ثلاثة أشياء: الزهد في الملبوس والذي سينتهي إلى المزابل، والزهد في الأخوة التي ستؤول إلى الفراق، والزهد في الدنيا التي ستنتهي إلى الفناء.

وقال: الورع: ترك الدنيا والدنيا نفس، فمن اعتد بنفسه فقد تمسك بعذو الله.

وقال: السفر من النفس إلى الله صعب.

وقال: لا تخلو النفس من ثلاث صفات: إما كافرة أو منافقة أو مرائية.

وقال: للنفس شرور كثيرة، واحد منها ظهر لفرعون ولا يظهر إلا بالفرعنة، وهي ادعاء الربوبية.

وقال: اتئس بشخص لديه كل ما يلزمك.

وقال لم يقرب الحق (تعالى) الأبرار بالخيرات وإنما قربهم باليقين.

وقال: حافظوا على الدهن كي تزداد عقولكم، فلم يدرك الله قط قلب ناقص العقل.

وقال: التجلي على ثلاثة أحوال: تجلي الذات وهو المكاشفة، وتجلي الصفات وهو موضع النور، وتجلي حكم الذات وهو الآخرة وما فيها^(٢).

سئل عن الأنس فقال: الأنس أن تأنس الأجساد بالعقل، ويأنس العقل بالعلم، ويأنس العلم بالعبد، ويأنس العبد بالله.

وسئل عن بداية الأحوال ونهايتها فقال: الورع أول الزهد، والزهد أول التوكل، والتوكل أول درجة للعارف، والمعرفة أول القناعة، والقناعة ترك الشهوات، وترك الشهوات أول الرضا، والرضا أول الموافقة.

(١) من أقوال علي بن أبي طالب القصار. د. استعلامي (ص ٨٥١).

(٢) وردت في التعرف لمذهب أهل التصوف (ص ١٢١).

وسئل: ما أقسى شيء على النفس؟ فقال: الإخلاص؛ لأنه ليس لها نصيب فيه^(١).
وقال: الإخلاص إجابة ومن لا إجابة له لا إخلاص له.
وسئل عن الإخلاص فقال: الإخلاص هو مثلما أخذت الدين من الله لا تمنحه لأي شخص آخر إلا لله.

قالوا: صف لنا الصديقين فقال: هاتوا أسرار الصديقين حتى أخبركم عن أوصافهم.
قالوا: ما المشاهدة؟ فقال: العبودية.
قالوا: ألعاصين أنس؟ فقال: لا، ولا لمن يفكر في المعصية.
قالوا: على أي شيء يكون الثواب؟ فقال: لمن يقوم الليل، ولا يجني في النهار.
قالوا: يقول رجل: إنني كالدهرم لا أتحرك حتى يحركوني. فقال: لا يقول هذا الكلام إلا صديقاً أو زنديقاً.

قالوا: ما تقول في تناول الطعام مرة في يوم بليته؟ قال: أكل الصديقين، قالوا: ومرتين؟ قال: أكل المؤمنين، قالوا: وثلاث مرات؟ قال: قل حتى ينتهوا إلى أن تأكل مثل الدواب.
سئل عن الطبع الحسن فقال: احتمال الفقر، ومكافأة من لا يفعل السوء، وطلب المغفرة له، والعطف عليه.

وقال: اتجاه العباد إلى الله زهد.

سئل: بأي شيء يظهر (الله) أثر لطفه على العبد؟ قال: حين يصبر على الجوع والمرض والبلاء إلا ما شاء الله. سئل: أين تذهب نار جوع شخص لم يأكل قط طيلة أيام كثيرة؟ فقال: يخدم النور تلك النار.

وقال: للجوع ثلاثة منازل: جوع الطبع وهو موضع العقل، وجوع الموت وهو موضع الفساد، وجوع الشهوة وهو موضع الإسراف.

سئل: ما التوبة؟ فقال: أن تنسى الذنب، قال رجل: التوبة ألا تنسى الذنب، فقال سهل: ليس كذلك، فقد عرفت أن ذكر الجفاء في أيام الوفاء يكون جفاء.

قال شخص: عظمي، فقال له: خلاصك في أربعة أشياء: الجوع والسهر والوحدة والصمت، فقال: أريد أن أصحبك، قال: ومن تصاحب حين يموت أحدنا؟ احفظ نفسك معه الآن، وقال: إن خشيت السباع فلا تصاحبني.

قالوا: يقال: إن السباع تأتي لزيارتك، قال: بلى يأتي الكلب للكلب.

(١) وردت في صفة الصفوة، ج٤؛ (ص ٥٩).

قالوا: متى يستريح الفقير؟ قال: حين لا يرى نفسه إلا في الوقت الذي يكون فيه.
قالوا: أي قوم نصحب من جملة الخلائق؟ قال: صاحبوا العارفين؛ لأنهم لا يعتدون بشيء
قط، وكل فعل يسري عليهم، يأولونه لا جرم إنهم يلتمسون لك العذر في كل الأحوال.

ومناجاته :

قال: إلهي، ذكرتني ولم أذكرك، وإن ذكرتك، لما كان هناك شخص مثلي، ولما كفاني هذا
سرورًا، ولما كان هناك شخص أسعد مني.

وكان سهل بن عبد الله واعظًا حقيقيًا، وأقبل خلق على الطريق بفضلته، وفي ذلك اليوم الذي
اقتربت فيه وفاته، كان أربعمئة مريد، وقفوا على فراشه وقالوا: من يخلفك؟ ومن يعظ على
منبرك؟ وكان هناك مجوسي، كانوا يقولون له: «شاد دل» المجوسي، فتح الشيخ عينيه وقال:
يخلفني «شاد دل» قال الخلق: ربما اختل عقل هذا الشيخ. أينصب رجل له أربعمئة مريد عالم
متدين من تلاميذه مجوسيًا خليفة له؟!

فقال: أجلسوا ثورتكم، اذهبوا، واحضروا لي «شاد دل» فأحضروه، ولما وقع نظر الشيخ على
«شاد دل» قال له: عندما يمر اليوم الثالث على وفاتي وبعد صلاة العصر ارتق المنبر، واجلس
مكاني، واخطب في الخلق وعظهم، قال الشيخ هذا، ومات. وفي اليوم الثالث بعد صلاة العصر،
تجمع حشد من الناس، وجاء «شاد دل»، وارتقى المنبر، وكان الخلق يشاهدونه (ويقولون): ما
هذا المجوسي ذو العمامة المجوسية على رأسه، والزناز المعقود على خصره؟! قال: أرسلني
شيخكم رسولًا إليكم، وقال لي: يا شاد دل ألم يحن الوقت بعد لأن تقطع زناز المجوسية؟
فقلت: أقطعه الآن واستل خنجرًا وقطع الزناز، وقد قال أيضًا: ألم يحن الوقت لأن تخلع عمامة
المجوسية عن رأسك؟ فقلت: ها أنا رفعتها وقال: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا
رسول الله» ثم قال: وقد قال الشيخ: قل: نصح من كان شيخكم وأستاذكم وقبول نصيحة
أستاذكم شرط (قائلًا): ها هو شاد دل قطع زناز الظاهر، وإن أردتم رؤيتي في القيامة عليكم
بالمرءة، وأن تقطعوا زناير الباطن كلها، قال هذا: فقامت القيامة على أولئك القوم واعترتهم
حالات عجيبة.

يروى أنه في ذلك اليوم الذي حملوا فيه نعش الشيخ، كان كثير من الخلق يتزاحمون، وكان
هناك يهودي في السبعين من عمره، عندما سمع الصياح والجلبة، خرج ليرى ما الخبر؟ ولما
وصلت الجنازة، صاح نداء: أيها الناس، أترون ما أراه؟ كانت الملائكة تهبط من السماء،
وترفرف على نعشه، وفي الحال، نطق الشهادة وأسلم.

وقال أبو طلحة بن مالك: إن سهل كان صائماً يوم وُلد، ويوم مات، ووصل إلى الحق صائماً^(١).

يروى أن سهل كان قد جلس مع أصحابه ذات يوم، فمر رجل من هناك، فقال سهل: لهذا الرجل سر، نظروا فكان الرجل قد مضى. ولما توفي سهل، كان مريد قد جلس على حافة قبره، فمر ذلك الرجل، قال له المريد: أيها السيد، هذا الشيخ الذي في هذا التراب قال: إن لديك سرّاً، فبحق الله الذي قد وهبك هذا السر أفش لي شيئاً، فأشار ذلك الرجل إلى قبر سهل، (وقال): قل يا سهل: فقال سهل في القبر بصوت عال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له» قال: يقال: من كان من أهل لا إله إلا الله لا يظلم قبره صدق أم لا؟ فصاح سهل من القبر وقال: إنه الصدق (رحمة الله عليه).



(٤٠٦) وردت في كشف المحجوب (ص ٥٦٦) من الترجمة العربية.

ذكر معروف الكرخي^(١)

رحمة الله عليه



هو رفيق نسيم الوصال، ومحرم حرم الجمال، هو مقتدى صدر الطريقة، ومرشد طريق الحقيقة، هو العارف بأسرار المشيخة، قطب الزمان، معروف الكرخي (رحمة الله عليه).
كان السباق في الطريقة، والمقدم لدى الطوائف، واختص بأنواع اللطائف. وكان سيد المحبين في زمانه، وخالصة عارفي عهده، بل إن لم يكن عارفًا لما كان معروفًا.
كانت كراماته وفيرة ورياضاته كثيرة، وكان آية في الفتوة والتقوى، وقد حظي بلطف عظيم وقرب تام، ووصل في مقام الأنس والشوق إلى الغاية.

وكان أبواه نصرانيين، فأرسلوه إلى مؤدب، قال له مؤدبه: قل: ثالث ثلاثة، فقال: لا! «بل هو الله الواحد» ومهما قال له: قل: الله ثلاثة، كان يقول: واحد، ومهما ضربه الأستاذ فبلا جدوى.
ذات مرة ضربه ضربًا مبرحًا، فهرب معروف، ولم يجدوه ثانية، وكان أبواه يقولان: ليت كان يرجع إلينا، ولكُنّا نوافقه على أي دين يشاء. مضى (معروف) وأسلم على يد علي بن موسى الرضا، وبعد فترة رجع إلى دار والده ذات يوم، وطرق الباب فقبل: من؟ قال: معروف، قبل: على أي دين أنت؟ قال: على دين محمد رسول الله، فأسلم أبوه في الحال^(٢).

وحينئذ التقى بداود الطائي، وارتاض كثيرًا، وأكثر من التبعّد والمجاهدة، واتخذ من الصدق منهجًا حتى أصبح «مشارًا إليه». يقول محمد بن منصور الطوسي^(٣): كنت عند معروف في بغداد، فرأيت في وجهه أثرًا (شجرة)، فقلت: كنت عندك بالأمس، ولم يكن هذا الأثر؟ فما سببه؟ فقال: الشيء الذي لا شأن لك به لا تسأل عنه، وسل عن شيء يعينك! فقلت: قل بحق

(١) معروف الكرخي: هو أبو محفوظ معروف بن فيروز ينسب إلى كرخ التابعة لبغداد، كان من موالى علي بن موسى الرضا (رضي الله عنه). توفي عام ٢٠٠هـ، وقيل ٢٠١هـ، ودفن ببغداد وقبره يستشفى به.

انظر ترجمته في طبقات الصوفية (ص ٨٣)، حلية الأولياء، ج ٨ (ص ٣٦٠)، الرسالة القشيرية (ص ١٥)، صفة الصفوة، ج ٢ (ص ٢١٠)، كشف المحجوب (ص ٣٢٥).

(٢) وردت في الرسالة القشيرية (ص ١٦)، صفة الصفوة، ج ٢ (ص ٢١٠، ٢١١).

(٣) محمد بن منصور الطوسي: هو أبو جعفر محمد العابد الطوسي، ولد عام ٢٦٦هـ وفي رواية ٢٦٨هـ وتوفي ما بين عامي ٣٥٤، ٣٥٦هـ. د. استعلامي (ص ٨٥١).

المعبود، فقال: كنت أصلي بالأمس، وأردت الذهاب إلى مكة والطواف حولها، وذهبت إلى زمزم لأشرب، فزلت قدمي، وارطم بها وجهي وهذا هو الأثر^(١).

يروى أن معروفاً كان قد ذهب إلى دجلة للطهارة، ووضع المصحف والمصلى في المسجد، فدخلت عجوز، وأخذتهما، ومضت، فأخذ معروف يتعقبها حتى وصل إليها وتحدث معها، ورفع رأسه كي لا يقع نظره عليها، وقال: أليديك ولد يقرأ القرآن؟ قالت: لا، قال: اعطني المصحف إذن، والمصلى لك، فتعجبت تلك المرأة من حلمه، وتركتهما مكانهما، فقال معروف: خذي المصلى حلالاً عليك، فمضت المرأة مسرعة من الخجل والحياء.

يروى أن معروفاً كان يسير ذات يوم مع جمع، وكانت جماعة من الشباب قادمة، وتعيث فساداً، حتى وصلوا إلى شاطئ دجلة، فقال له الأصحاب: يا شيخ، ادع أن يغرقهم الحق (تعالى) جميعاً؛ لينقطع آذاهم عن الخلق، فقال معروف: ارفعوا أيديكم، ثم قال: إلهي، أسألك أن تسعدهم في الآخرة كما أسعدتهم في الدنيا، فتعجب الأصحاب وقالوا: يا سيدنا، إننا لا نعرف سر هذا الدعاء، قال: يعلمه من أحدثه، فانتظروا وسيوضح سره الآن. وعندما رأى ذلك الجمع الشيخ، حطموا الباب، وسكبوا الخمر، وارتعدوا، وجثوا على يدي الشيخ وقدميه، وتابوا. قال الشيخ: أرايتم أن مراد الجميع قد حدث دون غرق ودون أن يصاب شخص بأذى^(٢).

يروى أن سري السقطي قال: رأيت معروفاً يوم عيد، كان يلتقط نوى التمر، فقلت: ما تفعل به؟ قال: رأيت هذا الطفل، وكان يبكي، فقلت: لماذا تبكي؟ فقال: إنني يتيم ليس لدي أب ولا أم، ويملك الأطفال الآخرين ثياباً، وأنا لا، ولديهم الجوز وأنا لا، ولهذا فإنني ألتقط هذا النوى من أجله كي أبيع، وأشتري له جوزاً ليمضي ويلعب، فقال سري: كف عن هذا، ثم حملت الطفل، وأردته ثياباً، واشترت له الجوز، وأدخلت السرور على قلبه، فرأيت نوراً في الحال أضاء قلبي، وتبدل حالي^(٣).

يروى أن مسافراً نزل على معروف في خانقاه ذات يوم، ولم يكن يعرف القبلة فاتجه (في صلاته) إلى ناحية أخرى، وصلى، ولما حان وقت الصلاة، واتجه الأصحاب إلى القبلة وصلوا، خجل ذلك المسافر، وقال: لماذا لم تخبروني؟ فقال الشيخ: إننا فقراء، وأي شأن للفقير بالتصرف؟ وراعى ذلك المسافر رعاية لا يمكن وصفها.

(١) وردت في صفة الصفوة، جـ ٢ (ص ٢١٣) مع الاختلاف.

(٢) وردت في صفة الصفوة، جـ ٢ (ص ٢١٢) مع الاختلاف.

(٣) وردت في صفة الصفوة، جـ ٢ (ص ٢١٣) مع الاختلاف.

يروى أنه كان هناك خال لمعروف، وكان واليًا على المدينة، وكان يمر في مكان خرب ذات يوم، فرأى معروفًا جالسًا فيه، وكان يتناول خبزًا وأمامه كلب، فكان يضع لقمة في فمه ولقمة في فم الكلب، فقال له خاله: ألا تخجل أن تتناول الخبز مع كلب؟ قال: بل أخجل أن أعطي الخبز لفقير، ثم رفع رأسه، ودعا طائرًا من الهواء، فهبط الطائر، وحط على يده، وكان يغطي رأسه وعينه بريشه، فقال معروف: من يخجل من الله، تخجل منه كل الأشياء، فخجل خاله في الحال.

يروى أن طهارة معروف نقضت ذات يوم، فتيمم في الحال، فقليل له: ها هو نهر دجلة فلماذا تيمم؟ قال: ربما لا أعيش حتى أبلغه^(١).

يروى أن الشوق غلبه ذات مرة، وكان هناك عمود، فنهض، واحتضن ذلك العمود وضغط عليه إلى حد أنه خشي معه أن يتفتت.

وله كلمات عالية منها أنه قال: للفتيان علامات ثلاث: وفاء بلا خوف، ومدح بلا جود، وعطاء بلا سؤال^(٢).

وقال: علامة محبة الله: أن يشغل (العبد) بعمل تكون فيه سعادته، ويحفظه من المشاغل التي لا تنفيده في العمل.

وقال: علامة مقت الله العبد: أن تراه مشتغلًا بما لا يفيد من أمر نفسه^(٣).

وقال: علامات أولياء الله ثلاث: همومهم لله، وفرارهم إليه، وشغلهم فيه^(٤).

وقال: إذا أراد الحق (تعالى) بعبد خيرًا يفتح عليه باب عمل الخير، ويغلق عليه باب الكلام، وكلام الرجل فيما لا يعنيه علامة الخذلان^(٥). وإذا أراد بعبد شرًا يكون الأمر على خلاف هذا.

وقال: حقيقة الوفاء إفاقة السر عن رقدة الغفلات، وفراغ الهم عن فضول الآفات^(٦).

وقال: إذا أراد الله (تعالى) بعبد خيرًا فتح له باب العمل، وأغلق عليه باب الكسل^(٧).

وقال: طلب الجنة بلا عمل ذنب، وانتظار الشفاعة دون حفظ الرسوم نوع من الغرور، وارتجاء الرحمة في عدم الطاعة جهل وحمق^(٨).

(١) وردت في طبقات الصوفية (ص ٨٨)، حلية الأولياء، ج ٨ (ص ٣٦٤) مع الاختلاف.

(٢) وردت في طبقات الصوفية (ص ٨٩)، حلية الأولياء، ج ٨ (ص ٣٦٧)، كشف المحجوب (ص ٣٢٥).

(٣) وردت في طبقات الصوفية (ص ٨٩).

(٤) وردت في طبقات الصوفية (ص ٩٠)، حلية الأولياء، ج ٨ (ص ٣٦٧).

(٥) وردت في حلية الأولياء، ج ٨ (ص ٣٦١).

(٦) وردت في طبقات الصوفية (ص ٨٨)، حلية الأولياء، ج ٨ (ص ٣٦٧).

(٧) وردت في طبقات الصوفية (ص ٩٠)، حلية الأولياء، ج ٨ (ص ٣٦٧).

(٨) وردت في طبقات الصوفية (ص ٨٩).

وقالوا: ما التصوف؟ فقال: الأخذ بالحقائق، والقول بالدقائق، واليأس مما في أيدي الخلائق.
 وقال: من عشق الرئاسة لا يفلح قط.
 وقال: أعرف سبيلاً إلى الله هو: ألا تطلب شيئاً من شخص، وألا يطلب شخص منك شيئاً قط.

وقال: غضوا أبصاركم عن الجميع ذكرًا كان أو أنثى^(١).
 وقال: احفظوا اللسان من المدح، واحفظوه من الذم أيضًا، وسألوه: بأي شيء ندرك الطاعة؟
 فقال: بأن تخرجوا الدنيا من قلوبكم، وإن يرد على قلوبكم شيء قليل منها اقتلعوه في كل سجدة تسجدوها^(٢).

وسئل عن المحبة فقال: المحبة ليست من تعاليم الخلق، إنما هي من مواهب الحق وفضله^(٣).
 وقال: إذا لم تكن هناك أي نعمة للعارف فهو في كل نعمة^(٤).
 يروى أن معروفًا كان يتناول طعامًا طيبًا ذات يوم، فقالوا له: ما تأكل؟ فقال: أنا ضيف، أكل ما يعطونه لي ومع هذا كان يقول لنفسه ذات يوم: أيتها النفس خالصيني حتى تتحرري أيضًا^(٥).

وطلب منه إبراهيم^(٦) وصية ذات مرة فقال: توكل على الله حتى يكون معك، ويكون مؤنسك وملاذك حين تشكو له من الجميع؛ لأن جملة الخلق لا يستطيعون نفحك ولا دفع الضرر عنك^(٧).
 وقال: أرجوه لأن جملة الأدوية لديه، واعلم يقينًا أن كل ما يحل بك من داء أو بلاء أو فاقة، أن الفرج منها يكمن فيها.

وقال شخص آخر: عظمي، فقال: احذر أن يراك الله ولا تكون في زمرة المساكين.
 قال سري: قال لي معروف: إذا كنت في حاجة إلى الله، أقسم له وقل: يارب بحق معروف الكرخي تجب حاجتي فتكون الإجابة في الحال^(٨).

(١) وردت في طبقات الصوفية (ص ٨٨).

(٢) وردت في طبقات الصوفية (ص ٨٩).

(٣) وردت في طبقات الصوفية (ص ٨٩)، صفة الصفوة، ج ٢ (ص ٢١٢).

(٤) وردت في طبقات الصوفية (ص ٩٠).

(٥) وردت في طبقات الصوفية (ص ٨٩)، حلية الأولياء، ج ٨ (ص ٣٦٧)، صفة الصفوة، ج ٢ (ص ٢١٢).

(٦) إبراهيم: ليس معلومًا أي إبراهيم هو ومن المسلم به أنه ليس إبراهيم بن أدهم أو إبراهيم الخواص أو إبراهيم الرقي؛ لأن زمانهم لا يتفق ومعروف. د. استعلامي (ص ٨٥٢).

(٧) وردت في طبقات الصوفية (ص ٨٧)، حلية الأولياء، ج ٨ (ص ٣٦٠)، صفة الصفوة، ج ٢ (ص ٢١٢).

(٨) وردت في حلية الأولياء، ج ٨ (ص ٣٦٤)، الرسالة القشيرية (ص ١٥).

يروى أن الشيعة تراحموا على باب الرضا (رضي الله عنه) ذات يوم، وكسروا أضلع معروف الكرخي، فمرض^(١) فقال له سري السقطي: عظمي، فقال: إذا مت، تصدق بقميصي، فإني أريد أن أخرج من الدنيا عاريًا مثلما دخلتها^(٢).

لا جرم كان فريدًا في التجريد، ومن قوة تجريده، كانوا يسمون قبره بعد وفاته: الترياق المجرب، وأي حاجة يذهبون إلى قبره فيها يجيبها الحق تعالى.

وعندما توفي حدث أن تنازعت عليه كل طوائف الأديان: من يهود ونصارى ومؤمنين لغاية لطفه وتواضعه، وقالت كل مجموعة: إنه منا، فقال خادم: إنه قد قال: من يستطيع رفع نعشي من الأرض أكون من قومه، فلم يستطع النصارى ولا اليهود، فجاء أهل الإسلام، ورفعوه، وصلوا عليه ودفنوه هناك.

يروى أنه كان صائمًا ذات يوم، وكان النهار قد انتصف، وكان يمضي في السوق وكان سقاء يقول: «رحم الله من شرب» فأخذ منه وشرب، فقيل له: ألم تكن صائمًا؟ فقال: بلى، لكنني رجوت دعاءه^(٣) ولما توفي، رأوه في المنام، فقالوا: ما فعل الله بك؟ قال: أدخلني في دعاء السقاء، وغفر لي.

قال محمد بن الحسين^(٤) (رحمة الله عليه): رأيت معروفًا في المنام، فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، فقلت: بزهدك وورعك؟ قال: لا، بقبولي عظة سمعتها من ابن السماك في الكوفة، حيث قال: من أقبل على الله كلية، أقبل الله برحمته عليه، وأقبل بجميع الخلق عليه، فوقع كلامه في قلبي فأقبلت على الله، وتركت جميع المشاغل إلا خدمة علي بن موسى الرضا، وذكرت له هذا الكلام فقال: إذا قبلت الموعدة، فيكفيك هذا^(٥).

قال سري: رأيت معروفًا في المنام وهو واقف تحت العرش، وقد حملق عينيه كما لو أنه المفتون، وكان نداء يصل من الحق تعالى إلى الملائكة: من هذا؟ فيقولون: أنت أعلم يارب، فيقول: إنه معروف الذي سكر من حبنا ووله به، فلا يفيق إلا برؤيتنا، ولا يعلم عن نفسه شيئًا إلا بلاقئنا^(٦). (رحمة الله عليه).

(١) وردت في طبقات الصوفية (ص ٨٥) مع الاختلاف.

(٢) وردت في حلية الأولياء، ج ٨ (ص ٣٦٢)، الرسالة القشيرية (ص ١٦)، صفة الصفوة (ص ٢١٤).

(٣) وردت في الرسالة القشيرية (ص ١٦)، صفة الصفوة، ج ٢ (ص ٢١٣).

(٤) محمد بن الحسين: أبو جعفر محمد بن الحسين البرجلاني، كان من برجلان التابعة لواسط، وكان مريدًا لمعروف، وتلمذ على يده، توفي عام ٣٢٨ هـ. د. استعلامي (ص ٨٥٢).

(٥) وردت في الرسالة القشيرية (ص ١٦).

(٦) وردت في حلية الأولياء، ج ٨ (ص ٣٦٦)، الرسالة القشيرية (ص ١٦)، صفة الصفوة، ج ٢ (ص ٢١٣، ٢١٤).

ذكر سري السقطي^(١)

قدس الله روحه



هو النفس الخاضعة بالمجاهدة، والقلب الحي بالمشاهدة، هو سالك حضرة الملكوت، والشاهد على عزة الجبروت، هو مركز دائرة «لا نقطي»^(٢)، شيخ الزمان سري السقطي (رحمة الله عليه).

كان إمامًا لأهل التصوف، ووصل إلى الكمال في أصناف العلم، وكان بحرًا للحزن والألم، وجبلاً للحلم والثبات، وخزانة للمروءة والشفقة، وأعجوبة في الرموز والإشارات، وكان أول شخص تحدث عن الحقائق والتوحيد في بغداد، وكان أغلب مشايخ العراق من مريديه، وكان خال الجنيد، ومريدًا لمعروف الكرخي، وكان قد رأى حبيبًا الراعي.

وفي بدء أمره كان يقيم في بغداد، وكان له حانوت، كان يعلق عباءته على بابه، ويصلي، وفي كل يوم كان يصلي عدة ركعات، فجاء رجل من جبل اللكام لزيارته، ورفع العباءة من على الباب، وسلم، وقال لسري: يبلغك الشيخ الفلاني من جبل اللكام السلام، فقال السري: إنه قد سكن الجبل، ولا يعمل، ويجب على الرجل الانشغال بالحق في السوق بحيث لا يغيب عنه لحظة^(٣).

يروى أن السري لم يكن يطلب في البيع والشراء سوى نصف على كل عشرة، وذات مرة اشترى جوزًا بستين دينارًا، وحدث أن ارتفع ثمن الجوز، فأتاه دلال وقال له: بكم تبيعه لي؟ قال: بثلاثة وستين دينارًا، قال الدلال: ثمن اللوز اليوم تسعين دينارًا، فقال: إني قد عقدت العزم ألا

(١) سري السقطي: هو أبو الحسن السري بن المفلس السقطي، إمام البغداديين وشيخهم في وقته، وأول من تكلم في لسان التوحيد، توفي عام ٢٥٧هـ.

انظر ترجمته في طبقات الصوفية (ص ٤٨)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ١١٦)، الرسالة القشيرية (ص ١٦)، صفة الصفوة، ج ٢، (ص ٢٤٢).

(٢) دائرة لا نقطي: صفة لا نقط تعني التحرر وعدم الاهتمام بالتعينات والظواهر ودائرة لا نقطي تعني عالم الحرية.

د. استعلامي (ص ٨٥٢).

(٣) وردت في أسرار التوحيد (ص ٢٨٤).

أخذ أكثر من نصف دينار على كل عشرة دنانير، ولن أنقض عزمي، فقال الدلال: وأنا أيضًا لا أجز أن أبيع بضاعتك بالقليل، فلم يبع الدلال، ولم يجز السري^(١).

في بادئ الأمر كان يسب البيع، وحدث أن احترق سوق بغداد ذات يوم، فقيل له: احترق السوق، فقال: وأنا فرغت أيضًا، نظروا بعد ذلك فلم يكن حانوته قد احترق، ولما رأى ذلك، وهب الفقراء كل ما يملك، وسلك طريق التصوف^(٢).

سئل: كيف كانت بداية حالك؟ فقال: مر حبيب الراعي بدكاني ذات يوم، فأعطيته شيئًا يمنحه للفقراء، فقال: «خيرك الله» ومنذ ذلك اليوم الذي قال فيه هذا الدعاء فترت الدنيا على قلبي^(٣). وذات يوم آخر كان معروف الكرخي يأتي إليه ويرفقه صبي يتيم، وقال: إكس هذا اليتيم، قال سري: فكسوته، فقال معروف: بغض الله (تعالى) إليك الدنيا، وأراحك من هذا الشغل، ففرغت من الدنيا مرة واحدة ببركات دعاء معروف^(٤).

ولم يبالغ شخص في رياضته مثله إلى حد أن الجنيد قال: لم أر شخصًا قط أكمل عبادة من السري، مرت عليه ثمان وتسعون سنة ما رؤي خلالها مضطجعًا إلا في علة الموت^(٥). وقال: تشتهي نفسي جزرة مغموسة في الدبس منذ أربعين عامًا ولم أذُقها إياها^(٦).

وقال: أنظر في المرأة كل يوم عدة مرات؛ مخافة أن يكون قد اسود وجهي من الذنوب^(٧). وقال: أريد أن تلقى ما على قلوب الناس من هموم على قلبي؛ حتى يفرغوا من الهم.

وقال: أخشى إن جاءني أخ، وحككت محاسني بيدي، فيسجل اسمي في صحيفة المنافقين. وقال بشر الحافي: لم أكن أسأل شخصًا قط سوى السري الذي كنت قد عرفت زهده، وأنه يسر بما يخرج من يديه.

قال الجنيد: دخلت يومًا على السري وهو يبكي، فقلت له: ما يبكيك؟ فقال: جال بخاطري أن أعلق كوزًا الليلة ليبرد الماء، ثم استغرقت في النوم، فرأيت حورية، فقلت: لمن أنت؟ فقالت:

(١) وردت في صفة الصفوة، جـ ٢ (ص ٢٤٢).

(٢) وردت في كشف المحجوب (ص ٣٢٢) من الترجمة العربية.

(٣) وردت في كشف المحجوب (ص ٤٢٢) من الترجمة العربية.

(٤) وردت في حلية الأولياء جـ ١٠ (ص ١٢٣)، الرسالة القشيرية، جـ ٢ (ص ١٧).

(٥) وردت في الرسالة القشيرية (ص ١٧)، صفة الصفوة، جـ ٢ (ص ٢٤٨).

(٦) وردت في حلية الأولياء، جـ ١٠ (ص ١١٦)، صفة الصفوة، جـ ٢ (ص ٢٤٣).

(٧) وردت في التعرف لمذهب أهل التصوف (ص ٥٣)، حلية الأولياء، جـ ١٠ (ص ١١٦)، الرسالة القشيرية (ص ١٨)، صفة الصفوة، جـ ٢ (ص ٢٤٥).

لمن لا يعلق الكوز ليطيب ماؤه، وضربت تلك الحورية بكوزي على الأرض، انظر ها هو، قال الجنيد: فرأيت خزفًا مكسورًا وكأنه كان قد وقع منذ زمن بعيد^(١).

قال الجنيد: كنت نائمًا ذات ليلة، ثم استيقظت، وتملكتني رغبة في الذهاب إلى مسجد «شونيزيه»، فذهبت، ورأيت شخصًا مهيبًا، فخفت، فقال لي: أتخاف يا جنيد مني؟ قلت: بلى، قال: إن عرفت الله كما ينبغي لما خفت غيره، فقلت: من أنت؟ قال: إبليس، قلت: وهل يمكن لي أن أراك؟ فقال: في تلك البرهة التي خفت فيها مني غفلت عن الله، وأنت لا تدري، فما مرادك من رؤيتي؟ قلت: أردت أن أسألك: ألك يد على الفقراء؟ قال: لا، قلت: لماذا؟ قال: إذا أردت أن أخذهم بالدنيا يفرون إلى العقبي، وإذا أردت أن أخذهم بالعقبى يفرون إلى المولى، ولا سبيل لي إليه. فقلت: طالما ليست لك يد عليهم فإنك لا تراهم إذن، قال: أراهم في حال في السماع والوجد وأرى مما ينوحون. قال هذا واختفى. ولما دخلت المسجد، رأيت السري، وقد وضع رأسه على ركبته، فرفع رأسه وقال: يكذب عدو الله فهم أعز من أن يظهروا معه.

قال الجنيد: مررت والسري بجماعة من المخشئين، فجال بخاطري: كيف سيكون حالهم؟ قال السري؟ لم يجلب بخاطري قط أن لي فضلًا على أي مخلوق في كل العالم، قلت: يا شيخ، ولا على المخشئين؟ قال: لا^(٢).

قال الجنيد: دخلت على السري، فرأيت متغيرًا، فقلت: ما حدث؟ قال: جاءني ملك من الملائكة وسألني: ما الحياء؟ فأجبته، فصار ذلك الملاك ماء كما ترى!!

يروى أن السري كانت له أخت، فاستأذنته أن تكنس له داره، فلم يأذن لها، وقال: لا تساوي حياتي أجر هذا، ودخلت داره يومًا فرأت عجوزًا كانت تكنس داره، فقالت: يا أخي، إنك لم تأذن لي أن أقوم بخدمتك، والآن أحضرت امرأة غريبة! فقال: لا تشغلي قلبك يا أختاه، فهذه هي الدنيا، قد احترقت في عشقنا وحرمت منا، والآن استأذنت الحق (تعالى) أن يكون لها نصيب من زماننا، فمنحت مكنسة رواقنا.

يقول أحد المشايخ: رأيت عددًا من المشايخ، فلم أجد أحدًا قط مشفقًا على خلق الله شفقة السري.

يروى أن من كان سلم عليه، كان يقطب وجهه، ويجيبه السلام، فسئل عن سر هذا، فقال: قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: من يسلم على مسلم، تهبط عليه مائة رحمة، تسعون منها

(١) وردت في التعرف لمذهب أهل التصوف (ص ١٥٥)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ١٢٠، ١٢١)، الرسالة القشيرية (ص ١٨)، صفة الصفوة، ج ٢ (ص ٢٤٣).

(٢) وردت في حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ١٢٤)، صفة الصفوة، ج ٢ (ص ٢٤٤).

لمن تنفرج أساريه، لذا قد عبست لتحل عليه تسعون رحمة. إن قال شخص هذا إيثار وما فعله أكبر من درجة الإيثار وإلا فكيف يريد أن يفضل على نفسه؟ أقول: «نحن نحكم بالظاهر» فإننا نستطيع أن نحكم بالظاهر على تقطيب الوجه، لكننا لا نستطيع الحكم على الإيثار وهل هو نابع من الصدق أم لا؟ ومن الإخلاص أم لا؟ فلا جرم أنه فعل ما استطاع في الظاهر.

يروى أن السري رأى يعقوب (عليه السلام) في المنام ذات مرة، فقال: ما هذه الفتنة التي ألقيت بها في الدنيا من أجل يوسف يا نبي الله؟ وطالما أن لك شأنًا في الحضرة، فاترك حديث يوسف، فجاءه هاتف: أيها السري، احفظ قلبك، وأظهروا له يوسف، فصاح صيحة، وغشي عليه، وكان قد ظل ثلاثة عشر يومًا بلباليها فاقداً الوعي، ولما تاب إلى رشده قيل: هذا جزاء من يلم عشاق حضرته.

يروى أن شخصاً أحضر طعاماً للسري وقال: منذ كم يوم لم تأكل؟ فقال: منذ خمسة أيام، فقال: قد كان جوعك بخل، ولم يكن جوع فقر.

يروى أن السري أراد أن يرى أحد الأولياء، فتصادف أن رأى أحدهم على قمة جبل، فلما وصل إليه قال: السلام عليك، من أنت؟ فقال: هو، قال: وما تفعل؟ قال: هو، قال: وما تأكل؟ قال: هو، قلت: أتقصد الله بقولك هو؟ سمع هذا الكلام فصاح صيحة، وأسلم الروح.

يروى أن الجنيد قال: سألني السري عن المحبة يومًا، فقلت: قال قوم: هي الموافقة، وقوم آخرون: هي الإشارة، وقال: أشياء أخرى. فأخذ السري جلدة يده، وجذبها فلم تنجذب، ثم قال: وعزته إن قلت إن هذه الجلدة يبست بسبب محبته لصدقت، وغشي عليه، وصار وجهه كأنه قمر^(١).

يروى أن السري قال: يصل العبد في المحبة إلى حد أنه إن ضربته بسهم أو بسيف فإنه لا يدري، وعلم قلبي بهذا حتى اتضح أن الأمر هكذا.

وقال السري: عندما أعلم أن الناس يجيئونني ليتعلموا مني العلم، أدعو (قائلاً): يارب، هب لهم علمًا يشغلهم عني؛ حتى لا يشغلوني، فإني لا أحب مجيئهم إلي^(٢).

يروى أن رجلاً ظل ثلاثين عامًا ملتزمًا بالمجاهدة، فقيل له: بما نلت هذا؟ قال: بدعاء السري، قالوا: كيف؟ قال: دخلت داره يومًا، وطرقت الباب، وكان في خلوة، فصاح: من؟ قلت: عارف، قال: إن كنت عارفًا لشغلت به، ولما اهتمت بنا، ثم قال: إلهي، اشغله بك حتى لا يهتم بشخص قط، دعا هذا الدعاء، فنزل شيء بصدري ووصل بي الأمر إلى هذه الدرجة.

(١) وردت في الرسالة القشيرية (ص ١٧).

(٢) وردت في التعرف لمذهب أهل التصوف (ص ١٤٤)، صفة الصفوة، ج ٢ (ص ٢٤٣).

يروى أن السري كان يعظ في مجلس ذات يوم، وكان أحد ندماء الخليفة ويدعى أحمد بن يزيد الكاتب يمر في أبهة تامة، وقد التفت حوله مجموعة من الخدم والغلمان، وقال: لأذهب إلى مجلس هذا الرجل، فإنني ذاهب إلى عدة أماكن لا ينبغي الذهاب إليها، ومن ثم ساقني قلبي إلى ذلك المكان، ثم مضى إلى مجلس السري، وجلس، فجرى على لسان السري: ليس هناك شخص قط أضعف من الإنسان في الثمانية عشر ألف عالم ولا يعصي مخلوق قط من أنواع خلق الله أو أمره كالإنسان، فإن أحسن يحسن إلى حد تحسده عليه الملائكة، وإن أساء يسيء إلى أن يستنكف الشياطين صحبته، والعجيب أن إنساناً بهذا الضعف يعصي إلهاً بهذه العظمة، فكان هذا سهماً أطلق من قوس سري واتجه إلى روح أحمد، فبكى طويلاً إلى أن غشي عليه، ثم نهض باكياً، وذهب إلى داره، ولم يأكل في تلك الليلة قط، ولم يتحدث، وفي اليوم التالي جاء إلى المجلس مترجلاً، حزيناً شاحباً، ولما انتهى المجلس مضى إلى داره، وفي اليوم الثالث جاء مترجلاً بمفرده، ولما انتهى المجلس، تقدم إلى السري وقال: أيها الأستاذ، قد أسرني كلامك هذا وجعل الدنيا فاترة على قلبي، ومن ثم أريد أن أعزل الخلق، وأترك الدنيا، فارشدني إلى طريق السالكين، فقال: أتريد سبيل الطريقة أم الشريعة؟ أتريد طريق العامة أم الخاصة؟ فقال: ارشدني إلى الطريقين، فقال: سبيل العامة هو: أن تحافظ على الصلوات الخمس وتخرج الزكاة إن كانت عن المال فنصف دينار لكل عشرين ديناراً وسبيل الخاصة هو: أن تطأ الدنيا كلها بقدمك، ولا تنشغل بشيء قط من زينتها، وإن أعطيت فلا تقبل، وأنت تعرف هذين الطريقين.

ثم خرج من هناك، واتجه إلى الصحراء، ولما انقضت عدة أيام، جاءته عجوز شعناء مخدوشة الوجه وقالت: يا إمام المسلمين، لدي ولد شاب نضر الوجه، جاء إلى مجلسك ضاحكاً مختلاً، وعاد باكياً متهاكاً، الآن قد غاب عدة أيام ولا أعلم أين هو؟ احترق قلبي لفراقه، فدبرني في هذا الأمر، فأشفق السري عليها من كثرة نحيبها، وقال: لا تتضايقي، فلن يحدث إلا خيراً، وعندما يعود، سأخبرك، إنه قد ترك الدنيا فبقيت لأهلها، وقد أصبح تائباً حقيقياً. ولما انقضت مدة، جاء أحمد ذات ليلة، فقال السري للخادم: اذهب، وأخبر العجوز، ثم رأى السري أحمد وقد ذبل وجهه وأصابه الهزال، وانحنى قده، فقال: أراحك الله أيها الأستاذ المشفق كما أرحمتني من الظلمات، ووهبك الراحة في العالمين، وبينما كانوا في هذا الحديث جاءت أم أحمد وعياله، وكان له صبي صغير أحضره، فلما وقعت عين الأم على أحمد، ورأته على تلك الحال، التي لم تكن قد رأتها من قبل، ألقت بنفسها في حضنه، وأخذ عياله يبكون في ناحية، وكان الصبي يبكي، وارتفع الصباح منهم جميعاً، فبكى السري، وألقى طفله بنفسه على قدميه، ومهما حاولوا أن يحملوه إلى الدار فبدون جدوى، وقال: يا إمام المسلمين، لماذا أخبرتهم؟ إنهم سيضرونني،

فقال: كانت أمك قد انتحبت كثيرًا، وقد قبلت منها، ثم أراد أحمد أن يعود، فقالت له زوجته: جعلتني أرملة وأنت حي، ويتمت أولادي في ذلك الوقت الذي يريدونك فيه، فماذا أفعل؟ لا جرم ينبغي عليك أن تأخذ ابنك معك، فقال: وهو كذلك، فخلع عن ابنه الثياب الحسنة، وألقى عليه قطعة خشنة، ووضع زنبيلًا في يده، وقال: سر، فلما رأت الأم تلك الحال قالت: لا أطيق هذا، اختطف الابن، فقال أحمد لزوجته: وأنت أيضًا جعلتك وكيلة لنفسك إن أردت طلقيني، ثم عاد أحمد، واتجه إل الصحراء، وانقضت عدة أعوام، وذات ليلة في صلاة العشاء اتجه شخص إلى خانقاه السري ودخل وقال: أرسلني أحمد إليك، ويقول: ضاق بي الأمر، فأدركني، فذهب الشيخ ورأى أحمد نائمًا في قبر على التراب، وقد وصلت روحه إلى شفته، وكان يحرك لسانه، أنصت إليه فكان يقول: ﴿لِيُثَلِّ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَمَلُونَ﴾^(١) رفع السري رأسه، ونظفها من التراب، ووضعها على طرفه ففتح أحمد عينيه، فرأى الشيخ، فقال: أيها الأستاذ، جئت في وقتك، فقد ضاق بي الأمر، ثم انقطع نفسه، فاتجه السري إلى المدينة باكيًا؛ حتى يهيئ له الأمر، فرأى خلقًا كانوا يخرجون من المدينة، فقال: أين تذهبون؟ قالوا: ألا تعلم أن نداء جاء من السماء بالأمس: قل لمن يريد أن يصلي على ولي الله الخاص أن يذهب إلى مقابر شونيزيه، وهكذا كانت له كرامة حيث كان المريدون ينهضون إليه، ولو أنها صدرت عن الجنيد لكان صحيحًا. ومن أقواله إنه قال: أيها الشباب، اعملوا في الشباب قبل أن تصلوا إلى الشيخوخة فتضعفون وتقصرون مثلي، وفي هذا الوقت الذي قال فيه هذا الكلام، لم يحظ شاب قط بطاقة عبادته.

وقال: منذ ثلاثين سنة وأنا أستغفر بسبب شكر، قيل: وكيف؟ فقال: وقع حريق بسوق بغداد، لكن دكاني لم يحترق فأخبروني، فقلت: الحمد لله، وأستغفر خجلًا من أنني أردت لنفسني أفضل مما كان لإخواني المسلمين وحمدت الدنيا^(٢).

وقال: إذا فاتني جزء من وردي فلا قضاء له أبدًا^(٣).

وقال: ابتعدوا عن الجيران الأغنياء، وقراء السوق، وعلماء الأمراء.

وقال: قل لمن أراد أن يسلم دينه ويستريح قلبه وبدنه، ويقل غمه، فليعتزل الناس؛ لأن هذا زمان عزلة ووحدة^(٤).

(١) سورة الصافات: الآية (٦١).

(٢) وردت في الرسالة القشيرية (ص ١٧)، صفة الصفوة، ج ٢ (ص ٢٤٨).

(٣) وردت في طبقات الصوفية (ص ٥٠)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ١٢٤)، صفة الصفوة، ج ٢ (ص ٢٤٦).

(٤) وردت في طبقات الصوفية (ص ٥٠)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ١١٩)، صفة الصفوة، ج ٢ (ص ٢٤٤).

وقال: كل الدنيا فضول إلا خمسة أشياء: خبز يشبعه، وماء يرويه، وثوب يستره، وبيت يكنه، وعلم يستعمله^(١).

وقال: كل معصية سببها شهوة يرجى غفرانها، وكل معصية سببها كبر لا يرجى غفرانها؛ لأن معصية إبليس كانت من الكبر، وذلة آدم من الشهوة.

وقال: إن دخل شخص بستاناً فيه أشجار كثيرة، وعلى كل ورقة منها طائر يقول له بلسان فصيح: «السلام عليك يا ولي الله» وذلك الشخص وهو لا يخاف يجب أن يخيفه ذلك المكر والاستدراج^(٢).

وقال: علامة الاستدراج تجاهل عيوب النفس^(٣).

وقال: المكر قول بلا عمل.

وقال: الأدب ترجمان القلب^(٤).

وقال: أقوى قوة غلبتك نفسك، ومن عجز عن أدب نفسه، كان عن أدب غيره أعجز ألف مرة^(٥).

وقال: ما أكثر من لا يوافق قولهم فعلهم، وما أقل من يوافق قولهم فعلهم^(٦).

وقال: من لم يعرف قدر النعمة سلبها من حيث لا يعلم^(٧).

وقال: من أطاع من فوقه أطاعه من دونه^(٨).

وقال: لسانك ترجمان قلبك، ووجهك مرآة قلبك، يتبين على الوجه ما تضر في قلبك^(٩).

وقال: القلوب ثلاثة: قلب مثل الجبل لا يزيله شيء، وقلب مثل الشجرة أصلها ثابت لكن الريح تميلها من وقت لآخر، وقلب كالريشة تتقاذفه الرياح في كل صوب^(١٠).

(١) وردت في طبقات الصوفية (ص ٥٠)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ١١٩)، صفة الصفوة، ج ٢ (ص ٢٤٤).

(٢) وردت في حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ١١٨)، صفة الصفوة، ج ٢ (ص ٢٤٩).

(٣) وردت في طبقات الصوفية (ص ٥٤).

(٤) وردت في طبقات الصوفية (ص ٥٣)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ١٢٤).

(٥) وردت في طبقات الصوفية (ص ٥٣)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ١٢٤)، صفة الصفوة، ج ٢ (ص ٢٤٤).

(٦) وردت في طبقات الصوفية (ص ٥٣).

(٧) وردت في طبقات الصوفية (ص ٥٢)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ١٢٤)، صفة الصفوة، ج ٢ (ص ٢٤٤).

(٨) وردت في طبقات الصوفية (ص ٥٣)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ١٢٤)، صفة الصفوة، ج ٢ (ص ٢٤٤).

(٩) وردت في طبقات الصوفية (ص ٥٣)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ١٢٤).

(١٠) وردت في طبقات الصوفية (ص ٥٣)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ١٢٤).

وقال: قلوب الأبرار معلقة بالخواتيم، وقلوب المقربين معلقة بالسوابق^(١). ومعنى ذلك أن حسنات الأبرار هي سيئات المقربين، وتسقط الحسنة على السيئة فتمحوها، وبذلك يختم الأمر عليك في كل منزلة تنزلها، والأبرار هم أولئك القوم الذين ينزلون في نعمة ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾^(٢)، لا جرم أن قلوبهم معلقة بالخواتيم، أما السابقون المقربون فإن لهم عيناً في الأزل، فلا جرم لا ينزلون أبداً ولا يستطيعون الوصول إلى الأزل، لهذا طالما أنهم لا ينزلون في منزلة قط فيجب أن يسحبوا إلى الجنة بجنزير.

وقال: يدخل الحياء والأنس القلب إن سكنه الزهد والورع وإلا رجعا. وقال: خمسة أشياء لا يسكن في القلب معها غيرها: الخوف من الله، والرجاء في الله، والحب لله، والحياء من الله، والأنس بالله وحده^(٣).

وقال: مقدار فهم كل رجل بمقدار قرب قلبه من الله. وقال: أكثر الخلق فهماً من يفهم أسرار القرآن ويتدبر فيها الأسرار. وقال: أصبر الخلق من يستطيع الصبر على الخلق. وقال: يدعون الأمم غداً بالأنبياء والأحبة بالله. وقال: الشوق أسمى مقامات العارف.

وقال: العارف من كان أكله أكل المرضى، ونومه نوم من أصابته جنة، وعيشه عيش الغرقى^(٤).

وقال: ذكر في بعض الكتب المنزلة أن الله قال: يا عبدي عندما يغلبك ذكري أصير عاشقاً لك، والعشق هنا بمعنى المحبة.

وقال: صفة العارف الشمس التي تشرق على العالم كله، وشكله الأرض التي تثمر كل الموجودات، وطبعه الماء الذي تحيا به القلوب، ولونه النار التي يضيء بها العالم.

وقال: التصوف اسم لثلاث معان: وهو الذي لا يطفى معرفته نور ورعه، ولا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله^(٥).

(١) وردت في صفة الصفوة، جـ ٢ (ص ٢٤٦).

(٢) سورة الانفطار: الآية (١٣).

(٣) وردت في طبقات الصوفية (ص ٥٤)، حلية الأولياء، جـ ١٠ (ص ١٢٤، ١٢٥).

(٤) وردت في اللمع (ص ٢٤٤)، حلية الأولياء، جـ ١٠ (ص ١٢٥)، صفة الصفوة، جـ ٢ (ص ٢٤٥) مع الاختلاف.

(٥) وردت في الرسالة القشيرية (ص ١٧).

وقال: علامة الزاهد كف النفس عن الطلب، وقناعتها بما يسري عليها من جوع، ورضاؤها بما يستر العورة، ونفورها من الفضول، وإخراجها الخلق من القلب.

وقال: أصل العبادة الزهد في الدنيا، وأصل الفتوة الرغبة في الآخرة.

وقال: لا يطيب عيش الزاهد المشغول بنفسه، ويطيب عيش العارف حين ينشغل عن غيره.

وقال: مسكت بيدي أمور الزهد، فأدركت كل ما أردت إلا الزهد.

وقال: من تزين للناس بما ليس فيه سقط من ذكر الحق^(١).

وقال: من كثر اختلاطه بالخلق، قل صدقه.

وقال: حسن الخلق كف الأذى عن الناس، واحتمال الأذى عنهم بلا حقد ولا جزاء^(٢).

وقال: لا تنقطع عن أخ بالظن والشك، ولا تتخلى عن صحبته بلا عتاب.

وقال: أجلد الناس من ملك غضبه^(٣).

وقال: ترك الذنب على ثلاثة وجوه: الخوف من الجحيم، والرغبة في الجنة، والخجل من الله.

وقال: لن يكمل العبد حتى يؤثر دينه على شهواته^(٤).

يروى أن السري كان يتحدث عن الصبر يوماً، فلدغته عقربة عدة مرات، فقيل له: لماذا لم تدفعها؟ قال: خجلت، فكيف أدفعها وأنا أتحدث عن الصبر؟

وقال في المناجاة: إلهي، منعني عظمتك عن مناجاتك، وأنست بمعرفتي لك.

وقال: إن لم تكن أنت الذي قلت: اذكرني باللسان وإن لم أكن ذكرك، أي أن اللسان لا يتسع لذكرك، فكيف أذكرك بلسان قد تلوث باللهو؟

قال الجنيد: قال السري: لا أريد أن أموت ببغداد؛ لأنني أخاف ألا تقبلني الأرض فافتضح، وقد ظن الناس بي ظناً حسناً فيسيئون الظن بي.

وقال: لما مرض دخلت لعيادته، كانت هناك مروحة، فأخذتها، وكنت أجلب له الهواء، فقال: يا جنيد، ضعها كي تلتهب النار، فقال الجنيد: ما الحال؟ فقال: «عبد مملوك لا يقدر على شيء» فقلت: عظمي، قال: لا تشغل بصحبة الخلق عن صحبة الحق تعالى، فقال الجنيد: إن قلت هذا الكلام من قبل لما كنت صاحبك أنت أيضاً، وأسلم السري الروح. (رحمة الله عليه).

(١) وردت في طبقات الصوفية (ص ٥٤)، صفة الصفوة، جـ ٢ (ص ٢٤٥).

(٢) وردت في طبقات الصوفية (ص ٥٣).

(٣) وردت في طبقات الصوفية (ص ٥٤)، صفة الصفوة، جـ ٢ (ص ٢٤٥).

(٤) وردت في طبقات الصوفية (ص ٥٥).

ذكر فتح الموصلي^(١)

قدس الله روحه العزيز



هو عالم الفروع والأصول، وحاكم الوصال والفصال، هو ممدوح الرجال، وأسير الجلال، هو الوالي في الحقيقة، شيخ الزمان فتح الموصلي (رحمة الله عليه).

كان من كبار المشايخ، وكان صاحب همة وعالي القدر، ووصل في الورع والمجاهدة إلى الغاية، وغلبه الحزن والخوف واعتزال الخلق، وكان يخفي نفسه عن الخلق إلى حد أنه كان قد عقد مجموعة من المفاتيح على شاكلة التجار، وفي كل مكان كان يذهب إليه كان يضعها أمام السجادة، فلم يكن شخص يعرف من هو.

ذات مرة أتاه واحد من أحباب الله (تعالى)، وقال له: ماذا تفتح بهذه المفاتيح التي تعلقها؟ وسئل شيخ: أیحظى الفتح بأي علم؟ فقال: أفضل علم له أنه قد ترك الدنيا كلية.

يقول عبد الله بن الجلا: كنت في دار السري، ولما مرّ جزء من الليل ارتدى ثياباً نظيفة، وأطاح بالرداء، فقلت: أين تذهب في هذا الوقت؟ فقال: لعيادة فتح الموصلي، ولما خرج، قبض عليه العسس، وحمل إلى السجن، وعندما طلع النهار صدر الأمر بضرب المساجين، ولما رفع الجلاد يده ليضربه، تبيست يده فلم يستطع تحريكها، فقالوا للجلاد: لماذا لا تضرب؟ فقال: لقد وقف شيخ أمامي كان يقول لي: لا تضربه، فلم أطعه، نظروا فكان فتح الموصلي، فحملوا إليه السري، وأطلقوا سراحه.

يروى أن فتح سئل عن الصدق، فمد يده إلى رجل حداد، وأخرج قطعة حديد مشتعلة، ووضعها على يده، وقال: هذا هو الصدق.

قال فتح: رأيت أمير المؤمنين علياً في المنام فقلت له: عظمي، فقال: لم أر شيئاً أطيب من تواضع الغني للفقير ابتغاء ثواب الحق، فقلت: زدني، فقال: الأطيب منه تكبر الفقير على الغني

(١) فتح الموصلي: هناك فتحة موصليان هما: أبو محمد فتح بن محمد بن وشاح أبو نصر فتح بن سعيد الموصلي، وقد اختلطت الروايات عنهما، والمقصود هنا هو فتح بن سعيد الذي توفي عام ٢٢٠هـ.

انظر ترجمته في حلية الأولياء، ج ٨ (ص ٢٩٢)، صفة الصفوة، ج ٤ (ص ١٥٨).

اعتمادًا على الحق.

يروى أن فتح قال: ذات مرة كنت في المسجد مع الأصحاب، فدخل شاب بقميص خلق وسلم، وقال: للغرباء رب، تعال بعد غد إلى المكان الفلاني، واسأل عن داري، سأكون نائمًا، فغسلني، وكفنتني بهذا القميص، وادفنتني في التراب. فذهبت، وكان الأمر كذلك، فغسلته وكفنته بذلك القميص ودفنته، وكنت أريد العودة، فأمسك بطرفي وقال: إن كانت لي منزلة عند الحضرة الإلهية يا فتح، أكافئك على هذا التعب الذي رأيته، ثم قال: يموت المرء على ما يحيا عليه، قال هذا وخمدت أنفاسه.

يروى أن فتح كان يبكي يومًا، وكانت الدموع تسيل من عينه مضرجة بالدماء، قيل: لماذا أنت دائم البكاء؟ فقال: حينما أتذكر ذنوبي يسيل الدم من عيني؛ لأنه لا ينبغي أن يكون بكائي رياءً لا إخلاصًا.

يروى أن شخصًا أعطى فتح خمسين درهمًا وقال: ورد في الأخبار أن من يمنح شيء دون سؤال، ويرده، فقد رده إلى الحق تعالى، فأخذ درهمًا ورد له الباقي.

وقال: صحبت ثلاثين شيخًا، كانوا من جملة الأبدال.

قالوا لي جميعًا: تعفف عن صحبة الخلق، وأمروني جميعًا بقلة الأكل.

وقال: أيها الناس، أيموت من يمتنع عن الطعام والشراب من المرضى؟ قالوا: بلى، قال: وكذلك يموت القلب الذي يمتنع عن العلم والحكمة وكلام المشايخ.

وقال: سألت راهبًا ذات مرة: كيف السبيل إلى الله؟ فقال: حيثما تولي وجهك إليه هو موجود.

وقال: أهل المعرفة هم: أولئك القوم الذين حين يتحدثون يتحدثون عن الله، وحين يعملون يعملون لله، وحين يطلبون يطلبون من الله.

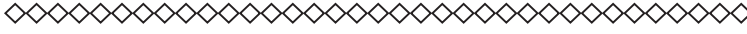
وقال: من أدام الذكر ورثه ذلك فرح المحبوب، ومن أثر الله على هواه ورثه ذلك حبه إياه، ومن اشتاق إليه زهده فيما سواه^(١).

يروى أنهم رأوا فتح في المنام حين توفي، فقالوا: ما فعل الله بك؟ قال: قال الله (تعالى): لماذا أكثرت من البكاء؟ فقلت: خجلًا من الذنوب يا إلهي، فقال: أيا فتح إنني كنت قد أمرت ملاك الذنب الخاص بك ألا يسجل عليك ذنبًا قط بسبب بكائك طيلة أربعين عامًا (رحمة الله عليه).

(١) وردت في حلية الأولياء، ج٨ (ص ٢٩٣)، صفة الصفوة، ج٤، (ص ١٥٨).

ذكر أحمد بن أبي الحواري^(١)

قدس الله روحه



هو الشيخ الكبير، والإمام الخطير، هو زينة الزمان وركن الدنيا، هو ولي قبة التواري، قطب الزمان أحمد بن أبي الحواري (رحمة الله عليه).

كان فريداً في زمانه، وعالماً في جميع فنون العلوم، وله في الطريقة بيان عال، وقيمة في الحقائق، وكان القدوة في الروايات والأحاديث، ومرجع أهل زمانه في الواقعات، وكان من أكابر مشايخ الشام، وكان ممدوحاً بكل لسان إلى حد أن قال عنه الجنيدي: أحمد بن أبي الحواري ريحانة الشام، وكان من مريدي أبي سليمان الداراني، وكان قد صحب سفيان بن عيينة، ولكلامه أثر عجيب في القلوب، في بادئ أمره انشغل بتحصيل العلم، حتى وصل فيه إلى درجة الكمال، ثم حمل كتبه فأغرقها في البحر، وقال: نعم الدليل كنت لي، لكن لما بلغت المقصود كان من المحال الانشغال بالدليل؛ لأن الدليل يلزم المريد في الطريق، وطالما بدا المقصود فأى قيمة للحضرة والطريق، ثم ألقى بالكتب في البحر، وتألّم لذلك ألماً عظيماً. وقال المشايخ: إنه كان في حالة سكر.

يروى أن عهداً كان بين أبي سليمان الداراني وأحمد الحواري على ألا يخالفه في شيء قط، وكان أبو سليمان يعظ يوماً، فقال له: أضىء التنور، فيما تأمر؟ فلم يجبه أبو سليمان، فكرها ثلاث مرات، فقال أبو سليمان: اذهب واجلس فيه، ولما انقضت فترة وهو على هذه الحال تذكره أبو سليمان فقال: اطلبوا أحمد، فطلبوه، فلم يجدوه، فقال: انظروا في التنور، فإنه قطع معي عهداً على ألا يخالفني في أي شيء، فلما نظروا كان في التنور، ولم تكن شعرة منه قد احترقت.

يروى أن أحمد قال: رأيت حوراء في المنام، كان لها نور يتلأأ، فقلت: أيتها الحوراء إن لك وجهاً جميلاً، فقالت: نعم يا أحمد، ففي تلك الليلة التي كنت تبكي فيها، مسحت وجهي بدموع عينيك، فصار وجهي على هذا النحو.

(١) أحمد بن أبي الحواري: هو أبو الحسن أحمد بن أبي الحواري، سكن دمشق، ونشأ في بيت ورع وزهد فأخوه وأبوه كانا من العارفين الورعين، توفي عام ٢٣٠هـ. انظر ترجمته في طبقات الصوفية (ص ٩٨)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٥)، صفة الصفوة، ج ٤ (ص ٢٠١)، كشف المحجوب (ص ٣٣٠) من الترجمة العربية.

وقال: لا يكون العبد تائبًا حتى يندم بالقلب، ويستغفر باللسان، ويرد المظالم، ويجتهد في العبادة، وطالما تعبد كما ذكرت، يتشعب له من التوبة والاجتهاد الزهد والصدق، ثم يتشعب له من الصدق التوكل، ثم يتشعب له من التوكل الاستقامة، ثم يتشعب له من الاستقامة المعرفة، ثم يتشعب له من المعرفة لذة الأنس، ثم بعد الأنس الحياء، ثم بعد الحياء الخوف من المكر والاستدراج، ولا يفارق قلبه في جميع هذه الأحوال خوف (زوالها) عنه دون لقاء الحق^(١).

وقال: من عرف ما يجب عليه الخوف منه، سهل عليه اجتناب ما نهى عنه.
وقال: من كان أكثر عقلًا كان أكثر معرفة بالله، ومن كان أكثر معرفة بالله سرعان ما يصل إلى المنزل.

وقال: الرجاء قوت الخائفين.

وقال: أفضل البكاء بكاء العبد على ما فاته من أوقاته سدى^(٢).

وقال: من نظر إلى الدنيا بنظر الإرادة والحب، أخرج الله نور الفقر والزهد من قلبه^(٣).

وقال: الدنيا مزبلة ومجمع الكلاب، ومن عكف عليها أقل من الكلاب، فإن الكلب حين يأخذ منها حاجته يشبع وينصرف^(٤).

وقال: من لم يعرف نفسه فهو من دينه في غرور^(٥).

وقال: ما ابتلى الله عبدًا بشيء أشد من الغفلة وقسوة القلب^(٦).

وقال: إنما كره الأنبياء الموت لأنه أقعدهم عن ذكر الحق^(٧).

وقال: لمحبة الله علامة وهي حب طاعته^(٨).

وقال: محبة الله تكمن في محبة طاعة الله.

وقال: لا دليل على عرفة الله سوى الله، لكن دليل الطلب آداب الخدمة.

وقال: من أحب أن يعرف بالخير أو يذكر به، فهو مشرك في عبادة الله تعالى لدى هذه الطائفة؛ لأن من عبد الله بالمحبة لا يحب أن يرى خدمته شخص قط سوى مخدمومه والسلام^(٩).

(١) وردت في حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٨٨). (٢) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٠٠).

(٣) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٠٠)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٦).

(٤) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٠٢)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٢٢).

(٥) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٠١)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٧).

(٦) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٠١). (٧) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٠١).

(٨) وردت في حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٧).

(٩) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٠٢)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٢)، صفة الصفوة، ج ٤ (ص ٢٠١).

ذكر أحمد بن خضرويه^(١)

قدس الله روحه العزيز



هو فتوة الطريق، وتقي الحضرة، هو المتصرف في الطريقة، والمتوكل في الحقيقة، هو صاحب الفتوة والمشیخة، أحمد بن خضرويه البلخي (رحمة الله عليه).

كان من كبار مشايخ خراسان، ومن مرشدي الطريقة، ومن المشهورين بالفتوة، وكان من سلاطين الولاية والمقبولين عند الفرق كلها، وكان مشهورًا بالرياضة، ومذكورًا بالكلمات السامية، وكان صاحب تصانيف، وكان له ألف من المريدین كانوا يسرون على الماء ويطيرون في الهواء.

وفي بادئ أمره كان مريدًا لحاتم الأصم، وكان قد صحب أبا تراب النخشي، ورأى أبا حفص.

وسئل أبو حفص: من رأيت من هذه الطائفة؟ فقال: ما رأيت أحدًا أكبر همة ولا أصدق حالًا من أحمد بن خضرويه^(٢).

وقال أبو حفص أيضًا: لولا أحمد ما ظهرت الفتوة والمروءة^(٣). وكان أحمد يرتدي ثيابًا على شاكلة الجنود^(٤).

وكانت فاطمة زوجته آية في الطريقة، وكانت من بنات أمير بلخ، تابت، وبعثت رسولاً إلى أحمد (قائلة): اطلبني من أبي، فلم يجبها، فأرسلت إليه ثانية (تقول): يا أحمد، عرفت أنك أسخى من هذا، فكن هاديًا لا قاطعًا، فأرسل أحمد رجلاً وطلبها من أبيها، فزوجها لأحمد بحكم التبرك.

(١) أحمد بن خضرويه: أبو حامد أحمد بن خضرويه البلخي، من كبار مشايخ خراسان، ومن المذكورين بالفتوة، توفي ٢٤٠هـ. انظر ترجمته في طبقات الصوفية (ص ١٠٣)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٤٢)، الرسالة القشيرية (ص ٢٧)، صفة الصفوة، ج ٤ (ص ١٤٣)، كشف المحجوب (ص ٣٣٢).

(٢) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٠٣) الرسالة القشيرية (ص ٢٧)، صفة الصفوة، ج ٤ (ص ١٤٣).

(٣) وردت في كشف المحجوب (ص ٣٣٣) من الترجمة العربية.

(٤) وردت في كشف المحجوب (ص ٣٣٢) من الترجمة العربية.

وتركت فاطمة الانشغال بالدنيا، واستراحت بحكم العزلة مع أحمد، إلى أن قصد أحمد زيارة أبي يزيد، فرافقته فاطمة، ولما أقبل على أبي يزيد، رفعت فاطمة النقاب عن وجهها، وأخذت تتحدث معه، فغضب أحمد، واستولت الغيرة على قلبه، فقال: أي جرأة تلك التي كانت لك مع أبي يزيد؟ فقالت فاطمة: لأنك أنت محرم طبيعتي، وأبو يزيد محرم طريقتي، فأصل بك إلى الهوى، وأصل به إلى الله، والدليل على هذا أنه غنى عن صحبتي وأنت محتاج إلي^(١) وكان أبو يزيد جريئاً دائماً مع فاطمة، حتى وقعت عينه يوماً على يدها، وكانت قد تخضبت بالحناء، فقال: يا فاطمة، لِمَ الخضاب بالحناء؟ قالت: يا أبا يزيد لقد كنت أتبسّط معك طالما لم تكن رأيت يدي وحنائي، والآن وقد وقعت عينك على يدي فقد صارت صحبتنا حراماً^(٢).

وإن استبدت الظنون بأحد، وتخيل أكثر مما قلت، فإن أبا يزيد قال: رجوت الله أن يجعل النساء كالحائض أمام عيني، وقد جعلهم سواء، وطالما يكون الشخص كذلك فكيف يرى امرأة؟ ثم اتجه أحمد وفاطمة من هناك إلى نيسابور، فسر أهل نيسابور بأحمد، وعندما جاء يحيى ابن معاذ الرازي (رحمة الله عليه) إلى نيسابور وقصد بلخ، أراد أحمد أن يدعوه، فشاور فاطمة فيما ينبغي لدعوة يحيى، فقالت: يلزم كثير من البقر والخراف والحوائح، وكثير من الشمع والعطر، ومع كل هذا يلزم كثير من الحمير أيضاً، فسألها أحمد: ولماذا ذبح الحمير؟ قالت: حين يكون الكريم ضيقاً، يجب أن يكون لكلاب المحلة نصيب من ذلك^(٣). وهكذا كانت فاطمة في الفتوة، فلا جرم أن قال أبو يزيد (عنها): من أراد أن يرى رجلاً مخبوءاً تحت لباس امرأة فليُنظر إلى فاطمة^(٤).

يروى أن أحمد قال: قهرت نفسي مدة طويلة، وكانت جماعة تذهب للغزو يوماً، فرغبت في ذلك رغبة شديدة، وذكرت الأحاديث التي وضعت في بيان ثواب الغزو، ثم تعجبت وقلت: إن نفسي لا تطاوعني على الطاعة؛ لأنني أجعلها دائماً تداوم على الصوم، فلم يعد لديها طاقة بسبب الجوع، وتريد أن تفطر، فقلت لها: لن أفطر في السفر، قالت: أوافق، فتعجبت وقلت: ربما تقول ذلك لأنني أمرها بقيام الليل فترغب في السفر حتى تنام الليل وتستريح، فقلت: أوقظك حتى النهار، قالت: أوافق، فتعجبت، وظننت أنها ربما تقول ذلك لتختلط بالخلق فقد ملت الوحدة، ويلزمها أن تأنس بالخلق، فقلت: كل مكان أحملك إليه أنحوبك جانباً وأعزلك فيه عن الخلق،

(١) وردت في حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٤٢) مع الاختلاف.

(٢) وردت في كشف المحجوب (ص ٣٣٢).

(٣) وردت في كشف المحجوب (ص ٣٣٣) من الترجمة العربية.

(٤) وردت في كشف المحجوب (ص ٣٣٣) من الترجمة العربية.

قالت: أوافق، فعبزت، ورجعت إلى الحق متضرعاً؛ كي يحيطني علماً بمكرها أو يقرها، وهكذا قالت: إنك تقتلني كل يوم مائة مرة على خلاف مرادي ولا يعلم الخلق، ولكني أقتل في الغزو مرة واحدة، وأتحرر، وأنتخلص من الدنيا، ويذاع في الدنيا بأسرها: هنيئاً لأحمد بن خضرويه قتل واستشهد، فقال: سبحان الله الذي خلق نفساً منافقة في الحياة ومنافقة بعد الموت ولن تسلم في الدنيا ولا الآخرة، وظننت أنها تبحث عن الطاعة، ولم أعرف أنها تعقد الزنار، فازددت مخالفة لما كنت أفعل.

يروى أن أحمد قال: ذات مرة سلكت طريق الحج في البادية متوكلاً، واندفعت دفعة واحدة، فانكسرت في رجلي شوكة، ولم أخرجها، وقلت: يبطل التوكل، وبينما كنت أسير، دخلت شوكة في قدمي، فلم أخرجها أيضاً، وهكذا وصلت إلى مكة وأنا أعرج، وأدبت الحج وعدت، وكان شيئاً يخرج منها طول الطريق، وكنت أسير في ألم شديد، رأى الناس ذلك، فنزعوا الشوكة عني، وجرحت قدمي، واتجهت إلى بسطام إلى أبي يزيد وقعت عينا أبي يزيد عليّ فابتسم وقال: ما فعلت بتلك الشوكة التي أصيبت بها قدمك؟ فقلت: تركت اختياري لاختياره، فقال الشيخ: تقول اختياري، أيها المشرك! أي أن لك وجوداً واختياراً، أليس هذا شرك^(١)؟ يروى أن أحمد قال: استر عز فقرك^(٢).

وقال: دعا فقير في شهر رمضان واحداً من الأغنياء، ولم يكن في منزله غير رغيف يابس، عاد الغني وأرسل إليه صرة ذهب، فردها وقال: هذا جزاء من يكشف سره لمثلك، إننا لا نبيع هذا الفقر بكلا العالمين^(٣).

يروى أن لصاً دخل داره وطاف فيه كثيراً، فلم يجد شيئاً، فأراد العودة وهو يائس، فقال أحمد: أيها الشاب، احمل الدلو، وارفع الماء من البئر، وتطهر، وانشغل بالصلاة، وعندما يصل شيء أمنحك إياه؛ حتى لا تعود فارغ اليد من دارنا، فعل اللص كذلك. ولما طلع النهار، أحضر السيد مائة دينار، وأعطاه للشيخ، فقال الشيخ: خذها، فهذا جزاء ليلة صلاتك، فاعترت اللص حالة، وارتعد، وغلبه البكاء وقال: كنت قد أخطأت الطريق، عملت ليلة من أجل الله فأكرمني مثل هذا الإكرام، وتاب وعاد إلى الله، ولم يقبل الذهب، وأصبح من مريدي الشيخ.

يروى أن أحد المشايخ قال: رأيت أحمد بن خضرويه وقد جلس في عربة ذات سلاسل ذهبية، وكانت الملائكة تحمل تلك العربة في الهواء، فقلت: أيها الشيخ! إلى أين تطير؟ وأنت

(١) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٠٥).

(٢) وردت في كشف المحجوب (ص ٣٣٤) من الترجمة العربية.

(٣) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٠٦)، كشف المحجوب (ص ٣٣٤) من الترجمة العربية.

بهذه المنزلة، قال: لزيارة حبيب، فقلت: أيلزمك الذهاب لزيارة شخص وأنت تحظى بمثل ذلك المقام؟ قال: إذا لم أذهب يأتي ويحظى هو بدرجة الزائر لا أنا.

يروى أن أحمد كان يدخل الخانقاه ذات مرة بثياب خلق، وقد فرغ من رسوم الصوفية وانشغل بوظائف الحقيقة، فأنكره أصحاب تلك الخانقاه في الخفاء، وكانوا يقولون لشيخهم: إنه ليس أهلاً للخانقاه، حتى قدم أحمد ذات يوم إلى حافة بئر، فسقط دلوه فيه، فأذوه، فجاء أحمد إلى الشيخ وقال: اقرأ الفاتحة يخرج الدلو من البئر، فرفض الشيخ (وقال): أي طلب هذا! فقال أحمد: إذا لم تقرأ أنت اسمح لي أن أقرأ أنا، فسمح له الشيخ، قرأ أحمد الفاتحة، فارتفع الدلو إلى حافة البئر، عندما رأى الشيخ ذلك، وضع العمامة وقال: أيها الشاب! من أنت؟ فقد نقص بيدرجاهي أمام بذرتك، فقال: قل للأصحاب ألا ينظروا إلى المسافرين نظرة احتقار، وقال: لأنني ذاهب بنفسي.

يروى أن رجلاً جاءه، وقال: إنني فقير متعب، أرشدني إلى الطريق حتى أتخلص من هذه المحنة، فقال الشيخ: اكتب اسم كل مهنة موجودة على ورقة، وضعها في بوتقة، وأحضرها إليّ. كتب الرجل أسماء كل الحرف، وأحضرها، فمد الشيخ يده إلى البوتقة، وسحب ورقة، كان قد كتب عليها السرقة، قال: ينبغي عليك أن تعمل بالسرقة. بقي الرجل متعجباً، ثم نهض، وذهب إلى جماعة كانوا يسرقون على قارعة الطريق، وقال: إنني أرغب في هذا العمل، فكيف أمارسه؟ فقالوا: لهذا العمل شرط هو: أن تنفذ ما نأمرك به، فقال: أفعل ما تأمرون، وأقام معهم عدة أيام حتى وصلت قافلة ذات يوم، فسطوا عليها، وأحضرها رجلاً من أهلها كان غنياً جداً، وقالوا لهذا المستجد: اضرب رقبتك، فرفض الرجل وقال لنفسه: ربما يكون شيخ اللصوص هذا قد قتل عدداً كبيراً من الخلق، فأقتله أفضل من أن أقتل هذا التاجر، فقال له ذلك الرجل: إن كنت مستعداً للعمل، فيجب أن تفعل ما نأمرك به وإلا فإذهب إلى عمل آخر، قال: طالما أنه ينبغي عليّ طاعة الأمر، فلاطع أمر الله لا أمر اللص، ثم أخذ السيف، وترك ذلك التاجر، وفصل رأس شيخ اللصوص عن جسده، عندما رأى اللصوص ذلك هربوا، وسُلمت الأحمال، ونجا التاجر، وأعطاه كثيراً من الذهب والفضة بحيث إنه استغنى.

يروى أن فقيراً جاء لضيافة أحمد ذات مرة، فأشعل الشيخ سبعين شمعة، فقال الفقير: لا يروقتني هذا، فإن التكلف لا ينسب إلى التصوف، فقال أحمد: اذهب، وأطفئ كل شيء لم أشعله من أجل الله، فكان ذلك الفقير يصب الماء والتراب حتى الصباح، فلم يستطع أن يطفى شمعة واحدة من تلك الشموع السبعين، وفي اليوم التالي قال للفقير: ما كل هذا التعجب؟ انهض لترى العجائب، وكانوا يسرون حتى جلسوا على باب كنيسة المسيحيين وعندما رأوا أحمد

وأصحابه، قال كبيرهم: ادخلوا، فدخلوا، ووضع مائدة ثم قال لأحمد: كل، قال: لا يأكل الأحبة مع الأعداء، وقال له: اشرح الإسلام، ثم أسلم، وأسلم سبعون شخصاً من أتباعه، ونام في تلك الليلة فرأى في المنام أن الحق (تعالى) قال: يا أحمد أضأت لنا سبعين شمعة فأضأنا لك سبعين قلباً بنور شعاع الإيمان.

يروى أن أحمد قال: رأيت كل الخلق كالبقرة والحمير يختطفون العلف من بعضهم البعض. فقال رجل: وأين كنت أيها السيد؟ قال: كنت معهم أيضاً لكن الفرق بيني وبينهم: أنهم كانوا يأكلون ويضحكون ويلهون ولا يعلمون، وكنت أنا أكل وأبكي وكنت قد وضعت رأسي على ركبتي وأنا أعلم.

وقال: من خدم الفقراء أكرم بثلاثة أشياء: التواضع، وحسن الأدب، وسخاوة النفس^(١).
وقال: من أحب أن يكون الله معه في جميع الأحوال فليلزم الصدق لقوله تعالى: "إن الله مع الصادقين"^(٢).

وقال: من صبر على صبره فهو الصابر لا من صبر وشكا^(٣).
وقال: الصبر زاد المضطرين والرضا درجة العارفين^(٤).
وقال: حقيقة المعرفة المحبة له بالقلب، والذكر له باللسان، وقطع الهمة عن كل شيء سواه^(٥).

وقال: أقرب الخلق إلى الله أوسعهم خلقاً^(٦).
وقال: ليس من طالبه الحق بآلائه، كمن طالبه الحق بنعمائه^(٧).
وسئل: ما علامة المحبة؟ فقال: من لا يعظم شيئاً قط من الكونين في قلبه؛ لأنه قد امتلأ بذكر الله، ولا يرغب في شيء قط سوى خدمته، لأنه لا يرى عز الدنيا والآخرة إلا في خدمته، ومن يرى نفسه غريباً وإن كان بين أهله، لأن شخصاً قط لا يوافقه فيما هو فيه من خدمة حبيبه.
وقال: القلوب جواله: إما أن تجول حول العرش، وإما أن تجول حول الخوف^(٨).

(١) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٠٥).

(٢) وردت في حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٤٢).

(٣) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٠٤).

(٤) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٠٤)، صفة الصفوة، ج ٤ (ص ١٤٣).

(٥) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٠٥).

(٦) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٠٦).

(٧) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٠٦).

(٨) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٠٤).

وقال: القلوب أوعية كلما امتلأت من الحق، أظهرت زيادة أنوارها على الجوارح، وإذا امتلأت من الباطل أظهرت زيادة ظلمتها على الجوارح^(١).

وقال: لا نوم أثقل من الغفلة، ولا رق أملك من الشهوة، ولولا ثقل الغفلة عليك لما ظفرت بك الشهوة^(٢).

وقال: في الحرية تمام العبودية، وفي تحقيق العبودية تمام الحرية^(٣).

وقال: يجب أن تحيا في الدنيا والدين بين متضادين.

وقال: الطريق واضح، والحق لائح، والداعي قد أسمع، فما التحير بعد هذا إلا من العمى^(٤).

وسئل: أي الأعمال أفضل؟ قال: رعاية السر عن الالتفات إلى شيء سوى الله تعالى^(٥).
وقرى بين يدي أحمد بن خضرويه يوماً (قول الله عز وجل): ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾^(٦)، فقال: يخبرهم بأن أفضل مفر هو إلى حضرة الله.

وقال له شخص: أوصني، فقال: أمت نفسك حتى يحييها^(٧).

ولما اقتربت وفاته، كان عليه سبعمائة دينار ديناً كان قد منحها للمساكين والمسافرين، ووصل إلى النزع، وتجمع غرماؤه حول فراشه، فناجى أحمد في الحال وقال: إلهي، أتقبضني وروحي رهينة لديهم، وأنا رهن لهم، وكيف تأخذ منهم وثيقتهم، فاختر شخصاً يرد لهم حقوقهم، وعندئذ اقبض روحي، وبينما كان يناجي إذ دق شخص الباب ليخرج غرماء الشيخ، فخرجوا جميعاً، وأخذوا حقوقهم كاملة، ولما أدى الدين انفصلت الروح عن أحمد^(٨).
(رحمة الله عليه).

(١) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٠٥).

(٢) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٠٦)، الرسالة القشيرية (ص ٢٨)، صفة الصفوة، ج٤ (ص ١٤٣).

(٣) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٠٤).

(٤) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٠٥)، كشف المحجوب (ص ٣٣٣) من الترجمة العربية.

(٥) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٠٦).

(٦) سورة الذاريات: الآية (٥٠).

(٧) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٠٥)، صفة الصفوة، ج٤ (ص ١٤٣).

(٨) وردت في حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٤٢)، الرسالة القشيرية (ص ٢٨)، صفة الصفوة، ج٤ (ص ٤٣، ٤٤).

ذكر أبي تراب النخشي^(١)

قدس الله روحه



هو مناضل معركة البلاء والعارف بالصدق والصفاء، هو رجل ميدان المعنى، وفرد إيوان التقوى، هو محقق الحق ونبي زمانه وقطبه، أبو تراب النخشي (رحمة الله عليه).

كان من عياري الطريقة، ومجردي طريق البلاء، كان من سائحي بادية الفقر، ومن سادة هذه الطائفة، وكان من أكابر مشايخ خراسان، وكانت له قدم راسخة في المجاهدة والتقوى، ونفس عالية في الإشارات والكلمات.

كان قد وقف أربعين موقفاً، ولم يكن قد وضع رأسه على وسادة قط أعواماً طويلة سوى أنه استغرق في النوم في الحرم ذات يوم، فأرادت جماعة من الحور أن يعرضن أنفسهن عليه، فقال الشيخ: إنني أخشى الغفور ولا أخشى الحور. فقالت الحور: أيها الشيخ، مع أن الأمر كذلك، لكن أصحابنا يشمتون فينا حين يسمعون أننا لم نحظ بالقبول منك، فأجاب الرضوان: محال أن يخشاك هذا العزيز، فاذهبن حتى يستقر في الجنة غداً ويجلس على عرش المملكة، عندئذ تأتين، وتؤدين ما بدا منكن من تقصير في خدمته، فقال أبو تراب: يا رضوان! قل لهن: يقمن بخدمتي إن نزلت بالجنة.

يقول ابن الجلاء: دخل أبو تراب مكة طيب النفس، فقلت: أين أكلت؟ فقال: أكلة بالبصرة، وأكلة ببغداد، وأكلة ههنا^(٢).

ويقول ابن الجلاء: صحبت ثلاثمائة شيخ، ما لقيت فيهم أعظم من أربعة أولهم: أبو تراب النخشي^(٣).

(١) أبو تراب النخشي: هو عسكر بن حصين، ويقال عسكر بن محمد بن حصين من جملة مشايخ خراسان، تفقه على مذهب الإمام الشافعي وأخذ عنه الإمام أحمد بن حنبل، توفي عام ٢٤٥ هـ.

انظر ترجمته في طبقات الصوفية (ص ١٤٧)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٤٥)، الرسالة القشيرية (ص ٢٨)، صفة الصفوة، ج ٤ (ص ١٥٠)، كشف المحجوب (ص ٣٣٤) من الترجمة العربية.

(٢) وردت في حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٤٩)، الرسالة القشيرية (ص ٢٩)، صفة الصفوة، ج ٤ (ص ١٥٠).

(٣) وردت في حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٤٧)، الرسالة القشيرية (ص ٢٨)، صفة الصفوة، ج ٤ (ص ١٥٠).

يروى أنه عندما كان يرى من أصحابه ما يكره، كان يتوب ويكثر من مجاهداته، ويقول: بشؤمي وقع هذا المسكين في هذا البلاء^(١).

وكان يقول لأصحابه: من لبس منكم مرقعة فقد سأل، ومن قعد في خانقاه فقد سأل، ومن قرأ القرآن من مصحف فقد سأل^(٢).

ومد أحد أصحابه يده إلى قشر شمام ذات يوم، وقد طوى ثلاثة أيام لم يأكل فيها شيئاً، فقال له: اذهب، فإنك لا تصلح للتصوف، وعليك أن تلزم السوق^(٣).

وقال: بني وبين الله عهد: ألا أمد يدي إلى حرام إلا وقصرت يدي عنه^(٤).

وقال: لم تسيطر رغبة على نفسي قط إلا مرة واحدة كنت أسير في البادية، فرغبت في خبز ساخن وبيض، وحدث أن ضللت الطريق إلى قبيلة، وكانت مجموعة منها قد وقفت، وكانوا مشغولين بأمر، ولما رأوني تعلقوا بي، وقالوا: سرقت بضاعتنا، وكان شخص قد جاء وسرق بضاعتهم، فقبضوا على الشيخ وضربوه مائتي خشبة، وأثناء ذلك مر شيخ من ذلك المكان، ورأى شخصاً يضرب فاقترب منه وعرف من هو فمزق مرقعته وصاح قائلاً: إنه شيخ شيوخ الطريقة أي جرأة هذه! أي وقاحة هذه! التي تفعلوها مع سيد صديقي الطريقة جميعاً، فصرخ أولئك الناس، وندموا وطلبوا المَعذرة. قال الشيخ: أيها الأخوة، بحق وفاء الإسلام لم يمر عليّ وقت قط أطيّب من هذا الوقت، ومرت عليّ أعوام كنت أريد فيها أن أحقق هذه الرغبة، والآن حققتها. ثم أخذ الشيخ الصوفي بيده وحمله إلى الخانقاه، وأمر بإحضار طعام، ثم ذهب وأحضر خبزاً ساخناً وبيضاً، فقال الشيخ: أيتها النفس! كل رغبة ترغيبها لن تدركها دون مائتين مقرة^(٥).

يروى أن أبا تراب كان له عدد من الأبناء، وكان قد ظهر في عهده ذئب مفترس فمزق عدداً من أبنائه. وكان قد جلس على سجادة يوماً، فقصده الذئب، فأخبروه بذلك وعندما رآه الذئب، عاد. يروى أن أبا تراب كان يسير مع أصحابه في البادية ذات مرة، فعطش الأصحاب، وأرادوا أن يتوضأوا، فرجعوا إلى الشيخ فرسم الشيخ خطاً، فتفجرت المياه وتوضأوا.

يقول أبو العباس السيرفي: كنت مع أبي تراب في البادية، فقال أحد الأصحاب: أنا عطشان، فضرب الأرض برجله، فإذا بعين ماء، فقال الرجل: أحب أن أشربه في قدح، فضرب بيده الأرض

(١) وردت في حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٤٦)، الرسالة القشيرية (ص ٢٨).

(٢) وردت في حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٤٦)، الرسالة القشيرية (ص ٢٩).

(٣) وردت في حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٤٩)، الرسالة القشيرية (ص ٢٩).

(٤) وردت في حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٤٨)، الرسالة القشيرية (ص ٢٩)، صفة الصفوة، ج ٤ (ص ١٥٠).

(٥) وردت في حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٤٧)، الرسالة القشيرية (ص ٢٩).

فإذا قدح من زجاج أبيض كأحسن ما رأيت، فشرب من ذلك الماء، وسقى الرفاق، وما زال القدح معنا حتى مكة^(١).

وقال أبو تراب لأبي العباس: ما يقول أصحابك فيما يظهره الحق (تعالى) على أوليائه من كرامات؟ فقال: لم أر شخصاً قط آمن بها إلا قلة، فقال: من لا يؤمن بها فهو كافر، وقال المريدون ذات مرة: لا بد من القوت، فقال الشيخ: ليس هناك بد مما ليس منه بد!^(٢).

قال أبو تراب: كنت أسير في البادية ذات ليلة بمفردي، وكانت الليلة مظلمة، فجأة تقدم إليّ عبد كالمنازة، فخفت عندما رأيته وقلت له: أملك أنت أم آدمي؟ فقال: أنت مسلم أم كافر؟ قلت: مسلم. قال: لا يخشى المسلم سوى الله شيئاً، قال الشيخ: فعاد لي صوابي، وعلمت أنه رسول الغيب، فسلمت، وزال الخوف عني.

وقال: رأيت غلاماً في البادية بلا زاد ولا راحلة، فقلت: إذا لم يكن معه اليقين لهلك، ثم قلت: أتمضي في مثل هذا المكان دون زاد أيها الغلام؟ فقال: أيها الشيخ ارفع رأسك، أترى سوى الله شخصاً قط؟ فقلت: اذهب الآن إلى أي مكان تريده.

وقال: لم أأخذ شيئاً من شخص قط طيلة عشرين عاماً، ولم أعط شيئاً لشخص. قالوا: كيف؟ قال: إن كنت آخذ لكنت آخذ منه وإن كنت أعطي لكنت أعطيته.

وقال: عرض عليّ طعام ذات يوم، فامتنعت عنه، فظلمت جائعاً أربعة عشر يوماً بشؤم ذلك (الامتناع)^(٣).

وقال: لا أعرف شيئاً قط أضر للمريد من السفر متابعة لنفسه، ولا يجد الفساد سبيلاً إلى المريد قط (إلا بسبب) الأسفار الباطلة.

وقال: قال الحق تعالى: اجتنبوا الكبائر، وليست الكبائر إلا الدعوى الفاسدة، والإشارات الباطلة، وإطلاق العبارات، والألفاظ الكاذبة.

ثم قال: قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّدُوا لَهُمْ^ط﴾^(٤).

وقال: لا يحظى شخص قط برضاء الله إن كانت في قلبه ذرة للدنيا.

وقال: إذا صدق العبد في العمل، وجد حلاوته قبل أن يعمل، فإذا أخلص فيه، وجد حلاوته ولذته وقت مباشرة الفعل^(٥).

(١) وردت في صفة الصفوة، ج٤ (ص ١٥٠، ١٥١).

(٢) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٤٩). (٣) وردت في اللمع (ص ٢٤٤).

(٤) سورة الأنعام: جزء من الآية (١٢١).

(٥) طبقات الصوفية (ص ١٤٩)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٥٠)، الرسالة القشيرية (ص ٢٨).

وقال: أنتم تحبون ثلاثة وهي ليست لكم: تحبون النفس وهي لله، وتحبون الروح والروح لله، وتحبون المال، والمال لله، وتطلبون اثنين ولا تجدونهما: الفرح والراحة وهما في الجنة^(١).
وقال: سبب الوصول إلى (الحق) سبع عشرة درجة أدناها الإجابة وأعلاها التوكل على الله بحقيقته^(٢).

وقال: التوكل هو أن تلقي بنفسك في بحر العبودية، وتعلق قلبك بالله إن أعطاك تشكر وإن منع عنك تصبر.

وقال: لا يُظلم أمام العارف شيء قط ويستنير به كل ظلام.

وقال: من القلوب قلب أحياء الله بنور الفهم.

وقال: القناعة قوة من الله.

وقال: ليس من العبادات شيء أنفع من إصلاح الخواطر^(٣).

وقال: احفظ همك، فإنه مقدمة الأشياء، فمن صح له همه صح له ما بعد ذلك، من أفعاله، وأحواله^(٤).

وقال: كأن الحق تعالى ينطق العلماء، في كل زمان، بما يشاكل أعمال أهل ذلك الزمان^(٥).

وقال: حقيقة الغنى أن تستغنى عن من هو مثلك، وحقيقة الفقر أن تفتقر إلى من هو مثلك^(٦).

يروى أن رجلاً قال له: ألك حاجة أقضيها لك؟ فقال الشيخ: يوم يكون لي إليك وإلى أمثالك حاجة، لا يكون لي إلى الله حاجة^(٧). أي إنني في مقام الرضا، وأي شأن للراضي بالحاجة؟!
وقال: الفقير قوته ما وجد، ولباسه ما ستر، ومسكنه حيث نزل^(٨).

وكانت وفاته في بادية البصرة. وبعد بضع سنوات جاءته جماعة فرأوه واقفاً على قدميه ووجهه إلى القبلة، وقد تيبس، ووضع ركوة أمامه، وأمسك بيده عصا، ولم يحم حوله أي سبع من السباع^(٩). (رحمة الله عليه).

(١) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٤٨)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٥٠).

(٢) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٤٩).

(٣) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٤٩).

(٤) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٥١).

(٥) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٥١).

(٦) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٥٠)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٥٠).

(٧) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٥٠)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٥٠).

(٨) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٤٩)، كشف المحجوب (ص ٣٣٤) من الترجمة العربية.

(٩) وردت في كشف المحجوب (ص ٣٣٤) من الترجمة العربية.

ذكر يحيى بن معاذ^(١)

قدس الله روحه العزيز



هو ينبوع روضة الرضا، مركز كعبة الرجا، هو ناطق الحقائق وواعظ الخلائق، هو رجل المراد يحيى بن معاذ (رحمة الله عليه).

كان لطيف زمانه، وكانت له خلق عجيبة، وخلط بين البسط والقبض وغلبه الرجاء وسلك مسلك الخائفين، وكان لسان الطريقة والمحبة، وكانت له همة عالية، وكان جسور الحضرة، وكان له وعظ شاف إلى حد أنه كان يسمى يحيى الواعظ، وكانت له قدم راسخة في العلم والعمل، واختص باللطائف والحقائق، واتصف بالمجاهدة والمشاهدة، وكان صاحب تصانيف وله كلام موزون مبهج إلى حد أن المشايخ قالوا عنه: كان لله (تعالى) رجلان يسميان يحيى، أحدهما من الأنبياء والثاني من الأولياء (صلوات الله عليهما) فأما يحيى بن زكريا (عليه السلام) فقد سلك طريق الخوف بحيث يئس الصديقون من فلاحهم بسبب خوفه، وأما يحيى بن معاذ فقد سلك طريق الرجاء على نحو مرغ أيدي أدعياء الرجاء في التراب^(٢).

قالوا: حال يحيى بن زكريا (عليه السلام) معروف، فكيف كان حال يحيى هذا؟ قال: هكذا بلغني أنه لم يمل الطاعة قط، ولم تجر عليه كبيرة، واحتواه من الله خطر عظيم في المعاملة والممارسة، فلم يكن لأحد من الأصحاب طاقته^(٣).

قيل له: أيها الشيخ، ما معاملة الراجين وما معاملة الخائفين؟ قال: اعلم أن ترك العبودية ضلالة، وأن الخوف والرجاء قائمتا الإيمان، فمحال أن يقع أحد في الضلالة بممارسة ركن من أركان الإيمان، فالخائف يعبد خشية القطيعة، والراجي أملًا في الوصول، وما لم توجد العبادة لا يصح الخوف ولا الرجاء، فإذا حدثت العبادة لا تكون دون خوف ورجاء.

(١) يحيى بن معاذ: أبو زكريا يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي الواعظ، خرج إلى بلخ، وأقام بها مدة ثم رجع إلى نيسابور ومات بها عام ٢٥٨ هـ. انظر ترجمته في: طبقات الصوفية (ص ١٠٧)، حلية الأولياء، ج ١ (ص ٥١)، الرسالة القشيرية (ص ٢٧)، صفة الصفوة، ج ٢ (ص ٩٠)، كشف المحجوب (ص ٣٣٥) من الترجمة العربية.

(٢) وردت في كشف المحجوب (ص ٣٣٥) من الترجمة العربية.

(٣) وردت في كشف المحجوب (ص ٣٣٥) من الترجمة العربية.

وكان أول من اعتلى المنبر بعد الخلفاء الراشدين من مشايخ هذه الطريقة^(١).

يروى أن يحيى بن معاذ اعتلى المنبر ذات يوم، وقد حضر أربعة آلاف رجل فنظر جيداً ونزل، وقال: إن الرجل الذي اعتلينا المنبر من أجله ليس حاضراً.

يروى أن أخوا كان ليحيى ذهب إلى مكة، وجاورها، وكتب رسالة إلى يحيى (فحواها): إنني أرغب في ثلاثة أشياء، وجدت اثنين وبقي واحد، فادع أن يكرمني الله به أيضاً، رغبت أن أمضي آخر عمري في بقعة أفضل، فجئت إلى الحرم أفضل البقاع، ورغبت أن يكون لي خادم يخدمني، ويهيئ لي ماء الوضوء، فوهبني جارية لائقة، ورغبت الثالثة أن أراك قبل الموت فليحققها الله لي ذات يوم. فكتب له يحيى: أما عمّا قلته: من أنك رغبت أفضل بقعة فكن أفضل الخلق في كل بقعة تريد أن تكون فيها، فالبقاع عزيزة بالناس لا العكس. وأما فيما يتعلق بما قلته: أردت خادماً ووجدته فإن كانت لك مروءة وفتوة لما جعلت خادم الحق خادماً لك، ولما امتنعت عن خدمة الحق وانشغلت بخدمة نفسك، يلزمك خادم، وترغب أن تكون مخدوماً، والمخدومية من صفات الحق، والخادمة من صفات العبد، ينبغي للعبد عبد، وطالما طمع العبد في مقام الحق كان بمثابة فرعون. وأما عمّا قلته: إنني أرغب في رؤياك، فإنه إذا كان لك خبر عن الله لما تذكرني، فصاحب الحق صحبة لا تذكرك بأخ قط حيث ينبغي التضحية بالأبناء فما بالك بالأخ، إذا وجدته فبماذا سأفيدك؟ وإن لم تجده فأني فائدة لك بي؟

يروى أن يحيى كتب رسالة إلى صاحبه ذات مرة (مضمونها): الدنيا كالنوم والآخره كاليقظة، ومن رأى في المنام أنه يبكي، كان تفسيره أنه سيضحك في اليقظة ويسر، فابك في منام الدنيا حتى تضحك في يقظة الآخره وتسعد.

يروى أن بنتاً كانت ليحيى، قالت يوماً لأُمها: يلزمني الشيء الفلاني، فقالت لها أمها: اطلبيه من الله، فقالت: يا أمي! إنني أخجل أن أطلب حاجاتي الشخصية من حضرته، وما تعطيه لي هو ملك له أيضاً^(٢).

يروى أن يحيى مرّ مع أخيه على باب قرية، فقال أخوه: ما أطيبها قرية، فقال يحيى: الأطيب منها قلب شخص فارغ منها «استغنى بالملك عن الملك».

يروى أنهم صحبوا يحيى إلى دعوة، وكان رجلاً قليل الأكل، فلم يأكل شيئاً فألحوا عليه فقال: لا نتخلى عن مقرعة الرياضة لحظة، فقد استكان هوى نفسها هذا في كمين مكره، وإن تركنا له العنان لحظة، ألقى بنا في دوامة الهلاك.

(١) وردت في كشف المحجوب (ص ٣٣٥) من الترجمة العربية.

(٢) وردت في كشف المحجوب (ص ٦٠٦) من الترجمة العربية.

كان الشمع قد وضع أمامه ذات ليلة، فهبت ريح وأطفأته، فانخرط يحيى في البكاء، قيل له: لماذا تبكي؟ أنمنعك هذه البرهة؟ فقال: لا أبكي لهذا، بل أبكي لأن شموع الإيمان ومصابيح التوحيد قد أضيئت في صدورنا، وأخاف لأنه لا ينبغي أن تهب رياح من مهب الاستغناء كذلك فتطفئها كلها.

كانوا يقولون أمامه يومًا: لا تساوي الدنيا حبة أمام ملك الموت، فقال: أخطأتم، لو لم يكن هناك ملك الموت، لما كانت الدنيا تساوي شيئًا، قالوا: لماذا؟ قال: «الموت جسر يوصل الحبيب إلى الحبيب».

وسئل عن هذه الآية يومًا ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فقال: لا يعجز إيمان ساعة عن محو كفر عشرين عامًا، فكيف يعجز إيمان سبعين عامًا عن محو ذنوب سبعين عامًا.

وقال: إن قال الله (تعالى) يوم القيامة: ما تريد؟ أقول: يا إلهي، أريد أن ترسلني إلى أسفل السافلين، وتأمّر أن ينصبوا لي خيامًا نارية، ويضعون فيها عرشًا نارياً، ولما نجلس في أسفل الجحيم على عرش المملكة، تصدر أمرًا أن تنفخ نفخة من تلك النار التي وضعتها في سريري كوديعة؛ حتى أطيح بمالك وخزانة الجحيم والجحيم دفعة واحدة إلى ستر العدم، وإن أردت نصًا دليلاً على هذه الحكاية فهو «يا مؤمن فإن نورك أطفأ لهبي» وهذا دليل كاف.

وقال: إن منحت الجحيم فلن أحرق عاشقًا قط لأن عشقه حرقه مائة مرة، فقال سائل: وإن كانت لذلك العاشق ذنوب كثيرة، ألا تحرقه؟ قال: لا، لأنها لم تكن باختياره، فسلوك العاشق اضطراري وليس اختياري.

وقال: من سر بخدمة الله (عز وجل) سرت الأشياء كلها بخدمته، ومن قرت عينه بالله، قرت عيون كل شيء بالنظر إليه.

وقال: لا يحتار في الله شخص قط مثل شخص يحتار في أمر العجائب التي تمر عليه.

وقال: الله (تعالى) أكرم من أن يدعو العارفين إلى طعام الجنة؛ لأن لهم همة لا تستكين إلا برؤية الله.

وقال: على قدر حبك لله تعالى يحبك الخلق، وعلى قدر خوفك من الله يخشاك الخلق، وعلى قدر شغلك بالله يشتغل في أمرك الخلق، ومن كان قد خجل من الله في حال الطاعة يخجل الله عز وجل - كرمًا - من أن يعذبه لذنبه^(١).

وقال: حياء العبد حياء الندم، وحياء الله حياء الكرم.

(١) وردت في طبقات الصوفية (ص ١١١)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٥٨، ٥٩)، صفة الصفوة، ج ٤ (ص ٨٧) مع الاختلاف.

وقال: يظن العبد بالله ظناً حسناً بقدر معرفته بكرم الله، وليس هناك شخص قط يترك الذنب من أجل نفسه وخوفاً عليها، مثل شخص يترك الذنب خجلاً من الله؛ لأنه يعلم أن الله يراه في شيء قد نهى عنه، ومن ثم فإنه يعرض عنه لذلك لا من أجل نفسه.

وقال: الظن الحسن بالله هو أفضل الظنون، طالما تصاحبه الأعمال اللائقة والمراقبة ولكن إن صحبته الغفلة والمعاصي تكون الرغبة التي تلقى في الخطر.

وقال: يصدر الظن الحسن من العمل الحسن، والظن السيئ من العمل السيئ.

وقال: المخدوع من يهمل زمانه بالبطالة، ويسلط جوارحه على الهلاك، ويموت قبل أن يثوب إلى رشده من الجناية.

وقال: العبرة بالأوتار والمعتبر بالمثقال^(١).

وقال: من لم يعتبر بالمعينة، لم يتعظ بالموعة، ومن اعتبر بالمعينة، استغنى عن الموعة^(٢).

وقال: اجتنب صحبة ثلاثة أقوام: العلماء الغافلين، والقراء المداهنين، والمتصوفة الجاهلين^(٣).

وقال: الوحدة منية الصديقين، والأنس بالخلق وحشتهم^(٤).

وقال: ثلاث خصال من صفة الأولياء: الثقة بالله في كل شيء، والغنى به عن كل شيء، والرجوع إليه في كل شيء^(٥).

وقال: إن كان الموت يباع في السوق، ويوضع على طبق، لكان جديراً بأهل الآخرة؛ لأن أيًا منهم لم يكن يرغب سواه، ولم يكن يشتري سواه.

وقال: أصحاب الدنيا تخدمهم الإماء والعبيد، وأصحاب الآخرة يخدمهم الأبرار والأحرار والزهاد والأكابر^(٦).

وقال: لا يكون الرجل حكيمًا ما لم يجمع بين ثلاث خصال: الأولى: أن ينظر إلى الأغنياء بعين العظة لا الحسد، والثانية: أن ينظر إلى النساء بعين الشفقة لا الشهوة، والثالثة: أن ينظر إلى الفقراء بعين التواضع لا التكبر.

(١) وردت في طبقات الصوفية (ص ١١٤).

(٢) وردت في طبقات الصوفية (ص ١١٣).

(٣) وردت في طبقات الصوفية (ص ١١٣)، كشف المحجوب (ص ٢١٢) من الترجمة العربية.

(٤) وردت في طبقات الصوفية (ص ١١٢).

(٥) وردت في طبقات الصوفية (ص ١١٠).

(٦) وردت في طبقات الصوفية (ص ١١٤).

وقال: من خان الله في السر هتك الله ستره في العلانية^(١).

وقال: طالا أنصف العبد الله على نفسه غفر الله له.

وقال: أقلوا الحديث مع الناس وأكثره مع الله.

وقال: طالما تخلى العارف عن الأدب مع الله هلك مع الهالكين.

وقال: من استغنى بالله فهو غني على الدوام، ومن استغنى بكسبه ظل فقيراً على الدوام.

ويطلب المجذوبون في الأول والمجاهدون في الآخر.

كما قال: نعمة الفضل في السراء، ونعمة التطهير في الضراء فإن تكن عبداً فكن عبداً في السراء.

وقال: أعجب من آهة الموحدين التي تشعل النيران في الجحيم إذ كيف تشتعل النار بصدق توحيده.

وقال: سبحانه الله الذي يرتكب العبد الذنب ويخجل هو (الحي) منه.

وقال: ذنب تفتقر به إليه أحب إليّ من طاعة يفتخرون بها عليه^(٢).

وقال: من أحب الله كره النفس.

وقال: لا يرأي الولي ولا ينافق ومثل ذلك الشخص يكون قليل الأصدقاء.

وقال: بئس الصديق صديق تحتاج أن تسأله حاجةً، أو تقول له: اذكرني في دعائك، أو تحتاج أن تعيش معه بالمدارة، أو يلجئك إلى الاعتذار في ذلة كانت منك^(٣).

وقال: ليكن حظ المؤمن منك ثلاثاً: إن لم تنفعه فلا تضره، وإن لم تفرحه فلا تغمه، وإن لم تمدحه فلا تذمه^(٤).

وقال: ليست هناك حماقة أكثر من أن يلقي (المرء) جذوة النار ويطمع في الجنة.

وقال: ذنب بعد التوبة، أسوأ من سبعين ذنباً قبلها.

وقال: ذنب المؤمن يكون بين الخوف والرجاء، كالثعلب بين أسدين.

وقال: أفضل دواء لكم ترك الذنب.

وقال: أعجب من شخص يتعفف عن الطعام خشية المرض، ومن ثم فلماذا لا يتعفف عن الذنب خشية العقوبة.

(١) وردت في الرسالة القشيرية (ص ٢٧)، صفة الصفوة، ج ٤ (ص ٩٠).

(٢) وردت في صفة الصفوة، ج ٤ (ص ٨٤، ٨٧). (٣) وردت في كشف المحجوب (ص ٥٨٣).

(٤) وردت في صفة الصفوة، ج ٤ (ص ٨٤).

وقال: كرم الله أكثر وضوحًا في خلق الجحيم عنه في خلق الجنة، فبالرغم من أنه قد وعد بالجنة، فإن لم يكن الخوف من الجحيم لما طاعه أحد.

وقال: الدنيا دار الأشغال، ولا يزال العبد بين الأشغال والأهوال حتى يستقر به القرار، إما إلى الجنة وإما إلى النار^(١).

وقال: جميع الدنيا، من أولها إلى آخرها، لا تساوي غم ساعة، فكيف تغمر عمرًا فيها مع قليل يصيبك منها^(٢)؟!

وقال: الدنيا دكان الشيطان فاحذر، ولا تسرق شيئًا من دكانه؛ لأنه يتسلل من خلفك ويسترده منك^(٣).

وقال: الدنيا عروس وطالبها ماشطتها، والزاهد فيها يسود وجهها وينتف شعرها ويمزق ثيابها^(٤).

وقال: في الدنيا هم وغم، وفي الآخرة عذاب وعقاب، فمتى ستكون الراحة إذن؟
وقال: يقول الله (تعالى): لا تشكو مني بسبب هم الدنيا، فليس خافيًا عليكم أن العالمين لي وأنا لكم.

وقال: في كسب الدنيا ذل النفوس، وفي كسب الجنة عز النفوس، فياللعجب من شخص يختار الهوان والذلة في طلب شيء لن يخلد أو يبقى.

وقال: يحل عليك شؤم الدنيا بحيث تشغلك الرغبة فيها عن الله كي تحصل على ما تسعى إليه.
وقال: العقلاء ثلاثة: من ترك الدنيا قبل أن تتركه، ومن بنى قبره قبل أن يدخله، ومن أَرْضَى ربه قبل أن يلقاه^(٥).

وقال: مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون عن أفجع منهما ويحلان عند الموت. قيل: ما هما؟ قال: يؤخذ المال كله ممن جمعه ويُسئل عنه كله^(٦).

وقال: الدينار والدرهم عقربان، لا تمد يدك لهما ما لم تتعلم رقيتهما وإلا قتلك سمهما.
قالوا: وما رقيتهما؟ قال: أن يكون دخله من الحلال وإنفاقه في سبيل الحق^(٧).

(١) وردت في طبقات الصوفية (ص ١١٠)، كشف المحجوب (ص ٣٣٥).

(٢) وردت في طبقات الصوفية (ص ١١٠). (٣) وردت في حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٥٤).

(٤) وردت في صفة الصفوة، ج ٤ (ص ٩٠).

(٥) وردت في حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٦٨)، صفة الصفوة، ج ٤ (ص ٨٧).

(٦) وردت في صفة الصفوة، ج ٤ (ص ٨٥).

(٧) وردت في حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٦٠) مع الاختلاف.

وقال: طلب العاقل للدنيا، أحسن من ترك الجاهل لها^(١).

وقال: يا أرباب العلم والاعتقاد! قصوركم قيصرية ودياركم كسروية وعمائركم شدادية وكبركم عادي وليس فيكم أحمدي قط^(٢).

وقال: طالب الدنيا دائماً في ذل المعصية، وطالب الآخرة في عز الطاعة على الدوام، وطالب الحق دائماً في روح وراحة.

وقال: ارتداء الصوف حانوت، والحديث في الزهد حرفته، وهو عارض لنوافل الله بكل هذه الدلائل.

وقال: من طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان.

وقال: التكبر مع شخص يتكبر عليك بماله تواضع.

وقال: من شروط إدبار الرجال اهتمامهم بأنفسهم.

وقال: لا مفر للمريد من ثلاث: دار يتوارى فيه، وكفاية يستطيع العيش بها، وعمل يستطيع أن يحترفه، فداره الخلوة وكفايته التوكل وحرفته العبادة.

وقال: عندما يتلى المريد بكثرة الأكل، تبكي عليه الملائكة، ومن ابتلي بالحرص على الطعام سرعان ما يحترق بنار الشهوة.

وقال: في جسد ابن آدم ألف عضو، كلها من الشر وكلها في يد الشيطان، عندما يتحقق الجوع للمريد يهذب نفسه فتتيسر كل الأعضاء وتحترق جميعها بنار الجوع.

وقال: الجوع نور والشبع نار والشهوة حطبها تتوالد منه النار ولا تخمد ما لم يخدمها الله.

وقال: لا يشبع العبد قط ما لم يسلبه الله شيئاً لا يستطيع أن يجده ثانية بعد ذلك.

وقال: الجوع طعام الله في الأرض يقتات به الصديقون فقط.

وقال: الجوع رياضة للمريدين، وتجربة للتائبين وسياسة للزاهدين ومكرمة للعارفين.

وقال: أعوذ بالله (تعالى) من زاهد يفسد معدته بكثرة أطعمة الأغنياء المتنوعة.

وقال: إنهم ثلاثة أقوام: زاهد ومشتاق وواصل: الزاهد يعالج بالصبر، والمشتاق يعالج بالشكر، والواصل يعالج بالولاية.

(١) وردت في طبقات الصوفية (ص ١١١).

(٢) قيصرية نسبة إلى قيصر ملك الروم، وكسروية نسبة إلى كسرى ملك الساسانيين وشدادية نسبة إلى شداد صاحب أرم وعام قوم هود النبي وهذه الألفاظ الأربعة تعني الكفر ومخالفة الإسلام.

د. استعلامي (ص ٨٥٤).

وقال: حين ترى أن الرجل يشير إلى العمل اعلم أن طريقته الورع، وحين ترى أنه يشير إلى الآيات فاعلم أن طريقه طريق الأبدال، وحين ترى أنه يسير إلى الآلاء فاعلم أن طريقه طريق المحبين، وحين ترى أنه يتعلق بالذكر فاعلم أن طريقه طريق العارفين.

وقال: ما دمت تشكر، فإنك لست بشاكر، فغاية الشكر التحير.

وقال: لا يسكن قلب مريد الآخرة إلا في أربعة مواضع: إما زاوية دار أو مسجد أو قبر أو موضع لا يستطيع أن يراه فيه أحد قط ثم لا يجلس إلا مع شخص لا يشيع من ذكر الله تعالى. قيل: ما أقسى شيء على المريد؟ قال: مجالسة الأضداد.

وقال: انظر أنسك بالخلوة والأنس بالحق في الخلوة، فإن كان أنسك بالخلوة، فإنه يزول حين تخرج منها، وإن كان أنسك بالله، استوت لديك الدنيا بأسرها من بادية وجبل وصحراء. وقال: الوحدة أنيس الصديقين. وقال: عند نزول البلاء، تظهر حقائق الصبر، وعند مكاشفة المقدور، تظهر حقائق الرضا^(١).

وقال: محبوب اليوم يعقب المكروه غداً، ومكروه اليوم يعقب المحبوب غداً^(٢).

وقال: ضياع الدين من الطمع وبقاء الدين في الورع.

وقال: لا ضرر للمعصية مع النية الحسنة.

وقال: مقدار حبة من محبة أحب إليّ من سبعين عامًا عبادة بلا محبة.

وقال: الأعمال في حاجة إلى ثلاث خصال: العلم والنية والإخلاص.

وقال: يمكن (للمرء) الخلاص من العبودية بصدق التوكل، ويستطيع أن يحظى بالجزاء بالإخلاص في الإنفاق، ويمكن أن يطيب عيشه بالرضاء بالقضاء.

وقال: الإيمان ثلاث: الخوف والرجاء والمحبة، ويتضمن الخوف ترك الذنب حتى تنجو من النار، ويتضمن الرجاء الاستغراق في الطاعة حتى تفوز بالجنة، وتتضمن المحبة احتمال المكروه حتى يتحقق رضاء الحق.

وقال: العارف من لا يحب شيئاً أكثر من ذكر الله. وقال: لا تسري المعرفة إلى قلبك، ما لم تؤد حقها عليك.

وقال: الخوف شجرة في القلب ثمرتها الدعاء والتضرع، عندما يخاف القلب تستجيب جملة الجوارح للطاعة وتجتنب المعاصي.

(١) وردت في طبقات الصوفية (ص ١١٣).

(٢) وردت في طبقات الصوفية (ص ١١٣).

وقال: أسمى منازل الطالبين الخوف، وأسمى منازل الواصلين الحياة.

وقال: لكل شيء زينة، وزينة العبادة الخوف وعلامة الخوف قصر الأمل.

وقال: علامة الفقر الخوف من الفقر. وقال: أسمى تعفف التواضع.

وقال: الإخلاص لله هو تنزيه العمل عن العيوب.

وقال: علامة الشوق أن تحفظ الجوارح عن الشهوات، وعلامة الشوق لله محبة الحياة مع الراحة، أي طالما تكون الحياة ولا يكون الألم الذي يحرق يزداد الشوق إليه.

وقال: الطاعة خزانة الله ومفتاحها الدعاء.

وقال: التوحيد نور والشرك نار، يحرق نور التوحيد كل سيئات الموحدين، وتجعل نار الشرك كل حسنات المشركين رمادًا.

وقال: طالما أن التوحيد ليس بعاجز عن كل شيء اعترضه من قبل من كفر وطغيان، فإنه ليس بعاجز عن أن يمحو كل شيء يعترضه بعد ذلك من ذنب وعصيان.

وقال: الورع هو الوقوف على حد العلم دون تأويل.

وقال: الورع على نوعين: ورع في الظاهر لا يتحرك إلا بالله، وورع في الباطن وهو لا يسري إلى قلبك إلا بالله.

وقال: الزهد ثلاثة حروف: الزاي والهاء والdal، أما الزاي فترك الزينة، والهاء ترك الهوى، والdal ترك الدنيا.

وقال: ينبعث السخاء بالملك من الزهد ومن الحب السخاء بالنفس والروح.

وقال: الزهد هو الحرص على ترك الدنيا أكثر منه على طلبها. وقال: الزاهد صافي الظاهر، والعارف صافي الباطن مختلط الظاهر^(١).

وقال: الفوت أشد من الموت؛ لأن الموت انقطاع عن الخلق، والفوت انقطاع عن الحق تعالى^(٢).

وقال: من تحدث قبل أن يفكر جنى الندم، ومن فكر قبل أن يتحدث وجد السلامة.

وقال: علامات التوبة النصوح ثلاث: قلة الأكل من أجل الصوم، وقلة النوم من أجل الصلاة، وقلة القول من أجل ذكر الله (تعالى).

(١) وردت في طبقات الصوفية (ص ١١٢).

(٢) وردت في طبقات الصوفية (ص ١١٢)، الرسالة القشيرية (ص ٢٧).

وقال: يمحو ذكره كل الذنوب، فكيف يكون رضاؤه؟ ويمحو رضاؤه الآمال، فكيف يكون حبه؟ ويصيب حبه العقول بالدهشة، فكيف يكون وده؟ وينسي وده كل شيء دونه، فكيف يكون لطفه؟

سئل: بما يمكننا أن نعرف أن الله (تعالى) راض عنا أم لا؟ قال: إن كنت راضيًا عنه، فهذا دليل على أنه راض عنك.

قالوا: وحينما لا يكون شخص راضيًا عنه ويدعي معرفته، قال: بلى، من يغفل إنعامه ويغضب لمقدور سواء نعمة أو محنة أو مصيبة.

وقال شخص: متى أصل إلى مقام التوكل، وأخلع رداء الطمع، وأجلس مع الزاهدين؟ قال: حين تجعل النفس تتراض في السر، حتى تصل إلى درجة أنه لو لم يرزقك الحق ثلاثة أيام فلا تضعف من داخلك، وإذا لم تصل إلى هذه الدرجة يكون جلوسك على بساط الزاهدين جهلاً ولا تأمن فضيحتك.

قيل: من يكون أكثر أمنًا غدًا؟ قال: من يكون أكثر خوفًا اليوم.

قيل: متى يصل الرجل إلى التوكل؟ قال: حين يرضى بوكالة الله (تعالى).

قيل: ما الغنى؟ قال: الإيمان بالله.

قيل: من العارف؟ قال: غير موجود.

قيل: ما الفقر؟ قال: أن تستغنى باللهك عن كل الكائنات.

حدث أن كان الحديث عن الغنى والفقر يدور أمامه ذات يوم فقال: لن تكون هناك قيمة للغنى ولا الفقر غدًا، إنما ستكون للصبر والشكر، فعليك أن تشكر وتصبر.

قالوا: من أرسخ قدمًا من الخلق في الزهد، قال: من كان أكثر يقينًا.

قيل: ما علامة المحبة؟ قال: لا تزيد بالبر ولا تنقص بالجفاء^(١).

قال له رجل: أوصني، فقال: سبحان الله، طالما لا تقبل نفسي مني، كيف تقبل أخرى مني؟! قالوا: نرى جماعة يغتابونك، قال: إن أراد الله أن يغفر لي فلا ضرر عليّ مما يقولونه، وإن لم يرد، فإنني جدير بما يقولون.

قيل: لماذا تتحدث دائمًا عن الرجاء وتشرح كرمه ولطفه؟ قال: لا بد ألا يكون حديث مثلي مع الفتيان إلا عن الكرم واللطف.

(١) وردت في كشف المحجوب (ص ٥٦٦) مع الاختلاف.

وله مناجاة قال فيها: إلهي، أرجو منك السيئات قبل أن أرجو الحسنات؛ لأنني أجد نفسي أعتمد على الطاعة بإخلاص، وكيف أستطيع الطاعة بإخلاص وأنا معروف بالآفات؟! ولكنني أجد نفسي في الذنوب على نحو أعتمد معه على عفوك، وكيف لا تغفر ذنبي وأنت موصوف بالجلود.

وقال: إلهي أرسلت موسى الكليم وهارون العزيز إلى فرعون الطاغية الباغي، وقلت: ترفقا به، إلهي، هذا هو لطفك مع شخص يدعي الألوهية، فكيف يكون لطفك مع شخص يعبدك (مخلصًا) من الأعماق.

وقال: إلهي، هذا هو لطفك وحلمك مع شخص يقول ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ فمن يعرف ما سيكون لطفك وكرمك مع شخص يقول «سبحان ربي الأعلى».

وقال: إلهي، ليس لي في كل مالي وملكي سوى مرقعة بالية، ومع هذا إن طلبها شخص مني لا أمنعها عنه، مع أنني محتاج إليها. لديك آلاف مؤلفة من الرحمت ولست محتاجًا إليها مثقال ذرة، فكيف تضن بتلك الرحمت الموجودة عليهم.

وقال: إلهي، قلت: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾^(١) وليس هناك شيء قط أطيب من الإيمان الذي وهبتنا إياه، والشيء الأفضل منه الذي تهبه لنا ليس إلا لقاءك يا إلهي.

وقال: إلهي، كما أنك لا تشبه شخصًا، فلا تشبه أعمالك أعمال شخص، فكل شخص يحب شخصًا يبحث عن الراحة التامة له، وأنت عندما تحب شخصًا تمطر على رأسه البلاء.

وقال: إلهي، كل شيء تمنحه لي من الدنيا امنحه للكافرين، وكل شيء تمنحه لي من العقبي امنحه للمؤمنين، فيكفيني ذكرك في الدنيا ولقاؤك في العقبي.

وقال: إلهي، كيف أمتنع بالذنوب عن الدعاء ولا أراك تمتنع بذنبي عن العطاء، فمع أنني أرتكب الذنوب فإنك تمنحني العطاء، ومن ثم فلا أستطيع التوقف عن الدعاء، على الرغم من اقترافي الذنوب.

وقال: إلهي، إذا لم أستطع الإقلاع عن الذنب، فإنك تستطيع أن تغفر ذنبي.

وقال: إلهي، كل ذنب يصدر مني في الوجود له وجهان: أحدهما بلطفك والآخر بضعفي، فإما أن تغفره بلطفك أو تعفو عنه بضعفي.

وقال: إلهي، أخشاك لسوء سلوكي، وأرجوك بفضلك، ومن ثم أتمنع فضلك عني بسبب سوء سلوكي؟

(١) سورة النمل: الآية (٨٩).

وقال: إلهي، أعف عني فإنني ملك لك.

وقال: إلهي، كيف أخشاك وأنت كريم؟ وكيف لا أخشاك وأنت عزيز؟

وقال: إلهي، كيف أدعوك وأنا عاصي؟ وكيف لا أدعوك وأنت إله كريم^(١)؟

وقال: إلهي، ما أطيبك إلهاً منزهاً، يذنب العبد وتنجس كرمًا.

وقال: إلهي، أخشاك لأنني عبد، وأرجوك لأنك إله.

وقال: إلهي، إنك تحبني؛ لأنني أحبك مع أنك في غنى عني، ومن ثم فكيف لا أحبك لأنك

تحبني مع كل احتياجي هذا لك.

وقال: إلهي، إنني غريب، وقد ألفت ذكرك لأن الغريب يتألف مع الغريب.

وقال: إلهي، أحلى عطاء في قلبي رجاءك، وأطيب كلام على لساني الشاء عليك، وأحب

الأوقات إليّ وقت لقائك.

وقال: إلهي، لا أستحق الجنة ولا أطيق الجحيم، الآن توقف الأمر على فضلك.

وقال: إن قال لي غداً: ما أحضرت؟ أقول: قد عقدت من السجن شعراً أشعث ورداءً قذرة

وعالمًا حزينًا وخجلًا، فما أستطيع أن أحضر؟ فاغسلني واخلع عليّ ولا تسأل.

يروى أن يحيى اقترض مائة ألف درهم كان قد صرفها على الغازين والحجيج والفقراء

والعلماء والمتصوفة، وكان غرماؤه يطالبونه، فانشغل قلبه بذلك، وفي ليلة الجمعة رأى النبي

(صلى الله عليه وعلى آله وسلم) في المنام، قال: يا يحيى! لا تحزن، فإنني أتألم لضيقك،

فانهض، واذهب إلى خراسان فإن امرأة قد وضعت لك ثلاثمائة ألف درهم مقابل تلك المائة

ألف درهم التي اقترضتها، قال: يا رسول الله! في أي مدينة؟ ومن تلك المرأة؟ قال: امض من

مدينة إلى مدينة وعظ فإن كلامك شفاء للقلوب، ومثلما جئت في المنام أجيء لتلك المرأة،

ثم قدم يحيى إلى نيسابور، فوضعه أمام طاقة منبر، فقال: يا أهل نيسابور، قد جئت هنا بإشارة

من النبي ﷺ فقد قال: إن شخصاً سيؤدي دينك، وإن عليّ ألف درهم فضة، واعلموا أن لحديثنا

جمال في كل وقت، الآن جاء هذا الدين حجاباً، فقال أحدهم: أعطيك خمسين ألف درهم،

وقال آخر: أعطيك أربعين ألف درهم، فلم يأخذها يحيى وقال: أشار السيد ﷺ إلى شخص،

ثم انخرط في الحديث، وحملوا سبع جنازات من مجلسه في اليوم الأول، ولما لم يؤد دينه في

نيسابور قصد بلخ، ولما وصل هناك احتجزه الناس مدة حتى تكلم وفضل الغنى على الفقر

فأعطوه مائة ألف درهم، وكان هناك شيخ في تلك الناحية لم يعجبه ذلك الكلام وتفضيل الغنى

(١) وردت في صفة الصفوة، ج٤؛ (ص ٨٤).

فقال: لا بارك الله له، ولما خرج من بلخ، قطع عليه اللصوص الطريق، وسلبوه المال، قيل: كان هذا أثر دعاء ذلك الشيخ، ثم قصد هراة، ويقال: مضى إلى مرو ثم قدم إلى هراة، وقص المنام، وكانت ابنة أمير هراة في المجلس، فأرسلت إليه شخصاً قال (عن لسانها): أيها الإمام، أفرغ قلبك من الدين، فتلك الليلة التي قال لك فيها سيد العالم ﷺ قال لي فيها أيضاً، فقلت: يا رسول الله هل أذهب إليه؟ فقال: سيأتي هو، وكنت أنتظر، ولما زوجني والدي أعد لي ما كان للآخرين من قصدير ونحاس وفضة وذهب، وتلك هي الفضة ثلاثمائة ألف درهم، آثرتها كلها لك، ولكن لي حاجة وهي أن تعظ في المجلس أربعة أيام متتالية، فوعظ يحيى في المجلس أربعة أيام، في اليوم الأول: رفعوا عشرة نعوش، وفي اليوم الثاني: حملوا خمسة وعشرين، وفي اليوم الثالث: أربعين نعشاً، وفي اليوم الرابع: سبعين نعشاً، وفي اليوم الخامس ترك هراة بسبعة أحمال من الفضة، ولما وصل بهم كان معه ولد، وكان يحضر ذلك المال، فقال: لا ينبغي أن يمنحها إلى الغرماء والفقراء حين يصل إلى المدينة ويتركني بلا نصيب.

كان يناجي في السحر ووضع رأسه في سجدة، فجأة وقع حجر على رأسه، فقال يحيى: امنحوا المال للغرماء، وأسلم الروح، فحمله أهل الطريقة على أعناقهم وأحضره إلى نيسابور ودفنوه في قبور عامرة^(١) (رحمة الله عليه).



(١) معمرة: اسم حي أو جزء قديم من نيسابور. د. استعلامي (ص ٨٥٥).

ذكر الشاه شجاع الكرمانى^(١)

قدس الله روحه



هو ثاقب البصيرة، وصقر الصورة والسيرة، هو صديق المعرفة، والمخلص بلا صفة، هو نور السراج الروحاني الشاه بن شجاع الكرمانى (رحمة الله عليه).

كان شيخ زمانه، وسيد عصره، وكان من عياري الطريقة، ومن صعالكة سبيل الحقيقة وكان حاد الفراسة، ولم تكن فراسته تخطئ قط، وكان من أبناء الملوك، وصاحب تصانيف، وقد ألف كتاباً يسمى «مرآة الحكماء»^(٢).

وكان قد رأى كثيراً من المشايخ مثل أبي تراب ويحيى بن معاذ وغيرهما، وكان يرتدي القباء. يروى أنه لم ينم لأربعين عاماً، وكان يضع الملح في عينيه، فكانت عيناه قد أصبحت كقدحين من الدماء، ونام ذات ليلة بعد أربعين عاماً فرأى الله (سبحانه وتعالى) في المنام، فقال: يا إلهي، كنت أطلبك بسهر الليل فرأيتك في النوم! فقال: يا شاه لقد أدركتنا في النوم بالسهر، ولو لم يكن ذلك السهر لما كان مثل هذا المنام^(٣).

كانوا يرونه بعد ذلك كان يضع وسادة في كل مكان كان يذهب إليه، وكان ينام ويقول: لعلي أرى مثل ذلك المنام ذات مرة، وكان قد أصبح عاشقاً للنوم، وكان يقول: لا أمنح ذرة من خوفي هذا بيقظة العالم كله^(٤).

يروى أن ابناً كان لشاه، كان قد كتب على صدره «الله» بخط أخضر، ولما أدركه الشباب، اشتغل بالترحال، وكان يعزف على الربابة، وكان له صوت حسن، وكان يعزف على الربابة

(١) شاه شجاع: أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرمانى، كان من أولاد الملوك وتزهد، مات قبل سنة ثلاثمائة هـ.

انظر ترجمته في طبقات الصوفية (ص ١٩٢)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٢٣٧)، الرسالة القشيرية (ص ٣٧)، صفة الصفوة، ج ٤ (ص ٦٢)، كشف المحجوب (ص ٣٥٠).

(٢) مرآة الحكماء: ذكره الهجویری في موضعين في كشف المحجوب واعتبره أثراً لشاه الكرمانى.

د. استعلامی (ص ٨٥٥).

(٣) وردت في كشف المحجوب (ص ٣٥٠) من الترجمة العربية.

(٤) وردت في كشف المحجوب (ص ٥٩٧) مع الاختلاف.

ويبكي. خرج ثملًا ذات ليلة، ونزل عازفًا ومنشدًا في محلة، فنهضت عروس من جانب زوجها وجاءت لمشاهدته، فاستيقظ الزوج، فلم ير زوجته، فنهض، وشاهد تلك الحال، فنادى: يا بني، ألم يحن وقت التوبة حتى الآن؟! فوقع هذا الكلام من قلبه موقعًا، وقال: آن، آن، ومزق رداءه وحطم الربابة، ودخل الدار، ولم يأكل قط لأربعين يومًا، ثم خرج، ومضى، فقال الشاه: ما منحوه لنا في أربعين عامًا، مُنح له في أربعين يومًا.

يروى أن بنتًا كانت لشاه، وكان يطلبها ملوك كرمان، فطلب منهم عدة أيام مهلة كان يطوف فيها في المساجد، حتى رأى فقيرًا كان يحسن الصلاة، فظل الشاه صابرًا حتى فرغ الفقير من الصلاة وقال: أيها الفقير! أنت متزوج؟ قال: لا. قال: أتريد زوجة تقرأ القرآن؟ قال: ومن يزوجني مثل هذه المرأة وأنا لا أملك أكثر من ثلاثة دراهم؟ قال: أنا أزوجك ابنتي، وهذه الدراهم الثلاثة التي تمتلكها أنفق واحدًا منها في الخبز، وواحدًا في العطر، وأعقد عقد النكاح، وهكذا فعلا، وأرسل ابنته إلى داره في نفس الليلة، فلما دخلت الفتاة دار الدرويش رأت خبزًا يابسًا، وقد وضع على حافة قده ماء، فقالت: ما هذا الخبز؟ قال: كان قد بقي من البارحة وتركته لهذه الليلة، فهمت البنت بالخروج، فقال الفقير: علمت أن ابنة الشاه شجاع لا تستطيع العيش معي، ولا تخضع لضعفي، فقالت الابنة: أيها الشاب إنني لا أمضي بسبب فقرك، لكن بسبب ضعف إيمانك وبقينك، فقد أبقيت خبزًا من الأمس للغد ولا تعتمد على الرزق، ولكنني أعجب من والدي فقد (حفظني) في داره عشرين عامًا وقال: سأزوجك لتقي، وعندئذ زوجني لشخص لا يعتمد على الله في رزقه، قال الفقير: لهذا الذنب عذر، فقالت: والعذر هو: إما أن أبقى أنا في هذا الدار أو الخبز اليابس.

يروى أن أبا حفص الحداد كتب رسالة إلى الشاه شجاع، وقال: نظرت إلى نفسي وعملي وتقصيري فيئست والسلام. فرد عليه الشاه: جعلت رسالتك مرآة لقلبي، فإن كان يأسى من نفسي خالصًا؛ لصفا رجائي في الله، وإن صفا رجائي في الله لصفا خوفاً منه، وعندئذ أياس من نفسي، وإن يئست من نفسي أستطيع أن أذكر الله آنذاك، وإن ذكرت الله ذكرني، وإن ذكرني الله أنجو من المخلوقات وأتعلق بكل المحبوبات والسلام.

يروى أن محبة كانت بين الشاه ويحيى بن معاذ، واجتمعا في مدينة، ولم يكن الشاه يحضر مجلس يحيى، فقيل له: لماذا لا تأتي؟ قال: الصواب في ذلك، فألحوا عليه، فمضى ذات يوم، وجلس في زاوية، فسكت يحيى عن الكلام وقال: هنا شخص حاضر أولى مني بالحديث، فقال الشاه: قلت: إن مجيئي ليس من المصلحة.

وقال: لأهل الفضل فضل ما لم يروه، فإذا رأوه فلا فضل لهم. ولأهل الولاية ولاية ما لم

يروها أيضًا، فإذا رآوها فلا ولاية لهم^(١).

وقال: الفقر سر الحق لدى العبد، حين يخفيه يأمن، وحين يفشيه يتركه اسم الفقر.
وقال: علامات الصدق ثلاث: الأولى: أن يذهب قدر الدنيا عن قلبك بحيث يصبح الذهب والفضة أمامك كالتراب، فإذا وقعت الفضة والذهب في يدك تنفض يدك منها كما تنفض التراب.
الثانية: أن يستغنى قلبك عن رؤية الخلق بحيث يستوي لديك المدح والذم فلا تزداد بالمدح ولا تنقص بالذم. والثالثة: أن يعينك على مقاومة الشهوة من قلبك بحيث تسر بالجوع وترك الشهوات لأن أهل الدنيا يسرون بالشبع وإطلاق الشهوات وكلما تكون كذلك، الزم طريق المريدين، وإذا لم تكن كذلك فأى شأن لك بهذا الكلام؟
وقال: الخوف حزن دائم.

وقال: الخوف الواجب هو أن تعرف أنك مقصر في حقوق الله (تعالى).
وقال: علامة الطبع الحسن أن تكف أذاك عن الخلق وتتحمل أذاهم.
وقال: علامة التقوى الورع، وعلامة الورع الوقوف عند الشبهات^(٢).
وقال: مات العشاق بالعشق؛ لأنهم عندما أدركوا الوصال ادعوا الألوهية وهما.
وقال: علامة الرجاء حسن الظاهر.
وقال: علامات الصبر ثلاث: ترك الشكوى وصدق الرضا وقبول القضاء بقلب راض.
وقال: من غض بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشهوات، وعمر باطنه بدوام المراقبة، وجمل ظاهره باتباع السنة، وعود نفسه أكل الحلال لم تخطئ له فراسة^(٣).
يروى أنه قال لأصحابه ذات يوم: اجتنبوا الكذب والخيانة والغيبة، ثم اصنعوا ما بدا لكم^(٤).
وقال: دع الدنيا تتوب، ودع هوى النفس تصل إلى المراد.
سئل: كيف تكون في الليل؟ قال: الطائر الذي يضربونه بالعصا ويدورونه حول النار لا حاجة للسؤال عنه!

يروى أن السيد علي السيرجاني^(٥) كان يتصدق بخبز على قبره، ووضع الطعام أمامه ذات

(١) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٩٣)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٢٣٨)، صفة الصفوة، ج ٤ (ص ١٦٢)، كشف المحجوب (ص ٣٥٠).

(٢) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٩١)، الرسالة القشيرية (ص ٣٧).

(٣) وردت في حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٢٣٧)، الرسالة القشيرية (ص ٣٧)، صفة الصفوة، ج ٤ (ص ٦٢).

(٤) وردت في الرسالة القشيرية (ص ٣٧).

(٥) السيد علي السيرجاني: ذكره الهجويري (ص ٢١٥) من كشف المحجوب وعده من عارفي كرمان. د. استعلامي (ص ٨٥٥).

يوم وقال: إلهي أرسل حنيفًا، وفجأة دخل كلب، فصاح عليه السيد علي، فمضى الكلب، فهتف هاتف من قبر الشاه: أتريد حنيفًا، وعندما نرسله ترده. فنهض في الحال، وخرج مسرعًا، وأخذ يطوف الأنحاء، فلم ير كلبًا، فمضى إلى الصحراء، فرآه نائمًا في زاوية، فوضع أمامه ما أحضره، فلم يلتفت الكلب إليه قط، خجل السيد علي، ووقف في مقام الاستغفار وأمسك المنديل وقال: تبت، فقال الكلب: أحسنت يا سيد علي، تدعو الضيف وحين يأتي تطرده! تلزمك عين، وإن لم يكن الشاه لما رأيت ما رأيت. (رحمة الله عليه).



ذكر يوسف بن الحسين^(١)

قدس الله روحه العزيز



هو معتكف الحضرة الدائم، وحجة ولاية ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾^(٢)، هو الشمس المحتجة، وماء الحياة في الظلمة، هو صقر الكونين، قطب الزمان يوسف بن الحسين (رحمة الله عليه).

كان من جملة المشايخ، ومن المقدمين بين أولياء العالم في أنواع العلوم الظاهرة والباطنة، وله آراء في بيان المعارف والأسرار.

وكان شيخ الري، وكان قد رأى كثيرًا من المشايخ والشيخوخ، وصاحب أبا تراب، وكان من رفاق أبي سعيد الخراز، وكان مريدًا لذي النون المصري. وكان قد عمر طويلًا، وقد أبدى في أمره جدية تامة على الدوام، وكان آية في الأدب، وكان هو نفسه أديبًا، وله رياضات وكرامات، وله في الملامة قدم راسخة وهمة عالية.

وكانت بداية أمره أنه وصل مع جمع إلى قبيلة من قبائل العرب، فلما رآته ابنة أمير العرب فتنت به؛ لأنه كان وسيماً جداً، وفجأة اغتنمت تلك الفتاة الفرصة وألقت بنفسها أمامه، فارتعد وتركها، وابتعد عن القبيلة، ونام في تلك الليلة، وكان قد أسند رأسه على ركبته واستغرق في النوم، فرأى موضعاً لم يكن قد رأى مثله من قبل، وجماعة مرتدية ثياباً خضراء، ورجلاً جالساً على العرش كالملك، فأراد يوسف أن يعرف من هم؟ فذهب بنفسه إليهم، فأرشدوه إلى الطريق وبجلوه، فقال: من أنتم؟ قالوا: إننا ملائكة والذي على العرش هو يوسف النبي (عليه السلام) وقد جاء لزيارة يوسف بن الحسين.

قال: غلبني البكاء وقلت: من أنا حتى يأتي نبي الله لزيارتي، وبينما كنت في هذا التفكير نزل

(١) يوسف بن الحسين: هو أبو يعقوب يوسف بن الحسين، شيخ الري، سمع الحديث عن أحمد بن حنبل، توفي عام ٣٠٤هـ. انظر ترجمته في طبقات الصوفية (ص ١٨٥)، حلية الأولياء، ج ١ (ص ٢٣٨)، الرسالة القشيرية (ص ٣٧)، صفة الصفوة، ج ٤ (ص ٩٤).

(٢) سورة المائدة: الآية (٥٤).

يوسف (عليه السلام) من العرش، واحتضنني وأجلسني على العرش، فقلت: يا نبي الله! من أنا حتى تفعل معي هذا اللطف؟!

قال: في تلك الساعة التي أَلقت فيها تلك الفتاة شديدة الجمال بنفسها أمامك وتركتها للحق (تعالى) واستعذت به، عرض الحق (تعالى) (أمرك) عليّ وعلى الملائكة ووضحه وقال: انظر يا سوف! أنت يوسف الذي كان يقصد دفع زليخا، وهو يوسف الذي لم يقصد ابنة ملك العرب وفرّ. ومن ثم أرسلني وهؤلاء الملائكة لزيارتك، وبشر بأنك من رجال الحق.

ثم قال: في كل عصر آية، وآية هذا العصر ذو النون المصري الذي مُنح الاسم الأعظم، فاذهب إليه. عندما استيقظ يوسف، كان قد احتواه الألم كلية، وغلبه الشوق، فاتجه إلى مصر وكان يرغب في اسم الله الأعظم. وعندما وصل إلى مسجد ذي النون، سلم، وجلس، فأجاب ذو النون السلام، اعتكف يوسف عامًا في زاوية المسجد ولم يجرؤ أن يسأل ذا النون شيئًا، بعد عام، سأل ذو النون: من أين هذا الفتى؟ قال: من الري، ولم يقل شيئًا لعام تال أقام فيه يوسف في تلك الزاوية أيضًا، ولما مر عام آخر، قال ذو النون: لما جاء هذا الشاب؟ قال: لزيارتكم، ولم يقل شيئًا لعام آخر، بعد ذلك قال: ألك حاجة؟ قال: جئت لتعلمني الاسم الأعظم، ولم يقل شيئًا آخر، وبعد ذلك أعطاه قدحًا خشبيًا مغلقًا وقال: اعبّر نهر النيل، ففي المكان الفلاني شيخ، أعطه هذا الوعاء، وتعلم كل شيء يقوله لك، حمل يوسف الوعاء، ومضى، ولما قطع مسافة من الطريق ثارت الوسائس داخله (متسائلًا): ما الذي يتحرك في هذا الوعاء؟ ففتحه، فقفز فأر وفرّ، اندهش يوسف وقال: أين أذهب الآن؟ أأذهب إلى هذا الشيخ أم إلى ذي النون؟ وفي النهاية ذهب إلى الشيخ بالوعاء الفارغ، عندما رآه الشيخ ابتسم وقال: هل طلبت منه اسم الله الأعظم؟ قال: بلى. قال: كان ذو النون يرى قلقك فأعطاك فأرًا، سبحان الله لم تستطع الحفاظ على فأر، فكيف تحفظ اسم الله الأعظم؟ خجل يوسف ورجع إلى مسجد ذي النون، قال ذو النون: رجوت الحق بالأمس سبع مرات أن يسمح لي أن أعلمك الاسم الأعظم، فلم يأذن لي، أي أن الوقت لم يحن بعد. ثم قال الحق (تعالى): اختبره بفأر، ولما اختبرتك كان الأمر كذلك، فارجع إلى مدينتك الآن حتى يحين الوقت. قال يوسف: أوصني، قال: أوصيك بثلاث: واحدة كبيرة والأخرى متوسطة والثالثة صغيرة، الوصية الكبيرة هي: أن تنسى كل ما قرأته وأن تمحو كل ما كتبه حتى ينقش الحجاب.

فقال يوسف: لا أستطيع هذا. قال ذو النون: والمتوسطة هي: أن تنساني ولا تفصح باسمي لشخص، فهكذا قال شيعي وهكذا أمر بأن كل هذا غرور. قال: ولا أستطيع أن أفعل هذا أيضًا. ثم قال: والوصية الصغرى هي: أن تنصح الخلق وتدعوهم إلى الله.

قال: أقدر على هذا إن شاء الله. قال: لكن بشرط أن تنصح دون أن تُرى بين الخلق. قال: سأفعل ذلك.

ثم جاء إلى الري، وكان ابن شيخها، فاستقبله أهل المدينة، ولما بدأ المجلس شرح كلام الحقائق، فعاداه أهل الظاهر فلم يكن هناك في ذلك الوقت علم سوى علم الظاهر، وكان يسلك طريق الملامة أيضًا إلى حد أن شخصًا لم يأت إلى مجلسه. دخل ذات يوم ليعظ في المجلس فلم ير أحدًا، أراد أن يعود، فنادته عجوز (قائلة): ألم تكن قد تعاهدت مع ذي النون على أن تنصح من لا تراه من الخلق؟ وأن تتحدث من أجل الله؟ عندما سمع هذا، اندهش، وبدأ الكلام غير مهتم بأن يكون هناك أحد أم لا، وقضى خمسين عامًا على هذا الحال.

وأصبح إبراهيم الخواص مريدًا له، وقوي شأنه، ووصل أمره ببركة صحبتته إلى حد أنه كان يقطع البادية بلا زاد أو راحلة. وقال إبراهيم: سمعت نداء ذات ليلة (فحواه): اذهب وقل ليوسف ابن الحسين إنك من المطرودين، فقال إبراهيم: شق عليّ هذا الكلام بحيث إن ضربت بجبل على رأسي لكان أيسر علي من أن أبلغه هذا الكلام، وفي الليلة التالية سمعت بتهديد أكبر: قل له إنك من المطرودين، فنهضت واغتسلت واستغفرت وجلست أفكر، وفي الليلة الثالثة سمعت نفس النداء: قل له إنك من المطرودين، وإن لم تقل له تصاب بالآلام تقعدك، فنهضت، ودخلت المسجد في حزن عميق، فرأته جالسًا في المحراب، ولما رأيته قال: أتذكر أي بيت؟ قلت: بلى تذكرت بيتًا عربيًا قلته فسر به ونهض ووقف طويلًا على قدميه، وسال الدمع من عينيه كما لو أنه كان قد اختلط بالدم. ثم التفت إليّ وقال: كانوا يقرؤون أمامي منذ الصباح وحتى الآن فلم تسقط من عيني قطرة ماء، واعترتني هذه الحالة بهذا البيت الذي قلته، فسأل طوفان من عيني صدق الناس إنه زنديق، وصدق الخطاب الصادر من الحضرة: إنه من المطرودين، فشخص يتأثر ببيت هكذا ولا يتأثر بالقرآن، هو مطرود! قال إبراهيم: عجبت لأمره، وضعف اعتقادي فيه فخفت ونهضت واتجهت إلى الصحراء، وتصادف أن التقيت بالخضر فقال لي: يوسف بن الحسين جريح الحق، ولكن مقامه أعلى العليين فينبغي الخطو خطوات كثيرة في سبيل الحق، حتى إذا وضعوا يد الرفض على جبينك يظل مقامك أعلى العليين، لأن كل من يتخلف في هذا الطريق يتخلف عن الملك لا عن الوزارة.

يروى أن عبد الواحد بن زيد^(١) كان رجلًا متمرّدًا، وكان والداه يعانيان منه دائمًا؛ لأنه كان عاقًا جدًّا، مرّ يومًا على مجلس يوسف بن الحسين، وكان يقول هذا القول: «دعاهم بلطفه

(١) عبد الواحد بن زيد: إن كان المراد عبد الواحد بن زيد البصري زاهد القرن الثاني، فهو لم يستطع أن يدرك مجلس يوسف.

د. استعلامي (ص ٨٥٥).

كأنه محتاج إليهم» فأطاح عبد الواحد بشيابه وصاح صيحة، وذهب إلى المقابر، وظل ثلاثة أيام بلياليها، في الليلة الأولى رآه يوسف بن الحسين في المنام وكأنه كان يسمع خطاباً: «ادرك الشاب التائب» فأخذ يوسف يطوف حتى وصل إليه في تلك المقابر، واحتضنه ففتح عينيه وقال: أرسلوا لك منذ ثلاثة أيام بلياليها وتأتي الآن! قال هذا وأسلم الروح.

يروى أن تاجرًا من نيسابور كانت لديه جارية تركية، اشتراها بألف دينار وكان له غريم في مدينة أخرى، أراد أن يسرع ويسترد ماله منه، ولم يثق في شخص في نيسابور كي يترك له جاريته، فجاء إلى أبي عثمان الحيري وقص حاله، فلم يقبل أبو عثمان فتشفع كثيرًا وقال له: امنحها السبيل إلى حرمك، فسرعان ما أعود، الخلاصة قبل، ومضى ذلك التاجر، فوقع نظر أبي عثمان على تلك الجارية رغبًا عنه فعشقتها بحيث سلبه العشق قراره ولم يعرف ما يفعل؟ فنهض وذهب إلى شيخه أبي حفص الحداد، فقال له أبو حفص: ينبغي عليك أن تذهب إلى يوسف بن الحسين في الري، فقصد أبو عثمان العراق في الحال، ولما وصل إلى الري، سأل عن مقام يوسف بن الحسين فقالوا: ما تفعل بذلك الزنديق الإباحي؟ ويبدو أنك من أهل الصلاح وتضرك صحبته، وقالوا له كلاً من هذا القبيل، فندم أبو عثمان على مجيئه وعاد. ولما قدم إلى نيسابور، قال أبو حفص: رأيت يوسف بن الحسين؟ قال: لا، قال: لماذا؟ فقص الحال قائلاً: سمعت أنه رجل كذا وكذا، فلم أذهب إليه وعدت، فقال له أبو حفص: عد وأدركه، فعاد أبو عثمان، وقدم إلى الري، وسأل عن داره، فقالوا له مئات الأقوال الأخرى، فقال: لي معه أمر مهم فأرشدوه، ولما وصل إلى داره، رأى شيخًا جالسًا وأمامه ولد أمرد جميل جدًا، ووضع أمامه كأسًا، وكان النور يشع من وجهه، فدخل وسلم وجلس، واسترسل الشيخ يوسف في الكلام، وقال كلمات عالية سامية فدهش أبو عثمان ثم قال: لله أيها السيد مع مثل هذه الكلمات والمشاهدة أي حالة هذه التي تعتريك من خمر وأمرد؟! قال يوسف: هذا الأمرد ابني، وقليل من الناس من يعرفون أنه ابني، وأنا أعلمه القرآن، وكان كأسًا قد سقط في الموقد فرفعته ونظفته وملأته بالماء، ومن طلب الماء شرب منه؛ لأنني لا أملك قدحًا. قال أبو عثمان: لله، لماذا تفعل مثل هذا، فيقول الناس ما يقولون؟ قال يوسف: أفعل هذا لكي لا يرسل أحد جاريته التركية إلى داري واثقًا بي، عندما سمع أبو عثمان هذا جثا على قدمه، وعرف أن هذا الرجل يحظى بدرجة عالية.

يروى أن حمرة ظهرت في عين يوسف وفتورًا بسبب عدم النوم، فسألوا إبراهيم الخواص: كيف كانت عبادته؟ قال: عندما كان يفرغ من صلاة العشاء كان يقف حتى النهار على قدميه لا يركع ولا يسجد، ثم سألوا يوسف: أي عبادة الوقوف حتى النهار؟ قال: أؤدي فريضة الصلاة بيسر لكنني أريد أن أؤدي صلاة الليل فأقف هكذا ولا يمكنني التكبير بسبب عظمتي. وفجأة يحل

بي شيء ويعتريني حتى الصباح، وعندما يطلع الصبح أؤدي الفريضة.

يروى أنه كتب رسالة للجنيد ذات مرة (جاء فيها): لا أذاقك الله طعم نفسك فإنك إن ذقتها لم تذق بعدها خيراً أبداً^(١).

وقال: لكل أمة صفوة هم وديعة الله يحبهم عن خلقه فإن وجدوا في هذه الأمة فهم الصوفية.

وقال: آفة الصوفية في صحبة الأحداث ومعاشرة الأضداد ورفقة النساء^(٢).

وقال: علم القوم بأن الله يراهم، فاستحيوا من نظره أن يراعوا شيئاً سواه^(٣). ومن ذكر الله بحقيقة ذكره، نسي ذكر غيره، ومن نسي ذكر كل شيء في ذكره، حفظ عليه كل شيء، إذ كان الله عوضاً عن كل شيء^(٤).

وقال: إشارة الخلق على قدر إدراكهم، وإدراك الخلق على قدر معرفتهم، ومعرفة الخلق على قدر محبتهم، وليس هناك حال أحب إلى الله تعالى من محبة العبد له.

وسئل عن المحبة فقال: من أكثر من محبة الله كثرت مهانته وذلتة وكثرت شفقتة على الخلق ونصيحته لهم.

وقال: علامة معرفة الأنس اجتناب (المرء) ما يمنعه عن ذكر الحبيب.

وقال: علامتا الصادق اثنان: محبة الوحدة وإخفاء الطاعة.

وقال: توحيد الخاصة أن يفكر (المرء) في التوحيد في السريرة والقلب كما لو كان واقفاً أمام الحضرة، ويسري تدبيره عليه في أحكام قدرته وبحار توحيده وهو فان عن نفسه وجاهل بأنه موجود كما كان من قبل تحت جريان حكمه.

وقال: من سقط في بحر التجريد ازداد عطشاً كل يوم ولا يرتوي قط لأن للعطش حقيقة لا تسكن سوى بالحق.

وقال: أتمن شيء في الدنيا الإخلاص، كلما اجتهدت أن أطيح الرياء عن قلبي يتسلل إلى قلبي بلون آخر.

وقال: لأن ألقى الله (تعالى) بجميع المعاصي أحب إليّ من أن ألقاه بذرة من التصنع^(٥).

(١) وردت في الرسالة القشيرية (٣٧).

(٢) وردت في حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٢٤٠)، الرسالة القشيرية (ص ٣٧).

(٣) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٨٧)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٢٣٩)، صفة الصفوة، ج ٤ (ص ١٩٤).

(٤) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٨٧).

(٥) وردت في الرسالة القشيرية (ص ٣٧).

وقال: علامة الزهد هي ألا يطلب (المرء) المفقود حتى لا يجعله الموجود مفقوداً.
وقال: غاية العبودية أن تكون عبداً له في كل شيء.
وقال: من عرفه بالفكر عبده بالقلب.
وقال: أذل الناس الطماعون، وأشرفهم الفقير الصادق^(١).
ولما اقتربت وفاته قال: إلهي، إنك تعلم أنني نصحت الخلق قولاً، ونصحت النفس فعلاً،
فاغفر خيانة نفسي بنصيحتي خلقتك.
وبعد وفاته رأوه في المنام، فقالوا: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، قالوا: لأي سبب؟ قال:
ببركة أنني لم أخلط الهزل بالجد أبداً. (رحمة الله عليه).



(١) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٨٩)، كشف المحجوب (ص ٣٤٨) مع الاختلاف.

ذكر أبي حفص الحداد^(١)

قدس الله روحه العزيز



هو قدوة الرجال، ونقطة الكمال، هو العابد الصادق والزاهد العاشق، هو سلطان الأوتاد، قطب العالم أبو حفص الحداد (رحمة الله عليه).

كان ملك المشايخ على الإطلاق، وكان خليفة الحق بالاستحقاق، وكان من سادة هذه الطائفة، ولم يكن هناك شخص في عظمته في زمانه، وكان في الرياضة والكرامة والمروءة والفتوة بلا نظير، وكان فريداً في الكشف والبيان، وكان الله (عز وجل) معلمه وملقته بلا واسطة، وكان شيخاً لأبي عثمان الحيري، وقدم شاه بن شجاع من كرمان لزيارته وصحبه إلى بغداد لزيارة المشايخ.

وكانت بداية أمره أنه عشق جارية إلى حد أنها سلبته قراره، فقليل له: يوجد بمدينة نيسابور يهودي ساحر لديه تدبير أمرك، فذهب إليه أبو حفص، وشرح له حاله، فقال له: عليك أن تكف عن الصلاة أربعين يوماً، وألا تؤد طاعة أو صنيعاً حسناً، وألا يرد اسم الله على لسانك، وألا تنو نية حسنة، حتى أتدبر أمرك، وأحقق مرادك بالسحر، ففعل أبو حفص ذلك لأربعين يوماً. وبعد ذلك صنع اليهودي طلسمًا، ولم يتحقق المراد، فقال اليهودي: لا شك أن خيراً صدر منك في الوجود، وإلا فإنني على يقين أن المراد كان سيتحقق. قال أبو حفص: إنني لم أفعل شيئاً إلا أنني كنت قادماً في الطريق، فأبعدت حجراً بقدمي حتى لا يتعر فيه شخص، فقال له اليهودي: لا تغضب الإله الذي عصيته أربعين يوماً ولم يضع هذا المقدار من تعبك بكرمه، فاضطربت نار في قلب أبي حفص وقويت إلى حد أنه تاب على يد اليهودي^(٢).

وكان يعمل بالحدادة ويخفي حقيقته وكان يكسب كل يوم ديناراً، ويعطيه للفقراء ليلاً أو يلقي به في جعبة الأرامل، ولم يكن يعرفهن، وكان يؤدي صلاة العشاء متسولاً، ويفطر بما يحصل عليه.

(١) أبو حفص الحداد: اسمه عمرو بن سلم، ويقال: عمرو بن سلمة وهو الأصح، من قرية يقال لها كورد آباد على باب مدينة نيسابور على طريق بخارى، مات سنة نيف وستين ومائتين. انظر ترجمته في: طبقات الصوفية (ص ١١٣)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٢٢٩)، الرسالة القشيرية (ص ٢٨)، صفة الصفوة، ج ٤ (ص ١٠٧).

(٢) وردت في كشف المحجوب (ص ٣٣٦) من الترجمة العربية.

وكان يلتقط بقايا الكراث من الحوض الذي يُغسل فيه، وكان يعد خبزاً لطعامه، وظل يمضي فترة على هذا النحو. كان هناك رجل كفيف يمر بالسوق يوماً، وكان يقرأ هذه الآية: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَبَدَأْهُمْ مِنَّكَ اللَّهُ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾»^(١).

فانشغل قلبه بهذه الآية وحل به شيء فغاب عن نفسه، وأدخل يده في النار بدلاً من الملقط، وأخرج حديدة محمأة وضعها على السندان، فضربها الصبيان بالمطرقة ثم نظروا فرأوا الحديدة في يده، وكان يتلقفها فقالوا: ما هذا الحال يا أستاذ؟ فصاح عليهم: اضربوا، قالوا: وأين نظرك يا أستاذ طالما أن الحديدة قد صارت نظيفة، ولما عاد إلى صحوه، ورأى الحديدة المحمأة في يده، وسمع هذا الكلام: أين نظرك طالما أن الحديد قد صار نظيفاً، صاح صيحة وألقى بالحديدة من يده، وترك المكان للسلب والنهب^(٢).

وقال: أردنا مرات عديدة بالتكلف أن نترك هذا العمل، فلم نفعل حتى هاجمنا هذا الحديث وسلبنا أنفسنا، وعلى الرغم من أنني كنت أتوقف عن العمل حتى يرجع عني فلا جدوى. ثم اتجه إلى الرياضة الشاقة، وسلك مسلك العزلة والمراقبة.

وكما يروى أنهم كانوا يستمعون إلى الأحاديث بجواره، فقالوا له: لماذا لا تأتي كي تستمع إلى الأحاديث؟ قال: أردت أن أوفي حديثاً واحداً حقه طيلة ثلاثين عاماً فلم أستطع، فكيف استمع إلى حديث آخر؟ قالوا: وأي حديث ذلك؟ قال: يقول الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم): «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».

يروى أن أبا حفص قد ذهب مع أصحابه إلى الصحراء، وتحدث إليهم فطاب وقتهم، فجاء غزال من الجبل، ووضع رأسه على طرف أبي حفص، فكان أبو حفص يلطم وجهه ويصيح، فمضى الغزال، وعاد الشيخ إلى حاله. سأله الأصحاب: ما هذا؟ قال: لما طاب وقتنا جال بخاطري: أن ليت كانت لدي شاة فكنت أشويها، ولما كان الأصحاب لم يتفرقوا بعد هذه الليلة، ولما جال بخاطري هذا جاء غزال، فقال المريدون: يا شيخ أي معنى للصياح واللطم من شخص حاله مع الحق هكذا؟ قال: ألا تعلمون أن نيل المراد هو الحرمان منه، فإن كان الله (تعالى) يريد بفرعون خيراً لما جعل النيل يسري وفقاً لمراده.

يروى أن أبا حفص كلما كان يغضب كان يتكلم في حسن الخلق، حتى يسكن غضبه، عندئذ ينصرف إلى حديث آخر^(٣).

(١) سورة الزمر: الآية (٤٧).

(٢) وردت في حلية الأولياء، جـ ١٠ (ص ٢٣٠) مع الاختلاف، كشف المحجوب (ص ٣٣٧)، أسرار التوحيد (ص ٢٨٩) من الترجمة العربية - مع الاختلاف.

(٣) وردت في طبقات الصوفية (ص ١١٧).

يروى أن أبا حفص كان يمضي يومًا، فرأى رجلًا حائرًا باكيًا، فقال: ما حدث لك؟ قال: لقد فقدت حمارًا أملكه، ولم أملك غيره، فتوقف الشيخ وقال: بعزته، لا أخطو خطوة ما لم يعد الحمار إليه، فظهر في الحال.

يقول أبو عثمان الحيري: كنت أمضي يومًا إلى أبي حفص، فرأيت أمامه بضع حبات من الزبيب، فأخذت زبيبة ووضعتها في فمي، فأمسك بحلقتي، وقال: أيها الخائن، لما أكلت زبيبتني وبأي سبب؟ فقلت: إنني أعرف قلبك وأثق فيك، وعلمت أيضًا أن كل ما تملكه تؤثره، فقال: إنني لا أثق بقلبي أيها الجاهل، فكيف تثق أنت به؟ بعزة الحق إنني أحيا عمري في خشية منه، ولا أعلم ما سيصدر مني. فشخص لا يعرف ما بداخله، فماذا يعرف شخص آخر عما بداخله^(١)؟! ويقول أبو عثمان أيضًا: كنت مع أبي حفص في دار أبي بكر بن حنيفة^(٢)، وكانت هناك مجموعة من الأصحاب، كانوا يتحدثون عن فقير، فقلت: ليته كان يحضر، فقال الشيخ: إن كانت هناك ورقة، لكنت كتبت عليها حتى يحضر، فقلت: هنا ورقة، قال: لقد ذهب رب البيت إلى السوق، وربما مات، فيكون هناك وارث للورقة، فلا يجوز كتابة شيء عليها^(٣).

قال أبو عثمان: قلت لأبي حفص: اشرح لي كيف أعظ في مجلس العلم؟ قال: وما الذي يدعوك إلى هذا؟ قال: الشفقة على الخلق، فقال: وأي حد بلغت من شفقتك عليهم؟ قال: إلى حد أنني أجزى أن يلقي بي الحق تعالى في الجحيم عوضًا عن العاصين، ويعذبني بدلًا منهم. قال: إن كان الأمر هكذا فبسم الله عندما تعظ في مجلس فانصح قلبك وجسدك أولًا، ثانيًا: لا يغرك تجمع الناس، فهم يراقبون ظاهرك ويراقب الحق (تعالى) باطنك، ومن ثم اعتليت المنبر، واختفى أبو حفص في زاوية، ولما انتهى المجلس نهض سائل، وطلب قميصًا، فخلعت قميصي في الحال، وأعطيته له. قال أبو حفص: «يا كذاب انزل من المنبر»، فقلت: أي كذاب؟ قال: ادعيت أن شفقتك على الخلق أكثر من شفقتك على نفسك، وسبقت إلى الصدقة كي يكون لك فضل السباقيين، فطلبت الأفضل لنفسك وإن كانت دعواك صادقة، لتأخرت برهة ليكون فضل السباقيين لآخر، ومن ثم فأنت كذاب والمنبر ليس مكانًا للكذابين^(٤).

(١) وردت في التعرف لمذهب أهل التصوف (ص ١٤٧).

(٢) أبو بكر بن حنيفة: هذا الاسم ليس معروفًا في مصادر الصوفية وأقوالهم وأحوالهم، فإن لم يكن هناك تصحيف فاحتمال أن يكون المقصود أبا بكر بن علي الفقيه الحنفي الذي اشتهر في القرن الرابع وكان من فقهاء زمانه، وكان يدرس في بغداد، وفي هذه الحالة فإنه عاش بعد عصر أبي حفص فلا تصح هذه الرواية. د. استعلامي (ص ٨٥٦).

(٣) وردت في التعرف لمذهب أهل التصوف (ص ١٤٧).

(٤) وردت في التعرف لمذهب أهل التصوف (ص ١٤٥، ١٤٦).

يروى أنه كان يمضي في السوق يومًا، فتقدم إليه يهودي، فاعتراه الحال، وفقد صوابه، ولما عاد إلى رشده، سأله فقال: رأيت رجلًا ارتدى لباس العدل، ورأيت نفسي ارتديت لباس الفضل، فخفت خشية أن ينزعوا لباس الفضل عني ويلبسوه لذلك اليهودي، وينزعوا عنه لباس العدل ويلبسوه لي.

وقال: كنت أرى الحق وقد نظر إليّ غاضبًا طيلة ثلاثين عامًا، فسبحان الله، أي خوف ومهابة كانت له وهو في تلك الحال.

يروى أن أبا حفص اعتزم الحج وكان عاميًا، ولا يعرف العربية، فلما وصل إلى بغداد قال المريديون لبعضهم البعض: شيء عظيم أن يلزم شيخ شيوخ خراسان ترجمان كي يعرف لغتهم، ثم أرسل الجنيد المريدين لاستقباله، وعرف الشيخ ما كان يفكر فيه أصحابنا، فبدأ الحديث بالعربية في الحال إلى حد أن أهل بغداد تعجبوا من فصاحته، وتجمعت لديه جماعة من الأكابر، وسأله عن الفتوة، فقال أبو حفص: القول لكم فقولوا أنتم، فقال الجنيد: الفتوة في رأيي إسقاط رؤية نفسك، وترك نسبة ما تكون قد فعلته لنفسك، فقال أبو حفص: ما أحسن ما قلت. ولكن الفتوة عندي أداء الإنصاف، وترك مطالبة الإنصاف. فقال الجنيد: اعملوا يا أصحابنا، قال أبو حفص: لا يستقيم هذا بالقول، عندما سمع الجنيد هذا قال: قوموا يا أصحابنا، فقد زاد أبو حفص على آدم، وذريته^(١) في الفتوة أي أنه حصر أولاد آدم في الفتوة إن كانت الفتوة هي ما يقوله.

وكانت لأبي حفص هيئة شديدة وإجلال عظيم لدى أصحابه، ولم يكن مريد قط يجرؤ أن يجلس أمامه أو يلقي نظرة على وجهه، وكان الجميع يقفون أمامه ولا يجلسون دون أمره، وكان أبو حفص يجلس كالسلطان. قال الجنيد: علمت الأصحاب أدب السلاطين، فقال أبو حفص: إنك لا ترى أكثر من عنوان الرسالة، لكن يمكنك الاستدلال منه على ما فيها. ثم قال أبو حفص: مرهم بإعداد قدر من الحساء وحلوى، فأشار الجنيد إلى مريد ليعده، ولما أحضره قال أبو حفص: ضعه على حمال يحمله إلى أن يصيبه التعب، عندئذ ينادي أمام باب كل دار يصل إليه ويعطيه لمن يخرج. فعل الحمال ذلك وكان يمضي حتى أصابه التعب، ولم يطق (مواصلة السير)، فوضعه أمام باب دار ونادى، وكان رب الدار شيخًا فقال: أأحضرت الحساء والحلوى حتى أفتح الباب؟ قال: بلى، ففتح الباب، وقال: ادخل، قال الحمال: تعجبت وسألت الشيخ: ما هذا الحال؟ وكيف عرفت أنني أحضرت الحساء والحلوى؟ قال: جال هذا بخاطري في مناجاتي بالأمس، فأبنائي يطلبونها مني منذ مدة، وأعلم أنها لم تسقط من السماء.

(١) وردت في طبقات الصوفية (ص ١١٧، ١١٨)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٢٣٠)، الرسالة القشيرية (ص ٢٨).

يروى أن مريداً شديد الأدب التحق بخدمة أبي حفص، ونظر إليه الجنيد عدة مرات ليرحب بمقدمه، وسأل (أبا حفص): كم عام قضاها في خدمتك؟ قال أبو حفص: عشر سنوات، قال: إنه يحظى بأدب جم وعظمة عجيبة وكفاءة، فقال أبو حفص: بلى، فقد ضحى بسبعة عشر ألف دينار في سبيلنا، واقترض سبعة عشر ألف أخرى، وضحى بها ولا يجرو حتى الآن أن يسألنا عن شيء. ثم اتجه أبو حفص إلى البادية، وقال: رأيت أبا تراب في البادية ولم أكن قد أكلت شيئاً لسته عشر يوماً، فذهبت إلى حافة حوض لأشرب واستغرقت في التفكير، قال أبو تراب: ما أقعدك هنا؟ قلت: انتظر لمن تكون الغلبة للعلم أم اليقين؟ حتى أكون عوناً لمن تكون له الغلبة، فإن كانت للعلم أشرب الماء، وإن كانت لليقين أنصرف، فقال أبو تراب: ليعظم شأنك. ولما وصل إلى مكة رأى جماعة من المساكين المحتاجين العاجزين، فأراد أن ينعم عليهم، فاحتد واعتراه حال، فمد يده ورفع حجراً وقال: بعزتك لأحطم قناديل المساجد كلها إن لم تهنيئاً شيئاً!

قال هذا، وأخذ يطوف، وفي الحال جاء شخص، وأحضر صرة ذهب وأعطاها له لينفقها على الدراويش، ولما أدى الحج، وقدم إلى بغداد، استقبله أصحاب الجنيد، وقال الجنيد: ما الهدية التي أحضرتها لنا أيها الشيخ؟ قال أبو حفص: ربما لا يستطيع أحد أصحابنا أن يحيا كما ينبغي وها أنا ظفرت بما قلته، فإن رأيتم وقاحة من أخ فابحثوا له عن عذر، وأطلبوا العذر من أنفسكم دونه، فإن لم يجد ذلك العذر وكان الحق معك فابحث عن عذر أفضل، واطلب من نفسك عذراً آخر دونه، فإن لم تجد ابحت عن عذر آخر حتى أربعين عذراً، فإن لم تجد وكان الحق معك ولم تمنح الأعداء الأربعين الجرم، فاجلس وقل لنفسك: ما أعجبك يا دابة النفس وما أعجب ثقلك وظلمتك وأنانيتك الحقيرة ووضاعتك الظالمة، التمس لك أخ أربعين عذراً من أجل جرم ولم تقبلي واحداً وتشبثت برأيك! إنني تخليت عنك وأنت تعلمين، فافعلي ما تريد. عندما سمع الجنيد هذا تعجب. أي لمن يمكن أن تكون هذه المقدرة.

يروى أن الشبلي استضاف أبا حفص أربعة أشهر، وكان يحضر كل يوم عدة ألوان من الطعام وعدة أصناف من الحلوى، ولما ذهب لوداعه في آخر الأمر قال: يا شبلي! إن أتيت إلى نيسابور مرة علمتك الضيافة والمروءة. قال: وما فعلت يا أبا حفص؟ قال: تكلفت والمتكلف ليس من أهل المروءة، فيجب ألا يثقلك مجيء الضيف وألا تسعد برحيله، وطالما تكلفت، ثقل عليك مجيئه وسهل عليك رحيله، ومن كان هذا حاله مع الضيف فهو ليس من أهل المروءة. ولما جاء الشبلي إلى نيسابور، نزل عند أبي حفص، وكان معه أربعون شخصاً، فأشعل أبو حفص واحداً وأربعين سراجاً ليلاً. قال الشبلي: ألم تقل إنه لا يحب التكلف؟ قال أبو حفص: انهض وأطفئها، فنهض الشبلي ومهما حاول لم يستطع أن يطفى أكثر من سراج، فقال: ما هذه الحال يا شيخ؟

فقال: إنكم أربعون شخصًا من رسل الحق، فالضيف رسول الحق، ولا جرم أشعلت مصباحًا باسم كل منكم من أجل الله وسراجًا من أجلي، تلك التي كانت من أجل الله لم تستطع إطفاءها، أما ما كان من أجلي أطفأته، فكل ما فعلته أنت في بغداد فعلته من أجلي، وهذا الذي فعلته أنا، فعلته من أجل الله، ولا جرم أن ذاك تكلفًا وهذا ليس بتكلف.

يقول أبو علي الثقفي: قال أبو حفص: من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بميزان الكتاب والسنة ولم يتهم خاطره فلا تعده من جملة الرجال^(١).

سئل: الصمت أفضل للولي أم الكلام؟ فقال: إن عرف المتحدث آفة الحديث صمت قدر ما استطاع وإن عمّر عمر نوح. وإن عرف الصامت راحة الصمت لرجا الله أن يهبه عمرين كعمر نوح حتى يصمت.

قالوا: لماذا تكره الدنيا؟ قال: لأنها دار توقع العبد كل لحظة في ذنب جديد. قالوا: إن كانت الدنيا سيئة فالتوبة حسنة وتكون التوبة في الدنيا أيضًا، فقال: بلى، لكنني على يقين بالذنب الذي في الدنيا وأنت على يقين لا شك، وكلانا في خطر.

قالوا: ما العبودية؟ قال: أن تترك كل ما تملك وتلتزم بما أمرت به^(٢).

قالوا: ما الفقر؟ قال: إبداء الذلة في حضرة الله.

قالوا: ما علامة الأحاب؟ قال: من يفرح الأصدقاء في اليوم الذي يموت فيه، أي بحيث يخرج من الدنيا مجردًا فلا يبقى شيء يخالف دعواه في التجريد.

قالوا: من الولي؟ فقال: من أيد بالكرامات، وعُيِبَ عنها^(٣).

قالوا: من العاقل؟ فقال: المطالب نفسه بالإخلاص^(٤).

قالوا: ما البخل؟ فقال: ترك الإيثار عند الحاجة إليه^(٥).

وقال: الإيثار هو أن تقدم حظوظ الإخوان على حظك في أمر دنياك وآخرتك^(٦).

وقال: الكرم طرح الدنيا لمن يحتاج إليها والإقبال على الله، لاحتياجك إليه^(٧).

(١) وردت في حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٢٣٠)، الرسالة القشيرية (ص ٢٨).

(٢) وردت في حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٢٣٠).

(٣) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٢١).

(٤) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٢١).

(٥) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٢٠).

(٦) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٢٢).

(٧) وردت في طبقات الصوفية (ص ١١٩)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٢٣٠).

وقال: أحسن وسيلة تقرب العبد إلى الله دوام الفقر في كل حال، والتزام السنة في كل الأفعال وطلب القوت الحلال.

وقال: من لا يهتم نفسه في كل الأوقات والأحوال ولا يخالفها فهو مغرور، ومن نر إلى نفسه بعين الرضا هلك.

وقال: الخوف سراج القلب به يمكن رؤية ما في القلب من خير أو شر.

وقال: لا يصح الفقر لشخص ما لم يكن العطاء أحب إليه من الأخذ.

وقال: لا تخش شخصاً يدعي الفراسة ولكن عليك أن تخشى فراسة الآخرين.

وقال: من يعط ويأخذ فهو رجل ومن يعط ولا يأخذ فهو نصف رجل، ومن لا يعطي ويأخذ فهو ذبابة وليس شخصاً ولا خير فيه. قال أبو عثمان الحيري: سئل عن معنى هذا الكلام، فقال: من يأخذ من الله، ويعطي الله فهو رجل، لأنه في هذه الحال لا يرى نفسه فيما يفعل. ومن يعطي ولا يأخذ، فإنه نصف رجل، لأنه يرى نفسه فيما يفعل فيرى أن له - لأنه لا يأخذ - فضيلة. ومن لا يعطي ويأخذ فهو لا شيء لأنه يظن أنه المعطي والأخذ، دون الله (تعالى) (١).

وقال: من رأى فضل الله عليه في كل حال، أرجو ألا يكون من الهالكين (٢).

وقال: لا تكن عبادتك لربك سبباً لأن تكون معبوداً للمعبود (٣).

وقال: أفضل عمل لأهل الأعمال مراقبتهم لأنفسهم مع الله.

وقال: ما أحسن الاستغناء بالله، وأقبح الاستغناء بالخلق (٤).

وقال: من تذوق جرعة من شراب الذوق فقد وعيه بحيث إنه لا يستطيع أن يثوب إلى رشده ثانية سوى عند اللقاء والمشاهدة.

وقال: لا ينقطع الحال عن العالم ولا مع القبول.

وقال: يعلم الخلق الوصول والقرب والمقامات العالية، وكل أمني أن يدلوني على السبيل إلى الحق وإن قطع كله في لحظة.

وقال: العبادات في الظاهر سرور وفي الحقيقة غرور؛ لأنها قد سبقت المقدور، والواصل هو شخص لا يفرح بفعله، فلا يفرح بفعله سوى مغرور.

(١) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٢٠).

(٢) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٢١).

(٣) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٢١).

(٤) وردت في طبقات الصوفية (ص ١١٧).

وقال: المعاصي بريد الكفر كما أن السم بريد الموت^(١).

وقال: من عرف أنه سيبعث ويحاسب ولا يجتنب المعاصي ولا يمتنع عن المخالفات، لا شك أنه يعلم في باطنه أنه لا يؤمن بالبعث والحساب.

وقال: قل لمن يحب أن يتواضع قلبه: صاحب الصالحين والزم خدمتهم.

وقال: نور الوحدة في خدمته، ونور الروح في الاستقامة له.

وقال: التقوى في الحلال المحض وكفى.

وقال: التصوف كله أدب.

وقال: ليس للعبء في التوبة شيء؛ لأن التوبة إليه لا منه^(٢).

وقال: كل عمل لائق يكتب ويمحونه من ذاكرتك.

وقال: الكفيف من يرى الله بالأشياء ولا يرى الأشياء بالله، والبصير من كان نظره إلى الكائنات من الله.

يروى أن رجلاً طلب منه وصية فقال: يا أخي! الزم باباً واحداً حتى تفتح لك كل الأبواب، والزم سيِّداً واحداً حتى يطيعك كل السادات.

قال محمش^(٣): صحبت أبا حفص اثنتين وعشرين سنة ما رأيته ذكر الله (تعالى) على سبيل الغفلة والانبساط، وما كان يذكره إلا على سبيل الحضور والتعظيم والحرمة. فكان إذا ذكر الله تغيرت عليه حاله، حتى كان يرى ذلك منه جميع من حضره^(٤).

ومن أقواله أنه قال عند النزاع: انكسار القلب واجب في جميع أحوال تقصيره.

سئل: بما اتجهت إلى الله؟ فقال: بما يتجه الفقير إلى الغني إلا بالفقر والذلة. وكانت وصية عبد الله السلمي^(٥) عندما تُوفي: ضبعوا رأسي على قدم أبي حفص. (رحمة الله عليه).

(١) وردت في طبقات الصوفية (ص ١١٦)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٢٢٩)، الرسالة القشيرية (ص ٢٨).

(٢) وردت في كشف المحجوب (ص ٥٤١).

(٣) محمش: في اللغة الفارسية تختصر التركيبات مثل "محمد شاد" و"أحمد شاد" إلى "ممشاد" "محمشاد" وهذا اللفظ يمكن أن يكون مخفف "محمد شاد" أو "ممشاد الدينوري" أي العارف الشهير الذي توفي عام ٢٩٩ هـ.

(٤) وردت في طبقات الصوفية (ص ١١٦).

(٥) عبد الله السلمي: كنيته أبو عبد الرحمن واسمه محمد وهو عارف القرن الخامس الهجري وكتابه طبقات الصوفية في عرف عارفي إيران وصوفيتها الكبار من المصادر القيمة جداً. د. استعلامي (ص ٨٥٦).

ذكر حمدون بن القصار^(١)

قدس الله روحه العزيز



هو فريد القيامة، ودليل الملامة، هو شيخ أرباب الذوق وشيخ أصحاب الشوق، هو سيد الأبرار حمدون بن القصار (رحمة الله عليه).

كان من كبار المشايخ، واتصف بالورع والتقوى، وحظي بدرجة عالية من الفقه وعلم الحديث، وله آراء عجيبة في رؤية عيوب النفس، ووصل في المجاهدة والمعاملة إلى الغاية، وله كلام عالٍ مؤثر في القلوب. وذهب مذهب الثوري، وكان مريدًا لأبي تراب وشيخًا لعبد الله ابن المبارك، وابتلَى بملامة الخلق، وانتشر مذهب الملامية في نيسابور بسببه، وهو مجتهد في الطريقة وصاحب مذهب، وتعدده مجموعة من هذه الطائفة وليًا لهم، ويقال لهم: «القصاريون»، ووصل في التقوى إلى حد أنه كان بجوار فراش صاحب له ذات ليلة وكان في النزاع فلما مات، أطفأ حمدون السراج، وقال: لهذا السراج وارث حقيقي في هذه الساعة ولا يجوز لنا إشعاله^(٢).

وقال: كنت أسير يومًا على شاطئ بحيرة نيسابور، وكان هناك عيار اسمه نوح معروف بالفتوة، تقدم إليّ، فقلت: يا نوح! ما الفتوة؟ قال: فتوتي أم فتوتك؟ قلت: الاثنان. قال: فتوتي هي أن أخلع القباء وألبس المرقعة وأمارس معاملاتنا لأصير صوفيًا، وأجتنب المعصية في ذلك الثوب حياء من الخلق. وفتوتك هي أن تخلع المرقعة حتى لا تفتتن بالخلق ولا يفتتن بك الخلق، ففتوتي حفظ الشريعة على الإظهار، وفتوتك حفظ الحقيقة على الأسرار وهذا أصل عظيم^(٣).

يروى أنه عندما علا شأنه وانتشرت أقواله جاءه أئمة نيسابور وأكابرها، وقالوا له: ينبغي عليك أن تعظ الخلق ليكون كلامك فائدة للقلوب. قال: لا يجوز لي الكلام. قالوا: لماذا؟ قال:

(١) حمدون القصار: هو حمدون بن أحمد بن عمارة أبو صالح القصار النيسابوري، شيخ الملاميين، عنه انتشر مذهب الملامية بنيسابور، توفي عام ٢٧١هـ.

انظر ترجمته في: طبقات الصوفية (ص ١٢٣)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٢٣١)، الرسالة القشيرية (ص ٣١)، صفة الصفوة، ج ٤ (ص ١١٠)، كشف المحجوب (ص ٣٣٨) من الترجمة العربية.

(٢) وردت في الرسالة القشيرية (ص ٣١).

(٣) وردت في كشف المحجوب (ص ٤١٢) من الترجمة العربية.

لأن قلبي ما زال متعلقًا بالدنيا والجاه، فلا يفيد حديثي ولا يؤثر في القلوب، والكلام الذي لا يؤثر في القلوب يكون استهزاء بالعلم واستخفافاً بالشرعية، والكلام مسلم به لشخص يكون في صمته خلل الدين، فإذا تكلم ارتفع الخلل^(١).

وقال: لا يجوز لشخص قط الحديث في العلم طالما يردد كلام شخص آخر وينوب عنه، ولا يجوز له أن يتكلم طالما لا يرى أنه فرض واجب عليه حتى تكون له الصلاحية، قالوا: وما علامة الصلاحية؟ قال: كل كلام يقوله لا يحتاج إلى تكراره ثانية ولا يتدبر أثناءه ما سيقوله بعده. وكان قوله عن الغيب كما لو أنه كان يرد إليه من الغيب فيقوله وهو فان.

سئل: ما بال كلام السلف أنفع للقلوب من كلامنا؟ قال: لأنهم تكلموا لعز الإسلام ونجاة النفس، ورضا الحق، ونحن نتكلم لعز النفس، وطلب الدنيا، وقبول الخلق^(٢).

وقال: ينبغي أن يكون علم الحق (تعالى) أطيب لك من علم الخلق، أي أن معاملتك الحق في الخلاء أفضل من معاملته في الملاء.

وقال: من تحقق في حال لا يستطيع أن يخبر عنه^(٣).

وقال: لا تفش على أحد ما هو واجب أن يخفى عليك أيضًا.

وقال: لا تفش على أحد ما تحب أن يكون مستورًا^(٤).

وقال: من رأيت فيه خصلة من الخير، فلا تفارقه فإنه سرعان ما يصيبك من بركاته^(٥).

وقال: أوصيكم بشيئين: صحبة العلماء، واحتمال الجهال^(٦).

وقال: اصحبوا الصوفية للسلبيات عندهم أعذار، والحسنات لديهم ليس لها أهمية كبرى حتى يعظموك بها فتقع في الخطأ.

وقال: من نظر سير السلف عرف تقصيره، ورأى تخلفه عن درجات الرجال^(٧).

وقال: ما أطيب ما يصلك بيسر ودون عناء، لكن العناء يكمن في طلب الزيادة.

وقال: شكر النعمة هو أن ترى نفسك متطفلاً.

(١) وردت في كشف المحجوب (ص ٣٣٨) من الترجمة العربية.

(٢) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٢٥)، حلية الأولياء، ج ١ (ص ٢٣١)، صفة الصفوة، ج ٤ (ص ١٠٩)، كشف المحجوب (ص ٣٣٨) من الترجمة العربية.

(٣) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٢٧).

(٤) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٢٨)، الرسالة القشيرية (ص ٣١)، صفة الصفوة، ج ٤ (ص ١١٠).

(٥) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٢٨).

(٦) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٢٧).

(٧) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٢٧)، الرسالة القشيرية (ص ٣١)، صفة الصفوة، ج ٤ (ص ١٠٩).

وقال: من استطاع منكم ألا يعمى رؤية نقصان نفسه فليفعل^(١).

وقال: من ظن نفسه خيراً من نفس فرعون فقد أظهر الكبر^(٢).

وقال: إذا رأيت ثملاً يترنح فاحذر ألا تلومه خشية أن تبغى بمثل ذلك^(٣).

وقال: الملامة ترك السلامة.

وسئل عن الملامة فقال: الطريق إليها شاق على الخلق ومغلق لكنني أقول طرفاً منها فصفة الملامة رجاء المرجئة وخوف القدريّة^(٤) أي أن المرجئة قد وصلوا في الرجاء إلى حد أنهم كانوا يلومون كل شخص بسببه والقدريّة وصلوا في الخوف إلى حد أنهم كانوا يلومون كل الخلق بسببه. فكانت الملامة في كل حال هي مرمى السهام.

وقال: لا أعرف الطبع الحسن إلا في السخاوة، ولا أعف الطبع السيئ إلا في البخل.

وقال: من عد نفسه ملكاً فهو بخيل.

وقال: حال الفقير في تواضعه، فإذا تكبر بفقره فقد أربى على الأغنياء في التكبر^(٥).

وقال: التواضع ألا ترى شخصاً محتاجاً إليك في الدنيا أو الآخرة.

وقال: مقام الفقير الحق على قدر تواضعه وكلما ترك التواضع ترك جملة الخيرات.

وقال: ميراث الذكاء العجب ولهذا أفسح أغلب المشايخ والأكابر هذا الطريق للأذكياء.

وقال: كثرة الأكل أساس كل الأدواء وهي آفة الدين.

وقال: من شغله طلب الدنيا عن الآخرة ذل إما في الدنيا وإما في الآخرة^(٦).

وقال: حقّر الدنيا تعظم في عين أهلها وتصبح مالكا لها.

وقال عبد الله بن المبارك: أوصاني حمدون (قائلاً): لا تغضب من أجل الدنيا ما

استطعت^(٧).

سئل: من العبد؟ فقال: من لا يعبد ولا يحب أن يُعبد.

(١) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٢٩)، صفة الصفوة، ج ٤ (ص ١١٠).

(٢) وردت في حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٢٣١)، الرسالة القشيرية (ص ٣١).

(٣) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٢٦)، الرسالة القشيرية (ص ٣١)، صفة الصفوة، ج ٤ (ص ١٠٩).

(٤) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٢٩)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٢٣١).

(٥) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٢٨).

(٦) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٢٧).

(٧) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٢٦)، حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٢٣١)، الرسالة القشيرية (ص ٣١).

قالوا: ما الزهد؟ قال: الزهد - عندي - ألا تكون بما في يدك أسكن قلباً منك بما في ضمان سيدك^(١).

سئل عن التوكل فقال: التوكل هو إن كنت قد اقترضت عشرة آلاف درهم، فلا تنظر إليها قط، ولا تياس من الحق (تعالى) في أدائها.

وقال: التوكل هو الاعتماد على الله.

وقال: إن استطعت أن تدع أمرك إلى الله أفضل من أن تشغل بالحيلة والتدبير.

وقال: لا يجزع من المعصية إلا من يتهم الله^(٢).

وقال: لا يفرح إبليس ورفاقه بشيء قط كثلاثة أشياء: أولها: أن يقتل مؤمن مؤمناً، والثاني: من يموت كافراً، والثالث: قلب خاف الفقر.

قال عبد الله بن المبارك: مرض حمدون، فقالوا له: أوصي الأبناء، فقال: أخشى عليهم من الغنى أكثر من الفقر، وقال لعبد الله وهو في النزاع: لا تدعني وسط النساء. (رحمة الله عليه).



(١) وردت في طبقات الصوفية (ص ١٢٨).

(٢) وردت في حلية الأولياء، ج ١٠ (ص ٢٣١).

ذكر منصور بن عمار^(١)

قدس الله روحه العزيز



هو السابق إلى طريق المعنى، وناقد نقد التقوى، هو جوهر خاتم الهداية، وأمين عالم الولاية، هو المشهود بالأسرار منصور بن عمار (رحمة الله عليه).

كان من حكماء المشايخ ومن سادات الطائفة، وله في الموعظة كلمات عالية بحيث لم يعظ أحد أفضل منه وله بيان شافٍ، وكان كاملاً في أنواع العلوم وماهراً في المعاملة والمعرفة ويبلغ بعض المتصوفة بشأته، وكان من أصحاب العراقيين^(٢)، ومقبولاً لدى الخراسانيين.

وكان من مرو ويقال إنه كان من بوشنج^(٣)، وأقام في البصرة.

وكان سبب توبته أنه وجد في الطريق ورقة كُتِبَ عليها «بسم الله الرحمن الرحيم»، فرفعها، فلم يجد لها موضعاً فأكلها، فرأى في المنام هاتفاً يقول له: «إنا فتحنا عليك باب الحكمة باحترامك لتلك الورقة»^(٤) ثم ارتاض مدة وبدأ مجالسه.

يروى أن شاباً انشغل بمجلس لهو، وأعطى غلاماً أربعة دراهم ليشتري نقلاً للمجلس، فمر الغلام في طريقه على مجلس منصور بن عمار، وقال: أتوقف برهة (لأسمع) ما يقول. وكان منصور يطلب شيئاً من أجل فقير فقال: من يعطيني أربعة دراهم، أدعوه له أربع دعوات، قال الغلام: ليس هناك شيء أفضل من أن أعطيه هذه الدراهم الأربعة حتى يدعو لي تلك الدعوات، فأعطاه الدراهم، قال منصور: أي دعاء تريده الآن؟ قال: أولاً: أُنحَر، ثانياً: أن يتوب الحق (تعالى) على

(١) منصور بن عمار: هو أبو السري منصور بن عمار بن كثير، من أهل مرو ومن قرية داندانقان، وقيل إنه من بوشنج. أقام بالبصرة وكان من الواعظين الأكابر.

انظر ترجمته في: طبقات الصوفية (ص ١٣٠)، حلية الأولياء، ج ٩ (ص ٣٢٥)، الرسالة القشيرية (ص ٣٠)، صفة الصفوة، ج ٢ (ص ٢٠٤)، كشف المحجوب (ص ٢٣٨) من الترجمة العربية.

(٢) العراقيون: أي صوفية العراق. وقد ورد هذا الاصطلاح في ترجمة الرسالة القشيرية عدة مرات. د. استعلامي (ص ٨٥٧).

(٣) بوشنج: بلدة نزهة خصبة، في واد مشجر، من نواحي هراة بينهما عشرة فراسخ، وقد تسمى "بوشنج" وقد تعرب فيقال "فوشنك". نقلاً عن طبقات الصوفية (ص ١٣٠).

(٤) وردت في الرسالة القشيرية (ص ٣٠).

سيدي، ثالثاً: أن يعوض لي الأربعة دراهم، رابعاً: أن يرحمني ويرحم سيدي ويرحمك ورواد مجلسك. فدعا منصور بن عمار وعاد الغلام إلى الدار، قال السيد: أين كنت؟ وما أحضرت؟ قال: كنت في مجلس منصور بن عمار، واشتريت أربع دعوات بتلك الدراهم الأربعة، قال السيد: أي دعوات، فشرح الغلام حاله، فقال السيد: حررتك وتبت، بالله لا أشرب الخمر قط، وسأمنحك أربعمئة درهم عوضاً عن الأربعة دراهم، أما الدعاء الرابع فلا يتعلق بي، فقد فعلت ما بيدي، ورأى في المنام ليلاً أن هاتفاً قال: فعلت ما بيدك بلؤمك، وفعلنا أيضاً ما حولته إلينا بكرمنا، ورحمنك والغلام ومنصور ورواد مجلسه.

يروى أن منصور كان يعظ في المجلس يوماً فأعطاه رجل رقعة كان قد كتب عليها هذا البيت:

وغير تقي يأمر الناس بالتقي طبيب يداوي الناس وهو مريض

فأجاب منصور: أيها الرجل، اعمل بقولي؛ لأن قولي وعلمي يفيدانك ولا يضرك تقصيري في العمل.

وقال: خرجت ذات ليلة، ووصلت إلى باب دار، وكان شخص يناجي (قائلاً): إلهي، هذا الذنب سرى علي لا لأنني أخالف أمرك، لكنه كان من نفسي التي قطعت طريقي وعاونها إبليس، لا جرم وقعت في الذنب، فإذا لم تأخذ بيدي من يأخذ بها، وإذا لم تغفر لي فمن يغفر لي؟ عندما سمعت هذا بدأت أقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ﴿وَقُوْذُهَا النَّاسُ وَالْجَّارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(١) ثم سمعت صوتاً، إذ بينما كنت أمر على باب تلك الدار في الصباح سمعت صياحاً، فقلت: ما الحال؟ كانت هناك عجوز قالت: لقد مات ابني بالأمس خشية من الحق تعالى، حيث قرأت آية في الحي، فصاح صيحة وأسلم الروح. قال منصور: قرأتها أنا وقتلته.

يروى أن هارون الرشيد قال له: أسألك مسألة وأمهلك ثلاثة أيام لتجيبها، قال: قل، قال: من أعلم الخلق ومن أجهلهم؟ فنهض منصور وخرج ثم عاد من الطريق، وقال: يا أمير المؤمنين، اسمع الإجابة، أعلم الخلق مطيع خائف، وأجهلهم عاص آمن.

وقال: سبحان الله الذي جعل قلوب العارفين أوعية ذكره، وقلوب الزاهدين موضع التوكل، وقلوب المتوكلين منبع الرضا، وقلوب الفقراء مكان القناعة، وقلوب أهل الدنيا موطن الطمع^(٢).

(١) سورة التحريم: الآية (٦).

(٢) وردت في حلية الأولياء، ج٩ (ص ٣٢٧).

وقال: الناس على قسمين: مفتقر إلى الله فهو في أعلى الدرجات بحكم ظاهر الشريعة، وآخر لا يرى الافتقار لما علم أنه لن يكون هناك سوى ما قسمه الحق (تعالى) في الأزل من خلق ورزق وأجل وحياة وسعادة وشقاء، فهو في عين الافتقار إلى الحق، وفي عين الاستغناء عن غير الحق^(١).

وقال: إن الحكمة تنطق في قلوب العارفين بلسان التصديق، وفي قلوب الزاهدين بلسان التفضيل، وفي قلوب العباد بلسان التوفيق، وفي قلوب المريدين بلسان التفكير، وفي قلوب العلماء بلسان التذكير^(٢).

وقال: ما أطيب المرء الذي يقوم في الصباح وتكون العبادة حرفته، والفقر رغبته، والعزلة شهوته، والآخرة همته، والموت فكرته، والتوبة عزمه، وقبول التوبة والرحمة أمله.

وقال: الناس على قسمين: عارف بنفسه، وعارف بربه، العارف بنفسه شغله المجاهدة والرياضة، والعارف بالحق شغله العبادة وطلب الرضا^(٣).

وقال: قلوب العباد كلها روحانية، وطالما وجدت الدنيا سبيلاً إليها امتنع منها روحها^(٤).

وقال: أحسن لباس العبد التواضع والانكسار، وأحسن لباس العارفين التقوى^(٥).

وقال: من يشغل بذكر الخلق تقاعد عن ذكر الحق.

وقال: سلامة النفس في مخالفتها وبلاؤك في متابعتها^(٦).

وقال: من جزع من مصائب الدنيا تحولت مصيبته في دينه^(٧).

وقال: دع شهوات الدنيا، لترتاح من عنائها، واحفظ لسانك حتى تتحرر من طلب المعذرة.

وقال: فرحك بالمعصية حين تقدر وتظفر أسوأ من معصيتك.

وقال: كلما تحل بمكان اضرب حجراً على الحديد، فتحدث شرارة عنهما، فإن احترق قل له: اعتذر فإنك كنت قد اعترضت قافلة.

(١) وردت في كشف المحجوب (ص ٣٣٩) من الترجمة العربية.

(٢) وردت في حلية الأولياء، ج٩ (ص ٣٢٧).

(٣) وردت في كشف المحجوب (ص ٣٣٩) من الترجمة العربية مع الاختلاف.

(٤) وردت في حلية الأولياء، ج٩ (ص ٣٢٧) مع الاختلاف.

(٥) وردت في حلية الأولياء، ج٩ (ص ٣٢٧)، الرسالة القشيرية (ص ٣٠).

(٦) وردت في حلية الأولياء، ج٩ (ص ٣٢٧).

(٧) وردت في حلية الأولياء، ج٩ (ص ٣٢٧)، الرسالة القشيرية (ص ٣٠).

لما مات منصور، رآه أبو الحسن الشعراني^(١) في المنام، فقال: ما فعل الله بك؟ قال: قال: أأنت منصور بن عمار؟ فقلت له: بلى، قال: أنت الذي كنت تزهد الناس في الدنيا وترغب أنت فيها! قلت: يا إلهي إن الأمر على هذا النحو، ولكن ما اتخذت مجلساً إلا بدأت بالثناء عليك ثناءً جميلاً وثنيت بالصلاة على نبيك ﷺ وثلث بنصيحة الخلق، فقال (الحق تعالى): صدقت، ثم أمر الملائكة (قائلاً): ضعوا له كرسيًا حتى يمجدني في سمائي بين الملائكة، كما كان يمجدني في أرضي بين آدميين^(٢) (رحمة الله عليه).



(١) أبو الحسن الشعراني: هو إسماعيل بن محمد النيسابوري، محدث النصف الأول من القرن الرابع الهجري وزاهده م٣٤٧هـ. د. استعلامي (ص ٨٥٧).

(٢) وردت في الرسالة القشيرية (ص ٣٠)، صفة الصفوة، ج ٢ (ص ٢٠٥).



المراجع العربية



- (١) إبراهيم الدسوقي شتا: التصوف عند الفرس، بدون تاريخ.
- (٢) أبو إسحق الشيرازي: طبقات الفقهاء، بغداد ١٣٥٦هـ.
- (٣) أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي: الأسماء والصفات، راجعه وقدم له وعلق فهارسه حامد إبراهيم أحمد، الطبعة الأولى، بدون تاريخ.
- (٤) أبو بكر محمد الكلّابادي: التعرف لمذهب أهل التصوف، تحقيق د. عبد الحلّيم محمود، طه عبد الباقي سرور، القاهرة ١٣٨٠هـ - ١٩٨٠م.
- (٥) أبو بكر بن هداية الله الحسبي الملقب بالمصنف: طبقات الشافعية، بغداد ١٣٥٦هـ.
- (٦) أبو الحسن علي بن عثمان الجلابي الهجويري: كشف المحجوب، دراسة وترجمة وتعليق د. إسعاد عبد الهادي قنديل، بيروت ١٩٨٠م.
- (٧) أبو عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية، تحقيق نور الدين شربية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، الطبعة الثالثة.
- (٨) أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، القاهرة ١٣٥٠هـ، الجزء الأول.
- (٩) أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري: الرسالة القشيرية، وعليها هوامش من شرح زكريا الأنصاري، القاهرة، طبعة محمد علي صبيح.
- (١٠) أبو نصر السراج الطوسي: اللمع، تحقيق د. عبد الحلّيم محمود، طه عبد الباقي سرور، مصر ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م.
- (١١) أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لبنان، بدون تاريخ.
- (١٢) أحمد بن حنبل، المسند، بيروت، ١٩٨٥م.

- (١٣) د. أحمد معوض: شاعر الصوفية فريد الدين العطار وقصته رابعة وبكتاش، بدون تاريخ.
- (١٤) أحمد ناجي القيسي: عطار نامه أو كتاب فريد الدين العطار النيسابوري وكتابه منطق الطير، بغداد ١٣٨٨ هـ - ١٩٧٨ م، الطبعة الأولى.
- (١٥) إدوارد جرانفيل برون: تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، ترجمة إبراهيم أمين الشواربي، ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م.
- (١٦) د. أمين عبد المجيد بدوي: القصة في الأدب الفارسي، بدون تاريخ.
- (١٧) د. بديع محمد جمعة: منطق الطير لفريد الدين العطار النيسابوري، مراجعة وتقديم: د. عبد النعيم محمد حسنين، ١٩٧٥ م، الطبعة الأولى.
- (١٨) جراهام بيلي: الأدب الإسلامي في شبه القارة الهندية الباكستانية، تقديم وتعليق وترجمة د. حسين مجيب المصري، القاهرة ١٩٨٨ م.
- (١٩) جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي: تلبس إبليس، بدون تاريخ.
- (٢٠) جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي: صفة الصفوة، ضبطها وكتب هوامشها إبراهيم رمضان وسعيد اللحام، بيروت ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م، الطبعة الأولى.
- (٢١) د. حسن أحمد محمود، د. أحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ١٩٨٠ م، الطبعة الرابعة.
- (٢٢) رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسي، ترجمة محمد موسى هنداي، بدون تاريخ.
- (٢٣) سعد بن عبد الله أبو خلف الأشعري: كتاب المقالات والفرق، تصحيح وتقديم وتعليق د. محمد جواد مشكور، طهران ١٩٦٣ م.
- (٢٤) شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، كتاب معجم البلدان، تصحيح وترتيب محمد أمين الخانجي الكتبي، ١٣٢٣ هـ، الطبعة الأولى.
- (٢٥) عبد الرحمن بدوي: شهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية، الكويت ١٩٧٨ م، الطبعة الرابعة.
- (٢٦) عبد الوهاب عزام: التصوف وفريد الدين العطار، القاهرة ١٩٤٥ م.
- (٢٧) د. قاسم غني: تاريخ التصوف في الإسلام، ترجمة صادق نشأت، راجعه أحمد ناجي القيسي، د. محمد مصطفى مراد، ١٩٧٢ م، الجزء الثاني.
- (٢٨) محمد الحسيني الزبيدي: إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، دار الفكر، بدون تاريخ.

- (٤١) رضا زاده شفق: تاريخ ادبيات ايران، تهران، ١٣٢١ هـ. ش.
- (٤٢) رضا قليخان هدايت: مجمع الفصحاء، ١٢٧١ هـ، الجزء الأول.
- (٤٣) رضا قليخان هدايت: تذكرة رياض العارفين، ١٣١٦ هـ. ش، چاپ دوم.
- (٤٤) زهراي خانلر (کيا) فرهنگ ادبيات فارسي دري ايران، بدون تاريخ.
- (٤٥) سعيد نفيسي جستجو در احوال و آثار تاريخي فريد الدين عطار نيشابوري، تهران ١٣٢٠ هـ. ش.
- (٤٦) سيد جعفر سجادي فرهنگ لغات واصطلاحات وتعبيرات عرفاني ١٣٥٤ هـ. ش. چاپ دوم.
- (٤٧) سيد علير ضائقوي: تذكرة نويسي دو هند وپاکستان، ١٣٤٣ هـ. ش. ١٩٦٤ م.
- (٤٨) شبلي النعماني: شعر العجم يا تاريخ شعرا وادبيات ايران، ترجمه سيد محمد تقی فخر داعي گيلاني، تهران، ١٣٢٧ هـ. ش. جلد دوم.
- (٤٩) عبد الرحمن بن أحمد جامي: نفحات الأنس من حضرات القدس، تصحيح مهدي توحيد پور، ١٣٣٦ هـ. ش.
- (٥٠) علي أكبر دهخدا: لغت نامه زیر نظر دکنز محمد معين ودکتر سيد جعفر شهيدی، ١٣٤٥ هـ. ش.
- (٥١) غلام سرور صاحب مرحوم لاهوري: خزينة الأصفياء، جلد دوم، بدون تاريخ.
- (٥٢) فريد الدين عطار: تذكرة الأولياء، بسعي واهتمام وتصحيح رنولد آلن نیکلسون، ليدن ١٣٢٢ هـ، ١٩٠٥ م.
- (٥٣) فريد الدين عطار: تذكرة الأولياء، بررسي، تصحيح متن، توضيحات د. محمد استعلامي، ٢٥٣٥ شاهنشاهي چاپ دوم.
- (٥٤) قاسم غنی: بحث در آثار وأفکار وأحوال حافظ، قسمت أول تاريخ تصوف در اسلام وتطورات وتحولات مختلفة آن از صدر إسلام تا عصر حافظ، جلد دوم.
- (٥٥) قاسم غنی السابق، طبعة تهران، ١٣٤٠ هـ. ش.
- (٥٦) محمد بن عمر الرادوياني: كتاب ترجمان البلاغة، باهتمام وتصحيح أحمد آتش، استانبول، ١٩٤٩ م.
- (٥٧) محمد بن المنور بن أبي سعيد بن أبي الخير: أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد، باهتمام د. ذبيح الله صفا، تهران ١٣٣٢ هـ. ش.

الفهرس



٧	تقديم
١١	تمهيد عن الكاتب ومؤلفاته
١٣	دراسة في كتاب «تذكرة الأولياء»
١٥	عنوان الكتاب وتاريخ تأليفه
٢٣	موضوع الكتاب
٣٣	القسم الأول:
٣٧	أولاً: الروايات الشفوية:
٤٠	ثانياً: الكتب المدونة:
٤٧	منهج «فريد الدين العطار» في «تذكرة الأولياء
٤٩	المنهج
٦١	الأسلوب
٨١	تذكرة الأولياء : دراسة مقارنة
٨٣	تذكرة الأولياء بين كتب التصوف العربية والفارسية
٩٥	مكانة الكتاب بين مصادر التصوف الإسلامي
١١٥	القيمة الأدبية والعلمية للكتاب
١٢٧	الخاتمة
١٣٣	القسم الثاني:
١٣٥	مقدمة مخطوطات الكتاب وطبعاته
١٤١	نص الترجمة لكتاب «تذكرة الأولياء»

١٤٥	مقدمة
١٥١	ذكر ابن محمد جعفر الصادق
١٥٧	ذكر أويس القرني
١٦٥	ذكر الحسن البصري
١٧٩	ذكر مالك بن دينار
١٨٥	ذكر محمد بن واسع
١٨٧	ذكر حبيب العجمي
١٩٢	ذكر أبي حازم المكي
١٩٤	ذكر عتبة الغلام
١٩٦	ذكر رابعة
٢٠٨	ذكر الفضيل بن عياض
٢١٨	ذكر إبراهيم بن أدهم
٢٣٥	ذكر بشر الحافي
٢٤٢	ذكر ذي النون المصري
٢٥٩	ذكر أبي يزيد البسطامي
٢٩١	معراج الشيخ أبي يزيد
٢٩٥	مناجاة الشيخ أبي يزيد
٢٩٨	ذكر عبد الله بن المبارك
٣٠٦	ذكر سفيان الثوري
٣١٣	ذكر شقيق البلخي
٣١٩	ذكر الإمام أبي حنيفة
٣٢٥	ذكر الإمام الشافعي
٣٣٠	ذكر الإمام أحمد بن حنبل
٣٣٥	ذكر داود الطائي
٣٤١	ذكر حارث المحاسبي
٣٤٦	ذكر أبي سليمان الدارائي
٣٥٣	ذكر محمد بن السماك

٣٥٥	ذكر محمد بن أسلم
٣٥٨	ذكر أحمد بن حرب
٣٦١	ذكر حاتم الأصم
٣٦٨	ذكر سهل بن عبد الله التستري
٣٨٣	ذكر معروف الكرخي
٣٨٨	ذكر سري السقطي
٣٩٧	ذكر فتح الموصلي
٣٩٩	ذكر أحمد بن أبي الحواري
٤٠١	ذكر أحمد بن خضرويه
٤٠٧	ذكر أبي تراب النخشي
٤١١	ذكر يحيى بن معاذ
٤٢٤	ذكر الشاه شجاع الكرمانى
٤٢٨	ذكر يوسف بن الحسين
٤٣٤	ذكر أبي حفص الحداد
٤٤٢	ذكر حمدون بن القصار
٤٤٦	ذكر منصور بن عمار
٤٥١	ثبت بأسماء المصادر والمراجع
٤٥٣	المراجع العربية:
٤٥٥	المراجع الفارسية:
٤٥٧	الرسائل:
٤٥٧	دوائر المعارف:
٤٥٩	الفهرس

انتهى الجزء الأول
من كتاب
(تذكرة الأولياء)
ويليه الجزء الثاني

